تمهيد البداية

في أصول التفسير

جمعه

أبو فاطمة عصام الدين بن إبراهيم النقيلي

غفر الله له ولوالديه ومشائخه

والمسلمين

آمين



تمهيدُ البدايةِ

فِي أصولِ التَّفسيرِ

جمعهُ

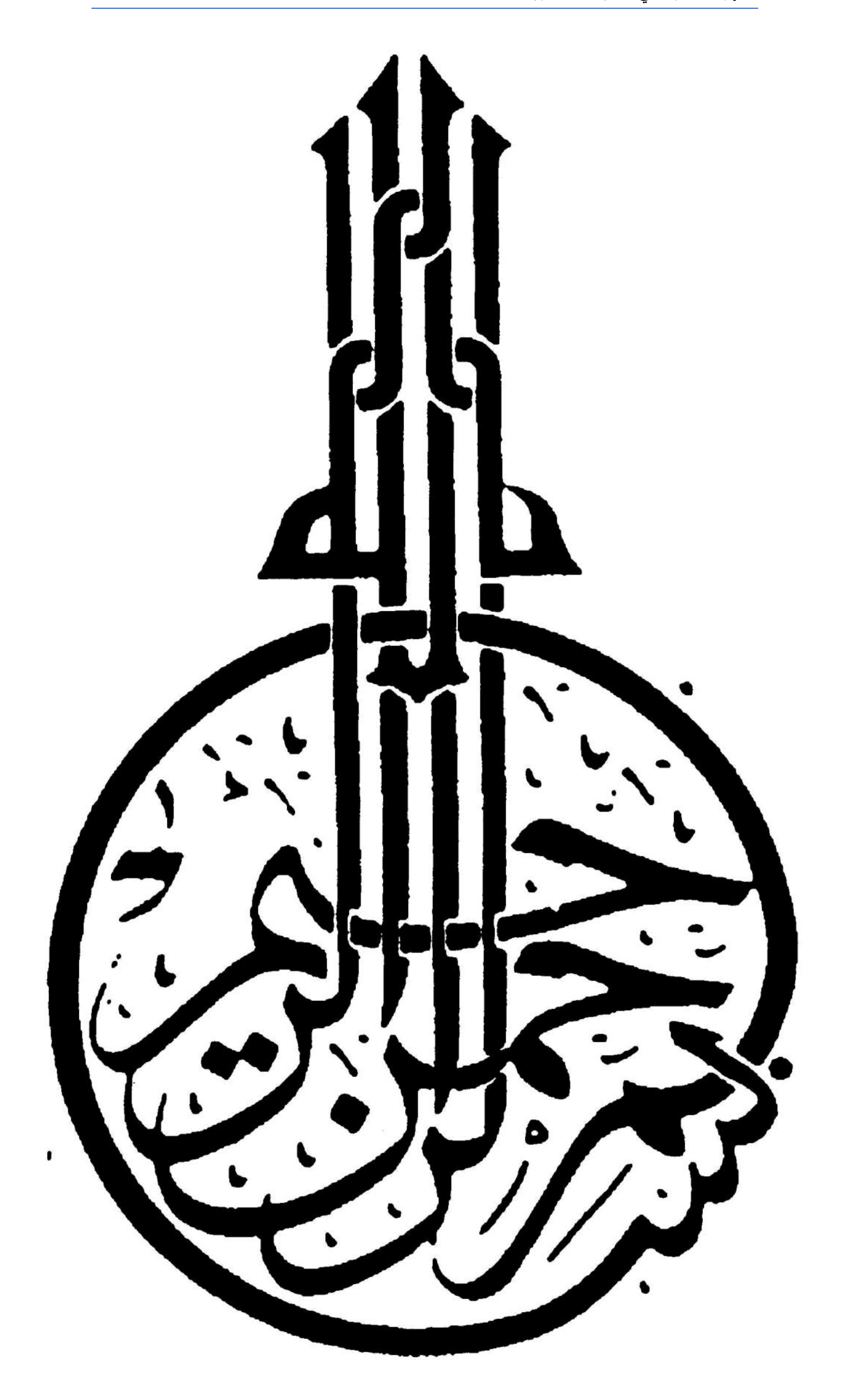
أبو فاطمة عصام الدِّين بن إبراهيم النقيلي

غفر الله له ولوالديه ومشايخه

والمسلمين

آمين

تمهيد البداية
في
أصول التفسير


بسم الله الرحمن الرحيم

يا ناظرًا فيمَا عمدتُ لجمعـــــــهِ *

عذرًا فإنَّ أخَا البصيرةِ يعــــــــذرُ

واعلمْ بأنَّ المرءَ لوْ بلغَ المــدَى *

في العُمرِ لاقَى الموتَ وهوَ مقصِّرُ

فإذَا ظفرتَ بزلَّةٍ فافْتحْ لـــــــهَا *

بابَ التَّجاوزِ فالتَّجاوزُ أجـــــــدرُ

ومنَ المحالِ بأنْ نرَى أحدًا حوَى *

كُنهَ الكَمالِ وذَا هوَ المتعـــــــذِّرُ

فالنَّقصُ فِي نفسِ الطَّبيعةِ كائــنٌ *

فبنُو الطَّبيعةِ نقصهمْ لَا يُنكــــــرُ(1)

(1) عَلَمُ الدِّينِ الْقَاسِمُ بْنُ أَحْمَدَ الأَنْدَلُسِيُّ، كتاب "أسنى المقاصد وأعذب الموارد" حديث رقم 34 مقطوع.

البابُ الأَوَّلُ

وفيهِ فصلانِ:

1) مقدِّمةٌ.
2) تمهيدٌ.

الحمدُ للهِ العليمِ يسَّـــــرَا * فهمَ الكتابِ للَّذِي تبصَّـــرَا

وأكملُ الصَّلاةِ والسَّـــلامِ * علَى النَّبيِّ صفوةِ الأنـــامِ

والآلِ والصَّحبِ وكلِّ مقتدِ * بهمْ وللدِّينِ الحنيفِ مهتدِ[1].

(1) الأرجوزة المنظَّمة لخلاصة المقدِّمة لأبي سهيل أنور عبد الله بن عبد الرَّحمن الفضفري.

مقدِّمةٌ

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسنَا ومنْ سيِّئاتِ أعمالنَا، منْ يهدهِ اللهُ فلَا مضلَّ لهُ ومنْ يضللْ فلَا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنَّ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ ﷺ.

يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقّ تُقَاتِهِ وَلَاتَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ(102)[1].

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَّاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا و بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَّنِسَاءً وَّاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُون بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيبًا(1)[2].

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُم وَيَغْفِرْلَكُم ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُّطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71)[3].

---

(1) [آل عمران: 102].

(2) [النساء: 1].

(3) [الأحزاب: 70 - 71].

أمَّا بعدُ: "فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ تعالَى، وخيرُ الهديِ هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرُّ الأمورِ محدثاتهَا، وكلَّ محدثةٍ بدعةٍ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٍ، وكلَّ ضلالةٍ فِي النَّارِ[1].

وبعدُ: فهذا كتابٌ فِي علمِ أصولِ التَّفسيرِ، جعلتهُ تمهيدًا للمبتدئينَ، يدرسونهُ قبلَ البدايةِ فِي هذَا الفنِّ، وقدْ جمعتُ فيهِ مبادئَ علمِ أصولِ التَّفسيرِ العشرةِ، وأهمِّ الكتبِ المفردةِ فِي علمِ أصولِ التَّفسيرِ وفِي علمِ التَّفسيرِ التِي يُنصحُ بهَا، ومناهجِ وطرقِ المفسِّرينَ، والتَّعريفِ بهمْ، ثمَّ ألحقتُ مَا سبقَ بشرحِ رسالةِ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى والمسمَّاتِ بـ"أصولٍ وكلِّياتٍ منْ أصولِ التَّفسيرِ وكلِّياتهِ، لَا يستغنِي عنهَا المفسِّرُ للقرآنِ"، وجعلتُ لهَا مقدِّمةً خاصَّةً تراهَا فِي محلِّهَا، وأرجُو منَ اللهِ تعالَى أنْ ينفعنِي بهذَا الكتابِ وسائرِ المسلمينَ، وأنْ يجعلهُ خالصًا لوجههِ الكريمِ، آمينَ.

وكتبَ

أبو فاطمة عصام الدِّين.

(1) أما بعدُ فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وإنَّ أفضلَ الهديِ هديُ محمدٍ ، وشرَّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ أتتْكم الساعةُ بغتةً - بُعِثْتُ أنا والساعةُ هكذا - صبحَتْكم الساعةُ ومستْكم - أنا أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسِه - من ترك مالًا فلأهلِه - ومن ترك دَيْنا أو ضَياعًا فإليَّ وعليَّ - وأنا وليُّ المؤمنين.

الراوي : جابر بن عبدالله، المصدر : صحيح الجامع، الرقم: 1353.

التخريج : أخرجه النسائي في (المجتبى) (3/ 188)، وأحمد (3/ 310) باختلاف يسير.

تمهيدٌ

اعلمْ أيُّها المباركُ وفَّقني اللهُ تعالَى وإيَّاكَ لمَا يحبُّ ويرضَى، أنَّ لكلِّ فنٍّ عشرةُ مبادئَ ينبغِي لطالبِ ذلكَ العلمِ أنْ يدرسهَا، وهذَا كيْ يتصوَّرَ ذلكَ الفنَّ قبلَ الشُّروعِ فيهِ، وقدْ جمعهَا الصبَّانُ[1] رحمهُ اللهُ تعالَى فِي أبياتٍ ثلاثٍ وقالَ:

إنَّ مبـــــادِي كلِّ فنٍّ عشرهْ * الحــــــدُّ والموضوعُ ثمَّ الثَّمرهْ

نسبةٌ وفضلهُ والواضــــــعْ * والاسمُ الاستمدادُ حكمُ الشَّــارعْ

مسائلٌ والبعضُ بالبعضِ اكتفَى* ومنْ درَى الجميعَ حازَ الشَّرفَــا.

وقالَ الشيخُ أحمدُ بنِ يحيَى[2]:

مَـــنْ رامَ فنًّـــــا فلْيُقدّمَ أوّلَا * علمًا بحدِّهِ وموضوعٍ تـــــلَا

وواضــــــعٍ ونِسْبةٍ ومَا استمدْ * منهُ وفضلِه وحكمٍ يُعتمـــــــدْ

واسمٍ ومَا أفادَ والمســــــائلْ * فتلكَ عشرٌ للمُنَى وســــائلْ

وبعضُهمْ منهَا علَى البعضِ اقتصرْ * ومَنْ يكنْ يدرِي جميعَهَا انتصرْ.

فإنَّ ضَبْطَ طالبِ العلمِ لهذهِ المبادئِ والأصولِ يُيَسِّرُ عليهِ فهمَ المسائلِ والفروعِ فِي فنِّهِ، ويعينهُ فِي إرجاعِ كلَّ فرعٍ إلَى أصلهِ، وذلكَ لارتكازهِ علَى ركنٍ شديدٍ فلَا بيتَ لمنْ لَا أساسَ لهُ.

---

(1) محمد بن علي الصبان، أبو العرفان، المصري، المتوفى في القاهرة سنة 1206 هـ، وهو صاحب الحاشية على شرح الأشموني في النحو، والحاشية على شرح السعد التفتازاني في المنطق، وله عدة كتب ومنظومات.

(2) الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس، المقّري، التِّلمساني، المالكي، المؤرخ الأديب المتوفى سنة 1040 هـ، وهو صاحب الكتاب القيم المشهور "نفح الطِّيب في غصن الأندلس الرطيب".

وتتمحورُ هذهِ المبادئُ العشرةُ فِي التَّعريفِ بحدِّ علمٍ بعينهِ لغةً واطلاحًا، فحدُّ العلمِ لوْ ظُبطَ يقطعُ علَى الطَّالبِ نصفَ المسافةِ، وكذلكَ موضوعهُ، ليفهمَ الطَّالبُ لُبَّ هذَا العلمِ، فثمرتهُ، وهكذَا إلَى بقيَّةِ المبادئِ العشرةِ.

1) فالحدُّ: هوَ التَّعريفُ بعلمٍ بعينهِ وتمييزهُ عنْ غيرهِ.

2) والموضوعُ: هوَ فهمُ موضوعِ هذَا العلمِ، أيْ عنْ أيِّ شيءٍ يحكِي، هلْ فِي الحديثِ أمِ الفقهِ أمِ الأصولِ أمِ التَّفسيرِ؟

3) الثَّمرةُ: أيْ الاستفادةُ والنَّتيجةُ منْ تعلُّمِكَ لهذَا العلمِ، فلَابدَّ للطَّالبِ ألَّا يشغلَ نفسهُ بشيءٍ لَا ثمرةَ فيهِ، ثمَّ إنَّهُ بعلمِ الطَّالبِ بثمرةِ علمٍ معيَّنٍ يزدادُ حرصًا علَى تعلُّمهِ، وتعلُو همَّتهُ.

4) النِّسبةُ: أيْ معرفةُ نسبةِ هذَا العلمِ إلَى غيرهِ، هلْ ينتسبُ للعلمِ الشَّرعِي، أوْ لعلمِ الطبِّ أوِ الهندسةِ أوْ غيرهِ، وكلُّ هذَا يعينُ طالبَ العلمِ علَى فهمِ مَا يريدُ أنْ يتعلَّمهُ.

5) الفضلُ: وهوَ فضلُ هذَا العلمِ وفضلُ تعلُّمهِ والخيرِ الذِي ينجرُّ عنْ ذلكَ، وفضلهُ بينَ سائرِ الفنونِ الأخرَى، وهذَا يُشجِّعُ طالبَ العلمِ علَى الاستزادِ منهُ.

6) الواضعُ: أيْ منْ وضعَ هذَا العلمَ وأسَّسهُ، وهذَا لازمٌ أيضًا، فكيفَ لعالمٍ أنْ يُدرِّسَ علمًا لَا يعرفُ واضعهُ، ولَا يردُّ الفضلَ لهُ فِي ذلكَ، فهذَا نوعٌ منَ الجحودِ.

7) الاسمُ: أيْ مَا هيَ أسماءُ هذَا الفنِّ، ومَا الاسمُ الذِي يُطلقُ عليهِ عندَ المتقدِّمينَ وعندَ المتأخِّرينَ منْ أهلِ الصَّنعةِ، وهذَا مفيدٌ جدًّا وهوَ منْ معرفةِ مصطلحاتِ أهلِ الصَّنعةِ فِي بابهِمْ.

8) الاستمدادُ: أيْ منْ أينَ يستمدُّ هذَا العلمُ أصولهُ، ومادَّتهُ، فكلُّ علمٍ لَا بدَّ لهُ منْ أصولٍ يستمدُّ منهَا أحكامهُ، وهوَ عبارةٌ عنْ دليلٍ لهذَا العلمِ.

9) حكمُ الشَّارعِ: أيْ معرفةُ مَا حكمُ الشَّريعةِ فِي تعلُّمِ هذَا العلمِ، هلْ هوَ منَ الفروضِ الأعيانِ، كالمعلومِ منَ الدِّينِ بالضَّرورة، أمْ منْ فروضِ الكفاياتِ، ومَا الحدُّ الذِي يسقطُ بهِ الواجبُ الفرديُّ والإثمُ الجماعيُّ، ويَعلمُ أيضًا هلْ هذَا العلمُ محرَّمٌ تعلُّمهُ أوْ لَا، فالسِّحرُ يحرمُ تعلُّمهُ، وكثيرٌ منَ العلومِ يُكرهُ تعلُّمهَا كعلومِ الصُّوفيَّةِ ومنْ سارَ علَى دربهِمْ.

10) المسائلُ: أيْ معرفةُ مسائلِ هذَا العلمِ إجمالًا، وهوَ يساعدُ علَى فهمِ فروعِ العلمِ، فبمعرفتكَ لمسائلِ علمٍ، فقدْ حوْصَلتهُ ومَا بقيَ إلَّا التَّفريعُ.

****

مبادئُ علمِ أصولِ التَّفسيرِ

(1) الحدُّ أيِ التَّعريفُ:

أوَّلًا لفظُ أصولُ التَّفسيرِ مركَّبٌ إضافِي، وهوَ فِي ذاتهِ، اسمٌ لعلمٍ خاصٍ، ولكنَّ تركيبهُ الإضافِي هوَ جزءٌ منْ حقيقتهِ، فهوَ ليسَ اسماً خالصاً، فقدِ انقطعَ عنْ أصلِ الإضافةِ التِي تتكوَّنُ منَ مضافٍ ومضافٍ إليهِ، ولذَا كانَ لابدَّ منْ تعريفهِ تعريفُ جزأيهِ، ولهذَا السَّببِ نتَّجهُ إلَى تعريفِ هذينِ الجُزأينِ[1]:

أ) الأصولُ لغةً:

فالأصولُ جمعُ أصلٍ، والأصلُ فِي اللُّغةِ يطلقُ باطلاقاتٍ متعدِّدةٍ، وأهمُّهَا أمرانِ همَا:

1) مَا يبنَى عليهِ غيرهُ حسًّا أوْ معنىً، أوْ مَا يرتكزُ عليهِ الشَّيءُ ويبنَى، فالأوَّلُ كبناءِ الحائطِ علَى الأساسِ، والثَّانِي كبناءِ الحكمِ علَى الدَّليلِ، فكلٌّ منَ الأساسِ والدَّليلِ أصلٌ، لأنَّهُ يبنَى عليهِ غيرهُ.

2) منشَأُ الشَّيءِ، مثلَ القطنِ فإنَّهُ أصلُ المنسوجاتِ لأنَّهَا تنشأُ منهُ، والبرتقالُ أصلُ العصيرِ، وهكذَا.

---

(1) الإتقان – ج 2 – صـ 489.

ب) الأصلُ فِي الاصطلاحِ:

فإنَّهُ يطلقُ بإطلاقاتٍ أربعةٍ وهيَ:

1) الصُّورةُ المقيسُ عليهَا:
كقولكَ الخمرُ أصلُ النَّبيذِ، أيْ بمعنَى أنَّ الخمرَ مقيسٌ عليهَا النَّبيذُ فِي الحرمةِ.

2) القاعدةُ: كقولهِ تعالَى:
(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبَرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ) [البقرة: 127]
وقواعدُ البيتِ هيَ أساسهُ وأساسهُ هوَ أصلهُ.

3) الرَّاجحُ: ومثالهُ الأصلُ فِي الكلامِ الحقيقةُ، أيِ الرَّاجحُ عندَ السَّامعِ هوَ المعنَى الحقيقِي دونَ المعنَى المجازِي لعدمِ القرينةِ الدَّالةِ عليهِ.

4) الدَّليلُ: كقولكَ الأصلُ فِي تحريمِ الرِّبَا قولهُ تعالَى:

(وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) [البقرة:275].

أوِالأصلُ فِي تحريمِ الزِّنَا قولهُ تعالَى:

(وَلَا تقربُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)[الإسراء:32] **أيْ أنَّ الدَّليلَ علَى تحريمِ كلٍّ منَ الرِّبَا والزِّنَا، النَّصُّ القرآنِي الذِي يُعدُّ دليلًا لكلٍّ منهمَا.**

ومنْ هذَا يتبيَّنُ أنَّ المعنَى اللُّغوِي للأصلِ، متسِّقٌ معَ المعنَى الاصطلاحِي، وذلكَ لأنَّ علمَ أصولِ التَّفسيرِ عندَ الأصوليينَ هوَ مَا يُبنَى عليهِ التَّفسيرُ حسبَ قواعدهِ ومناهجهِ.

قالَ ابنُ فارسٍ:الأسُّ هوَ الأصلُ...ووردتْ فِي لفظةِ الأسِّ آيةٌ قالَ تعالَى (أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ).[التوبة:109]

وقالَ عنِ القاعدةِ: هيَ تدلُّ علَى ثبوتِ الشَّيءِ علَى الشَّيءِ، ومنهُ قواعدُ البيتِ، وردَ فِي القرآنِ آياتٌ عنْ مادةِ القواعدِ بهذَا المعنَى قالَ تعالَى (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ)[1].[البقرة:127]

ج) التَّفسيرُ لغةً:

مصدرٌ علَى وزنِ "تفعيلٌ"، وهوَ منَ الفسْرِ وهوَ البيانُ والكشفُ، ويقالُ هوَ مقلوبُ السَّفرِ، تقولُ أسفرَ الصُّبحُ إذَا أضاءَ، وقيلَ مأخوذٌ منَ التَّفسرةِ وهيَ اسمٌ لمَا يعرفُ بهِ الطَّبيبُ المرضَ[2].

فالتَّفسيرُ مأخوذٌ منَ الفسْرِ الذِي هوَ كشفُ المغطَّى[3]

أوِ اظهارُ المعنَى المعقولِ[4]، وبينَ المادَّتينِ "الكشفُ" و"الإظهارُ" تلازمٌ، إلَّا أنَّ الرَّاغبَ الأصفهانِي أضافَ أنَّ الفسرَ يكونُ فِي بيانِ المعنَى المعقولِ.

قالَ فِي القاموسِ: "الفسرُ أيِ الإبانةُ وكشفُ المغطَّى".

يقالُ: أسفرَ الصُّبحُ إذَا أضاءَ[5].

ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا".[الفرقان:33]

---

(1) مقاييس اللغة عن الأساس لابن فارس.

(2) لسان العرب حرف الراء فصل الفاء ج5 ص55

(3) المفردات ص381

(4) قاموس المعاني. وانظر تفسير الضَّحَّاك المجلد الأوَّل، المقدمة صـ 15.

(5) السابق.

د) التَّفسيرُ اصطلاحًا:

بيانُ كلامِ اللهِ تعالَى؛ أوْ تقولُ: علمٌ يعرفُ بهِ فهمُ كلامِ اللهِ تعالَى، وبيانُ معانيهِ، واستخراجُ أحكامهِ وحكَمهِ[1].

وقدْ عرَّفهُ بعضُ العلماءِ كمَا نقلَ السُّيوطِيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ "الإتقانُ" بأنَّهُ: علمُ نزولِ الآياتِ وشؤونهَا وأقاصيصهَا، والأسبابِ النَّازلةِ فيهَا، ثمَّ ترتيبُ مكيِّهَا ومدنيِّهَا، ومحكمهَا ومتشابههَا، وناسخهَا ومنسوخهَا، وخاصِّهَا وعامِّهَا، ومطلقهَا ومقيَّدهَا، ومجملهَا ومفسَّرهَا، وحلالهَا وحرامهَا، ووعدهَا ووعيدهَا، وأمرهَا ونهيهَا، وعِبَرِهَا وأمْثَالِهَا[2].

وقالَ الزُّرقانيُّ فِي تعريفهِ للتَّفسيرِ: هوَ علمٌ يُبْحثُ فيهِ عنْ أحوالِ القرآنِ الكريمِ، منْ حيثُ دلالتهِ علَى مرادِ اللهِ تعالَى بقدرِ الطَّاقةِ البشريَّةِ[3].

هـ) معنَى أصولِ التَّفسيرِ بالمعنَى الإضافِي:

بعدَ أنِ انتهينَا منَ الكلامِ علَى اللَّفظينِ المتضَايفينِ فِي لفظِ (أصولِ التَّفسيرِ)، ننتقلُ إلَى توضيحِ مدلولِ هذَا المصطلحِ الذِي هوَ فِي ذاتهِ اسمٌ لعلمٍ خاصٍ.

إنَّ الفارقَ بينَ التَّفسيرِ وأصولهِ، هوَ أنَّ الأصولَ هيَ القواعدُ والضوابطُ التِي تحدُّ وتبيِّنُ الطَّريقَ الذِي يلتزمهُ المفسِّرُ فِي تفسيرِ الآياتِ الكريمةِ، وأمَّا التَّفسيرُ فهوَ إيضاحهَا وبيانهَا

---

(1) كتاب التَّفسير – مجموعة زاد للعلوم الشَّرعية – إشراف: محمد صالح المنجد.

(2) الإتقان ج2 ص491.

(3) مناهل العرفان ج1 ص423.

معَ التَّقيُّدِ بهذهِ القواعدِ والضَّوابطِ.

ويفرِّقُ العلماءُ بينَ القواعدِ والضَّوابطِ، بأنَّ الأولَى تجمعُ فروعاً منْ أبوابٍ شتَّى، بينمَا الثَّانيةُ تجمعُ فروعاً منْ بابٍ واحدٍ، لذلكَ تقعُ جملةٌ منَ الضَّوابطِ تحتَ القاعدةِ الواحدةِ،

مثالُ ذلكَ: القاعدةُ تقولُ: يفسَّرُ القرآنُ بالقرآنِ ثمَّ بالسُّنَّةِ ثمَّ بأقوالِ الصَّحابةِ ثم بأقوالِ التَّابعينَ ثمَّ بعلومِ اللُّغةِ العربيَّةِ، ثمَّ تأتِي الضَّوابطُ بعدَ ذلكَ فتقولُ: لَا يجوزُ تفسيرُ القرآنِ بالقراءةِ الشَّاذَّةِ المضادَّةِ لمَا تواترَ، ولَا يجوزُ تفسيرهُ بالسُّنَّةِ غيرِ الثَّابتةِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، ولَا يجوزُ تفسيرهُ بقولِ الصَّحابِي إنْ خالفَ القرآنَ أوِ السُّنَّةِ الثَّابتةِ، أو جمعًا منَ الصَّحابةِ.

و) التَّدبُّرُ: وهوَ نوعٌ منَ التَّفسيرِ، قالَ اللهُ تعالَى فِي حقِّهِ: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا" [النساء:82]، والمتدبِّرُ فِي قولهِ تعالَى: "طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ" [الصافات:65]، فمنْ تدبَّرَ قولهُ "رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ" ولمْ يكنْ أحدٌ رآهَا منَ الإنسِ، فسوفَ يدركُ بشاعةَ وقبحَ تلكَ الرُّؤُوسِ بحيثُ لوْ تخيَّلَ شكلهَا لتخيَّلَ أبشعَ صورةٍ ممكنةٍ، وتصوُّرهُ صحيحٌ لذلكَ يكونُ التدبُّرُ نوعًا منَ التَّفسيرِ، ويُمنعُ هذَا النَّوعُ منَ التدبُّرِ الذِي يقودُ إلَى التَّصَوُّرِ فِي ذاتِ اللهِ تعالَى خاصةً.

فائدة: لَا يكونُ التَّدبُّر إلَّا بعدَ تعلُّمِ التَّفسيرِ، فلَا يجوزُ عقلًا أنْ تدبَّر رسالةً بغيرِ لغتكَ، فالأصلُ أنْ تفسِّرَ الرِّسالةَ بلغةٍ تفهمهَا ثمَّ بعدَ ذلكَ تتدبَّرُ معانيهَا.

وبعدَ مَا سبقَ يمكننَا تعريفُ علمِ "أصولِ التَّفسيرِ" بأنَّهُ:

العلمُ الذِي يُبيِّنُ المناهجَ التِي انتهجهَا وسارَ عليهَا المفسِّرونَ الأوائلُ فِي استنباطِ الأسرارِ القرآنيَّةِ، والتَّعرُّفِ علَى الأحكامِ الشَّرعيَّةِ منَ النُّصوصِ القرآنيَّةِ التِي تُبنَى عليهَا، وتلمسُ المصالحَ التِي قصدَ إليهَا القرآنُ الكريمُ.

فهوَ مجموعةٌ منَ القواعدِ والضَّوابطِ التِي تبيِّنُ للمفسِّرِ طُرُقَ استخراجِ أسرارِ هذَا الكتابِ الحكيمِ، بحسبِ الطَّاقةِ البشريَّةِ، وتُظهرُ مواطنَ العبرةِ منْ أنبائهِ، وتكشفُ مراتبَ الحججِ والأدلَّةِ منْ آياتهِ، فعلَى هذَا تعينُ علومُ أصولِ التَّفسيرِ علَى فهمِ معانيهِ وإدراكِ عبرهِ وأسرارهِ، وترسمُ المناهجَ لتعرُّفهَا، وتضعُ القواعدَ والضَّوابطَ ليسيرَ المفسِّرُ علَى منهاجهَا القويمِ فِي سيرهِ أثناءَ تفسيرهِ.

واختصارًا فعلمُ أصولِ التَّفسيرِ هوَ مجموعةٌ منَ القواعدِ والضَّوابطِ أوِ المرتكزاتِ الأساسيَّةِ التِي تحكمُ المفسِّرَ فِي عمليَّةِ تفسيرِ القرآنِ الكريمِ.

وإنَّ مثلَ علمِ أصولِ التَّفسيرِ بالنِّسبةِ للتَّفسيرِ، كمثلِ علمِ النَّحوِ بالنِّسبةِ للنُّطقِ العربِي، فهوَ ميزانٌ يضبطُ اللِّسانَ والقلمَ، ويمنعهمَا منَ الخطأِ فِي آخرِ الكلمِ، فكذلكَ علمُ أصولِ التَّفسيرِ فهوَ ميزانٌ للمفسِّرِ فيضبطهُ ويمنعهُ منَ الخطأِ فِي التَّفسيرِ، ولأنَّهُ ميزانٌ فإنَّهُ يتبيَّنُ بهِ التَّفسيرُ الصَّحيحُ منَ التَّفسيرِ الفاسدِ، كمَا يُعرفُ بالنَّحوِ الكلامُ الصَّحيحُ منَ الكلامِ غيرِ الصَّحيحِ.

(2) موضوعهُ:

موضوعُ علمِ أصولِ التَّفسيرِ هوَ: كلامُ اللهِ تعالَى[1] منْ حيثُ كيفيَّةِ بيانِ معانيهِ، والأصولِ والقواعدِ المُرْتَكَزِ عليهَا فِي ذلكَ.

(3) ثمرتهُ أيْ فائدتهُ:

الثَّمرةُ المرجوَّةُ منْ تعلُّمِ علمِ أصولِ التَّفسيرِ هوَ: أوَّلًا: التَّفسيرُ الصَّحيحُ لكلامِ اللهِ تعالَى، ثانيًا: التذكُّرُ والإعتبارُ، ومعرفةُ هدايةِ اللهِ تعالَى فِي العقائدِ والعباداتِ والمعاملاتِ والأخلاقِ، ليفوزَ الأفرادُ والمجاميعُ بخيرِ العاجلةِ والآجلةِ[2]، ثالثًا: حصولُ القدرةِ والملكةِ لاستنباطُ الأحكامِ منهُ للحوادثِ التِي لمْ ينزلْ فيهَا حكمٌ مسبقًا، قالَ الطَّبرِيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي قولهِ تعالَى: "وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ"، وكلُّ مستخرجٍ شيئًا كانَ مستترًا عنْ أبصارِ العيونِ أوْ عنْ معارفِ القلوبِ، فهوَ لهُ: "مستنبطٌ"، يقالُ: "استنبطتَ الرَّكيةَ "[3]، إذَا استخرجتَ ماءهَا،"ونَبَطتهَا أنبطهَا"، و"النَّبَطُ"، الماءُ المستنبطُ منَ الأرضِ، ومنهُ قولُ الشَّاعرِ:[4]

قَرِيبٌ ثَرَاهُ مَا يَنَالُ عَدُوُّهُ * لَهُ نَبَطًا آبِي الهَوَانِ قَطُوبُ[5].

يعني: بِـ " النَّبطِ"، الماءُ المستنبطُ[6].

(1) الإتقان ج2 ص496.
(2) مناهل العرفان ج1 ص429.
(3) "الركية": البئر تحفر.
(4) هو كعب بن سعد الغنوي، أو: غريقة بن مسافع العبسي، وانظر تفصيل ذلك في التعليق على الأصمعيات.
(5) الأصمعيات: 103 ، وتخريجه هناك. وقوله: "قريب الثرى" ، يريدون كرمه وخيره. و"الثرى": التراب الندي ، كأنه خصيب الجناب. وقوله: "ما ينال عدوه له نبطًا" ، أي لا يرد ماءه عدو ، من عزه ومنعته ، / إذا حمى أرضًا رهب عدوه بأسه."آبى الهوان" لا يقيم على ذل. و"قطوب": عبوس عند الشر.
(6) تفسير الطبري: سورة النساء آية 83.

(4) فضلهُ:

قالَ الأصبهانِيُّ: أشرفُ صناعةٍ يتعاطاهَا الإنسانُ، تفسيرُ القرآنِ الكريمِ، ذلكَ أنَّ شرفَ الصِّناعةِ يكونُ إمَّا بشرفِ موضوعهَا أوْ بشرفِ غرضهَا أوْ بشدَّةِ الحاجةِ إليهَا، والتَّفسيرُ قدْ حازَ الشَّرفَ منَ الجهاتِ الثَّلاثِ، فموضوعهُ كلامُ اللهِ تعالَى، والغرضُ منهُ الوصولُ إلَى السعادةِ الحقيقيَّةِ التِي لَا تفنَى، وأمَّا منْ جهةِ شدَّةِ الحاجةِ، فلأنَّ كلَّ كمالٍ دينِيٍّ أوْ دنياوِيٍّ عاجلٍ أوْ آجلٍ مفتقرٌ إلَى العلومِ الشَّرعيَّةِ والمعارفِ الدِّينيَّةِ، وهيَ متوقفَّةٌ علَى العلمِ بكتابِ اللهِ تعالَى[1] اهـ، وكلُّ هذَا لَا يتمُّ إلَّا بتعلُّمِ أصولِ هذَا الفنِّ.

وقالَ الطَّبرِيُّ مبيِّنًا فضلَ هذَا العلمِ: اعلمُوا عبادَ اللهِ أنَّ أحقَّ مَا صُرفتْ إلَى علمهِ العنايةُ وبلغتْ فِي معرفتهِ الغايةُ، مَا كانَ للهُ فِي العلمِ بهِ رضًا، وللعالمِ بهِ إلَى سبيلِ الرُّشدِ هدًى، وأنَّ أجمعَ ذلكَ لِبَاغِيهِ، كتابُ اللهِ تعالَى الذِي لَا ريبَ فيهِ، وتنزيلهُ الذِي لَا مريةَ فيهِ، الفائزِ بجزيلِ الذُّخرِ وسنَى الأجرِ تاليهِ، الذِي لَا يأتيهِ الباطلُ منْ بينِ يديهِ ولَا منْ خلفهِ، تنزيلٌ منْ حكيمٍ حميدٍ[2].

(5) نسبتهُ:

علمُ التَّفسيرِ منَ العلومِ الشَّرعيَّةِ، وهوَ منَ العلومِ بمنزلةِ الإنسانِ منَ العينِ، والعينِ منَ الإنسانِ،[3].

(1) الإتقان ج2 ص496 باختصار.
(2) تفسير الطبري ج1 ص5.
(3) غرائب القرآن ج1 ص5.

(6) واضعهُ:

النَّبيُّ ﷺ، فقدْ كانَ أولَّ مفسِّرٍ لكتابِ اللهِ تعالَى، يبيِّنُ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ علَى قلبهِ[1]، لقولهِ تعالَى: "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"[النحل:44] وهوَ الذِي قعَّدَ القواعدَ لهذَا العلمِ حيثُ فسَّرَ القرآنَ بالقرآنِ أوَّلًا، ثمَّ بمَا أوحَى اللهُ تعالَى إليهِ فِي تفسيرِ بعضِ الآياتِ وهوَ مَا يُسمَّى "التَّفسيرُ بالسَّنةِ".

(7) اسمهُ:

علمُ أصولِ التَّفسيرِ، وعلمُ قواعدِ التَّفسيرِ، وعلمُ التَّفسيرِ، ويُسمَّى علمُ أصولِ التَّفسيرِ بالتَّفسيرِ، لأنَّ التَّفسيرَ فرعٌ منهُ فالأصلُ أولَى بالتَّسميةِ، وسميَّ بعلمِ التَّفسيرِ لمَا فيهِ منَ الكشفِ والتَّبيينِ، واختصَّ بهذَا الاسمِ دونَ بقيِّةِ العلومِ، معَ أنَّهَا مشتملةٌ علَى الكشفِ والتَّبيينِ، لجلالةِ قدرهِ، وقصدهِ إلَى تبيينِ مرادِ اللهِ تعالَى منْ كلامهِ، فكانَ كأنَّهُ هوَ التَّفسيرُ وحدهُ دونَ مَا عداهُ[2].

ومنْ أسمائهِ: علمُ التَّأويلِ، والتَّأويلُ مأخوذٌ منَ الأولِ وهوَ الرُّجوعُ[3].

قالَ فِي القاموسِ: آلَ إليهِ أولًا ومآلًا: رجعَ، وآلَ عنهُ: ارتدَّ، يُقالُ: أوَّلَ الكلامَ تأوُّلًا وتأوَّلهُ: دبَّرهُ وفسَّرهُ[4].

ومنهُ قولُ النَّبيِّ ﷺ فِي ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُ يدعُو لهُ: "اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ"[5].

---

(1) الوحي والقرآن لسرحان ص126.
(2) مناهل العرفان ج1 ص429.
(3) مجموعة زاد للعوم الشَّرعية – كتاب التَّفسير – محمد صالح المنجد.
(4) قاموس المعاني.
(5) أخرجه الشَّيخان.

ولكنَّ هذَا التَّعريفُ للتَّأويلِ كانَ لسلفنَا الصَّالحِ أي (التَّأويلُ)، فخلفَ منْ بعدهمْ خلفٌ، حرَّفُوا الكلمَ عنْ مواضعهِ، ونسُوا حظًّا ممَّا ذُكِّرُوا بهِ، فصارَ بعدَ ذلكَ لفظُ التَّأويلِ علَى ثلاثةِ أقسامٍ، قسمانِ ممدوحانِ وقسمٌ مذمومٌ مردودٌ؛

تعريفُ التَّأويلِ فِي اصطلاحِ السَّلفِ، ولهُ معنيانِ ممدوحانِ:

1- يُطلقُ التَّأويلُ بمعنَى التَّفسيرِ والبيانِ وإيضاحِ المعانِي المقصودةِ منَ الكلامِ، فيقالُ: تأويلُ الآيةِ كذَا؛ أيْ معناهَا.

2- يطلقُ بمعنَى المآلِ والمرجعِ والعاقبةِ وتحقُّقِ الأمرِ، فيقالُ هذهِ الآيةُ مضَى تأويلهَا، كقولهِ تعالَى: "وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حقًّا" [يوسف:100].

تعريفُ التَّأويلِ ومعناهُ عندَ الخلفِ منْ أهلِ الكلامِ:

3- عندَ الخلفِ منْ علماءِ الكلامِ والأصولِ والفقهِ الذِينَ ينتسبونَ لعلمِ الكلامِ: هوَ صرفُ اللَّفظِ عنِ المعنَى الرَّاجحِ إلَى المعنَى المرجوحِ، لدليلٍ يقترنُ بهِ.

وهذَا التَّأويلُ مرفوضٌ عندَ السَّلفِ واعتبروهُ تحريفًا باطلاً فِي بابِ الصفاتِ الإلهيةِ، وقدْ ظهرَ هذَا المعنَى للتَّأويلِ متأخرًا عنْ عصرِ الرَّسولِ ﷺ وعصرِ الصَّحابةِ، بلْ ظهرَ معَ ظهورِ الفرقِ، ودخلُوا منهُ إلَى تحريفِ النُّصوصِ تحريفًا معنويًّا، وكانتْ لهُ نتائجُ خطيرةٌ؛ إذْ كلَّمَا توغَّلُوا فِي تأويلِ المعانِي وتحريفهَا بعدُوا عنِ المعنَى الحقِّ الذِي تهدفُ إليهِ النُّصوصُ(1).

(1) انظر مجموع الفتاوي 4/68 – 70، والصَّواعق المرسلة 1/175 – وشرح الطَّحاوية 231 – 236.

وخلاصةً أنواعُ التَّأويلِ ثلاثةٌ:

اثنانِ منهَا تأويلاتٌ صحيحةٌ ممدوحةٌ وهيَ:

1) التَّأويلُ بمعنَى: التَّفسيرُ.

2) وتأويلُ الأمرِ: وقوعهُ.

3) والنَّوعُ الثَّالثُ منَ التَّأويلِ هوَ التَّأويلُ الباطلُ الفاسدُ وهوَ: صرفُ اللَّفظِ عنِ المعنَى الرَّاجحِ إلَى المعنَى المرجوحِ.

وهوَ مَا يُعبَّرُ عنهُ "بالتَّحريفِ المعنويِّ".

والتَّحريفُ لغةً هوَ: التَّغييرُ والتَّبديلُ، وتحريفُ الكلامِ عنْ مواضعهِ: تغييرهُ[1].

والتَّحريفُ اصطلاحًا هوَ: العدولُ باللَّفظِ عنْ جهتهِ إلَى غيرهَا[2].

والتَّحريفُ ينقسمُ إلَى ثلاثةِ أقسامٍ: 1 - التَّحريفُ الإملائِيُّ، 2 - والتَّحريفُ اللَّفظِيُّ، 3 - والتَّحريفُ المعنوِيُّ.

1) التَّحريفُ الإملائيُّ هوَ:

تغييرُ اللَّفظِ كتابةً، وهذَا لَا يكونُ طبعًا إلَّا فِي الكتبِ، ويستحيلُ علَى المعطِّلةِ[3] فعلهُ فِي كتابِ اللهِ تعالَى.

---

(1) مختار الصحاح 131.
(2) الدرر السنية.
(3) المعطلة هما فرقتانِ وهما الجهمية والمعتزلة.

2) أمَّا التَّحريفُ اللَّفظِي فهوَ:

تحريفُ الإعرابِ، فيكونُ بالزِّيادة أوِ النُّقصانِ فِي اللَّفظِ، أوْ بتغييرِ حركةٍ إعرابيَّةٍ، كقولهمْ فِي قولِ اللهِ تعالَى: "وكَلَّمَ اللهُ موسَى تَكْلِيمًا" [النساء:164]، بنصبِ الهاءِ فِي لفظِ الجلالةِ، والآيةُ فِي حقيقتهَا، "وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا"، برفعِ الهاءِ منْ لفظِ الجلالةِ، وأرادُوا بذلكَ نفيَ صفةِ الكلامِ عنِ اللهِ تعالَى بجعلِ اسمهِ مفعولًا منصوبًا لَا فاعلًا مرفوعًا، أيْ أنَّ موسَى هوَ منْ كلَّمَ اللهَ، ولمْ يكلمهُ اللهُ تعالَى، ولمَّا حرَّفهَا بعضُ الجهميَّةِ[1] هذَا التَّحريفَ، قالَ لهُ بعضُ أهلِ التَّوحيدِ: فكيفَ تصنعُ بقولهِ: "وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ" [الأعراب:143] فبُهِتَ المحرِّفُ.

3) وأمَّا التَّحريفُ المعنوِيُّ فهوَ:

صرفُ اللَّفظِ عنْ معناهُ الصَّحيحِ إلَى غيرهِ معَ بقاءِ صورةِ اللَّفظِ[2].

أوْ تقولُ: هوَ العدولُ بالمعنَى عنْ وجهِ حقيقتهِ، وإعطاءِ اللَّفظِ معنَى لفظٍ آخرٍ بقدرٍ مشتركٍ بينهمَا.

كتأويلهمْ معنَى "استوَى" بـ "استولَى" فِي قولهِ تعالَى: "الرَّحْمَنُ عَلَى العَرشِ اسْتَوَى" [طه:5].

ومعنَى اليدِ بالقدرةِ والنِّعمةِ فِي قولهِ تعالَى: "بَلْ يَدَاهُ مَبسُوطَتَانِ" [المائدة:164].

---

(1) الجهمية أو المُعَطِّلَة هي فرقة كلامية تنتسب إلى الإسلام، ظهرت في الربع الأول من القرن الهجري الثاني، على يد مؤسسها الجهم بن صفوان الترمذي وهو من الجبرية الخالصة، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله سلم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية. وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية.

(2) الصَّواعقُ المنزلة 1/201.

ففِي التَّحريفِ اللَّفظِيِّ يكونُ النُّطقُ بالكلمةِ معَ تغييرٍ فيهَا نطقًا، وفِي التَّحريفِ المعنوِيِّ يكونُ بإعطاءِ الكلمةِ معنًى آخرَ مخالفًا لحقيقتهَا، وهوَ المرَادُ بـ "التَّأويلِ الفاسدِ" الذِي هوَ صرفُ اللَّفظِ عنِ المعنَى الرَّاجحِ إلَى المعنَى المرجوحِ، وبهذًا تدركُ شرَّ هذَا النَّوعِ منَ التَّأويلِ.

(8) استمدادهُ:

يستمدُّ علمُ أصولِ التَّفسيرِ مادَّتهُ منْ علومِ القرآنِ، والسُّنَّةِ، وآثارِ الصَّحابةِ[1] واللُّغةِ، والنَّحوِ، والتَّصريفِ، وعلمِ البلاغةِ، وقواعدِ التَّرجيحِ، والقراءاتِ، و أسبابِ النُّزولِ، والنَّاسخِ والمنسوخِ[2].

(9) حكمهُ:

قدْ أجمعَ العلماءُ أنَّ علمَ أصولِ التَّفسيرَ منْ فروضِ الكفاياتِ، "بحيثُ لوْ تعلَّمهُ منْ يكفِي منَ الأمَّةِ سقطَ الإثمُ عنِ البقيَّةِ" ولمَّا كانَ علمُ أصولِ التَّفسيرِ أصلَ التَّفسيرِ، كانَ منْ أجلِّ العلومِ الثَّلاثةِ الشَّرعيَّةِ[3]، وهيَ: الحديثُ، والفقهُ، والتَّفسيرُ، وقيلَ أنَّ الحديثَ أجلُّهَا لأنَّهُ أعمُّ منْ التَّفسيرِ والفقهِ.

---

(1) مجموعة زاد للعلوم الشَّرعية، كتاب التَّفسير، محمد صالح المنجد.

(2) البرهان ج1 ص13.

(3) الإتقان ج2 ص495 – بتصرُّف.

(10) مسائلهُ:

مسائلُ علمِ أصولِ التَّفسيرِ هيَ: القواعدُ والضَّوابطُ التِي يُبنَى عليهَا التَّفسيرُ، ليُفهمَ القرآنُ فهمًا صحيحًا.

****

البابُ الثَّانِي

وفيهِ أربعةُ فصولٍ:

1) نشأةُ علمِ أصولِ التَّفسيرِ وتطوُّرِهِ.
2) ذكرُ بعضِ المؤلَّفاتِ المفردةِ فِي علمِ أصولِ التَّفسيرِ.
3) أشهرُ المفسِّرينَ وكتبِهِمْ، معَ بيانِ منهجِهِمْ.
4) تفاسيرٌ يجبُ التَّنبُّهُ لهَا.

نشأةُ علمِ أصولِ التَّفسيرِ وتطوُّرِهِ

مرَّ علمُ أصولِ التَّفسيرِ فِي نشأتهِ بخمسِ مراحلَ وهيَ:

أوَّلًا: تفسيرُ القرآنِ بالقرآنِ:

ارتبطَ علمُ أصولِ التَّفسيرِ بالضَّرورةِ بالقرآنِ الكريمِ، فنشأَ بدايةً معَ نزولهِ، فكانَ منهُ مَا هوَ مفصَّلٌ واضحٌ، ومنهُ مَا كانَ مجملًا ويحتاجُ إلَى بيانٍ، فتأتِي الكلمةُ أوِ الجملةُ مجملةً فتفسِّرهَا كلماتٌ بعدهَا.

كقولهِ تعالَى: "الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3)"، ثمَّ قالَ تعالَى: "يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4)" [سورة القارعة 1 : 4] **فَفُسِّرَ لفظُ القارعةِ بمَا بعدهُ.**

ومثلَ قولهِ تعالَى: "إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21)"[سورةُ المعارج 19:21] **فَفُسِّرَ لفظةَ "هلوعًا" بمَا بعدهَا منَ الكلامِ.**

وبيانُ القرآنِ الكريمِ بعضهُ بعضًا هوَ أوَّلُ طُرُقِ التَّفسيرِ، ولهُ أمثلةٌ كثيرةٌ منْ كتابِ اللهِ تعالَى(1).

(1) مجموعةُ زاد للعلوم الشَّرعيَّة – كتابُ التَّفسير – محمد صالح المنجِّد.

ثانيًا: تفسيرُ النَّبِيِّ ﷺ للقرآنِ الكريمِ:

كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يفسِّرُ مَا نزَلَ مجملًا منْ كتابِ اللهِ تعالَى، ويُقيِّدُ مطلقهُ، ويُخصِّصُ عمومهُ، كمَا فِي قولهِ تعالَى: "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءاتُوا الزَّكَاةَ" [سورةُ النِّساءِ: 77] فهذِهِ آيةٌ مجملةٌ، فسَّرهَا النَّبِيُّ ﷺ بالصَّلواتِ الخمسِ، وهيئةِ وعددِ ركعاتهَا، حتَّى قالَ ﷺ: "صلُّوا كمَا رأيتمونِي أصلِّي"[1].

وفسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الزِّيادةَ فِي قولهِ تعالَى: "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوْا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ" [سورة يونس: 26] بأنَّهُ النَّظرُ إلَى وجهِ اللهِ الكريمِ، كمَا فِي مسلمٍ[2].

ثالثًا: تفسيرُ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهمْ:

منْ أعظمِ التَّفاسيرِ تفسيرُ الصَّحابةِ، وكانَ منهجهُمُ البدءُ أوَّلًا بتفسيرِ القرآنِ بالقرآنِ، ثمَّ بسنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، ثمَّ بالنَّظرِ فِي غيرِ ذلكَ، كبيانِ أسبابِ النُّزولِ ونحوهِ، وكانُوا يُفسِّرونهُ باجتهادٍ منهمْ، أوْ بمَا يدلُّ عليهِ اللَّفظُ فِي كلامِ العربِ وبيانهِ[3].

---

(1) أخرجهُ البخاري.

(2) تفسيرُ ابن كثيرٍ قال: وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عفان، أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقال: " إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار؟ "، قال: " فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم ".
وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة، من حديث حماد بن سلمة، به .

(3) مجموعة زاد للعلوم الشَّرعية كتاب التَّفسيرِ – محمد صالح المنجد.

رابعًا: تفسيرُ التَّابعينَ:

ثمَّ تلقَّى التَّابعونَ هذَا العلمَ عنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، ففسَّروهُ علَى نحوِ تفسيرِ الصَّحابةِ، كمَا فِي قولِهِ تعالَى: "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ" [الطور:21] قالَ سعيدُ بنُ جبير: أيْ ألحقَ اللهُ تعالَى الذُّرِّيَّةَ بآبائهمْ فِي الدَّرجاتِ، معَ استحقاقهمْ دونَ درجاتِ الأباءِ فِي الجنَّةِ، تكريمًا للأباءِ وفضلًا منهُ سبحانهُ.

وقدِ استفادَ هذَا منِ ابنِ عبَّاسٍ فِي قولِهِ: إنَّ اللهَ ليرفعُ ذريَّةَ المؤمنِ فِي درجتهِ، وإنْ كانُوا دونهُ فِي العملِ، لتقرَّ بهمْ عينهُ(1).

وهذَا الحديثُ اختُلِفَ فِي رفعهِ ووقفهِ، والأقربُ أنَّهُ مرفوعٌ، لأنَّ الصَّحابيَّ الذِي لَا يُحدِّثُ بالإسرائيليَّات إذَا تكلَّمَ عنْ أمورِ الغيبِ يأخذُ حديثهُ حكمَ الرَّفعِ، هذَا فِي مَا قرَّرهُ أهلُ الحديثِ.

لأنَّ إخبارَهُ بذَلِكَ يَقْتَضِي مُخْبِرًا لهُ، ومَا لَا مجالَ للاجْتِهَادِ فيهِ يَقْتَضِي مُوقِفًا لِلقَائِلِ بهِ، ولا مَوقِفَ لِلصَّحَابَةِ فِي أمورِ الآخرةِ إلاَّ النَّبِيُّ ﷺ، وإذَا كانَ كذَلِكَ فلهُ حُكْمُ مَا لوْ قالَ: قالَ النَّبِيُّ ﷺ، فهوَ مرفوعٌ سواءٌ سمعَهُ منهُ أوْ بواسِطَةٍ(2).

---

(1) مجموعة زاد للعوم الشرعية – كتاب التفسير – محمد صالح المنجد.

(2) قال القرطبي: واختلف في معناه ؛ فقيل عن ابن عباس أربع روايات : الأولى أنه قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ، وتلا هذه الآية. ورواه مرفوعا النحاس في "الناسخ والمنسوخ" له عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقر بهم عينه ثم قرأ " والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان " الآية. قال أبو جعفر : فصار الحديث مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم وكذا يجب أن يكون ؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله وبمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه.

خامسًا: تفسيرُ العلماءِ:

ثمَّ درجَ علماءُ أهلِ السُّنَّةِ علَى نهجِ السَّابقينَ، يُفسِّرونَ القرآنَ بالقرآنِ والسُّنَّةِ، فأقوالِ الصَّحابةِ ثمَّ التَّابعينَ، فإنْ لمْ يجدُوا شيأً منْ ذلكَ، فسَّروهُ بالنَّظرِ فِي اللُّغةِ ومعانيهَا[1] ومنْ ثمَّ دُوِّنتْ أصولُ هذَا العلمِ الجليلِ فِي مؤلَّفاتٍ بناءً علَى طريقةِ السَّلفِ فِي أصولِ تفسيرهمْ للقرآنِ، ومنْ أبرزِ المؤلَّفاتِ والمؤلِّفينَ فِي فنِّ أصولِ التَّفسيرِ والتَّفسيرِ مَا سيأتِي ذكرهمْ فِي الفصولِ التَّاليةِ.

---

(1) مجموعة زاد للعلوم الشَّعية كتاب التَّفسير – محمد صالح المنجد.

****

المؤلَّفاتُ المفردةُ فِي علمِ أصولِ التَّفسيرِ معَ بيانِ شيءٍ منْ مناهجِ مؤلِّفيهَا

1) «مقدمّةٌ فِي أصولِ التَّفسيرِ»، لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ رحمهُ اللهُ تعالَى (ت 728 هـ).

وقدْ تناولَ فيهَا مسألةَ بيانِ النَّبيِّ ﷺ للقرآنِ، واختلافِ التَّنوُّع والتَّضادِ فِي تفسيرِ السَّلفِ، وسببِ الاختلافِ فِي التَّفسيرِ منْ جهةِ النَّقلِ ومنْ جهةِ الاستدلالِ، وأحسنِ طرقِ التَّفسيرِ، وبعضِ المسائلِ العلميَّةِ ذاتِ الصِّلةِ بأصولِ التَّفسيرِ، وهيَ مقدِّمةٌ وجيزةٌ ليستْ بطويلةٍ، ولكنَّهَا فتحتِ البابَ للتَّأليفِ فِي أصولِ التَّفسيرِ علَى جهةِ الاستقلالِ بعدَ ذلكَ، وقدْ حظيَتْ بشروحٍ كثيرةٍ منْ عددٍ منَ العلماءِ المعاصرينَ، فشرحهَا الشَّيخُ محمَّدٌ بنُ عثيمينَ رحمهُ اللهُ تعالَى، والدُّكتورُ مساعدُ الطيَّارُ، وشرحهُ مطبوعٌ وهوَ منْ أجودِ شروحهَا، وشرحهَا أيضًا الشَّيخُ صالحُ بنُ عبدِ العزيزِ آلِ الشَّيخِ وهوَ شرحٌ جيِّدٌ كذلكَ، ولهَا شروحٌ أخرَى.

2) «الفوزُ الكبيرُ فِي أصولِ التَّفسيرِ»، لأحمدَ بنِ عبدِ الرَّحيمِ الدَّهلوِي رحمهُ اللهُ تعالَى (ت 1176 هـ)

وهيَ رسالةٌ وجيزةٌ كتبهَا المؤلِّفُ بالفارسيَّةِ فلمْ تشتهرْ عندَ الباحثينَ، ثمَّ نقلهَا سلمانُ النَّدوِي للعربيَّة وطُبعتْ، ولكنَّ الكتابَ ليسَ دقيقًا فِي أصولِ التَّفسيرِ، فمعظمهُ بعيدٌ عنْ

أصولِ التَّفسيرِ وغالبهُ كلامٌ فِي مسائلِ علومِ القرآنِ، وقليلٌ منهُ فِي أصولِ التَّفسيرِ، وقدْ شُرِحَتْ هذهِ الرِّسالةُ تحتَ عنوانِ «العونُ الكبيرُ شرحُ الفوزِ الكبيرِ».

3) «التَّكميلُ فِي أصولِ التَّأويلِ»، لعبدِ الحميدِ الفراهِي رحمهُ اللهُ تعالَى (ت 1349 هـ)

وهوَ مؤلَّفٌ وجيزٌ غيرُ مكتملٍ، وفيهِ فوائدُ واجتهاداتٌ قيِّمةٌ للفراهِي، ويصلحُ للمتخصِّصينَ، لكنَّ طبعتهُ نادرةٌ ولَا تكادُ توجدُ فِي المكتباتِ.

وقدْ ذكرَ فيهِ صاحبهُ أصولًا راسخةً لتأويلِ القرآنِ إلَى صحيحِ معناهُ، منهَا: "موضوعهُ: الكلمةُ والكلامُ منْ حيثُ دلالتهِ علَى المعنَى المرادِ، وغايتهُ: فهمُ الكلامِ وتأويلهِ إلَى المعنَى المرادِ المخصوصِ، بحيثُ أنْ ينجلِي عنهُ الاحتمالاتُ، وهذَا منْ جهةِ العمومِ، فإنَّ قواعدَ التَّأويلِ تجرِي فِي كلِّ كلامٍ، ونفعهَا عامٌ وهوَ متعلِّقٌ بفهمِ معنَى الكلامِ منْ أيِّ لسانٍ كانَ، ولكنَّ النَّفعَ الأعظمَ منهُ فهمُ كتابِ اللهِ تعالَى ومعرفةُ محاسنهِ للاعتصامُ بهِ".

4) رسالة «أصولٌ فِي التَّفسيرِ»، للشَّيخِ العلَّامةِ محمَّدٍ بنِ عثيمينَ رحمهُ اللهُ تعالَى (ت 1421 هـ)

وهيَ رسالةٌ وجيزةٌ جمعَ فيهَا الشَّيخُ بعضَ قواعدِ أصولِ التَّفسيرِ وبعضَ أنواعِ علومِ القرآنِ، وهيَ مقرَّرةٌ فِي بعضِ المعاهدِ، وتدرَّسُ فِي بعضِ الدَّوراتِ العلميَّةِ، وقدْ شرحهَا الكثير.

5) «تفسيرُ القرآنِ أصولهُ وضوابطهُ»، للدُّكتورِ عليِّ بنِ سليمانَ العبيدِ[1].

وقدْ تناولَ فيهِ مؤلِّفهُ أهمَّ مسائلِ أصولِ التَّفسيرِ باختصارٍ، وهوَ كتابٌ جيِّدٌ فِي الموضوعِ، اشتملَ علَى خمسةِ فصولٍ هيَ:

أ) مدخلٌ فِي معنَى التَّفسيرِ وأصولهِ.

ب) مصادرُ التَّفسيرِ، وذكرَ منهَا تفسيرَ القرآنِ بالقرآنِ، وتفسيرَ القرآنِ بالسُّنَّةِ، وتفسيرَ القرآنِ بأقوالِ الصَّحابةِ، وتفسيرَ القرآنِ بأقوالِ التَّابعينَ، وتفسيرَ القرآنِ باللُّغةِ العربيَّةِ.

ج) ضوابطُ التَّفسيرِ، وذكرَ تحتهُ موضوعاتٍ مثلَ: معرفةِ موضوعِ القرآنِ وهدفهِ، ودراسةِ القرآنِ قبلَ البدءِ فِي تفسيرهِ، والإلمامِ بعاداتِ العربِ فِي الجاهليَّةِ، وأهميَّتِ التَّفسيرِ، ومعرفةِ عرفِ القرآنِ والمعهودِ منْ معانيهِ، ومراعاةِ دلالاتِ الألفاظِ ولوازمهَا، ومراعاةِ معرفةِ معانِي الأفعالِ منْ خلالِ مَا تتعدَّى بهِ، ومعرفةِ سياقِ الآيةِ والآياتِ التِي قبلهَا وبعدهَا، والنَّظرِ فِي مجموعِ الآياتِ ذاتِ الموضوعِ الواحدِ قبلَ البدءِ فِي تفسيرهَا وغيرِ ذلكَ منَ الضوابطِ المهمّةِ.

د) قواعدُ التَّفسيرِ، وذكرَ فيهَا إحدَى وعشرينَ قاعدةً.

هـ) شروطُ المفسِّرِ وآدابهِ، وذكرَ تحتهَا معظمهَا.

وخلاصةُ الكتابُ لطيفُ الحجمِ حيثُ يقعُ فِي (182) صفحةٍ، وقد تمَّ نشرهُ عام (1418هـ)، الطَّبعةُ الثَّانيةُ عام (1430هـ).

(1) أستاذ بقسم القرآن وعولومه بكليَّةِ أصولِ الدِّينِ – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّةِ.

****

أشهرُ المفسِّرينَ وكتبهمْ

وأحسنُ منْ كتبَ فِي علمِ التَّفسيرِ علَى هذَا النَّحوِ، حيثُ جمعَ فيهَا أصحابهَا مَا رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ والصَّحابةِ والتَّابعينَ ومَا اجتهدُوا فيهِ بأنفسهمْ، همْ:

1) الإمامُ محمَّدٌ بنُ جريرٍ الطَّبرِيِّ (رحمه الله تعالى):

وهوَ محمَّدٌ بنُ جريرٍ بنُ يزيدٍ بنُ كثيرٍ بنُ غالبٍ، الشَّهيرُ بالإمامِ أبِي جعفرَ الطبرِيِّ، (224 هـ - 310 هـ)، وهوَ مفسِّرٌ ومؤرِّخٌ وفقيهٌ، ولُقِّبَ بإمامِ المفسِّرينَ، ولدَ بآمُلَ، عاصمةُ إقليمِ طبرستانَ، وارتحلَ إلَى الرَّي وبغدادَ والكوفةَ والبصرةَ، وذهبَ إلَى مصرَ فسارَ إلَى الفسطاطِ فِي سنةِ (253 هـ) وأخذَ علَى علمائهَا علومَ مالكٍ والشَّافعِي وابنِ وهبٍ، ورجعَ واستوطنَ بغدادَ[1].

قالَ الخطيبُ البغدادِيُّ: "كانَ حافظًا لكتابِ اللهِ، عارفًا بالقراءاتِ، بصيرًا بالمعانِي، فقيهًا فِي أحكامِ القرآنِ، عالمًا بالسُّننِ وطرقهَا، وصحيحهَا وسقيمهَا، وناسخهَا ومنسوخهَا، عارفًا بأقوالِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، ومنْ بعدهمْ منَ المخالفين فِي الأحكامِ، ومسائلِ الحلالِ والحرامِ، عارفًا بأيَّامِ النَّاسِ وأخبارهمْ"[2]، عُرِضَ عليهِ القضاءُ فامتنعَ،

والمظالمُ فأبَى[3]، ولهُ العديدُ منَ التَّصانيفِ، يقولُ ياقوتُ الحمويُّ:"وجدنَا فِي ميراثِه منْ كتبهِ أكثرَ منْ ثمانينَ جزءًا بخطِّهِ الدَّقيقِ"[4]، ومنهَا: اختلافُ علماءِ الأمصارِ، وهوَ أوَّلُ كتابٍ ألَّفهُ، وكانَ يقولُ رحمهُ اللهُ تعالَى: لِي كتابانِ لَا يستغنِي عنهمَا فقيهٌ: الاختلافُ واللَّطيفُ"[5]، وألَّفَ رحمهُ اللهُ تعالَى "جامعَ البيانِ فِي تأويلِ القرآنِ"، المعروفِ بـ "تفسيرِ الطَّبرِيِّ" وتاريخِ الأممِ والملوكِ، المعروفِ بتاريخِ الطَّبرِيِّ وتهذيبِ الآثارِ، وذيلِ المذيلِ، ولطيفِ القولِ فِي أحكامِ شرائعِ الإسلامِ، وبسيطِ القولِ فِي أحكامِ شرائعِ الإسلامِ، وكتابِ القراءاتِ[6]، وصريحِ السَّنَّةِ، والتَّبصيرِ فِي معالمِ الدِّينِ، وتوفِّيَ فِي شهرِ شوَّالَ سنَةَ (310 هـ)، ودفن ببغدادَ[7][8].

---

(1) ياقوت الحموي: معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) جـ 6، صـ 2448، على المكتبة الشاملة

(2) تاريخ بغداد وذيوله، للخطيب البغدادي، طبعة المكتبة العلمية، جـ 2، صـ 161، على المكتبة الشاملة

(3) تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، موقع طريق الإسلام

(4) ياقوت الحموي: معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) جـ 6، صـ 2460، على المكتبة الشاملة

(5) ياقوت الحموي: معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) جـ 6، صـ 2458، على المكتبة الشاملة

(6) تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبي، الطبقة العاشرة، ترجمة محمد بن جرير الطبري، على ويكي مصدر

(7) سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، الطبقة السابعة عشر، محمد بن جرير، جـ 14، صـ 267: 282، على موقع إسلام ويب

(8) الأعلام - خير الدين الزركلي - ج 6 - الصفحة 69.

2) إسماعيلُ بنُ عمرَ بنِ كثيرٍ:

وهوَ عمادُ الدِّينِ أبُو الفداءِ إسماعيلُ بنُ عمرَ بنِ كثيرٍ بنِ ضَوْ بنِ درعٍ[(1)] القرشِيِّ الحَصْلِيِّ، البصروِيِّ، الشَّافعِيِّ[(2)]، ثمَّ الدِّمشقِيِّ، مُحدِّثٌ ومفسِّرٌ وفقيهٌ[(3)]، ولدَ بمجدلَ منْ أعمالِ بصرَى منْ منطقةِ سهلِ حورانَ (درعَا حاليًّا) فِي جنوبِ دمشقَ سنةَ (701 هـ)، و ماتَ أبُوه سنةَ (703 هـ)،[(4)] ثمَّ انتقلَ إلَى دمشقَ معَ أخيهِ كمالُ الدِّينِ سنةَ (707 هـ) بعدَ موتِ أبيهِ، وحفظَ القرآنَ الكريمَ وختمَ حفظَهُ فِي سنةِ (711 هـ)، وقرأَ القراءاتِ وجمعَ التَّفسيرَ، وحفظَ متنَ "التَّنبيهِ" فِي فقهِ الشَّافعِيِّ سنةَ (718 هـ)، وحفظَ مختصرَ ابنِ الحاجبِ، وتفقَّهَ علَى الشَّيخينِ: برهانُ الدِّينِ الفزارِي، وكمالُ الدِّينِ بنِ قاضِي شهبةَ[(5)]، وسمعَ الحديثَ منْ ابنِ الشَّحنةَ، وابنِ الزَّرادِ، وإسحاقَ الآمدِي، وابنِ عساكرَ، والمزِّي، وابنِ الرِّضَى، وشرعَ فِي شرحِ صحيحِ البُّخارِي ولازمَ المزِّي، وقرأَ عليهِ تهذيبَ الكمالِ، وصاهرهُ علَى ابنتهِ، وصاحبَ ابنَ تيميةَ[(6)][(أ)]، وولِّيَ العديدَ منَ المدارسِ العلميَّةِ فِي ذلكَ العصرِ، منهَا: دارُ الحديثِ الأشرفيَّةِ، والمدرسةُ الصَّالحيَّةِ، والمدرسةُ النَّجيبيَّةِ، والمدرسةُ التَّنكزيَّةِ، والمدرسةُ النُّوريَّةِ الكبرَى[(7)].

تُوفِّيَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي شعبانَ سنةَ (774 هـ)، وَكَانَ قدْ أضرَّ فِي أَوَاخِرِ عمرهِ[(8)]، ودفنَ بجوارِ ابنِ تيميَّةَ فِي مقبرةِ الصوفيَّةِ خارجَ بابِ النَّصرِ منْ دمشقَ[(9)].

ولهُ عدَّةُ تصنيفاتٍ أشهرهَا: "تفسيرُ القرآنِ العظيمِ"، والبدايةُ والنِّهايةُ، وطبقاتُ الشَّافعيَّةِ، والباعثُ الحثيثُ شرحِ اختصارِ علومِ الحديثِ، والسِّيرةُ النَّبويَّةُ، ولهُ رسالةٌ فِي الجهادِ، وشرعَ فِي كتابٍ كبيرٍ للأحكامِ ولمْ يكملهُ، ولهُ شرحُ صحيحِ البخارِيِّ وهوَ مفقودٌ.(10 -11)

(1) طبقات المفسرين للدودي (1/11) وإنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر (1/45). والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة؛ لابن حجر (1/399).

(2) البداية والنهاية لابن كثير، الجزء الأول - الصفحة 16 الطبعة الثانية لدار بن كثير".

(3) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (1/ 67)، والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (414/2)، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (1/ 445)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص: 534)، والأعلام للزركلي (320/1)

(4) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (1/445-446)

(5) معجم المحدثين (56/1)

(6) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (1/445-446)

(أ) جاء في تذكرة الحفاظ: "وصحب الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وكانت له به خصوصية، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق، وامتحن بسبب ذلك وأوذي".

(7) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (1/ 67)، والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (414/2)، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (1/ 445)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص: 534)، والأعلام للزركلي (320/1)

(8) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (1/445-446)

(9) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (1/ 68)

(10) ترجمة ابن كثير في مقدمة تحقيق كتاب "البداية والنهاية" بإشراف د. عبد الله التركي (1/13-33)

(11) د. محمد الزحيلي: ابن كثير الدمشقي ص:150- 152

3) الحسينُ بنُ مسعودٍ البغوِيُّ:

وهوَ أبُو محمَّدٍ الحُسينُ بنُ مسعودٍ بنِ محمَّدٍ الفرَّاءُ البغوِيُّ، ويلقَّبُ أيضًا بركنِ الدِّينِ ومحيِي السُّنَّةِ، أحدُ العلماءِ الذينَ خدمُوا القرآنَ والسُّنةَ النَّبويَّةَ، دراسةً وتدريسًا، وتأليفًا[1].
والفرَّاءُ: نسبةً إلَى عملِ الفرَاءِ وبيعهَا.

والبغوِيُّ: نسبةً إلَى بلدةٍ يقالُ لهَا: (بغ) وبَغْشورَ، وهيَ بلدةٌ بخراسانَ بينَ مرو الروذ وهراةَ[2].

وولدَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي بغشورٍ وإليهَا نسبتهُ وهذهِ البلدةُ، أنجبتْ كثيرًا منَ المحدِّثينَ والفقهاءِ وأهلِ العلمِ.

ومعظمُ المصادرِ التِي ترجمتْ لهُ رحمهُ الله تعالَى لمْ تشرْ إلَى السَّنةِ التِي ولدَ فيهَا، غيرَ أنَّ ياقوتَ الحموِي قالَ فِي معجمِ البلدانِ: إنَّهُ ولدَ سنةَ (433 هـ)[3] أمَّا الزَّركلِي فأشارَ فِي الأعلامِ إلَى أنَّهُ ولدَ سنةَ (436 هـ)[4].

وجميعُ منْ ترجمَ لهُ أرَّخُوا أنَّهُ توفِّيَ سنةَ (516 هـ) سوَى ابنِ خلكانَ فأرَّخَ وفاتهُ سنةَ (510 هـ)[5]، وقدْ وافقَ تقديرُ ابنُ خلكانَ فِي وفاةِ الإمامِ البغوِي تقديرَ الإمامِ الذَّهبِي، وقالُوا إنَّهُ قدْ بلغَ الثَّمانينَ أوْ تجاوزهَا، فيغلبُ الظَّنُّ أنَّهُ وُلدَ فِي أوائلِ العقدِ الرَّابعِ منَ القرنِ الخامسِ الهجرِي.

قالَ الإمامُ الذَّهبِيُّ فِي ترجمتهِ: (الشَّيخُ الإمامُ، العلَّامةُ القدوةُ الحافظُ شيخُ الإسلامِ، مُحيِي السُّنةِ أبُو محمَّدٍ الحُسينُ بنُ مسعودٍ بنِ محمَّدٍ بنِ الفرَّاءِ البغوِيُّ الشَّافعِيُّ المفسِّرُ صاحبُ التَّصانيفِ (كشرحِ السَّنَّةِ) و(معالمِ التَّنزيلِ) و(الجمعُ بينَ الصَّحيحينِ) وأشياءُ، وكانَ البغوِيُّ يُلقَّبُ بمحيِي السُّنَّةِ

وبركنِ الدِّينْ، وكانَ سيِّدًا إمامًا عالمًا علَّامةً زاهدًا، ولهُ القدمُ الرَّاسخُ فِي التَّفسيرِ والباعِ المديدِ فِي الفقهِ[6].

ومنْ مؤَلَّفاتهِ: شرحُ السُّنَّةِ، ومجموعةُ الفتاوَى، والتَّهذيبُ فِي فقهِ الإمامِ الشَّافعِي، و"معالمُ التَّنزيلِ"، ومصابيحُ السُّنَّةِ، والأنوارُ فِي شمائلِ المختارِ، والجامعُ بينَ الصَّحيحينِ، والأربعونَ حديثًا.

قالَ الذَّهبِي: وتوفِّي بمرو الروذَ وهيَ مدينةٌ منْ مدائنِ خراسانَ فِي شوَّالَ، سنةَ ستَّ عشرةَ وخمسمائةٍ، ودفنَ بجنبِ شيخهِ القاضِي حسينٌ، وعاشَ بضعًا وسبعينَ سنةً[7].

---

(1) فضائل النبى وشمائله من كتاب شرح السنة (ترجمة المؤلف).

(2) مجلة البيان - العدد [5].

(3) معجم البلدان – لياقوت الحموي.

(4) الأعلام - لخير الدين الزركلي.

(5) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان – لشمس الدين بن خلكان.

(6) سير أعلام النبلاء – للذهبي [439/19].

(7) سير أعلام النبلاء (ص: 442).

4) ابنُ أَبِي حاتمٍ:

وهوَ أبُو محمَّدٍ عبدُ الرَّحمنِ بنِ أَبِي حاتمٍ محمَّدُ بنُ إدريسَ الرَّازِي[1]: وُلِدَ ابنُ أبِي حاتمٍ سنةَ أربعينَ ومائتينِ (240 هـ) ونشأَ بينَ أهلِ العلمِ والرِّواياتِ، وتربَّى بالمذاكرةِ معَ أبيهِ وأبِي زُرْعَةَ الحافظَيْنِ الكبيرَيْنِ، وكانَا يعتنياتِ بهِ، فاجتمعَ لهُ معَ علوِّ همَّتهِ كثرةُ عنايتهمَا بهِ.

قالَ عليُّ بنُ أحمدَ الخوارزمِيِّ: "عبدُ الرَّحمنِ بنِ أَبِي حاتمٍ إمامٌ ابنُ إمامٍ، قدْ رُبِّي بينَ إمامَيْنِ: أَبِي حاتمٍ، وأَبِي زُرْعةَ؛ إمامَيْ هُدًى"[2]، وقالَ عنْ نفسهِ: "لمْ يدعنِي أبِي أشتغلُ بالحديثِ حتَّى قرأتُ القرآنَ عنِ الفضلِ بنِ شاذانَ، ثمَّ كتبتُ الحديثَ"[3].

ومنْ مؤلَّفاتهِ:

قالَ الخليلِي: "لهُ منَ التَّصانيفِ مَا هوَ أشهرُ منْ أنْ يُوصفَ فِي الفقهِ والتَّواريخِ واختلافِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ وعلماءِ الأمصارِ"[4].

وقالَ الرَّافعِي: "وجمعَ وصنَّفَ الكثيرَ حتَّى وقعَتْ ترجمةُ مصنَّفاتهِ الكبارِ والصِّغارِ فِي أوراقٍ"[5].

ولقدْ كانَ الإمامُ ابنُ أَبِي حاتمٍ رحمهُ اللهُ تعالَى مُسَدَّدًا فِي التَّصنيفِ، ورُزِقَ فِي مصنَّفاتهِ القبولَ، وعمَّ النَّفعُ بهَا، فكتابهُ "تفسيرُ القرآنِ العظيمِ" أصلٌ لَا يُستغنَى عنهُ فِي التَّفسيرِ بالمأثورِ.

وكتابهُ "تقدمةُ الجرحِ والتَّعديلِ" أصلٌ لَا يُستغنَى عنهُ فِي معرفةِ كبارِ الحُفَّاظِ الأوائلِ، منْ سِيَرهمْ وأخبارهمْ وفضلهمْ.

وكتابهُ "الجرحُ والتَّعديلُ" أصلٌ لَا يُستغنَى عنهُ فِي معرفةِ الرِّجالِ.

قالَ ابنُ عساكرَ: "صنَّفَ كتابَ (الجرحِ والتَّعديلِ) فأكثرَ فائدتهُ"[6].

وقالَ عنهُ الذَّهبِيُّ: "كتابٌ نفيسٌ"[7].

وقالَ: يدلُّ علَى سعةِ حفظِ الرَّجُلِ وإمامتهِ"[8].

وقالَ ابنُ كثيرٍ: وهوَ منْ أَجَلِّ الكتبِ المصنَّفةِ فِي هذَا الشَّأنِ[9].

وكتابُ "عللِ الحديثِ"، وكتابُ "المراسيلَ"، وكتابُ "آدابِ الشَّافعِيِّ ومناقبهِ"، وهوَ كثيرُ الفوائدِ معَ صغرِ حجمهِ[10].

وتُوفِّيَ رحمهُ اللهُ تعالَى سنةَ سبعٍ وعشرينَ وثلاثمائةَ (327 هـ) [11].

---

(1) مصادر ترجمته كثيرةٌ، منها: «الإرشاد» للخليلي (2/683)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (35/357-366)، و«التدوين في أخبار قزوين» للرافعي (3/153-155)، و«سير أعلام النبلاء» (13/263-269)، و«تاريخ الإسلام» (7/533-536)، و«تذكرة الحفاظ» (3/829)؛ ثلاثتها للذهبي، و«الوافي بالوفيات» للصَّفَدي (18/136)، و«طبقات الشَّافعية الكبرى» للسُّبكي (3/325).
(2) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (35/361).
(3) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (35/360).
(4) «الإرشاد» (2/683).
(5) «التَّدوين» (3/155).
(6) «تاريخ دمشق» (35/357)
(7) «سير أعلام النبلاء» (13/264).
(8) «تاريخ الإسلام» (7/534).
(9) موقع طريق الإسلام – مركز تفسير للدراسات القرآنية – حسين عكاشة.
(10) السابق.
(11) طبقات الحنابلة (105/3).

فائدةٌ:

ابنُ أبِي حاتمٍ الرَّازي الذِي سبقَ ذكرهُ، ليسَ هوَ نفسهُ فخرُ الدِّينِ الرَّازِي، فابنُ أبِي حاتمٍ إمامٌ منْ أئمَّةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وأمَّا فخرُ الدِّينِ الرَّازِي فقدْ كانَ أشعريًّا متكلِّمًا قالَ عنهُ الذَّهبِي: "العلَّامةُ الكبيرُ ذُو الفنونِ فخرُ الدِّينِ محمَّدُ بنُ عمرَ بنِ الحسينِ القرشِيِّ البكرِيِّ الطبرستانِي الأصولِي المفسِّر، كبيرُ الأذكياءِ والحكماءِ والمصنِّفينَ، ولدَ سنةَ أربعٍ وأربعينَ وخمسَ مئةٍ، واشتغلَ علَى أبيهِ الإمامِ ضياءِ الدِّينِ خطيبُ الرَّي، وانتشرتْ تواليفهُ فِي البلادِ شرقًا وغربًا، وكانَ يتوقَّدُ ذكاءً، وقدْ سقتُ ترجمتهُ علَى الوجهِ فِي تاريخِ الإسلامِ.

وقدْ بدتْ منهُ فِي تواليفهِ بلايَا وعظائمُ، وسحرٌ وانحرافاتٌ عنِ السُّنَّةِ، واللهُ يعفُو عنهُ، فإنَّهُ تُوفِّي علَى طريقةٍ حميدةٍ، واللَّهُ يتولَّى السرائرَ، ماتَ بهراةَ يومَ عيدِ الفطرِ سنةَ ستٍّ وستِّ مئةٍ، ولهُ بضعٌ وستُّونَ سنةً.

وقدِ اعترفَ فِي آخرِ عمرهِ حيثُ يقولُ: " لقدْ تأمَّلتُ الطُّرقَ الكلاميَّةَ، والمناهجَ الفلسفيَّةِ، فمَا رأيتهَا تشفِي عليلًا، ولَا تروِي غليلًا، ورأيتُ أقربَ الطُّرقِ طريقةَ القرآنِ؛ أقرأُ فِي الإثباتِ: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ)، وأقرأُ فِي النَّفي : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)؛ ومنْ جرَّبَ مثلَ تجربتِي، عرفَ مثلَ معرفتِي"[1]. (رحمَ اللهُ فخرَ الدِّينِ الرَّازي رحمةً واسعةً، فقدْ بيَّنَ وأوضحَ قبلَ أن يموتَ، وماتَ علَى النَّهجِ السَّليمِ القويمِ، فرحمهُ اللهُ تعالَى بمَا بيَّنَ وأوضحَ).

---

(1) سير أعلام النبلاء (500/21).

5) محمَّدُ بنُ أحمدَ القرطبِي:

هوَ محمَّدُ بنُ أحمدَ بنِ أبِي بكرٍ بنِ فَرْحٍ، وكنيتهُ: أبُو عبدِ اللهِ، ولدَ بقرطبةَ بـ (الأندلسِ) أوائلَ القرنِ السَّابعِ الهجرِيِّ (مَا بينَ 600 - 610هـ)[1] حيثُ تعلَّمَ القرآنَ، وقواعدَ اللُّغةِ العربيَّةِ، وتوسَّعَ بدراسةِ الفقهِ والقراءاتِ والبلاغةِ وعلومِ القرآنِ وغيرهَا، كمَا تعلَّمَ الشِّعرَ أيضًا، وانتقلَ إلَى مصرَ واستقرَّ بمنيةَ بنِي خصيبٍ (المنيَا) حتَّى وافتهُ المنيَّةُ فِي (9 شوَّالٍ 671 هـ)، وهوَ يعتبرُ منْ كبارِ المفسِّرينَ، وكانَ فقيهًا ومحدِّثًا، ورعًا وزاهدًا متعبِّدًا[2].

ومنْ مؤلَّفاتِ الإمامِ القرطبِيِّ:

ذكرَ المؤرِّخونَ للقرطبِيِّ رحمهُ اللهُ تعالَى عدَّةَ مؤلَّفاتٍ غيرَ تفسيرهِ العظيمِ المسمَّى بـ (الجامعِ لأحكامِ القرآنِ) [3].

ومنْ هذهِ المؤلَّفاتِ: التَّذكرةُ فِي أحوالِ الموتَى وأمورِ الآخرةِ، وهوَ مطبوعٌ متداولٌ[4]، التِّذكارُ فِي أفضلِ الأذكارِ، وهوَ أيضًا مطبوعٌ متداولٌ[5]، الأسنَى فِي شرحِ أسماءِ اللهِ الحسنَى وصفاتهِ العليَا[6]، الإعلامُ بمَا فِي دينِ النَّصارَى منَ المفاسدِ والأوهامِ وإظهارِ محاسنِ دينِ الإسلامِ[7]، قمعُ الحرصِ بالزُّهدِ والقناعةِ وردِّ ذُلِّ السُّؤالِ بالكسبِ والصِّناعةِ[8].

وقدْ أشارَ القرطبِيُّ فِي تفسيرهِ إلَى مؤلفَّاتٍ لهُ، منهَا: المقتبسُ فِي شرحِ موطأِ مالكٍ بنِ أنسٍ[9]، واللُّمعُ اللُّؤلؤيَّةُ فِي شرحِ العشريناتِ النَّبويَّةِ[10]، وغيرهَا منَ التَّصانيفِ.

---

(1) الداودي: طبقات المفسرين 65/2، 66 - والسيوطي: طبقات المفسرين ص79 - الصفدي: الوافي بالوفيات 122/2، 123.

(2) كتاب عظماء الإسلام - محمد سعيد مرسي.

(3) ابن رشيد الفهري: ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة 425/3.

(4) السابق.

(5) مشهور حسن محمود سلمان: الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير ص98.

(6) السابق.

(7) السابق نفسه ص135.

(8) رحمة الله الكيرانوي: إظهار الحق 395/2- 397. والبغدادي: هدية العارفين 56/2- 326.

(9) السابق.

(10) السابق نفسه 173/1.

6) جلالُ الدِّينِ بنُ أبِي بكرٍ السُّيوطِي:

وهوَ عبدُ الرَّحمنِ بنِ أبِي بكرِ بنِ محمَّدٍ، جلالُ الدِّينِ أبُو الفضلِ ابنِ العلَّامةِ كمالُ الدِّينِ السُّيوطِي، الشَّافعِي[1]، وُلِدَ مستهلَّ رجبٍ سنةَ تسعٍ وأربعينَ وثمانمائةَ (849 هـ) [2]، طلبَ العلمَ وهوَ صغيرٌ؛ حيثُ لازمَ أعيانَ عصرهِ منَ العلماءِ، ككمالِ الدِّينِ ابنِ الهمامِ، والعلمِ البلقينِي، والشَّرفِ المناوِي، والعزِّ الحنبلِي، فأخذَ عنهمْ وعنْ غيرهمْ الحديثَ والفقهَ والعربيَّةَ وسائرَ العلومِ[3].

ولمَّا بلغَ أربعينَ سنةً منَ عمرهِ أخذَ فِي التَّجرُّدِ للعبادةِ والانقطاعِ إلَى اللهِ تعالَى، والاشتغالِ بهِ صرفًا، والإعراضِ عنِ الدُّنيَا وأهلهَا كأنَّهُ لمْ يعرفْ أحدًا منهمْ، وشرعَ فِي تحريرِ مؤلَّفاته، وتركَ الإفتاءَ والتَّدريسَ، واعتذرَ عنْ ذلكَ فِي مؤلَّفٍ ألَّفهُ فِي ذلكَ وسمَّاهُ "بالتَّنفيسِ"، وأقامَ فِي روضةِ المقياسِ فلمْ يتحوَّلْ منهَا إلَى أنْ ماتَ، وكانتْ وفاتهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي سحرِ ليلةِ الجمعةِ تاسعِ عشرَ جمادَى الأولَى سنةَ إحدَى عشرةَ وتسعمائةَ (911 هـ) فِي منزلهِ بروضةِ المقياسِ، بعدَ أنْ تمرَّضَ سبعةَ أيَّامٍ بورمٍ شديدٍ فِي ذراعهِ الأيسرِ، وقدْ استكملَ منَ العمرِ إحدَى وستينَ سنةً، ودفنَ فِي حوشِ قوصونَ خارجَ بابِ القرافةِ، وصُلِّيَ عليهِ غائبةً بدمشقَ بالجامعِ الأمويِّ يومَ الجمعةِ ثامنِ رجبٍ سنةَ إحدَى عشرةَ المذكورةَ[4].

وقدْ ألَّفَ جلالُ الدِّينِ السُّيوطِي عددًا كبيرًا منَ الكتبِ والرَّسائلِ، إذْ يذكرُ ابنُ إيَّاسٍ فِي "تاريخِ مصرَ" أنَّ مصنَّفاتِ السُّيوطِي بلغتْ ستَّ مائةِ مصنَّفٍ، وقدْ ألَّفَ فِي طيفٍ واسعٍ منَ المواضيعِ تشملُ التَّفسيرَ والفقهَ والحديثَ والأصولَ والنَّحوَ والبلاغةَ والتَّاريخَ والأدبَ وغيرهَا، ومنْ هذهِ المصنَّفاتِ:

الدُّرُّ المنثورُ فِي التَّفسيرِ بالمأثورِ، والدُّررُ المنتثرةُ فِي الأحاديثِ المشتهرةِ، والديباجُ علَى صحيحِ مسلمٍ بنِ الحجَّاجِ،

والرَّوضُ الأنيقُ فِي فضلِ الصدِّيق، والعرفُ الوردِيُّ فِي أخبارِ المهدِيِّ، والغررُ فِي فضائلِ عمرَ، وألفيةُ الحديثِ،

والكاوِي علَى تاريخِ السَّخاوِي، واللآلئُ المصنوعةُ فِي الأحاديثِ الموضوعةِ، والمَدْرَجُ إلَى المُدْرَجِ، المزهرُ فِي علومِ اللُّغةِ وأنواعهَا، و المهذَّبُ فيمَا وقعَ فِي القرآنِ منَ المعربِ، والإتقانُ فِي علومِ القرآنِ، وإسعافُ المبطأِ برجالِ الموطَّأِ، والجامعُ الصَّغيرُ منْ حديثِ البشيرِ النَّذيرِ، والأشباهُ والنَّظائرُ(5)(6).

---

(1) السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (472/1).

(2) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (335/1)،)، الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (337) الحنبلي، محمد ابن العماد العكري، أبوالفلاح، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (51/7)، والكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة للغزي.

(3) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن ـحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (336/1). وابن إياس كتاب "تاريخ مصر".

(4) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (336/1).

(5) انظر: كتاب السيوطي النحوي، د/ السلمان ص 11.

(6) انظر، مؤرخو مصر الإسلامية ص 145- الغزي، نجم الدين محمد بن محمد، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (231/1).- الحنفى القاهرى، ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور (63/3)، (79/4).

7) محمَّدُ بنُ علِيٍّ الشَّوكانِي:

هوَ محمَّدُ بنُ علِيٍّ بنِ محمَّدٍ الشَّوكانِي، الملقَّبِ ببدرِ الدِّينِ الشَّوكانِي، أحدُ أبرزِ علماءِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ وفقهائِهَا، ومنْ كبارِ علماءِ اليمنِ، ولدَ فِي هجرةِ شوكانَ فِي اليمنِ سنةَ (1173 هـ)[1] ونشأَ بصنعاءَ، وتلقَّى العلمَ علَى شيوخِهَا، واشتغلَ بالقضاءِ والإفتاءِ سنةَ (1229 هـ)[2]، وماتَ حاكمًا بهَا فِي سنةِ (1250 هـ)[3].

من مؤلَّفاتِهِ رحمهُ اللهُ تعالَى:

فتحُ القديرِ فِي التَّفسيرِ، ونيلُ الأوطارِ فِي الحديثِ، والبدرُ الطَّالعُ بمحاسنِ منْ بعدِ القرنِ التَّاسعِ، وإرشادُ الفحولُ إلَى تحقيقِ الحقِّ منْ علمِ الأصولِ، وإبطالُ دعوَى الإجماعِ علَى تحريمِ مطلقِ السَّماعِ، وشرحُ الصُّدورِ بتحريمِ رفعِ القبورِ، وإرشادُ الثِّقاتِ إلَى إتِّفاقِ الشَّرائعِ علَى التَّوحيدِ والمعادِ والنبوَّاتِ، وتحفةُ الذَّاكرينَ بعدَّةِ الحصنِ الحصينِ منْ كلامِ سيِّدِ المرسلينَ، ورفعُ الباسِ عنْ حديثِ النَّفسِ والهمِّ والوسواسِ، والبدرُ الطَّالعُ بمحاسنِ منْ بعدِ القرنِ السَّابعِ، والسيلُ الجرَّارُ المتدفِّق علَى حدائقِ الأزهارِ، والأدلَّةُ الرَّضيَّةُ لمتنِ الدُّررِ البهيَّةِ فِي المسائلِ الفقهيَّةِ، وإرشادُ الغبِي إلَى مذهبِ أهلِ البيتِ فِي صحبِ النَّبِي ﷺ، وبلوغُ المنَى فِي حكمِ الاستمناءِ، والدَّرارِي المضيَّةِ شرحُ الدُّررِ البهيَّةِ، والقولُ الجلِيُّ فِي حكمِ لبسِ النِّساءِ للحلِيِّ.

---

(1) موقع الشوكاني: ترجمة حياة الإمام القاضي محمد بن علي بن محمد الشوكاني.

(2) المكتبة الشاملة: الشوكاني نسخة محفوظة 15 يوليو 2017 على موقع واي باك مشين.

(3) ترجمة الشوكاني ـ الموسوعة الإسلامية.

8) محمَّدُ بنُ ناصرٍ السَّعدِي:

وهوَ أبُو عبدِ اللهِ عبدُ الرَّحمنِ بنُ ناصرٍ بنِ عبدِ اللهِ بنِ ناصرٍ السَّعدِي التَّميمِي[1][2]، ويعرفُ اختصارًا بابنِ سعدِي، ولدَ فِي بلدةِ عنيزةَ فِي القصيمِ فِي ثنتَيْ عشرَ يومًا مرَّتْ منْ محرَّمٍ عامَ ألفٍ وثلاثمائةَ وسبعٍ منَ الهجرةِ النَّبويَّةِ، وتوفِّيتْ أمُّهُ ولهُ منَ العمرِ أربعُ سنواتٍ، وتوفِّي والدهُ وهوَ فِي السَّابعةِ، فتربَّى يتيمًا ولكنَّهُ نشأَ نشأةً حسنةً، وكانَ قدْ استرعَى الأنظارَ منذُ حداثةِ سنِّهِ بذكائهِ ورغبتهِ الشَّديدةِ فِي التعلُّمِ، وهوَ مصنِّفٌ وكاتبٌ، وأشهرُ كتبهِ كتابُ "تيسيرِ الكريمِ الرَّحمنِ فِي تفسيرِ كلامِ المنَّانِ"[3].

منْ مؤلَّفاتهِ رحمهُ اللهُ تعالَى:

صنَّفَ السَّعدِيُّ كتبًا كثيرةً أهمُّها تفسيرهُ للقرآنِ الكريمِ المسمَّى بـ:"تيسيرِ الكريمِ الرَّحمنِ" فِي ثمانِي مجلَّداتٍ أكملهُ فِي عامِ (1344 هـ)، وقدْ نالَ هذَا التَّفسيرُ الكثيرَ منَ الاهتمامِ حيثُ طبعَ لهُ طبعاتٌ عديدةٌ.

ولهُ أيضًا حاشيةٌ علَى الفقهِ استدراكًا علَى جميعِ الكتبِ المستعملةِ فِي المذهبِ الحنبلِي ولمْ تطبعْ.

ولهُ أيضًا "إرشادُ أولِي البصائرِ والألبابِ لمعرفةِ الفقهِ بأقربِ الطُّرقِ وأيسرِ الأسبابِ"، ورتَّبهُ علَى شكلِ سؤالٍ جوابٍ، وطبعَ فِي دمشقَ عامَ (1365هـ)، علَى نفقتهِ الخاصةِ ووزَّعهُ مجَّانًا.

و"الدرَّةُ المختصرةُ فِي محاسنِ الإسلامِ"، وطبعَ عامَ (1366 هـ).

و"الخطبُ العصريَّةُ القيِّمةُ"، وكتبَ هذَا لمَا آلَ إليهِ أمرُ الخطابةِ فِي بلدهِ، فاجتهدَ أنْ يخطبَ فِي كلِّ عيدٍ وجمعةٍ بمَا يناسبُ الوقتَ فِي الموضوعاتِ الجليلةِ التِّي يحتاجُ النَّاسُ إليهَا، ثمَّ جمعهَا وطبعهَا معَ "الدرَّةِ المختصرةِ" علَى نفقتهِ ووزَّعهَا مجَّانًا.

و"القواعدُ الحسانُ المتعلقة بتفسير القرآنِ"، وطبعهُ عامَ (1366هـ) ووُزِّعَ مجَّانًا.

و"تنزيهُ الدِّينِ وحملتهِ ورجالهِ ممَّا افتراهُ القصيمِي فِي أغلالهِ"، وطبعَ عامَ (1366هـ).

و"الحقُّ الواضحُ المبينُ فِي شرحِ توحيدِ الأنبياءِ والمرسلينَ".

و"توضيحُ الكافيةِ الشافيةِ"، و"وجوبُ التَّعاونِ بينَ المسلمينَ"، و"موضوعُ الجهادِ الدِّينِي".

وهذهِ الثَّلاثةُ الأخيرةُ طبعتْ بالقاهرة علَى نفقتهِ ووزَّعهَا مجانًا.

و"القولُ السَّديدُ فِي مقاصدِ التَّوحيدِ"، طبعَ عامَ (1367هـ)[4].

و"مختصرٌ فِي أصولِ الفقهِ"، لمْ يطبعْ.

و"تيسيرُ اللَّطيفِ المنَّانِ فِي خلاصةِ تفسيرِ القرآنِ"، طبعَ علَى نفقةِ المؤلِّفِ وجماعةٍ منَ المحسنينَ، وزِّعَ مجانًا.

و"الرِّياضُ النَّاضرةُ".

ونظمٌ فِي "القواعدِ الفقهيَّةِ" وهذا الأخيرُ نالَ قبولًا عندَ طلَّابِ العلمِ.

وفاتهُ:

وتوفِّي رحمهُ اللهُ تعالَى بعدَ مَا أُصيبَ عامَ(1371هـ)بمرضِ ضغطِ الدَّمِ وضيقِ الشَّرايينِ، عنْ عمرٍ ناهزَ (69 عامًا) فِي خدمةِ العلمِ، وادركتهُ الوفاةُ قربَ طلوعِ الفجرِ منْ يومِ الخميسِ الموافقِ 22 جمادَى الآخرةِ عامَ (1376هـ)[5]، فِي مدينةِ عنيزةَ فِي القصيمِ، رحمهُ اللهُ تعالَى[6].

---

(1) "الموقع الرسمي لسماحة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله". www.ibn-jebreen.com. مؤرشف من الأصل في 29 يونيو 2019. اطلع عليه بتاريخ 29 يونيو 2019.

(2) "الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي". al-tawhed.net. مؤرشف من الأصل في 5 سبتمبر 2018. اطلع عليه بتاريخ 06 يوليو 2019.

(3) "عبد الرحمن السعدي • الموقع الرسمي للمكتبة الشاملة". shamela.ws. مؤرشف من الأصل في 30 أبريل 2019. اطلع عليه بتاريخ 30 أبريل 2019.

(4) الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية، وليد عبدالله المنيس، ط1، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، 1423هـ/2002م، ص14.

(5) علماء نجد خلال ثلاثة قرون (250/3)

(6) حياة الشيخ عبدالرحمن السعدي في سطور، أحمد القرعاوي، ط2، 1414هـ، ص32.

* كتاب علماء نجد خلال ستة قرون، للشيخ عبد الله بن عبدالرحمن البسام.

* كتاب روضة الناظرين عن علماء نجد وحوادث السنين، للشيخ محمد بن عثمان القاضي.

* كتاب تراجم لسبعة علماء، للشيخ محمد الحمد.

* موقع السعدي.

****

أشهرُ كتبِ التَّفسيرِ

وكلُّ واحدٍ منَ الأئمَّةِ السَّابقِ ذكرهمْ لهُ كتابُ تفسيرٍ للقرآنِ الكريمِ كمَا سبقَ وأشرنَا، ونكتفِي بأشهرِ كتبِ التَّفسيرِ لأشهرِ المفسِّرينَ السَّابقينَ:

1) جامعُ البيانِ فِي تأويلِ القرآنِ، لأبِي جعفرٍ محمَّدٍ بنِ جريرٍ الطَّبرِيِّ:

وهذَا التَّفسيرُ منْ أعظمِ التَّفاسيرِ بالمأثورِ وأجلِّهَا وأرفعهَا قدرًا، وقدْ ذكرَ فيهِ صاحبهُ مَا رُوِيَ فِي التَّفسيرِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ والصَّحابةِ والتَّابعينَ وأتباعهمْ رضيَ اللهُ عنهمْ[1].

سُئلَ شيخُ الإسلامِ ابنِ تيميةَ رحمهُ اللهُ تعالَى عنْ أيِّ التَّفاسيرِ أقربُ إلَى الكتابِ والسُّنةِ: الزَّمخشرِي، أمِ القرطبِي، أمِ البغوِي، أمِ غيرِ هؤلاءِ؟

فأجابَ تغمَّدهُ اللهُ برحمتهِ: الحمدُ للهِ، أمَّا التَّفاسيرُ التِي فِي أيدِي النَّاس فأصحُّهَا تفسيرُ محمَّدٍ بنِ جريرٍ الطَّبرِي، فإنَّهُ يذكرُ مقالاتِ السَّلفِ بالأسانيدِ الثَّابتةِ، وليسَ فيهِ بدعةٌ، ولَا ينقلُ عنِ المتَّهمينَ كمقاتلِ بنِ بكيرٍ، والكلبِي[2].

---

(1) كتاب التَّفسير أكاديمية زاد للعلوم الشَّرعيَّة – محمد صالح المنجد. – مجموع الفتاوى صـ 385.

(2) مقدِّمة في أصول التَّفسير ص : 41.

منهجُ الطَّبرِيِّ فِي التَّفسيرِ:

كانَ منهجهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي استقصاءِ الوجوهِ المحتملةِ للآياتِ، يعتمدُ علَى التَّفسيرِ بالمأثورِ بالأساسِ، ثمَّ القراءاتِ، فاهتمَ بالقراءاتِ القرآنيَّةِ، وكانَ لهُ اعتناءٌ ببعضِ وجوهِ اللُّغةِ، فضلًا عنْ آرائهِ الفقهيَّةِ واجتهاداتهِ التِي أودعهَا فِي التَّفسيرِ، فمنِ منهجهِ فِي التفسير:

أ) اعتمدَ رحمهُ اللهُ تعالَى علَى التَّفسيرِ بالمأثورِ، وهوَ التَّفسيرُ بالأحاديثِ الثَّابتةِ عنِ النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ أقوالِ الصَّحابةِ ثمَّ التَّابعينَ فِي تفسيرِ معانِي الآياتِ؛ وقدْ كانَ يُنكرُ بشدَّةٍ علَى منْ يُفسِّرُ القرآنَ بمجرَّدِ الرَّأيِ وحسب، ولكنَّهُ يُرجِّحُ أوْ يصوِّبُ أوْ يوجِّهُ قولًا لدليلٍ معتبرٍ لديهِ، حيثُ قالَ: "أنَّ مَا كانَ منْ تأويلِ آيِ القرآنِ الذِي لَا يدركُ علمهُ إلَّا بنصِّ بيانِ رسولِ اللهِ ﷺ أوْ بنصبهِ الدَّلالةِ عليهِ؛ فغيرُ جائزٍ لأحدٍ القيلُ فيهِ برأيهِ، بلِ القائلُ فِي ذلكَ برأيهِ "وإنْ أصابَ الحقَّ فيهِ فمخطئٌ فيمَا كانَ منْ فعلهِ بقيلهِ فيهِ برأيهِ، لأنَّ إصابتهُ ليستْ إصابةَ موقنٍ أنَّهُ محقٌّ، وإنَّمَا هوَ إصابةُ خارصٍ وظانٍّ، والقائلُ فِي دينِ اللهِ بالظنِّ، قائلٌ علَى اللهِ مَا لمْ يعلمْ، وقدْ حرَّمَ اللهُ جلَّ ثناؤهُ ذلكَ فِي كتابهِ علَى عبادهِ، فقالَ تعالَى: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُون) [سورة الأعراف: 33]، فالقائلُ فِي تأويلِ كتابِ اللهِ الذِي لَا يُدركُ علمهُ إلَّا ببيانِ رسولِ اللهِ ﷺ، الذِي جعلَ اللهُ إليهِ بيانهُ، قائلٌ بمَا لَا يعلمُ وإنْ وافقَ قيلهُ ذلكَ فِي

تأويلهِ مَا أرادَ اللهُ بهِ منْ معناهُ، لأنَّ القائلَ فيهِ بغيرِ علمٍ، قائلٌ علَى اللهِ مَا لَا علمَ لهُ بهِ"[1].

ب) وكانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يقفُ علَى الأسانيدِ، فيشتملُ تفسيرهُ علَى عددٍ كبيرٍ منَ الأحاديثِ والآثارِ المسندةِ، منهَا الصَّحيحُ والضعيفُ، وقدْ أشارَ جلالُ الدِّينِ السُّيوطِي فِي كتابهِ الإتقانُ فِي علومِ القرآنِ إلَى مواضعِ الأحاديثِ والآثارِ الضَّعيفةِ فِي التَّفسيرِ[2].

ج) يقدِّرُ رحمهُ اللهُ تعالَى الإجماعَ، ويعطيهِ اعتبارًا كبيرًا فِي اختيارِ مَا يذهبُ إليهِ ويرتضيهِ.

د) اهتمامهُ رحمهُ اللهُ تعالَى بالقراءاتِ القرآنيَّةِ، فقدْ كانَ يردُّ القراءاتِ التِي لمْ تردْ عنْ أئمَّةِ القراءاتِ المشهودِ لهمْ، وأمَّا القراءاتُ الثَّابتةُ فكانَ لهُ اختيارٌ فيهَا؛ فهوَ أحيانًا يرفضُ بعضهَا لمخالفتهَا الإجماعِ، وأحيانًا أخرَى يفضِّلُ قراءةً علَى أخرَى لوجهٍ يراهُ، ويكتفِي حينًا بالتَّسويةِ بينَ تلكَ القراءاتِ دونَ ترجيحٍ.

هـ) لمْ يكنْ يهتمُّ بتفسيرِ مَا لَا فائدةَ فِي معرفتهِ، ومَا لَا يترتَّبُ عليهِ عملٌ؛ كمعرفةِ أسماءِ أصحابِ الكهفِ، ومعرفةِ نوعِ الطَّعامِ فِي المائدةِ التِي نزلتْ علَى رسولِ اللهِ عيسَى عليهِ السَّلامُ ونحوِ ذلكَ.

و) اهتمامهُ باللُّغةِ وعلومهَا، فقدْ كانَ يحتكمُ كثيرًا فِي تفسيرهِ عندَ التَّرجيحِ والاختيارِ إلَى المعروفِ منْ كلامِ العربِ، ويعتمدُ علَى أشعارهمْ، ويرجعُ إلَى مذاهبهمْ النَّحويَّةِ واللَّغويَّةِ، حيثُ قالَ فِي تفسيرهِ: "أنَّ منْ أوجهِ تأويلِ القرآنِ، مَا كانَ علمهُ عندَ أهلِ اللِّسانِ الذِي نزلَ بهِ القرآنُ".

ز) اهتمامهُ بالأحكامِ الفقهيَّةِ، فقدْ كانَ الطَّبرِيُّ صاحبَ مذهبٍ فقهِيٍّ، فكانَ يتعرَّضُ لآياتِ الأحكامِ ويناقشهَا ويعالجهَا، ثمَّ يختارُ منَ الأحكامِ الفقهيَّةِ مَا يراهُ أقوَى دليلًا.

ح) كانَ يتعرَّضُ لكثيرٍ منْ مسائلِ العقيدةِ، ويردُّ علَى كلِّ منْ خالفَ فيهَا مَا عليهِ أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، فقالَ عندَ تفسيرِ قولهِ تعالَى (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ):[3] "بمعنَى: أنَّهُ مشاهدهمْ بعلمهِ، وهوَ علَى عرشهِ"، وقالَ عندَ تفسير قولهِ تعالَى (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ): "وأولَى المعانِي بقولِ اللهِ جلَّ ثناؤهُ علَا عليهنَّ وارتفعَ، فدبَّرهنَّ بقدرتهِ، وخلقهنَّ سبعَ سماواتٍ، والعجبُ ممَّنْ أنكرَ المعنَى المفهومَ منْ كلامِ العربِ فِي تأويلِ قولِ اللهِ تعالَى: "ثُمَّ اِسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ" الذِي هوَ بمعنَى العلُوِّ والارتفاعُ، هربًا عندَ نفسهِ منْ أنْ يلزمهُ بزعمهِ - إذَا تأوَّلهُ بمعناهُ المفهمِ كذلكَ - أنْ يكونَ إنَّمَا علَا وارتفعَ بعدَ أنْ كانَ تحتهَا - إلَى أنْ تأوَّلهُ بالمجهولِ منْ تأويلهِ المستنكرِ، ثمَّ لمْ ينجِ ممَّا هربَ منهُ! فيقالُ لهُ: زعمتَ أنَّ تأويلَ قولهِ "اِسْتَوَى" أقبلَ، أفكانَ مدبرًا عنِ السَّماءِ فأقبلَ إليهَا؟ فإنَّ زعمَ أنَّ ذلكَ ليسَ بإقبالِ فعلٍ، ولكنَّهُ إقبالُ تدبيرٍ، قيلَ لهُ: فكذلكَ فقلْ: علَا عليهَا علوَّ ملكٍ وسلطانٍ، لَا علوَّ انتقالٍ وزوالٍ، ثمَّ لنْ يقولَ فِي شيءٍ منْ ذلكَ قولًا إلَّا أُلزمَ فِي الآخرِ مثلهُ، ولولَا أنَّا كرهنَا إطالةَ الكتابِ بمَا ليسَ منْ جنسهِ، لأنبأنَا عنْ فسادِ قولِ كلِّ قائلٍ قالَ فِي ذلكَ قولًا لقولِ أهلِ الحقِّ فيهِ مخالفًا، وفيمَا بيَّنَّا منهُ مَا يشرفُ بذِي الفهمِ علَى مَا فيهِ لهُ الكفايةُ إنْ شاءَ اللهُ تعالَى"[4][5]، وكانَ يردُّ علَى كثيرٍ منْ آراءِ المعتزلةِ وغيرهمْ، فيقولُ عبدُ العزيزِ بنُ محمَّدٍ الطبرِي: "كانَ أبو

جعفرٍ يذهبُ فِي جلِّ مذاهبهِ إلَى مَا عليهِ الجماعةُ منَ السَّلفِ، وطريقِ أهلِ العلمِ المتمسِّكينَ بالسُّننِ، شديدًا عليهِ مخالفتهمْ، ماضيًا علَى منهاجهمْ، لَا تأخذهُ فِي ذلكَ ولَا فِي شيءٍ لومةَ لائمٍ، وكانَ يذهبُ إلَى مخالفةِ أهلِ الاعتزالِ فِي جميعِ مَا خالفُوا فيهِ الجماعةَ منَ القولِ بالقدرِ، وخلقِ القرآنِ وإبطالِ رؤيةِ اللهِ تعالَى فِي القيامةِ، وفِي قولهمْ بتخليدِ أهلِ الكبائرِ فِي النَّارِ، وإبطالِ شفاعةَ رسولِ اللهِ ﷺ وفِي قولهمْ إنَّ استطاعةَ الانسانِ قبلَ فعلهِ"(6).

ط) موقفهُ منَ الإسرائيلياتُ: كانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يسوقُ فِي تفسيرهِ أخبارًا منَ القصصِ الإسرائيليَّةِ، وكانَ يتعقَّبُهَا أحيانًا بالنَّقدِ والتَّمحيصِ، وقالَ محمودُ محمَّدٌ شاكرٌ عنْ ذلكَ: "ولمَّا رأيتُ أنَّ كثيرًا منَ العلماءِ كانَ يعيبُ علَى الطَّبرِيِّ أنَّهُ حشدَ كثيرًا منْ الرِّوايةِ عنِ السَّالفينَ الذينَ قرؤُوا الكُتبَ وذكرُوا فِي معانِي القرآنِ مَا ذكرُوا منَ الرِّواياتِ عنْ أهلِ الكتابينِ السابقينَ - التوراةُ والإنجيلُ - أحببتُ أنْ أكشفَ عنْ طريقةِ الطبرِيِّ فِي الاستدلالِ بهذهِ الرِّواياتِ روايةً روايةً، وأبيِّنَ عندَ كلِّ روايةٍ مقالةَ الطبرِيِّ فِي إسنادهَا، وأنَّهُ إسنادٌ لَا تقومُ بهِ الحجَّةُ فِي دينِ اللهِ ولَا فِي تفسيرِ كتابهِ، وإنَّ استدلالهُ بهَا كانَ يقومُ مقامَ الاستدلالِ بالشِّعرِ القديمِ"(7).

ي) وكانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يُجزِّئُ الآيةَ التِي يُريدُ تفسيرَهَا إلَى أجزاءٍ، فيفسِّرهَا جملةً جملةً، ويعمدُ إلَى تفسيرِ هذهِ الجملةَ، فيذكرُ المعنَى الجملِيِّ لهَا بعدهَا، أوْ يذكرهُ أثناءَ ترجيحهِ إنْ كانَ هناكَ خلافٌ فِي تفسيرهَا؛

وإذَا لمْ يكنْ هناكَ خلافٌ بينَ أهلِ التَّأويلِ فسَّرَ تفسيرًا جُمْلِيًّا، ثمَّ قالَ: "وبنحوِ الذِي قلنَا فِي ذلكَ قالَ أهلُ التَّأويلِ".

وإذَا كانَ بينَ أهلِ التَّأويلِ خلافٌ، فقدْ يذكرُ التَّفسيرَ الجمليَّ، ثمَّ ينصُّ علَى وجودِ الخلافِ، ويقولُ: "واختلفَ أهلُ التَّأويلِ فِي تأويلِ ذلكَ، فقالَ بعضهمْ فيهِ نحوَ الذِي قلنَا فيهِ".

وقدْ يذكرُ اختلافَ أهلِ التَّأويلِ بعدَ المقطعِ المفسَّرِ مباشرةً، ثمَّ يذكرُ التَّفسيرَ الجمليَّ أثناءَ ترجيحهِ.

---

(1) تفسير الطبري جـ1، فصل: الأخبار في النهي عن تأويل القرآن بالرأي، صـ78،79، على موقع إسلام ويب نسخة محفوظة 22 أغسطس 2016 على موقع واي باك مشين.

(2) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، الدكتور محمد لطفي الصباغ، صـ275

(3) تفسير الطبري ، تفسير سورة المجادلة، الآية 7.

(4) تفسير الطبري، تفسير سورة البقرة، القول في تأويل قوله تعالى " ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ".

(5) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جـ 12، صـ 516، 517.

(6) ياقوت الحموي: معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) جـ 6، صـ 2462.

(7) مقدمة محمود شاكر من تفسير الطبري، 1: 16-17، وتعليقه في 1 : 453-454.

المآخذُ علَى تفسيرِ الطَّبرِيِّ:

إنَّ الطبرِيَّ رحمهُ اللهُ تعالَى ليسَ معصومًا منَ الخطئِ، كمَا قالَ ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ رضيَ اللهُ عنهمَا: وليسَ أحدٌ بعدَ النَّبِيِّ ﷺ إلَّا يؤخذُ منْ قولهِ ويتركُ إلَّا النَّبِيُّ ﷺ[1].

وكتابُ الطَّبرِيِّ الذِي بلغَ ستَّةَ آلافِ صفحة ليسَ غريبًا أنْ تردَ عليهِ بعضُ المآخذِ، وأنْ تصدرَ منهُ أخطاءٌ، والرَّسولُ ﷺيقولُ: "كلُّ ابنِ آدمَ خطَّاءٌ..."[2].

ولذلكَ لمْ يسلمْ تفسيرُ الطبرِيِّ منَ النَّقدِ، وكشفِ الأخطاءِ التِي وقعَ فيهَا، ويمكنُ إجمالهَا فيمَا يلِي:

1) لمْ يطبِّقْ الطَّبرِيُّ منهجهُ النَّقدِيَّ الكاملَ للأسانيدِ علَى جميعِ مَا جاءَ فِى التَّفسيرِ، وإنَّمَا فعلَ ذلكَ فِى بعضِ الرِّواياتِ النَّادرةِ، وتركَ غيرهَا معَ مَا فيهَا منْ أسانيدَ ضعيفةٍ، وكانَ جديرًا بهِ أنْ ينبِّهَ عليهَا.

2) حشدَ الطَّبرِيُّ فِى تفسيرهِ كثيرًا منَ الرِّواياتِ الإسرائيليَّةِ والنَّصرانيَّةِ، وقصصِ الوعظِ، ولَا حرجَ فِي ذلكَ، ولكنْ كانَ المفروضُ أنْ ينبِّهَ عليهَا.

3) وردَ فِي تفسيرِ الطَّبرِيِّ بعضُ الرِّواياتِ المتناقضةِ لابنِ عبَّاسَ رضيَ اللهً عنهمَا، ولمْ يرجِّحْ روايةً منهَا علَى الأخرَى، ولمْ يتعرَّضْ لبيانِ الصَّوابِ منْ ذلكَ، كمَا اعترضَ بعضُ العلماءِ علَى الطَّبرِيِّ فِى نقدهِ لبعضِ القراءاتِ، وإبهامهِ لأسماءِ بعضِ علماءِ العربيَّةِ الذينَ أخذَ منهمْ، وأشارَ إلَى أسمائهمْ إشارةً.

وهذهِ الأخطاءُ لَا تعدُّ أخطاءً جسيمةً، والأصحُّ هيَ لَا تعدُّ أخطاءً أصلًا، فمثلَ مَا أسلفناهُ لَا ينقدهُ فيهِ إِلَّا الأئمَّةُ أمثالهُ، وهيَ والحمدُ للهِ ليستْ أخطاءً فِي العقيدةِ، ولَا فِي أصولِ الدِّينِ جملةً، ولَا فِي أركانِ الإسلامِ، ولَا فِي قواعدِ الدِّينِ، ولَا فِي الأحكامِ القطعيَّةِ، ولَا فِي النُّصوصِ الثَّابتةِ ولَا فِي معاقدِ الإجماعِ.

ويبقَى تفسيرُ الطبرِي ثروةً عظيمةً، وذخيرةً منْ ذخائرِ الإسلامِ، ومصدرًا أصيلًا لكلِّ مفسِّرٍ وعالمٍ مجتهدٍ، ومرجعًا مهمًّا فِي جميعِ العلومِ اللُّغويَّةِ والعلومِ الشَّرعيَّةِ منْ علومِ القرآنِ، إلَى علومِ السُّنَّةِ، إلَى علومِ الفقهِ والعقيدةِ، والمذاهبِ الفقهيَّةِ، والتَّفسيرِ بالمأثور والاجتهاد.

فرحمَ اللهُ الإمامَ الطَّبرِي رحمةً واسعةً.

---

(1) قال الإمام البخاري في القراءة خلف الإمام ص: 213

والوجه الثالث اذا ثبت الخبر عن النبي ﷺ وأصحابه فليس في الأسود ونحوه حجة قال ابن عباس ومجاهد ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ.

وقال أبو نعيم في حلية الأولياء ج: 3 ص: 300

حدثنا محمد بن احمد بن موسى العدوي ثنا اسماعيل بن سعيد ينوي أخبرنا سفيان عن عبدالكريم عن مجاهد قال ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ.

وقال البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى ج: 1 ص: 107

30 أخبرنا أبو بكر بن الحارث أبنا أبو محمد بن حيان ثنا ابراهيم بن محمد بن الحسن ثنا عبد الجبار ثنا سفر عن عبدالكريم عن مجاهد قال ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك من قوله إلا النبي ﷺ.

(2) «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطَّائين التوّابون ».

أخرجه ابن أبي شيبة 187/13 ، وأحمد 198/3، والترمذي (2499)، وابن ماجه (4251) والحاكم 272/4 وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في شعب الإيمان 420/5، والدارمي 392/2، وأبو يعلى 301/5 وعبد بن حميد 360/1.

2) تفسيرُ القرآنِ العظيمِ، لمؤلِّفهِ: عمادُ الدِّينِ أبِي الفداءِ إسماعيلُ بنِ عمرَ بنِ كثيرٍ:

قالَ السُّيوطِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ ابنِ كثيرٍ: لمْ يؤلَّفْ علَى نمطهِ مثلهُ[1].

وتفسيرهُ رحمهُ اللهُ تعالَى منَ التَّفسِيرِ بالمأثورِ، يفسِّر الآيةَ بالآيةِ فبالحديثِ فبقولِ الصَّحابةِ، وشهرتهُ تعقبُ شهرةَ الطَّبرِيِّ عندَ المتأخِّرينَ.

وتفسيرهُ سهلُ العبارةِ، جيِّدُ الصِّياغةِ، ليسَ بالطَّويلِ المملِّ، ولَا بالقصيرِ المخلِّ.

يفسِّرُ الآيةَ بالآيةِ، ويسوقُ الآياتِ المتناسبةِ معَ مَا يفسِّرهُ منَ الآياتِ، ثمَّ يسردُ الأحاديثَ الواردةَ فِي موضوعِ الآيةِ، ويسوقُ بعضَ أسانيدهَا وبخاصَّةٍ مَا يرويهِ الإمامُ أحمدُ فِي مسندهِ، وهوَ رحمهُ اللهُ تعالَى منْ حفظةِ المسندِ، ويتكلَّمُ علَى الأحاديثِ تصحيحًا وتضعيفًا غالبًا، وهيَ ميزةٌ عظيمةٌ فِي تفسيرهِ، ثمَّ يذكرُ أقوالَ السَّلفِ منَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، ويوفِّقُ بينَ الأقوالِ، ويستبعدُ الخلافَ الشَّاذَّ[2].

قالَ عنهُ محمَّدٌ بنُ جعفرَ الكتَّانِي: إنَّهُ مشحونٌ بالأحاديثِ والآثارِ بأسانيدِ مخرجيهَا معَ الكلامِ عليهَا صحَّةً وضعفًا[3].

---

(1)" تذكرة الحفاظ " (ص 534).

(2) موقع الاسلام سؤال وجواب محمد صالح المنجد.

(3) " الرسالة المستطرفة " (ص 195).

منـهجُ ابنِ كثيرٍ فِي التَّفسيرِ:

إنَّ النَّاظرَ فِي تفسيرِ هذَا الإمامِ الحافظِ رحمهُ اللهُ تعالَى، يعلمُ رسوخهُ فِي العلمِ، فقدِ امتازَ هذَا التَّفسيرُ بميزاتٍ متعدِّدةٍ توضِّحُ منهجَ الحافظِ فِي كتابهِ فمنهَا:

أ) امتازَ هذَا التَّفسيرُ بسهولةِ العبارةِ وجزالتهَا، بأسلوبٍ مختصرٍ.

ب) يذكرُ الرِّواياتِ بأسانيدهَا فِي الغالبِ، ويحكمُ علَى الرِّواياتِ فِي الغالبِ، فإنْ كانتْ ضعيفةً بيَّنَ علَّتهَا، ويسكتُ عنْ بعضِ الرِّواياتِ فلَا يذكرُ لهَا حكمًا.

ج) يفسِّرُ القرآنَ بالقرآنِ، حتَّى يتبيَّنَ المرادُ، وأحيانًا يذكرُ الآياتِ المتشابهةِ، ويذكرُ القراءاتِ، وأسبابِ النُّزولِ.

د) ثمَّ إنَّهُ فِي آياتِ الصِّفاتِ سلكَ مسلكَ الحقِّ والصَّوابِ بخلافِ كثيرٍ منَ المفسِّرينَ.

هـ) إنْ لمْ يجدْ ماَ يفسِّرهُ بالقرآنِ فسَّرهُ بسنَّةِ النَّبيِّ ﷺ، وينقلُ أقوالَ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهمْ، ويذكرُ أقوالَ التَّابعينَ ثمَّ أتباعِ التَّابعينَ، بلْ إنَّهُ ينقلُ حتَّى عنِ الإمامِ الطَّبرِي رحمهُ اللهُ تعالَى.

وقدْ بيَّنَ رحمهُ اللهُ تعالَى منهجهُ فِي التَّفسيرِ فقالَ: "إنَّ أصحَّ الطُّرقِ فِي ذلكَ أنْ يفسَّرَ القرآنُ بالقرآنِ، فمَا أجملَ فِي مكانٍ فإنَّهُ قدْ فسِّرَ فِي موضعٍ آخرَ، فإنْ أعياكَ ذلكَ فعليكَ بالسُّنَّةِ فإنَّهَا شارحةٌ للقرآنِ وموضحةٌ لهُ...، وحينئذٍ، إذَا لمْ نجدِ التَّفسيرَ فِي القرآنِ ولَا فِي السُّنَّةِ، رجعنَا فِي ذلكَ إلَى أقوالِ الصَّحابةِ، فإنَّهمْ أدرَى بذلكَ، لمَا شاهدُوا منَ القرائنِ

والأحوالِ التِي اختصُوا بهَا، ولمَا لهمْ منَ الفهمِ التَّامِّ، والعلمِ الصَّحيحِ، والعملِ الصَّالحِ، لَا سيَّمَا علماؤهمْ وكبراؤهمْ، كالأئمَّةِ الأربعةِ والخلفاءِ الرَّاشدينَ، والأئمَّةِ المهديِّينَ، وعبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ، رضيَ اللهُ عنهمْ أجمعينَ"[1].

وبيَّنَ منهجهُ رحمهُ اللهُ تعالَى منَ الإسرائيليَّاتِ فقالَ: "هذهِ الأحاديثُ الإسرائيليَّةُ تُذكرُ للاستشهادِ، لَا للاعتضادِ، فإنَّهَا علَى ثلاثةِ أقسامٍ:

أحدهَا: مَا علمنَا صحتَّهُ ممَّا بأيدينَا ممَّا يشهدُ لهُ بالصِّدقِ، فذاكَ صحيحٌ.

والثَّانِي: مَا علمنَا كذبهُ بمَا عندنَا ممَّا يخالفهُ.

والثَّالثُ: مَا هوُ مسكوتٌ عنهُ لَا منْ هذَا القبيلِ ولَا منْ هذَا القبيلِ، فلَا نؤمنُ بهِ ولَا نكذِّبهُ، وتجوزُ حكايتهُ لمَا تقدَّمَ، وغالبُ ذلكَ ممَّا لَا فائدةَ فيهِ تعودُ إلَى أمرٍ دينِيٍّ؛ ولهذَا يختلفُ علماءُ أهلِ الكتابِ فِي هذَا كثيرًا، ويأتِي عنِ المفسِّرينَ خلافٌ بسببِ ذلكَ، كمَا يذكرونَ فِي مثلِ هذَا أسماءَ أصحابِ الكهفِ، ولونَ كلبهمْ، وعدَّتهمْ، وعصَا موسَى منْ أيِّ الشَّجرِ كانتْ؟ وأسماءَ الطُّيورِ التِي أحياهَا اللهُ لإبراهيمَ، وتعيينِ البعضِ الذِي ضُربَ بهِ القتيلُ منَ البقرةِ، ونوعِ الشَّجرةِ التِي كلَّمَ اللهُ منهَا موسَى، إلَى غيرِ ذلكَ ممَّا أبهمهُ اللهُ تعالَى فِي القرآنِ، ممَّا لَا فائدةَ فِي تعيينهِ تعودُ علَى المكلَّفينَ فِي دنياهمْ ولَا دينهمْ، ولكنَّ نقلَ الخلافِ عنهمْ فِي ذلكَ جائزٌ... فهذَا أحسنُ مَا يكونُ فِي حكايةِ الخلافِ: أنْ تستوعبَ الأقوالَ فِي ذلكَ المقامِ، وأن تُنبِّهَ علَى الصَّحيحِ منهَا وتُبطلُ الباطلَ، وتذكرُ فائدةَ الخلافِ وثمرتهِ؛ لئلَّا يطولَ

النِّزاعُ والخلافُ فيمَا لَا فائدةَ تحتهُ، فتشتغلُ بهِ عنِ الأهمِّ فالأهمِّ، فأمَّا منْ حكَى خلافًا فِي مسألةٍ ولمْ يستوعبْ أقوالَ النَّاسِ فيهَا فهوَ ناقصٌ، إذْ قدْ يكونُ الصَّوابُ فِي الذِي تركهُ، أوْ يحكِي الخلافَ ويطلقهُ ولَا ينبِّهُ علَى الصَّحيحِ منَ الأقوالِ، فهوَ ناقصٌ أيضًا، فإنْ صحَّحَ غيرَ الصَّحيحِ عامدًا فقدْ تعمَّدَ الكذبَ، أوْ جاهلًا فقدْ أخطأَ، وكذلكَ منْ نصبَ الخلافَ فيمَا لَا فائدةَ تحتهُ، أوْ حكَى أقوالاً متعدِّدةً لفظًا ويرجعُ حاصلهَا إلَى قولٍ أوْ قولينِ معنَى، فقدْ ضيَّعَ الزَّمانَ، وتكثَّرَ بمَا ليسَ بصحيحٍ، فهوَ كلابسٍ ثوبَيْ زورٍ، واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ"[2].

ثمَّ بيَّنَ أنَّهُ إذَا لمْ يجدِ التَّفسيرَ فِي القرآنِ ولَا فِي السُّنَّةِ ولَا وجدهُ عنِ الصَّحابةِ فإنَّهُ يرجعُ إلَى أقوالِ التَّابعينَ، خاصَّةً كبارهمْ، فقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: إذَا لمْ تجدِ التَّفسيرَ فِي القرآنِ ولَا فِي السُّنَّةِ ولَا وجدتهُ عنِ الصَّحابةِ، فقدْ رجعَ كثيرٌ منَ الأئمَّةِ فِي ذلكَ إلَى أقوالِ التَّابعينَ، كمجاهدِ بنِ جبرٍ فإنَّهُ كانَ آيةً فِي التَّفسيرِ...، ولهذَا كانَ سفيانُ الثَّورِيُّ يقولُ: إذَا جاءكَ التَّفسيرُ عنْ مجاهدٍ فحسبكَ بهِ"، وكسعيدٍ بنِ جبيرٍ، وعكرمةَ مولَى ابنِ عبَّاسَ، وعطاءِ بنِ أبِي رباحٍ، والحسنِ البصرِيُّ، ومسروقٍ ابنِ الأجدعِ، وسعيدٍ بن المسيَّبِ، وأبِي العاليةَ، والرَّبيعِ بنِ أنسٍ، وقتادةَ، والضَّحَّاكِ بنِ مزاحمٍ، وغيرهمْ منَ التَّابعينَ وتابعيهمْ ومنْ بعدهمْ، فتذكرُ أقوالهمْ فِي الآيةِ فيقعُ فِي عباراتهمْ تباينٌ فِي الألفاظِ، يحسبهَا منْ لَا علمَ عندهُ اختلافًا فيحكيهَا أقوالًا وليسَ كذلكَ، فإنَّ منهمْ منْ يعبِّرُ عنِ الشَّيءِ بلازمهِ أوْ بنظيرهِ، ومنهمْ منْ ينصُّ علَى الشَّيءِ بعينهِ، والكلُّ بمعنًى واحدٍ فِي كثيرٍ منَ الأماكنِ، فليتفطَّنُ اللَّبيبُ لذلكَ، واللهُ الهادِي"[3].

ثمَّ ذكرَ قولَ شعبةَ بنِ الحجَّاج وغيرهِ بأنَّ "أقوالَ التَّابعينَ فِي الفروعِ ليستْ حجَّةً" يعنِي: أَنَّهَا لَا تكونُ حجَّةً علَى غيرهِمْ ممَّنْ خالفهمْ، وهذَا صحيحٌ، أمَّا إذَا أجمعُوا علَى الشَّيءِ فلَا يرتابُ فِي كونهِ حجَّةً، فإنِ اختلفُوا فلَا يكونُ بعضهمْ حجَّةً علَى بعضٍ، ولَا علَى منْ بعدهمْ، ويُرجعُ فِي ذلكَ إلَى لغةِ القرآنِ أوِ السُّنَّةِ أوْ عمومِ لغةِ العربِ، أوْ أقوالِ الصَّحابةِ فِي ذلكِ"(4).

وبيَّنَ رأيهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ القرآنِ بمجرَّدِ الرَّأيِ وأنَّ هذَا حرامٌ لَا يجوزُ(5).

---

(1) تفسير ابن كثير (1/ 7)، بتصرف يسير.

(2) تفسير ابن كثير (1/ 9).

(3) تفسير ابن كثير (10/1)، بتصرف يسير.

(4) المصدر السابق.

(5) انظر: المصدر السابق (10/1).

المآخذُ علَى تفسيرِ ابنِ كثيرٍ:

تفسيرُ الحافظِ ابنِ كثيرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى منْ أنفعِ التَّفاسيرِ وأحسنِهَا، فقدْ قالَ العلَّامةُ أحمدُ شاكرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى عنهُ: " فإنَّ تفسيرَ الحافظِ ابنِ كثيرٍ أحسنُ التَّفاسيرِ التِي رأينَا، وأجودُهَا وأدقُّهَا بعدَ تفسيرِ إمامِ المفسِّرينَ أبِي جعفرٍ الطبرِي"[1].

إلَّا أنَّ ابنَ كثيرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى غيرُ معصومٍ وقدْ صدقَ قولُ العلَّامةِ ابنُ رجبٍ رحمهُ اللهُ تعالَى حينَ قالَ: " ويأبَى اللهُ العصمةَ لكتابٍ غيرَ كتابِهِ"[2].

وقدْ وهمَ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى فِى مواقعَ فِي تفسيرهِ منهَا قولهُ:" فأمَّا الحديثُ الآخرُ فِي الصَّحيحينِ "ألَا أخبركمْ بشرِّ الشهداءِ؟ الذينَ يشهدونَ قبلَ أنْ يستشهدُوا".

هكذَا قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى، وهذَا وهمٌ منهُ، فهذَا الحديثُ ليسَ موجودًا فِي الصَّحيحينِ، ولذلكَ علَّقَ العلَّامةُ الألبانِيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى علَى ذلكَ حيثُ قالَ: "وقدْ وهمَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ وهمًا فاحشًا فِي آخرِ تفسيرِ سورةِ "البقرةِ"؛ فذكرَ أنَّهُ "فِي الصَّحيحينِ"[3].

وهذهِ الأخطاءُ يقعُ فيهَا كلُّ عالمٍ، فالمآخذُ التِي فِي كتابِ ابنِ كثيرٍ منْ هذَا النَّوعِ، ويبقَى كتابُ ابنِ كثيرٍ كتابُ تفسيرٍ بالمأثورِ موازيًا لتفسيرِ الطَّبرِيِّ أوْ بعدهُ، وهوَ ثروةٌ إسلاميَّةٌ لَا يُستغنَى عنهَا بحالٍ، فرحمَ اللهُ ابنَ كثيرٍ.

---

(1) عمدة التفسير (1/ 9)، الطبعة الثانية، 1426هـ - 2005م، نشر دار الوفاء، دار ابن حزم.

(2) القواعد لابن رجب.

(3) السلسلة الظَّعيفة.

3) معالمُ التَّنزيلِ لمؤلِّفهِ الحسينُ بن مسعودٍ بن محمَّدٍ المعروفِ بالفرَّاءِ البغوِي:

سُئِلَ شيخُ الإسلامِ ابنِ تيميَّةُ ... أيُّ التَّفاسيرِ أقربُ إلَى الكتابِ والسُّنَّةِ؟ الزَّمخشرِي؟ أمِ القرطبِي؟ أمِ البغوِي؟ أوْ غيرِ هؤلاءِ؟

قالَ: ... وأمَّا التَّفاسيرُ الثَّلاثةُ المسئولُ عنهَا فأسلمهَا منَ البدعةِ والأحاديثِ الضَّعيفةِ "البغوِي"، لكنَّهُ مختصرٌ منْ تفسيرِ الثَّعلبِي وحذفَ منهُ الأحاديثَ الموضوعةَ، والبدعَ التِي فيهِ، وحذفَ أشياءَ غيرَ ذلكَ(1).

منهجُ البغوِيِّ فِي تفسيرهِ، والباعثُ علَى تأليفهِ لكتابِ (معالمِ التَّنزيلِ):

كتابُ معالمِ التَّنزيلِ يُعدُّ منْ أشهرِ كتبِ التَّفسيرِ بالمأثورِ، وهوَ تفسير لكلِّ القرآنِ معَ مقدمَّةٍ للمؤلِّفِ يستهلُّهَا بحمدِ اللهِ والصَّلاةِ والسَّلامِ علَى رسولهِ، ثمَّ يبيِّنُ مهمَّةَ إرسالِ الرَّسولِ ﷺ وإنزالِ الكتابِ المعجزِ عليهِ، ثمَّ يذكرُ مَا اشتملَ عليهِ القرآنُ منَ الأمورِ عقيدةً وفقهًا وقصصًا وحكمًا.

ثمَّ ينتقلُ إلَى دواعِي تأليفهِ لتفسيرهِ فيقولُ: (فسألنِي جماعةٌ منْ أصحابِي المخلصينَ وعلَى اقتباسِ العلمِ مقبلينَ، كتابًا فِي معالمِ التَّنزيلِ وتفسيرهِ، فأجبتهمْ إليهِ معتمدًا علَى فضلِ اللهِ تعالَى وتيسيرهِ ممتثلًا وصيَّة رسولِ اللهِ ﷺ فيهمْ، فيمَا يرويهِ أبُو سعيدِ الخدرِي أنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قالَ: (إنَّ رجالاً

يأتونكمْ منْ أقطارِ الأرضِ يتفقَّهونَ فِي الدِّينِ، فإذَا أتوكمْ فاستوصُوا بهمْ خيرًا)[2].

ويقدِّمُ البغوِيُّ بعدَ ذلكَ الطَّريقةَ التِي اختارهَا وجعلَ عليهَا تفسيرهُ وهيَ التَّوسُّطُ والاعتدالُ فيقولُ: (فجمعتُ بعونِ اللهِ تعالَى وحسنِ توفيقهِ فيمَا سألُوا كتابًا متوسِّطًا بينَ الطَّويلِ المملِّ والقصيرِ المخلِّ، أرجُو أنْ يكونَ مفيدًا لمنْ أقبلَ علَى تحصيلهِ).

ثمَّ يبيِّنُ البغوِيُّ معنَى التَّفسيرِ والتَّأويلِ والفرقِ بينهمَا ومعنَى نزولِ القرآنِ علَى سبعةِ أحرفٍ، ثمَّ ينطلقُ إلَى تفسيرِ كتابِ اللهِ تعالَى سورةً سورةً، منْ سورةِ الفاتحةِ حتَّى سورةِ النَّاسِ[3].

وللبغويِّ منهجٌ متميِّزٌ فِي التَّفسيرِ، حيثُ يعتمدُ علَى عناصرَ أساسيَّةٍ وهيَ: اعتمادهُ علَى المأثورِ منَ الكتابِ والسُّنَّةِ النَّبويَّةِ وأقوالِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، معَ عنايتهِ بالقراءاتِ واللُّغةِ والنَّحوِ بإيجازٍ يحقِّقُ فهمَ الآياتِ، وذكرهِ لمسائلِ العقيدةِ والأحكامِ الفقهيَّةِ بطريقةٍ مختصرةٍ، وهذَا تفصيلُ منهجهِ فِي التَّفسيرِ.

---

(1) مجموع الفتاوى صـ 385

(2) تحفة الأحوذي 346

(3) (البغوي ومنهجه في التفسير) عفاف عبدالغفور.

أ) تفسيرُ القرآنِ بالقرآنِ:

يعتمدُ تفسيرُ (معالمِ التَّنزيلِ) علَى كتابِ اللهِ تعالَى اعتمادًا كبيرًا، وهناكَ منَ الأمثلةِ فِي تفسيرهِ الكثيرُ.

ب) تفسيرُ القرآنِ بالسُّنَّةِ:

يُعتبرُ الإمامُ البغويُّ محيِ السُّنَّةِ وأبرزِ أعلامِ عصرهِ فِي ميدانِ الحديثِ والسُّنَّةِ، ولمْ يزلْ كذلكَ فِي العصورِ التَّاليةِ لمَا تركهُ منْ آثارٍ ومؤلَّفاتٍ نفيسةٍ فِي السُّنَّةِ النَّبويَّةِ وعلَى رأسهَا (مصابيحُ السُّنَّةِ) و(شرحُ السُّنَّةِ).

ويتميَّزُ البغويُّ فِي تفسيرهِ بجودةِ اختيارهِ وانتخابهِ لنصوصِ الحديثِ التِي يوردهَا فِي مطاوِي التَّفسيرِ وتحرِّيهِ، وحرصهِ علَى الصَّحيحِ منهَا، وبُعدهِ وإعراضهِ عنِ الضَّعيفِ والمنكرِ منَ الأحاديثِ ممَّا لَا يتناسبُ ولَا يتفِّقُ معَ تفسيرِ كتابِ اللهِ تعالَى، وحولَ هذَا يقولُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي مقدِّمةِ تفسيرهِ: (ومَا ذكرتُ منْ أحاديثِ رسولِ اللهِ ﷺفِي أثناءِ الكتابِ علَى وفاقِ آيةٍ أوْ بيانِ حكمٍ، فهيَ منَ الكتابِ المسموعةِ للحفَّاظِ وأئمَّةِ الحديثِ، وأعرضتُ عنْ ذكرِ المناكيرِ ومَا لَا يليقُ بحالِ التَّفسيرِ)[1].

ج) حرصهُ فِي تفسيرهِ علَى المأثورِ منْ أقوالِ الصَّحابةِ والتابعينَ:

جاءَ تفسيرُ الإمامِ البغوِيِّ فضلاً عنِ اعتمادهِ علَى الكتابِ والسُّنَّةِ اعتمادًا ظاهرًا، معتمدًا علَى المأثورِ منْ تفسيرِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، وهوَ اعتمادٌ يكادُ يكونُ مطلقًا،

---

(1) مقدِّمة تفسير البغوي.

ومقدِّمةُ تفسيرِهِ تكشفُ لنَا بوضوحٍ عنِ اتِّجاهِهِ النقلِيِّ فِي تفسيرِ آياتِ كتابِ اللهِ تعالَى، فمصادرُ تفسيرِهِ فِي المقامِ الأوَّلِ: كتبُ التَّفسيرِ بالمأثورِ وقدْ بلغتْ مصادرهُ فِي المأثورِ والأخبارِ خمسةَ عشرَ مصدرًا، منهَا: ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ بنُ جبرٍ، وعطاءُ بنُ أبِي رباحٍ، والحسنُ البصرِيِّ، وقتادةُ، وأبُو العاليةَ، والقُرظِي، وزيدٍ بنِ أسلمٍ، والكلبِيِّ، والضَّحاكِ، ومقاتلِ بنِ سليمانَ...

المآخذُ علَى تفسيرِ البغويِّ:

تقريبًا أشادَ بتفسيرِ البغويِّ جميعُ العلماءِ، منهمُ الإمامُ الذهبِي[1] إلَّا أنَّ الانتقادَ الأساسِيَّ علَى تفسيرِهِ كانَ بأخذهِ بالإسرائيليَّاتِ فِي بعضِ المواضعِ.

ولأهميَّةِ الكتابِ فِي علمِ التَّفسيرِ قامَ بعضُ العلماءِ باختصارِهِ، وآخرونَ اقتبسُوا منهُ أجزاءً لكتبِهمْ.

ومنْ ذلكَ أنْ قامَ علاءُ الدِّينِ عليُّ بنُ إبراهيمَ (المعروفِ بالخازنِ، المتوفَّي سنةَ 725) بكتابةِ تفسيرِهِ "لبابُ التَّأويلِ" مختصرًا منْ كتابِ معالمِ التَّنزيلِ للبغوِيِّ، وقدْ أضافَ عليهِ مَا كانَ يراهُ ملائمًا.

كمَا استفادَ منهُ برهانُ الدِّينِ الزَّركشِي عندَ كتابةِ كتابهِ "البرهانُ".

---

(1) طبقات الحفاظ، ص. 457.

4) تفسيرُ القرآنِ العظيمِ، لمؤلِّفهِ ابنِ أبِي حاتمٍ الرَّازِي:

قدِ احتلَّ تفسيرُ الإمامِ ابنُ أبِي حاتمٍ مكانةً مرموقةً بينَ كتبِ التَّفسيرِ بالمأثورِ، وأثنَى عليهِ أهلُ العلمِ ثناءً عطرًا، ومِنْ أقوالِهِمْ فيهِ:

قالَ الإمامُ الذَّهبِي: "قلَّ أنْ يُوجدَ مثلهُ"[1].

ونعَتهُ أيضًا بأنَّهُ: "منْ أحسنِ التَّفاسيرِ"[2].

وقالَ الإمامُ ابنُ كثيرٍ: "ولهُ (التَّفسيرُ) الحافلُ الذِي اشتملَ علَى النَّقلِ الكاملِ، الذِي يُرْبِي فيهِ علَى (تفسيرِ ابنِ جريرٍ) وغيرهِ منَ المفسِّرينَ"[3].

وقالَ العلَّامةُ ابنُ قاضِي شهبةَ: "صنَّفَ الكتبَ المهمَّةَ، كالتَّفسيرِ الجليلِ المقدارِ"[4] (يقصدُ تفسيرَ القرآنِ العظيمِ).

وقالَ الإمامُ الزَّرْكَشِي: "ثُمَّ إنَّ محمَّدَ بنِ جريرٍ الطَّبرِي جمعَ علَى النَّاسِ أشتاتَ التَّفاسيرِ وقرَّبَ البعيدَ، وكذلكَ عبدُ الرَّحمنِ بنِ أبِي حاتمٍ الرَّازِي"[5].

---

(1) «تاريخ الإسلام» (7/534).

(2) «سير أعلام النبلاء» (13/264).

(3) «البداية والنهاية» (15/113).

(4) «طبقات الشَّافعية» (1/79).

(5) «البرهان في علوم القرآن» (2/159).

منهجُ ابنِ أبي حاتمٍ فِي تفسيرهِ:

فسَّرَ ابنُ أبِي حاتمٍ القرآنَ كلَّهُ، محاولًا أنْ يجعلَ منْ تفسيرهِ مدوَّنةً كبيرةً للتَّفسيرِ المأثورِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، والصَّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهِمْ، والتَّابعينَ وأتباعِ التَّابعينَ وتبعِ أتباعِ التَّابعينَ، وقدِ اقتصرَ رحمهُ اللهُ تعالَى علَى المرويَّاتِ التَّفسيريَّةِ المأثورةِ بأصحِّ الأسانيدِ التِي بلغتهُ.

ومنْ هنَا يمكننَا اعتبارُ تفسيرِ ابنِ أبِي حاتمٍ موسوعةً للتَّفسيرِ المأثورِ المُسندِ، كمَا يعتبرُ مصدرًا مهمًّا للتُّراثِ التَّفسيرِي المفقودِ، حيثُ أنَّهُ عملَ علَى جمعِ تفاسيرِ أعلامِ المفسِّرينَ منَ السَّلفِ الصَّالحِ الذينَ ضاعتْ أصولهمْ التَّفسيريَّةُ، ليصبحَ تفسيرُ ابنِ أبِي حاتمٍ منَ المصادرِ القليلةِ التِي احتفظتْ بهذهِ الدُّررِ النَّفيسةِ.

وفضلًا عنِ التَّفسيرِ فابنُ أبِي حاتمٍ هوَ صاحبُ المؤلَّفِ الشَّهيرِ فِي الجرحِ والتَّعديلِ، الذِي طبعَ بالهندِ.

يقولُ ابنُ أبِي حاتمٍ رحمهُ اللهُ تعالَى عنْ أسبابِ تأليفهِ لهذَا التَّفسيرِ، والطَّريقةِ التِي سلكهَا فيهِ: "سألنِي جماعةٌ منْ إخوانِي إخراجَ تفسيرِ القرآنِ مختصرًا بأصحِّ الأسانيدِ، وحذفِ الطُّرقِ والشَّواهدِ والحروفِ والرِّواياتِ، وتنزيلِ السُّورِ، وأنْ نقصدَ لإخراجِ التَّفسيرِ مجرَّدًا دونَ غيرهِ، متقصٍّ تفسيرَ الآيِ حتَّى لَا نتركَ حرفًا منَ القرآنِ يوجدُ لهُ تفسيرٌ إلَّا أخرجَ ذلكَ، فأجبتهمْ إلَى مُلتمسهمْ، وباللهِ التَّوفيقُ، وإيَّاهُ نستعينُ، ولَا حولَ ولَا قوَّة إلَّا باللهِ.

فتحرَّيتُ إخراجَ ذلكَ بأصحِّ الأخبارِ إسنادًا، وأشبعهَا متنًا، فإذَا وجدتُ التَّفسيرَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺلمْ أذكرْ معهُ أحدًا منَ الصَّحابةِ ممَّنْ أتَى بمثلِ ذلكَ، وإذَا وجدتهُ عنِ الصَّحابةِ فإنْ كانُوا متَّفقينَ ذكرتهُ عنْ أعلاهمْ درجةً بأصحِّ الأسانيدِ، وسمَّيتُ موافقيهمْ بحذفِ الإسنادِ، وإنْ كانُوا مختلفينَ ذكرتُ اختلافهمْ وذكرتُ لكلِّ واحدٍ منهمْ إسنادًا، وسمَّيتُ موافقيهمْ بحذفِ الإسنادِ، فإنْ لمْ أجدْ عنِ الصَّحابةِ ووجدتهُ عنِ التَّابعينَ عملتُ فيمَا أجدُ عنهمْ مَا ذكرتهُ منَ المثالِ فِي الصَّحابةِ، وكذَا أجعلُ المثالَ فِي أتباعِ التَّابعينَ وأتباعهمْ، جعلَ اللهُ ذلكَ لوجههِ خالصًا ونفعَ بهِ"[1].

كمَا استدركَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي مقدِّمةِ تفسيرهِ سندَ بعضَ أعلامِ التَّفسيرِ الذينَ كثرتْ الرِّوايةُ عنهمْ، ومنْ ثمَّ فإنَّهُ لمْ يذكرْ سندهمْ عندَ ورودِ كلِّ مرويَّةٍ منْ مرويَّاتهمْ، وذلكَ توخيًّا للاختصارِ وعدمِ التِّكرارِ فقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى:

"فأمَّا مَا ذكرنَا عنْ أبِي العاليةِ فِي سورةِ البقرةِ بلَا إسنادٍ فهوَ مَا حدَّثنَا عصامُ بنِ روادٍ العسقلانِي ثنَا آدمُ عنْ أبِي جعفرٍ الرَّازِي عنِ الرَّبيعِ بنِ أنسٍ عنْ أبِي العاليةِ.

ومَا ذكرنَا فيهِ عنِ السَّدِي بلَا إسنادٍ فهوَ مَا حدَّثنَا أبُو زرعةَ ثنَا عمرٌو بنِ حمَّادَ بنِ طلحةَ ثنَا أسباطٌ عنِ السَّدِي.

ومَا ذكرنَا عنِ الرَّبيعِ بنِ أنسٍ بلَا إسنادٍ فهوَ مَا حدَّثنَا أحمدُ بنِ عبدِ الرَّحمنِ الدَّشتكِي ثنَا عبدُ اللهِ بنِ أبِي جعفرٍ عنِ الرَّبيعِ بنِ أنسٍ.

(1) (مقدمة تفسير ابن أبي حاتم الرازي) .

ومَا ذكرنَا فيهِ عنْ مقاتلٍ فهوَ مَا قرأتُ علَى محمَّدٍ بنِ الفضلِ بنِ موسَى عنْ محمَّدٍ بنِ عليٍّ بنِ الحسينِ بنِ شقيقٍ عنْ محمَّدٍ بنِ مزاحمٍ عنْ بكيرٍ بنِ معروفٍ عنْ مقاتلٍ[1].

ويمكننَا أنْ نوجزَ منهجَ ابنِ أبِي حاتمٍ الرَّازِي فِي الخطواتِ المنهجيَّةِ التَّاليةِ:

أ) يذكرُ الآيةَ موضوعَ التَّفسيرِ.

ب) يذكرُ السَّندَ كاملًا.

ج) يذكرُ المرويَّةَ التَّفسيريَّةَ.

د) كمَا أنَّ لهُ طريقةً لَا تكادُ تتخلفُ فِي ترتيبِ المرويَّاتِ التَّفسيريَّةِ، حيثُ يبدأُ بالأحاديثِ النَّبويَّةِ الشَّريفةِ، ويعقبهَا بمرويَّاتِ الصَّحابةِ فالتَّابعينَ فأتباعِ التَّابعينَ، فتبعِ أتباعِ التَّابعينَ.

---

(1) (مقدمة تفسير ابن أبي حاتم الرازي).

منَ المآخذِ علَى تفسيرِ ابنِ أبِي حاتمٍ:

أنَّهُ لَا يبدأُ بتفسيرِ الآيةِ ثمَّ يوردُ الأحاديثَ النَّبويَّةَ الشَّريفةَ ومرويَّاتِ السَّلفِ فِي التَّفسيرِ الموافقةِ للمعنَى الذِي يراهُ، كمَا أنَّهُ لَا يرجِّحُ بينَ هذهِ المرويَّاتِ، ولَا يذكرُ أحوالَ السَّندِ، ممَّا جعلَ بعضَ مرويَّاتهِ تتَّسمُ بالضَّعفِ، وأحيانًا بالضَّعفِ الشَّديدِ، ومنهَا الضَّعيفُ الذي لَا ينجبرُ، ممَّا يحتِّمُ النَّظرَ فِي أحوالِ السَّندِ توخيًّا لأصحِّ المرويَّاتِ التَّفسيريَّةِ.

ومعَ هذَا فقدْ تقدَّمَ جهابذةُ العلمِ منَ المعاصرينَ فحقَّقوا تلكَ الأسانيدِ، فميَّزوا الصَّحيحَ منهَا منَ الضَّعيفِ، والمحفوظَ منهَا منَ الشَّاذِ، والمعلولَ منهَا منَ السَّليمِ، فكانَ تفسيرُ ابنُ أبِي حاتمٍ بذلكَ تفسيرًا آيةً فِي الإبداعِ، وتعرفُ منهُ تمكينَ صاحبهِ منْ هذَا الفنِّ، ومنَ القلمِ تعرفُ صاحبَهُ.

5) الجامعُ لأحكامِ القرآنِ، والمبيِّنِ لمَا تضمَّنَ منَ السُّنَّةِ وأحكامِ الفرقانِ لمؤلِّفهِ: محمَّدٌ بنُ أحمدَ بنِ أبِي بكرٍ بنِ فرْحِ القرطبِيِّ.

سُئِلَ شيخُ الإسلامِ ابنِ تيميةَ رحمهُ اللهُ تعالَى عنْ أيِّ التَّفاسيرِ أقربُ إلَى الكتابِ والسُّنَّةِ: الزَّمخشرِي، أمِ القرطبِي، أمِ البغوِي، أمْ غيرِ هؤلاءِ؟

فأجابَ رحمهُ اللهُ تعالَى: .... وأمَّا الزَّمخشرِيُّ فتفسيرهُ محشوٌّ بالبدعةِ، وعلَى طريقةِ المعتزلةِ منْ إنكارِ الصِّفاتِ، والرُّؤيةِ، والقولِ بخلقِ القرآنِ، وأنكرَ أنَّ اللهَ مريدٌ للكائناتِ، وخالقٌ لأفعالِ العبادِ، وغيرَ ذلكَ منْ أصولِ المعتزلةِ ... وتفسيرُ القرطبِي خيرٌ منهُ بكثيرٍ، وأقربُ إلَى طريقةِ أهلِ الكتابِ والسُّنَّةِ، وأبعدَ عنِ البدعِ وإنْ كانَ كلٌّ منْ هذهِ الكتبِ لَا بدَّ أنْ يشتملَ علَى مَا يُنقدُ، لكنْ يجبُ العدلُ بينهَا وإعطاءُ كلُّ ذِي حقٍّ حقَّهُ ...[1].

ويمتازُ القرطبِي فِي تفسيرهِ: بعدمِ التَّعصُّبِ لمذهبٍ فقهِيٍّ معيَّنٍ، خاصَّةً مَا يتعلَّقُ بالمذهبِ المالكِي، فنجدُهُ فِي بعضِ المسائلِ يسوقُ رأيَ الإمامِ مالكٍ ثمَّ يرجِّحُ غيرهُ ممَّا يدلُّ عليهِ الدَّليلُ[2].

(1) مقدمة في أصول التفسير، صفحة41.

(2) كتاب التَّفسير مجموعة زاد للعلوم الشَّرعية/محمد صالح المنجد.

منهجُ القرطبِي فِي التَّفسيرِ:

قدَّمَ المؤلِّفُ لتفسيرهِ مقدِّمةً حافلةً ببيانِ فضائلِ القرآنِ وآدابِ حملتهِ، ومَا ينبغِي لصاحبِ القرآنِ أنْ يأخذَ نفسهُ بهِ، ثمَّ أوضحَ مقصدهُ وباعثهُ علَى كتابةِ هذَا التَّفسيرِ بقولهِ:

"وعملتهُ تذكرةً لنفسِي، وذخيرةً ليومِ رَمْسِي، وعملاً صالحًا بعدَ موتِي"(1)، وقدِ التزمَ القرطبِيُّ فِي هذَا التَّفسيرِ الأمانةَ العلميَّةَ، والموضوعيَّةَ فِي الإفادةِ منْ أسلافهِ؛ فقالَ:

"وشرطِي فِي هذَا الكتابِ إضافةُ الأقوالِ إلَى قائليهَا، والأحاديثِ إلَى مصنِّفيهَا، فإنَّهُ يقالُ: منْ بركةِ العلمِ أنْ يضافَ القولُ إلَى قائلهِ"(2)، وكانَ لَا يقفُ فِي تفسيرِ القرآنِ عندَ حدِّ مَا رُويَ منْ ذلكَ عنِ الرَّسولِ ﷺ والسَّلفِ الصَّالحِ، بلْ يتَّخذُ مَا أُوتيهُ منْ أدواتِ العلمِ وسيلةً يستعينُ بهَا علَى فهمهِ، وكانَ يقصدُ إلَى تفسيرِ القرآنِ الكريمِ ببيانِ التَّعبيرِ القرآنِي وأسرارهِ ومنزلتهِ منَ الكلامِ العربِي، ومنْ هنَا عُنِيَ باللُّغاتِ والإعرابِ والقراءاتِ؛ فكانَ يوردُ الآيةَ أوِ الآياتِ ويفسِّرهَا بمسائلَ يجمعهَا فِي أبوابٍ، فيقولُ مثلاً: تفسيرُ سورةِ الفاتحةِ، وفيهِ أربعةُ أبوابٍ؛ البابُ الأوَّلُ: فِي فضلهَا وأسمائهَا، وفيهِ سبعُ مسائلَ ويذكرهَا، البابُ الثَّانِي: فِي نزولهَا وأحكامهَا، وفيهِ عشرونَ مسألةً، البابُ الثَّالثُ: فِي التَّأمينِ، وفيهِ ثمانِي مسائلَ، البابُ الرَّابعُ: فيمَا تضمَّنتهُ الفاتحةُ منَ المعانِي والقراءاتِ والإعرابِ، وفضلِ الحامدينَ، وفيهِ ستٌّ وثلاثونَ مسألةً، وهكذَا، وتارةً يكونُ التَّفسيرُ بمسائلَ يعدُّهَا علَى نحوِ مَا تقدَّمَ منْ دونِ فتحِ بابٍ، ولَا ذكرِ عنوانٍ.

وكانَ القرطبيُّ فِي هذهِ المباحثِ أوِ المسائلِ ينتقلُ منْ تفسيرِ المفرداتِ اللُّغويَّةِ وإيرادِ الشَّواهدِ الشِّعريَّةِ، إلَى بحثِ اشتقاقِ الكلماتِ ومآخذهَا، إلَى تصريفهَا وإعلالهَا، إلَى تصحيحهَا وإعرابهَا، إلَى مَا قالهُ أئمَّةُ السَّلفِ فيهَا، إلَى مَا يختارهُ المؤلِّفُ أحيانًا منْ معانيهَا، وأحسنَ المؤلِّفُ كلَّ الإحسانِ بعزوِ الأحاديثِ إلَى مخرِّجيهَا منْ أصحابِ الكتبِ السِّتَّةِ وغيرهمْ، وقدْ يتكلَّمُ علَى الحديثِ متنًا وسندًا، قبولاً وردًّا[3].

وكانَ القرطبِيُّ يبيِّنُ أسبابَ النُّزولِ، ويذكرُ القراءاتِ واللُّغاتِ ووجوهِ الإعرابِ، وتخريجِ الأحاديثِ، وبيانِ غريبِ الألفاظِ، وتحديدِ أقوالِ الفقهاءِ، وجمعِ أقاويلِ السَّلفِ، ومنْ تبعهمْ منْ الخلفِ؛ ثمَّ أكثرَ منَ الاستشهادِ بأشعارِ العربِ، ونقلِ عمَّنْ سبقهُ فِي التَّفسيرِ، معَ تعقيبهِ علَى مَا يُنقلُ عنهُ، مثلَ ابنِ جريرٍ، وابنِ عطيَّةَ، وابنِ العربِي، وإلْكِيَا الهرَّاسِي، وأبِي بكرٍ الجصَّاصِ، وأضْربَ عنْ كثيرٍ منْ قصصِ المفسِّرينَ، وأخبارِ المؤرِّخينَ والإسرائيلياتِ، وذكرَ جانبًا منهَا أحيانًا؛ كمَا ردَّ علَى الفلاسفةِ والمعتزلةِ وغلاةِ المتصوِّفةِ وبقيَّةِ الفرقِ، ويذكرُ مذاهبَ الأئمَّةِ ويناقشهَا، ويمشِي معَ الدَّليلِ، ولَا يتعصَّبُ لمذهبهِ المالكِي، وقدْ دفعهُ الإنصافُ إلَى الدِّفاعِ عنِ المذاهبِ والأقوالِ التِي نالَ منهَا ابنُ العربِي المالكِي فِي تفسيرهِ، فكانَ القرطبِي حُرًّا فِي بحثهِ، نزيهًا فِي نقدهِ، عفيفًا فِي مناقشةِ خصومهِ، وفِي جدلهِ، معَ إلمامهِ الكافِي بالتَّفسيرِ منْ جميعِ نواحيهِ، وعلومِ الشَّريعةِ.

---

(1) رحمة الله الكيرانوي: إظهار الحق 395/2- 397. والبغدادي: هدية العارفين 56/2- 326.

(2) السَّابق.

(3) مشهور حسن محمود سلمان: الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير ص104- 109.

المآخذُ علَى تفسيرِ القرطبِي:

تفسيرُ القرطبِي اجمالًا هوَ أصلٌ منْ أصولِ أهلِ السُّنَّةِ، إلَّا أنَّ البعضَ رفضَ اعتمادهُ، هذَا لنزعةِ القرطبِي الأشعريَّةِ، ولكنْ هذَا لَا يردُّ كتابهُ فقدْ سُئِلَ الإمامُ ابنُ بازٍ رحمهُ اللهُ تعالَى عنْ تفسيرِ القرطبِي فقالَ: ... كذلكَ تفسيرُ القرطبِي، تفسيرٌ مفيدٌ وجيِّدٌ، ولكنْ مثلَ غيرهِ، يؤخذُ منْ قولهِ ويتركُ، مَا خالفَ الدَّليلَ يتركُ، منْ كلامِ القرطبِي أوِ ابنِ جريرٍ أوِ ابنِ كثيرٍ أوْ غيرهمْ، كلُّ مفسِّرٍ قدْ يقعُ لهُ بعضُ الأخطاءِ، قدْ يصحِّحُ بعضَ الأحاديثِ الضَّعيفةِ، قدْ يضعفُ بعضَ الأحاديثِ الصَّحيحةِ، إمَّا لكونهِ تكلَّمَ منْ حفظهِ فغلطَ، أوْ لأنَّهُ نسيَ مَا سبقَ لهُ أنْ علمهُ فِي شأنِ هذَا الحديثِ أوْ شأنِ هذَا الحكمِ، فأهلُ العلمِ يعرضونَ مَا ذكرهُ علماءُ التَّفسيرِ وغيرهمْ علَى الكتابِ والسُّنَّةِ، فمَا وافقَ الحقَّ قُبلَ منَ القرطبِي وغيرهِ ومَا خالفهُ رُدَّ، وليسَ بمعصومٍ لَا هوَ ولَا غيرهُ منْ أهلِ العلمِ منْ أهلِ التَّفسيرِ وغيرهمْ، ولكنَّ كتابهُ مفيدٌ جدًّا كثيرُ الفائدةِ قدْ عنِيَ فيهِ بالأدلَّةِ والأحكامِ، وهوَ كتابٌ مفيدٌ جدًّا، وهوَ مفسِّرٌ ملهمٌ موفَّقٌ لكنَّهُ ليسَ بمعصومٍ، كلٌّ يؤخذُ منْ قولهِ ويتركُ[1].

وهنَا قدْ أشارَ الشيخُ أنَّ منْ أخطاءِ القرطبِي تصحيحُ بعضِ الأحاديثِ الظَّعيفةِ لنسيانهِ أوْ غيرِ ذلكَ لكنَّهُ أقرَّ أنَّهُ تفسيرٌ جيِّدٌ ومفيدٌ.

ويبقَى تفسيرُ القرطبِي تفسيرًا محمودًا حتَّى وإنْ كانَ صاحبهُ أشعريًّا، فالكلُّ يؤخذُ منهُ ويردُّ إلَّا رسولَ اللهِ ﷺ.

(1) الموقع الرسمي للإمام ابن باز.

6) الدُّر المنثورُ فِي التَّفسيرِ بالمأثورِ، لمؤلِّفهِ: جلالُ الدِّينِ بنُ أبي بكرٍ بنِ محمَّدٍ السُّيوطي.

الدُّر المنثورُ فِي التَّفسيرِ بالمأثورِ هوَ كتابٌ منْ كتبِ التَّفسيرِ الضَّخمةِ بلْ يعدُّ موسوعةً تفسيريَّةً ضخمةً، ألَّفهُ الحافظُ السُّيوطِي، وحشدَ فيهِ مَا أُثرَ عنِ النَّبِي ﷺ والصَّحابةِ والتَّابعينَ منْ تفاسيرَ لآياتِ وسورِ القرآنِ، مقتصرًا فِي الرِّوايةِ علَى متونِ الأحاديثِ حاذفًا منهَا أسانيدهَا، مدوِّنًا كلَّ مَا ينقلهُ بالعزوِ والتَّخريجِ إلَى كلِّ كتابٍ رجعَ إليهِ، وجمعَ السُّيوطِي فِي كتابهِ مَا وردَ عنِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ فِي تفسيرِ الآياتِ، وضمَّ لهَا مَا وردَ فيهَا منَ الأحاديثِ المخرجةِ منْ كتبِ الصِّحاحِ والسُّنَّنِ وبقيَّةِ كتبِ الحديثِ، وحذفَ الأسانيدَ للاختصارِ، مقتصرًا علَى متنِ الحديثِ[1].

وقدِ اختصرَ السُّيوطِي هذَا التَّفسيرَ منْ كتابهِ (ترجمانُ القرآنِ) الذِي توسَّعَ فيهِ فِي ذكرِ الأحاديثِ المسندةِ مَا بينَ مرفوعٍ وموقوفٍ حتَّى بلغتْ بضعةَ عشرَ ألفَ حديثًا[2].

وجمعَ السُّيوطِي الرِّوياتِ التِي أوردهَا فِي تفسيرهِ منْ عدَّةِ مصادرَ منهَا: البخارِي، ومسلمٍ، والنَّسائِي، والتِّرمذِي، وأحمدَ، وأبِي داودَ، وابنِ جريرٍ، وابنِ أبِي حاتمٍ، وعبدٍ بنِ حميدٍ، وابنِ أبِي الدُّنيَا، وغيرهمْ منَ المتقدِّمينَ[3].

---

(1) المشكاة الإسلامية:الدر المنثور في التفسير بالمأثور-جلال الدين السيوطي نسخة محفوظة 17 مارس 2015 على موقع واي باك مشين.

(2) التفسير والمفسرون ، محمد حسين الذهبي،ج 1 :ص 253.

(3) التفسير والمفسرون للذهبي،ج 1:ص 245.

منهجُ السُّيوطِي فِي تفسيرهِ:

يذكرُ الإمامُ السُّيوطِي الآيةَ أوِ الآيتينِ فِي السُّورِ المدنيَّةِ الطوالِ، أوْ مجموعةٍ منَ الآياتِ فِي السُّورِ المكيَّةِ القصارِ، ثمَّ يفسِّرُ الكلمةَ أوِ الجملةَ بمَا هوَ مأثورٌ عنِ النَّبِيِّ ﷺ منْ بيانِ المعنَى، أوْ بمَا هوَ منقولٌ فِي كتبِ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ عنِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، وهوَ فِي ذلكَ يفيضُ إفاضةً شاملةً بكلِّ الرِّواياتِ المحكيَّةِ، بتخريجِ ذلكَ فِي الصِّحاحِ والمسانيدِ والمصنّفاتِ والسُّننِ والآثارِ عامَّةً، ففِي تفسيرهِ مثلًا لجملةِ: "الحَمْدُ للهِ" منَ الفاتحةِ يذكرُ سبعاً وثلاثينَ روايةً متقاربةً منهَا قولهُ: المعنَى، فالحمدُ: الشكرُ للهِ، أوِ الثَّناءُ على اللهِ، وفيهَا بيانُ فضيلةِ الحمدِ الخ... ويفسِّرُ كلمةَ "حَنِيفاً" بثمانِ رواياتٍ، منهَا: حنيفاً: حاجاً أوْ متَّبعاً أوْ مستقيماً أوْ مخلصاً، وفيهَا إيرادُ حديثِ: "بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ" أوْ"أحبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ: الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ"، دونَ بيانِ درجةِ صحَّةِ الحديثِ أوْ ضعفهِ. كمَا فسَّرَ جملةَ "ثَانِي عطفهِ" بثمانِ رواياتٍ، منهَا أنَّهُ المعرضُ منَ العظمةِ، أوْ لاوِي رأسهُ، أوْ لاوِي عنقهُ، أوِ المعرضُ عنِ الحقِّ، أوْ عنْ ذكرِ اللهِ تعالَى، معَ بيانِ منْ نزلتْ فْي شأنهِ (وهوَ النَّضرُ بنُ الحارثِ)، ويذكرُ فِي أوائلِ كلِّ سورةٍ، أوْ فِي أثناءِ بيانِ بعضِ آياتهَا، فضلهَا أوْ منزلتهَا وثوابَ تاليهَا وقارئهَا، كفضائلِ سورةِ البقرةِ وآلِ عمرانَ، وسورةِ الإخلاصِ والفلقِ والنَّاسِ وغيرِ ذلكَ، ويبيِّنُ صفةَ السُّورةِ ومكانِ نزولهَا، فهيَ مكيَّةٌ أوْ مدنيَّةٌ أوْ تشتملُ علَى كلتَا الصِّفتينِ، لوجودِ آياتٍ منهَا مدنيَّةٌ وأخرَى مكيَّةٌ، مثلَ سورةِ البقرةِ مدنيَّةٌ إلَّاَ آيةَ (281)،

وهيَ (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ....)، فنزلتْ فِي حجَّةِ الوداعِ، وأوردَ أنَّهَا آخرُ آيةٍ نزلتْ فِي القرآنِ علَى النَّبِيِّ ﷺ، وكانَ بينَ نزولِهَا وبينَ موتِ النَّبِيِّ ﷺ أحدَ وثمانونَ يوماً، أوْ تسعَ ليالٍ.

وأسلوبهُ رحمهُ اللهُ تعالَى: تاريخيٌّ محضٌّ، فيذكرُ كلَّ روايةٍ معَ سردِ أسماءِ المخرِّجينَ لهَا فِي الكتبِ السِّتَّةِ أوْ مسندِ أحمدَ أوْ مسانيدِ الطَّبرانِي أوْ سننِ البَّيهقِي، أوْ صحيحِ الحاكمِ وابنِ خزيمةَ وابنِ حبَّانَ، أوْ مصنَّفِ ابنِ أبِي شيبةَ، أوِ الكتبِ المشتملةِ علَى الضُّعفاءِ أحياناً، كتاريخِ الخطيبِ ومسندِ الديلمِي (الفردوسُ) وابنِ عساكرَ فِي تاريخهِ، والحليةِ لأبِي نعيمٍ، ويعتمدُ كثيراً علَى مَا أخرجهُ الطَّبرِي فِي تفسيرهِ، وسعيدِ بنِ منصورٍ فِي سننهِ، وابنِ المنذرِ.

المآخذُ علَى تفسيرِ السُّيوطِي:

منَ المآخذِ علَى تفسيرهِ رحمهُ اللهُ تعالَى: أنَّهُ لَا يُبيِّنُ مدَى صحَّةِ الرِّوايةِ أوْ ضعفهَا فِي غالبِ الأحيانِ، ملقياً بذلكَ علَى صاحبِ الرِّوايةِ، فهوَ مجرَّدُ سردٍ فِي الغالبِ، أوْ حكايةُ رواياتٍ أوْ وصفِ المنقولاتِ، وتركَ الأمرَ للقارئِ ليأخذَ بمَا شاءَ ويستحسنَ مَا يريدُ، ويرجِّحُ مَا يختارُ، فهوَ حقيقةً أوسعُ وأشملُ تفسيرٍ للآياتِ بالمأثورِ، لكنْ بالرَّغمِ منْ كثرةِ الرِّواياتِ لَا يجدُ القارئُ ضالَّتهُ المنشودةَ بنحوٍ حاسمٍ، مثلاً: يصعبُ علَى القارئِ إصدارُ الحكمِ علَى السُّيوطِي بأنَّهُ سلفِيُّ الاعتقادِ، أوْ أشعرِيُّهُ، فتراهُ فِي بيانِ المرادِ منَ الأحرفِ الهجائيَّةِ المقطَّعةِ فِي أوائلِ السُّورِ، مثلَ: (الَم) ومَا بعدهَا فِي

أوائلِ تفسيرِ سورةِ البقرةِ، لَا يذكرُ مَا يقنعُ أوْ مَا هوَ راجحٌ عندَ المفسِّرينَ، وإنَّمَا ينقلُ عنِ ابنِ جريرٍ وغيرِه عنِ ابنِ عبَّاسَ: أنَّ هذهِ الأحرفَ قسمٌ أقسمهُ اللهُ، وهوَ منْ أسماءِ اللهِ.

وكذلكَ لمْ يفسِّرِ المرادَ بوصفِ المسيحِ عليهِ السَّلامُ بأنَّهُ كلمةُ اللهِ فِي آيةِ آلِ عمرانَ (45)، والنِّساءُ (171)، واكتفَى بإيرادِ حديثٍ مطابقٌ لظاهرِ القرآنِ بأنَّ عيسَى كلمةُ اللهِ ألقاهَا إلَى مريمَ، وهكذَا لَا نجدُ أنَّ السُّيوطِي يأتِي بمَا يشفِي الغليلَ فِي تفسيرِ آياتِ الصَّفاتِ، ولعلَّهُ يكتفِي بمَا ذكرهُ فِي كتابهِ الإتقانُ فِي علومِ القرآنِ.

وكذلكَ سردَ السُّيوطِي الرِّواياتِ عنِ السَّلفِ فِي التَّفسيرِ ولمْ يعقِّبْ عليهَا، ولمْ يرجِّحْ منْ بينِ الأقوالِ القولَ الأصحِّ، ولمْ يتحرَّى الصِّحَّةَ فيمَا جمعَ فِي هذَا التَّفسيرِ، ولمْ يبيِّنِ الصحيحَ منَ الضعيفِ[1]، ممَّا يجعلُ الكتابَ محتاجًا إلَى تنقيحٍ وتحقيقٍ وتمييزِ الصَّحيحِ منَ الضَّعيفِ، وقدْ قامَ علَى تحقيقهِ الشَّيخُ عبدُ اللهِ التُّركِي فِي17 مجلداً[2].

ويبقَى تفسيرُ السُّيوطِي رحمهُ اللهُ تعالَى مرجعًا فِي التَّفسيرِ لهذهِ الأمَّةِ، وهوَ منْ كنوزِ علمِ التَّفسيرِ حسبَ مرتبتهِ، وزادهُ تحقيقُ الشَّيخِ عبدُ اللهِ التُّركِي شرفًا ومرتبتًا.

---

(1) المكتبة الوقفية: تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور نسخة محفوظة 11 مارس 2018 على موقع واي باك مشين.

(2) المشكاة الإسلامية: الدر المنثور في التفسير بالمأثور-جلال الدين السيوطي نسخة محفوظة 17 مارس 2015 على موقع واي باك.

7) فتحُ القديرِ، لمؤَلِّفهِ: محمَّدُ بنُ علِي بنِ محمدٍ بنِ عبدِ اللهِ الشَّوكانِي.

يعتبرُ تفسيرُ فتحِ القديرِ للشَّوكانِي أصلاً منْ أصولِ التَّفسيرِ بالمأثورِ، ومرجعاً منْ مراجعهِ، لأنَّهُ جمعَ بينَ التَّفسيرِ بالرِّوايةِ والتَّفسيرِ بالدِّرايةِ، حيثُ أجادَ فيهِ مؤلِّفهُ فِي بابِ الرِّوايةِ، وتوسَّعَ فِي بابِ الدِّرايةِ، وقدِ استدركَ الشَّوكانِي رحمهُ اللهُ تعالَى علَى علماءِ المسلمينَ فِي تفسيرهِ، والنَّاظرُ لتفسيرهِ يلحظُ ذلكَ بيِّنًا، ممَّا جعلَ بعظهمْ يقدِّمُ أطروحةً فِي هذَا البابِ[1].

وقدْ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي جمعهِ بينَ الرِّوايةِ والدِّرايةِ فِي تفسيرهِ: فإنَّ غالبَ المفسِّرينَ تفرَّقُوا فريقينِ وسلكُوا طريقينِ، الفريقُ الأوَّلُ اقتصرُوا فِي تفاسيرهمْ علَى مجرَّدِ الرِّوايةِ وقنعُوا برفعِ هذهِ الرَّايةِ، والفريقُ الآخرُ جرَّدُوا أنظارهمْ إلَى مَا تقتضيهِ اللُّغةُ العربيَّةُ، ومَا تفيدهُ العلومُ الآليَّةُ، ولمْ يرفعُوا إلَى الرِّوايةِ رأسًا وإنْ جاؤُوا بهَا لمْ يصحِّحُوا لهَا أساسًا، ثمَّ قالَ: ... وبهذَا تعرَفُ أنَّهُ لَا بدَّ منَ الجمعِ بينَ الأمرينِ وعدمِ الاقتصارِ علَى مسلكِ أحدِ الفريقينِ، وهذَا هوَ المقصودُ الذِي وطَّنتُ عليهِ نفسِي والمسلكُ الذِي عزمتُ علَى سلوكهِ[2].

---

(1) استدراكات الشوكاني على العلماء والمفسرين في فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية – المؤلف: جميلة محمد البدوي بابكر.

(2) "رسالة ماجستير" لـ عبد الرحيم يوسف – إشراف الشيخ د/ محمد بن العزيز الفالح.

منهجُ الشَّوكانِي فِي تفسيرِهِ:

يتَّضحُ منْ عنوانِ هذَا التَّفسيرِ أنَّ منهجَ الشَّوكانِي الأساسِي هوَ الجمعُ بينَ الرِّوايةِ والدِّرايةِ، لكنْ طريقتهُ فِي هذَا الجمعِ كانتْ مختلفةً عمَّنْ قبلهُ، حيثُ يفصِّلُ بينَ النَّوعينِ فيبدأُ بالدِّرايةِ ثمَّ بالرِّوايةِ، ومنهجهُ بشكلٍ عامٍ عندَ تعرُّضهِ للسُّورةِ أوِ الآيةِ، أنَّهُ غالبًا يذكرُ فضائلَ السُّورةِ والقراءةِ واللُّغةِ والإعرابِ والشَّواهدِ وأسبابِ النُّزولِ والنَّسخِ والمعنَى الإجمالِي وترجيحِ بعضِ الأقوالِ علَى بعضٍ، والأحكامِ المستنبطةِ منَ الآيةِ والرِّواياتِ منَ الأحاديثِ النَّبويَّةِ والآثارِ عنِ الصَّحابةِ والأخبارِ عنِ التَّابعينَ فمنْ بعدهمْ، وأنَّهُ كثيرًا مَا يقدِّمُ خلاصةً لمَا تضمَّنتهُ السُّورةُ منْ موضوعاتٍ قبلَ الشُّروعِ فيهَا(1).

ومنْ خلالِ مَا سبقَ يمكنُ تقسيمُ منهجِ الشَّوكانِي إلَى قسمينِ، قسمٌ فِي الرِّوايةِ وقسمٌ فِي الدِّرايةِ.

1) منهجهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي الرِّوايةِ:

اعتمدَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرهِ بالرِّوايةِ، حيثُ بدأَ فِي تفسيرِ القرآنِ بالقرآنِ، والسُّنَّةِ النَّبويَّةِ، وآثارِ الصَّاحابةِ وأخبارِ التَّابعينَ ومنْ بعدهمْ، ومثالُ ذلكَ.

أ) قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي الآيةِ رقمِ (5) منْ سورةِ التَّحريمِ (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرَ مِنْكُنَّ) "أيْ: يعطيهِ بدلكنَّ أزواجًا أفضلَ منكنَّ، وقدْ علمَ اللهُ سبحانهُ أنَّهُ لَا

---

(1) انظر الإمام الشَّوكاني مفسِّرا 166:165.

يطلِّقهنَّ ولكنْ أخبرَ عنْ قدرتهِ علَى أنَّهُ إنْ وقعَ منهُ الطَّلاقُ أبدلهُ خيرًا منهنَّ، تخويفًا لهنَّ، وهوَ كقولهِ: "وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ" [محمد:38] فإنَّهُ اخبارٌ عنِ القدرةِ وتخويفٌ لهمْ" فقدْ بيَّنَ رحمهُ اللهُ تعالَى أنَّ اللهَ تعالَى أرادَ بالآيةِ رقمِ (5) منْ سورةِ التَّحريمِ الاخبارَ عنِ القدرةِ والتَّخويفِ، مستدلًّا بالآيةِ رقمِ (38) منْ سورةِ محمَّدٍ.

ب) إيرادُ الأحاديثِ النَّبويَّةِ المتعلِّقةِ بالآياتِ، وعزوهَا إلَى منْ رواهَا، والحكمِ عليهَا أحيانًا منهُ أوْ منْ بعضِ أهلِ العلمِ، أوِ الكلامِ علَى بعضِ رجالِ السَّندِ، فمنْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى عندَ قولهِ سبحانهُ: (وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ)[المجادلة: 8]: "وقدْ أخرجَ أحمدُ وعبدُ بنُ حميدٍ والبزَّارُ وابنُ المنذرِ والطَّبرانِي وابنُ مردويهِ والبيهقِي فِي الشُّعبِ، قالَ السُّيوطِي بسندٍ جيِّدٍ عنِ ابنِ عمرَ: إنَّ اليهودَ كانُوا يقولونَ لرسولِ اللهِ ﷺ: السَّامُ عليكَ، يريدونَ بذلكَ شتمهُ، ثمَّ يقولونَ فِي أنفسهمْ: (لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ)، فنزلتْ هذهِ الآيةُ: (وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ)".

ج) إيرادُ أقوالِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ عندَ تعرُّضهِ للآيةِ لتقويةِ رأيٍ يراهُ، أوْ قولٍ يذهبُ إليهِ، ومنْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ فِي تفسيرِ قولهِ تعالَى: (يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِهِمْ وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ)[الحشر: 2]: "وذلكَ أنَّهمْ لمَّا أيقنُوا بالجلاءِ حسدُوا المسلمينَ أنْ يسكنُوا منازلهمْ فجعلُوا يخربونهَا منَ الدَّاخلِ، والمسلمونَ منَ الخارجِ، قالَ قتادةُ والضَّحَّاكُ: كانَ المؤمنونَ يخربونَ منْ خارجٍ كيْ يدخلُوا، واليهودُ (بنِي النَّضير) منْ داخلٍ ليبنُوا بهِ مَا خُرِّبَ منْ حصنهمْ".

2) منهجهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي الدِّرايةِ:

أ) كانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يبدأُ كلَّ سورةٍ بذكرِ عددِ آياتهَا، وهلْ هيَ مكيَّةٌ أمْ مدنيَّةٌ، والآياتِ المختلفِ فِي كونهَا مكيَّةً أوْ مدنيَّةً، ثمَّ يعقبُ بذكرِ الرِّواياتِ فِي ذلكَ، منْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي بدايةِ سورةِ المجادلةِ: "هيَ ثنتانِ وعشرونَ آيةً، وهيَ مدنيَّةٌ، قالَ القرطبِي: فِي قولِ الجميعِ (أيْ فِي قولِ جيمعِ أهلِ العلمِ) "أنَّ سورةَ المجادلةِ مدنيَّةٌ إلَّا روايةٌ عنْ عطاءٍ أنَّ العشرَ الأوَّلَ منهَا مدنيٌّ وباقيهَا مكيٌّ"، وقالَ الكلبِيُّ: "نزلتْ جميعهَا بالمدينةِ غيرَ قولهِ: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)[المجادلة: 7] نزلتْ بمكَّةَ"، وأخرجَ ابنُ الضُّريسِ والنَّحَّاسُ وأبُو الشَّيخِ فِي "العظمةِ" وابنُ مردويهِ عنِ ابنِ عبَّاسَ قالَ: نزلتْ سورةُ المجادلةِ بالمدينةِ، وأخرجَ ابنُ مردويهِ عنِ ابنِ الزُّبيرِ مثلهُ".

ب) كانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يذكرُ مَا وردَ فِي فضائلِ السُّورِ قبلَ تفسيرهَا منَ الآثارِ والأقوالِ، ومنْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى عندَ تفسيرِ سورةِ الملكِ: "وأخرجَ أحمدُ وأبُو داودَ والتِّرمذِي والنَّسائِي وابنُ ماجهْ وابنُ الضُّريسِ والحاكمُ وصحَّحهُ وابنِ مردويهِ والبيهقِي فِي الشُّعبِ عنْ أبِي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ سورةً منَ كتابِ اللهِ مَا هيَ إلَّا ثلاثونَ آيةً، شفعتْ لرجلٍ حتَّى غُفِرَ لهُ "تباركَ الذِي بيدهِ الملكِ"، قالَ التِّرمذِي: "هذَا حديثٌ حسنٌ"، وأخرجَ الطَّبرانِي فِي الأوسطِ، وابنُ مردويهِ، والضِّياءُ فِي المختارةِ عنْ أنسٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "سورةٌ فِي القرآنِ خاصمتْ عنْ صاحبهَا حتَّى أدخلتهُ الجنَّةَ "تباركَ الذِي بيدهِ الملكُ".

ج) كانَ فِي الغالبِ رحمهُ اللهُ تعالَى يُقطِّعُ السُّورةَ إلَى مجموعةِ مقاطعَ، يشتملُ كلُّ مقطعٍ علَى عدَّةِ آياتٍ ذاتِ موضوعٍ واحدٍ.

د) كانَ يجعلُ تفسيرَ كلَّ آيةٍ مستقلًّا، فإذَا انتهَى منْ آيةٍ بدأَ بمَا بعدهَا قائلًا: "قولهُ...." أوْ يربطُ بينهمَا بـ "ثمَّ"، منْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ سورةِ المجادلةِ: "إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ" يسمعُ كلَّ مسموعٍ ويبصرُ كلَّ مُبصَرٍ، ومنْ جملةِ ذلكَ مَا جادلتكَ بهِ هذهِ المرأةُ. (ثمَّ يربطُ رحمهُ اللهُ تعالَى تفسيرَ الآيةِ التِي بعدهَا بـ "ثمَّ" ويقولُ): ثمَّ بيَّنَ سبحانهُ شأنَ الظِّهارِ فِي نفسهِ، وذكرَ حكمهُ، فقالَ: "الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّن نِّسَائِهِمْ".

هـ) كانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يفسِّرُ الآيةَ تفسيرًا تحليليًّا، ويقفُ معَ كلِّ كلمةٍ أوْ جملةٍ بمفردهَا حسبَ الحاجةِ، فيُوضِّحُ غريبهَا ويُبيِّنُ أصلهَا ومَا يتعلَّقُ بهَا، وربَّمَا توسَّعَ فِي اللُّغةِ وذكرَ أقوالَ أهلهَا، مدعمًا ذلكَ بالشَّواهدِ الشِّعريَّةِ المناسبةِ، متطرِّقًا خلالَ ذلكَ للإعرابِ دونَ إطالةِ، منْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى عندَ تفسيرِ قولهِ تعالَى: "وَمَا أَفَآءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ"[الحشر: 6]

"وَمَا أَفَآءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ" أيْ: ما ردَّهُ عليهِ منْ أموالِ الكفَّارِ، يُقالُ: فاءَ يفيئُ، إذَا رجعَ، والضَّميرُ فِي "مِنْهُمْ" عائدٌ إلَى بنِي النَّضيرِ. "فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ" يُقالُ: وجفَ الفرسُ والبعيرُ يجِفُ وجفًا وهوَ سُرعةُ السَّيرِ، وأوجفَ صاحبهُ إذَا حملهُ على السَّيرِ السَّريعِ، ومنهُ قولُ تميمِ بنِ مقبلٍ:

مَذَاويدُ بالبيضِ الحديدِ صقالهَا*عنِ الرَّكبِ أحيانًا إذَا الرَّكبُ أوجفُوا

وقال نُصيْب:

أَلَا رُبَّ ركبٍ قدْ قطعتُ وجيفهمْ*إليكَ ولولَا أنتِ لمْ يوجفِ الرَّكبُ.

و(مَا) فِي "فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ" نافيةٌ والفاءُ جوابُ الشَّرطِ، إنْ كانت (مَا) في قولهِ: "مَآ أَفَاءَ اللهُ" شرطيَّةٌ وإنْ موصولةً، فالفاء زائدةٌ، و(مِنْ) في قولهِ: "مِنْ خَيْلٍ" زائدةٌ للتَّأكيدِ، والرِّكابُ: مَا يُركبُ منَ الإبلِ خاصَّةً.

و) اهتمَّ رحمهُ الله تعالَى بالقراءاتِ وأولاهَا عنايةً فائقةً وأكثرَ منهَا فِي تفسيرهِ، كمَا اهتمَّ أيضًا بتوجيهاتِ بعضِ هذهِ القراءاتِ وتبينِ أثرهَا على المعنَى، سواءٌ أكانتْ متواترةً أمْ شاذَّةً، فمنْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى في قولهِ تعالَى "قَدْ سَمِعَ اللهُ": قرأَ أبُو عمرو، وحمزةُ والكسائيُّ بإدغامِ الدَّالِ فِي السِّينِ، وقرأَ الباقونَ بالإظهارِ.

ز) وكانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يُحيلُ كثيرًا إلَى مواضعَ أخرَى منْ تفسيرهِ، منْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ بدايةِ سورة الحشرِ، قولهُ "سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ": قدْ تقدَّمَ تفسيرُ هذَا فِي سورةِ الحديدِ.

ح) وكانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يذكرُ أقوالَ أئمَّةِ التَّفسيرِ، فأحيانًا يكتفِي بمجرَّدِ النَّقلِ دونَ تعليقٍ لمَا يرَى مَا فيهِ منْ كفايةٍ، وقدْ يردُّ بعضَ الأقوالِ مبيِّنًا سببَ الرَّدِّ، وقدْ يؤيِّدُ بعضهَا ويدعمهُ بالأدلَّةِ ويختارُ مَا يراهُ مرجَّحًا، منْ ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى عندَ تفسيرِ قولهِ تعالَى:"قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي

تُجَادِلَكَ فِي زَوجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ" قالَ رحمهُ اللهُ: قالَ الواحدِي: قالَ المفسِّرونَ: نزلتْ هذهِ الأيةُ فِي خولةَ بنتِ ثعلبةَ وزوجهَا أوسٌ بنِ الصَّامتِ.... وقيلَ: هيَ خولةُ بنتِ حكيمٍ، وقيلَ اسمهَا جميلةٌ، والأوَّلُ أصحُّ وقيلَ: هيَ بنتُ خويلدٍ، قالَ الماورديُّ: إنَّهَا نُسبت تارةً إلى أبيهَا وتارةً إلَى جدِّهَا، وأحدهمَا أبوهَا، والآخرُ جدُّهَا، فهيَ: "خولةُ بنتُ ثعلبةَ بنتُ خويلدٍ.

ط) وكانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يذكرُ أسبابَ النُّزولِ للسُّورةِ أوِ الآيةِ.

ي) وكانَ رحمهُ اللهُ تعالَى يُوردُ المسائلَ الفقهيَّةَ المتعلِّقةَ بالآياتِ وأحكامهَا، فيذكرُ المذاهبَ واختلافهمْ فيهَا[1].

المآخذُ علَى تفسيرِ الشَّوكانِي:

ممَّا يؤخذُ علَى الشَّوكانِي رحمهُ اللهُ تعالَى كعالمٍ منْ أهلِ الحديثِ أنَّهُ يذكرُ كثيراً منَ الرِّواياتِ الموضوعةِ أوِ الضَّعيفةِ، ويمرُّ عليهَا دونَ أنْ ينبِّهَ عليهَا، فمثلاً نجدهُ عندَ تفسيرهِ لقولهِ تعالَى فِي الآيةِ (55) منْ سورةِ المائدةِ: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ) ...الآيةُ، وقولهُ تعالَى فِي الآيةِ (67) منهَا: (يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) ....الآيةُ، يذكرُ منَ الرِّواياتِ مَا هوَ مذكورٌ علَى ألسنةِ الشِّيعةِ، ولَا ينبِّهُ علَى أنَّهَا موضوعةٌ، معَ أنَّهُ يقرِّرُ عدمَ صلاحيَّةِ هذهِ الرِّواياتِ للاستدلالِ علَى إمامةِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ، ففِي الآيةِ الأولَى يروِي عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ: تصدَّقَ عليٌّ بخاتمٍ وهوَ راكعٌ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ للسَّائلِ:" منْ أعطاكَ هذَا

الخاتمَ"؟ قالَ: ذلكَ الرَّاكعُ، فأنزلَ اللهُ تعالَى فيهِ: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وُرُسُولُهُ)... الآيةُ، ثمَّ يمرُّ علَى الرِّوايةِ الموضوعةِ باتِّفاقِ العلماءِ ولَا ينبِّهُ علَى مَا فيهَا، وفِي الآيةِ الثَّانيةِ تجدهُ يروِي عنْ أبِي سعيدٍ الخدرِي أنَّهُ قالَ: نزلتْ هذهِ الآيةُ (يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) علَى رسولِ اللهِ ﷺ يومَ "غدير خُم" فِي عليٍّ بنِ أبِي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ، ويروِي عنِ ابنِ مسعودٍ أنَّهُ قالَ: "كنَّا نقرأُ علَى عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ: "يَا أيهَا الرَّسولُ بلِّغْ مَا أنزلَ إليكَ منْ ربِّكَ أنَّ عليًا مولَى المؤمنينَ، فإنْ لَّمْ تفعلْ فمَا بلَّغتَ رسالتهُ، واللهُ يعصمكَ منَ النَّاسِ"، ثمَّ يمرُّ رحمهُ اللهُ تعالَى علَى هاتينِ الرَّوايتينِ دونَ أنْ يبيِّنَ ضعفهمَا[2] ولمْ أفهمْ حقيقةً كيفَ وقعَ إمامنَا الشَّوكانِي فِي مثلِ هذَا الخطأِ.

وقدْ أشارَ الألبانيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي السِّلسلةِ لشيءٍ منَ الأحاديثِ الظَّعيفةِ التِي أوردهَا الشَّوكانِي فِي تفسيرهِ[3].

ثمَّ إنَّ الشَّوكانِي رحمهُ اللهُ تعالَى استفادَ استفادةً كبيرةً منْ تفسيرِ القرطبِي، إلَّا أنَّهُ لمْ يتوسَّعْ توسُّعَ القرطبِي فيمَا يتعلَّقُ في الأحكامِ، وزادَ فِي تفسيرهِ علَى الجوانبِ الموجودةِ فِي تفسيرِ القرطبِي بشكلٍ واضحٍ جداً وتوسُّعٍ منْ كتابِ "الدُّرِّ المنثورِ" وهوَ ذكرَ هذَا فِي تفسيرِ الكتابِ، ولَا يردُّ كلَّ مَا أوردهُ السُّيوطِي فِي التَّفسيرِ ويحيلُ أحياناً، فيقولُ:

(1) "رسالة ماجستير" لـ عبد الرحيم يوسف – إشراف الشيخ د/ محمد بن العزيز الفالح.

(2) التَّفسير والمفسِّرون – الجزء الثَّاني "بتصرُّف" للدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله تعالى.

(3) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة صـ(387) محمد ناصر الدين الألباني.

"وفيمَا ذكرناهُ كفايةٌ ومنْ أرادَ التَّوسُّعَ فِي هذَا يرجعُ إلَى الدُّرِّ المنثورِ"، والدُّرُّ المنثورُ محذوفةٌ منهُ الأسانيدُ، وفيهِ الصَّحيحُ والضَّعيفُ، ومنْ ثَمَّ فالشَّوكانِي رحمهُ اللهُ تعالَى كانَ ينقلُ الصَّحيحَ والضَّعيفَ منَ الرِّواياتِ المرفوعةِ وغيرِ المرفوعةِ ممَّا ينقلهُ عنِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، وطريقتهُ فِي ذلكَ أنَّهُ حينمَا يوردُ المعانِي بعدَ ذلكَ يوردُ تفسيرَ الآياتِ منْ كتابِ الدُّرِّ المنثورِ، فكأنَّهُ يعيدُ التَّفسيرَ منْ جديدٍ، وفِي كلِّ مقطعٍ يذكرُ تفسيرهُ منْ جهةِ مَا يسمَّى بالدِّرايةِ؛ لأنَّهُ جعلَ الكتابَ بهذَا العنوانِ "فتحُ القديرِ الجامعِ بينَ فنَّي الرِّوايةِ والدِّرايةِ منْ علمِ التَّفسيرِ" فيوردُ الدِّرايةَ أوَّلاً، فهوَ يشبهُ تفسيرَ ابنِ عطيَّةَ، والقرطبِي استفادَ منِ ابنِ عطيةَ وزادَ عليهِ، والشَّوكانِي استفادَ استفادةً كبيرةً منْ تفسيرِ القرطبِي إلَّا أنَّهُ لخَّصَ الأحكامَ منْ غيرِ توسُّعٍ كمَا ذكرنَا، ولَا يذكرُ الرِّواياتِ أثناءَ التَّفسيرِ، وإنَّمَا يذكرهَا بعدَ الفراغِ منْ تفسيرِ المقطعِ، فينتقلُ بعدهَا إلَى إيرادِ المرويَّاتِ منْ أوَّلِ آيةٍ شرعَ يفسِّرهَا فِي هذَا المقطعِ إلَى آخرِ آيةٍ، وهذهِ الطَّريقةُ متعبةٌ للقارئِ، ويبقَى تفسيرُ الشَّوكانِي كنزًا منْ كنوزِ التَّفسيرِ وذخيرةً لأهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ ومرجعًا لهمْ فرحمَ اللهُ إمامنَا الشَّوكاني وجزاهُ عنِ الأمَّةِ كلَّ خيرٍ.

8) تيسيرُ الكريمِ الرَّحمنِ فِي تفسيرِ كلامِ المنَّانِ، لمؤلِّفهِ: عبدُ الرَّحمنِ بن ناصرٍ السَّعدِي.

يعدُّ تفسير السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى منْ أجلِّ التَّفاسيرِ، هذَا لسهولةِ عباراتهِ وتجنُّبِ الخلافِ فيهِ، فقدْ قالَ الشَّيخُ

ابنُ عثيمينَ رحمهُ اللهُ تعالَى: فإنَّ تفسيرَ شيخنَا عبدُ الرَّحمنِ بنِ ناصرٍ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى المسمَّى "تيسيرِ الكريمِ الرَّحمنِ فِي تفسيرِ كلامِ المنَّانِ" منْ أحسنِ التَّفاسيرِ حيثُ كانَ لهُ ميزاتٌ كثيرةٌ: منهَا سهولةُ العبارةِ ووضوحهَا، حيثُ يفهمهَا الرَّاسخُ فِي العلمِ ومنْ دونهِ.

ومنهَا تجنُّبُ الحشوِ والتَّطويلِ الذِي لَا فائدةَ منهُ إلَّا إضاعةُ وقتِ القارئِ وتبلبلِ فكرهِ.

ومنهَا تجنُّبُ ذكرِ الخلافِ إلَّا أنْ يكونَ الخلافُ قويًّا تدعُو الحاجةُ إلى ذكرهِ، وهذهِ ميزةٌ مهمَّةٌ بالنِّسبةِ للقارئِ حتَّى يثبتَ فهمهُ علَى شيءٍ واحدٍ.

ومنهَا السَّيرُ علَى منهجِ السَّلفِ فِي آياتِ الصِّفاتِ، فلَا تحريفَ ولَا تأويلَ يخالفُ مرادَ اللهِ تعالَى بكلامهِ، فهوَ عمدةٌ فِي تقريرِ العقيدةِ.

ومنهَا دقَّةُ الاستنباطِ فيمَا تدلُّ عليهِ الآياتُ منَ الفوائدِ والأحكامِ والحكمِ، وهذَا يظهرُ جليًّا فِي بعضِ الآياتِ، كآيةِ الوضوءِ فِي سورةِ المائدةِ؛ حيثُ استنبطُ منهَا خمسينَ حكماً، وكمَا فِي قصَّةِ داودَ وسليمانَ فِي سورةِ ص.

ومنهَا أنَّهُ كتابُ تفسيرٍ وتربيةٍ علَى الأخلاقِ الفاضلةِ، كمَا يتبيَّنُ فِي تفسيرِ قولهِ تعالَى فِي سورةِ الأعرافِ: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)[الأعراف: 199].

ومنْ أجلِ هذَا أشيرُ علَى كلِّ مريدِ اقتناءِ كتبِ التَّفسيرِ ألَّا تخلُو مكتبتهُ منْ هذَا التَّفسيرِ القيِّمِ(1).

وقالَ الشَّيخُ عبدُ اللهِ بنُ عقيلٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: كانَ لشيخنَا العلَّامةُ الشَّيخُ عبدُ الرحمنِ بنِ ناصرٍ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى منْ ذلكَ حظٌّ وافرٌ وذلكَ بتفسيرهِ المسمَّى: (تيسيرُ الكريمِ الرَّحمنِ فِي تفسيرِ كلامِ المنَّانِ) حيثُ جاءَ هذَا التَّفسيرُ سهلَ العبارةِ، واضحَ الإشارةِ، وصاغهُ علَى نمطٍ بديعٍ بعباراتٍ قريبةٍ لَا خفاءَ فيهَا ولَا غموضَ، فهوَ يعتنِي بإيضاحِ المعنَى المقصودِ منَ الآيةِ بكلامٍ مختصرٍ مفيدٍ، مستوعبٍ لجميعِ مَا تضمَّنتهُ الآيةُ منْ معنًى أوْ حكمٍ، سواءٌ منْ منطوقِهَا أوْ مفهومهَا، دونَ إطالةٍ أوِ استطرادٍ أوْ ذكرِ قصصٍ أوْ إسرائيلياتٍ، أوْ حكايةِ أقوالٍ تخرجُ عنِ المقصودِ، أوْ ذكرِ أنواعِ الإعرابِ إلَّا فِي النَّادرِ الذِي يتوقَّفُ عليهِ المعنَى، بلْ يركِّزُ علَى المعنَى المقصودِ منَ الآيةِ بعبارةٍ واضحةٍ يفهمهَا كلُّ منْ يقرؤهَا مهمَا كانَ مستواهُ العلمِي، فهوَ فِي الحقيقةِ سهلٌ ممتنعٌ يُفهمُ معناهُ منْ مجرَّدِ تلاوةِ لفظهِ، وقدِ اهتمَّ بترسيخِ العقيدةِ السَّلفيَّةِ، والتوجُّهِ إلَى اللهِ تعالَى، واستنباطِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ، والقواعدِ الأصوليَّةِ، والفوائدِ الفقهيَّةِ إلَى غيرِ ذلكَ منَ الفوائدِ(2).

(1) ذكره عبد الرحمن اللويحق محقق تفسير السعدي في مقدمته للتفسير (ص11).

(2) ذكره عبد الرحمن اللويحق محقق تفسير السعدي في مقدمته للتفسير (ص10).

منـهجُ السَّعدِي فِي تفسيرهِ:

أ) اهتمامهُ رحمهُ اللهُ تعالَى بضربِ الأمثالِ فِي القرآنِ الكريمِ:
ومنْ الأمثلةِ علَى ذلكَ قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى عندَ تفسيرِ قولهِ تعالَى: "إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" [يونس: 24]

قالَ: "وهذَا المثلُ منْ أحسنِ الأمثلةِ، وهوَ مطابقٌ لحالةِ الدُّنيَا، فإنْ لذَّاتهَا وشهواتهَا وجاههَا ونحوِ ذلكَ يزهُو لصاحبهِ إنْ زَهَا وقتًا قصيرًا، فإذَا استكملَ وتمَّ اضمحلَّ، وزالَ عنْ صاحبهِ، أوْ زالَ صاحبهُ عنهُ، فأصبحَ صفرَ اليدينِ منهَا، ممتلئَ القلبِ منْ همِّهَا وحزنهَا وحسرتهَا[1].

ب) ذكرُ العبرِ والعظاتِ منَ القصصِ:
ومنهُ تفسيرهُ لقولهِ تعالَى: "وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا" [الكهف: 16] حتَى وصلَ للآيةِ رقمِ (21) فقالَ: وفِي هذهِ القصَّةِ، دليلٌ علَى أنَّ منْ فرَّ بدينهِ منَ الفتنِ، سلَّمهُ اللهُ منهَا، وأنَّ منْ حرصَ علَى العافيةِ عافاهُ اللهُ تعالَى ومنْ أوَى إلَى اللهِ تعالَى، آواهُ اللهُ وجعلهُ هدايةً لغيرهِ، ومنْ تحمَّلَ الذُّلَّ فِي سبيلهِ وابتغاءَ مرضاتهِ، كانَ آخرَ أمرهِ وعاقبتهِ العزُّ العظيمُ منْ حيثُ لَا يحتسبُ[2].

ج) الاهتمامُ بالنَّحوِ والإعرابِ والاستعانةِ بهَا في التَّفسيرِ:
ومنْ ذلكَ تفسيرهُ لقولهِ تعالَى: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" [الفاتحة: 5] فقالَ: أيْ نخصُّكَ وحدكَ بالعبادةِ والاستعانةِ، لأنَّ

تقديمَ المعمولِ يفيدُ الحصرَ، وهوَ إثباتُ الحكمِ للمذكورِ ونفيهُ عمَّا عداهُ(3).

د) سهولةُ الألفاظِ ويُسرُ العبارةِ:

حيثُ يعتمدُ رحمهُ اللهُ تعالَى شرحًا بسيطًا يفهمهُ الإنسانُ العادي بسهولةٍ ويسرٍ فيكونُ أقربَ للفهمِ، معَ حفاظهِ علَى الدِّقَّةِ.

هـ) موضوعيَّةُ التَّفسيرِ:

فلَا يشحنُ رحمهُ الله تعالَى تفسيرهُ بكثرةِ الإسرائيليَّاتِ التِي قدْ تكونُ خاطئةً وقدْ تكونُ صحيحةً، ومنْ ذلكَ عدمُ تطرُّقهِ لإسرائيليَّاتِ قصَّةِ هاروتَ وماروتَ فِي سورةِ البقرةِ.

و) اهتمامهُ بالجانبِ الفقهِي:

فقدْ تحدَّثَ فِي تفسيرهِ عنْ أحكامٍ مختلفةٍ عديدةٍ، ومنَ الأمثلةِ علَى ذلكَ النَّفقةُ الواجبةُ عندَ مرورهِ بالآيةِ حيثُ قالَ عندَ قولهِ تعالَى: "وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" [التوبة: 35] أنْ يمسكوهَا عنِ النَّفقةِ الواجبةِ، كأنْ يمنعَ الزَّكاةَ أوِ النَّفقاتِ الواجبةِ للزَّوجاتِ أوِ الأقاربِ أوِ النَّفقةِ فِي سبيلِ اللهِ إذَا وجبتْ(4).

المآخذُ علَى تفسيرِ السَّعدِي:

وحقيقةً لَا توجدُ مآخذُ علَى تفسيرِ السَّعدِي أوْ تقولُ لَا توجدُ مآخذُ معتبرةٌ علَى تفسيرهِ رحمهُ اللهُ تعالَى، إلَّا أنَّ الشَّيخَ محمَّدُ بنُ جميلٍ زينُو رحمهُ اللهُ تعالَى المدرِّسِ بدارِ الحديثِ الخيريَّةِ بمكَّةَ المكرمَّةَ حرسهَا اللهُ تعالَى، قدْ عدَّ عليهِ مآخذَ عدَّةٍ، أذكرُ بعضهَا معَ عدمِ الجزمِ بأنَّهَا مآخذُ، لأنَّ مَا سيذكرهُ الشَّيخُ محمَّدُ بنُ جميلٍ ليسَ مقطوعًا بصحَّتهِ.

قالَ الشَّيخُ محمَّدٍ بنُ جميلٌ زينُو فِي تفسيرِ قولهِ تعالَى:

1) {رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ}[ص:33]
قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى:"أيْ جعلَ يعقرهَا بسيفهِ فِي سوقهَا وأعناقهَا".

قالَ الشَّيخُ جميلٌ: قلتُ: هذَا التَّفسيرُ منَ الإسرائيلياتِ والصَّحيحُ مَا ثبتَ فِي صحيحِ البُخارِي عنِ ابنِ عبَّاسَ رضيَ اللهُ عنهُ:"أيْ يمسحُ سوقهَا وأعناقهَا حباً لهَا"[5].اهـ

وأقولُ أنَّ مَا اختارهُ الشَّيخُ جميلٌ زينُو ليسَ مجزومًا بهِ فالأمرُ فيهِ قولانِ وهوَ مَا اختارهُ الشَّيخُ السَّعدِي أوْ رجَّحهُ والآخرُ مَا اختارهُ الشَّيخُ جميلٌ، فقدْ قالَ الطَّبرِي: واختلفَ أهلُ التَّأويلِ فِي معنَى مسحَ سليمانُ بسوقِ هذهِ الخيلِ الجيادِ وأعناقهَا، فقالَ بعضهمْ: معنَى ذلكَ أنَّهُ عقرهَا وضربَ أعناقهَا، منْ قولهمْ: مَسَحَ علاوتهُ: إذَا ضربَ عنقهُ[6].

2) {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ}[سورة ص:34] قالَ الشَّيخُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى:"أيْ ابتليناهُ واختبرناهُ بذهابِ ملكهِ وانفصالهِ عنهُ بسببِ خللٍ اقتضتهُ الطَّبيعةُ البشريَّةُ!!

{وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً}: أيْ شَيْطَاناً قَضَى اللهُ تعالَى وقدرَ أنْ يجلسَ علَى كرسيِّ ملكهِ ويتصرَّفَ فِي الملكِ فِي مدَّةِ فتنةِ سليمانَ".اهـ (!!).

قالَ الشيخُ زينُو، قلتُ: وهذهِ منَ الإسرائيليَّاتِ المكذوبةِ(!) بلْ ثبتَ فِي الصَّحيحينِ منْ حديثِ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: "قالَ سليمانُ بنُ داودَ عليهمَا السَّلامُ: لأطوفنَّ اللَّيلةَ علَى مائةِ امرأةٍ أوْ تسعٍ وتسعينَ كلهنَّ يأتِي بفارسٍ يجاهدُ فِي سبيلِ اللهِ فقالَ لهُ صاحبهُ قلْ إنْ شاءَ اللهُ فلمْ يقلْ إنْ شاءَ اللهُ فلمْ يحملْ منهنَّ إلَّا امرأةً واحدةً

جاءتْ بشقِّ رجلٍ والذِي نفسُ محمَّدٍ بيدهِ لوْ قالَ إنْ شاءَ اللهُ لجاهدُوا فِي سبيلِ اللهِ فرساناً أجمعونَ".
وهوَ واضحٌ أنَّ اللهَ جلَّ وعلَا ابتلاهُ بشقِّ الولدِ وهوَ الجسدُ المذكورُ فِي الآيةِ الكريمةِ وإلَى هذَا ذهبَ جمعٌ منَ المفسِّرينَ أخذاً بالحديثِ وطرحاً للرِّواياتِ المكذوبةِ.اهـ
وبهِ أيضًا فإنَّ مَا رواهُ الشيَّخُ السعدِي قالَ بهِ ابنُ عبَّاسَ، فعنِ الطَّبريِّ قالَ: ... عنِ ابنِ عبَّاسَ قولهُ (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا) قالَ: هوَ صخرٌ الجنيّ تمثَّلَ علَى كرسيِّهِ(7).
وشقُّ الرَّجلِ هذَا ليسَ ببعيدٍ أنْ يكونَ شيطَانًا علَى الحقيقةِ تمثَّل فِي ذلكَ الشَّكلِ، فلَا نقولُ قدْ أخطأَ السَّعديُّ فِي هذَا، لأنَّ الحديثَ السَّابقِ ذكرهُ لمْ يخفَى علَى صغارِ طلَّابِ العلمِ، فكيفَ بالعلَّامةِ أنْ يخفَى عنهُ ذلكَ، إذًا كانَ شرحُ السَّعدِي للآيةِ استنباطًا واضحًا، أنَّ شقَّ الرَّجلِ هوَ شيطانٌ فِي شكلِ نصفِ رجلٍ، واللهُ أعلمُ.
3) {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوءَ وَٱلْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ} [يوسف:24]
قالَ الشَّيخُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى:"...لأنَّهُ قدْ همَّ فيهَا همًّا(!!)تركهُ للهُ وقدَّمَ مرادَ اللهِ علَى مرادِ النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ(!!!)...".اهـ
قالَ الشيخُ زينُو، قلتُ: الصَّحيحُ منْ أقوالِ المفسِّرينَ أنَّهُ عليهِ السَّلامُ لمْ يهمْ بهَا أصلاً، فلولَا أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رأَى برهانَ ربِّهِ لهمَّ بهَا، وهذَا الموافقُ لعصمةِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهمْ أجمعينَ، كيفَ وقدْ ذكرهُ ربُّهُ تباركَ وتعالَى مادحاً لهُ ومثنياً عليهِ بأعلَى صفاتِ النُّفوسِ

التقيَّةِ النَّقيَّةِ المطمئنَّةِ فقالَ سبحانهُ: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} وقدْ ذكرهُ خاتمُ الأنبياءِ ﷺ بذكرٍ عَطِرٍ فوَّاحٍ مادحاً لهُ مثنيًا عليهِ بأعلَى صفاتِ النُّفوسِ المطمئنَّةِ فقالَ: "إنَّ الكريمَ بنَ الكريمِ بنَ الكريمِ بنَ الكريمِ يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ عليهمُ السَّلامُ"[8]

وإِذَا كانتْ نفوسُ أفضلِ الخلقِ الأصفياءُ الخيارُ، أمَّارةٌ بالسُّوءِ ولوْ فِي وقتٍ دونَ وقتٍ! فأيُّ محلٍّ للعصمةِ بقِي؟! وهلْ أحدٌ بعدهمْ صلواتُ اللهُ وسلامهُ عليهمْ جميعاً تكونُ نفسهُ مطمئنَّةً؟؟!! واللهُ أعلمُ. (صدقَ الشَّيخُ زينُو)

وانظرْ لزاماً: (الإسرائيليَّاتِ فِي كتبِ التَّفسيرِ) لأبِي شهبةَ فإنَّهُ قدْ أجادَ وأفادَ. انتهَى

ومَا ذكرتهُ منْ كلامِ الشَّيخِ جميلٍ هوَ الشَّيئُ اليسيرُ منْ تعليقاتهِ علَى تفسيرِ السَّعدِي، لكنْ ليسَ كلُّ تعليقاتهِ مجزومًا بصحَّتهَا، فقدْ ردَّ بعضُ المشايخِ معظمَ مَا سبقَ ذكرهُ بأدلَّةٍ كافيةٍ وافيةٍ وأثبتَ بعظهَا[9] وبهذَا نخرجُ أنَّ تفسيرَ السَّعدِي فيهِ أقلُّ مآخذًا بلْ لَا تعدُّ مآخذًا هذَا إنْ كانَ دارسُ الكتابِ طالبًا لَا باحثًا مختصًّا، وتفسيرُ السَّعدِي منْ أكثرِ كتبِ التَّفسيرِ قبولًا وتزكيةً منَ العلماءِ، ثمَّ إنَّ هذَا الكتابَ هوَ بدايةُ كلِّ مختصٍّ فِي التَّفسيرِ، فرحمَ اللهُ إمامنَا السَّعدِي رحمةً واسعةً وجزاهُ عنِ الأمَّةِ كلَّ خيرٍ.

(1) تفسير السعدي سورة يونس.
(2) تفسي السعدي سورة الكهف.
(3) تفسير السعدي سورة الفاتحة.
(4) تفسير السعدي سورة التوبة.
(5) إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري صـ 373 شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد/القسطلاني.
(6) تفسير الطبري.
(7) السابق.
(8) رواه البخاري(3210)
(9) انظر مدونة أبي جعفر عبد الله بن فهد الخليفي ـ نقض انتقادات محمد جميل زينو على تفسير عبد الرحمن السعدي.http://alkulify.blogspot.com/2013/09/blog-post_5637.html

9) المختصرُ فِي التَّفسيرِ لجماعةٍ منْ علماءِ المسلمينَ:

يُعدُّ كتابُ المختصرِ فِي التَّفسيرِ منْ أصحِّ الكتبِ علَى جميعِ الأوجهِ، كمَا إنَّهُ يناسبُ جميعَ فئاتِ المجتمعِ الإسلامِي بكلِّ شرائحهِ، فقدْ كتبَ متنَ هذَا التَّفسيرِ:

1) "الشَّيخُ محمَّدٌ المختارُ الشِّنقيطِي" كتابةً أوَّليَّةً

2) وكتبَ السَّابقُ نفسهُ معَ "الشَّيخِ الدُّكتورِ زيدٌ بنِ عمرَ العيصِ" (أستاذُ الدِّراساتِ القرآنيَّةِ بجامعةِ الملكِ سعودٍ سابقًا) فوائدَ الآياتِ وهدايتهَا فتقاسماهَا مناصفةً.

3)وكتبَ "الشَّيخُ الدُّكتورُ محمَّدٌ بنُ عبدِ اللهِ الرَّبيعةَ" (الأستاذُ المشاركُ فِي القرآنِ وعلومهِ بجامعةِ القصيمِ) مقاصدَ السُّورِ[1].

ثمَّ كلَّفَ مركزُ تفسيرٍ للدِّراساتِ القرآنيَّةِ جماعةً منْ علماءِ التَّفسيرِ المشهودِ لهمْ بالكفاءةِ والعلمِ بهذَا الفنِّ منْ مختلفِ دولِ العالمِ الإسلاميِّ بمراجعةِ التَّفسيرِ وتقويمهِ أثناءَ الكتابةِ مرحلةً مرحلةً، وتحكيمِ منهجهِ، فقامَ كلُّ واحدٍ منهمْ بتحكيمِ أجزاءٍ متفرِّقةٍ منْ هذَا التَّفسيرِ حتَّى اكتملَ، وهمْ:

1) أ. د. "أحمد خالد شكري" الجامعةُ الأردنيَّةُ ـ الأردن.

2) أ. د. "أحمد سعد الخطيب" جامعةُ الأزهرِ- مصر.

3) أ. د. "أحمد بزوي الضاوي" جامعةُ شعيبُ الدُّكالِي- المغرب.

4) د. "حسين بن علي الحربي" جامعةُ جازانَ- السعوديَّةُ.

5) د. "خالد بن عثمان السبت" جامعةُ الدمامِ- السعوديَّةِ.

6) أ. د. "سعيد الفلاح" جامعةُ الزَّيتونةِ- تونس.

7) أ. د. "صالح بن يحيى صواب" جامعةُ صنعاءَ- اليمن.

8) أ. د. "غانم قدوري الحمد" جامعةُ تكريتَ- العراق.
9) د. "محمد بن عبد الله القحطاني" جامعة الملك خالد- السعودية.

وتولَّتْ مهمَّةَ الإشرافِ العلميِّ علَى المشروعِ، ومتابعتهِ فِي جميعِ مراحلهِ: لجنةٌ علميةٌ مكوَّنةٌ منْ:
1) أ. د. "مساعد بن سليمان الطَّيَّار" الأستاذُ بجامعةِ الملكِ سعودٍ.
2) أ. د. "عبد الرحمن بن مَعَاضة الشِّهري" الأستاذُ بجامعةِ الملكِ سعودٍ.
3) د. "أحمد بن محمد البريدي" الأستاذُ المشاركُ بجامعةِ القصيمِ.
4) د. "ناصر بن محمد الماجد" الأستاذُ المشاركُ بجامعةِ الإمامِ محمَّدٍ بنِ سعودٍ الإسلاميَّةِ.

كمَا كلَّفَ المركزُ ثلاثةً منْ أساتذةِ العقيدةِ المتخَصِّصينَ بمراجعتهِ منَ الجانبِ العقديِّ؛ رغبةً فِي سلامتهِ ممَّا قدْ يقعُ فيهِ منَ الخطأ فِي هذَا الجانبِ، وهمْ:
1) الأستاذُ الدكتورُ: "سهل بن رفاع العتيبي" أستاذُ العقيدةِ والمذاهبِ المعاصرةِ بجامعةِ الملكِ سعودٍ.

2) والأستاذُ الدكتورُ: "عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف" أستاذُ العقيدةِ والمذاهبِ المعاصرةِ بجامعةِ الإمامِ محمَّدٍ بنِ سعودٍ الإسلاميَّةِ.
3) والدُّكتورُ: "عبد الله بن عبد العزيز العنقري" أستاذُ العقيدةِ المشاركِ بجامعةِ الملكِ سعودٍ.
وقدْ قامُوا بمراجعتهِ كلٌّ علَى حدةٍ، وأفادُوا بملاحظاتٍ وتصويباتٍ قيِّمة؛ فجزاهمْ اللهُ خيرًا.

ثمَّ أَوْكَلَ المركزُ إِلَى الأستاذِ الدُّكتورِ مساعدَ بنِ سليمانَ بنِ ناصرٍ الطَّيَّارِ مراجعةَ المختصرِ كاملًا؛ للنَّظرِ فِي الملاحظاتِ والمقترحاتِ التِي وصلَتْ منَ القُرَّاءِ للتَّفسيرِ فِي طبعتيهِ الأولَى والثَّانيةِ، فقامَ باختيارِ نخبةٍ منْ طلبةِ العلمِ المتخصِّصينَ منْ طلَّابهِ يقرؤونَ المختصرَ معهُ صفحةً صفحةً، ويقفونَ علَى كلِّ الملاحظاتِ التِي وصلتْ، وينظرونَ فيمَا يقفونَ عليهِ كذلكَ، ومَا احتاجَ إِلَى إعادةِ صياغةٍ أعادُوا صياغتَهُ؛ مستفيدِينَ منْ صياغةِ الإمامِ ابنِ جَريرٍ الطَّبَرِيِّ فِي المقامِ الأوَّلِ، كمَا قامُوا بإعادةِ صياغةِ مَا يحتاجُ إِلَى صياغةٍ منْ مقاصدِ السُّورِ أوْ منَ الفوائدِ، وتمَّ الاقتصارُ علَى ثلاثِ فوائدَ غالبًا فِي كلِّ صفحةٍ.

وفِي حالِ الاختلافِ فِي التَّفسيرِ، رأتِ اللَّجنةُ الاعتمادَ علَى إمامِ المفسِّرينَ ابنِ جريرٍ الطَّبريِّ؛ لسلامةِ منهجِهِ، وكثرةِ اعتمادهِ علَى التَّفسيرِ المنقولِ عنِ النَّبيِّ ﷺ وعلَى المنقولِ عنِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ وأتباعهمْ رضيَ اللهُ عنهمْ[2].

فقدِ اجتمعَ علَى خدمةِ هذَا الكتابِ تسعةَ عشرَ عالمًا، وهذَا الكتابُ هوَ أصحُّ كتابٍ علَى وجهِ الأرضِ فِي زَمننَا.

---

(1) مقدَّمة المختصر في التَّفسير الطَّبعة الثَّالثة.

(2) السابق.

المنهجُ المتبَّعُ فِي كتابِ المختصرِ فِي التَّفسيرِ:

1) وضوحُ العبارةِ وسهولتِهَا.

2) الاقتصارُ علَى تفسيرِ الآياتِ وبيانِ معانيهَا دونَ دخولٍ فِي مسائلِ القراءاتِ والإعرابِ والفقهِ ونحوهَا.

3) شرحُ المفرداتِ القرآنيَّةِ الغريبةِ أثناءَ التَّفسيرِ وتمييزِ الشَّرحِ بلونٍ مختلفٍ بقدرِ الاستطاعةِ ليسهلَ الوقوفُ عليهِ لمنْ أرادهُ.

4) اتِّباعُ منهجِ سلفِ الأمَّةِ رضوانُ اللهِ عليهمْ فِي التَّفسير وفِي بيانِ معانِي آياتِ الصَّفاتِ خصوصًا باتِّباعِ مَا دلَّ عليهِ القرآنُ والسُّنَّةُ دونَ تأويلٍ أوْ تحريفٍ.

5) تحرِّي المعنَى الأرجحِ عندَ الاختلافِ، معَ مراعاةِ ضوابطَ التَّفسيرِ وقواعدِ التَّرجيعِ.

6) ذكرُ بعضِ هداياتِ الآياتِ وفوائدهَا فِي أسفلِ كلِّ صفحةٍ بمَا يُعِينُ علَى تدبُّرهَا وتمامِ الانتفاعِ بهَا، تحتَ عنوانٍ مستقلٍّ: منْ فوائدِ الآياتِ.

7) التَّقديمُ بينَ يديْ كلِّ سورةٍ ببيانِ زمانِ نزولهَا (مَكِّيَّةٌ أوْ مَدَنِيَّةٌ)، وبيانُ أهمِّ مقاصدهَا باختصارٍ.

8) جمعُ كلُّ مَا سبقَ وكتابَتُهُ علَى حاشيةِ المصحفِ الشَّريفِ [1].

(1) مقدَّمة المختصر في التَّفسير الطَّبعة الثَّالثة.

المآخذُ علَى كتابِ المختصرِ فِي التَّفسيرِ:

بعدَ مَا سبقَ ذكرهُ منَ عملِ العلماءِ فِي هذَا الكتابِ، يصعبُ أنْ تجدَ فيهِ مآخذًا، فهوَ عبارةٌ عنْ نوعٍ منَ الإجماعِ علَى تفسيرٍ معيَّنٍ، بلْ هوَ الإجماعُ بعينهِ، فكمَا سبقَ وذكرنَا أنَّهُ قدِ اجتمعَ علَى العملِ عليهِ تسعةَ عشرَ عالمًا، فحتَّى وإنْ وُجدتْ مآخذُ فيهِ، فيستحيلُ أنْ تكونَ هذهِ المآخذُ فِي متنِ التَّفسيرِ بفروعهِ منْ عقيدةٍ وغيرهَا، ومنَ الممكنِ أنْ تجدَ مآخذَ فِي غيرِ ذلكَ مثلَ الإخراجِ الفنِّيِّ للكتابِ أوْ طريقةِ التَّرتيبِ فِي التَّفسير ومَا إلَى ذلكَ، ومنْ ذلكَ أذكرُ ملحوظةً سجَّلتُهَا حالَ دراستِي لهذَا الكتابِ الجليلِ، أنَّهُ فِي تفسيرِ السُّورِ وبعدَ أنْ يذكرَ مقاصدَ السُّورةِ، وذكرِ معنَى اسمهَا يستفتحُ بالتَّفسيرِ ولا يذكرُ الآيةَ التِي يفسِّرهَا، بلْ يكتفِي بذكرِ رقمهَا، منْ ذلكَ مثلًا فِي سورةِ الفاتحةِ أوْ فِي أيِّ سورةٍ أخرَى يكتبُ فِي تفسيرِ الآيةِ:

"(2) جميعُ أنواعِ المحامدِ منْ صفاتِ الجلالِ والكمالِ..."، وهوَ يقصدُ تفسيرَ الآيةِ الثَّانيةِ منَ الفاتحةِ "الَحمْدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ"، وكذلكَ الأمرُ فِي طيَّاتِ الكتابِ، وبهذَا لَا يستطيعُ قراءةَ هذَا التَّفسيرِ إلَّا حاملٌ لكتابِ اللهِ تعالَى، بلْ يجبُ أنْ يكونَ حافظًا لأرقامِ الآياتِ أيضًا، وهذَا متعذِّرٌ حتَّى علَى المختصِّينَ فِي القراءاتِ، أوْ يجبُ عليهِ أنْ ينظرَ إلَى كلِّ رقمٍ علَى أيِّ آيةٍ يدلُّ، فينظرُ فِي الرَّقمِ ثمَّ يعودُ إلَى السُّورةِ فيقرأُ الآيةَ ثمَّ يعودُ إلَى تفسيرهَا، ومنَ الممكنِ أنْ ينساهَا إنْ كانَ ليسَ حاملًا لكتابِ اللهِ تعالَى، فيجبُ عليهِ حينهَا الرُّجوعُ مرَّةً أُخرَى للآيةِ، فتجدُ القارئَ متذبذبًا بينَ الآيةِ وتفسيرهَا، وحقيقةً هذَا مرهقٌ جدًّا فِي السُّورِ الطِّوالِ حتَّى لمنْ كانَ حاملًا للقرآنِ بكلِّ رواياتهِ، فإذَا تعبَ القارئُ تجدهُ يقرأُ فِي

التَّفسيرِ دونَ الآيةِ، حينهَا لَا يعلمُ تفسيرَ أيِّ آياتِ ذاكَ الذِي يقرأهُ، فمثلًا لوْ كتبتُ لكَ: سورةُ البقرةِ (225): "ومثلُ الذينَ يبذلونَ أموالهمْ طلبًا لمرضاتِ اللهِ، مطمئنَّةً أنفسهمْ بصدقِ وعدِ اللهِ غيرَ مكرهةً، كمثلِ بستانٍ علَى مكانٍ مرتفعٍ طيِّبٍ، أصابهُ مطرٌ غزيرٌ، فأنتجَ ثمرًا مضاعفًا ..."، فِي حالِ قراءةِ هذَا التَّفسيرِ وجبَ الرُّجوعُ إلَى الآيةِ وهوَ الأصلُ، فلَا يجدهَا القارئُ فِي متنِ التَّفسيرِ بلْ يجدُهَا فِي السُّورةِ، فغايةُ الأمرِ أنَّ فصلَ الآياتِ عنْ متنِ التَّفسيرِ يتعبُ القارءَ، فياليتَ أنَّ تعادَ صياغةُ هذَا الكتابِ الجليلِ ليكونَ كعامةِ كتبِ التَّفسيرِ بأنْ تُذكرَ الآيةَ ثمَّ يذكرُ تفسيرهَا أمامهَا ليسهلَ الأمرَ علَى المختصِّ وعلَى غيرِ المختصِّ، ومعَ هذَا فمَا سبقَ ذكرهُ لَا يعدُّ مأخذًا علَى هذَا التَّفسيرِ الجليلِ، بلْ هوَ مجرَّدُ ملاحظةٍ لتسهيلِ الأمرِ علَى القرَّاءِ، ويبقَى كتابُ المختصر فِي التَّفسيرِ أحسنَ كتبِ عصرهِ، فباركَ اللهُ فِي كلِّ منْ شاركَ فِي هذَا العملِ المباركِ وجزاهمُ الجنَّةَ علَى ذلكَ.

****

تفاسيرٌ يجبُ التَّنبُّهُ لهَا:

هناكَ جملةٌ منْ كتبِ التَّفسيرِ لَا يمكنُ لأيِّ أحدٍ أنْ يقرأهَا، سيَّمَا المبتدؤونَ منْ طلبةِ العلمِ، فقدْ يزلُّ البعضُ بسببِ محتواهَا زللًا كبيرًا، خاصَّةً فِي العقيدةِ، ومنهَا:

1) الكشفُ والبيانُ عنْ تفسيرِ القرآنِ، لمؤلِّفهِ: أبِي إسحاقَ أحمدَ بنِ محمَّدٍ بنِ إبراهيمَ الثَّعلبِي، ت 467 هـ.

يُلاحظُ علَى هذَا التَّفسيرِ:

أ) الإكثارُ منْ ذكرِ الإسرائيليَّاتِ دونَ تعقيبٍ، معَ ذكرهِ لقصصٍ إسرائيليَّةٍ غريبةٍ.

ب) الاغترارُ بالأحاديثِ الموضوعةِ فِي فضائلِ السُّورِ، سورةً سورةً، فروَى فِي نهايةِ كلِّ سورةٍ حديثًا فِي فضلهَا منسوبًا إلى أُبَيْ بنِ كعبٍ رضيَ اللهُ عنهُ.

ج) الاغترارُ بكثيرٍ منَ الأحاديثِ الموضوعةِ علَى ألسنةِ الشِّيعةِ دونَ الإشارةِ إلَى كونهَا موضوعةٌ مكذوبةٌ[1].

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ:

والثَّعلبِي هوَ فِي نفسهِ فيهِ خيرٌ ودينٌ، وكانَ حاطبًا فِي اللَّيلِ، ينقلُ مَا وجدَ فِي كتبِ التَّفسيرِ منْ صحيحٍ وضعيفٍ وموضوعٍ[2].

---

(1) كتاب التفسير / مجموعة زاد للعلوم الشرعية – المستوى الأول / صـ 26/ محمد صالح المنجد.

(2) مقدِّمة في أصول التفسير لابن تيمية.

2) روحُ المعانِي فِي تفسيرِ القرآنِ العظيمِ والسَّبعِ المثانِي، لمؤلِّفهِ: أبِي الثَّناءِ شهابِ الدِّينِ السيِّدِ محمودٍ الأفَندِي الألوسِي، ت 1270 هـ[1]. يُنظر الهامش

وهوَ تفسيرٌ كبيرٌ، منْ يطَّلعُ عليهِ يجدُ نفسهُ أمامَ موسوعةٍ تفسيريَّةٍ كبيرةٍ، جمعَ فيهِ المؤلِّفُ أقوالًا فِي التَّفسيرِ كثيرةً، كمَا أنَّهُ رجعَ إلَى جملةٍ كبيرةٍ منَ التَّفاسيرِ، منهَا تفسيرُ أبي السُّعودِ، والبيضاوي وتفسيرِ الفخرِ الرَّازِي، كمَا نقلَ عنْ تفسيرِ ابنِ عطيَّةَ وأبِي حيَّانَ والزَّمخشرِي وابنِ كثيرٍ وغيرهمْ.

لكنْ يعيبُ هذَا التفسيرَ: اهتمامهُ بالتَّفسيرِ الإشارِي الصُّوفِي، فإذَا انتهَى منَ التَّفسيرِ الظَّاهرِ تكلَّمَ عنِ التَّفسيرِ الباطنِي، فينقلُ فيهِ كلامَ الصُّوفيَّةِ، كالجنيدِ وابنِ عطاءٍ وأبِي العبَّاسِ المرسِي، وهيَ تفاسيرُ شاذَّةٌ بعيدةٌ عنِ الحقِّ[2].
فمن أرادَ تفسيرَ آيةٍ يكفيهِ منْ سبقَ ذكرهمْ كالطَّبري وابنِ الكثيرِ وغيرهمْ، فقدْ كفُّوا ووفُّوا.

(1) كان سلفي العقيدة، وشافعي المذهب. وقد أثبت صفة العلو لله تعالى في تفسيره فقال: "وتأول بعضهم كل نص فيه نسبة الفوقية إليه تعالى بأن فوق فيه بمعنى خير وأفضل كما يقال: الأمير فوق الوزير والدينار فوق الدرهم. وأنت تعلم أن هذا مما تنفر منه العقول السليمة وتشمئز منه القلوب الصحيحة فإن قول القائد ابتداء: الله تعالى خير من عباده أو خير من عرشه من جنس قوله: الثلج بارد والنار حارة والشمس أضوأ من السراج والسماء أعلى من سقف الدار ونحو ذلك وليس في ذلك أيضا تمجيد ولا تعظيم لله تعالى بل هو من أرذل الكلام فكيف يليق حمل الكلام المجيد عليه وهو الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، على أن في ذلك تنقيصا لله تعالى شأنه ففي المثل السائر:
ألم تر ان السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف خير من العصا....
المراجعُ: ضميرية، ناصر. "استعادة ابن تيمية: عائلة الآلوسي في العراق ودورها في نشر الفكر السلفي". alaalam.org. مؤرشف من الأصل في 17 سبتمبر 2018. اطلع عليه بتاريخ 08 يوليو 2019.
"الإمام الآلوسي وكتابه \ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني\". مجموعة مواقع مداد. مؤرشف من الأصل في 21 مايو 2019. اطلع عليه بتاريخ 08 يوليو 2019.
"علامة العراق الألوسي ولزومه منهج السلف". saaid.net. مؤرشف من الأصل في 1 أكتوبر 2018. اطلع عليه بتاريخ 08 يوليو 2019.
(2) كتاب التفسير / مجموعة زاد للعلوم الشرعية – المستوى الأول / صـ 27/ محمد صالح المنجد.

****

البابُ الثَّالثُ

وفيـهِ فصلٌ واحدٌ:

شرحُ رسالةِ السَّعدِي المسمَّاتِ بـ "أصولٍ وكلِّياتٍ منْ أصولِ التَّفسيرِ لَا يستغنِي عنـهَا مفسِّرُ القرآنِ".

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

الحمـدُ للهِ الـذِي تطـوَّلَا * وشرعَ الدِّينَ لنَا وأصَّـــلَا
ثمَّ الصَّلاةُ والسَّلامُ أرسلَا * علَى نبيٍّ قدْ أبانَ السُّبــلَا
محمَّدٍ والآلِ والأصحــابِ * مَا استنبطَ الأحكامُ منْ كتابِ(1)

وبعدُ:

فمنْ جملةِ كتبِ أصولِ التَّفسيرِ المعتبرةِ اخترتُ هذهِ الورقاتِ وهيَ رسالةُ إمَامنَا السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى المسمَّاتِ بـ "أصولٍ وكلِّياتٍ منْ أصولِ التَّفسيرِ لَا يستغنِي عنهَا مفسِّرُ القرآنِ"، وهذَا لسهولتهَا وبساطتهَا، فهذهِ هيَ طريقةُ العلَّامةُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى، فهوَ يُبلِّغُ المعلومةَ بأسهلِ الطُّرقِ الممكنةِ كيْ يفهمهَا الرَّاسخُ فِي علمٍ وغيرهِ، وهذَا هوَ المرادُ منَ التَّأليفِ وهوَ أنْ تصلَ المعلومةُ إلَى جميعِ شرائحِ المجتمعِ الإسلاميِّ، ولَا تُخصُّ بهَا طائفةٌ دونَ غيرهَا، معَ مراعاتِ كلِّ المستوياتِ، فكانتِ الورقاتُ التِي كتبهَا إمامنَا رحمهُ اللهُ تعالَى علَى هذَا النَّهجِ، وكنتُ قدْ جمعتُ مَا فِي مقدِّمةِ تفسيرهِ رحمهُ اللهُ تعالَى معَ رسالتهِ المسمَّات بـ "أصول وكلِّيَّتٍ منْ أصولِ التَّفسيرِ" فِي كتيِّبٍ صغيرٍ وأسميتُهُ (ورقاتٌ فِي أصولِ التَّفسيرِ) ولكنِّي رأيتُ ألَّا بدَّ منْ شرحِ كلامهِ رحمهُ اللهُ تعالَى، ولمَّا كانَ الكُتَيِّبُ الذِي جمعتهُ (ورقاتٌ فِي أصولِ التَّفسيرِ) منْ بابينِ، بابٌ منْ كتابِ "بدائعِ الفوائدِ" لابنِ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى، وبابٌ منْ كلامِ شيخنَا السَّعدِي (أصولٌ وكلِّياتٌ منْ أصولِ التَّفسيرِ لَا يستغنَى عنهَا مفسِّرُ القرآنِ) اقتصرتُ علَى شرحِ كلامِ الشَّيِّخِ السَّعدِي،

معتمدًا فِي بعضهِ علَى كتابهِ "القواعدُ الحسانُ المتعلَّقةُ بتفسيرِ القرآنِ" هذَا بشرحِ كلامهِ منْ رسالتهِ (أصولٌ وكلِّيَّاتٌ) وكلامهِ منْ كتابِ (القواعدُ الحسانُ)، ولمَّا كانتْ رسالتهُ رحمهُ اللهُ تعالَى (أصولٌ وكلِّيَّاتٌ) فيهَا شيءٌ منْ قواعدِ التَّفسير وأصولهِ وكلِّياتهِ وشيءٌ منَ التَّعريفاتِ، اضطررتُ لشرحهَا كلِّهَا، لذلكَ تجدُ الكتابَ فيهِ كثيرًا منَ الاستطراداتِ العلميَّةِ والنُّكتِ، كمَا أنِّي أكتفيتُ بالفصلِ الأوَّلِ منَ رسالتهِ رحمهُ اللهُ تعالَى، لأنَّ الفصلَ الثَّانِي شرحَ فيهِ أسماءَ اللهِ الحسنَى شرحًا اصطلاحيًّا فِي الغالبِ، واللهَ أرجُو أنْ يجعلَ هذَا العملَ خالصًا لوجههِ الكريمِ، وأنْ يجعلنَا منْ عبادهِ المخلصينَ، وأنْ يغفرَ لنَا ولوالدينَا ومشايخنَا وجميعِ المسلمينَ، وأنْ يرحمَ الإمامَ السَّعدِي رحمةً واسعةً، فهوَ وليُّ ذلكَ وهوَ علَى كلِّ شيءٍ قديرٍ.

وكتبَ

أبو فاطمة عصام الدِّين بن إبراهيم النقيلي

غفرَ الله له ووالديهِ ومشايخه

والمسلمين

آمين.

---

(1) منظومة القواعد الفقهية لعثمان بن سند المالكي البصري- (تـ: 1242 أو 1250 هـ).

أصولٌ وكلِّيَّاتٌ منْ أصولِ التَّفسيرِ لَا يستغنَى عنهَا مفسِّرُ القرآنِ

شرحُ العنوانِ:

قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى: "أصولٌ وكلِّيَّاتٌ" أمَّا أصولٌ فجمعُ أصلٍ وقدْ سبقَ تعريفهُ فِي أوَّلِ الكتابِ.

وأمَّا كليَّاتٌ فِي اللُّغةَ:

جمعُ كليَّةٍ، والكليَّةُ منسوبةٌ إلَى كلمةِ (كل)، وقدْ أعادَ ابنُ فارسَ مادَّةَ "الكافِ واللَّامِ" فِي اللُّغةِ إلَى ثلاثةِ أصولٍ صحاحٍ وقالَ: "(كل) الكافُ واللَّامُ أصولٌ ثلاثةٌ صحاحٌ، فالأوَّلُ يدلُّ علَى خلافِ الحدَّةِ، والثَّانِي يدلُّ علَى إضافةِ شيءٍ بشيءٍ، والثَّالثُ عضوٌ منَ الأعضاءِ"، (والمناسبُ منهَا هنَا هوَ الثَّانِي، الذِي يدلُّ علَى إضافةِ شيءٍ بشيءٍ)، ثمَّ قالَ فِي آخرِ كلامهِ علَى هذهِ المادَّةِ: "فأمَّا كلٌّ فهوَ اسمٌ موضوعٍ للإحاطةِ"[1]. أهـ

أوْ: كلمةٌ تستعملُ بمعنَى الاستغراقِ بحسبِ المقامِ[2].

ومنهُ: الكلالةُ[3] لإحاطتهَا بالوالدِ والولدِ، ونحوِ ذلكَ.

---

(1) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (395هـ)، معجم مقاييس اللغة، (باب: الكاف وما يطابقها من الثنائي) أو (المطابق)، ص: 902 - ويُنظرُ: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (770هـ) - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، (مادة: ك ل ل)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ/1979م،(278/1).

(2) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، (538/2).

(3) الكلالة: تعريف الكلالة لغة: الكلالة مشتقة من الإكليل. لأن الإخوة يحيطون بالميت كالإكليل. وقيل من الكلل وهو الضعف والتعب لأن الذي ليس له ولد ولا والد يصبح ذكره ضعيفًا. تعريفها اصطلاحًا: هو ميراث الميت الذي ليس له ولد ولا والد. وقيل أنها اسم للورثة من الإخوة.

الكلِّياتُ اصطلاحًا:

بعدَ التَّعريفِ اللُّغويِّ، يمكنُ أنْ نُشيرَ إلَى بعضِ مَا قيلَ فِي المرادِ بـِ (الكلِّياتِ) فِي اصطلاحِ المؤلِّفينَ فِي أصولِ التَّفسيرِ، حيثُ قيلَ بأنَّهَا: "ورودُ لفظٍ أوْ أسلوبٍ فِي القرآنِ علَى معنًى أوْ طريقةٍ مطَّردةٍ أوْ أغلبيَّةٍ"[1].

شرحُ التَّعريفِ علَى ثلاثةِ أقسامٍ:

الأوَّلُ: الفرقُ بينَ الألفاظِ والأساليبِ: وهوَ أنَّ كلِّيَّاتِ الألفاظِ مدارهَا علَى لفظٍ أوْ ألفاظٍ أوْ جملةٍ معيَّنةٍ، سواءٌ كانَ ذلكَ متعلِّقاً بورودِ اللَّفظِ علَى معنًى معيَّنٍ، أوْ علَى طريقةٍ معيَّنةٍ، فِي حينِ أنَّ المدارَ فِي كلِّيَّاتِ الأساليبِ ليسَ الألفاظُ، بلِ الموضوعاتُ والقضايَا وكيفيَّةِ ورودهَا فِي نظمِ القرآنِ وطريقةِ ذلكَ، ويمكنُ أنْ يُمَثَّلَ لكلِّيَّاتِ الأساليبِ بقولِ ابنِ القيِّمِ: "وهذهِ طريقةُ القرآنِ يقرنُ بينَ أسماءِ الرَّجاءِ وأسماءِ المخافةِ، كقولهِ تعالَى: (اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [المائدة:98][2].

الثَّانِي: الفرقُ بينَ المعنَى والطَّريقةِ، وهذَا يمكنُ توضيحهُ بأنْ يقالَ: إنَّ الكلِّيَّةَ قدْ تتعلَّقُ بورودِ لفظٍ علَى معنًى معيَّنٍ فِي جميعِ القرآنِ، كقولهمْ: (كلُّ ظنٍّ فِي القرآنِ فهوَ يقينٌ) وقدْ تكونُ متعلِّقةً بورودِ لفظٍ لَا علَى معنًى بلْ علَى طريقةٍ أوْ منهجٍ أوِ استعمالٍ معيَّنٍ، وذلكَ مثلَ قولهمْ: (كلُّ زعمٍ فِي القرآنِ فقدْ ذُمَّ القائلونَ بهِ).

الثَّالثُ: الفرقُ بينَ المطَّردةِ والأغلبيَّةِ: وهوَ أنَّ المطَّردةَ هيَ الكلِّيَّةُ المتحقِّقةُ فِي جميعِ مواطنِ ورودهَا فِي القرآنِ، فإذَا خرجَ موطنٌ أوْ أكثرَ لمْ تتحقَّقْ فيهِ ولكنِ المواطنُ

المتحقِّقةُ فيهَا أغلبُ، فهيَ أغلبيَّةٌ[3].

وأمَّا قولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي التَّعريفِ "منْ أصولِ التَّفسيرِ" قدْ سبقَ تعريفُ التَّفسيرِ فِي أوَّلِ الكتابِ، ولعلَّ "منْ" يقصدُ بهَا جزءًا منَ الكلِّيَّاتِ والأصولِ لَا كلِّهَا.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: "لَا يستغنَى عنهَا مفسِّرُ القرآنِ"، والمفسِّرُ فِي اللُّغةِ هوَ "الموضِّحُ للشَّيء، تقولُ: وضَّحَ نصوصًا: شرحهَا وفسَّرهَا"[4].

واصطلاحًا هوَ: العالمُ الملمُّ بجلِّ علومِ الشَّريعةِ فهمًا وحفظًا أصولًا وفروعًا، وخاصَّةً علومَ الأثرِ واللُّغةِ وفروعهَا.

والقرآنُ لغةً فيهِ قولانِ، الأوَّلُ: أنَّ القرآنَ اسمُ عَلَمٍ علَى كتابِ اللهِ تعالَى ليسَ مشتقًّا، والثَّانِي: أنَّهُ مشتقٌّ منْ فعلٍ مَهْموزٍ، وهوَ: "قرأَ، اقرأْ"، وقيلَ أنَّهُ مصدرٌ منَ الفعلِ قرأَ، تقولُ: قرأَ قرآنًا، وقيلَ غيرَ ذلكَ، وكلُّهاَ تدورُ علَى معنًى واحدٍ، فإنْ كانَ مشتقًّا فمعناهُ تعلَّمْ وتدبَّرْ، وإنْ كانَ مصدرًا فمعناهُ الجمعُ.

واصطلاحًا هوَ: "كلامُ اللهِ تعالَى المُنزَّلِ علَى نبيِّهِ مُحمَّدٍ ﷺ، المُعْجِزِ بلفْظهِ ومعناهِ، المُتعبَّدِ بتلاوتهِ، المنقولِ إلينَا بالتَّواترِ، المكتوبِ فِي المصاحفِ منْ أَوَّلِ سورةِ الفاتحةِ إلَى آخِرِ سورةِ النَّاسِ"[5].

(1) بريك القرني، كليات الألفاظ في التفسير، رسالة ماجستير، في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، 1426هـ، (19/1)، - مساعد بن سليمان الطيار، "فصول في أصول التفسير"، ص:122، - علي العبيد، "تفسير القرآن الكريم أصوله وضوابطه"، ص: 120 .

(2) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (751هـ) ،جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام ، تحقيق :شعيب الأرناؤوط ، ص174.

(3) لمزيد منَ التَّوضيحِ يُنظرُ رسالة "أثر معرفة الكليات والأفراد في القرآن الكريم" - د. صالح بن سعود سليمان السعود. " المبحث الأول الكليات والأفراد، وعلاقتها بالوجوه والنظائر المطلب الأول : تعريف الكليات والأفراد لغة".

(4) معجم المعاني.

(5) للمزيدِ يُنظر: موقع الألوكة: "التعريف بالقرآن الكريم لغة واصطلاحا" - د. أمين الدميري.

ثمَّ شرعَ الشَّيخُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى فقالَ:

النَّكرةُ فِي سياقِ النَّفيِ، أوْ سياقِ النَّهيِ، أوِ الاستفهامِ، أوْ سياقِ الشَّرطِ، تعمُّ، وكذلكَ المفردُ المضافُ يعمُّ، وأمثلةُ ذلكَ كثيرةٌ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

والقاعدةُ أصلهَا فِي كتابِ "القواعدِ الحسانِ" للمؤلِّفِ رحمهُ اللهُ تعالَى، وهيَ: "إذَا وقعتِ النَّكرةُ فِي سياقِ النَّفيِ أوِ النَّهيِ أوِ الشَّرطِ أوِ الاستفهامِ، دلَّتْ علَى العمومِ"(1).

مثالٌ للقاعدةِ "فِي سياقِ النَّفيِ" قولهُ تعالَى: "يَوْمَ لَا تَملِكُ نَفسٌ لِنَفسٍ شَيْئًا" [الإنفطار: 19] **يعمُّ كلَّ نفسٍ، وأنَّهُ لَا تملكُ شيئًا منَ الأشياءِ، لَا إصالِ المنافعِ، ولَا دفعِ المضارِ(2).**

وقالَ ابنُ عاشورٍ: " وعمومُ (نفسٍ) الأولَى والثَّانيةِ فِي سياقِ النَّفيِ يقتضِي عمومَ الحكمِ فِي كلِّ نفسٍ"(3).

مثالٌ "فِي سياقِ النَّهيِ" قولهُ تعالَى: "وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بهِ شَيْئًا" [النِّساء: 36] **فإنَّهُ تعالَى نهَى الشِّركَ بهِ فِي النِّيَّاتِ والأقوالِ والأفعالِ، وعنِ الشركِ الأكبرِ والأصغرِ، والخفيِّ والجليِّ،...(4).**

مثالٌ "فِي سياقِ الاستفهامِ" قولهُ تعالَى: "هَلْ منْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ" [فاطر: 3]

إنَّ الاستفهامَ فِي هذهِ الآيةِ استفهامٌ إنكاريٌّ، وهوَ بمعنَى النَّفيِ، ولذلكَ اقترنَ بـ (من) التِي تُزادُ لتأكيدِ النَّفيِ، وكذلكَ قالَ الطَّنطاوِي فِي الوسيطِ وابنُ عاشورٍ فِي التَّحرير، وإنْ كانَ الأمرُ كذلكَ فالاستفهامُ هنَا يعمُّ، منْ ذلكَ قولهُ تعالَى:

"مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ"[الأنعام: 46]، هذَا أيضًا نكرةٌ فِي سياقِ الاستفهامِ الإنكارِي، وأمَّا إذَا كانتْ فِي سياقِ الاستفهامِ غيرِ الإنكارِي فإنَّهَا لَا تدلُّ علَى العمومِ بلْ هيَ للإطلاقِ؛ لأنَّهُ لَا يرادُ بهِ النَّفيِ، وهيَ إنَّمَا كانتْ للعمومِ فِي سياقِ الاستفهامِ الإنكارِي لأنَّ الاستفهامَ الإنكارِيَّ بمنزلةِ النَّفيِ، فإنَّ قولهُ تعالَى: "مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ" [القصص: 71] يوازنُ قولَ: "لَا إلهَ غيرَ اللهِ يأتيكمْ بضياءٍ" ولهذَا كانتِ النَّكرةُ فِي سياقِ الاستفهامِ الإنكاريِّ دالَّةٌ علَى العمومِ، وأمَّا فِي سياقِ الإثباتِ فلَا تدلُّ علَى العمومِ، فلوْ قلتُ لكَ: "أكرِمْ رجلاً " فأكرمتَ رجلاً واحدً، فقدِ امتثلتَ، لأنَّهُ يصدقُ عليهِ أنَّهُ رجلٌ، ولوْ قلتُ: "أرجلاً أكرمتَ" استفهامٌ يقصدُ بهِ الاستعلامُ لَا الإنكارُ، فهذَا ليسَ للعمومِ؛ لأنَّهَا نكرةٌ فِي سياقِ الاستفهامِ لغيرِ الإنكارِ، ولكنَّهَا للاستعلامِ(5) ونخرجُ بأنَّ الذِي يعمُّ هوَ الاستفهامُ الإنكارِي.

مثالٌ "فِي سياقِ الشَّرطِ" قولهُ تعالَى: "وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بضرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ"[يونس: 107] "قولهُ تعالَى بِضُرٍّ": ضُرٍّ نكرةٌ جاءتْ فِى سياقِ الشَّرطِ، فهيَ تفيدُ العمومَ أيْ تشملُ كلَّ الضرِّ فِى المالِ والصحَّةِ وكلِّ شئٍ، والشَّرطُ عندَ النُّحاةِ هوَ: تعليقُ وقوعِ أمرٍ وحصولهِ علَى أمرٍ آخرَ"(6).

---

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي صـ 22.

(2) السَّابق.

(3) التَّحرير والتنوير لابن عاشور - سورة الإنفطار.

(4) مقدِّمة تفسير السَّعدي.

(5) الشرح الكبير لمختصر الأصول لأبي المنذر المنياوي.

(6) شرح المفصل لموفق الدين بن يعيش النحوي 1 – 155.

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وكذلكَ المفردُ المضافُ يعمُّ.

مثالٌ "المفردُ المضافُ" قولهُ تعالَى: "وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ" [الضحى:11] **فالمفردُ المضافُ إلَى معرفةٍ يعمُّ، والمفردُ هوَ: "الاسمُ الدالُّ على الواحدِ، ويشملُ المثنَّى والجمعَ"، فقولهُ تعالَى (بِنِعْمةِ ربِّكَ) فلفظةُ "نعمةِ" مفردٌ وأُضيفَ إلَى معرفةٍ وهوَ "ربِّكَ" فأفادتِ العمومَ، قالَ ابنُ عاشورٍ: "وليسَ المرادُ بنعمةِ ربِّكَ نعمةً خاصةً، وإنَّمَا أُريدَ الجنسُ، فيفيدُ عموماً فِي المقامِ الخَطابِي، أيْ حدِّثْ مَا أنعمَ اللهُ بهِ عليكَ منَ النِّعمِ، فحصلَ فِي ذلكَ الأمرِ شكرُ نعمةِ الإغناءِ، وحصلَ الأمرُ بشكرِ جميعِ النِّعمِ لتكونَ الجملةُ تذييلاً جامعاً"(1).**

---

(1) التَّحرير والتنوير لابن عاشور سورة الضحى.

ثمَّ قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: فمتَى وجدتَ نكرةً واقعةً بعدَ المذكوراتِ، أوْ وجدتَ مفردًا مضافًا إلَى معرفةٍ، فأثبتْ جميعَ مَا دخلَ فِي ذلكَ اللَّفظِ، ولَا تعتبرْ سببَ النُّـزولِ وحدهُ، فإنَّ "العبرةَ بعمومِ اللَّفظِ، لَا بخصوصِ السَّببِ".

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وهذهِ قاعدةٌ مهمَّةٌ جدًّا قدْ ذكرهَا السَّعدِي فِي كتابهِ "القواعدُ الحسانُ" وهيَ: العبرةُ بعمومِ اللَّفظِ، لَا بخصوصِ السَّببِ(1).

أيْ: إذَا وردَ لفظٌ عامٌّ وسببٌ خاصٌّ، فإنَّهُ يحملُ علَى العمومِ، ولَا يختصُّ بالسَّببِ؛ فكلُّ عامٍّ ورَدَ لسببٍ خاصٍّ منْ سؤالٍ أوْ حادثةٍ، فإنَّهُ يُعمَلُ بعمومهِ، ولَا عبرةَ بخصوصِ سببهِ، لأَنَّ الشَّريعةَ عامَّةٌ، فلوْ قصُرَ الحكمُ فيهَا علَى السَّببِ الخاصِّ، لكانَ ذلكَ قصورًا فِي الشَّريعةِ، والشَّريعةُ معروفٌ أنَّهَا لكلِّ العالَمينَ، ومَا دامتِ الشَّريعةُ عامَّةً، فلَا يُعقَلُ حصرُ نصوصهَا فِي أسبابٍ محدودةٍ وأشخاصٍ معدودينَ، وإنَّمَا يكونُ الأصلُ عمومُ أحكامهَا، إلَّا مَا دلَّ دليلٌ علَى خصوصيَّتهِ، فإنَّهُ يقصرُ علَى مَا جاءَ خاصًّا فيهِ(1).

منَ الأمثلةِ علَى ذلكَ: قولهُ تعالَى: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)[النحل: 126]، الآيةُ نزلتْ بالمدينةِ فِي شهداءِ أُحدٍ، وذلكَ أنَّ المسلمينَ لمَّا رأَوا مَا فعلَ المشركونَ بقتلاهمْ يومَ أُحد، منْ تبقيرِ البطونِ، والمُثْلةِ السيِّئةِ، حتَّى لمْ يبقَ أحَدٌ منْ قتلَى المسلمينَ إلَّا مُثِّلَ بهِ، غيرَ حنظلةَ بنِ الرَّاهبِ، فإنَّ أباهُ أبَا عامرٍ الرَّاهبَ كانَ معَ أبِي سفيانَ، فتركوهُ لذلكَ، فقالَ المسلمونَ حينَ رأوْا ذلكَ: لئنْ أظهَرَنَا اللهُ عليهمْ لنزيدنَّ علَى صنيعهمْ، ولنُمثِّلنَّ بهمْ

مُثلةً لمْ يفعلهَا أحَدٌ منَ العربِ بأحَدٍ[2]، فلمَّا قالُوا ذلكَ أنزلَ اللهُ تعالَى قولهُ: "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ..." فالعبرةُ هنَا بعمومِ اللَّفظِ، لَا بخصوصِ السَّببِ؛ فالآيةُ وإنْ نزلتْ فِي شهداءِ أُحدٍ، لكنَّهَا عامَّةٌ فيمنْ أرادَ القَصاصَ، فالقَصاصُ بالمِثلِ ولَا زيادةَ علَى ذلكَ، والتَّجاوزُ عنِ القِصاصِ بالمِثلِ والعفوِ خيرٌ وأبقَى[3].

كذلكَ عنْ أبِي هريرةَ قالَ: لقِيَنِي رسولُ اللهِ ﷺ وأنَا جُنبٌ، فأخذَ بيدِي، فمشيتُ معهُ حتَّى قعدَ، فانسللتُ، فأتيتُ الرَّحْلَ، فاغتسلتُ، ثمَّ جئتُ وهوَ قاعدٌ، فقالَ: (أينَ كنتَ يَا أبَا هِرٍّ؟)، فقلتُ لهُ، فقالَ: (سبحانَ اللهِ يَا أبَا هرٍّ، إنَّ المؤمنَ لَا ينجسُ)[4].

الشَّاهدُ: قولُ النَّبِيِّ ﷺ بشأنِ فعلِ أبِي هريرةَ: (المؤمنُ لَا ينجسُ)، و(العبرةُ بعمومِ اللَّفظِ، لَا بخصوصِ السَّببِ)؛ فألفاظُ الحديثِ عامَّةٌ؛ فأيُّ مؤمنٍ طاهرٍ ليسَ بنجسٍ، وليسَ الحكمُ لأبِي هريرةَ وحدهُ، بلْ هوَ لكلِّ مؤمنٍ.

لكنْ يجبُ التنبُّهُ لشيءٍ أنَّهُ ليسَ معنَى أنَّ (العبرةَ بعمومِ اللَّفظِ، لَا بخصوصِ السَّببِ) أنْ نتغافلَ عنِ السَّببِ، فصورةُ السَّببِ قطعيَّةُ الدُّخولِ، ومَا عداهَا فدخولهُ ظنِّيٌّ، بمعنَى أنَّ سببَ نزولِ الآيةِ وسببَ ورودِ الحديثِ لَا يكونُ خاصًّا في من نزلتْ فيهِ الآيةُ، أوْ وردَ الحديثُ بسببهِ، وإنَّمَا يكونُ عامًّا شاملاً لغيرهِ، فالعامُ يشملُ جميعَ أفرادهِ وصورهِ، وصورةُ السَّببِ التِي نزلتِ الآيةُ منْ أجلهَا قطعيَّةُ الدُّخولِ[5].

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي صـ 18.
(2) تفسير البغوي 3/ 103.
(3) عشرون تطبيقا على قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب - د. ربيع أحمد – شبكة الألوكة - بتصرُّف.
(4) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم 285، ورواه مسلم في صحيحه حديث رقم 371.
(5) عشرون تطبيقا على قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب - د. ربيع أحمد – شبكة الألوكة.

ثمَّ قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: وينبغِي أنْ تنـزلَ جميعُ الحوادثِ والأفعالِ الواقعةِ، والتِي لَا تزالُ تحدثُ، علَى العموماتِ القرآنيَّةِ، فبذلكَ تعرفُ أنَّ القرآنَ تبيانٌ لكلِّ شيءٍ، وأنَّهُ لَا يحدثُ حادثٌ ولَا يستجدُّ أمرٌ منَ الأمورِ، إلَّا وفِي القرآنِ بيانهُ وتوضيحهُ.

ومنْ أصولهِ أنَّ "الألفَ واللَّامَ الدَّاخلةِ علَى الأوصافِ، وعلَى أسماءِ الأجناسِ، تفيدُ استغراقَ جميعَ مَا دخلتْ عليهِ منَ المعانِي".

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وأصلُ هذهِ القاعدةِ فِي كتابِ القواعدِ الحسانِ للمؤلِّفِ رحمهُ اللهُ تعالَى وهيَ: "الألفُ واللَّامُ الدَّاخلةُ علَى الأوصافِ وأسماءِ الأجناسِ، تفيدُ الاستغراقَ بحسبِ مَا دخلتْ عليهِ"[1].

فقولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى: "ومنْ أصولهِ (أيِ التَّفسيرِ) أنَّ الألفَ واللَّامَ الدَّاخلةِ علَى الأوصافِ، وعلَى أسماءِ الأجناسِ، تفيدُ استغراقَ جميعَ مَا دخلتْ عليهِ منَ المعانِي" أيْ منْ أصولِ التَّفسيرِ أنَّ (ال) الدَّاخلةِ علَى السَّابقِ ذكرهِ (الأوصافِ وأسماءِ الأجناسِ) تفيدُ الاستغراقَ، وهذهِ قاعدةٌ مهمَّةٌ، وهيَ أنَّ الألفَ واللَّامَ (ال) إذَا دخلتْ علَى الأوصافِ وعلَى أسماءِ الأجناسِ، تفيدُ ثبوتَ كلَّ مَا دلَّ عليهِ اللَّفظُ، وكلَّ مَا يندرجُ تحتهُ وينطوِي فِي ظلِّهِ، علَى حسبِ مَا يحتملهُ اللَّفظُ.

مثالُ دخولِ (ال) علَى الأوصافِ قولهُ تعالَى: " إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ
~~~~~~~~~~

وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" [الأحزاب: 35]

فكلُّ الأسماءِ التي ذكرتْ فِي هذهِ الآيةِ هيَ أوصافٌ، وكلُّ منِ اتَّصفَ بهذهِ الأوصافِ هوَ موعودٌ منَ اللهِ تعالَى بهذَا المنِّ وهذَا الفضلِ، وهوَ أنَّهُ أعدَّ لهمْ مغفرةً وأجراً عظيماً(2).

والشَّاهدُ منْ هذَا المثالِ أنَّ الألفَ واللَّامَ لمَّا دخلتْ علَى هذهِ الأوصافِ (الْمُسْلِمِينَ)، (الْمُؤْمِنِينَ)، (الْقَانِتِينَ)، (الْخَاشِعِينَ)، (الصَّابِرِينَ)، (الصَّادِقِينَ)، (الصَّائِمِينَ)، (الْمُتَصَدِّقِينَ)، (وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ)، (وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ) أفادتْ استغراقَ وثبوتَ كلَّ مَا تتضمَّنهُ هذهِ الأوصافُ منَ المعانِي، علَى تفاوتِ درجاتِ الموصوفينَ بهَا، فَـ (ال) الدَّاخلةُ علَى الأوصافِ تعمُّ كلَّ منِ اتَّصفَ بهذَا الوصفِ.

مثالُ دخولِ (ال) علَى أسماءِ الأجناسِ قولهُ تعالَى: "إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا"، [المعارج] هذَا عامٌّ لجنسِ الإنسانِ، فكلُّ إنسانٍ هذَا وصفهُ إلَّا منِ استثنَى اللهُ تعالَى بقولهِ: "إِلَّا الْمُصَلِّينَ... إلَى آخرِ الآيةِ" [المعارج] ، كمَا أنَّ قولهُ تعالَى: "وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ" [العصر] فكلُّ جنسِ الإنسانِ متصِّفٌ بالخسارِ "إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ"(3).

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي بتصرف - صـ 19.
(2) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي بتصرف - صـ 20 – بتصرُّف.
(3)من شرح أد. خالد بن عبد الله المصلح على القواعد الحسان للسعدي من موقع almosleh.com بتصرُّف.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: ومنْ كلِّيَّاتِ القرآنِ: أنَّهُ يدعُوا إلَى توحيدِ اللهِ تعالَى ومعرفتهِ، بذكرِ أسماءِ اللهِ تعالَى، وأوصافهِ، وأفعالهِ الدَّالةِ علَى تفرُّدهِ بالوحدانيَّةِ، وأوصافِ الكمالِ، وإلَى أنَّهُ الحقُّ، وعبادتهُ هيَ الحقُّ، وأنَّ مَا يدعونَ منْ دونهِ هوَ الباطلُ، ويبيِّنُ نقصَ كلَّ مَا عُبدَ منْ دونِ اللهِ تعالَى منْ جميعِ الوجوهِ، ويدعُو إلَى صحَّةِ مَا جاءَ بهِ الرَّسولُ محمَّدٌ ﷺ وصدقهِ، ببيانِ إحكامهِ، وتمامهِ، وصدقِ إخباراتهِ كلِّهَا، وحسنِ أحكامهِ، ويبيِّنُ مَا كانَ عليهِ الرَّسولُ ﷺ، منَ الكمالِ البشريِّ الذِي لَا يلحقهُ فيهِ أحدٌ منَ الأوَّلينَ والآخرينَ، ويتحدَّاهمْ بأنْ يأتُوا بمثلِ مَا جاءَ بهِ إنْ كانُوا صادقينَ، ويقرِّرُ ذلكَ بشهادتهِ بقولهِ وفعلهِ وإقرارهِ إيَّاهُ، وتصديقهِ لهُ بالحجَّةِ والبرهانِ، وبالنَّصرِ والظُّهورِ، وبشهادةِ أهلِ العلمِ المنصفينَ، ويقابلُ بينَ مَا جاءَ بهِ منَ الحقِّ فِي أخبارهِ وأحكامهِ، وبينَ مَا كانَ عليهِ أعداؤهُ، والمكذِّبونَ بهِ منَ الكذبِ فِي أخبارهمْ، والباطلِ فِي أحكامهمْ، كمَا يقرِّرُ ذلكَ بالمعجزاتِ المتنوِّعةِ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وهذانِ كلِّيتانِ منْ كلِّياتِ القرآنِ قدْ ذكرهمَا الشَّيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ القواعدُ الحسانُ وقالَ فِي الأولَى: طريقةُ القرآنِ فِي تقريرِ التَّوحيدِ ونفيِ ضدِّهِ.

وفِي الثَّانيةِ قالَ: طريقةُ القرآنِ فِي تقريرِ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ.

وقدْ شرحَ رحمهُ اللهُ تعالَى القاعدةَ الأولَى بقولهِ: القرآنُ كلُّهُ لتقريرِ التَّوحيدِ ونفيِ ضدِّهِ (أيِ الشِّرك)، وأكثرُ الآياتِ يقرِّرُ اللهُ تعالَى فيهَا توحيدَ الألوهيَّةِ، وإخلاصِ العبادةِ للهِ وحدهُ لَا

شريكَ لهُ، ويخبرُ أنَّ جميعَ الرُّسلِ إنَّمَا أرسلتْ تدعُوا قومهَا إلَى أنْ يعبدُوا اللهَ ولَا يشركُوا بهِ شيئًا، وأنَّ اللهَ تعالَى إنَّمَا خلقَ الجنَّ والإنسَ ليعبدوهُ (قالَ تعالَى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"[الذاريات: 52])، وأنَّ الكتبَ والرُّسلَ بلِ الفِطَرَ والعقولَ السَّليمةَ كلُّهَا اتَّفقتْ علَى هذَا الأصلِ الذِي هوَ أصلُ الأصولِ كلِّهَا، وأنَّ منْ لمْ يَدِنْ بهذَا الدِّينِ الذِي هوَ إخلاصُ العبادةِ والقلبِ والعملِ للهِ وحدهُ فعملهُ باطلٌ، قالَ تعالَى: "لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ"[الزمر: 65]، وقالَ: "وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"[الأنعام: 88]، ويدعُوا العبادَ إلَى مَا تقرَّرَ فِي فِطَرِهِمْ وعقولِهمْ منْ أنَّ اللهَ المنفردَ بالخلقِ والتَّدبيرِ والمنفردِ بالنِّعمِ الظَّاهرةِ والباطنةِ: هوَ الذِي يستحقُّ العبادةَ وحدهُ، ولَا ينبغِي أنْ يكونَ شيءٌ منهَا لغيرهِ، وأنَّ سائرَ الخلقِ ليسَ عندهمْ أيُّ قدرةٍ علَى خلقٍ ولَا نفعٍ ولَا دفعِ ضرٍّ عن أنفسهمْ، فضلًا عنْ أنْ يغنُوا عنْ أحدٍ غيرهِمْ منَ اللهِ شيئًا[1].اهـ (قالَ النَّبيُّ ﷺ لابنِ عبَّاسَ ينصحهُ: "... واعلمْ أنَّ الأمَّةَ لوِ اجتمعتْ علَى أنْ ينفعوكَ بشيءٍ لمْ ينفعوكَ إلَّا بشيءٍ قدْ كتبهُ اللهُ لكَ ولوِ اجتمعُوا علَى أنْ يضرُّوكَ بشيءٍ لمْ يضرُّوكَ بشيءٍ إلَّا بشيءٍ قدْ كتبهُ اللهُ عليكَ رفعتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ")[1].

ويدعوهمْ أيضًا إلَى هذَا الأصلِ بمَا يَتَمَدَّحُ بهِ، ويُثنِي علَى نفسهِ الكريمةِ، منْ تفرُّدهِ بصفاتِ العظمةِ والمجدِ، والجلالِ والكمالِ، وأنَّ منْ لهُ هذَا الكمالُ المطلقُ الذِي لَا يشاركهُ فيهِ مشاركٌ: أحقُّ منْ أُخلصتْ لهُ الأعمالُ الظَّاهرةُ والباطنةُ.

---

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرءان – للسعدي.

(2) صحيح سنن الترمذي: 2440.

ويقرِّرُ هذَا التَّوحيدَ بأنَّهُ هوَ الحاكمُ وحدهُ، فلَا يحكمُ غيرهُ شرعًا ولَا جزاءً، قالَ تعالَى: "إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ"(1)[يوسف: 40]. اهـ

(إنِ) حرفُ نفيٍ (الحكمُ) مبتدأٌ مرفوعٌ (إلّا) أداةُ حصرٍ (للّهِ) جارٌّ ومجرورٌ خبرُ المبتدأِ (أمرَ) فعلٌ ماضٍ، والفاعلُ "ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ هوَ" (أنْ) حرفٌ مصدريٌ ونصبٌ (لَا) نافيةٌ (تعبدُوا) فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ وعلامةُ نصبهِ حذفُ النُّونِ ... والواوُ فاعلٌ (إلّا) أداةُ حصرٍ (إيَّاهُ) ضميرٌ منفصلٌ فِي محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ عاملهُ "تعبدُوا".
والمصدرُ المؤوَّلُ (ألّا تعبدُوا..) فِي محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ عاملهُ "أمرَ" وهوَ المفعولُ الثَّاني، أمَّا الأوَّلُ محذوفٌ أيْ: أمرَ النَّاسَ عدمَ عبادةِ إلهٍ غيرَ اللّهِ، أوْ عبادةَ اللّهِ تعالَى.
وبإعرابِ الآيةِ الكريمةِ يظهرُ لكَ أنَّ "إِنْ" حرفُ نفيٍ نفتِ المبتدأَ وهوَ "الْحُكْمُ" ثمَّ "إِلَّا" حصرتِ الحكمَ للهِ وحدهُ، فكانَ الحكمُ كلُّهُ للهِ تعالَى وحدهُ لَا شريكَ لهُ فِيهِ، ثمَّ أعادَ سبحانهُ النَّفيَ والحصرَ بعدَ أمرهِ بالعبادةِ فقالَ: "أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ" فقرنَ سبحانهُ إقامةَ حكمهِ وحدهُ لَا شريكَ لهُ فِي الحكمِ، بعبادتهِ وحدهُ لَا شريكَ لهُ فِي العبادةِ... فإقامةُ حكمِ اللهِ تعالَى علَى أرضهِ فريضةٌ لَا يجوزُ صرفهَا لغيرهِ.

وشرحَ رحمهُ اللهُ تعالَى القاعدةَ الثَّانيةَ بقولهِ: هذَا الأصلُ الكبيرُ: قرَّرهُ اللهُ فِي كتابهِ بالطُّرقِ المتنوِّعةِ التِي يُعرفُ بهَا كمالُ صدقهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبرَ أنَّهُ صدَّقَ المرسلينَ، ودعَا إلَى مَا دعُوا إليهِ، (قالَ تعالَى: "بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ" [الصافات: 37]) وأنَّ جميعَ المحاسنِ التِي فِي الأنبياءِ فِي نبيِّنَا محمَّدٍ ﷺ ومَا نُزِّهُوا عنهُ منَ النَّقائصِ والعيوبِ،

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرءان – للسعدي.

فرسولنَا محمَّدٌ ﷺ أولاهمْ وأحقُّهمْ بهذَا التَّنزيهِ، وأنَّ شريعتهُ مهيمنةٌ علَى جميعِ الشَّرائعِ وكتابهُ مهيمنٌ علَى كلِّ الكتبِ.
(قالَ تعالَى: "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ"[المائدة: 48]) فجميعُ محاسنِ الأديانِ والكتبِ قدْ جمعهَا اللهُ فِي هذِا الكتابِ وهذَا الدِّينِ، وفاقَ عليهَا بمحاسنٍ وأوصافٍ لمْ توجدْ فِي غيرهِ، وقرَّرَ نبوَّتهُ بأنَّهُ أميٌّ لَا يكتبُ ولَا يقرأُ، ولَا جالسَ أحدًا منْ أهلِ العلمِ بالكتبِ السَّابقةِ، (قالَ تعالَى: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ"[الأعرف: 157]) بلْ لمْ يَفْجَأِ النَّاسَ إلَّا وقدْ جاءهمْ بهذَا الكتابِ الذِي لوِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ علَى أنْ يأتُوا بمثلهِ مَا أَتُوا ولَا قَدِرُوا، ولَا هوَ فِي استطاعتهمْ ولوْ كانَ بعضهمْ لبعضٍ ظهيرًا، (قالَ تعالَى: " قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا"[الإسراء:88]) وأنَّهُ محالٌ معَ هذَا أنْ يكونَ منْ تلقاءِ نفسهِ، أوْ أنْ يكونَ قدْ تقوَّلهُ علَى ربِّهِ، أوْ أنْ يكونَ علَى الغيبِ ظنينًا، (قالَ تعالَى: "وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ")[التكوير: 24] (1).

قالَ الطَّبري: وقولهُ: (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ) اختلفتِ القرّاءُ فِي قراءةِ ذلكَ، فقرأتهُ عامَّةُ قرّاءِ المدينةِ والكوفةِ (بِضَنِينٍ) بالضَّادِ، بمعنَى أنَّهُ غيرُ بخيلٍ عليهمْ بتعليمهمْ مَا علَّمهُ اللهُ تعالَى وأنزلَ إليهِ منْ كتابهِ، وقرأَ ذلكَ بعضُ المكِّيينَ وبعضُ البصريينَ وبعضُ الكوفيينَ (بِظَنِينٍ) بالظَّاءِ، بمعنَى أنَّهُ غيرُ متَّهمٍ فيمَا يخبرهمْ عنِ اللهِ منَ الأنباءِ(2).

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن – بتصرف.

(2) تفسير الطبري.

وأعادَ القرآنَ وأبدَى فِي هذَا النَّوعِ، وقرَّرَ ذلكَ بأنَّهُ يخبرُ بقصصِ الأنبياءِ السابقينَ مطوَّلةً علَى جميعِ الواقعِ، الذِي لَا يستريبُ فيهِ أحدٌ، ثمَّ يخبرُ تعالَى: أنَّهُ ليسَ لهُ طريقٌ ولَا وصولٌ إلَى هذَا إلَّا بمَا آتاهُ اللهُ تعالَى منَ الوحيِ، كمثلِ قولهِ تعالَى لمَا ذكرَ قصَّةَ موسَى مطوَّلةً: "وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ" [القصص: 44] ولمَّا ذكرَ قصَّةَ يوسفَ وإخوتهِ مطوَّلةً قالَ: "وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ" [يوسف: 102].

فهذهِ الأمورُ والإخباراتُ المفصَّلةُ التِي يفصِّلهَا الرَّسولُ ﷺ بمَا أوحيَ إليهِ تفصيلاً، صحَّحَ بهِ أكثرَ الأخبارِ والحوادثِ التِي كانتْ فِي كتبِ أهلِ الكتابِ محرَّفةً ومشوَّهةً بمَا أضافُوا إليهَا منْ خرافاتٍ وأساطيرَ، حتَّى مَا يتعلَّقُ منهَا بعيسَى وأمِّهِ وولادتهمَا ونشأتهمَا، وبموسَى وولادتهِ ونشأتهِ، كلُّ ذلكَ وغيرهِ لمْ يكنْ يعرفهُ أهلُ الكتابِ علَى حقيقتهِ حتَّى جاءَ القرآنُ، فقصَّ ذلكَ علَى مَا وقعَ وحصلَ، ممَّا أدهشَ أهلَ الكتابِ وغيرهمْ، وأخرسَ ألسنتهمْ حتَّى لمْ يقدرْ أحدٌ منهمْ ممَّنْ كانَ فِي وقتهِ، ولَا ممَّنْ كانُوا بعدَ ذلكَ أنْ يكذِّبُوا بشيءٍ منهَا، فكانَ ذلكَ منْ أكبرِ الأدلَّةِ علَى أنَّهُ رسولُ اللهِ حقًّا.

وتارةً يقرِّرُ نبوَّتهُ بكمالِ حكمةِ اللهِ، وتمامِ قدرتهِ، وأنَّ تأييدهُ لرسولهِ ونصرهِ علَى أعدائهِ وتمكينهِ فِي الأرضِ هوَ مقتضَى حكمةِ ورحمةِ العزيزِ الحكيمِ، وأنَّ منْ قدحَ فِي رسالتهِ فقدْ قدحَ فِي حكمةِ اللهِ وفِي قدرتهِ وفِي رحمتهِ، بلْ وفِي ربوبيتهِ.

وكذلكَ نصرهُ وتأييدهُ الباهرُ لهذَا النَّبيِّ ﷺ علَى الأممِ الذينَ همْ أقوَى أهلِ الأرضِ منْ آياتِ رسالتهِ، وأدلَّةِ توحيدهِ، كمَا هوَ ظاهرٌ للمتأمِّلينَ.

وتارةً يقرِّرُ نبوَّتهُ ورسالتهُ بمَا جمعَ لهُ وكمَّلهُ بهِ منْ أوصافِ الكمالِ، ومَا هوَ عليهِ منَ الأخلاقِ الجميلةِ، وأنَّ كلَّ خُلُقٍ عالٍ سامٍ فلرسولُ اللهِ ﷺ منهُ أعلاهُ وأكملهُ.

فمنْ عظمتِ صفاتهِ، فاقتْ نعوتهُ جميعَ الخلقِ التِي أعلاهَا: الصدقُ والأمانةُ، أليسَ هذَا أكبرَ الأدلَّةِ علَى أنَّهُ رسولُ ربِّ العالمينَ، والمصطفَى المختارُ منْ الخلقِ أجمعينَ؟

وتارةً يقرِّرهَا بمَا هوَ موجودٌ فِي كتبِ الأوَّلينَ، وبشاراتِ الأنبياءِ والمرسلينَ السابقينَ، إمَّا باسمهِ العلمِ أوْ بأوصافهِ الجليلةِ، وأوصافِ أمَّتهِ وأوصافِ دينهِ، (كمَا فِي قولهِ تعالَى: "وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ" [الصف: 6]**).**

وتارةً يقرِّرُ رسالتهُ بمَا أخبرَ بهِ منَ الغيوبِ الماضيةِ والغيوبِ المستقبلةِ، التِي وقعتْ فِي زمانٍ مضَى علَى زمانهِ، أوْ وقعتْ فِي زمانهِ والتِي لَا تزالُ تقعُ فِي كلِّ وقتٍ، فلولَا الوحيُ مَا وصلَ إليهِ شيءٌ منْ هذَا، ولَا كانَ لهُ ولَا لغيرهِ طريقٌ إلَى العلمِ بهِ.

وتارةً يقرِّرهَا بحفظهِ إيَّاهُ، وعصمتهِ لهُ منَ الخلقِ، معَ تكالبِ الأعداءِ وضغطهمْ عليهِ، وجِدِّهمْ التَّامُ فِي الإيقاعِ بهِ بكلِّ مَا فِي وسعهمْ، واللهُ يعصمهُ ويمنعهُ منهمْ وينصرهُ عليهمْ، ومَا ذاكَ إلَّا لأنَّهُ رسولهُ حقًّا، وأمينهُ علَى وحيهِ والمبلِّغِ مَا أمرَ بهِ.

وتارةً يقرِّرُ رسالتهُ بذكرِ عظمةِ مَا جاءَ بهِ وهوَ القرآنُ الذِي "لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ" [فصلت: 42] ويتحدَّى أعداءهُ ومنْ كفرَ بهِ أنْ يأتُوا بمثلهِ أوْ بعشرِ سُوَرٍ مثلهِ فعجزُوا ونكصُوا وباءُوا بالخيبةِ والفشلِ، (وهمْ أهلُ اللِّسانِ المُبَرَّزونَ فِي ميدانِ القولِ والفصاحةِ، ومعَ ذلكَ مَا استطاعُوا - معَ شدَّةِ حرصهمْ ومحاولتِهمْ - أنْ يأتُوا بسورةٍ منهُ)، (ومَا ذكرهُ الشيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى يسمَّى بآياتِ التَّحدِّي، فلقدْ تحدَّى اللهُ تعالَى صراحةً فِي كتابهِ العزيزِ أيَّ كائنٍ ذِي عقلٍ أنْ يأتِي بمثلِ هذَا القرآنِ، فِي شمولهِ للمنهجِ القويمِ للبشرِ فِي حياتهمْ، حتَّى يبلغُوا الفلاحَ بعدَ مماتهمْ، وحتَّى يؤدُّوا مَا أرادهُ اللهُ تعالَى منهمْ علَى النَّحوِ الذِي يرضاهُ، وفِي بيانهِ وفصاحةِ ألفاظهِ فقالَ تعالَى: "قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا" [الإسراء: 88] ولكنْ أنَّى لمخلوقٍ أنْ يأتِي بكلامٍ مثلَ كلامِ اللهِ تعالَى مهمَا كانتْ قوَّةُ قريحتهِ وفصاحتهِ، وإمعانًا فِي تحدِّي المنكرينَ أنَّ القرآنَ الكريمَ من لَّدنِ عزيزٍ حكيمٍ، فقدْ تحدَّى اللهُ العالمينَ أنْ يأتُوا بعشرِ سورٍ منْ مثلِ سورِ القرآنِ، فقالَ تعالَى: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" [هود:13] فلمَّا كانَ هذَا بعيدَ المنالِ عنِ العالمينَ وأشعرهمْ بعجزهمْ فزادهمْ تحدٍّ ثالثٍ وهوَ بالإتيانِ بسورةٍ واحدةٍ منْ مثلِ القرآنِ الكريمِ مهمَا صغرتْ هذهِ السُّورةُ، فقالَ تعالَى: "وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ *

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ" [البقرة:23-24]).

ومَا استطاعُوا ولَا قدرُوا أنْ يجدُوا فيهِ نقصًا أوْ عيبًا ينزلُ بهِ عنْ أعلَى درجاتِ الفصاحةِ التِي ملكتْ أزمَّةَ قلوبهمْ، فلجئُوا إلَى السَّيفِ وإراقةِ دمائهمْ، ومَا كانُوا يعمدونَ إلَى هذَا لولَا أنَّهمْ لمْ يجدُوا سبيلاً إلَى محاربتهِ بالقولِ، ومَا كانُوا يزعمونهُ عندهمْ علومًا وحِكَمًا، فكانَ عدولهمْ إلَى السَّيفِ وإراقةِ الدِّماءِ أكبرُ الأدلَّةِ علَى صدقِ الرَّسولِ ﷺ وأنَّهُ لَا ينطقُ عنِ الهوَى، إنْ هوَ إلَّا وحيٌ يوحَى، وأقطعُ البراهينِ علَى أنَّهُ الحقُّ والهدَى منْ عندِ اللهِ تعالَى الذِي جمعَ اللهُ فيهِ لرسولهِ وللمؤمنينَ بهِ كلَّ مَا يكفلُ لهمْ سعادةَ الدُّنيَا والآخرةِ فِي كلِّ شؤونهمْ، وأنَّ هذَا القرآنُ لأكبرُ أدلَّة رسالتهِ ﷺ وأجلُّهَا وأعمُّهَا. اهـ

واللهُ تعالَى يقرِّرُ أنَّ القرآنَ كافٍ جدًّا أنْ يكونَ هوَ الدَّليلُ الوحيدُ علَى صدقِ رسولهِ ﷺ فِي مواضعَ عدَّةٍ، منهَا قولهُ: "أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" [العنكبوت: 51].

وتارةً يقرِّرُ رسالتهُ بمَا أظهرَ علَى يديهِ منَ المعجزاتِ، ومَا أجرَى لهُ منَ الخوارقِ والكراماتِ، الدالِّ كلَّ واحدٍ منهَا بمفردهِ علَى أنَّهُ رسولُ اللهِ ﷺ الصَّادقُ المصدوقُ، الذِي لَا ينطقُ عنِ الهوَى إنْ هوَ إلَّا وحيٌ يوحَى.

وتارةً يقرِّرهَا بعظيمِ شفقتهِ علَى الخلقِ، وحُنوِّهِ الكاملِ علَى أمَّتهِ، وأنَّهُ بالمؤمنينَ رءوفٌ رحيمٌ، وأنَّهُ لمْ يوجدْ ولنْ يوجدْ أحدٌ منَ الخلقِ أعظمُ شفقةً ولَا برًّا وإحسانًا إلَى الخلقِ منهُ،

وآثارَ ذلكَ ظاهرةٌ للنَّاظرينَ، (قالَ تعالَى: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ" [التوبة: 128]).

فهذهِ الأمورُ والطُّرقُ قدْ أكثرَ اللهُ تعالَى منْ ذكرهَا فِي كتابهِ وقرَّرهَا بعباراتٍ متنوِّعةٍ، ومعانِي مفصَّلةٍ وأساليبَ عجيبةٍ، وأمثلتهَا تفوقُ العدَّ والإحصاءَ، واللهُ أعلم[1].

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي - بتصرف.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: ويقرِّرُ اللهُ تعالَى المعادَ بذكرِ كمالِ قدرتهِ، وخلقهِ للسَّموات والأرضِ، اللَّتينِ همَا أكبرُ منْ خلقِ النَّاسِ، وبأنَّ الذِي بدأَ الخلقَ قادرٌ علَى إعادتهِ منْ بابِ أولَى، وبأنَّ الذِي أحيَا الأرضَ بعدَ موتهَا قادرٌ علَى إحياءِ الموتَى.

ويذكرُ أيضًا أيَّامهُ (تعالَى) فِي الأممِ، ووقوعِ المثلاتِ التِي شاهدهَا النَّاسُ فِي الدُّنيَا، وأنَّهَا نموذجٌ منْ جزاءِ الآخرةِ.

ويدعُو جميعَ المبطلينَ منَ الكفَّارِ والمشركينَ والملحدينَ بذكرِ محاسنِ الدِّينِ، وأنَّهُ يهدِي للَّتِي هيَ أقومُ، فِي عقائدهِ وأخلاقهِ وأعمالهِ، وبيانِ مَا للهِ تعالَى منَ العظمةِ والرُّبوبيَّةِ، والنِّعمِ العظيمةِ، وأنَّ منْ تفرَّدَ بالكمالِ المطلقِ والنِّعمِ كلِّهَا، هو الذِي لَا تصلحُ العبادةُ إلَّا لهُ، وأنَّ مَا عليهِ المبطلونَ، إذَا مُيِّزَ وحُقِّقَ وُجِدَ شرًّا وباطلًا وعواقبهُ وخيمةٌ.

~~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~~

وكذلكَ ذكرَ الشَّيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى هذَا الأصلَ فِي كتابهِ القواعدِ الحسانِ بقولهِ: طريقةُ القرآنِ فِي تقريرِ المعادِ:

ثمَّ شرحهُ قائلًا: وهذَا الأصلُ الثَّالثُ منَ الأصولِ التِي اتَّفقتِ عليهَا الرُّسلُ والشَّرائعُ كلُّهَا وهيَ: التَّوحيدُ، والرِّسالةُ، وأمرُ المعادِ وحشرِ العبادِ.

وهذَا قدْ أكثرَ اللهُ تعالَى منْ ذكرهِ فِي كتابهِ الكريمِ، وقرَّرهُ بطرقٍ متنوِّعةٍ، منهَا: إخبارهُ وهوَ أصدقُ القائلينَ عنهُ وعمَّا يكونُ فيهِ منْ الجزاءِ الأوفَى – أي يومَ القيامةِ -، معَ إكثارِ اللهِ منْ ذكرهِ فقدْ أقسمَ عليهِ فِي ثلاثةِ مواضعَ منْ كتابهِ.
~~~~~~~~~~~~

(وقدْ أقسمَ عليهِ – أي يومَ القيامة - النَّبيُّ ﷺ، وإلَّا فاللهُ تعالَى أقسمَ بيومِ القيامةِ وأقسمَ علَى مَا يكونُ فِي اليومِ الآخرِ بإقساماتٍ كثيرةٍ لَا حصرَ لهَا وليستْ ثلاثةً وحسبُ؛ ولكنَّ الكلامَ فِي إقساماتِ النَّبيِّ ﷺ، فإنَّ اللهَ تعالَى أمرَ رسولهُ ﷺ أنْ يقسمَ فِي ثلاثةِ مواضعَ منْ كتابهِ، كلُّهَا أقسمَ فيهَا النَّبيُّ ﷺ علَى أنَّ اللهَ تعالَى يعيدُ الخلقَ بعدَ موتهمْ، وأنَّهُ يحاسبهمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكلامُ الشيخِ يحتاجُ إلَى توضيحٍ.

فالمواضعُ التِي أمرَ اللهُ تعالَى فيهَا رسولهُ ﷺ بالإقسامِ معروفةٌ، فالموضعُ الأوَّلُ قولهُ تعالَى: "وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ"[يونس: 35]، والموضعُ الثاني قولهُ تعالَى: "قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ"[التغابن: 7] والموضعُ الثَّالثُ قولهُ تعالَى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ"[سبأ: 3] فهذَا أمرٌ منَ اللهِ تعالَى لرسولهِ ﷺ بالإقسامِ علَى مجيءِ السَّاعةِ ووقوعهَا[1]).اهـ

ومنهَا الإخبارُ بكمالِ قدرةِ اللهِ تعالَى، ونفوذِ مشيئتهِ، وأنَّهُ لَا يعجزهُ شيءٌ، فإعادةُ العبادِ بعدَ موتهمْ فردٌ منْ أفرادِ آثارِ قدرتهِ.

ومنهَا تذكيرهُ العبادَ بالنَّشأةِ الأولَى، وأنَّ الذِي أوجدهمْ ولمْ يكونُوا شيئًا مذكورًا لابدَّ أنْ يعيدهمْ كمَا بدأهمْ، وأنَّ الإعادةَ أهونُ عليهِ، وأعادَ هذَا المعنَى فِي مواضعَ كثيرةٍ بأساليبَ متنوِّعةٍ.

(قالَ تعالى: "هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا"[الإنسان: 1] قالَ الطَّبرِي: يعنِي جلَّ ثناؤهُ بقولهِ: "هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسَانِ" قدْ أتَى علَى الإنسانِ، و"هلْ" فِي

هذَا الموضعِ خبرٌ لَا جحدٌ، وذلكَ كقولِ القائلِ لآخرَ يقرِّرُهُ: هلْ أكرمتكَ؟ وقدْ أكرمهُ؛ أوْ هلْ زرتكَ؟ وقدْ زارهُ[2].اهـ
وقالَ تعالَى:"وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ"[الروم: 27]).اهـ

ومنهَا: إحياؤهُ الأرضَ الهامدةَ الميتةَ بعدَ موتهَا، وأنَّ الذِي أحياهَا سيحِيي الموتَى، وقررَّ ذلكَ بقدرتهِ علَى مَا هوَ أكبرُ منْ ذلكَ، وهوَ خلقَ السَّماواتِ والأرضَ، والمخلوقاتِ العظيمةِ، فمتَى أثبتَ المنكرونَ ذلكَ، ولنْ يقدرُوا علَى إنكارهِ، فَلِأَيِّ شيءٍ يستبعدونَ إحياءَهُ الموتَى؟

(قالَ تعالَى: "فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" [الروم: 50]، وقالَ تعالَى: "لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"[غافر: 57]).

وقرَّرَ ذلكَ بسعةِ علمهِ، وكمالِ حكمتهِ، وأنَّهُ لَا يليقُ بهِ، ولَا يحسنُ أنْ يتركَ خلقهُ سدًى مهملينَ، لَا يُؤمرونَ ولَا ينهونَ، ولَا يثابونَ ولَا يعاقبونَ، وهذَا طريقٌ قرَّرَ بهِ النُّبوَّةَ وأمرَ المعادِ.

وممَّا قرَّرَ بهِ البعثَ ومجازاةِ المحسنينَ بإحسانهمْ، والمسيئينَ بإساءتهمْ، مَا أخبرَ بهِ منْ أيَّامهِ وسننهِ سبحانهُ فِي الأممِ الماضيةِ والقرونِ الغابرةِ، وكيفَ نجَّى الأنبياءَ وأتباعهمْ، وأهلكَ المكذِّبينَ لهمْ المنكرينَ للبعثِ، ونوَّعَ عليهمْ العقوباتِ، وأحلَّ بهمْ المَثُلاتِ، فهذَا جزاءٌ معجَّلٌ ونموذجٌ منْ جزاءِ الآخرةِ أراهُ اللهُ تعالَى عبادهُ، ليهلكَ منْ هلكَ عنْ بيِّنةٍ، ويحيَ منْ حيَ عنْ بيِّنةٍ.

ومنْ ذلكَ مَا أرَى اللهُ تعالَى عبادهُ منْ إحيائهِ الأمواتَ فِي الدُّنيَا كمَا ذكرهُ اللهُ تعالَى عنْ صاحبِ البقرةِ والألوفِ منْ بنِي إسرائيلَ، (قالَ تعالَى: "فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" [البقرة: 73] وقالَ تعالَى: "وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" [البقرة: 55 – 56]، قالَ الطَّبري: يعنِي بقولهِ: "ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ" ثمَّ أحييناكمْ. وقالَ: يعنِي بقولهِ: "مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ"، منْ بعدِ موتكمْ بالصَّاعقةِ التِي أهلكتكمْ. وقالَ: ... فقالُوا لموسَى: "لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً"، فأخذتهمْ الرَّجفةُ - وهيَ الصَّاعقةُ - فافْتلتتْ أرواحهمْ فماتُوا جميعًا، وقامَ موسَى يناشدُ ربَّهُ ويدعوهُ ويرغبُ إليهِ ويقولُ: ربِّ لوْ شئتَ أهلكتهمْ منْ قبلُ وإيَّاي! قدْ سفهُوا، أفتُهلكُ منْ ورائِي منْ بنِي إسرائيلَ بمَا تفعلُ السُّفهاءُ منَّا؟ أيْ: إنَّ هذَا لهمْ هلاكٌ، اخترتُ منهمْ سبعينَ رجلًا الخيِّرَ فالخيِّرِ، أرجعُ إليهمْ وليسَ معِي منهمْ رجلٌ واحدٌ! فمَا الذِي يصدِّقونِي بهِ أوْ يأمنونِي عليهِ بعدَ هذَا؟ "إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ". فلمْ يزلْ موسَى يناشدُ ربَّهُ عزَّ وجلَّ ويطلبُ إليهِ، حتَّى ردَّ إليهمْ أرواحهمْ، فطلبَ إليهِ التَّوبةَ لبنِي إسرائيلَ منْ عبادةِ العجلِ، فقالَ: لَا إلَّا أنْ يقتلُوا أنفسهمْ[3]).

والذِي مرَّ علَى قريةٍ وهيَ خاويةٌ علَى عروشهَا، (قالَ تعالَى: " أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ" [البقرة: 259]).

وقصَّةُ إبراهيمَ الخليلِ والطُّيورِ، (قالَ تعالَى: " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"[البقرة: 260]).

وإحياءُ عيسَى بنِ مريمَ للأمواتَ، (قالَ تعالَى: " أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ"[آل عمران: 49]) .

وغيرهَا ممَّا أراهُ اللهُ تعالَى عبادهُ فِي هذهِ الدَّارِ، ليعلمُوا أنَّهُ قويٌّ ذُو اقتدارٍ، وأنَّ العبادَ لابدَّ أنْ يَرِدُوا دارَ القرارِ، إمَّا الجنَّةَ أوِ النارُ، وهذهِ المعانِي أبداهَا اللهُ تعالَى وأعادهَا فِي محالٍ كثيرةٍ، والله أعلم(4).

---

(1) من شرح أد. خالد بن عبد الله المصلح – موقع المصلح – بتصرُّف.

(2) تفسير الطبري.

(3) تفسير الطبري.

(4) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن – بتصرف.

ثمَّ قالَ رحمهُ تعالَى: ومنْ أصولِ التَّفسيرِ: "إذَا فهمتَ مَا دلَّتْ عليهِ الآياتُ الكريمةُ منَ المعانِي مُطَابَقَةً وَتَضَمُّنًا، فاعلمْ أنَّ لوازِمَ هذهِ المعانِي ومَا لَا تتمُّ إلَّا بهِ، وشروطهَا وتوابعهَا تابعةٌ لذلكَ المعنَى، فمَا لَا يتمُّ الخبرُ إلَّا بهِ فهوَ تابعٌ للخبرِ، ومَا لَا يتمُّ الحكمُ إلَّا بهِ فهوَ تابعٌ للحكمِ".

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وأصلُ هذهِ القاعدةِ فِي كتابِ القواعدِ الحسانِ للمؤلِّفِ رحمهُ الله تعالَى وهِيَ: "كمَا أنَّ المفسِّرَ للقرآنِ يُراعِي مَا دلَّتْ عليهِ ألفاظهُ مطابقةً ومَا دخلتْ فِي ضمنهَا، فعليهِ أنْ يُراعِي لوازِمَ تلكَ المعانِي ومَا تستدعيهِ منَ المعانِي التِي لمْ يُصرِّحِ اللَّفظُ بذكرهَا"[1].اهـ

وهنَا ذكرَ الشَّيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى، قاعدتينِ:

الأولَى: مَا لَا يتمُّ الخبرُ إلَّا بهِ فهوَ تابعٌ للخبرِ.

والثَّانيةُ: مَا لَا يتمُّ الحكمُ إلَّا بهِ فهوَ تابعٌ للحكمِ.

وقدْ ضربَ لهمَا الإمامُ السَّعدِي مثلينِ فِي كتابهِ "القواعدِ الحسانِ" وقالَ فِي القاعدةِ الأولَى: "منهَا: فِي أسمائهِ الحسنَى "الرَّحمنِ الرَّحيمِ" فإنَّهَا تدلُّ بلفظهَا علَى وصفهِ بالرَّحمةِ وسعةِ رحمتهِ، فإذَا فهمتَ أنَّ الرَّحمةَ التِي لَا يشبههَا رحمةُ أحدٍ هيَ وصفهُ الثَّابتُ، وأنَّهُ أوصلَ رحمتهُ إلَى كلِّ مخلوقٍ ولمْ يخلُ أحدٌ منْ رحمتهِ طرفةَ عينٍ، عرفتَ أنَّ هذَا الوصفَ يدلُّ علَى كمالِ حياتهِ وكمالِ قدرتهِ وإحاطةِ علمهِ ونفوذِ مشيئتهِ وكمالِ حكمتهِ، لتوقُّفِ الرَّحمةِ علَى ذلكَ كلِّهِ ..."[2]اهـ.
~~~~~~~~~~

فلمَّا علمنَا أنَّ اللهَ تعالَى رحمنٌ رحيمٌ وأنَّ رحمتهُ لَا يشبهها رحمةُ أحدٍ، وجبَ علينَا أنْ نعلمَ بأنَّ هذَا الوصفَ (الرَّحمنُ الرَّحيمِ) يدلُّ علَى كمالِ اللهِ تعالَى كمالًا مطلقًا ممَّا سبقَ ذكرهُ منْ كمالِ الحياةِ وغيرهِ، هذَا لأنَّ مَا لَا يتمُّ الخبرُ إلَّا بهِ فهوَ تابعٌ للخبرِ، وكونهُ تعالَى رحمانًا رحيمًا هذَا خبرٌ، ولَا يتمُّ هذَا الخبرُ عنِ اللهِ تعالَى، إلَّا بأنْ يكونَ كاملًا كمالًا مطلقًا منْ كمالِ حياتهِ وكمالِ قدرتهِ وإحاطةِ علمهِ ونفوذِ مشيئتهِ وكمالِ حكمتهِ.

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى ضاربًا مثلًا للقاعدةِ الثَّانيةِ: ومنهَا قولهُ تعالَى: "إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ" [النساء: 58] **فإذَا فهمتَ أنَّ اللهَ تعالَى أمرَ بأداءِ الأماناتِ كلِّهَا إلَى أهلهَا استدللتَ بذلكَ علَى وجوبِ حفظِ الأماناتِ وعدمِ إضاعتهَا والتَّفريطِ والتَّعدِّي فيهَا، وأنَّهُ لَا يتمُ الأداءُ لأهلهَا إلَّا بذلكَ**(3)**اهـ.**

وهذَا معنَى قاعدةِ: مَالَا يتمّ الحكمُ إلَّا بهِ فهوَ تابعٌ للحكمِ.

---

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي صـ 34 – بتصرف.

(2) السابق – بتصرف.

(3) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي صـ 35 – بتصرف.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: "وأنَّ الآياتِ التِي يُفهمُ منهَا التَّعارضُ والتَّناقضُ، ليسَ فيهَا تناقضٌ ولَا تعارضٌ، بلْ يجبُ حملُ كلٍّ منهَا علَى الحالةِ المناسبةِ اللَّائقةِ بهَا".

~~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~~

وهذهِ قاعدةٌ أخرَى ذكرهَا المؤلِّفُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ القواعدِ الحسانِ وقالَ: "الآياتُ القرآنيَّةُ التِي ظاهرهَا التَّضادُّ، يجبُ حملُ كلِّ نوعٍ منهَا علَى حالٍ بحسبِ مَا يليقُ ويناسبُ المقامَ"(1).

وقدْ شرحهَا المصنِّفُ رحمهُ اللهُ تعالى فِي الكتابِ نفسهِ حيثُ قالَ: وهذَا فِي مواضعَ متعدِّدةٍ منَ القرآنِ (أيِ الآياتِ التِي ظاهرهَا التَّعارضُ):

منهَا الإخبارُ فِي بعضِ الآياتِ أنَّ الكفَّارَ لَا ينطقونَ ولَا يتكلَّمونَ يومَ القيامةِ، وفِي بعضهَا: أنَّهمْ ينطقونَ ويحاجونَ ويتعذَّرونَ ويعترفونَ.

فحملُ كلامهمْ ونطقهمْ، أنَّهمْ فِي أوَّلِ الأمرِ يتكلَّمونَ ويعتذرونَ، وقدْ ينكرونَ مَاهمْ عليهِ منَ الكفرِ ويقسمونَ علَى ذلكَ، ثمَّ إذَا خُتمَ علَى ألسنتهمْ، وشهدتْ عليهمْ جوارحهمْ بمَا كانُوا يكسبونَ، ورأوْ أنَّ الكذبَ غيرَ مفيدٍ لهمْ، أُخرسُوا فلمْ ينطقُوا.

وكذلكَ الإخبارُ بأنَّ اللهَ تعالَى لَا يكلِّمهمْ ولَا ينظرُ إليهمْ يومَ القيامةِ، معَ أنَّهُ أثبتَ الكلامَ لهمْ معهُ، فالنَّفيُ واقعٌ علَى الكلامِ الذِي يسرُّهمْ ويجعلُ لهمْ نوعَ اعتبارٍ، وكذلكَ النَّظرُ، والإثباتُ واقعٌ بينَ اللهِ تعالَى وبينهمْ علَى وجهِ التَّوبيخِ لهمْ والتَّقريعِ؛
~~~~~~~~~~~~

فالنَّفيُ يدلُّ علَى أنَّ اللهَ تعالَى ساخطٌ عليهِمْ غيرَ راضٍ عنهمْ، والإثباتُ يوضِّحُ أحوالهمْ، ويُبيِّنُ للعبادِ كمالَ عدلِ اللهِ تعالَى بهمْ إذْ وضعَ العقوبةَ موضعهَا.

ونظيرُ ذلكَ أنَّ فِي بعضِ الآياتِ، أخبرَ أنَّهُ تعالَى: "لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ" [الرَّحمن: 39] وفِي بعضهَا أنَّهُ تعالَى يسألهمْ: "أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ" [الشُّعراء: 92] و"مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِنَ" [القصص: 65] ويسألهمْ عنْ أعمالهمْ كلِّهَا، فالسُّؤالُ المنفِي: هوَ سؤالُ الاستعلامِ والاستفهامِ عنِ الأمورِ المجهولةِ، فإنَّهُ لَا حاجةَ إلَى سؤالهمْ معَ كمالِ علمِ اللهِ تعالَى واطِّلاعهِ علَى ظاهرهمْ وباطنهمْ، وجليلِ الأمورِ ودقيقهَا.

والسؤالُ المُثبَتُ واقعٌ علَى تقريرهمْ بأعمالهمْ وتوبيخهمْ وإظهارِ أنَّ اللهَ تعالَى حكمَ فيهمْ بعدلهِ وحكمتهِ.

ومنْ ذلكَ الإخبارُ فِي بعضِ الآياتِ أنَّهُ لَا أنسابَ بينَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، وفِي بعضهَا أثبتَ لهمْ ذلكَ؛ فالمثبتُ هوَ الأمرُ الواقعُ والنَّسبُ الحاصلُ بينَ النَّاسِ، كقولهِ تعالَى: "يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ" [عبس: 34- 35] إلَى آخرهَا.

والمنفِي: هوَ الانتفاعُ بهَا، فإنَّ كثيرًا منَ الكفَّارِ يدَّعونَ أنَّ أنسابهمْ تنفعهمْ يومَ القيامةِ، فأخبرَ تعالَى أنَّهُ: "يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" [الشعراء: 88- 89](2).

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي – صـ 37.

(2) القواعد الحسان المتعالقة بتفسير القرآن للسعدي – صـ 37 – 38 .

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وأنَّ حذفَ المتعلِّقاتِ، منْ مفعولاتٍ وغيرِهَا، يدلُّ علَى تعميمِ المعنَى، لأنَّ هذَا منْ أعظمِ فوائدِ الحذفِ، وأنَّهُ لَا يجوزُ حذفُ مَا لَا يدلُّ عليهِ السِّياقُ اللَّفظيُّ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح *~~~~~~~~~~~

وهذهِ قاعدةٌ أخرَى وأصلهَا كمَا فِي كتابِ القواعدِ الحسانِ للسَّعدِي، وهيَ: "حذفُ المتعلِّقِ المعمولِ فيهِ، يفيدُ تعميمَ المعنَى المناسبِ لهُ"[1].اهـ

فالجملةُ فِي لغةِ العربِ تنقسمُ إلَى عاملٍ ومعمولٍ فيهِ، فالعاملُ هوَ المؤثِّرُ فِي غيرهِ، والمعمولُ هوَ المتأثِّرُ.

مثلًا تقولُ: (أكرمتُ زيدًا) فزيدٌ هوَ المعمولُ فيهِ، لوقوعِ أثرِ العاملِ عليهِ وهوَ فعلُ "الإكرامِ"، وأكرمَ هوَ العاملُ الذِي أثَّرَ فِي المعمولِ "زيدٌ".

والأصلُ فِي لغةِ العربِ ذكرُ الجملةِ تامَّةً بعاملهَا ومعمولهَا،

ولكنْ قدْ يُحذفُ المتعلِّقُ الذِي هوَ المعمولُ فيهِ أوْ شيءٍ منَ الجملةِ.

ولكنْ لابدَّ فِي الحذفِ منْ شروطٍ وهيَ:

1) لابدَّ فِي الحذفِ أنْ يكونَ عليهِ دليلٌ يدلُّ عليهِ منَ الجملةِ.

2) لابدَّ أنْ يكونَ الحذفُ لفائدةٍ.

3) أنْ لَا يكونَ المحذوفُ عمدةً[2].

وأنواعُ الحذفِ كثيرةٌ، ومنهَا الذِي ذكرهُ المؤلِّفُ رحمهُ اللهُ تعالَى، وهوَ حذفُ المتعلِّقِ وهوَ المعمولُ فيهِ، وهذَا لَا يكونُ إلَّا لفائدةٍ، وهيَ فِي الغالبِ تعميمٌ للمعنَى المناسبِ، ومنَ

الأمثلةِ علَى ذلكَ مَا ذكرهُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ القواعدِ الحسانِ، قالَ: منهَا أنَّهُ قالَ تعالَى فِي عدَّةِ آياتٍ "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"[النور: 21] "لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"[الأنعام: 152] "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" [الأنعام: 153] فيدلُّ ذلكَ علَى أنَّ المرادَ: لعلَّكمْ تعقلونَ عنِ اللهِ تعالَى كلَّ مَا أرشدكمْ إليهِ وكلُّ مَا علَّمكُموهُ، وكلَّ مَا أنزلَ عليكمْ منَ الكتابِ والحكمةِ، لعلَّكمْ تذكَّرونَ جميعَ مصالحكمْ الدِّينيَّةِ والدُّنياويَّة، لعلَّكمْ تتَّقونَ جميعَ مَا يجبُ اتِّقاؤهُ منْ جميعِ الذُّنوبِ والمعاصِي[3].اهـ

فقولهُ تعالَى: (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) لمْ يذكرْ المعمولَ فيهِ، أي: نعقلُ ماذَا؟ فدلَّ ذلكَ علَى العمومِ فِي المعقولِ الذِي جاءَ الخطابُ بهِ، كذلكَ (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)، وكذلكَ (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)، فلمْ يذكرْ شيئاً معيَّناً يُتذكَّرُ ولَا يُتَّقَى، فلمَّا لمْ يذكرْ شيئاً معيَّناً، دلَّ ذلكَ علَى عمومِ مَا ينتفعُ الإنسانُ بتعقُّلهِ، وعلَى عمومِ مَا يحصلُ بهِ التَّذكُّرُ، وعلَى عمومِ مَا ينفعُ الإنسانَ اتِّقاؤهُ.

لذلكَ قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: (لعلكمْ تعقلونَ عنِ اللهِ كلَّ مَا أرشدكمْ إليهِ) ممَّا فيهِ نفعكمْ (وكلَّ مَا علمكموهُ، وكلَّ مَا أنزلَ عليكمْ منَ الكتابِ والحكمةِ) فكلُّ هذَا العمومِ أتَى منْ حذفِ المتعلَّقِ، فلوْ ذُكرَ المتعلِّقُ لَخُصَّتِ الآيةُ بهِ، ولكنْ لمَّا حذفهُ أفادَ العمومَ فِي المعنَى.[4].

---

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القران للسعدي صـ 43.

(2) لمزيدٍ منَ التوسُّعِ، ينظر ظاهرة الحذف بين النحو والبلاغة – مقالة – سليمان ابو عيسى – شبكة الألوكة.

(3) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي – صـ 43.

(4) من شرح أد. خالد بن عبد الله المصلح – على القواعد الحسان للسعدي - من موقع almosleh.com - بتصرُّف.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: والقرينةُ الحاليَّةُ، كمَا أنَّ الأحكامَ المقيَّدةَ بشروطٍ أوْ صفاتٍ تدلُّ علَى أنَّ تلكَ القيودَ لَا بُدَّ منهَا فِي ثبوتِ الحكمِ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح *~~~~~~~~~~~

وهذهِ قاعدةٌ أخرَى ذكرهَا السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ القواعدَ الحسانُ وأصلهَا: "الأصلُ: أنَّ الآياتِ التِي فيهَا قيودٌ لَا تثبتُ أحكامهَا إلَّا بوجودِ تلكَ القيودِ، إلَّا فِي آياتٍ يسيرةٍ.

ثمَّ شرحهَا رحمهُ اللهُ تعالَى وقال: هذهِ قاعدة لطيفةٌ: فإنَّ اللهَ تعالَى متَى رتَّبَ فِي كتابهِ حكماً علَى شيءٍ، وقيَّدهُ بقيدٍ، أوْ شرطَ لذلكَ شرطاً، تعلَّقَ الحكمُ بهِ علَى ذلكَ الوصفِ، الذِي وصفهُ اللهُ تعالَى.

وهذَا فِي القرآنِ لَا حصرَ لهُ، وإنَّمَا المقصودُ ذكرُ المستثنَى منْ هذَا الأصلِ، الذِي يقولُ كثيرٌ منَ المفسِّرينَ - إذَا تكلَّمُوا عليهَا-: "هذَا قيدٌ غيرُ مرادٍ"، وفِي هذهِ العبارةِ نظرٌ؛ فإنَّ كلَّ لفظةٍ فِي كتابِ اللهِ تعالَى فإنَّ اللهَ أرادهَا؛ لمَا فيهَا منْ فائدةٍ قدْ تظهرُ للمخاطبِ وقدْ تخفَى، وإنَّمَا مرادهمْ بقولهمْ، هو: غيرَ مرادِ ثبوتِ الحكمِ بهَا.

فاعلمْ أنَّ اللهَ تعالَى يذكرُ الأحكامَ الشَّرعيَّةَ منْ أصولٍ وفروعٍ، ويذكرُ أعلَى حالةٍ لهَا؛ ليبرزهَا لعبادهِ، وليظهرَ لهمْ حسنهَا إنْ كانتْ مأموراً بهَا، أوْ قبحهَا إنْ كانتْ منهيًّا عنهَا.

وعندَ تأمُّلِ هذهِ الآياتِ التِي بهذَا الصَّددِ يظهرُ لكَ هذَا منهَا جليًّا.
~~~~~~~~~~~

فمنـهَا قولـهُ تعالَى: (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ)[المؤمنون 117]، ومنَ المعلومِ أنَّ منْ دعَا معَ اللهِ إلـهًا آخرَ فإنَّهُ كافرٌ، وأنَّهُ ليسَ لهُ برهانٌ، وإنَّمَا قيَّدهَا اللهُ تعالَى بهذَا القيدِ بيانًا لشناعةِ الشِّركِ والمشركِ، وَأنَّ الشِّركَ قطعًا ليسَ لهُ دليلٌ شرعيٌّ ولَا عقليٌّ، والمشركُ ليسَ بيدهِ مَا يسوِّغُ لهُ شيأً منْ ذلكَ، ففائدةُ هذَا القيدِ (البرهانُ) (ليسَ اثباتُ حكمها بلِ) التَّشنيعُ البليغُ علَى المشركينَ بالمعاندةِ، ومخالفةِ البراهينِ الشَّرعيَّةِ والعقيليَّةِ، وأنَّهُ ليسَ بأيديهمْ إلَّا أغراضٌ نفسيَّةٌ، ومقاصدُ سيِّئةٌ، وأنَّهمْ لوِ التفتُوا أدنَى التفاتٍ لعرفُوا أنَّ مَا همْ عليهِ لَا يستجيزهُ منْ لهُ أدنَى إيمانٍ ولَا عقلٍ[1].اهـ

والمرادُ منْ كلامِ الشَّيخِ رحمهُ اللهُ تعالَى أنَّ كثيرًا منَ الآياتِ يردُ فيهَا قيودٌ، وهذهِ القيودُ: تكونُ إمَّا وصفًا أوْ شرطًا أوْ غيرَ ذلكَ ممَّا يقيَّدُ بهِ الكلامُ، كقولهِ تعالَى: "إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ"[طه: 48] ففِي هذهِ الآيةِ قُيِّدَ العذابُ بالتَّكذيبِ أوِ التَّولِّي، فهلْ هذهِ القيودُ فِي كلامِ اللهِ تعالَى مرادةٌ ومعتبرةٌ، أمْ أنَّهَا غيرُ مرادةٍ؟

الجوابُ: الأصلُ أنَّهَا مرادةٌ، وأنَّ الكلامَ والحكمَ مقيَّدٌ بهذَا الوصفِ والقيدِ؛ لكنْ فيهَا استثناءاتٌ، فقدْ وردتْ آياتٌ فيهَا قيودٌ لمْ يعلَّقِ الحكمُ عليهَا كمَا تعلَّقَ الحكمُ بالقيدِ فِي الآيةِ السَّابقةِ؛ بلْ ثبتَ الحكمُ بدونهَا، وهيَ التِي يقولُ فيهَا المفسِّرونَ: "القيدُ غيرُ مرادٍ" أيْ غيرُ مرادٍ فِي ثبوتِ الحكمِ، وليسَ المعنَى أنَّهُ لَا فائدةَ منهُ، بلْ ليسَ فِي كتابِ اللهِ تعالَى شيءٌ لَا فائدةَ منهُ، إذًا قولُ المفسِّرينَ فِي بعضِ القيودِ الواردةِ فِي كلامِ اللهِ تعالَى: "هذَا غيرُ مرادٍ"، فالمقصودُ بهَا

غيرُ مرادٍ فِي ثبوتِ الحكمِ، يعنِي ليسَ لهُ أثرٌ فِي ثبوتِ الحكمِ الذِي سيقتِ الآيةُ منْ أجلهِ، وليسَ مرادهمْ أنَّهُ لَا فائدةَ منهُ.

ثمَّ مثَّلَ الشَّيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى علَى هذَا فِي شرحهِ بأمثلةٍ عديدةٍ وقالَ: فمنهَا قولهُ تعالَى: (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ) ومنَ المعلومِ أنَّ منْ دعَا معَ اللهِ إلهاً آخرَ فإنَّهُ كافرٌ، وأنَّهُ ليسَ لهُ برهانٌ، وإنَّمَا قيَّدهَا اللهُ تعالَى بهذَا القيدِ بياناً لشناعةِ الشِّركِ والمشركِ... إلَى آخرِ مَا ذكرَ سابقًا.

فقولهُ تعالَى: (لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ) هلْ هذَا القيدُ مرادٌ فِي ثبوتِ الحكمِ؟ أيْ هلْ هناكَ منْ يستطيعُ أنْ يقيمَ برهاناً علَى صحَّةِ مَا يعبدهُ منْ دونِ اللهِ تعالَى؟ الجوابُ: لَا يمكنُ أنْ يقيمَ أحدٌ برهاناً علَى صحَّةِ عبادتهِ لغيرِ اللهِ تعالَى، فإذَا كانَ لَا يمكنُ إقامةُ البرهانِ فمَا فائدةُ ذكرهِ فِي الآيةِ علَى صفةِ قيدٍ؟
الجوابُ: هوَ التَّشنيعُ علَى أهلِ الشِّركِ أنَّهمْ يعبدونَ مَا لَا برهانَ لهمْ بهِ، وأنَّهُ لَا حجَّةَ لهمْ فيمَا ذهبُوا إليهِ منَ الشِّركِ والكفرِ باللهِ تعالَى، ولذلكَ يسمِّي علماءُ التَّفسيرِ هذَا القيدَ قيداً كاشفاً أوْ وصفاً كاشفاً، ويقابلُ الوصفَ الكاشفَ، الوصفُ المقيِّدُ، والفرقُ بينهمَا: أنَّ الوصفَ المقيِّدَ معتبرٌ ومرادٌ فِي ثبوتِ الحكمِ، وأنَّ الوصفَ الكاشفَ ليسَ مراداً فِي ثبوتِ الحكمِ، فإذَا رأينَا فِي كلامِ المفسرينَ قولَ: هذَا وصفٌ كاشفٌ، فمرادهمْ أنَّهُ لَا يؤثِّرُ فِي ثبوتِ الحكمِ(2).

ثمَّ ضربَ الشَّيخ مثلًا آخرًا لهذَا الاستثناءِ منَ القاعدةِ وقالَ: ومنهَا قولهُ تعالَى: (وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ)[النساء: 23] معَ أنَّ كونهَا فِي حجرهِ أوْ فِي غيرِ حجرهِ ليسَ شرطاً لتحريمهَا، فإنَّهَا تحرمُ مطلقاً.اهـ

قبلَ كلِّ شيئٍ الرَّبيبةُ هيَ بنتُ الزَّوجةِ، يعنِي إذَا تزوَّجَ الرَّجلُ امرأةً لهَا بنتٌ، فهذهِ البنتُ هيَ الرَّبيبةُ المقصودةُ فِي هذهِ الآيةِ، قالَ اللهَ تعالَى: (وَرَبَائِبُكُمُ الْلَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الْلَاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ)، فهلِ القيدُ فِي قولهِ: (فِي حُجُورِكُمْ) مرادٌ فِي ثبوتِ الحكمِ؟ نرَى أنَّ المؤلِّفَ قالَ: (معَ أنَّ كونهَا فِي حَجْرِهِ أوْ فِي غيرِ حَجرهِ ليسَ شرطاً لتحريمهَا) يعنِي هيَ محرَّمةٌ علَى كلِّ حالٍ، كانتْ فِي حَجرهِ أوْ لمْ تكنْ فِي حجرهِ، إلَّا إنْ لمْ يدخلْ بأمِّهَا.

إذاً هذَا القيدُ غيرُ مرادٍ فِي ثبوتِ الحكمِ، لكنْ لهُ فائدةٌ وهيَ مَا ذكرهُ الشَّيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي شرحهِ حيثُ قالَ:

(ولكنْ ذكرَ اللهُ تعالَى هذَا القيدَ تشنيعاً لهذهِ الحالةِ، وأنَّهُ منَ القبيحِ إباحةُ الرَّبيبةِ التِي هيَ فِي حَجرِ الإنسانِ بمنزلةِ ابنتهِ. فذكرَ اللهُ تعالَى المسألةَ متجليَّةً بثيابِ قبحهَا لينفرَ عنهَا ذوِي الألبابِ، معَ أنَّ التَّحريمَ لمْ يُعلَّقْ بمثلِ هذهِ الحالةِ، فالأنثَى إمَّا أنْ تكونَ مباحةً مطلقاً، أوْ محرَّمةً مطلقاً، سواءٌ كانتْ عندَ الإنسانِ أمْ لَا، كحالةِ بقيَّةِ النِّساءِ المحلَّلاتِ والمحرَّماتِ)[3].

---

(1) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي صـ 71 – 72 بتصرف.

(2) من شرح أد. خالد بن عبد الله المصلح – على القواعد الحسان للسعدي - من موقع almosleh.com - بتصرُّف.

(3) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: إذَا أمرَ اللهُ تعالَى بشيءٍ كانَ ناهيًا عنْ ضدِّهِ، وإذَا نهَى عنْ شيءٍ كانَ آمرًا بضدِّهِ، وإذَا أثنَى علَى نفسهِ بنفي شيءٍ منَ النَّقائصِ، كانَ إثباتًا للكمالِ المنافِي لذلكَ النَّقصِ، وكذلكَ إذَا أثنَى علَى رسلهِ وأوليائهِ ونـزَّههمْ عنْ شيءٍ منَ النَّقائصِ، فهوَ مدحٌ لهمْ بمَا يضادُّ ذلكَ النَّقصِ، ومثلهُ نفيُ النَّقائصِ عنْ دارِ النَّعيمِ، يدلُّ علَى إثباتِ ضدِّ ذلكَ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وكذلكَ هذهِ قاعدةٌ ذكرهَا الإمامُ السَّعدِي فِي كتابه القواعد الحسان وشرحها، وأصلُ القاعدة هي: "إذَا أمرَ الله تعالَى بشيءٍ كانَ ناهيًا عنْ ضدِّهِ، وإذَا نهَى عنْ شيءٍ كانَ آمرًا بضدِّهِ، وإذَا أثنَى علَى نفسهِ أوْ علَى أوليائهِ وأصفيائهِ بنفيِ شيءٍ منَ النَّقائصِ كانَ ذلكَ إثباتًا للكمالِ".

وشرحَ رحمهُ الله تعالَى هذهِ القاعدةَ بقولهِ: وذلكَ لأنَّهُ لَا يمكنُ امتثالُ الأمرِ علَى وجهِ الكمالِ إلَّا بتركِ ضدِّهِ، فحيثُ أمرَ بالتَّوحيدِ والصَّلاةِ والزَّكاةِ والصَّومِ والحجِّ وبرِّ الوالدينِ وصلةِ الأرحامِ والعدلِ، كانَ ناهيًا عنِ الشِّركِ وعنْ تركِ الصَّلاةِ وتركِ الزَّكاةِ وتركِ الصَّومِ وتركِ الحجِّ وعنِ العقوقِ والقطيعةِ.

وحيثُ أمرَ بالصَّبرِ والشُّكرِ وإقبالِ القلبِ علَى اللهِ تعالَى إنابةً ومحبَّةً وخوفًا ورجاءً، كانَ ناهيًا عنِ الجزعِ والسَّخطِ وكفرانِ النِّعمِ وإعراضِ القلبِ عنِ اللهِ تعالَى فِي تعلُّقِ هذهِ الأمورِ بغيرهِ.

وحيثُ نـهَى عنِ الجزعِ وكفرانِ النِّعمِ وغفلةِ القلبِ، كانَ آمرًا بالصَّبرِ، إلَى آخرِ المذكوراتِ، وهذَا ضربُ مثلٍ وإلَّا فكلُّ الأوامرِ والنَّواهِي علَى هذَا النَّمطِ.

وكذلكَ المدحُ لَا يكونُ إلَّا بإثباتِ الكمالاتِ، فحيثُ أثنَى تعالَى علَى نفسهِ، وذكرَ تنزُّههُ عنِ النَّقائصِ والعيوبِ: كالنَّومِ والسِّنةِ واللَّغوبِ (التَّعب) والموتِ، وخفاءِ شيءٍ فِي العالمِ منَ الأعيانِ والصِّفاتِ والأعمالِ وغيرهَا، والظُّلمِ، فلتضمُّنِ ذلكَ الثَّناءِ عليهِ بكمالِ حياتهِ، وكمالِ قيُّوميَّتهِ وقدرتهِ وسعةِ علمهِ وكمالِ عدلهِ وحكمتهِ، لأنَّ العدمَ المحضَ لَا كمالَ فيهِ، حتَّى يُنفى تكميلاً للكمالِ.

وكذلكَ إذَا نفَى اللهُ تعالَى عنْ كتابهِ الرَّيبَ والاختلافَ والشَّكَّ والإخبارَ بخلافِ الواقعِ، كانَ ذلكَ لكمالِ دلالتهِ علَى اليقينِ فِي جميعِ المطالبِ واشتمالهِ علَى الإحكامِ والانتظامِ التَّامِ والصِّدقِ الكاملِ، إلَى غيرِ ذلكَ منْ صفاتِ كتابهِ.

وكذلكَ إذَا نفَى عنْ رسولهِ ﷺ الكذبَ، والتقوُّلَ علَى اللهِ تعالَى واتِّباعِ الهوَى والجنونَ والسِّحرَ والشِّعرَ والغلطَ ونحوهَا، كانَ ذلكَ لأجلِ إثباتِ كمالِ صدقهِ، وأنَّهُ لَا ينطقُ عنِ الهوَى، إنْ هوَ إلَّا وحيٌ يوحَى، ولكمالِ عقلهِ ولزوالِ كلِّ مَا يقدحُ فِي كمالِ نبوَّتهِ ورسالتهِ ﷺ.

ثمَّ نصحَ رحمهُ اللهُ تعالَى قائلًا: فتفطَّنْ لهذهِ القاعدةِ فِي كلِّ مَا يمرُ عليكَ منَ الآياتِ القرآنيَّةِ فِي هذهِ الأمورِ وغيرهَا، تنلْ خيراً كثيراً، واللهُ أعلمُ[1].

القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القران للسعدي صـ 84 – 85.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: ومنْ الكلِّيَّاتِ؛ أنَّهُ إذَا وضحَ الحقُّ وظهرَ ظهورًا جليًّا، لمْ يبقَ للمجادلاتِ العلميَّةِ والمعارضاتِ العمليَّةِ محلٌّ، بلْ تبطلُ المعارضاتُ، وتضمحلُّ المجادلاتُ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وأصلُ هذهِ القاعدةِ كمَا ذكرهَا الشيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي كتابِ القواعدِ الحسانِ: إذَا وضحَ الحقُّ وبانَ، لمْ يبقَ للمعارضةِ العلميَّةِ والعمليَّةِ محلٌّ(1).

ثمَّ شرحهَا رحمهُ اللهُ تعالَى بقولهِ:

وهذهِ قاعدةٌ شرعيَّةٌ عقليَّةٌ فطريَّةٌ، قدْ وردتْ فِي القرآنِ وأرشدَ إليهَا فِي مواضعَ كثيرةٍ، وذلكَ أنَّهُ منَ المعلومِ أنَّ محلَّ المعارضاتِ وموضعَ الاستشكالاتِ وموضعَ التوقُّفاتِ ووقتَ المشاوراتِ، إذَا كانَ الشَّيءُ فيهِ اشتباهٌ أوِ احتمالاتٌ، فتردُ عليهِ هذهِ الأمورُ، لأنَّهَا الطَّريقُ إلَى البيانِ والتَّوضيحِ،

فأمَّا إذَا كانَ الشَّيءُ لَا يحتملُ إلَّا معنًى (واحداً) واضحاً، وقدْ تعيَّنتِ المصلحةُ، فالمجادلةُ والمعارضةُ منْ بابِ العبثِ، والمعارِضُ هنَا لَا يُلتفتُ لاعتراضاتهِ، لأنَّه يشبهُ المكابرَ المنكرِ للمحسوساتِ...(2).اهـ

ومعنَى أنَّهُ إنْ كانَ الأمرُ مشكلًا أوْ فيهِ اشتباهٌ أوِ احتمالاتٌ، تكونُ حينهَا المجادلاتُ العلميَّةُ والمعارضاتُ العمليَّةُ، والتَّوقُّفاتُ والمشاورتُ، وإنْ كانَ الأمرُ والحكمُ بيِّنًا واضحًا، فلَا تجوزُ حينهَا المجادلةُ ولَا المشاورةُ ولَا الاعتراضُ، لأنَّ هذَا منَ المكابرةِ والتنطُّعِ.

ثمَّ استدلَّ رحمهُ اللهُ تعالَى بقوله تعالَى وقالَ: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)[آل عمران: 109] أيْ: فِي الأمورِ التِي تحتاجُ إلَى مشاورةٍ، ويُطلبُ فيهَا وجهُ المصلحةِ، فأمَّا أمرٌ قدْ تعيَّنتْ مصلحتهُ، وظهرَ وجوبهُ فقالَ فيهِ: (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)[آل عمران: 109][3].اهـ

وهنَا شرحَ الشَّيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى الأمرَ علَى وجهَيْهِ، المشاورةُ ثمَّ العملُ وعدمُ المجادلةِ؛ (وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) هذَا أمرٌ لرسولِ اللهِ ﷺ أنْ يشاورهمْ (أيِ الصَّحابةُ) فِي الأمرِ الذِي يهمهمْ جميعاً ويحتاجُ فيهِ إلَى الرُّجوعِ إليهمْ ممَّا يتعلَّقُ بهمْ، وهذَا فيمَا لمْ تتَّضحْ مصلحتهُ اتِّضاحاً تامًّا، ثمَّ إذَا اتَّضحَ الأمرُ واستبانَ وجهُ المصلحةِ فيهِ، فإنَّهُ لَا وجهَ عندَ ذلكَ للمشاورةِ ولَا المجادلةِ ولَا المعارضةِ، لأنَّ الأمرَ قدِ اتَّضحَ وبانَ، وإنَّمَا المشاوراتُ تكونُ فِي المشتبهاتِ والمشكلاتِ، وعندَ ذلكَ الواجبُ هوَ العملُ والإقدامُ؛ ولذلكَ قالَ: (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) وهذَا إذَا اتَّضحَ الأمرُ وبانَ، فلمْ يبقَى حينَها إلَّا العزمُ علَى فعلِ الأمرِ والتوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى فِي ذلكَ، ويُقاسُ علَى مَا سبقَ الجدالُ والمعارضةُ.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وقدْ كشفَ اللهُ تعالَى هذَا المعنَى غايةَ الكشفِ، فِي قولهِ تعالَى: (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ)، [الأنفال: 6] أيْ فكلُّ منْ جادلَ فِي الحقِّ بعدَ مَا تبيَّنَ علمهُ أوْ طريقُ عملهِ، فإنَّهُ غالطٌ شرعاً وعقلاً[4].

(1) القواعد الحسان بتفسير القران للسعدي صـ 110.

(2) السابق.

(3) السَّابق صـ 111.

(4) السابق نفسه.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: مَا نفاهُ القرآنُ؛ فإمَّا أنْ يكونَ غيرُ موجودٍ، أو أنَّهُ موجودٌ ولكنَّهُ غيرُ مفيدٍ ولَا نافعٍ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وهذهِ القاعدةُ أيضًا أصلهَا فِي كتابِ القواعدِ الحسانِ وهيَ علَى مَا يلِي: "كثيرًا مَا ينفِي اللهُ تعالَى الشَّيءَ لانتفاءِ فائدتهِ وثمرتهِ المقصودةِ منهُ، وإنْ كانتْ صورتهُ موجودةٌ"[1].اهـ

إنَّ اللهَ تعالَى ينفِي الشَّيءَ فِي القرآنِ، وهذَا النَّفيُ:

تارةً يردُ لنفيِ وجودهِ وحقيقتهِ.

وتارةً يردُ لنفيِ مقصودهِ ومنفعتهِ.

وتارةً يردُ لنفيِ كمالهِ وبيانِ نقصهِ.

وتارةً يردُ ويرادُ بهِ أنَّ ذلكَ ليسَ مقصوداً، ولَا ينفعُ صاحبهُ، وليسَ هوَ منْ غرضِ الشَّارعِ.

فهذهِ أربعةُ أسبابٍ يردُ لأجلهَا النَّفيُ، وقدْ يردُ النَّفيُ لغيرِ هذهِ الأمورِ، والذِي يحدِّدُ المقصودَ منَ النَّفيِ هوَ السِّياقُ، فالقرائنُ اللَّفظيَّةُ والقرائنُ الحاليَّةُ هيَ التِي تدلُّ أيُّ المراداتِ وأيُّ المقاصدِ هوَ المرادُ بالنَّفيِ[2].

إذاً النَّفيُ يردُ ويرادُ بهِ نفيُ الوجودِ والحقيقةِ، ونفيُ المقصودِ والمنفعةِ، ونفيُ الكمالِ وهذَا النَّفيُ دالٌّ علَى النَّقصِ فِي العملِ، ويردُ ويرادُ بهِ عدمُ الانتفاعِ وأنَّهُ ليسَ مقصوداً للشارعِ.

---

(1) القواعد الحسان بتفسير القران للسعدي صـ 113.

(2) من شرح د. خالد بن عبد الله المصلح – على القواعد الحسان للسعدي - من موقع almosleh.com - بتصرُّف.

مِنَ الأمثلةِ علَى ذلكَ:

1) النَّفيُ لنفيِ الوجودِ والحقيقةِ: مثلَ كلمةِ (لَا إلهَ إلَّا اللهُ)، فإنَّهَا نفيٌ لحقيقةِ وجودِ إلهٍ مستحقٍّ للعبادةِ غيرِ اللهِ تعالَى.

2) النَّفيُ لانتفاءِ المقصودِ وعدمِ حصولِ المنفعةِ فِي ذلكَ: مثلَ نفيِ السَّمعِ والبصرِ والعقلِ عنِ الكفَّارِ، منهَا قولهُ تعالَى " صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ" [البقرة: 171]**، فهمْ ليسُوا صمًّا ولَا بكمًا ولَا عميًا علَى الحقيقةِ، ولَا همْ فاقدينَ لعقولهمْ، لكنَّ النَّفيَ هنَا هوَ نفيٌّ للمنفعةِ بهَا، فأسماعهمْ وأبصارهمْ وعدمهَا سواءٌ، وعقولهمْ وعدمهَا سواءٌ، لانتفاءِ منفعتهمْ بهَا، وغيابِ المقصودِ منهَا، وهذَا شرٌّ مَا فِي البابِ لذلكَ ركَّزَ الإمامُ السَّعدِي علَى هذَا النَّوعِ منَ النَّفيِ فِي شرحهِ للقاعدةِ فِي كتابهِ.**

ومنهُ أيضاً قولُ النَّبيِّ ﷺ: "لَا صلاةَ بغيرِ طهورٍ"[1]، فالنَّفيُ هنَا لنفيِ المنفعةِ، وإنْ كانتِ الصُّورةُ موجودةً.

3) النَّفيُ ويرادُ بهِ نفيُ الكمالِ وثبوتِ النَّقصِ للفعلِ وإنْ كانَ موجودًا، منهَا قولهُ ﷺ: "لَا صلاةَ بحضرةِ طعامٍ، ولَا وهوَ يدافعهُ الأخبثانِ"[2] فإنْ صلَّى وهوَ جائعٌ فِي حضرةِ الطَّعامِ، كانَ فكرهُ منشغلًا بالطَّعامِ عنِ الصَّلاةِ وهوَ نقصٌ فِي آداءِ الصَّلاةِ، وكذلكَ وهوَ يُدافعهُ الأخبثانِ.

4) النَّفيُ ويرادُ بهِ نفيُ المنفعةِ، وأنَّهُ ليسَ مقصودًا للشَّارعِ، مثلَ قولهِ ﷺ: "مَن لم يَدَعْ قول الزُّور والعملَ به والجهلَ، فليس للهِ حاجةٌ أن يَدَعَ طعامهُ وشرابهُ"[3].

(1) سنن أبي داوود: كتاب الطهارة، باب فرض الوضوء، حديث رقم (59). قال الشيخ الألباني: صحيح.
(2) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم (560).
(3) رواه البخاري.

إِلَّا أنَّ المؤلِّفَ رحمهُ اللهُ تعالَى تكلَّمَ فِي مقدِّمةِ تفسيرِهِ عنْ ثلاثةِ أنواعٍ منَ النَّفيِ ولمْ يذكرْ نفيَ الكمالِ وبيانِ النَّقصِ، وتكلَّمَ فِي كتابِهِ القواعدِ الحسانِ عنِ النَّوعِ الثَّانِي فقطْ ممَّا ذُكرَ سابقًا، وهوَ أنَّهُ كثيرًا مَا ينفِي اللهُ الشَّيءَ لانتفاءِ فائدتهِ وثمرتهِ المقصودةِ منهُ، وإنْ كانتْ صورتهُ موجودةٌ.اهـ

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى شارحًا للقاعدةِ: وذلكَ أنَّ اللهَ خلقَ الإنسانَ وركَّبَ فيهِ القوَى، منَ السَّمعِ والبصرِ والفؤادِ وغيرهَا؛ ليعرفَ بهَا ربَّهُ ويقومَ بحقِّهِ، فهذَا المقصودُ منهَا، وبوجودِ مَا خُلقتْ لهُ تكملُ ويكملُ صاحبهَا، وبفقدِ ذلكَ يكونُ وجودهَا أضرُّ علَى الإنسانِ منْ فقدهَا، فإنَّهَا حجَّةُ اللهِ علَى عبادهِ، ونعمتهُ التِي توجدُ بهَا مصالحُ الدِّينِ والدُّنيَا، فإمَّا أنْ تكونَ نعمةً تامَّةً إذَا اقترنَ بهَا مقصودهَا، أوْ تكونَ محنةً وحجَّةً علَى صاحبهَا إذَا استعملهَا فِي غيرِ مَا خلقتْ لهُ، ولهذَا كثيرًا مَا ينفِي اللهُ تعالَى هذهِ الأمورَ الثَّلاثةَ عنْ أصنافِ الكفَّارِ والمنافقينَ، كقولهِ تعالَى: "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ"[البقرة: 171] ... وقالَ تعالَى: "لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا"[الأعراف: 179] فأخبرَ أنَّ صورهَا موجودةٌ ولكنْ فوائدهَا مفقودةٌ، وقالَ تعالى: "فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ"[الحج: 46] وقالَ تعالَى: "إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ"[النَّمل: 80] والآياتُ فِي هذَا المعنَى كثيرةٌ جدًّا، وقالَ تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا"[النِّساء: 150 – 151]

فأثبتَ لهمْ الكفرَ منْ كلِّ وجهٍ؛ فلمْ يكنْ دعواهمْ الإيمانَ ببعضِ مَا يقولونَ: آمنَّا بهِ منَ الكتبِ والرُّسلِ بموجبٍ لهمْ الدُّخولَ فِي الإيمانِ؛ لأنَّ إيمانهمْ بهِ مفقودةٌ فائدتهُ، حيثُ كذَّبوهمْ فِي رسالةِ محمَّدٍ ﷺ، وغيرهِ منَ الرُّسلِ الذينَ لمْ يؤمنُوا بهمْ، وحيثُ أنكرُوا منْ براهينِ الإيمانِ مَا هوَ أعظمُ منَ الطَّريقِ الذِي أثبتُوا بهِ رسالةَ منِ ادعُوا الإيمانَ بهِ[1].اهـ

وخلاصةُ كلامِ الشَّيخِ أنَّ مَا نفاهُ القرآنُ؛ فإمَّا أنْ يكونَ غيرُ موجودٍ، كنفيِ الإيمانِ علَى الكافرِ خالصِ الكفرِ، أو أنَّهُ موجودٌ ولكنَّهُ غيرُ مفيدٍ ولَا نافعٍ، كالذينَ قالُوا: نؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ، فهؤلاءِ لمْ ينفعهمْ مَا آمنُوا بهِ لنقصهِ ولعدمِ نفعهِ ولانتفاءِ مقصودهِ، وبهذهِ الثَّلاثةِ يأخذُ مقامَ منِ انتفى عنهُ الإيمانُ علَى الحقيقةِ.

---

(1) القواعد الحسان بتفسير القران للسعدي صـ 114 – بتصرُّف.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: الموهومُ لَا يدفعُ المعلومَ، والمجهولُ لَا يعارضُ المحقَّقَ، ومَا بعدَ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وهذهِ القاعدةُ عبَّرَ عنهَا الإمامُ فِي كتابهِ القواعدُ الحسانُ بقولهِ: "يُرشدُ القرآنُ إلَى الأمرِ المعلومِ المحقَّقِ عندَ ورودِ الشُّبهاتِ والتَّوهُّماتِ" وشرحهَا يرحمهُ الله تعالَى بقولهِ: وهذهِ قاعدةٌ جليلةٌ يُعبَّرُ عنهَا: "أنَّ الموهومَ لَا يدفعُ المعلومَ، وأنَّ المجهولَ لَا يُعارضُ المتيقَّن" ونحوهَا منَ العباراتِ، وقدْ أشارَ اللهُ تعالَى إليهَا فِي مواضعَ كثيرةٍ لمَا أخبرَ تعالَى عنِ الرَّاسخينَ فِي العلمِ، وأنَّ طريقتهمْ فِي المشابهاتِ أنَّهمْ يقولونَ: "آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا" [آل عمرانَ: 7] **فالأمورُ المحكمةُ المعلومةُ يتعيَّنُ أنْ يرجعَ إليهَا الأمورُ المشتبهةُ المظنونةُ، وقالَ تعالَى فِي زجرِ المؤمنينَ عنِ القدحِ فِي إخوانهمْ المؤمنينَ: "لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ"** [النُّور: 12] **فأمرهمْ بالرُّجوعِ إلَى مَا عُلمَ منْ إيمانِ المؤمنينَ الذِي يدفعُ السَّيئاتِ، وأنْ يعتبرُوا هذَا الأصلَ المعلومَ، ولَا يعتبرُوا كلامَ منْ تكلَّمَ ممَّا يُناقضهُ ويقدحُ فيهِ.اهـ**

وقالَ الطَّبريُّ فِي شرحِ الآيةِ السَّابقةِ: وهذَا عتابٌ منَ اللهِ تعالَى ذكرهُ أهلَ الإيمانِ بهِ فيمَا وقعَ فِي أنفسهمْ منْ إرجافِ منْ أرجفَ فِي أمرِ عائشةَ بمَا أرجفَ بهِ، يقولُ لهمْ تعالَى ذكرهُ: هلَّا أيُّهَا النَّاسُ إذْ سمعتمْ مَا قالَ أهلُ الإفكِ فِي عائشةَ ظنَّ المؤمنونَ منكمْ والمؤمناتِ بأنفسهمْ خيرًا: يقولُ: ظننتمْ بمنْ قرفَ بذلكَ منكمْ خيرًا، ولمْ تظنُّوا بهِ أنَّهُ أتَى الفاحشةَ،

وقالَ بأنفسهِمْ، لأنَّ أهلَ الإسلامِ كلُّهمْ بمنـزلةِ نفسٍ واحدةٍ، لأنَّـهمْ أهلُ ملَّةٍ واحدةٍ.

وقالَ الطَّبريُّ:

... عنْ بعضِ رجالِ بنِي النجَّارِ، أنَّ أبَا أيُّوبَ خالدُ بنُ زيدٍ، قالتْ لهُ امرأتهُ أمُّ أيُّوبَ: أمَا تسمعُ مَا يقولُ النَّاسُ فِي عائشةَ؟ قالَ: بلَى، وذلكَ الكذبُ، أكنتِ فاعلةً ذلكَ يَا أمَّ أيُّوبَ؟ قالتْ: لَا واللهِ مَا كنتُ لأفعلهُ، قالَ: فعائشةُ واللهِ خيرٌ منكِ، قالَ: فلمَّا نـزلَ القرآنُ، ذكرَ اللهُ منْ قالَ فِي الفاحشةِ مَا قالَ منْ أهلِ الإفكِ: "إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ" وذلكَ حسَّانُ وأصحابهُ الذينَ قالُوا مَا قَالُوا، ثمَّ قالَ: "لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ..." الآيةَ: أيْ كمَا قالَ أبُو أيُّوبَ وصاحبتهُ[1].

وهذهِ القاعدةُ ذُكرتْ فِي كثيرٍ منَ الكتبِ الفقهيَّةِ، ومنهُ مجمعُ الفتاوَى"[2].

وذكرهَا البركتِي فِي قواعدهِ ضمنَ القاعدةِ رقمَ (254) "لَا عِبْرَةَ لِلتَّوَهُّمِ"[3].

وقدْ وردتْ فِي كتبِ الفقهاءِ، وعباراتهمْ ألفاظٌ أخرَى قريبةٌ منْ هذهِ القاعدةِ، وتدلُّ علَى معناهَا أيضًا، منْ ذلكَ قولهمْ:

1) "لَا يُقَابِلُ المَوْهُوم المَعْلُومَ"[4].

2) "المُتَيَقِّنُ لَا يَزُولُ بِالمَوْهُومِ"[5].

3) "المَوْهُومُ لَا يُعَارِضُ المَعْلُومَ"[6].

4) "المَعْلُومُ لَا يُؤَخَّرُ لِلْمَوْهُومِ"[7].

5) "لَا يُتْرَكُ المَعْلُومُ بِالمَوْهُومِ"[8].

6) "الظَّاهِرُ أَوْلَى بِالإعْتِبَارِ منَ المَوْهُومِ"[9].

7) "المَوْهُومُ فِي مُقَابَلَةِ المُحَقَّقِ غَيْرُ مُعْتَبرٍ"[10].

8) "المَوْهُومُ لَا يُعَارِضُ المُتَحَقَّقَ"[11].

9) " لَا يُتْرَكُ المُحَقَّقُ لِأَجْلِ المَوْهُومِ"[12].

10) "لَا يُبْنَي الحُكْمُ عَلَى المَوْهُومِ، خُصُوصًا فِيمَا يَكُونُ الوَاجِبُ فِيهِ الأَخْذُ بالِاحْتِيَاطِ"[13].

---

(1) تفسير الطبري

(2) درر الحكام شرح مجلة الأحكام، علي حيدر، 65/1.

(3) قواعد الفقه، محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، دار الصدف ببلشرز، كراتشي، ط1، (1407هـ - 1986م)، 107/1.

(4) المبسوط، شمس الدين السرخسي (ت 483هـ)، دار المعرفة، بيروت، 46/17.

(5) ينظر: المحيط البرهاني في الفقه النعماني فقه الإمام أبي حنيفة: أبو المعالي برهان الدين محمود بن أحمد بن عبد العزيز بن عمر بن مَازَةَ البخاري الحنفي (ت 616هـ)، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (1424هـ - 2004م)، 479/1.

(6) المبسوط للسرخسي، 188/18.

(7) غمز عيون البصائر، 180/3.

(8) المبسوط، السرخسي، 19/2.

(9) تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي، (ت 743)، دار الكتب الإسلامي، القاهرة، (1313هـ)، 58/6، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين ابن نجيم الحنفي، (ت970هـ)، دار المعرفة، بيروت، ط2، 260/8.

(10) ينظر: العناية شرح الهداية، للإمام أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي، (ت 786هـ)، مطبوع بهامش شرح فتح القدير على الهداية لابن الهمام، المطبعة الأميرية، بمصر سنة (1315هـ)، 74/1.

(11) المبسوط، للسرخسي، 97/12، و 147/20، و 50/25 و غمز عيون البصائر، 180/3.

(12) ينظر: حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين، لأبي بكر ابن السيد محمد شطا الدمياطي، دار الفكر، بيروت، 145/1.

(13) ذكرها بهذا اللفظ البركتي في قواعده نقلاً عن السير، إلا انه ذكر لفظ (لا ينبغي) بدل "لا يبني" والموجود في السير الثاني. ينظر: السير الكبير محمد بن الحسين الشيباني، (ت 198هـ)، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، 211/1، وقواعد الفقه للبركتي، القاعدة رقم (281)، 113/1.

والوهمُ هو: مرجوحُ الظَّن، والظَّن هو: تجويزُ أمرينِ أحدهمَا أرجحُ منَ الآخرِ، فالرَّاجحُ هوَ الظَّن والمرجوحُ هوَ الوهمُ.
وعرَّفهُ ابنُ نجيمٍ بقولهِ: "رُجحانُ جهةِ الخطأ"[1].
والوهمُ عندَ الفقهاءِ الأصوليينَ هوَ: إدراكُ الطَّرفِ المرجوحِ منْ طرفيْ متردِّدٍ فيهِ[2].
وهوَ مَا عبَّرَ عنهُ الحمويُّ نقلاً عنْ متأخِّرِي الأصوليينَ حيثُ قالَ: "الوهمُ تجويزُ أمرينِ أحدهمَا أضعفُ منَ الآخرِ"[3] والأضعفُ هوَ الوهمُ.
ومعنَى هذهِ القاعدةِ الجليلةِ التِي أطلنَا فيهَا الكلامَ لنفعهَا، هوَ: أنَّهُ لَا اعتبارَ للتوهُّمِ، ولَا اعتدادَ بهِ، ولَا يُبنَى عليهِ حكمٌ شرعيٌّ، وأنَّهُ لَا تعارضَ بينَ المعلومِ والموهومِ، لأنَّ الموهومَ ضعيفٌ جدًا أمامَ القويِّ (المعلومِ)، كمَا أنَّهُ لَا يجوزُ تأخيرُ الشَّيءِ الثَّابتِ بصورةٍ قطعيَّةٍ بوهمٍ طارئٍ، لأنَّهُ غيرُ مستندٍ إلَى دليلٍ عقليٍّ، أو حسِّي[4].
والأصلُ عدمُ بناءِ الأحكامِ علَى الوهمِ: لكونهِ أضعفُ منَ الشكِّ، وأقلُّ درجةً منهُ، ومَا دامَ الشكُّ غيرُ منظورٍ إليهِ فِي الشَّرعِ، فالوهمُ أولَى بأنْ يلغَى، ولَا يُكترثُ بهِ، إذْ هوَ باطلٌ لَا يثبتُ معهُ حكمٌ شرعيٌّ، كمَا لَا يُؤخَّرُ لأجلهِ حكمٌ شرعيٌّ[5].
وجاءَ فِي الموسوعةِ الفقهيَّةِ الكويتيَّةِ: "لَا خلافَ بينَ الفقهاءِ، فِي أنَّ التوهُّمَ بالمعنَى المتقدِّمِ لَا عبرةَ لهُ فِي الأحكامِ، فكمَا لَا يثبتُ حكمٌ شرعيٌّ استنادًا علَى وهمٍ، لَا يجوزُ تأخيرُ الشَّيءِ الثَّابتِ بصورةٍ قطعيَّةٍ بوهمٍ طارئٍ[6].
ولهذهِ القاعدةِ الجليلةِ تطبيقاتٌ كثيرةٌ فِي العباداتِ منْ أصولٍ وفروعٍ، وفِي العاداتِ أيضًا، ومنَ الأمثلةِ علَى ذلكَ مَا ذكرهُ إمامنَا السَّعديُّ بمَا معناهُ أنَّ: اليقينَ والمعلومَ أنَّ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا طاهرةٌ منْ كلِّ النَّواحِي، وأنَّ الوهمَ مَا جاءُوا

بِهِ مِنَ الإفكِ، فالموهومُ الذِي هوَ الإفكُ الذِي جاءُوا بِهِ لَا يدفعُ المعلومَ المحقَّقَ وهو طهارةُ وعفَّةُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا.

ومنْ تطبيقاتِ هذهِ القاعدةِ فِي الفروعِ: لَا ينبغِي تركُ استعمالِ الماءِ لاحتمالِ وقوعِ نجاسةٍ فيهِ، لأنَّهُ مجرَّدُ توهُّمٍ، وتقديرٍ لَا مستندَ لهُ، لذلكَ يُلغَى، ولَا يُلتفتُ إليهِ بحالٍ[7].

ومنْ تطبيقاتِ هذهِ القاعدةِ فِي المعاملاتِ: لوْ كانَ للدَّارِ المبيعةِ شفيعانِ، غائبٌ وحاضرٌ، وطلبَ الحاضرُ الشُّفعةَ، فإنَّهُ يُقضَى لهُ بهَا عندَ تحقيقِهَا، ولَا يجوزُ إرجاءُ الحكمِ بداعِي أنَّ الغائبَ ربَّمَا طلبَ الشُّفعةَ فِي الدَّارِ المذكورةِ، لأنَّهُ موهومٌ[8]، والشُّفعةُ اصطلاحًا هيَ: هيَ استحقاقُ الشَّريكِ انتزاعَ حصَّةَ شريكٍ ممَّنِ انتقلتْ إليهِ بعِوَضٍ، فهيَ حقُّ تملُّكٍ قهريٍّ يُثبتُ للشَّريكِ القديمِ علَى الحادثِ فيمَا ملكَ بعِوَضٍ[9].

(1) ينظر: الأشباه والنظائر عَلَى مَذْهَبِ أَبِيْ حَنِيْفَةَ النُّعْمَانِ، زَيْنُ الْعَابِدِيْنَ بْنِ إِبْرَاهِيْمِ بْنِ نُجَيْمٍ، (ت 970هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، (1400هـ - 1980م)، 73/1.

(2) ينظر: المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت 606هـ)، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط1، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، 101/1، والمجموع، النووي (ت 676هـ)، دار الفكر، بيروت، (1997م)، 225/1، والذخيرة، شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (ت 684هـ)، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب، بيروت، (1994م)، 65/1، نهاية السول شرح منهاج الوصول: للإمام جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي (ت 772هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (1420هـ - 1999م)، 22/1، والحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيى (ت 926هـ)، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، (1411هـ)، 68/1، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة ابن شهاب الدين الرملي الشهير بالشافعي الصغير (ت 1004هـ)، دار الفكر للطباعة، بيروت، (1404هـ - 1984م)، 265/1، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، 394/1، والكليات الكفوي، 943/1، وغمز عيون، 193/1، و 204، شرح القواعد الفقهية، للزرقا، 364/1.

(3) ينظر: غمز عيون، 193/1.

(4) ينظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين الكاساني (ت 587هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية،، (1982م)، 140/3، 186، 196/6، والقواعد لعلي الندوي، ص 416، والوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية: البورنو،ص 208.

(5) كتاب الكليات للكفوي، 943/1، وشرح القواعد للزرقا، 364/1

(6) الموسوعة الفقهية الكويتية ،204/14.

(7) وهذا عند أبي حنيفة، وقال أبو يوسف، ومحمد بن الحسن، ليس عليهم إعادة شيء حتى يتحققوا متى وقعت، لأن (اليقين لا يزول بالشك) ولأن وقوعها في البئر حادث والأصل في الحوادث أن تضاف إلى أقرب الأوقات، للشك في الإسناد، فصار كمن رأى في ثوبه نجاسة لا يدري متى أصابته، فإنه لا يعيد بالإجماع على الأصح ينظر: تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، للزيلعي، 28/1، والعناية مع الهداية، 72/1، والأشباه والنظائر لابن نجيم، 63/1.

(8) البحر الرائق، 145/8، ودرر الحكام شرح مجلة الأحكام، 65/1، وشرح القواعد الفقهية للزرقا، 363/1.

(9) فقه العقود المالية - د. عبد الحق حميش ، د. الحسين شواط.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: ذكرَ اللهُ تعالَى فِي القرآنِ، الإيمانَ والعملَ الصالحَ فِي مواضعَ كثيرةٍ رتَّبَ عليهمَا منَ الجزاءِ العاجلِ والآجلِ والآثارِ الحميدةِ شيئًا كثيرًا، فالإيمانُ هوَ: التَّصديقُ الجازمُ، بمَا أمرَ اللهُ تعالَى ورسوله ﷺ بالتَّصديقِ بهِ، المتضمِّنُ لأعمالِ الجوارحِ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الإيمانَ والعملَ الصَّالحَ فِي القرآنِ فْي مواضعَ كثيرةٍ، وبيَّنَ سبحانهُ التَّلازمَ بينَ الإيمانِ والعملِ وأنَّ شرطَ الإيمانِ هوَ العملُ بمقتضاهُ فقالَ سبحانهُ:

"وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" [البقرة: 25]**.**

"وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" [البقرة: 82]**.**

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" [البقرة: 277]**.**

"وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" [آل عمران: 57]**.**

"وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا" [النساء: 57]**.**

"وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّـهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّـهِ قِيلًا" [النساء: 122].

"فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّـهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا" [النساء: 173].

"وَعَدَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ" [المائدة: 9].

الإيمانُ لغةً:

الإيمانُ مصدرُ فعلٍ رباعيٍّ منْ آمنَ وأصلهُ أأمنَ، وأعلَّتِ الهمزةُ الثَّانيةُ بالقلبِ ألفًا؛ لكونـهَا ساكنةً والتِي قبلهَا متحرِّكةٌ بالفتحِ، وهوَ أصلٌ يدلُّ علَى معنيينِ:

الأوَّلُ: إعطاءُ الأمنِ والأمانِ والطمأنينةِ، الذِي هوَ ضدُّ الخوفِ، وآمَنْتُهُ ضدّ أخَفْتُهُ.

والثَّانِي: التَّصديقُ الذِي هوَ ضدُّ التَّكذيبِ.

وإذَا قالَ العبدُ: آمنتُ باللهِ تعالَى ربًا، أي: صدَّقتُ بهِ، واطمأننتُ لأمرهِ.

فالإيمانُ فِي اللُّغةِ يرادُ بهِ معنيانِ، يظهرُ معناهمَا بحسبِ السِّياقِ وهمَا: الأمنُ وضدُّهُ الخوفُ، والتَّصديقُ وضدُّهُ التَّكذيبُ، والمعنيانِ متداخلانِ(1).

ويرَى ابنُ تيميةَ أنَّ الإيمانَ بمعنَى الإقرارِ؛ فيقولُ: ومعلومٌ أنَّ الإيمانَ هوَ الإقرارُ؛ لَا مجرَّدُ التَّصديقُ، والإقرارُ ضمنَ قولِ القلبِ الذِي هوَ التَّصديقُ، وعملِ القلبِ الذِي هوَ الانقيادُ[2].

الإيمانُ اصطلاحًا:

الإيمانُ: التَّصديقُ الجازمُ، والاعترافُ التَّامُ بجميعِ مَا أخبرَ اللهُ ورسولهُ عنهُ فِي القرآنِ والسنَّةِ، وأمرَ بالإيمانِ بهِ، والانقيادُ لهُ ظاهرًا وباطنًا[3].

فهوَ قولٌ وعملٌ واعتقادٌ يزيدُ بالطَّاعةِ، وينقصُ بالمعصيةِ[4]، ويشملُ عقائدَ الإيمانِ، وأخلاقهِ، وأعمالهِ[5].

وهوَ تصديقُ القلبِ واعتقادهُ، المتضمِّنُ لأعمالِ القلوبِ، وأعمالِ البدنِ، وذلكَ شاملٌ للقيامِ بالدِّينِ كلِّهِ؛ ولهذَا كانَ الأئمَّةُ والسَّلفُ يقولونَ: الإيمانُ قولُ القلبِ واللِّسانِ، وعملُ القلبِ واللِّسانِ والجوارحِ[6].

---

(1) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/٢٠٧١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٥١٨، لسان العرب، ابن منظور، ١٣/٢١، المفردات، الأصفهاني، ص ٩٠.

(2) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/٢٩١، الإيمان، حقيقته، خوارمه، نواقضه، عند أهل السنة والجماعة، عبد الله بن عبد الحميد، ص١٩، ٢١.

(3) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص٤١.

(4) انظر: العقيدة الواسطية، ابن تيمية ص١٦١.

(5) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص٤١.

(6) انظر: الإيمان، ابن تيمية، ص١٣٧.

وعلَى هذَا يكونُ معنَى الإيمانِ شرعًا هوَ: الاعتقادُ الجازمُ بوجودِ اللهِ وأولوهيَّتهِ وربوبيَّتهِ وأسمائهِ وصفاتهِ، والإعتقادُ الجازمُ بوجود ملائكتهِ، وكتبهِ، ورسلهِ واتِّباعهمْ فِي مَا جاؤوا بهِ منَ الحقِّ، واليومِ الآخرِ، والقدرِ خيرهِ وشرِّهِ، وأنَّ هذَا الإيمانَ هوَ قولٌ باللِّسانِ، واعتقادٌ بالجَنانِ أي: القلبِ، وعملٌ بالجوارحِ، يزيدُ بالطَّاعةِ وينقُصُ بالعصيانِ، وأدلَّةُ زيادةِ الإيمانِ ونقصانهِ فِي القرآنِ كثيرةٌ جدًّا نذكرُ منهَا قولهُ تعالَى: "وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا"[الأنفال: 2].

وقالَ جلَّ جلالهُ: "وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا"[المدثر: 31].

وقالَ جلَّ وعلَا: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ"[الفتح: 4].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: "وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125)"[التوبة: 124، 125].

وأمَّا أدلَّةُ أنَّ الإيمانَ قولٌ واعتقادٌ وعملٌ هوَ اقترانُ العملِ بالإيمانِ فِي الآياتِ السَّابقِ ذكرهَا، ومنَ الأثرِ مَا رواهُ عبدُ اللهِ بنِ عمرَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ: "لا يُقبلُ إيمانٌ بلا عملٍ، ولَا عملٌ بلَا إيمانٍ"(1).

وعنهُ ﷺ فِي حديثٍ مرسلٍ: "الإيمانُ باللهِ والعملُ قرينانِ، لَا يصلحُ واحدٌ منهمَا إلَّا معَ صاحبهِ(2).

وبوَّبَ عليهِ الحافظُ محمَّدُ بنُ يحيىَ بنِ أبِي عمرَ العدنِي فِي كتابهِ (الإيمان): بابَ ملازمةِ العملِ للإيمانِ.

ونصَّ علَى مضمونهِ عددٌ منْ أئمَّةِ أهلِ السنَّةِ فِي عقائدهمْ: منهمُ الإمامُ المزنِي رحمهُ اللهُ تعالَى، قالَ: والإيمانُ قولٌ وعملٌ معَ اعتقادهِ بالجنانِ، وقولٌ باللِّسانِ، وعملٌ بالجوارحِ

والأركانِ، وهمَا سيَّانِ ونظامانِ وقرينانِ لَا نفرِّقُ بينهمَا، لَا إيمانَ إلَّا بعملٍ، ولَا عملَ إلَّا بإيمانٍ[3].
وقالَ أبُو طالبٍ المكِّي: الإيمانُ والعملُ قرينانِ، لَا ينفعُ أحدهمَا بدونِ صاحبهِ.
وقالَ ابنُ أبِي زمنينَ: والإيمانُ باللهِ هوَ باللِّسانِ والقلبِ، وتصديقُ ذلكَ العملُ.
فالقولُ والعملُ قرينانِ لَا يقومُ أحدهمَا إلَّا بصاحبهِ[4][5].
وأُثرَ عنِ الحسنِ البصرِي أنَّهُ قالَ: "ليسَ الإيمانُ بالتمنِّي ولَا بالتحلِّي، ولكنَّهُ مَا وقرَ فِي القلوبِ وصدَّقتهُ الأعمالُ"[6].

ودليلُ وجوبِ الإيمانِ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليومِ الآخرِ والقدرِ خيرهِ وشرِّهِ، حديثُ جبريلَ ﷺ المعروفِ، وفيهِ: قال: "... أخبرنِي عنِ الإيمانِ" قالَ: "أنْ تؤمنَ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرهِ وشرِّهِ[7].
وهذهِ هيَ أركانُ الإيمانِ الستَّةِ، التِي لَا يتحقَّقُ الإيمانُ إلَّا بهَا، وأوَّلهَا الإيمانُ باللهِ تعالَى.

---

(1) أخرجهُ السيوطي في الجامع الصغير 9962 وحكم عليه بالحسن، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: في إسناده سعيد بن زكريا واختلف في ثقته وجرحه، وضعَّفهُ الألباني في ضعف الجامعِ، وكلُّ الأئمَّةِ موافقونَ علَى معناهُ.
(2) رواه العدني في ((الإيمان)) (ص: 79). قال الألباني في ((السلسلة الضعيفة)) (2245):هذا إسناد ضعيف لإرساله.
(3) ((شرح السنة)) للمزني (ص: 78).
(4) ((رياض الجنة بتخريج أصول السنة)) لابن أبي زمنين (ص: 207).
(5) المصدر: براءة أهل الحديث والسنة من بدعة المرجئة لمحمد بن سعيد الكثيري – ص: 98.
(6) رواه ابن تيمية والسيوطي مقطوعا عن الحسن البصري إلَّا أنَّ سندهُ للحسن البصري واهٍ ومعناهُ صحيحٌ.
(7) رواهُ مسلم.

1) الإيمانُ باللهِ تعالَى:

الأوَّلُ: الإيمانُ باللهِ تعالَى وهوَ: الاعتقاد الجازمُ بوجودِ اللهِ تعالَى، وربوبيتهِ وألوهيته وأسمائه وصفاتهِ، وتوحيدهُ في ذلك، وهذهِ الأمورُ الأربعةُ، منْ آمنَ بهَا قولًا وتصديقًا وعملًا فهوَ المؤمنُ حقًّا، لأنَّ مَا يندرجُ تحتهَا ممَّا سيأتِي هوَ منْ مقتضياتهَا.

(أ) الأوَّلُ: الإيمانُ بوجودِ اللهِ تعالَى:

ووجودُ اللهِ تعالَى قدْ دلَّ عليهِ العقلُ والفطرةُ، فضلاً عنِ الأدَّلةِ الشَّرعيَّةِ الكثيرةِ التِي تدلُّ علَى ذلكَ، فلَا نطيلُ فيهِ الكلامَ.

(ب) ثانيًا: الإيمانُ بربوبيتهِ تعالَى:

وهوَ إفرادُ اللهِ سبحانهُ بمَا يختصُّ بهِ منَ الرُّبوبيَّةِ، أي: بأنَّهُ وحدهُ الرَّبُّ لَا شريكَ لهُ ولَا معينَ.

والرَّبُّ لغةً: قالَ ابنُ منظورٍ: الرَّبُّ يطلقُ فِي اللُّغةِ علَى المالكِ، والسَّيدِ، والمدبِّرِ، والمربِي، والقيِّمِ، والمنعمِ[1].

والرَّبُّ شرعًا: هوَ منْ لهُ الخلقُ، والملكُ، والتَّدبيرُ، فلَا خالقَ إلَّا اللهُ، ولَا مالكَ إلَّا اللهُ، ولَا مدبِّرَ للأمورِ إلَّا اللهُ، قالَ اللهُ تعالَى: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)[الأعراف: 45]، وقالَ تعالَى: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ)[يونس: 31]، وقالَ تعالَى: (يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ)[السجدة: 5]، وقالَ تعالَى: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ)[فاطر: 13].

(ج) الثَّالثُ: الإيمانُ بألوهيتهِ:

وهوَ إفرادُ اللهِ سبحانهُ فِي ألوهيَتهِ، أي: بأنَّهُ الإلهُ الحقُّ لَا شريكَ لهُ.

والألوهيَّةُ لغةً: هيَ مصدرُ ألهَ يألهُ، قالَ الجوهرِي: (ألهَ ــ بالفتح ــ إلاهةً، أيْ عبدَ عبادةً، ومنهُ قرأَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا: "وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ"[الأعراف: 127] **بكسرِ الهمزةِ، قالَ وعبادتكَ وكانَ يقولُ: إنَّ فرعونَ كانَ يُعبدُ فِي الأرضِ.**

ومنهُ قولنَا: (اللهُ) وأصلهُ: (إلهٌ) علَى وزنِ فِعالٌ بمعنَى مفعولٌ أيْ معبودٌ، كقولنَا: إمامٌ، فِعالٌ: لأنَّهُ مفعولٌ أيْ مؤتمٌّ بهِ)[2]**، وعلَى هذَا فالألوهيَّة هيَ: المعبوديَّةُ، فللَّهِ تعالَى الألوهيَّةُ ــ المعبوديَّة ـ وللخلقِ العبوديَّةُ.**

و(الإلهُ) بمعنَى (المألوهُ) أي: (المعبودُ) حبًّا وتعظيمًا.

والألوهيَّةُ اصطلاحًا: لهَا نفسِ المعانِي اللُّغويَّةِ.

ومعنَى (لَا إلهَ إلَّا اللهُ) أي: "لَا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ"، قالَ تعالَى: (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)[البقرة: 163]**، وقالَ تعالَى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)**[آل عمران: 18]**.**

وكلُّ مَا اتُّخِذَ إلهًا معَ اللهِ تعالَى يُعبدُ منْ دونهِ، فألوهيتهُ باطلةٌ، قالَ تعالَى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)[الحج: 62]**.**

ومنْ هنَا يجبُ علينَا تعريفُ معنَى العبادةِ:

العبادةُ لغةً: قالَ ابنُ فارسٍ: العينُ والباءُ والدَّالُ أصلانِ صحيحانِ، كأنَّهمَا متضادَّانِ، والأوَّلُ منْ ذينكَ الأصلينِ يدلُّ علَى لينٍ وذلٍّ، والآخرُ علَى شدَّةٍ وغلظ، فالأوَّلُ: العبدُ المملوكُ... والمعبَّدُ: الذَّلولُ... والطريقُ المعبَّدُ المسلوكُ المذلَّلُ، والأصلُ الآخرُ: العبدةُ وهيَ القوَّةُ والصَّلاةُ، يقالُ: هذَا ثوبٌ لهُ عبدةٌ، إذَا كانَ صفيقًا قويًّا[3]**.**

وقالَ ابنُ منظورٍ:... والمعبَّدُ: المذلَّلُ، والتَّعبُّد: التذلُّلُ... وبعيرٌ معبَّدٌ: مذلَّلٌ، وطريقٌ معبَّدٌ: مسلوكٌ مذلَّلٌ(4).
العبادةُ اصطلاحًا أيْ ـ شرعًا ـ لعلَّ أجمعَ تعريفٍ للعبادةِ مَا ذكرهُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ بقولهِ: (العبادةُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ مَا يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ منَ الأقوالِ والأعمالِ الباطنةِ والظَّاهرةِ)(5). اهـ
ولقدْ ضمرَ معنَى العبادةِ فِي نفوسِ بعضِ المسلمينَ وعقولهمْ بحيثُ حصروهَا فِي الشَّعائرِ التَّعبديَّةِ، مثلَ: الصَّلاةِ، والزَّكاةِ والصَّومِ، والحجِّ، وربَّمَا أضافَ بعضهمْ إليهَا الذِّكرَ، والجهادَ، ولكنْ دلالةَ العبادةِ أوسعُ بكثيرٍ منْ ذلكَ(6)، فقدْ غفلَ جلُّ المسلمينَ علَى عبادة الدُّعاءِ والاستغاثةِ والتَّوسُّلِ، فتجدهمْ يدعونَ ويستغثونَ ويتوسَّلونَ بالمخلوقِ ويذرونَ أحسنَ الخالقينَ، ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: "هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ"[غافر65]، وهذهِ الآيةُ تأمرنَا بالإخلاصِ للهِ تعالَى فِي الدُّعاءِ، وتبيِّنُ التَّلازمَ بينَ الدُّعاءِ والعبادةِ، وتفيدُ وجوبَ الإخلاصِ فِي العبادةِ، والدُّعاءُ هوَ العبادةُ، فمنْ دعَا غيرَ اللهِ تعالَى فيمَا يختصُّ بهِ اللهُ تعالَى وحدهُ فقدْ أشركَ باللهِ تعالَى وإنْ قالَ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، قالَ تعالَى: "فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ"[العنكبوت65]، وفِي هذهِ الآيةِ يصفُ اللهُ تعالَى منْ لمْ يخلصُوا للهِ تعالَى فِي دعائهمْ بأنَّهمْ يشركونَ، والشِّركُ هوَ: مَا عرَّفهُ الإمامُ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ رحمهُ اللهُ تعالَى حيثُ قالَ: هوَ صرفُ نوعٍ منَ العبادةِ إلَى غيرِ اللهِ تعالَى، أوْ: هوَ أنْ يدعُو معَ اللهِ تعالَى غيرهُ، أوْ يقصدهُ بغيرِ ذلكَ منْ أنواعِ العبادةِ التِي أمرَ اللهُ تعالَى بهَا"(7).
وهذَا أشملُ التَّعريفاتِ للشِّركِ، فهوَ تعريفٌ جامعٌ مانعٌ.

ودعاءُ غيرِ اللهِ تعالَى هوَ قمَّةُ الضَّلالِ، قالَ تعالَى: "وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ" [الأحقاف: 5].

وأمَّا دعاءُ الاستغاثةِ: قالَ ابنُ قتيبةَ فِي قولِه تعالَى: "وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" [البقرة23]، **أي ادعوهمْ ليعاونوكمْ علَى سورةٍ مثلِه، ومعنَى الدُّعاءُ هَاهنَا الاستغاثةُ، ومنهُ دعاءُ الجاهليَّةِ وهوَ قولهمْ: يَا آلَ فلانَ، إنَّمَا هوَ استغاثتهمْ**[8]**.**

والاسْتِغَاثَةُ لغةً: اِسْتَغاثَ صاحِبَهُ: اِسْتَنْصَرَهُ، اِسْتَعانَهُ.

و(عند النحاة): نِداءُ من يخلِّصُ منْ شدَّةٍ أَوْ يُعينُ علَى دفعِ بليَّةٍ...[9]

والاستغاثةُ اصطلاحًا: طلَبُ الغَوْثِ مِنْ مَخْلوقٍ كائنًا مَنْ كانَ وبطريقةٍ مباشِرةٍ، كأنْ يقولَ: يَا فلانُ، نجِّنِي مِنَ الكُرباتِ، ارزُقنِي أولادًا، ونحوَ ذلكَ[10]**.**

والتَّوسُّلُ لغةً: قالَ جوهري، الوسيلةُ: مَا يُتقرَّبُ بهِ إلَى الغيرِ، والجمعُ: الوسيلُ والوسائلُ والتَّوسُّلُ واحدٌ، وسلَ فلانٌ إلَى ربِّه وسيلةً وتوسَّلَ إليهِ بوسيلةٍ أيْ تقرَّبَ إليهِ بعملٍ[11]**.**

وأمَّا التَّوسُّل اصطلاحًا: فهوَ علَى قسمينِ، قسمٌ مشروعٌ وقسمٌ ممنوعٌ:

أمَّا التَّوسُّلُ المشروعُ: كالتوسُّلِ بأسماءِ اللهِ تعالَى الحُسنَى وصفاتِهِ العُلَا، والتَّوسُّلُ بالإيمانِ باللهِ وبالعملِ الصَّالحِ، وكطلبِ الدُّعاءِ منْ مسلمٍ صالحٍ حيٍّ فِي مصائبٍ عامَّةٍ، كمَا توسَّلَتِ الصَّحابةُ بالعبَّاسِ عمِّ النَّبيِّ ﷺ وتوسَّلَ مَنْ بعدهمْ بأسودَ بنِ يزيدٍ[12]**.**

وأمَّا التَّوسُّلُ الممنوعُ: إنَّمَا هوَ التَّقرُّبُ والتَّزَلُّفُ بمَا يَعتقِدهُ المُتوسِّلُ أنَّهُ مباركٌ ومقبولٌ عندَ اللهِ تعالَى، وهوَ منْهِيٌ عنهُ، بلْ هوَ نوعٌ منَ الشِّركِ كالتَّوسُّلِ بأمواتِ سواءً كانُوا أولياءَ

أوْ أنبياءَ، ومنْ هنَا فإنْ كانَ التَّوسُّلُ بالنَّبيِّ المرْسَلِ والملَكِ المقرَّبِ منْهيًّا عنهُ، فكيفَ بِمَنْ دونهمَا؟ لَا شكَّ أنَّ النَّهْيَ عنِ التَّوسُّلِ بغيرهمَا منْ باب أَوْلَى وأحرَى[13].
قالَ تعالَى: "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ" [الزمر: 3].
وشرطُ الاستغاثةِ الجائزةِ: أنْ يكونَ المستغاثُ بهِ حيًّا، حاضرًا، قادرًا، فإنِ اختلَّ شرطٌ منْ هذهِ الشُّروطِ فهوَ شركٌ محضٌ.
وشرطُ التوسُّلِ الجائزِ: أنْ يكونَ المتوسَّلُ بهِ حيًّا حاضرًا مسلمًا صالحًا، وأنْ يكونَ التوسُّلُ بهِ بطلبِ الدُّعاءِ منهُ، ومنْ ذلكَ حديثُ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ كانَ إذَا قحطُوا استسقَى بالعبَّاسِ بنِ عبدِ المطلِّبِ، فقالَ: "اللَّهمَّ إنَّا كنَّا نتوسَّلُ إليكَ بنبيِّنَا ﷺ فتُسْقِيَنَا، وإنَّا نتوسَّلُ إليكَ بعمِّ نبيِّنَا فاسقنَا" قالَ: فَيُسْقَونَ[14] اهـ، ولَا يغُرَّنَكَ ظاهرُ الحديثِ أنَّ عمرَ توسَّلَ بذاتِ العبَّاسِ، فهذَا خطأٌ، بلِ الصَّحيحُ أنَّ عمرَ توسَّلَ بدعاءِ العبَّاسِ، ودليلهُ مَا نقلهُ الحافظُ العسقلانِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي "الفتحِ" حيثُ قالَ: قدْ بيَّنَ الزُّبيرُ بنُ بكَّارٍ فِي "الأنسابِ" صفةَ مَا دعَا بهِ العبَّاسُ فِي هذهِ الواقعةِ، والوقتِ الذِي وقعَ فيهِ ذلكَ، فأخرجَ بإسنادٍ لهُ أنَّ العبَّاسَ لمَّا استسقَى بهِ عمرُ قالَ: "اللَّهمَّ إنَّهُ لمْ ينزلْ بلاءٌ إلَّا بذنبٍ، ولمْ يُكشفْ إلَّا بتوبةٍ، وقدْ توجّهَ القومُ بِي إليكَ لمكانِي منْ نبيِّكَ ﷺ، وهذهِ أيدينَا إليكَ بالذُّنوبِ، ونواصينَا إليكَ بالتَّوبةِ، فاسقنَا الغيثَ"، قالَ: فَأَرْخَتِ السَّماءُ مثلَ الجبالِ حتَّى أخصبتِ الأرضُ، وعاشَ النَّاسُ[15] اهـ.
فتفهمُ منْ هذَا أنَّ عمرَ قدِ استقسَى بدعاءِ العبَّاسِ لَا بالعبَّاسِ نفسهِ، واستسقَى عمرُ بالعبَّاسِ لقربهِ منَ النبيِّ ﷺ ولصلاحهِ

فهوَ منْ أولياءِ اللهِ الصَّالحينَ حقًّا، والوليُّ هوَ ما عرَّفهُ اللهُ تعالَى لنَا بقولهِ: "أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63)" [يونس: 62 – 63].

وهنَا شرطَ سبحانهُ شرطينِ فِي الولايةِ، الشَّرطُ الأوَّلُ: الإيمانُ، والذِي نحنُ بصددِ تعريفه، والشَّرطُ الثَّانِي هوَ: التَّقوَى، ولعلَّ أشملَ التَّعريفاتِ للتَّقوَى هوَ: أنْ تجعلَ بينكَ وبينَ عذابِ اللهِ تعالَى وقايةً، ومعنَى قولكَ: اتَّقِ اللهَ: أي: اجعلْ بينكَ وبينَ عذابِ اللهِ وقايةً بطاعتهِ فِي أوامرهِ، ومنهُ: قولهُ ﷺ: "اتَّقُوا النَّارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ"[16].

فعُلِمَ بذلكَ أنَّ مَنِ اتَّخذَ منْ دونِ اللهِ تعالَى أولياءً للتَّقرُّبِ أوْ للتَّزلُّفِ؛ سواءً كانُوا أصنامًا أوْ أشخاصًا، بقولٍ مثلَ قولهمْ: يَا ربِّ بجاهِ فلانٍ، أوْ بعملٍ: كالنحرِ لصاحبِ قبرٍ للتقرُّبِ بذلكَ للهِ، فمنْ فعلَ ذلكَ فقدْ خالَفَ التَّوحيدَ والإخلاصَ، وأشرَكَ باللهِ العظيمِ، وانحَرَفَ عنِ الصِّراطِ المستقيمِ والدِّينِ الخالصِ للهِ تعالَى، واتَّبَعَ خطواتِ الشَّيطانِ، ووقَعَ فِي الضَّلالِ المُبِينِ، وقدْ حَكَمَ اللهُ تعالَى علَى مَنْ كانَ أمرُهُ كذلكَ بالكذبِ والكفرِ كمَا بيَّنتِ الآيةُ فِي أوَّلِ الصَّفحةِ السَّابقةِ (الزمر: 3)[17].

(1) لسان العرب.
(2) الصحاح للجوهري: 2223/6 مادة أله – وتفسير أسماء الله الحسنى للزجَّاج - ص:26.
(3) معجم مقاييس اللغة 4/ 205، 206 باختصار.
(4) لسان العرب، مادة عبد 3/ 274.
(5) العبودية، ص31.
(6) أضواء على تعريف العبادة: أ- د. مضطفى مسلم – شبكة الألوكة.
(7) الشيخ محمد بن عبد الوهاب: ((مؤلفات الشيخ: قسم العقيدة)) (ص: 281)، والدكتور صالح عبد الله العبود في ((عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب)) (ص: 423)
(8) غريب القرآن43.
(8) معجم المعاني.
(10) حكم التوسُّل – شبكة الألوكة – عبد الفتاح آدم المقدشي.
(11) كتاب التوصل إلى حقيقة التوسل - معنى التوسل لغة وشرعا - ص19 - المكتبة الشاملة الحديثة.
(12) حكم التوسُّل – شبكة الألوكة – عبد الفتاح آدم المقدشي.– بتصرف.
(13) السَّابق – بتصرف.
(14) رواه البخاري.
(15) فتح الباري للعسقلاني.
(16) رواه البخاري (1413)، ومسلم (2347) عن عدي بن حاتم.
(17) تعريف الإيمان لغة واصطلاحا: الشيخ عبد الله بن صالح القصير – شبكة الألوكة - بتصرُّف.

(د) الرَّابعُ: الإيمانُ بأسمائـهِ وصفاتـهِ سبحانـهُ وتعالَى:

أي: إثباتُ مَا أثبتهُ اللهُ تعالَى لنفسهِ فِي كتابهِ، أوْ فِي سنَّةِ رسولهِ ﷺ منَ الأسماءِ والصِّفاتِ علَى الوجهِ اللَّائقِ بهِ سبحانهُ منْ غيرِ تحريفٍ، ولَا تعطيلٍ، ومنْ غيرِ تكييفٍ، ولَا تمثيلٍ، قالَ تعالَى: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ" [الشورى :11]، وقالَ اللهُ تعالَى: "وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" [الأعراف: 18]، فهذهِ الآيةُ دليلٌ علَى إثباتِ الأسماءِ الحسنَى للهِ تعالَى، وقالَ تعالَى: "وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" [الروم: 27]، وهذهِ الآيةُ دليلٌ علَى إثباتِ صفاتِ الكمالِ للهِ تعالَى، لأنَّ المرادَ بـِ (المثلِ الأعلَى) هوَ: (الوصفُ الأكملُ)، وبهِ قالَ القرطبِي، قالَ:

... وقالَ الخليلُ: المثلُ الصِّفةُ، أيْ: ولهُ الوصفُ الأعلَى فِي السَّماواتِ والأرضِ[1]، فالآياتُ السَّابقِ ذِكرهَا تثبتُ الأسماءَ الحسنَى والصفاتِ العلَا للهِ تعالَى علَى سبيلِ العمومِ، وأمَّا تفصيلُ ذلكَ فِي الكتابِ والسُّنَّةِ فكثيرٌ.

وهذَا البابُ منْ أبوابِ العلمِ، أيْ "أسماءِ اللهِ تعالَى وصفاتهِ" منْ أكثرِ الأبوابِ التِي حصلَ فيهَا النِّزاعُ والشِّقاقُ بينَ أفرادِ الأمَّةِ، فقدِ اختلفتِ الأمَّةُ فِي أسماءِ اللهِ تعالَى وصفاتهِ فرقًا شتَّى، وموقفُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ منْ هذَا الاختلافِ، هوَ مَا أمرَ اللهُ تعالَى بهِ فِي قولهِ: "فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ" [النساء: 59]. والأصلُ أنْ يُردَّ هذَا التَّنازعُ إلَى كتابِ اللهِ تعالَى وسنَّةِ رسولهِ

ﷺ مسترشدينَ فِي ذلكَ بفهمِ السَّلفِ الصَّالحِ منَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ، فإنَّهمْ أعلمُ الأمَّةِ بمرادِ اللهِ تعالَى ومرادِ رسولهِ ﷺ، ولقدْ صدقَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ يصفُ أصحابَ النَّبِيِّ ﷺ فقالَ: "منْ كانَ منكمْ مستنًّا، فليستنَّ بمنْ قدْ ماتَ، فإنَّ الحيَّ لَا يُؤمنُ عليهِ الفتنةَ، أولئكَ أصحابُ محمَّدٍ ﷺ، أبرُّ هذهِ الأمَّةِ قلوبًا، وأعمقهَا علمًا، وأقلِّهَا تكلُّفًا، قومٌ اختارهمُ اللهُ لإقامةِ دينهِ، وصحبةِ نبيِّهِ ﷺ، فاعرفُوا لهمْ حقَّهمْ، وتمسَّكُوا بهديهمْ، فإنَّهمْ كانُوا علَى الهدَى المستقيمِ"(2) وكانُوا رضيَ اللهُ عنهمْ يُثبتونَ للهِ تعالَى مَا أثبتهُ لنفسهِ منْ أسماءٍ وصفاتٍ ومَا أثبتهُ لهُ رسولهُ ﷺ بلَا تحريفٍ ولَا تعطيلٍ ولَا تكييفٍ ولَا تمثيلٍ، وأمَّا مازادوهُ منَ الأسماءِ ونسبوهَا للهِ تعالَى مثل الضَّميرِ "هوَ" فهذَا لَا دليلَ عليهِ منَ الكتابِ ولَا منَ السُّنَّةِ، وغيرِ ذلكَ منَ الأسماءِ مثلَ "أهْ"، ويكفِي هؤلاءِ قولُ اللهِ تعالَى فيهمْ: "وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"[الأعراف: 18].

قالَ الطَّبريُّ فِي معنَى الإلحادِ: وكانَ إلحادهمْ فِي أسماءِ اللهِ، أنَّهمْ عدلُوا بهَا عمّا هيَ عليهِ(3)، وقالَ الشَّوكانِي: قولهُ: "وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ" الإلحادُ: الميلُ وتركُ القصدِ، يقالُ: لحدَ الرَّجلُ فِي الدِّين وألحدَ: إذَا مالَ، ومنهُ اللَّحدُ فِي القبرِ لأنَّهُ فِي ناحيةٍ، وقرئَ "يلحدونَ" وهمَا لغتانِ، والإلحادُ فِي أسمائهِ سبحانهُ يكونُ علَى ثلاثةِ أوجهٍ: إمَّا بالتَّغييرِ كمَا فعلهُ المشركونَ فإنَّهمْ أخذُوا اسمَ اللَّاتِ منَ اللهِ، والعزَّى من العزيزِ، ومناةَ منَ المنَّانِ، أوْ بالزِّيادةِ عليهَا

بأنْ يخترعُوا أسماءً منْ عندهمْ لمْ يأذنِ اللهُ بهَا، (كمَا يفعلُ غلاةُ الصُّوفيَّةِ) أوْ بالنُّقصانِ منهَا بأنْ يدعوهُ ببعضهَا دونَ بعضٍ[4].

2) الإيمانُ بملائكتهِ سبحانهُ:

الثَّانِي: الإيمانُ بالملائكةِ، وهوَ: الاعتقادُ الجازمُ بأنَّ الملائكةَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ تعالَى، وعبادٌ مكرمونَ، لَا يوصوفونَ بالذُّكورةِ ولَا بالأنوثةِ، ويُخاطبونَ باللَّفظِ المذكَّرِ، ولَا يأكلونَ ولَا يشربونَ، ولَا يعلمُ عددهمْ إلَّا اللهُ تعالَى، قالَ تعالَى: " وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ "[المدثر: 31]، وأنَّ منهمْ الموكَّلونَ بالوحيِ، قالَ تعالَى: " قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ"[النحل: 102]، والموكَّلونَ بالموتِ، قالَ تعالَى: " قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ"[السجدة: 11]، والموكَّلونَ بغيرِ ذلكَ، وكلُّهمْ مستسلمونَ منقادونَ لأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، قالَ اللهُ تعالَى: "لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ"[التَّحريم: 6]، وقدْ خلقَ اللهُ تعالَى الملائكةَ منْ نورٍ، كمَا خلقَ الإنسانَ منْ صلصالٍ كالفخَّارِ، وخلقَ الجانَّ منْ مارجٍ منْ نارٍ، فعنْ أمِّ المؤمنينَ عائشةَ رضيَ اللهُ تعالَى عنهَا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "خُلِقَتِ الملائكةُ منْ نورٍ، وخُلِقَ الجانُّ منْ مارجٍ منْ نارٍ، وخُلِقَ آدمُ ممَّا وُصِفَ لكمْ"(يعنِي منْ طينٍ)[5]، والإيمانُ بالملائكةِ عليهمُ السَّلامُ يوجبُ محبَّتهمْ وإجلالهمْ، فهمْ عبادٌ مكرمونَ، لَا يعصونَ اللهَ مَا أمرهمْ، ويفعلونَ مَا يؤمرونَ، ويسبِّحونَ اللَّيلَ والنَّهارَ لَا يفترونَ،

ولذَا فإنَّ سبَّهمْ والاستهزاءَ بهمْ أوِ الاستهزاءَ بواحدٍ منهمْ أوِ الاستهزاءَ بعملهمْ، لَا يجتمعُ معَ حبِّهمْ وإجلالهمْ وإكرامهمْ، وهوَ صورةٌ منْ عداوتهمْ، وإنْ كانَ المستهزئُ بهمْ مقرًّا بوجودهمْ، فلَا يكفِي لتحقيقِ الإيمانِ الإقرارُ بالوجودِ، قالَ اللهُ تعالَى: "مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ" [البقرة: 98]، قالَ ابنُ كثيرٍ: "يقولُ تعالَى منْ عادانِي وملائكتِي ورسلِي، ورسلهُ تشملُ رسلهُ منَ الملائكةِ، كمَا قالَ تعالَى: "اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ" [الحج: 75]، "وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ" وهذَا منْ بابِ عطفِ الخاصِ علَى العامِ، فإنَّهمَا دخلَا فِي الملائكةِ، ثمَّ عمومِ الرُّسلِ، ثمَّ خُصِّصَا بِالذِّكْرِ، لأنَّ السِّياقَ فِي الانتصارِ لجبريلَ وهوَ السَّفيرُ بينَ اللهِ تعالَى وأنبيائهِ، وَقَرَنَ معهُ ميكائيلَ فِي اللَّفظِ، لأنَّ اليهودَ زعمُوا أنَّ جبريلَ عدوَّهمْ وميكائيلُ وليَّهمْ، فأعْلمهمْ أنَّهُ منْ عادَى واحدًا منهمَا فقدْ عادَى الآخرَ وعادَى اللهَ تعالَى أيضًا"[6]، وقالَ القرطبيُّ: "وهذَا وَعِيدٌ وَذَمٌّ لِمُعَادِي جبريلَ عليهِ السَّلامُ، وإعلانٌ أنَّ عداوةَ البعضِ تقتضِي عداوةَ اللهِ تعالَى لهمْ، وعداوةُ العبدِ للهِ تعالَى هيَ معصيتهُ واجتنابُ طاعتهِ، ومعاداتُ أوليائهِ، وعداوةُ اللهِ تعالَى للعبدِ تعذيبهُ وإظهارُ أثرِ العداوةِ عليهِ، فإنْ قيلَ: لِمَ خصَّ اللهُ جبريلَ وميكائيلَ بالذِّكْرِ، وإنْ كانَ ذكرُ الملائكةِ قدْ عمَّهمَا؟ قيلَ لهُ: خصَّهمَا بالذِّكرِ تشريفًا لهمَا، كمَا قالَ: "فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ" [الرَّحمن: 68]، وقيلَ: خُصَّا لأنَّ اليهودَ ذكروهمَا، ونزلتِ الآيةُ بسببهمَا، فذكرهمَا واجبٌ لئلَّا

تقولَ اليهودُ: إنَّا لمْ نُعادِ اللهَ وجميعَ ملائكتهِ، فنصَّ اللهُ تعالَى عليهمَا لإبطالِ مَا يتأوَّلونهُ منَ التَّخصيصِ"(7).

وقالَ القاضِي عياضُ: "وحكمُ منْ سبَّ سائرَ أنبياءِ اللهِ تعالَى، وملائكتهِ، واستخفَّ بهمْ، أوْ كذَّبهمْ فيمَا أتوا بهِ، أوْ أنكرهمْ وجحدهمْ، حكمُ نبيِّنَا ﷺ"(8) (أي كفرهم).

3) الإيمانُ بكتبهِ سبحانهُ:

الثَّالثُ: الإيمانُ بالكتبِ، وهوَ: الاعتقادُ الجازمُ بأنَّ اللهَ تعالَى أنزلَ علَى رُسُلِهِ كتبًا فيهَا أمرهُ ونهيهُ ووعدهُ ووعيدهُ وفيهَا نورٌ وهدًى، قالَ تعالَى: "آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ"[البقرة: 285] وأنزلَ اللهُ تعالَى هذهِ الكتبَ لأجلِ هدايةِ النَّاسِ وإخراجهمْ منَ الظُّلماتِ إلَى النُّورِ، وهيَ: القرءانُ والإنجيلُ والتَّوراةُ والزَّبورُ وصحفِ إبراهيمَ وموسَى، قالَ تعالَى: "قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"[البقرة: 136] وأعظمهَا التَّوراةُ والإنجيلُ والقرآنُ، وأعظمُ الثَّلاثةِ وناسخهَا وأفضلهَا القرءانُ، ففِي الحديثِ عنْ جابرٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ: حينَ أتاهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ: إنَّا نسمعُ أحاديثَ منْ يهودٍ تعجبنَا، أفترَى أنْ نكتبَ بعضهَا؟ فقالَ: "أمتهوِّكونَ أنتمْ كمَا تهوَّكتِ اليهودُ والنَّصارَى؟ لقدْ جئتكمْ بهَا بيضاءَ نقيَّةً ولوْ كانَ موسَى حيًّا

مَا وسعهُ إِلَّا اتِّبَاعِي"(9)، وفِي روايةٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ غضبَ حينَ رأَى معَ عمرَ صحيفةً فيهَا شيءٌ منَ التَّوراةِ وقالَ: "أفِي شكٍّ أنتَ يَا ابنَ الخطَّابِ، ألمْ آتِ بهَا بيضاءَ نقيَّةً؟ لوْ كانَ أخِي موسَى حيًّا مَا وسعهُ إِلَّا اتِّبَاعِي"، وهذهِ دلالةٌ علَى أنَّ القرءانَ ناسخٌ لمَا قبلهُ منَ الكتبِ، كمَا نؤمنُ أنَّ القرءانَ كلامُ اللهِ تعالَى غيرُ مخلوقٍ.

4) الإيمانُ برسلهِ سبحانهُ:

والرَّابعُ: الإيمانُ بالرُّسلِ، وهوَ: الاعتقادُ الجازمُ بأنَّ اللهَ سبحانهُ أرسلَ إِلَى عبادهِ رسلًا مبشِّرينَ ومنذرينَ، لهدايةِ البشرِ وإخراجهمْ منَ الظُّلماتِ إِلَى النُّورِ، قالَ تعالَى "رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا"[النساء: 165] وقالَ تعالَى "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ"[النحل: 36] ويجبُ أنْ نؤمنَ بذلكَ إجمالًا فلَا نعلمُ عددهمْ، كمَا قالَ تعالَى "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ"[غافر: 78] كمَا يجبُ أنْ نؤمنَ بهمْ تفصيلًا كمَا فصلَّهمُ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ الكريمِ، وأفضلهمُ الرُّسلُ ثمَّ الأنبياءُ، وأفضلُ الرُّسلِ والأنبياءِ أولُو العزمِ، وهمْ خمسةٌ: محمَّدٌ ونوحٌ وإبراهيمُ وموسَى وعيسَى صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهمْ أجمعينَ، قالَ تعالَى: "فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ"[الأحقاف: 35] والدَّليلُ علَى أنَّ أولُو العزمِ خمسةٌ، أنّ اللهَ تعالَى ذكرَ الأنبياءَ ثمَّ عطفَ عليهمْ بهذهِ المجموعةِ، وعطفُ الخاصِ علَى العامِ يفيدُ أنَّ للخاصِ زيادةً فِي الفضلِ، وذلكَ

فِي قولِهِ تعالَى: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا" [سورة الأحزاب: 7].

وعطفُ الخاصِ علَى العامِ منَ مباحثِ القرءانِ التِي يتطرَّقُ إليهَا المفسِّرونَ أثناءَ تفسيرهمْ لكتابِ اللهِ العزيزِ،... وذلكَ أنْ يكونَ اللَّفظُ الخاصُ مندرجًا فِي اللَّفظِ العامِ، لكنْ يُعطفُ عليهِ اللَّفظُ الخاصُ بغرضِ التَّنبيهِ عليهَا، أوْ لاعتبارِ ذِي بالٍ(10).

والعطفُ هوَ: اتباعُ لفظٍ للفظٍ آخرَ بواسطةِ حرفٍ، أيْ أنَّ تركيبَ العطفِ يتكوَّنُ منهُ تابعٌ يسبقهُ متبوعٌ ويتوسَّطهمَا حرفٌ منْ حروفِ العطفِ، وحروفُ العطفِ تسعةٌ: ستَّةٌ منهَا تفيدُ المشاركةَ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ فِي الحكمِ والإعرابِ معًا وهي: الواو - الفاء - ثم - حتى - أو - أم. والثَّلاثةُ الباقيةُ تعطِي المعطوفَ حركةَ المعطوفِ عليهِ دونَ المشاركةِ فِي الحكمِ، وهيَ: بل – لا – لكن، وبذلكَ يتكوَّنُ أسلوبُ العطفِ، منَ المعطوفِ عليهِ (المتبوعُ) والمعطوفُ (التَّابعُ) وحرف العطفِ.

الخاصُ لغةً: كلُّ لفظٍ وضعَ لمعنَى معلومٍ لَا ينطبقُ علَى غيرهِ، جنسًا أو نوعًا أو عينًا؛ جنسٌ مثلَ (جنٌّ) أوْ نوعًا كـ (امرأةٍ) أوْ عينًا كـ (إبراهيمَ)(11).

الخاصُ اصطلاحًا: هوَ قصرُ حكمٍ عامٍ علَى بعضِ أفرادهِ(12).

العامُ لغةً: الشاملُ، وهوَ منْ عمَّ يعمُّ عموماً وعاماً، يقالُ: عمَّهمْ بالعطيَّةِ، أيْ: شملهمْ(13).

العامُ اصطلاحًا: هوَ اللَّفظُ المستغرقُ لكلِّ مَا يصلحُ لهُ دفعةً واحدةً(14).

فإذَا عُطفَ الخاصُ علَى العامِ كانَ زيادةً للخاصِ في الفضلِ، وبذلكَ علمنَا منَ الآيةِ أنَّ أولُو العزمِ منَ النَّبيئينَ خمسةٌ.

وأفضلُ أولِي العزمِ نبيُّ الإسلامِ وخاتمِ الأنبياءِ والمرسلينَ أبُو القاسمِ محمَّدٌ بنُ عبدِ اللهِ الهاشمِي ﷺ، قالَ تعالَى: "مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ"[الأحزاب: 40] وعنْ أبِي هُرَيْرَةَ رضيَ اللهُ عنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ"(15).

والإيمانُ بواحدٍ منهمْ يستلزمُ الإيمانَ بهمْ جميعًا، كمَا أنَّ الكفرَ بواحدٍ منهمْ كفرٌ بجميعهمْ، لأنَّ كلَّ واحدٍ منهمْ يدعُو إلَى توحيدِ اللهِ تعالَى وطاعته، قالَ تعالَى: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا"[النساء: 150]، كمَا تنطبقُ هذهِ الآيةُ علَى الذِينَ يُفرِّقونَ بينَ كتابِ اللهِ تعالَى وسنَّةِ رسولهِ ﷺ(16).

5) الإيمانُ باليومِ الآخرِ:

الخامسُ: الإيمانُ باليومِ الآخرِ، وهوَ: الاعتقادُ الجازمُ بيومِ القيامةِ، والإيمانُ بكلِّ مَا أخبرَ اللهُ تعالَى بهِ وبكلِّ مَا أخبرَ بهِ رسولهُ ﷺ ممَّا يكونُ بعدَ الموتِ وحتَّى يدخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلُ النَّارِ النَّارَ، ولَا ننظرُ فِي أخبارِ الرَّسولِ إنْ كانتْ

متواترةً أوْ آحادًا، فكلُّ حديثٍ صحَّ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ يُعملُ بهِ سواءٌ كانَ فِي الأخبارِ أوِ الأحكامِ، متوترًا كانَ أمْ أحادًا، فنؤمنُ بأمورِ الغيبِ بعدَ الموتِ، منْ سكراتِ الموتِ وعالمِ البرزخِ، ونعيمِ القبرِ وعذابهِ وفتنتهِ وسؤالِ الملكينِ، وأنَّ الشُّهداءَ أحياءٌ عندَ ربِّهمْ يرزقونَ، ونؤمنُ بيومِ القيامةِ الذِي يحيِي اللهُ تعالَى فيهِ الموتَى ويبعثُ العبادَ منْ قبورهمْ ثمَّ يحاسبهمْ، وبالنَّفخِ فِي الصُّورِ، وهيَ ثلاثُ نفخاتٍ، وقيلَ اثنينِ: نفخةُ الفزعِ ونفخةُ الصَّعقِ ونفخةُ البعثِ والنُّشورِ، فيقومُ النَّاسُ لربِّ العالمينَ حفاةً عراةً غرلًا تدنُو منهمُ الشَّمسُ، ومنهمْ منْ يلجمهُ العرقُ، ومنهمْ منْ دونَ ذلكَ، وأوَّلُ منْ يبعثُ وتنشقُّ عنهُ الأرضُ هوَ نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ وتنشرُ صحفُ الأعمالِ، فيُكشفُ المخبوءُ ويظهرُ المستورُ ويحصَّلُ مَا فِي الصُّدورِ، ويكلِّمُ اللهُ تعالَى عبادهُ ليسَ بينهُ وبينهمْ ترجمانٌ، ويدعَى النَّاسُ بأسمائهمْ وأسماءِ آبائهمْ، ونؤمنُ بالميزانِ الذِي لهُ كفَّتانِ توزنُ بهِ أقوالُ العبادِ، وأعمالهمْ، وصحُفهمْ، وأبدانهمْ؛

ودليلُ وزنِ الأقوالِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ"(17).

ودليلُ وزنِ الأعمالِ مَا صحَّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلاةِ"(18).

ودليلِ وزنِ صُحُفِ الأعمالِ حديثُ البطاقةِ عنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ قَالَ فَتُوضَعُ السِّجِلاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ"[19].

ودليلُ وزنِ الأشخاصِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَقَالَ اقْرَءُوا (فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)[20]، وكذلكَ مَا ثبتَ منْ أنَّ ابْنِ مَسْعُودٍ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الأَرَاكِ وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مِمَّا تَضْحَكُونَ، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ[21].

وتنشرُ الدَّواوينُ فآخذٌ كتابهُ بيمينهِ وآخذٌ كتابهُ بشمالهِ أوْ منْ وراءِ ظهرهِ، قالَ تعالَى: "فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ" [الحاقة: 19]، وقالَ تعالَى: "وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ

كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ" [الحاقة: 25]، وقالَ تعالَى: "وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ" [الإنشقاق: 10]، ونؤمنُ بحوضِ النَّبيِّ ﷺ ماؤهُ أشدُّ بياضًا منَ اللَّبنِ وأحلَى منَ العسلِ وريحهُ أطيبُ منَ المسكِ وآنيتهُ عددَ نجومِ السَّماءِ وطولهُ شهرٌ وعرضهُ شهرٌ منْ شربَ منهُ لمْ يظمأْ أبدًا، قالَ تعالَى: "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ" [الكوثر: 1]، ويُحرمُ منَ الشُّربِ منهُ منِ ابتدعَ فِي دينِ اللهِ تعالَى فزادَ فيهِ بهواهُ مَا ليسَ منهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا، سُحْقًا، لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي(22).

والصِّراطُ منصوبٌ علَى متنِ جهنَّمَ يتجاوزهُ الأبرارُ كلٌّ علَى حسبِ عملهِ ويزلُّ عنهُ الفجَّارُ، قالَ تعالَى: "وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً" [مريم: 71]، قالَ الطبريِ بإسنادهِ: عنْ عبدِ اللهِ فِي قولهِ (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا) قالَ: الصِّراطُ علَى جهنَّمَ مثلُ حدّ السَّيفِ، فتمرّ الطَّبقةُ الأولَى كالبرقِ، والثَّانيةُ كالرِّيحِ، والثَّالثةُ كأجودِ الخيلِ، والرَّابعةُ كأجودِ البهائمِ، ثمَّ يمرّونَ، والملائكةُ يقولونَ: اللَّهمّ سلِّم سلِّم(23).

ثمَّ منْ نجَا منْ أهلِ الجنَّةِ يتحاسبونَ علَى قنطرةٍ دونَ الجنَّةِ يتقاصُّ أهلُ الإيمانِ بعضهمْ منْ بعضٍ، فعنْ أبِي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "يخلصُ

المؤمنونَ منَ النَّارِ، فيحبسونَ علَى قنطرةٍ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ فيقصُّ لبعضهمْ منْ بعضٍ مظالمَ كانتْ بينهمْ فِي الدُّنيَا حتَّى إذَا هذِّبُوا ونقُّوا أُذنَ لهمْ فِي دخولِ الجنَّةِ(24)، والجنَّةُ والنَّارُ مخلوقتانِ قبلَ الخلقِ لَا تفنيانِ أبدًا، قالَ تعالَى: "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا" [النساء: 122]، وقالَ تعالَى: "إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا" [النساء: 169]، والموتُ يؤتَى بهِ يومَ القيامةِ علَى صورةِ كبشٍ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ فيذبحُ فيصيرُ الخلقُ فِي خلودٍ لَا فناءَ بعدهُ، فعنْ أبِي سعيدٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "يجاءُ بالموتِ يومَ القيامةِ كأنَّهُ كبشٌ أملحُ، فيوقفُ بينَ الجنَّة والنَّارِ، فيقالُ يَا أهلَ الجنَّةِ هلْ تعرفونَ هذَا؟ فيشرئبُّونَ وينظرونَ ويقولونَ: نعمْ هذَا الموتُ، ويُقالُ يَا أهلَ النَّارِ هلْ تعرفونَ هذَا؟ فيشرئبُّونَ وينظرونَ ويقولونَ: نعمْ هذَا الموتُ، قالَ: فيُؤمرُ بهِ فيذبحُ، ثمَّ يُقالُ: يَا أهلَ الجنَّةِ خلودٌ فلَا موتٌ، ويَا أهلَ النَّارِ خلودٌ فلَا موتٌ"(25)، ونؤمنُ بشفاعةِ نبيِّنَا ﷺ وسائرِ النبيِّينَ والملائكةِ والشُّهداءِ والصدِّيقينَ والصالحينَ، ويُخرجُ اللهُ تعالَى خلقًا بغيرِ شفاعةٍ بفضلهِ ورحمتهِ، فعنْ أبِي سعيدٍ الخدريِّ قالَ قالَ رسول اللهِ ﷺ: "أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولَا فخر وأنَا أوَّلُ من تنشقُّ الأرضُ عنه يومَ القيامةِ ولَا فخر وأنَا أوَّلُ شافعٍ وأولُ مشفَّعٍ ولَا فخر ولواءُ الحمدِ بيدِي يومَ القيامةِ ولا فخرَ"(26)، وعنْ أبِي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ: "... فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: شفعتِ الملائكةُ، وشفعَ النبيُّونَ، وشفعَ المؤمنونَ، ولمْ

يبقَ إلَّا أرحمُ الرَّاحمينَ، فيقبضُ قبضةً منَ النَّارِ فيُخرجَ منهَا قوماً لمْ يعملُوا خيراً قطُّ قدْ عادُوا حمماً"[27].

(1) تفسير القرطبي.

(2) معنى الإيمان – موقع الإسلام سؤال وجواب – بتصرف.

(3) تفسير الطبري.

(4) فتح القدير للشوكاني.

(5) رواه مسلم.

(6) تفسير ابن كثير.

(7) تفسير القرطبي.

(8) الشفا بتعريف حقوق المضطفى.

(9) رواه أحمد والبيهقي في كتاب شعب الإيمان، وهو حديث حسن. و لأحمدَ رواة أخرى.

(10) بغية السائل من أوبد المسائل – وليد المهدي.

(11) قاموس المعني.

(12) الشنقيطي - مذكرة في أصول الفقه.

(13) انظر لسان العرب 426/12.

(14) أبو الحسن البصري "المعتد في أصول الفقه".

(15) رواه مسلم.

(16) للمزيد والتوسُّع، يُنظر كتاب: الرسل والرِّسالات – د. عمر سليمان الأشقر.

(17) رواه البخاري.

(18) صحيح سنن الترمذي.

(19) صحيح سنن الترمذي.

(20) رواه البخاري.

(21) حسن إسناده الألباني في شرح الطحاوية برقم 571 ص 418.

(22) رواه البخاري ومسلم.

(23) تفسير الطبري.

(24) فتح البراي.

(25) رواه البخاري ومسلم.

(26) صحيح ابن ماجه.

(27) رواهُ البخاري ومسلم.

6) الإيمانُ بالقدرِ خيرهِ وشرِّهِ:

السَّادسُ: الإيمانُ بالقدرِ خيرهِ وشرِّهِ، وهوَ: الاعتقاد الجازمُ بأنَّ كلَّ خيرٍ وشرٍّ بقضاءِ اللهِ تعالَى وقدرهِ، وأنَّ اللهَ تعالَى فعَّالٌ لمَا يريدُ فكلُّ شيءٍ بإرادتهِ ولَا يخرجُ عنْ مشيئتهِ وتدبيرهِ شيءٌ، وأنَّه سبحانهُ عَلِمَ كلَّ مَا كانَ ومَا يكونُ ومَا سوفَ يكونُ منَ الأشياءِ قبلَ أنْ تكونَ فِي الأزلِ، وقدَّرَ المقاديرَ للكائناتِ حسبمَا سبقَ بهِ علمهُ واقتضتْ حكمتهُ، وعلمَ أحوالَ عبادهِ وأرزاقهِمْ وآجالهِمْ وأعمالهِمْ، وملخصُّهُ: هوَ مَا سبقَ به العلمُ وجرَى بهِ القلمُ ممَّا هوَ كائنٌ إلَى الأبدِ، قالَ تعالَى "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا" [الأحزاب: 38] وقالَ تعالَى: "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ" [القمر: 49]، ودليلُ وجوبُ الإيمانِ بالقدرِ: مَا رواهُ يحيَى بنُ يعمرَ قالَ: "كانَ أوَّلَ مَن قالَ في القَدَرِ بالبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الجُهَنِيُّ، فانْطَلَقْتُ أنا وحُمَيْدُ بنُ عبدِ الرَّحْمَنِ الحِمْيَرِيُّ حاجَّيْنِ، أوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنا: لو لَقِينا أحَدًا مَن أصْحابِ رَسولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلْناهُ عَمَّا يقولُ هَؤُلاءِ في القَدَرِ، فَوُفِّقَ لنا عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ داخِلًا المَسْجِدَ، فاكْتَنَفْتُهُ أنا وصاحِبِي أحَدُنا عن يَمِينِهِ، والآخَرُ عن شِمالِهِ، فَظَنَنْتُ أنَّ صاحِبِي سَيَكِلُ الكَلامَ إلَيَّ، فَقُلتُ: أبا عبدِ الرَّحْمَنِ إنَّه قدْ ظَهَرَ قِبَلَنا ناسٌ يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ، ويَتَقَفَّرُونَ العِلْمَ، وذَكَرَ مِن شَأْنِهِمْ، وأنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أنْ لا قَدَرَ، وأنَّ الأمْرَ أُنُفٌ، قالَ: فإذا لَقِيتَ أُولَئِكَ فأخْبِرْهُمْ أنِّي بَرِيءٌ منهمْ، وأنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، والذي يَحْلِفُ به عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ لو أنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فأنْفَقَهُ ما قَبِلَ اللَّهُ منه حتَّى يُؤْمِنَ بالقَدَرِ... ثمَّ ساقَ حديثَ جبريلَ(1).

ومراتبُ القدرِ أربعةٌ لَا يتحقَّقُ إيمانُ العبدِ إلَّا بهَا:
الأولىَ، العلمُ: وهوَ الإيمانُ بأنَّ اللهَ تعالَى عالمٌ بكلِّ مَا كانَ ومَا يكونُ ومَا سيكونُ ومَا لمْ يكنْ لوْ كانَ كيفَ سيكونُ جملةً وتفصيلًا، وأنَّهُ علمَ مَا الخلقُ عاملونَ قبلَ خلقهمْ، قالَ تعالَى "إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" [العنكبوت: 62].
الثَّانية، الكتابة: وهوَ الإيمانُ بأنَّ اللهَ تعالَى كتبَ مَا سبقَ بهِ علمهُ منْ مقاديرِ المخلوقاتِ فِي اللَّوحِ المحفوظِ، وهوَ الكتابُ الذِي لمِ يفرِّطْ فيهِ منْ شيءٍ، فكلُّ مَا جرَى ومَا يجرِي ومَا سيجرِي إلَى يومِ القيامةِ مكتوبٌ عندهُ فِي أمِّ الكتابِ، قالَ تعالَى "وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ" [يس: 12]، قالَ الطَّبريُّ: وقولهُ (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) يقولُ تعالَى ذكرهُ: وكلَّ شيءٍ كانَ أوْ هوَ كائنٌ أحصيناهُ، فأثبتناهُ فِي أمِّ الكتابِ، وهوَ الإمامُ المبينُ... عنْ مجاهدٍ (فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) قالَ: فِي أمِّ الكتابِ، وعنْ قتادةَ، قولهُ (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) كلُّ شيءٍ محصًى عندَ اللهِ فِي كتابٍ. ... قالَ ابنُ زيدٍ، فِي قولهِ (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) قالَ: أمُّ الكتابِ التِي عندَ اللهِ فيهَا الأشياءُ كلُّهَا هيَ الإمامُ المبينُ[2].
الثَّالثةُ، المشيئةُ: وهوَ الإيمانُ بأنَّ كلَّ شيءٍ يجرِي فِي هذَا الكونِ فهوَ بإرادةِ اللهِ تعالَى ومشيئتهِ الدَّائرةِ بينَ الحكمةِ والرَّحمةِ، لَا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهمْ يسألونَ، فمشيئتهُ نافذةٌ وقدرتهُ شاملةٌ، مَا شاءَ اللهُ كانَ ومَا لمْ يشأْ لمْ يكنْ، لَا يخرجُ عنْ إرادتهِ شيءٌ، قالَ تعالَى "وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا" [الإنسان: 30].
الرَّابعةُ، الخلقُ: وهوَ الإيمانُ بأنَّ اللهَ تعالَى خالقُ كلِّ شيءٍ لَا خالقَ غيرهُ ولَا ربَّ سواهُ، وأنَّ كلَّ مَا سواهُ مخلوقٌ، فهوَ خالقُ كلَّ عاملٍ وعملهِ، وكلَّ متحرِّكٍ وحركتهِ، قالَ تعالَى

"وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا" [الفرقان: 2]، وأنَّ كلَّ مَا يجرِي منْ خيرٍ وشرٍّ وكفرٍ وإيمانٍ وطاعةٍ ومعصيةٍ، شاءهُ اللهُ تعالَى وقدَّرهُ وخلقهُ، قالَ تعالَى: "وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ" [الصافات: 96]، وأنَّهُ يحبُ الإيمانَ والطَّاعةَ، ويكرهُ الكفرَ والمعصيةَ، قالَ تعالَى: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" [البقرة: 222]، وقالَ تعالَى: "فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" [آل عمران: 76]، وقالَ سبحانهُ: "وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" [آل عمران: 134]، وقالَ جلَّ جلالهُ: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" [آل عمران: 159]، وقالَ جلَّ وعلَا: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" [المائدة: 42]، وقالَ تعالَى: "وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ" [البقرة:276]، وقالَ سبحانهُ: "فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ" [آل عمران: 32]، وقالَ جلَّ جلالهُ: "وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" [آل عمران: 57]، وقالَ جلَّ وعلَا: "إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً" [النساء: 36].

ونؤمنُ أنَّ العبادَ لهمْ قدرةٌ علَى أفعالهمْ واختيارٌ وإرادةٌ لمَا يصدرُ منهمْ منْ طاعةٍ ومعصيةٍ، قالَ تعالَى: "فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا" [النبأ: 39]، وقالَ تعالَى: "فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ" [الكهف: 29]، لكنَّ مشيئتهمْ وإرادتهمْ تابعةٌ لمشيئةِ اللهِ تعالَى وإرادتهِ، خلافًا للجبريَّةِ الذينَ يقولونَ: إنَّ العبدَ مجبرٌ علَى أفعالهِ ليسَ لهُ إختيارٌ، وللقدريةِ الذينَ يقولونَ: إنَّ العبدَ لهُ إرادةٌ مستقلَّةٌ وأنَّهُ يخلقُ فعلهُ وأنَّ إرادتهُ ومشيئتهُ خارجةٌ عنْ إرادةِ اللهِ تعالَى ومشيئتهِ، ولكنَّ الحقَّ مَا عليهِ أهلُ السنَّةِ، أنَّ الخلقَ لهمْ مشيئةٌ خاصَّةٌ، لكنَّهَا مقيَّدةٌ بمشيئةِ اللهِ تعالَى، قالَ تعالَى: "لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" [التكوير:29][3].

(1) أوَّلُ حديثٍ في بابِ الإيمانِ من صحيحِ الإمامِ مسلم.
(2) تفسير الطَّبري.
(3) خالد بن سعود البليهد – موقع صيد الفوائد.

ثمَّ عرَّفَ رحمهُ اللهُ تعالَى العملَ الصَّالحَ بقولهِ: والعملُ الصَّالحُ هوَ: القيامُ بحقوقِ اللهِ تعالَى، وحقوقِ عبادهِ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

تعريفُ العملِ الصَّالحِ فِي اللُّغةِ: العملُ، مأخوذٌ منْ عَمِلَ: العينُ والميمُ واللَّامُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، وهوَ عامٌ فِي كلِّ فعلٍ يُفعلُ، وعملَ يعمَلُ عملاً، فهوَ عاملٌ، واعتملَ الرَّجلُ: إذَا عملَ بنفسه، والعمالةُ: أجرُ مَا عُملَ، والمُعاملةُ: مصدرٌ منْ قولكَ: عَامَلْتهُ، وأنَا أُعاملهُ معاملةً[1].

والصَّالحُ مأخوذٌ منْ صلَحَ يَصلَحُ ويَصلُحُ، صَلاحًا وصَلاحِيةً وصُلُوحًا، فهوُ صالِحٌ، والمفعولُ مصلوحٌ لهُ، وصَلُحَ أَمْرُهُ أَوْ حَالُهُ: صَارَ حَسَناً وَزَالَ عَنْهُ الْفَسَادُ، وعَفَّ، وفَضُلَ، وصَلُحَ الشَّيءُ: كان نافِعاً أو مُناسِباً[2].

ويمكنُ تعريفُ العملِ الصَّالحِ اصطلاحًا بأنّهُ: أيُّ عملٍ أوْ فعلٍ أوْ قولٍ يرضاهُ اللهُ تعالَى منْ عبادهِ، ويقومُ بهِ العبدُ بقصدِ التقرُّبِ بهِ إلَى اللهِ تعالَى، وقيلَ: هوَ العملُ بمَا جاءَ بهِ القرآنُ الكريمُ، والسنَّةُ المطهَّرةُ، وجميعُ مَا يوافقُ شرعَ اللهِ تعالَى، ويصحُّ تعريفهُ بأنَّهُ: الانصياعُ لأمرِ اللهِ تعالَى[3].

ولقبولِ العملِ الصَّالحِ ثلاثةُ شروطٍ وهيَ:

1) الإسلامُ: وهوَ لغةً: الانقيادُ والخضوعُ والذلُّ؛ يقالُ: أسلمَ واستسلمَ؛ أي: انقادَ[4].

واصطلاحًا هوَ كمَا عرَّفهُ الإمامُ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ رحمهُ اللهُ تعالَى: الإسلامُ هوَ الاستسلامُ للهِ بالتَّوحيدِ والانقيادِ لهُ بالطَّاعةِ، والبراءةِ منَ الشِّركِ وأهلهِ[5]. اهـ

والإسلامُ فِي الشَّرعِ يأتِي علَى معنيينِ:

المعنَى الأوَّلُ: الإسلامُ الكونِي: ومعناهُ استسلامُ جميعِ الخلائقِ لأوامرِ اللهِ تعالَى الكونيَّةِ القدريَّةِ.
~~~~~~~~~~~

المعنَى الثَّانِي: الإسلامُ الشَّرعِي: ومعناهُ الاستسلامُ والانقيادُ لأوامرِ اللهِ تعالَى الشَّرعيَّةِ(6).

ومرادنَا هوَ النَّوعُ الثَّانِي (الشَّرعِي) لأنَّ النَّوعَ الأوَّلَ (الكونِي) لَا يترتَّبُ عليهِ ثوابٌ ولَا عقابٌ، فكلُّ مخلوقٍ هوَ مستسلمٌ للهِ تعالَى ومنقادٌ لأوامرِهِ الكونيَّةِ القدريَّةِ سواءً رضيَ أمْ لمْ يرضَ؛ فلَا مشيئةَ للمخلوقِ فِي صحَّةٍ أوْ مرضٍ، أوْ حياةٍ أوْ موتٍ، أوْ غنًى أوْ فقرٍ، ونحوِ ذلكَ، قالَ تعالَى: "أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ"[آل عمران: 83].

وأمَّا النَّوعُ الثَّانِي (الشَّرعِي) فهوَ علَى قسمينِ، عامٌ وخاصٌ، فالإسلامُ العامُ هوَ: الدِّينُ الذِي جاءَ بهِ الانبياءُ جميعًا، قالَ تعالَى حاكيًا عنْ نوحٍ عليهِ السَّلامُ: "فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ"[يونس: 72]، وكمَا قالَ تعالَى عنْ إبراهيمَ: "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا"[آل عمران: 67] وقالَ تعالَى حاكيًا عنْ سحرةِ فرعونَ: "قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ"[الأعراف: 126].

فكلُّ منْ سبقَ ذكرهمْ همْ مسلمونَ منْ قبلِ بعثةِ الرَّسولِ ﷺ.

والإسلامُ الخاصُ: هوَ الدِّينُ الذِي جاءَ بهِ نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ.

وقدْ بيَّنَ النَّبيُّ ﷺ الإسلامَ بمعناهُ الخاصِ، وأنَّهُ الدِّينُ الذِي جاءَ بهِ، بقولِهِ ﷺ: "الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا"(7)(8).

وهذَا هوَ الإسلامُ الذِي هوَ الشَّرطُ الأوَّلُ فِي قبولِ العملِ.

2) الشَّرطُ الثَّانِي، الإخلاصُ:

و الإخلاصُ فِي اللُّغةِ: مشتقٌّ منْ خَلَصَ، بفتحِ الخاءِ واللَّامِ خلصَ يخلصُ خلوصًا وإخلاصًا، وهوَ فِي اللُّغَةِ بمعنَى صفَا وزالَ عنهُ شوبهُ إذَا كانَ فِي الماءِ أوِ اللَّبنِ أوْ أيِّ شيءٍ فيهِ شوبٌ، يعنِي تغيَّرَ لونهُ بشيءٍ يشيبهُ أيْ يغيِّرهُ فقمتَ وصفَّيتَهُ وأخرجتَ هذهِ الشوائبَ التِي لوَّثتهُ، فيقالُ: إنَّكَ أخلصتهُ يعنِي صفَّيتهُ ونقَّيتهُ.

الإخلاصُ فِي الاصطلاحِ: يعنِي صدقَ العبدِ فِي توجُّههِ إلَى اللهِ تعالَى اعتقادًا وعملاً، قالَ تعالَى: "وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِين لَهُ الدِّين"[البينة: 5]، وقالَ تعالَى: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ"[النساء: 146].

يقولُ الهرويُّ: "الإخلاصُ تصفيةُ العملِ منْ كلِّ شوبٍ".

ويقولُ سفيانُ الثَّورِي: "مَا عالجتُ شيئًا أشدَّ عليَّ منْ نيَّتِي؛ إنَّهَا تتقلَّبُ عليَّ"(9).

وخلاصةً الإخلاصُ هوَ: صرفُ العبادةِ للهِ تعالَى وحدهُ لَا شريكَ له، لَا يشوبهَا شركٌ أكبرٌ ولَا أصغرٌ، فالشِّركُ الأكبرُ محبطٌ للعملِ ومخرجٌ منَ الملَّةِ، كمنْ دعَا غيرَ اللهِ تعالَى فِي مَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى، والشِّركُ الأصغرُ غيرُ مخرجٍ منَ الملَّةِ ولكنَّهُ محبطٌ للعملِ بعينهِ، كسائرِ الرِّياءِ وهوَ الشِّركُ الخفيُّ، وبينَ معنَى الإخلاصِ اللُّغوِي والإصطلاحِي تلازمٌ وتكاملٌ، فقد تعلَّقَ العملُ الصَّالحُ بالإخلاصِ وإلَّا فهوَ عملٌ غيرُ صالحٍ وكذلكَ لَا يكملُ العملُ الصَّالحُ إلَّا بالإخلاصِ.

3) الشَّرطُ الثَّالثُ، المتابعةُ:

وهوَ متابعةُ هدي النَّبيِّ ﷺ وعدمِ الخروجِ عنْ سنَّته بحالٍ، فقدْ قالَ ﷺ: "مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ"(10) وللبخاريِّ: منْ أحدثَ فِي أمرنَا هذَا مَا ليسَ منهُ فهوَ ردٌّ.

وقالَ ﷺ: "إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا، سُحْقًا، لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي(11).

وفِي الأحاديثِ دلالةٌ واضحةٌ أنَّ الابتداعَ فِي الدِّينِ رادٌّ للعملِ، فكيفَ لَا يُردُّ وقدْ قالَ اللهُ تعالَى: " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا"[المائدة: 3] قالَ عليُّ بنُ أبِي طلحةَ، عنِ ابنِ عبَّاسَ قولهُ: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) وهوَ الإسلامُ، أخبرَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ والمؤمنينَ أنَّهُ أكملَ لهمُ الإيمانَ، فلَا يحتاجونَ إلَى زيادةٍ أبدًا، وقدْ أتمَّهُ اللهَ فلَا ينقصهُ أبدًا، وقدْ رضيهُ اللهَ فلَا يسخطهُ أبدًا(12). اهـ

فالدِّينُ قدِ اكتملَ فمَا زادَ منْ زادَ فِي الدِّين إلَّا بهوَى نفسهِ، وهوَ فِي نفسِ الوقتِ يتَّهمُ أبَا القاسمَ ﷺ بإحدَى ثلاثٍ: إمَّا أنَّ الرَّسولَ ﷺ ينقصهُ العلمُ، أوْ أنَّه نسيَ شيأً منَ الدِّينِ فلمْ يبلِّغهُ، أوْ أنَّهُ خانَ الرِّسالةَ، وفِي الثَّلاثةِ المبتدعُ كاذبٌ، فالرَّسولُ ﷺ أعلمُ أهلِ الأرضِ ودليلهُ قولهُ تعالَى: "عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى"[النجم: 5] والمَعْنِيُّ بشديدِ القوَى هوَ جبريلُ ﷺ فإنْ كانَ الرَّسولُ ينقصهُ علمٌ فجبريلُ كذلكَ لأنَّهُ مُعلِّمهُ، وهذَا محالٌ، كمَا أنَّ الرَّسولَ ﷺ لَا ينسَى العلمَ بأمرِ اللهِ تعالَى، قالَ تعالَى: "سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ"[الأعلى: 6] قالَ الطبريُّ: عنْ مجاهدٍ، قولهُ: (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى) قالَ: كانَ يتذكَّرُ القرآنَ فِي نفسهِ مخافةَ أنْ ينسَى، فقالَ قائلُوا هذهِ

المقالةِ: معنَى الاستثناءِ فِي هذَا الموضعِ علَى النِّسيانِ، ومعنَى الكلامِ: فلَا تنسَى، إلَّا مَا شاءَ اللهُ أنْ تنساهُ، ولَا تذكُرَهُ، قالُوا: ذلكَ هوَ مَا نسخهُ اللهُ منَ القرآنِ، فرفعَ حكمهُ وتلاوتهُ(13).

كمَا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ مشهورٌ بالصِّدقِ والأمانةِ منْ قبلِ بعثتهِ، فكيفَ وهوَ سيِّدُ المرسلينَ، ففِي الصَّحيحينِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَا بدأَ يجهرُ بدعوتهِ سألَ النَّاسَ: ... لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، وفِي روايةٍ: مَا جربنَا عليكَ كذبًا(14).

وقدْ أُثرَ عنِ الإمامِ مالكٍ رحمهُ اللهُ تعالَى أنَّهُ قالَ: منِ ابتدعَ فِي الإسلامِ بدعةً يراهَا حسنةً، فقدْ زعمَ أنَّ محمَّدًا ﷺ خانَ الرِّسالةَ، لأنَّ اللهَ تعالَى يقولُ: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ" فمَا لمْ يكنْ يومئذٍ دينًا فلَا يكونُ اليومَ دينًا(15). اهـ

فكلُّ عملٍ لمْ تتوفَّرْ فيهِ الشُّروطُ السَّابقةُ فهوَ غيرُ مقبولٍ، فاللهُ تعالَى لَا يقبلُ العملَ منَ الكافرِ، قالَ تعالَى: "وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ" [المائدة:5].

وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا قالتْ: يَا رسولَ اللهِ، إنَّ ابنَ جدعانَ كانَ فِي الجاهليةِ يصلُ الرَّحمَ ويطعمُ المسكينَ فهلْ ذاكَ نافعهُ؟ قالَ: لَا ينفعهُ، إنَّهُ لمْ يقلْ يومًا ربِّ اغفرْ لِي خطيئتِي يومَ الدِّينِ(16).

فالإسلامُ شرطٌ لقبولِ العملِ الصالحِ والإثابةِ عليهِ فِي الدَّارِ الآخرةِ، قالَ تعالَى: "وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ" [التوبة: 54].

كمَا أنَّ اللهَ تعالَى لَا يقبلُ عملًا بلَا إخلاصٍ، ونقيضُ الإخلاصِ هو الشِّركُ، قالَ تعالَى: وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [الزمر:65].

وقالَ ﷺ فِي مَا يرويهِ عنْ ربِّهِ تعالَى: "أنَا أغنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ، منْ عملَ عملًا أشركَ فيهِ معِي غيرِي تركتهُ وشركهُ"(17)، وفِي روايةِ ابنِ ماجهْ: "فأنَا منهُ بريءٌ وهوَ للذِي أشركَ".

كمَا أنَّ اللهَ تعالَى لَا يقبلُ عملًا ليسَ علَى هدي محمَّد ﷺ، ودليلهُ قولهُ ﷺ: "مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ"(18).

والبدعةُ شرُّهَا عظيمٌ وقدْ حذَّرَ منهَا الرَّسولُ ﷺ والصَّحابةُ رضوانُ اللهِ عليهمْ والأئمَّةُ رحمهمُ اللهُ تعالَى، قالَ الإمامُ الأوزاعيُّ: اتَّقُوا اللهَ معشرَ المسلمينَ، واقبلُوا نصحَ النَّاصحينَ، وعظةَ الواعظينَ، واعلمُوا أنَّ هذَا العلمَ دينٌ فانظرُوا مَا تصنعونَ وعمَّنْ تأخذونَ وبمنْ تقتدونَ ومنْ علَى دينكمْ تأمنونَ، فإنَّ أهلَ البدعِ كلَّهمْ مبطلونَ أفّاكونَ آثمونَ لَا يرعوونَ ولَا ينظرونَ ولَا يتَّقونَ... إلَى أنْ قالَ: فكونُوا لهمْ حذرينَ متَّهمينَ رافضينَ مجانبينَ، فإنَّ علماءكمُ الأوَّلينَ ومنْ صلحَ منَ المتأخِّرينَ كذلكَ كانُوا يفعلونَ ويأمرونَ(19).

(1) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، صفحة 145، جزء 4 - بتصرّف.
(2) معجم المعاني.
(3) "التفسير المطول - سورة النحل 016 - الدرس (20-21): تفسير الآيات 97 – 112، عن العمل الصالح"، موسوعة النابلسي، 12-6-1987، اطّلع عليه بتاريخ 14-4-2017. بتصرّف.
(4) مختار الصحاح - 5/ 1952 - و"لسان العرب 12/ 293.
(5) الأصول الثّلاثة لحمد بن عبد الوهاب.
(6) الألوكة – تعريف الإسلام – الشيخ محمد طه شعبان.
(7) من حديث جبريل أخرجه مسلم.
(8) الألوكة – تعريف الإسلام – الشيخ محمد طه شعبان. بتصرف.
(9) كتاب الإخلاص – عبد العزيز عبد اللطيف.
(10) مسلم - 1718.
(11) رواه البخاري (6212) ومسلم (2290).
(12) تفسير ابن كثير.
(13) تفسير الطبري.
(14) البخاري ومسلم.
(15) الاعتصام - للشاطبى: ج - 1 / ص: 49.
(16) رواه مسلم.
(17) رواه مسلم.
(18) رواه مسلم.
(19) تاريخ دمشق 362/6.

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ: إنَّ للهِ ملائكةً يطلبونَ حلقَ الذِّكرِ، فانظرْ معَ منْ يكونُ مجلسكَ، لَا يكونُ معَ صاحبِ بدعةٍ فإنَّ اللهَ تعالَى لَا ينظرُ إليهِمْ، وعلامةُ النِّفاقِ أنْ يقومَ الرَّجلُ ويقعدَ معَ صاحبِ بدعةٍ، وأدركتُ خيارَ النَّاسِ كلَّهمْ أصحابُ سنَّةٍ وهمْ ينهونَ عنْ أصحابِ البدعةِ[1].

وعنِ ابنِ مسعودٍ قالَ: يأتِي علَى النَّاسِ زمانٌ تكونُ السنَّةُ فيهِ بدعةٌ والبدعةُ فيهِ سنَّةٌ والمعروفُ منكرًا والمنكرُ معروفًا وذلكَ إذَا تبعُوا واقتدُوا بالملوكِ والسَّلاطينِ فِي دنياهمْ[2].

وعنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يقولُ فِي خطبتهِ: "أمَّا بعدُ، فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرُ الهديِ هديُ محمَّدٍ ﷺ وشرَّ الأمورِ محدَثاتهَا وكلَّ بدعةٍ ضلالةٍ"[3].

---

(1) حلية الأولياء 104/8.

(2) رواه ابن وضاح – البدع والنَّهي عنها – سنده معضل فقد رواه زهير بن عابد وبينه وبين ابن مسعود 206 سنة - وقال ابن عبد البر بعد حديث ذكره من روايه محمد بن وضاح عن زهير بن عباد عن بشر بن الحارث: هذا الحديث وإن كان ضعيف لضعف زهير بن عباد فإن فيه ما تسكن إليه النفس من جهة اشتهار الحديث عند جماعة.

(3) رواه مسلم.

اقترانُ الإيمانِ بالعملِ الصالحِ:

تكرَّرتْ جملةُ: (الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) في القرآن (51) مرَّةً.

وهذهِ الجملةُ هيَ الصِّيغةُ، وهيَ معظمُ مَا اقترنَ بهِ الإيمانُ معَ العملِ الصَّالحِ فِي صيغِ الاقترانِ بينهمَا، والتِي بلغتْ (69) مرَّة[1].

وهذَا الاقترانُ يدلُّ علَى ارتباطهمَا الوثيقِ وتلازمهمَا المستمرِّ، فلَا إيمانَ بدونِ عملٍ صالحٍ يعبِّرُ عنهُ ويبرهنُ عليهِ، ولَا قيمةَ للعملِ الصَّالحِ بدونِ إيمانٍ يقومُ عليهِ ويركنُ إليهِ، فالإيمانُ بدونِ عملٍ كالشَّجرِ بلَا ظلٍّ ولَا ثمرٍ، والعملُ الصَّالحُ بدونِ إيمانٍ كالجسدِ بلَا روحٍ[2].

المقصودُ بالعملِ الصَّالحِ: مَا أحبَّهُ اللهُ تعالَى ورسولهُ ﷺ، وهوَ المشروعُ المسنونُ.

ولهذَا كانَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ فِي دعائهِ: اللَّهمَّ اجعلْ عملِي كلَّهُ صالحًا، واجعلهُ لوجهكَ خالصًا، ولَا تجعلْ لأحدٍ فيهِ شيئًا[3].

وقالَ ابنُ عاشورٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: العملُ الصالحُ: هوَ العملُ الذِي يصلحُ عاملهُ فِي دينهِ ودنياهُ صلاحًا لَا يشوبهُ فسادٌ، وذلكَ العملُ الجارِي علَى وفقِ مَا جاءَ بهِ الدِّينُ[4].

والعملُ الصَّالحُ واسعُ الدَّائرةِ إلَى حدٍّ يشملُ كلَّ شيءٍ فِي الحياةِ تباشرهُ باسمِ اللهِ، ولقدْ عدَّ الإسلامُ أعمالًا كثيرةً صالحةً لمْ تكنْ تخطرُ ببالِ النَّاسِ أنْ يجعلهَا عملًا صالحًا وقربةً إلَى اللهِ تعالَى، فجعلَ كلَّ عملٍ يمسحُ بهِ الإنسانُ دمعةَ محزونٍ، أوْ يخفِّفُ بهِ كربةَ مكروبٍ، أوْ يشدُّ بهِ أزرَ مظلومٍ، أوْ يقيلُ بهِ عثرةَ مغلوبٍ، أوْ يقضِي بهِ دينَ غارمٍ مثقلٍ، أوْ يهدِي حائرًا أوْ يعلِّمَ جاهلًا، أوْ يدفعَ شرًا عنْ مخلوقٍ، أوْ أذًى عنْ طريقٍ، أوْ يسوقَ نفعًا إلَى كلِّ ذِي كبدٍ رطبةٍ...جعلَ

كلَّ ذلكَ عملًا صالحًا مَا دامتِ النيَّةُ فيهِ خالصةً لوجهِ اللهِ الكريمِ(5).

وممَّا يُستنبطُ منِ اقترانِ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ:

أنَّ الإيمانَ علمٌ وأسٌّ والعملُ بناءٌ، ولَا غناءَ للأسِّ مَا لمْ يكنْ بناءً، كمَا لَا بناءَ مَا لمْ يكنْ لهُ أسٌّ، فإذًا حقَّهمَا أنْ يتلازمَا لذَا قرنَ بينهمَا.

كمَا أنَّ الغالبَ فِي اقترانِ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، الحديثُ بصيغةِ الجمعِ (الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وهذهِ الصِّياغةُ جاءتْ جمعًا فِي المتحدِّثِ عنهمْ وعنْ أعمالِهمْ، فهمْ جماعةٌ تبنُّوا تصوُّرًا واحدًا، وأسَّسُوا علَى هذَا التصوُّرِ أعمالًا صالحاتٍ فِي جميعِ مناحِي الحياةِ، يصحُّ أنْ تقومَ عليهَا نهضةٌ حضاريَّةٌ، يقودُ بهَا أهلُ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ الأمَّةَ إلَى الخيرِ والصَّلاحِ، وكيفَ لَا وهؤلاءِ الذِينَ جمعُوا بينَ الإثنينِ، الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، فانجرَّ عنْ ذلكَ أنْ جُمعتْ فيهمْ كلُّ المواصفاتِ الحميدةِ، فهمْ أهلُ الصبرِ وأهلُ التَّقوَى، وهمْ أهلُ الأخلاقِ والحياءِ وهمْ أهلُ العلمِ والحكمةِ، وهمْ أهلُ الاجتهادِ والبناء والتقدُّمِ وسيرُ السَّلفِ خيرُ دليلٍ علَى ذلكَ.

كمَا ترتَّبَ علَى الإيمانِ والعملِ الصَّلاحِ الفلاحُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، كمَا قالَ تعالَى: "فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ"[القصص: 67]، أي: النَّاجحينَ بالمطلوبِ، النَّاجينَ منَ المرهوبِ(6)، الفائزينَ بمطالبهمْ منْ سعادةِ الدَّارينِ(7).

15 انظر: المعجم المفهرس، عبد الله جلغوم ١/ ١٨٢- ١٨٧.
16 يتيمة الدهر في تفسير سورة العصر، الشرقاوي ص ٣٦.
17 مجموع الفتاوى ١/ ١٩٤.
18 تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ص ٣٨١٨.
19 العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي ص ٥٧ بتصرف يسير.
20 تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٦٢٢.
21 فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢١١.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وكذلكَ أمرَ اللهُ تعالَى بالتَّقوَى، ومدحَ المتَّقينَ، ورتَّبَ علَى التَّقوَى حصولِ الخيراتِ، وزوالِ المكروهاتِ.
والتَّقوَى الكاملةُ: امتثالُ أمرِ اللهِ تعالَى وأمرِ رسولهِ ﷺ، واجتنابِ نهيهمَا وتصديقِ خبرهمَا.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ التَّقوَى فِي كتابهِ الكريمِ فِي كثيرٍ منَ المواضعِ وأمرَ بهَا، ووعدَ المتَّقينَ حسنَ المآبِ، وقالَ سبحانهُ:

"وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ" [البقرة: 197].

وقالَ تعالَى: "فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ" [البقرة: 24].

وقالَ جلَّ جلالهُ: "وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ" [البقرة: 41].

وقالَ جلَّ علَا: "وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا" [البقرة: 48].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: "وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" [البقرة: 212].

وقالَ سبحانهُ: "لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" [آل عمران: 15].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: "بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" [آل عمران: 76].

والتَّقوَى لغةً: الوقايةُ، ومصدرهُ: وقاءٌ، بمعنَى حفْظُ الشَّيءِ عمَّا يؤذيهِ، ومنهُ: قولهُ تعالَى: (وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)[الدخان: 56].

ومنهُ قولُ النَّابغةِ الذِّبيانِي(1):

سقطَ النَّصيفُ ولمْ تردْ إسقاطهُ * فتناولتهُ واتَّقتنَا باليدِ.

وفِي الاصطلاحِ: للتَّقوَى أكثرُ منْ عشرةِ تعاريفَ: ومنْ أحسنِ التَّعريفاتِ مَا قالَ طلقُ بنُ حبيبٍ: إذَا وقعتِ الفتنُ، فأطفئوهَا بالتَّقوَى، قالُوا: ومَا التَّقوَى؟ قالَ: هيَ أنْ تعملَ بطاعةِ اللهِ علَى نورٍ منَ اللهِ رجاءَ رحمةِ اللهِ، والتَّقوَى تركُ معاصِي اللهِ علَى نورٍ منَ اللهِ مخافةَ عذابِ اللهِ(2).

ومعنَى قولكَ: اتَّقِ اللهَ: أي: اجعلْ بينكَ وبينَ عذابِ اللهِ تعالى وقايةً، بالاتمار بأوامرهِ والانتهاءِ بنواهيهِ، ومنهُ: قولُ النَّبيِّ ﷺ: "اتَّقُوا النَّارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ"(3).

---

(1) رواه البخاري (1413)، ومسلم (2347) عن عدي بن حاتم.

(2) هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة 535 – 604 م. شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها. وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره على النابغة.

(3) رواه ابن أبي شيبة في "مصنفه".

وللتَّقوَى أقسامٌ ثلاثةٌ منْ أتَى بهَا كلَّها إكتملتْ تقواهُ:

1) تقوَى عنِ الشِّركِ، 2) وتقوَى عنِ البدعِ، 3) وتقوَى عنِ المعاصِي الفرعيَّةِ، ولقد ذكرهَا الله تعالَى فِي آيةٍ واحدةٍ وهيَ قولهُ تعالَى: "لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقُوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقُوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقُوا وَّأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"[المائدة: 93]

فالتَّقوَى الأولَى هيَ عنِ الشِّركِ، والإيمانِ الذِي فِي مقابلتهَا هوَ التَّوحيدُ.

والتَّقوَى الثَّانيةُ منَ البدعةِ، والإيمانِ الذِي ذُكرَ معهَا هوَ إقرارُ عقودِ السُّنَّةِ والجماعةِ.

والتَّقوَى الثَّالثةُ عنِ المعاصِي الفرعيَّةِ، فقابلها بالإحسانِ الذِي هوَ فعلُ المندوباتِ.

وقالَ الطَّبرِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ هذهِ الآيةِ:

قالَ أبُو جعفرُ: يقولُ تعالَى ذكرهُ للقومِ الذينَ قالُوا إذْ أنزلَ اللهُ تحريمَ الخمرِ بقولهِ: (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ): كيفَ بمنْ هلكَ منْ إخواننَا وهمْ يشربونهَا؟ وبنَا وقدْ كنَّا نشربهَا؟ "ليسَ علَى الذينَ آمنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ منكمْ حرجٌ فيمَا شربُوا منْ ذلكَ فِي الحالِ التِي لمْ يكنِ اللهُ تعالَى حرَّمهُ عليهمْ" (إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)، يقولُ: "إذَا مَا اتَّقَى اللهَ الأحياءُ منهمْ فخافوهُ، وراقبوهُ فِي اجتنابهمْ مَا حرَّمَ عليهمْ منهُ، وصدَّقُوا اللهَ ورسولهُ فيمَا أمراهمْ ونهياهمْ، فأطاعوهمَا فِي ذلكَ كلِّهِ" (وعملُوا الصَّالحاتِ)، يقولُ: "واكتسبُوا منَ

الأعمالِ مَا يرضاهُ اللهُ فِي ذلكَ ممَّا كلَّفهمْ بذلكَ ربُّهمْ" (ثمَّ اتَّقُوا وَآمنُوا)، يقولُ: "ثمَّ خافُوا اللهَ وراقبوهُ باجتنابِهمْ محارِمهِ بعدَ ذلكَ التَّكليفِ أيضًا، فثبتُوا علَى اتِّقاءِ اللهِ فِي ذلكَ والإيمانِ بهِ، ولمْ يغيِّرُوا ولمْ يبدِّلُوا" (ثُمَّ اتَّقُوا وأَحْسَنُوا)، يقولُ: "ثمَّ خافُوا اللهَ، فدعاهمْ خوفُهمُ اللهَ إلَى الإحسانِ، {وذلكَ الإحسانُ}، هوَ العملُ بمَا لمْ يفرضهُ عليهمْ منَ الأعمالِ، ولكنَّهُ نوافلُ تقرَّبُوا بهَا إلَى ربِّهمْ طلبَ رِضاهُ، وهربًا منْ عقابهِ" (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)، يقولُ: "واللهُ يحبُّ المتقرِّبينَ إليهِ بنوافلِ الأعمالِ التِي يرضاهَا".

فالاتِّقاءُ الأوَّلُ: هوَ الاتقاءُ بتلقِّي أمرِ اللهِ بالقَبُولِ والتَّصديقِ، والدَّينونةِ بهِ والعمَلِ، والاتِّقاءُ الثَّانِي: الاتِّقاءُ بالثَّباتِ علَى التَّصديقِ، وتركِ التَّبديلِ والتَّغييرِ، والاتقاءُ الثَّالثُ: هوَ الاتقاءُ بالإحسانِ، والتقرُّبِ بنوافلِ الأعمالِ(1). ا هـ

ولذلكَ حرصَ إمامنَا السَّعدِي علَى إظهار كمالِ التَّقوَى، بقولهِ: "والتَّقوَى الكاملةُ" لأنَّ المطلوبَ منَ المسلمِ هوَ التَّقوَى الكاملةُ، فمنَ النَّاسِ منْ يتَّقِي الكفرَ وكبائرَ الذُّنوبِ إلَّا إنَّهُ لَا يتورَّعُ عنِ الصَّغائرِ ولَا يكثرُ منَ النَّوافلِ، فهذَا تقوتهُ غيرُ كاملةٍ، ولَا شكَّ أنَّهُ أقربُ للنَّجاةِ لقولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: "إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا" [النساء: 31] **وقولهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "الصَّلواتُ الخمسُ والجمعةُ إلَى الجمعةِ ورمضانُ إلَى رمضانَ مكفِّراتٌ لمَا بينَهنَّ مَا اجتنَبتِ الكبائرُ(2)(3).**

---

(1) تفسير الطبري.
(2) رواه مسلم والترمذي.
(3) التَّقوى الدرَّة المفقودة والغاية المنشودة – الدكتور أحمد فريد - بتصرف.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وإذَا جمعَ اللهُ بينَ التَّقوَى والبرِّ ونحوهِ، كانتِ التَّقوَى اسمًا لتوقِّي جميعِ المعاصِي، والبرَّ اسمًا لفعلِ الخيراتِ، وإذَا أُفردَ أحدهمَا، دخلَ فيهِ الآخرُ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ عرَّفَ اللهُ تعالَى البرَّ بقولهِ "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" [البقرة: 177].

فقدْ عرَّفَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى البرَّ الكاملَ فِي هذِهِ الآيةِ الكريمةِ وبجميعِ أنواعهِ.

قالَ الثَّوريُّ: (وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ) الآيةُ، قالَ: هذهِ أنواعُ البرِّ كلِّهَا. وصدقَ رحمهُ اللهُ؛ فإنَّ منِ اتَّصفَ بهذِهِ الآيةِ، فقدْ دخلَ فِي عرَى الإسلامِ كلِّهَا، وأخذَ بمجامعِ الخيرِ كلِّهِ، وهوَ الإيمانُ باللهِ، وهوَ أنَّهُ لَا إلهَ إلَّا هوَ، وصدقَ بوجودِ الملائكةِ الذينَ همْ سفرةٌ بينَ اللهِ ورسلهِ والكتابِ وهوَ اسمُ جنسٍ يشملُ الكتبَ المنزَّلةَ منَ السماءِ علَى الأنبياءِ، حتَّى خُتمتْ بأشرفهَا، وهوَ القرآنُ المهيمنُ علَى مَا قبلهُ منَ الكتبِ، الذِي انتهَى إليهِ كلُّ خيرٍ، واشتملَ علَى كلِّ سعادةٍ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، ونسخَ اللهُ بهِ كلَّ مَا سواهُ منَ الكتبِ قبلهُ، وآمنَ بأنبياءِ اللهِ كلِّهمْ منْ أوَّلهمْ إلَى خاتمهمْ محمَّدٌ صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهِ وعليهمْ أجمعينَ(1).

والبرُّ مَا عرَّفهُ رسولُ اللهِ ﷺ بقولهِ: "البرُّ حسنُ الخلقِ، والإثمُ مَا حاكَ فِي نفسكَ، وكرهتَ أنْ يطَّلعَ عليهِ النَّاسُ"(2).

والبِرُّ لغةً: هوَ الصِّدقُ والطَّاعةُ والخيرُ والفضلُ، وبَرَّ يَبَرُّ، إذا صَلَحَ، وبَرَّ فِي يمينـهِ يَبَرُّ، إذَا صدَّقهُ ولمْ يحنثْ، وبَرَّ رحمهُ يَبَرُّ، إذَا وصلهُ. ويقالُ: فلانٌ يَبَرُّ ربَّهُ ويتبرَّرهُ، أي: يطيعهُ، ورجلٌ بَرٌّ بذِي قرابتهِ، وبارٌّ: منْ قومٍ بررةٍ وأبرارٍ، والمصدرُ: البِرُّ، والبَرُّ: الصَّادقُ أوِ التَّقيُ وهوَ خلافُ الفاجرِ، والبِرُّ: ضدُّ العقوقِ. وبَرِرْتُ والدِي بالكسرِ، أَبَرُّهُ برًّا، وقد بَرَّ والدهُ يَبَرُّهُ ويَبِرُّهُ بِرًّا... وهوَ بَـرٌّ بهِ وبارٌّ... وجمعُ البَرِّ الأبرارُ، وجمعُ البَارِّ البَرَرَةُ(3).

ومنَ التَّعريفِ اللُّغوِي للبرِّ نرَى أنَّ التَّقوَى شرطٌ فِي البرِّ ودرجةٌ منْ درجاتِه، وهوَ الحدُّ الزَّائدُ علَى التَّقوَى، لقولـهِ تعالَى: "لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ"[آل عمران: 92]، قالَ أبُو جعفرٍ الطبرِي فِي تأويلهِ: "لَنْ تَنَالُوا أيُّهَا المؤمنونَ جنَّةَ ربِّكمْ حتَّى تنفقُوا ممَّا تحبُّونَ، وتتصدَّقُوا ممَّا تحبُّونَ، وتنفقُوا ممَّا يعجبكمْ، وممَّا تهوُونَ منْ أموالكمْ"(4).

والبرِّ اصطلاحًا: قالَ المناوِي: البِرُّ بالكسرِ أي: التوسُّعُ فِي فعلِ الخيرِ، والفعلِ المرضِي، الذِي هوَ فِي تزكيةُ النَّفسِ... يقالُ: بَرَّ العبدُ ربَّهُ، أي: توسَّعَ فِي طاعتهِ... وبِرُّ الوالدِ: التَّوسُّعُ فِي الإحسانِ إليهِ، وتحرِّي محابِّهِ، وتوقِّي مكارهِهِ، والرِّفقُ بهِ، وضدُّهُ: العقوقُ، ويستعملُ البِرُّ فِي الصِّدقِ، لكونـهِ بعضُ الخيرِ المتوسَّعِ فيهِ(5).

قالَ القاضِي المهدِي: والبِرُّ: هوَ الصِّلةُ، وإسداءُ المعروفِ، والمبالغةُ فِي الإحسانِ(6).

والبرُّ فِي الحقيقةِ درجةٌ أعلَى منَ التَّقوَى؛ فهوَ التوسُّعُ فِي أعمالِ الخيرِ فوقَ الواجباتِ حتَّى بداياتِ مرتبةِ الإحسانِ.

فنوافلُ الصَّلاةِ فوقَ أداءِ الصَّلوات المفروضةَ هيَ منْ مرتبةِ البرِّ، وبذلُ الصَّدقاتِ فوقَ أداءِ الزَّكاةِ الواجبةِ هيَ منْ مرتبةِ البرِّ، ولفضلِ مرتبةِ البرِّ علَى التَّقوَى، جاءَ فِي الكتابِ العزيزِ

تقديمُ البرِّ علَى التَّقوَى(7)، لقولِهِ تعالَى: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" [المائدة: 2] فمنَ العلماءِ منْ فسَّرَ البرَّ فِي الآيةِ الكريمةِ بالأمرِ، والتقوَى بالنهيِ(8)، ومنهمْ منْ قالَ: البرُّ: فعلُ الخيراتِ، والتَّقوَى: تركُ المنكراتِ(9).

العلاقةُ بينَ البرِّ والتَّقوَى:

نُلاحظُ هذهِ العلاقةَ فِي قولِهِ تعالَى: "لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" [البقرة: 177].

لقدْ بدأتِ الآيةُ الكريمةُ بالحديثِ عنْ حقيقةِ البرِّ، ثمَّ ذيَّلتْ بالحديثِ عنِ التَّقوَى، وذلكَ لبيانِ أنَّهُ لنْ يقومَ أحدٌ بفعلِ أعمالِ البرِّ الجليلةِ حتَّى يتحقَّقَ قبلَ ذلكَ بمرتبةِ التَّقوَى، وهيَ شرطٌ رئيسٌ للبرِّ، ومرحلةٌ سابقةٌ لهُ ومتقدِّمةٌ عليهِ، فمنْ لمْ يتَّقِ اللهَ تعالَى فِي عملِهِ بفعلِ مَا أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ وتركَ مَا نهَى عنهُ، لنْ يقبلَ اللهُ جلَّ ذكرهُ منهُ الأعمالَ الزَّائدةَ علَى الواجبِ منْ أعمالِ البرِّ؛ فالمرتبةُ الدُّنيَا شرطٌ للارتقاءِ إلَى المرتبةِ العليَا، وبياناً لذلكَ قالَ اللهُ تعالَى: "وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" [البقرة: 189]،

ومعنَى الآيةِ الكريمةِ أنَّ إتيانَ المحرمِ بالحجِّ أوِ العمرةِ البيوتَ منْ ظهورِهَا ليسَ منَ البرِّ أصلاً، فهيَ بدعةٌ لَا أساسَ لهَا فِي الدِّينِ، وزيادةٌ علَى الواجبِ غيرِ مشروعةٍ، ثمَّ بيَّنَ تقدَّستْ أسماؤهُ أنَّ البرَّ المقبولَ عندهُ، والذِي يكونُ بفعلِ

خيراتٍ وعباداتٍ زائداتٍ علَى الواجبِ، هوَ البرُّ الذِي يكونُ منَ المتَّقِي؛ فمنْ كانَ متحقِّقاً بمرتبةِ التَّقوَى فِي العملِ قُبلتْ منهُ زوائدُ العباداتِ والطَّاعاتِ المشروعةِ، قالَ تعالَى: "إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْـمُتَّقِينَ"[المائدة: 27]، واعتُبرتْ لهُ فِي صحيفةِ أعمالِ البرِّ، وهذَا مَا يُفهمُ منْ قولهِ تعالَى: "وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى"[البقرة: 189]، أي: ولكنَّ البرَّ المقبولَ عندَ اللهِ تعالَى هوَ برُّ منِ اتَّقَى(10).

وفِي هذَا السِّياقِ قالَ ابنُ القيِّم رحمهُ اللهُ تعالَى: "البرُّ والتَّقوَى كلاهمَا يتضمَّنُ أجزاءً منَ الإيمانِ وأركاناً منَ الإسلامِ، لكنْ مَا يخصُّ منهَا القلبَ يسمَّى بالتَّقوَى، ومَا يخصُّ الجوارحَ يسمَّى البرَّ؛ فالتَّقوَى برُّ القلبِ، والبرُّ تقوَى الجوارحِ... وشأنُ البرِّ والتَّقوَى كشأنِ الإيمانِ والإسلامِ، كلٌّ منهَا يدخلُ فِي مسمَّى الآخرِ إمَّا تضمُّناً أوْ لزوماً، وكونُ أحدهمَا لَا يدخلُ فِي الآخرِ عندَ الاقترانِ لَا يدلُّ علَى أنَّهُ لَا يدخلُ فيهِ(11).

(1) تفسير ابن كثير.

(2) رواه مسلم.

(3) لسان العرب لابن منظور (51/4)، المصباح المنير للفيومي (43/1).

(4) جامع البيان للطبري.

(5) التوقيف على مهمَّات التعاريف للمناوي (ص 122).

(6) صيد الأفكار للقاضي المهدي (302/2).

(7) عبد الرحمن حبنكة الميداني: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، ص443-444.

(8) الطبري: جامع البيان، 2684/4.

(9) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 9/2.

(10) عبد الرحمن حبنكة الميداني: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل.

(11) ابن القيم: الرسالة التبوكية، ص31.

وكلُّ مَا سبقَ هوَ تفسيرٌ لقولِ الشَّيخ السَّعدِي رحمه الله تعالَى: "وإذَا جمعَ اللهُ بينَ التَّقوَى والبرِّ ونحوهِ، كانتِ التَّقوَى اسمًا لتوقِّي جميعِ المعاصِي، والبرَّ اسمًا لفعلِ الخيراتِ"، وأمَّا قولهُ: "وإذَا أُفردَ أحدهمَا، دخلَ فيهِ الآخرُ" أي إذَا جاءَ لفظُ البرِّ أوِ التَّقوَى متفرِّقانِ فِي القرآنِ يدخلُ أحدهمَا فِي الآخرِ فِي المعنَى، منهُ قولهُ تعالَى: "لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ"[آل عمران: 93] وقولهُ تعالَى: "لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ"[البقرة: 177] وقولهُ تعالَى: "أَتَأْمُرُونَ بِالبِرِ وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ"[البقرة: 44]، أوَّلًا وردَ لفظُ البرِّ عندَ مقاتلٍ علَى ثلاثةِ وجوهٍ، الوجهُ الأوَّلُ: البرُّ بمعنَى الصِّلةِ منهَا قولهُ تعالَى: "لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُونَكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ"[الممتحنة: 8] وهنَا البرُّ بمعنَى الصِّلةِ أي أنْ تصلوهمْ.

والوجهُ الثَّانِي: البرُّ بمعنَى الطَّاعةِ، منهَا قولهُ تعالَى: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى"[المائدة: 2] وهنَا البرُّ بمعنَى الطَّاعةِ، أي تعاونُوا علَى الطَّاعةِ والتَّقوَى.

والوجهُ الثَّالثُ: البرُّ بمعنَى التَّقوَى منهَا قولهُ تعالَى: "لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ"[آل عمرانَ: 92](1)، ومرادنَا هوَ الوجهُ الأخيرُ وهو البرُّ بمعنَى التَّقوَى، وهذَا معنَى قولِ الشَّيخِ رحمهُ اللهُ تعالَى: "وأمَّا إذَا أفردَ أحدهمَا دخلَ فيهِ الآخرِ".

---

(1) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم – دراسة وموازنة – د. سليمان بن صالح القرعاوي.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وذكرَ اللهُ الهدَى المطلوبَ فِي مواضعٍ كثيرةٍ، وأثنَى علَى المهتدِين، وأخبرَ أنَّ الهدَى بيدهِ، وأمرنَا بطلبهِ منهُ، وبالسَّعيِ فِي كلِّ سببٍ يحصلُ الهدَى، وذلكَ شاملٌ لهدايةِ العلمِ والعملِ.

فالمهتدِي: منْ عرفَ الحقَّ، وعملَ بهِ، وضدُّهُ الغيُّ والضَّلالُ، فمنْ عرفَ الحقَّ ولمْ يعملْ بهِ فهوَ الغاوِي، ومنْ جهلَ الحقَّ فهوَ الضَّالُ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الهدَى فِي كتابهِ العزيزِ فِي مواضعَ كثيرةٍ، منهَا قولهُ تعالَى: "ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ"[البقرة: 2].

وقالَ سبحانهُ: "إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ"[المائدة: 44].

وقالَ جلَّ وعلَا: "وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ"[المائدة: 46].

وأثنَى سبحانهُ علَى المهتدينَ وقالَ: "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ"[محمد: 17].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: "أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ"[البقرة: 157].

وأخبرَ سبحانهُ أنَّ الهدَى بيدهِ فقالَ تعالَى: "ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ"[الأنعام: 88].

وأمرَ سبحانهُ بطلبِ الهدَى بقولهِ: "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)[الفاتحة: 6 – 7].
~~~~~~~~~~

المعنَى اللُّغوِي للهدايةِ:

الهدايةُ: منَ الفعلِ هدَى، والهُدَى نقيضُ الضَّلالةِ[1]، وهيَ بمعنَى الرَّشادُ والدَّلالةُ[2]، والهدايةُ: دلالةٌ بلطفٍ[3]، يقالُ: هديتهُ الطَّريقَ هدايةً، أي: تقدَّمتهُ لأرشدهُ، وكلُّ متقدِّمٍ لذلكَ هادٍ، تقولُ: هديتهُ هدىً، والهاديةُ: العصَا، لأنَّهَا تقودُ ممسكهَا كأنَّهَا تُرشدهُ، ومنَ البابِ قولهمْ: نظرَ فلانٌ هديَ أمرهُ، أي: جهتهُ، ومَا أحسنَ هديتهُ، أي: هديهُ، ويقولونَ: جاءَ فلانٌ يهادَى بينَ اثنينِ، إذَا كانَ يمشِي بينهمَا معتمدًا عليهمَا، والهديَّةُ مَا أُهدِيتَ منْ لطفٍ: أي: ذِي مودَّةٍ، ويقالُ: أهديتُ أهدَي إهداءً، والهديُ: مَا يُهدَى منَ النَّعمِ إلَى الحرمِ قربةً إلَى اللهِ تعالَى[4]، ويقالُ: هُديَ فاهتدَى، ويقالُ: هُديتُ إلَى الحقِّ، وهُديتُ للحقِّ بمعنَى واحدٍ؛ لأنَّ هديتَ يتعدَّى للمهديِّينَ، والحقُّ يتعدَّى بحرفِ جرٍ، والمعنَى: اللهُ يهدِي منْ يشاءُ إلَى الحقِّ.

والهدَى: البيانُ، أو إخراجُ شيءٍ إلَى شيءٍ، أوِ الطَّاعةُ والورعُ.

المعنَى الاصطلاحِي للهدايةِ:

لَا يختلفُ المعنَى الاصطلاحِي عنِ المعنَى اللُّغوِي كثيرًا، فقدْ قالَ الجرجانِي: الهدايةُ فِي الاصطلاحِ: الدَّلالةُ علَى مَا يوصلُ إلَى المطلوبِ، وقدْ يقالُ: هيَ سلوكُ طريقٍ يوصلُ إلَى المطلوبِ[5].

وقيلَ: إنَّ الهدايةَ عندَ أهلِ الحقِّ هيَ الدَّلالةُ علَى طريقٍ منْ شأنهِ الإيصالُ، سواءٌ حصلَ الوصولُ بالفعلِ فِي وقتِ الاهتداءِ، أوْ لمْ يحصلْ[6].

ويلاحظُ أنَّ تعريفَ الجرجانِي أدقُّ، وأشملُ؛ لأنَّهُ لَا بدَّ منْ حصولِ المطلوبِ سواءٌ كانتِ الهدايةُ طريقًا للدَّلالةِ إلَى الخيرِ، أوْ إلَى غيرِهِ، كمَا أنَّ الكافرينَ يهدونَ إلَى سواءِ الجحيمِ.

الهدايةُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ مادَّةُ (هدي) فِي القرآنِ الكريمِ (316) مرَّةٍ[7].

وجاءتِ الهدايةُ فِي الاستعمالِ القرآنِي علَى أربعةِ عشرَ وجهًا[8]:

الأوَّلُ: البيانُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ۖ" [البقرة: 5]**، أي: علَى بيانٍ منْ ربِّهمْ.**

الثَّانِي: دينُ الإسلامِ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ" [الحج: 67]**، يعنِي: علَى دينِ الإسلامِ.**

الثَّالثُ: الإيمانُ والتَّوحيدُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى" [مريم: 76]**، يعنِي: يزيدُ الذينَ آمنُوا إيمانًا، وقولهُ: "وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** [القصص: 57]**، يعنِي: إنْ نتَّبعِ التَّوحيدَ معكَ.**

الرَّابعُ: الدَّاعِي: ومنهُ قولهُ تعالَى: "إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ" [الرعد: 7]**، يعنِي: داعٍ ومرشدٍ.**

الخامسُ: المعرفةُ والاسترشادُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ" [النحل: 16]**، يعنِي: يعرفونَ بهَا السَّبيلَ ويسترشدونَ.**

السَّادسُ: الرُّسل والكتبُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ"[طه: 123]، يعنَي: رسلًا وكتبًا.

السَّابعُ: الرُّشدُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ"[القصص: 22]، يعنِي: أنْ يرشدنِي.

الثَّامنُ: القرآنُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ"[النجم: 23]، يعنِي: القرآنُ.

التَّاسعُ: التَّوراةُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ"[غافر: 53]، يعنِي: التَّوراةَ.

العاشرُ: لَا يوفِّقُ إلَى الحجَّةِ ولَا يهدِي منَ الضَّلالِ: ومنهُ قولهُ تعالَى: " فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"[البقرة: 258]، يعنِي: لَا يهدِي إلَى الحجَّةِ.

الحادِي عشرَ: السنَّةُ والتَّقليدُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ"[الزخرف: 22]، يعنِي: مقتدونَ مستنُّونَ بسنَّتهمْ.

الثَّانِي عشرَ: لَا يهدِي: لَا يُصلحُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ"[يوسف: 52]، يعنِي: لَا يُصلحُ عملَ الزُّناةِ والخائنينَ.

الثَّالثُ عشرَ: الإلهامُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ"[طه: 50]، يعنِي: ثُمَّ ألهمهُ كيفَ يأتِي معيشتهُ ومرعاهُ.

الرَّابعُ عشرَ: هدنَا، يعنِي: تُبْنَا: ومنهُ قولُ موسَى عليهِ السَّلامُ: "وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ" [الأعراف: 156]، **يعنِي: تُبنَا إليكَ.**

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالهدايةِ:

الصَّلاحُ:

الصَّلاحُ لغةً:

مأخوذٌ منَ الفعلِ (صلح)، والصَّلاحُ ضدُّ الفسادِ[9].

الصَّلاحُ اصطلاحًا:

استقامةُ الحالِ وانعدالِهَا، وهوَ ممَّا يفعلهُ العبدُ لنفسهِ[10]. وهوَ معنًى عامٌ يشملُ استواءَ الأعمالِ الصَّالحةِ والأخلاقِ الحميدةِ أو تقولُ هوَ: الاستقامةِ علَى مَا توجبهُ الشَّريعةُ.

الصِّلةُ بينَ الصَّلاحِ والهدايةِ:

الهدايةُ: هيَ سلوكُ طريقٍ يوصلُ إلَى المطلوبِ، والصَّلاحُ: سلوكُ طريقِ الهدَى، والصَّلاحُ أيضًا: استقامةُ الحال ِوهوَ ممَّا يفعلهُ العبدُ لنفسهِ، ويكونُ بفعلِ اللهِ لهُ لطفًا وتوفيقًا[11]، وبذلكَ يتبيَّنُ أنَّ الهدايةَ والصَّلاحَ متلازمتانِ.

الإرشادُ:

الإرشادُ لغةً:

الرُّشدُ يستعملُ استعمالَ الهدايةِ، وهوَ خلافُ الغيِّ[12] والضَّلالِ، يقالُ: أرشدهُ اللهَ الأمرَ، أي: هداهُ، والرُّشدَ هوَ الصَّلاحُ[13].

الإرشادُ اصطلاحًا:

الإرشادُ إِلَى الشَّيءِ هوَ التَّطريقُ إليهِ والتَّبيينُ لهُ[14].

الصِّلةُ بينَ الهدايةِ والإرشادِ:

أنَّ الإرشادَ إِلَى الشَّيءِ هوَ التَّطريقُ إليهِ والتَّبيينُ لهُ، والهدايةُ هيَ التمكُّنُ منَ الوصولِ إليهِ[15].

السَّدادُ:

السَّدادُ لغةً:

الاستقامةُ[16]، وقيلَ: هوَ الصَّوابُ والقصدُ فِي القولِ والعملِ[17]، والصَّوابُ: حقٌّ مَنْ يعملُ عليهِ أنْ ينجُو، وحقٌّ منْ يعملْ علَى خلافهِ أنْ يهلكَ[18].

السَّدادُ اصطلاحًا:

هوَ القصدُ فِي الأمرِ والعدلُ فيهِ[19].

الصِّلةُ بينَ الهدايةِ والسَّدادِ:

التَّسديدُ للحقِّ لَا يكونُ إلَّا معَ طلبِ الحقِّ، فأمَّا معَ الإعراضِ عنهُ والتَّشاغلُ بغيرهِ فلَا يصحُّ[20]، وهذَا يعنِي أنَّ التَّسديدَ للهدايةِ لَا يكونُ إلَّا بطلبِ الهدايةِ، فالسَّدادُ طريقُ الهدايةِ[21].

الضَّلالُ:

الضَّلالُ لغةً:

مصدرُ (ضلَّ)، والذِي يعنِي الضَّياعَ والذَّهابَ والغيابَ، وكلُّ منْ زاغَ عنِ المطلوبِ والقصدِ يسمَّى (ضالًّا)، و(يَضَلُّ ويَضُلُّ) لغتانِ عندَ العربِ[22].

الضَّلال اصطلاحًا:

كلُّ عدولٍ عنِ المنهجِ عمدًا أو سهوًا، قليلًا كانَ أوْ كثيرًا، فهوَ ضلالٌ[23].

وقيلَ: هوَ العدولُ عنِ الصِّراطِ المستقيمِ، وهوَ ضدُّ الهدايةِ[24].

الصِّلةُ بينَ الهدايةِ والضَّلالِ:

الهدايةُ نقيضُ الضَّلالِ، فالهدايةُ: سلوكُ طريقٍ يوصلُ إلَى المطلوبِ[25].

---

(1) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٣٧٨/٦.
(2) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٣٤٥، مختار الصحاح، الرازي، ص٣١٢.
(3) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٥١٦.
(4) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٣٤٥، مختار الصحاح، الرازي، ص٣١٢.
(5) التعريفات، ص٢١٥.
(6) انظر: الكليات، الكفوي، ص٩٥٢.
(7) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الهاء، ص١٣٦٣، ١٣٦٩.
(8) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٥٥.
(9) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢٤٧٩/٤.
(10) انظر: الفروق اللغوية ص٣١٧.
(11) انظر: المصدر السابق.
(12) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٠٢.
(13) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٢١٨/٥.
(14) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٥٣٢.
(15) انظر: المصدر السابق.
(16) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٣٣.
(17) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص١٤٧.
(18) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٤٢.
(19) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٢١٢/٦.
(20) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٢٤٨.
(21) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤٥/١.
(22) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣٥٦/٣، لسان العرب، ابن منظور ٣٩٠/١١، المصباح المنير، الفيومي ٣٦٣/٢.
(23) انظر: الكليات، الكفوي، ص٥٦٧.
(24) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٠٠.
(25) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٣٩١.

وقولهُ رحمهُ اللهُ تعالَى "وذكر اللهُ الهدَى المطلوبَ..." هذَا لأنَّ للهدايةِ مراتبُ وأنواعٌ، أوَّلًا الهدايةُ لغةً: الهُدَى: الرشاد والدلالة، و"هَديتُه" الطريق والبيتَ "هدايةً"[1]وقدْ سبقَ تعريفهَا.

وأمَّا الهدايةُ شرعًا: فيجبُ تعريفهَا علَى أربعةِ أقسامٍ بحسبِ مراتبِ الهدايةِ الأربعةِ:

1) الهدايةُ العامَّةُ.

2) هدايةُ الدَّلالةِ والبيانِ، والإرشادِ.

3) هدايةُ التَّوفيقِ والإلهامِ.

4) الهدايةُ إلَى الجَنَّةِ أو إلَى النَّارِ يومَ القيامةِ.

النَّوعُ الأوَّلُ: الهدايةُ العامةُ:

وهيَ للخلقِ كلِّهمْ، قالَ تعالَى: "قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى"[طه: 50]، فهدَى اللهُ تعالَى بهذهِ الهدايةِ البشرَ والحيواناتَ وغيرهمْ إلَى مَا خلقُوا لهُ، هداهمْ إلَى عمليَّةِ الأكلِ، والشُّربِ، والتَّزاوجِ، ومعرفةِ المصالحِ الدُّنيويَّةِ، حتَّى الرَّضيعُ هداهُ اللهُ تعالَى إلَى ثديِ أمِّهِ، قالَ تعالَى: "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(3)"[الأعلى: 1-3]، قدَّرَ لكلِّ مخلوقٍ مَا يناسبهُ وهداهُ إليهِ.

وأنواعُ الهدايةِ العامَّةِ كثيرةٌ لَا يُحصِيهَا إلَّا اللهُ تعالَى، مثلَ: هدايةِ النَّحلِ إلَى سلوكِ السُّبُلِ التِي فيهَا مَراعِيهَا علَى تبايُنِهَا واختلافِهَا، ثمَّ عَوْدهَا إلَى بيوتهَا مِنَ الشَّجرِ والجبالِ ومَا

يَعْرِشُ بنُو آدمَ، قالَ تعالَى: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ"[النحل: 68]، "يعرشونَ" قالَ الطَّبرِي: يعنِي: ممَّا يبنونَ منَ السُّقوفِ، فرفعوهَا بالبناءِ(2).

وكذلكَ هدايتهُ سبحانهُ للنَّملةِ كيفَ تخرجُ مِنْ بيتهَا وتطلُبُ قُوتَهَا مِنْ هنا وهناكَ، وكيفَ خاطبَتْ أصحابَهَا، وأَمَرَتْهمْ بأنْ يدخلُوا مساكنهمْ، قالَ تعالَى: "قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"[النمل: 18]، وغيرِ ذلكَ منْ أنواعِ الهدايةِ التِي لَا يُحصيهَا إلَّا اللهُ تعالَى.

النَّوعُ الثَّانِي: هدايةُ الدَّلالةِ والبيانِ والإرشادِ:

وهذَا النوعُ هوَ وظيفةُ الرُّسلِ والكتبِ المنزَّلةِ مِنَ اللهِ تعالَى، وهوَ خاصٌّ بالمكلَّفينَ، وهذهِ الهدايةُ هيَ التِي أثبتهَا اللهُ تعالَى لرسولهِ ﷺ بقولهِ: "وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"[الشورى: 52]، وأثبتهَا اللهُ تعالَى لكتبهِ، قالَ تعالَى: "قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ (16)"[المائدة: 15 – 16] كمَا أنَّ هذَا النَّوعَ مِنَ الهدايةِ أخصُّ مِنَ التِي قبْلَهَا، فهيَ مصدرُ التَّكليفِ ومَناطُهُ، وبهَا تقومُ حُجَّةُ اللهِ تعالَى علَى عِبادهِ، فإنَّ اللهَ تعالَى لَا يُدخِلُ أحدًا النَّارَ إلَّا بعدَ إرسالِ الرُّسلِ الذِينَ يُبيِّنونَ للنَّاسِ طريقَ الغيِّ مِنَ الرَّشادِ، قالَ تعالَى: "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا"[الإسراء: 15]، وقالَ تعالَى: "أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ"[الزمر: 57]، واللهُ فِي الحقيقةِ هداهمْ إلَّا أنَّهمُ استحبُّوا الكفرَ علَى الهدَى، قالَ تعالَى: "وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ"[فصلت: 17]

وقالَ تعالَى: "رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا"[النساء: 165]، يقولُ ابنُ كثيرٍ: (أي: إنَّهُ تعالَى أنزلَ كُتبَهُ، وأرسَلَ رسُلَهُ بالبشارةِ والنذارةِ، وبيَّنَ مَا يحبُّهُ ويَرضاهُ ممَّا يكرههُ ويأباهُ؛ لئلَّا يبقَى لمُعتَذرٍ عذرٌ[3]؛ "وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى"[طه: 134].

وقدْ ثبتَ فِي الصَّحيحينِ عنِ ابنِ مسعودٍ رضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "... لَا أحدٌ أحبُّ إليهِ العُذرُ مِنَ اللهِ؛ مِنْ أجْلِ ذلكَ بعَثَ النبيِّينَ مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ"[4].

واللهُ تعالَى لمْ يمنعْ أحدًا هذهِ الهدايةَ، ولمْ يَحُلْ بينَ أحدٍ مِنْ خلْقهِ وبينَ هذهِ الهدايةِ، بلْ خلَّى بينهمْ وبينهَا، ومَنَحَهمْ مِنَ الوَسائلِ والأدواتِ التِي تُساعِدهمْ علَى تقبُّلهَا والاستِفادةِ بهَا؛ كالعقلِ والفطرةِ، وأقامَ لهمْ بذلكَ أسبابَ الهدايةِ ظاهرةً وباطنةً، ومَنْ حَرَمَهُ مِنْ خلْقهِ بعضًا مِنْ هذهِ الأدواتِ والوسائلِ؛ كزوالِ العقلِ أوِ الصِّغَرِ أوِ المرضِ، فقدْ حطَّ عنهُ مِنَ التَّكاليفِ بحسبِ مَا حرَمَهُ منْ ذلكَ؛ قالَ تعالَى: "لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ"[النور: 61]، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "رُفِعَ القلمُ عنْ ثلاثةٍ: عنِ النَّائمِ حتَّى يستَيقِظَ، وعنِ الصبيِّ حتَّى يحتلمَ، وعنِ المجنونِ حتَّى يعقلَ"[5]، كمَا اتَّفقَ رِجالُ الأصولِ علَى أنَّهُ: (إذَا رُفعتِ الأهليَّة زالتِ المسؤليَّةُ، وإذَا أُخِذَ مَا وُهبَ انقَطَعَ مَا وُجبَ).

وهذهِ الهدايةُ لَا تستَلزِمُ حُصُولَ التَّوفيقِ، واتِّباعِ الحقِّ مِنَ العِبادِ، بدليلِ أنَّ بعضَ النَّاسِ آمَنَ بدعوةِ الرُّسُلِ، وبعضهمْ كفَرَ بهَا، ولكنَّهَا سببٌ فِي حصولِ الاهتِداءِ، والسَّببُ هنَا قدِ اكتَمَلَ بإرسالِ الرُّسُلِ، ووصولِ دعوتهمْ وبلاغهمْ إلَى أُمَمِهِمْ، فلَا نقصَ فِي السَّببِ، إنَّمَا النَّقصُ يرجعُ إلَى العبدِ الذِي لمْ يَقبَلْ ولمْ يَنتَفِعْ بمَا جاءَتْ بهِ الرُّسلُ، بسببِ فسادِ الفطرةِ، وطغيانِ المادَّةِ؛ قالَ تعالَى: "وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" [فصلت: 17]، قالَ الطَّبريُّ: (أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي بيَّنَا لهمْ - بينَّا لهمْ سبيلَ الخيرِ والشرِّ - أعلمناهمْ الهدَى والضَّلالةَ، ونهيناهمْ أنْ يتَّبعُوا الضَّلالةَ، وأمرناهمْ أنْ يتَّبعُوا الهدَى، (فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) يقولُ: فاختارُوا العمَى علَى البيانِ الذِي بينتُ لهمْ، والهدَى الذِي عرَّفتهمْ، بأخذهمْ طريقَ الضَّلالِ علَى الهدَى، يعنِي علَى البيانِ الذِي بيَّنهُ لهمْ، منْ توحيدِ اللهِ(6).

---

(1) مختار الصحاح - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي.
(2) تفسير الطبري.
(3) تفسير ابن كثير.
(4) رواه البخاري ومسلم.
(5) أخرجه الترمذي (1423)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (7346)، وأحمد (956) حسَّنه البخاري كما في ((العلل الكبير)) للترمذي (226)، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه ولا نعرف للحسن سماعا عن علي، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((المسند)) (197/2)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (1423) وأخرجه من طريق آخر أبو داود (4403)، والبيهقي (5292)، والخطيب في ((الكفاية)) (ص77) صححه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4403).
(6) تفسير الطَّبري.

النَّوعُ الثالثُ: هدايةُ التَّوفيقِ والإلهامِ:

وهذهِ المرتبةُ أَخَصُّ مِنَ التِي قبلهَا، فهيَ هدايةٌ خاصَّةٌ تأتِي بعدَ هدايةِ الدَّلالةِ والبيانِ، تحقيقًا لقولهِ تعالَى: "وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى" [مريم: 76]**، وهذهِ الهدايةُ لَا تكونُ لملَكٍ مُقرَّبٍ، ولَا نبيٍّ مُرسَلٍ، إنَّمَا هيَ خاصَّةٌ باللهِ تعالَى وحدَهُ، فلَا يَقْدِرُ عليهَا إلَّا هوَ سبحانهُ، ولَا يُعطِيهَا إلَّا لِمَنْ حقَّقَ شروطهَا واستَوفَى أسبابهَا.**

قالَ تعالَى: "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" [القصص: 56]**، قالَ الطَّبري: يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: (إِنَّكَ) يَا محمَّدُ (لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) هدايتهُ (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) أنْ يهديهِ من خلقهِ، بتوفيقهِ للإيمانِ بهِ وبرسولهِ[1].**

وهذَا النَّوعُ منَ الهدايةِ يستَلزِمُ أمرَينِ:

أحدهمَا: فعْلُ الرَّبِّ تعالَى، وهوَ الهدَى بخلْقِ الدَّاعيةِ إلَى الفعْلِ والمشيئةِ لهُ.

الثَّانِي: فعْلُ العبدِ، وهوَ الاهتداءُ، وهوَ نتيجةٌ للفعلِ الأوَّلِ "فعلُ الربِّ"؛ قالَ تعالَى: "قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ" [آل عمران: 73]**، وقالَ تعالَى: "مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا"** [الكهف: 17]**، ولَا سبيلَ إلَى وجودِ الأثرِ الذِي هوَ الاهتِداءُ مِنَ العبدِ إلَّا بعدَ وُجودِ المؤثِّرِ الذِي هوَ الهدايةُ مِنَ اللهِ تعالَى، فإذَا لمْ يحصُلْ فعْلُ اللهِ تعالَى لمْ يحصُلْ فعْلُ العبدِ، وهذَا النَّوْعُ مِنَ الهدايةِ لَا يَقْدِرُ عليهِ أحدٌ إلَّا اللهُ سبحانهُ، قالَ تعالَى علَى لسانِ أهلِ الجنَّةِ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ"** [الأعراف: 43]**.**

كمَا أنَّ هذَا النَّوعَ مِنَ الهدايةِ هوَ الذِي نَفَاهُ القرآنُ عنِ الظَّالمينَ والفاسقينَ والكاذبينَ والمسرفينَ المرتابينَ، وكلُّ آيةٍ فِي القرآنِ وردَتْ فِي نفيِ الهُدَى فيجبُ حمْلُهَا علَى هذَا النَّوعِ؛ لأنَّ هذَا فضْلُهُ يختصُّ بهِ مَنْ يشاءُ مِنْ عبادهِ.

قالَ تعالَى: "إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ" [النَّحل: 37].

قالَ الطَّبريُّ: يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: إنْ تحرصْ يَا محمَّدُ علَى هدَى هؤلاءِ المشركينَ إلَى الإيمانِ باللهِ واتِّباعِ الحقِّ (فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ)[2].

النَّوعُ الرَّابعُ: الهدايةِ إلَى الجَنَّةِ والنَّارِ يومَ القيامةِ:

وهذهِ المرتبةُ، وهيَ آخِرُ مَراتِبِ الهدايةِ، وهيَ الهدايةُ يومَ القيامةِ إلَى طريقِ الجَنَّةِ، وهوَ الصِّراطُ المُوصِلُ إليهَا، وهيَ ثمرةُ الهدايةِ التِّي فِي الدُّنيَا، فمَنْ هُدِيَ فِي هذهِ الدَّارِ الدُّنيَا إلَى صراطِ اللهِ المستقيمِ الذِي أرسلَ بهِ رسُلهُ وأنزلَ بهِ كُتبهُ، هُدِيَ يومَ القيامةِ إلَى الصِّراطِ المستقيمِ المُوصِلِ إلَى جَنَّتهِ ودارِ ثوابهِ، وعلَى قدْرِ ثُبُوتِ قدَمِ العبدِ وسَيْرِهِ علَى هذَا الصِّراطِ الذِي نصَبَهُ اللهُ تعالَى لعبادهِ فِي هذهِ الدَّارِ الدُّنيَا، يكُونُ ثُبُوتُ قدَمهِ وسَيْرهِ علِى الصِّراطِ المنصوبِ علَى متْنِ جهنَّمَ يومَ القيامةِ، قالَ تعالَى: "احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (23)" [الصافات: 22، 23]**، قالَ القرطي: (فَاهْدُوهُمْ) أيْ دلُّوهمْ، يقالُ: هديتهُ إلَى الطَّريقِ، وهديتهُ الطَّريقَ، أيْ دللتهُ عليهِ[3].**

وقالَ تعالَى: "وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6)"[محمد:4- 6]، قالَ ابنُ كثير: "سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ" (سَيَهْدِيهِمْ) أَيْ إِلَى الْجَنَّةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات يَهْدِيهِمْ رَبّهمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتهمْ الْأَنْهَار فِي جَنَّات النَّعِيم"[يونس: 9] وَقَوْله عَزَّ وَجَلَّ: "وَيُصْلِح بَالهمْ " أَيْ أَمْرهمْ وَحَالهمْ[4].

وأمَّا الآيةُ التِي بعدهَا فمعطوفةٌ علَى مَا قبلهَا، وبهذَا تكونُ دلالةً علَى نوعِ الهدايةِ، "سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6)".

---

(1) تفسير الطَّبري.

(2) تفسير الطَّبري.

(3) تفسير القرطبي.

(4) تفسير ابن كثير.

أسبابُ الـهدايـةِ:

إنَّ أسباب الـهدايـةِ كثيرةٌ قدْ منَّ اللهُ بـهَا علَى عبادهِ رحمةً منهُ، منـهَا الاعتصامُ باللهِ تعالَى، والاقتداءُ بالصَّالحينَ، وتدبُّرِ القرآنِ وغيرِ ذلكَ، لكنَّ السَّببَ الرَّئيسَ فِي الـهدايـةِ هوَ اتِّباعُ رسولِ اللهِ ﷺ شبرًا بشبرٍ حتَّى يكونَ نـهارُ المسلمِ وليلهُ كنـهارِ الصَّحابةِ ولياليهمْ، فلقدْ أكرمَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى هذهِ الأمَّةَ، إذْ أرسلَ فيهمْ خاتمَ النَّبيينَ ﷺ، وأمرَ بطاعتهِ، وجعلَ اتِّباعهُ سببًا رئيسيًّا للـهدايةِ المطلوبةِ.

قالَ اللهُ تعالَى: "قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ"[النور: 54].

وليسَ ذلكَ فحسبُ بلْ إنَّ طاعةَ الرَّسولِ ﷺ هيَ طاعةُ اللهِ تعالَى، قالَ سبحانـهُ: "مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ"[النساء: 80].

واللهُ عزَّ وجلَّ قرنَ طاعةَ الرَّسولِ ﷺ بطاعتـهِ، وأنَّ فِي ذلكَ الفوزُ العظيمُ، وهذَا فِي قولـهِ تعالَى: "وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا"[الأحزاب: 71].

حتَّى أنَّ اللهَ تعالَى جعلَ القرآنَ هدايةً لمنْ يشاءُ منْ عبادهِ، وأثبتَ الـهدايةَ للنبيِّ ﷺ، فقالَ تعالَى: "وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"[الشورى: 52].

واتِّباعهُ ﷺ علامةُ حبِّ اللهِ تعالَى للعبدِ، ومغفرةِ الذُّنوبِ، قالَ سبحانهُ: " قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ "[آل عمران: 31].

والذِي يطيعُ اللهَ والرَّسولَ ﷺ يكونُ منَ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهِمْ، قالَ تعالَى: "وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا"[النساء: 69].

حتَّى إنَّ أعمالَ العبادِ لَا تُقبلُ إلَّا باتِّباعِ هديِ النبيِّ ﷺ، كمَا فِي الحديثِ: "منْ عملَ عملًا ليسَ عليهِ أمرنَا فهوَ ردٌّ"[1].

وطاعتهُ ﷺ هيَ السَّببُ الرَّئيسُ لدخولِ الجنَّةِ، قالَ ﷺ: "كلُّ أمَّتِي يدخلونَ الجنَّةَ إلَّا منْ أبَى، قالُوا: يَا رسولَ اللهِ ومنْ يأبَى، قالَ: منْ أطاعنِي دخلَ الجنَّةَ، ومنْ عصانِي فقدْ أبَى[2].

والحاصلُ أنَّ طاعةَ النبيِّ ﷺ واتِّباعهُ هيَ سببُ الهدايةِ التِي فيهَا محبَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ للعبدِ، وفيهَا مغفرةُ الذُّنوبِ، وقبولِ الأعمالِ، والفوزِ والفلاحِ، ودخولِ الجنَّةِ.

فمنْ وقعَ فِي ربقةِ التَّقليدِ، واستهوتهُ البدعةُ حتَّى صارَ منْ أهلِ التَّقييدِ، ثمَّ حارَ فِي أمرهِ فصارَ لَا يدرِي مَا يُريدُ، فلقدْ أرشدهُ الحقُّ سبحانهُ وتعالَى إلَى طلبِ الهدايةِ والتَّوفيقِ منهُ جلَّ وعلَا، وذلكَ فِي أوَّلِ سورةٍ فِي الكتابِ الكريمِ فِي قولهِ: "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"[الفاتحة: 6].

قالَ السَّعدِي: أي: دلَّنَا وأرشدنَا، ووفِّقنَا للصِّراطِ المستقيمِ، وهوَ الطريقُ الواضحُ الموصلِ إلَى اللهِ، وإلَى جنَّتهِ، وهوَ معرفةُ الحقِّ والعملُ بهِ، فاهدنَا إلَى الصِّراطِ، واهدنَا فِي

الصِّراطِ، فالهدايةُ إلَى الصِّراطِ: لزومُ دينِ الإسلامِ، وتركِ مَا سواهُ منَ الأديانِ، والهدايةُ فِي الصِّراطِ، تشملُ الهدايةَ لجميعِ التَّفاصيلِ الدِّينيَّةِ علمًا وعملًا، فهذَا الدُّعاءُ منْ أجمعِ الأدعيةِ وأنفعهَا للعبدِ، ولهذَا وجبَ علَى الإنسانْ أنْ يدعوَ اللهَ بهِ فِي كلِّ ركعةٍ منْ صلاتهِ، لضرورتهِ إلَى ذلكَ[3].

واللهُ سبحانهُ وتعالَى أمرنَا بطلبِ الهدايةِ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ فِي مَا يخبرُ بهِ عنْ ربِّهِ: قالَ اللهُ تعالَى: يَا عبادِي إنِّي حرمتُ الظُّلمَ علَى نفسِي وجعلتهُ بينكمْ محرَّمًا فلَا تظالمُوا، يَا عبادِي كلُّكمْ ضالٌ إلَّا منْ هديتهُ فاستهدونِي أهدكمْ[4].

وقدْ جاءَ فِي صحيحِ مسلمٍ أنَّ الذِي يسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ الهدايةَ يستجيبُ لهُ، ويعطيهِ مسألتهُ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ فِي مَا يخبرُ بهوَ عنْ ربِّهِ: ... فإذَا قالَ العبدُ: "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)" [الفاتحة: 6 - 7]، قالَ اللهُ تعالَى: هذَا لعبدِي ولعبدِي مَا سألَ[5].

ولَا بدَّ منْ دعاءِ اللهِ سبحانهُ وتعالَى منْ أجلِ تحقيقِ هدايةِ التَّوفيقِ، والاهتداءِ والسَّيرِ علَى منهجِ الحقِّ والعدلِ، والالتزامِ بطريقِ الاستقامةِ، والنَّجاةِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ.

وسؤالُ الهدايةِ فيهِ التأسِّي بالنبيِّ ﷺ، فمنْ دعائهِ ﷺ: "اللَّهمَ إنِّي أسألكَ الهدَى والتُّقَى والعفافَ والغنَى[6].

وقدْ أرشدنَا اللهُ تعالَى إلَى طلبِ الهدايةِ منهُ؛ ليكونَ عونًا لنَا، وينصرنَا علَى أهوائنَا، وشهواتنَا بعدَ أنْ نبذلَ مَا نستطيعُ منَ الجهدِ فِي معرفةِ أحكامِ الشَّريعةِ، ونكلِّفَ أنفسنَا الجريَ علَى سننهَا؛ لنحصلَ علَى خيريْ الدُّنيَا والآخرةِ[7].

والمسلمُ عليهِ إفرادُ اللهِ سبحانهُ وتعالَى بالعبادةِ، والاستعانةِ، والدُّعاءِ، والإرشادِ، وطلبِ العونِ والغوثِ للوصولِ إلَى الهدايةِ، وإلَى الدِّينِ الحقِّ، والصِّراطِ المستقيمِ(8).

والذينَ آمنُوا يدعونَ اللهَ عزَّ وجلَّ، ويسألونهُ الهدايةَ، فإذَا أعطوهَا دعُوا ربَّهمْ عزَّ وجلَّ أنْ يثبِّتهمْ عليهَا، ويسلِّمهمْ منَ الزَّيغِ والضَّلالِ، قالَ سبحانهُ: "رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ"[آل عمران: 8].

ويتبيَّنُ منَ الأدلَّةِ السَّابقةِ أنَّ الدُّعاءَ سببٌ منْ أسبابِ الهدايةِ، فلَا بدَّ منْ طلبهَا، وسؤالِ اللهِ تعالَى الثَّباتَ علَى الهدايةِ التِي تنجِي صاحبهَا منَ الزَّيغِ والضَّلالِ، والسَّلامةُ لَا يعدلهَا شيءٌ.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم ١٧١٨.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٧٢٨٠.

(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨.

(4) الجامع الصغير وزيادته، الألباني، ٨٠٠/٢، رقم ٤٣٤٥.

(5) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم ٣٩٥.

(6) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل،رقم ٢٧٢١.

(7) انظر: نظم الدرر، المراغي ٣٦/١.

(8) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٥٣/١.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: أمرَ اللهُ بالإحسانِ، وأثنَى علَى المحسنينَ، وذكرَ ثوابهمْ المتنوِّعَ فِي آياتٍ كثيرةٍ.

وحقيقةُ الإحسانِ: أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لمْ تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ، وأنْ تبذلَ مَا تستطيعهُ منَ النَّفعِ المالِي والبدنِي والقولِي إلَى المخلوقينَ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

فقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بالإحسانِ فِي كتابِهِ الكريمِ فِي أكثرِ منْ موضعِ، نذكرُ منهَا قولهُ تعالَى: "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" [يونس: 26].
وَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الحسنَى بأنَّهَا الجنَّةُ، والزِّيَادَةَ بِأَنَّهَا النَّظرُ إلَى وجهِ اللهِ سبحانهُ وتعالَى.
فَعَنْ صُهَيْبٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نُودُوا: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ مَوْعِدًا عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا لَمْ تَرَوْهُ، فَقَالُوا: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَتُزَحْزِحْنَا عَنِ النَّارِ، وَتُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ"، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ "[1].

وقالَ تعالَى: وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" [البقرة: 195].

وقالَ تعالَى: "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16)" [الذاريات: 15 – 16].

(1) رواه مسلم.
~~~~~~~~~~

ومعنَى الإحْسَانِ لغةً:

الإحْسَان ضِدُّ الإساءة، مصدرُ أحسنَ، أيْ جاءَ بفعلٍ حسنٍ[1].

معنَى الإحسانِ اصطلاحًا:

فهوَ كمَا عرَّفهُ الشَّيخُ، وهوَ علَى قسمينِ:

إحسانٌ فِي عبادةِ الخالقِ: بأنْ يعبدَ اللهَ كأنَّهُ يراهُ فإنْ لمْ يكنْ يراهُ فإنَّ اللهَ يراهُ، وهوَ الجِدُّ فِي القيامِ بحقوقِ اللهِ علَى وجهِ النُّصحِ، والتَّكميلِ لهَا.

وإحسانٌ فِي حقوقِ الخَلْقِ... هوَ بذلُ جميعِ المنافعِ مِنْ أيِّ نوعٍ كانَ، لأيِّ مخلوقٍ يكونُ، ولكنَّهُ يتفاوتُ بتفاوتِ المحْسَنِ إليهِمْ، وحقِّهِمْ ومقامِهِمْ، وبحسبِ الإحْسَانِ، وعظَمِ موقعهِ، وعظيمِ نفعهِ، وبحسبِ إيمانِ المحْسِنِ وإخلاصهِ، والسَّببِ الدَّاعِي لهُ إلَى ذلكَ[2].

وقالَ الرَّاغبُ: (الإحسانُ علَى وجهينِ: أحدهمَا: الإنعامُ علَى الغيرِ، والثَّانِي: إحسانٌ فِي فعلهِ، وذلكَ إذَا علمَ علمًا حسنًا أوْ عملَ عملًا حسنًا)[3].

كمَا أنَّ الإحسانَ هوَ المرتبةُ الثَّالثةُ منْ مراتبِ الدِّينِ، فالمرتبةُ الأولَى هيَ: الإسلامُ، والمرتبةُ الثَّانيةُ هيَ: الإيمانُ، والمرتبةُ الثَّالثةُ هيَ: الإحسانُ، وكلُّ محسنٍ هو مؤمنٌ ومسلمٌ، وكلُّ مؤمنٍ هوَ مسلمٌ، ولَا عكسَ، ويدلُّ علَى ذلكَ حديثُ جبريلَ عليهِ السَّلامُ: فعنْ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: بينمَا نحنُ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ، إذْ طلعَ علينَا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّيابِ، شديدُ سوادِ الشَّعرِ، لَا يُرَى عليهِ أثرُ السَّفرِ، ولَا يعرفهُ منَّا أحدٌ، حتَّى جلسَ إلَى النَّبيِّ ﷺ فأسندَ ركبتيهِ إلَى ركبتيهِ، ووضعَ كفَّيهِ علَى فخذيهِ، وقالَ: يَا

محمَّدُ، أخبرنِي عنِ الإسلامِ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "الإسلامُ أنْ تشهدَ أن لَا إلهَ إلَّا اللهَ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وتقيمَ الصَّلاةَ، وتؤتِي الزَّكاةَ، وتصومَ رمضانَ، وتحجَّ البيتَ إنِ استطعتَ إليهِ سبيلًا"، قالَ: صدقتَ؛ قالَ: فعجبنَا لهُ يسألهُ ويصدِّقهُ، قالَ: فأخبرنِي عنِ الإيمانِ؟ قالَ: "أنْ تؤمنَ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرهِ وشرِّهِ"، قالَ: صدقتَ، قالَ فأخبرنِي عنِ الإحسانِ؟ قالَ: "أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لمْ تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ"، قالَ: فأخبرنِي عنِ السَّاعةِ؟ قالَ: "مَا المسئولُ عنهَا بأعلمَ منَ السَّائلِ"، قالَ: فأخبرنِي عنْ أمارتهَا؟ قالَ: "أنْ تلدَ الأمةُ ربَّتهَا، وأنْ ترَى الحفاةَ العراةَ العالةَ رعاءَ الشَّاءِ يتطاولونَ فِي البنيانِ"، قالَ: ثمَّ انطلقَ، فلبثتُ مليًّا، ثمَّ قالَ لِي: "يَا عمرُ، أتدرِي منِ السَّائلِ؟"، قلتُ: اللهُ ورسولهُ أعلمُ، قالَ: "فإنَّهُ جبريلُ أتاكمْ يعلِّمكمْ دينكمْ"(4).

فهذَا الحديثُ قدِ اشتملَ علَى بيانِ أصولِ الدِّينِ وقواعدهِ ويسمَّى بحديثِ العقيدةِ، ولهذَا قالَ النَّبيُّ ﷺ فِي آخرهِ، "هذَا جبريلُ أتاكمْ يعلِّمكمْ دينكمْ"، فجعلَ مَا فِي هذَا الحديثِ بمنزلةِ الدِّينِ كلِّه ومنْ هذَا الحديثِ أيضًا علمنَا معنَا الإحسانِ، وعلمنَا أنَّ للدِّينِ مراتبُ ثلاثةٌ، ثالثهَا الإحسانُ.

ومنهُ قولُ اللهِ تعالَى: "قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ" [الحجرات: 14]

قالَ الطَّبريُّ: "يقولُ تعالَى ذكرهُ: قالتِ الأعرابُ: صدّقنَا باللهِ ورسولهِ، فنحنُ مؤمنونَ، قالَ اللهُ لنبيِّهِ محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قلْ يَا محمَّدُ لهمْ (لَمْ تُؤْمِنُوا) ولستمْ مؤمنينَ (وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا).

وذُكرَ أنَّ هذهِ الآيةَ نزلتْ فِي أعرابٍ منْ بنِي أسدٍ(5).

---

(1) الفروق اللغوية للعسكري.

(2) بهجة قلوب الأبرار للسعدي.

(3) المفردات في غريب القرءان للرَّاغب الأصفهاني.
(4) رواه مسلم.
(5) تفسير الطبري.

مجالاتُ الإحسانِ:

مجالاتُ الإحسانِ فِي القرآنِ الكريمِ أربعةٌ: الإحسانُ فِي الاعتقادِ، والإحسانُ في العبادةِ، والإحسانُ فِي المعاملاتِ، والإحسانُ فِي الأخلاقِ:

أوَّلًا: الإحسانُ فِي الاعتقادِ:

العقيدةُ هيَ: الأمورُ التِي تصدِّقُ بهَا النُّفوسُ وتطمئنُّ إليهَا القلوبُ، وتكونُ يقينًا عندَ أصحابهَا لَا يمازجهَا ريبٌ ولَا يخالطهَا شكٌّ ممَّا جاءَ عنِ اللهِ تعالَى فِي كتابهِ الكريمِ وصحَّ عنْ رسولهِ ﷺ فِي سننهِ[1].

والإحسانُ فِي الاعتقادِ يكونُ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ والأسماءِ والصِّفاتِ، فالإحسانُ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ هوَ بإفرادِ اللهِ تعالَى بالوحدانيَّةِ، والإقرارِ بأنَّهُ واحد ٌفِي أفعالهِ، لَا شريكَ لهُ فيهَا، كالخلقِ والرِّزقِ والإحياءِ والإماتةِ، وتدبيرِ الأمورِ والتصرُّفِ فِي الكونِ، وغيرِ ذلكَ ممَّا يتعلقُ بربوبيَّتهِ سبحانهُ، قالَ تعالَى: " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)"[الإخلاص: 1-4][2].

فتوحيدُ الرُّبوبيَّةِ هوَ: توحيدُ اللهِ تعالَى بأفعالهِ، والإقرارِ بأنَّهُ خالقُ كلِّ شيءٍ ومليكهُ، وإليهِ يرجعُ الأمرُ كلُّهُ فِي التَّصريفِ والتَّدبيرِ، فهوَ الذِي يحيِي ويميتُ، وهوَ الذِي يبسطُ الرِّزقَ لمنْ يشاءُ ويقدرُ، وهوَ الذِي يرسلُ الرُّسلَ، ويشرِّعُ الشَّرائعَ، ليُحقَّ الحقَّ بكلماتهِ، ويقيمَ العدلَ بينَ عبادهِ شرعًا وقدرًا إلَى غيرِ ذلكَ ممَّا لَا يحصيهِ العدُّ، ولَا تحيطُ بهِ العبارةُ، وهذَا

النَّوعُ منَ التَّوحيدِ قدْ أقرَّتْ بهِ الفطرةُ، وقامَ عليهِ دليلُ السَّمعِ والعقلِ(3).
والإحسانُ فِي توحيدِ الألوهيَّةِ: يكونُ بتوحيدهِ بأفعالِ العبادةِ، كالدُّعاءِ والخوفِ والرَّجاءِ والتوكُّلِ والاستعانةِ والاستعاذةِ والاستغاثةِ والذَّبحِ والنَّذرِ، وغيرهَا منْ أنواعِ العبادةِ التِي يجبُ إفرادهُ بهَا، فلَا يُصرفُ منهَا شيءٌ لغيرهِ، ولوْ كانَ ملكًا مقرَّبًا، أو نبيًّا مرسلًا، فضلًا عمَّنْ سواهمَا.
وبمعنَى آخرَ فتوحيدُ الإلهيَّةِ: هوَ إفرادُ اللهِ تعالَى بالعبادةِ: قولًا، وقصدًا، وفعلًا، فلَا يُنذرُ إلَّا لهُ، ولَا تُقرَّبُ القرابينُ إلَّا إليهِ، ولَا يُدعَى فِي السرَّاءِ والضرَّاءِ إلَّا إياهُ، ولَا يُستغاثُ إلَّا بهِ، ولَا يُتوكَّلُ إلَّا عليهِ، إلَى غيرِ ذلكَ منْ أنواعِ العبادةِ(4).
والإحسانُ فِي توحيدِ الأسماءِ والصِّفاتِ: هوَ إثباتُ كلِّ مَا أثبتهُ لنفسهِ سبحانهُ وأثبتهُ لهُ رسولهُ ﷺ منَ الأسماءِ والصِّفاتِ علَى وجهٍ يليقُ بكمالهِ وجلالهِ، دونَ تكييفٍ أوْ تمثيلٍ، ودونَ تحريفٍ أو تأويلٍ أو تعطيلٍ، وتنزيههِ سبحانهُ عنْ كلِّ مَا لَا يليقُ بجلالهِ سبحانهُ.
كمَا قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: "لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ" [الشورى: 11].
فجمعَ فِي هذهِ الآيةِ بينَ الإثباتِ والتَّنزيهِ، فالإثباتُ فِي قولهِ: (وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ) والتَّنزيهُ فِي قولهِ: (لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ) فلهُ سبحانهُ وتعالَى سمعٌ لَا كالأسماعِ، وبصرٌ لَا كالأبصارِ، وهكذَا يقالُ فِي كلِّ مَا ثبتَ للهِ منَ الأسماءِ والصِّفاتِ(5).

(1) انظر: الإحسان في ضوء الكتاب والسنة النبوية، أحمد الغامدي، ص١٩٠.
(2) انظر: تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، الصنعاني، ص ٩.
(3) انظر: مذكرة التوحيد، عبد الرزاق عفيفي، ص ٢٧.
(4) انظر: مذكرة التوحيد، عبد الرزاق عفيفي، ص ٢٧.

(5) انظر: تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، الصنعاني، ص ٩.

ثانيًا: الإحسانُ فِي العبادةِ:

عرَّفَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ العبادةَ، بأنَّهَا: اسمٌ جامعٌ لكلِّ مَا يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ منَ الأقوالِ والأعمالِ الباطنةِ والظَّاهرةِ، فالصَّلاةُ والزَّكاةُ والصِّيامُ والحجُّ وصدقُ الحديثِ وأداءُ الأمانةِ وبرُّ الوالدينِ وصلةُ الأرحامِ والوفاءُ بالعهودِ والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عنِ المنكرِ والجهادُ للكفَّارِ والمنافقينَ والإحسانُ للجارِ واليتيمِ والمسكينِ وابنِ السَّبيلِ والمملوكِ منَ الآدميينَ والبهائمِ والدُّعاء والذِّكرِ والقراءةِ وأمثالُ ذلكَ منَ العبادةِ(1)، فكلُّ هذَا يجبُ علَى المسلمِ أنْ يحسنَ فيهِ، بإخلاصهَا للهِ تعالَى محدهُ، وبمتابعةِ نبيِّهِ ﷺ فِي آدائهَا.

ثالثًا: الإحسانُ فِي المعاملاتِ:

إنَّ الإحسانَ فِي المعاملاتِ فِي القرآنِ يأتِي فِي أمورٍ نسردُ منهَا علَى وجهِ الاختصارِ:

الإحسانُ إلَى الوالدينِ:

أمر الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" [النساء: 36].

أي: أحسنُوا إليهمْ بالقولِ الكريمِ والخطابِ اللَّطيفِ والفعلِ الجميلِ بطاعةِ أمرهمَا واجتنابِ نهيهمَا والإنفاقِ عليهمَا وإكرامِ منْ لهُ تعلُّقٌ بهمَا وصلةِ الرَّحمِ التِي لَا رحمَ لكَ إلَّا بهمَا، وللإحسانِ ضدَّانِ، الإساءةُ وعدمُ الإحسانِ، وكلاهمَا منهيٌ عنهُ(2).

فكلُّ قولٍ وفعلٍ يحصلُ بهِ منفعةٌ للوالدينِ أو سرورٌ لهمَا، فإنَّ ذلكَ منَ الإحسانِ، وإذَا وُجدَ الإحسانُ انتفَى العقوقُ(3).

ومنْ ذلكَ الإحسانُ إلَى الزَّوجةِ والأولادِ والجيرانِ واليتامَى والمساكينِ ممَّا أوصَى بهِ اللهُ تعالَى فِي مواضعَ كثيرةٍ فِي القرآنِ، قالَ تعالَى: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ" [البقرة: 83].

وقالَ تعالَى: "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا" [النساء: 36].

قالَ ابنُ كثيرٍ: ثمَّ عطفَ علَى الإحسانِ إلَى الوالدينِ الإحسانَ إلَى القراباتِ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ، كمَا جاءَ فِي الحديثِ: "الصَّدقةُ علَى المسكينِ صدقةٌ، وعلَى ذِي الرَّحمِ صدقةٌ وصلةٌ"(4).

ثمَّ قالَ: (وَاليَتَامَى) وذلكَ لأنَّهمْ قدْ فقدُوا منْ يقومُ بمصالحهمْ، ومنْ ينفقْ عليهمْ، فأمرَ اللهُ بالإحسانِ إليهمْ والحنوِّ عليهمْ.

ثمَّ قالَ: (وَالمَساكِينِ) وهمُ المحاويجُ منْ ذوِي الحاجاتِ الذينَ لاَ يجدونَ مَا يقومُ بكفايتهمْ، فأمرَ اللهُ بمساعدتهمْ بمَا تتمُّ بهِ كفايتهمْ وتزولُ بهِ ضرورتهمْ...

وقولهُ: (وَالجَارِ ذِي القُربَى وَالجَارُ الجُنُبِ) قالَ عليُّ بنُ أبِي طلحةَ، عنِ ابنِ عبَّاسٍ: (والجَارِ ذِي القربَى) يعنِي الذِي بينكَ وبينهُ قرابةٌ، (والجارُ الجُنُبِ) الذِي ليسَ بينكَ وبينهُ قرابةٌ.

وقولهُ: (وَالصَّاحبُ بِالجَنْبِ) قالَ الثَّورِي، عنْ جابرِ الجعفيِّ، عنِ الشَّعبِي، عنْ عليٍّ وابنِ مسعودٍ قالَا هيَ المرأةُ.

وأمَّا (ابْنِ السَّبيلِ) فعنِ ابنِ عبَّاسٍ وجماعةٍ هوَ: الضَّيفُ.
وقولهُ: (وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) وصيَّةٌ بالأرقَّاءِ، لأنَّ الرَّقيقَ ضعيفُ الحيلةِ أسيرٌ فِي أيدِي النَّاسِ(5).

رابعًا: الإحسانُ فِي الأخلاقِ:
إنَّ الإحسانَ فِي الأخلاقِ يكونُ بالتخلُّقِ بالقرآنِ الكريمِ فِي الأقوالِ والأفعالِ وجميعِ التصرُّفاتِ، فإنَّ أحسنَ النَّاسِ خلقًا هوَ منْ يتخلَّقُ بالقرآنِ، كمَا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ، قال عنه تعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ" [القلم: 4].
والمعنَى: أنتَ علَى الخلقِ الذِي أمركَ اللهُ بهِ فِي القرآنِ(6)، أي: علَى الخلقِ الذِي أدَّبكَ اللهُ بهِ ممَّا نزلَ بهِ القرآنُ منَ الإحسانِ إلَى النَّاسِ، والعفوِ، والتَّجاوزِ، وصلةِ الأرحامِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عنِ المنكرِ، ومَا أشبهَ ذلكَ.
وفِي حديثِ سعدٍ بنِ هشامٍ، قالَ: أتيتُ عائشةَ، فقلتُ: يَا أمَّ المؤمنينَ، أخبرينِي بخلقِ رسولِ اللهِ ﷺ، قالتْ: "كانَ خلقهُ القرآنُ"، أمَا تقرأُ القرآنَ، قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: " وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ" [القلم: 4](7)(8).

(1) العبودية، ابن تيمية، ص ٤٤.
(2) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٧٨.
(3) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٧٩.
(4) أخرجه الترمذي (658)، والنسائي (2582)، وابن ماجه (1844) واللفظ له، وأحمد (16279).
(5) تفسير ابن كثير.
(6) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٥/ ٢٠٤.
(7) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٤٦٠١، ١٤٨/٤١، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم ٣٨٤٢، ٥٤١/٢.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
ولم يتعقبه الذهبي، وصححه الارناؤوط في تحقيقه لمسند أحمد٤١ / ١٤٩.
(8) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٦ / ١٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٢٠٦.

ثمَّ قالَ رحمهُ تعالَى: وأمرَ بالإصلاحِ وأثنَى علَى المصلحينَ، وأخبرَ أنَّهُ لَا يضيعُ ثوابهمْ وأجرهمْ.

والإصلاحُ هوَ: أنْ تسعَى فِي إصلاحِ عقائدِ النَّاسِ وأخلاقهمْ، وجميعِ أحوالهمْ، بحيثُ تكونُ علَى غايةِ مَا يمكنُ منَ الصَّلاحِ، وأيضًا يشملُ إصلاحَ الأمورِ الدِّينيَّةِ، والأمورِ الدُّنيويَّةِ، وإصلاحِ الأفرادِ والجماعاتِ، وضدُّ هذَا الفسادُ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وكذلكَ ذكرَ اللهُ تعالَى الإصلاحَ وأمرَ بهِ فِي العديدِ منَ الآياتِ أذكرُ منهَا قولهُ تعالَى: "وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" [الحجرات: 9 - 10].

وقولهُ تعالَى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" [الأنفال: 1].

وقولهُ تعالَى: "يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" [الأعراف: 35].

الإصلاحُ لغةً:

قال ابن منظور: (صلح): الصَّلاحُ ضدُّ الفسادِ، صلَحَ يصلَحُ ويصلُحُ صلاحًا وصُلُحًا، وأنشد أبو زيدٍ: فكيفَ بإطراقي إذَا

مَا شتمتنِي؟ ومَا بعدَ شتْمِ الوالديْنِ صُلُوحُ. وهوَ صالحٌ وصليحٌ الأخيرةُ عنِ ابنِ الأعرابِي، والجمعُ صُلحاءُ وصُلُوحٌ.

والإصلاحُ نقيضُ الإفسادِ والمصلحةُ الصَّلاحُ والمصلحةُ، واحدةُ المصالحِ، والاستصلاحُ نقيضُ الاستفسادِ، وأصلحَ الشَّيءَ بعدَ فسادِهِ أقامهُ...[1].

الإصلاحُ فِي اصطلاحِ الشَّرعِ، هوَ كما عرَّفهُ الشيخ السَّعدي رحمهُ اللهُ، وهو: أنْ تسعَى فِي إصلاحِ عقائدِ النَّاسِ وأخلاقهمْ، وجميعِ أحوالهمْ، بحيثُ تكونُ علَى غايةِ مَا يمكنُ منَ الصَّلاحِ، وأيضًا يشملُ إصلاحَ الأمورِ الدِّينيَّةِ، والأمورِ الدُّنيويَّةِ، وإصلاحِ الأفرادِ والجماعاتِ، وضدُّ هذَا الفسادُ.

وللإصلاح درجتينِ: الأولَى: إصلاحُ النَّفسِ، والثَّانِي: إصلاح النَّاسِ وإصلاحُ مَا بينَ النَّاسِ.

أمَّا الدَّرجةُ الأولَى فهيَ أولَى منَ التِي بعدهَا، لقولهِ تعالَى: "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ"[البقرة: 44]، قالَ ابنُ جريجٍ: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ) أهلُ الكتابِ والمنافقونَ كانُوا يأمرونَ النَّاسَ بالصَّومِ والصَّلاةِ، ويَدَعُونَ العملَ بمَا يأمرونَ بهِ النَّاسَ، فعيَّرهمُ اللهُ بذلكَ، فمنْ أمرَ بخيرٍ فليكنْ أشدَّ النَّاسِ فيهِ مسارعةً[2]. وإصلاحُ النَّفسِ والنَّاسِ ومَا بينَ النَّاسِ هوَ عينُ البرِّ، فالواجبُ علَى كلِّ ذِي لبٍّ أنْ يبادرَ بإصلاحِ نفسهِ.

وأمَّا الدَّرجةُ الثَّانيةُ، فهيَ علَى قسمينِ، الأوَّلُ إصلاحُ النَّاسِ، والثَّانِي إصلاحُ مَا بينَ النَّاسِ.

أمَّا القسمُ الأوَّلُ، فلهُ ثلاثةُ أركانٍ، الأوَّلُ: إخلاصُ النيَّةِ للهِ تعالَى، الثَّانِي: اتِّباعُ هديِ محمَّدٍ ﷺ، والثَّالثُ: العلمُ.

أمَّا إخلاصُ النيَّةِ للهِ واتِّباعُ هديِ النَّبيِّ ﷺ فقدْ تكلَّمنَا عليهِ سابقًا، وأمَّا العلمُ، فالعلمُ واجبٌ فِي إصلاحِ النَّاسِ، فمنْ أرادَ أنْ يُصلحَ عقائدَ النَّاسِ، وجبَ عليهِ تعلُّمُ العقيدةِ السَّليمةِ ففاقدُ الشَّيءِ لَا يُعطيهِ، ومنْ سعَى لإصلاحِ أخلاقِ النَّاسِ، وجبَ عليهِ تعلُّمُ السنَّةِ، وهكذَا.

وأمَّا القسمُ الثَّاني: وهوَ إصلاحُ مابينَ النَّاسِ منْ خلافٍ، فإنْ كانَ خلافهمْ دِينيًّا، وجبَ علَى المصلحِ أنْ يكونَ لهُ علمٌ يقينيٌّ بالمسألةِ الخلافيَّةِ وإلَّا فخيرُ الكلامِ حينهَا "لَا أدرِي" وأمَّا إنْ كانَ الخلافُ دنيويًّا، فلْيَسْعَ للإصلاحِ بينهمْ بمَا اكتسبَ منْ حكمةٍ وآلةٍ.

قال السَّعدِي في كتابهِ القواعدُ الحسانُ: ومن أهمِّ مَا يكونُ أيضًا: السَّعيُ فِي الصُّلحِ بينَ المتنازعينِ، كمَا أمرَ اللهُ بذلكَ فِي الدِّماءِ والأموالِ والحقوقِ بينَ الزَّوجينِ، والواجبُ أنْ يُصلحَ بالعدلِ، ويسلكَ كلَّ طريقٍ توصلُ إلَى الملاءمةِ بينَ المتنازعينِ، فإنَّ آثارَ الصُّلحِ بركةٌ وخيرٌ وصلاحٌ...

وأمثلةُ هذهِ القاعدةِ لَا تنحصرُ، وحقيقتهَا: السَّعيُ فِي الكمالِ الممكنِ حسبَ القدرةِ بتحصيلِ المصالحِ أوْ تكميلهَا، أوْ إزالةِ المفاسدِ والمضارِ أوْ تقليلهَا، الكلِّيةُ والجزئيَّةُ، المتعدِّيةُ والقاصرةُ، واللهُ أعلمُ[3].

---

(1) لسان العرب لابن منظور مادَّة (صلح).

(2) تفسير الطَّبري.

(3) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: والإفسادُ، قدْ نهَى عنهُ، وذمَّ المفسدينَ، وذكرَ عقوباتِهمْ المتعدِّدةِ، وأخبرَ أنَّهُ لَا يُصلحُ أعمالَهمْ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ نهَى اللهُ تعالَى عنِ الإفسادِ فِي العديدِ منَ الآياتِ، أذكرُ منهَا قولهُ تعالَى: "وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ" [الأعراف: 56]**، وقوله تعالى: "وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"** [الأعراف: 85]**.**

وذكرَ اللهُ تعالَى عقوبةَ المفسدينَ فقالَ: "وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ" [الرعد: 25]**، وقالَ تعالَى: "فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ"** [محمد: 22، 23]**.**

والفسادُ فِي اللُّغةِ: ضدُّ الصَّلاحِ، وهوَ مصدرُ فَسَدَ يَفْسُدُ ويَفْسِدُ فَسَادًا وفُسُودًا، وهوَ فاسِدٌ وفَسِيْدٌ، وقوم فَسْدَى، وفَسُدَ الشَّيءُ فهوَ فسيدٌ، والاسْتِفْسَادُ: خلافُ الاستصلاحِ، والمَفْسَدَةُ: خِلافِ المصلحةِ، وتَفَاسَدَ القومُ تدابَرُوا وقطعُوا الأَرحامَ[1].

والفسادُ فِي الاصطلاحِ: خروجُ الشَّيءِ عنِ الاعتدالِ، قليلًا كانَ الخروجُ أوْ كثيراً، ويُستعملُ ذلكَ فِي النَّفسِ، والبدنِ، والأشياءِ الخارجةِ عنِ الاستقامةِ[2].

قالَ ابنُ الجوزِي: "الفسادُ: تغيُّرٌ عمَّا كانَ عليهِ منَ الصَّلاحِ، وقدْ يقالُ فِي الشَّيءِ معَ قيامِ ذاتهِ، ويقالُ فيهِ معَ انتقاضِهَا، ويقالُ فيهِ إذَا بطلَ وزالَ، ويُذكرُ الفسادُ فِي الدِّينِ كمَا يذكرُ فِي الذَّاتِ، فتارةً يكونُ بالعصيانِ، وتارةً بالكفرِ، ويُقالُ فِي الأقوالِ إذَا كانتْ غيرَ منتظمةٍ، وفِي الأفعالِ إذَا لمْ يعتدَّ بهَا"(3).

قالَ الجُرجانِي: "الفسادُ زوالُ الصُّورةِ عنِ المادَّةِ بعدَ أنْ كانتْ حاصلةً، وعندَ الفقهاءِ: مَا كانَ مشروعاً بأصلهِ، غيرَ مشروعٍ بوصفهِ، وهوَ مرادفٌ للبطلانِ عندَ الشَّافعِي"(4)، تقولُ هذَا عقدُ بيعٍ فاسدٍ لاختلالِ شروطهِ، فالبيعُ مشروعٌ، ولكنَّهُ غيرُ مشروعٍ بهذَا الوصفِ أيِ فسادهِ، وقالَ المناويُّ: "الفسادُ هوَ انتقاصُ صورةِ الشَّيءِ.. وفسادُ الوضعِ: ألَّا يكونَ الدَّليلُ علَى الهيئةِ الصَّالحةِ لاعتبارهِ فِي ترتيبِ الحكمِ، وفسادِ الاعتبارِ: أنْ يُخالفَ الدَّليلَ نصًّا أوْ إجماعًا وهوَ أعمُّ منْ فسادِ الوضعِ"(5).

والفسادُ أعمُّ منَ الظُّلمِ، لأنَّ الظُّلمَ نقصٌ، أمَّا الفسادُ فيقعُ عليهِ "أيِ الظُّلمِ" وعلَى الابتداعِ واللَّهوِ واللَّعبِ(6).

وأمَّا **الإفسادُ**: فهوَ جعلُ الشَّيءِ فاسدًا خارجًا عمَّا ينبغِي أنْ يكونَ عليهِ، وعنْ كونهِ مُنتَفعًا بهِ، والإفسادُ فِي الحقيقةِ: إخراجُ الشَّيءِ عنْ حالةٍ محمودةٍ لَا لغرضٍ صحيحٍ(7).

وأنواعُ الفسادِ والإفسادِ التِي نهَى اللهُ تعالَى عنهَا كثيرةٌ، منهَا:

الكفرُ باللهِ سبحانهُ تعالَى:

منْ ذلكَ قولهُ تعالَى: "الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" [البقرة: 27] فإفسادهمْ فِي الأرضِ:

باستدعائهمْ إلَى الكفرِ، والتَّرغيبِ فيهِ، وحملِ النَّاسِ عليهِ، وتعويقهمْ وصدِّهمْ للنَّاسِ عنِ الإيمانِ، والاستهزاءِ بالحقِّ، وقطعِ الوُصلِ التِي بهَا نظامُ العالمِ وصلاحهِ[8].

والنِّفَاقُ:

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ" [البقرة: 11 -12] فالآيتانِ وردتَا فِي سياقِ ذكرِ المنافقينَ، وأنَّ منْ صفاتهمْ وأخلاقهمْ إذَا قالَ لهمْ أهلُ الإيمانِ: (لَا تُفْسِدُوا فِي الأرْضِ) بالمعاصِي والتَّعويقِ عنِ الإيمانِ، وإغراءِ أهلِ الكفرِ والطُّغيانِ علَى أهلِ الإسلامِ والإيمانِ، وتهييجِ الحروبِ والفتنِ، وإظهارِ الهرجِ والمرجِ والمحنِ، وإفشاءِ أسرارِ المسلمينَ إلَى أعدائهمُ الكافرينِ، (قَالُوا) فِي جوابهمُ الفاسدِ: (إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) فِي ذلكَ، فلَا تصحُّ مخاطبتنَا بذلكَ، فإنَّ منْ شأننَا الإصلاحُ والإرشادُ، وحالنَا خالصٌ منْ شوائبِ الفسادِ، فردَّ اللهُ عليهمْ مَا ادَّعوهُ منَ الانتظامِ فِي سلكِ المصلحينِ بأبلغِ ردٍّ، منْ وجوهِ الاستئنافِ الذِي فِي الجملةِ، والاستفتاحِ بالتَّنبيهِ، والتَّأكيدِ بإنَّ وضميرَ الفعلِ، وتعريفِ الخبرِ، والتَّعبيرِ بنفيِ الشُّعورِ، إذْ لوْ شعرُوا أدنَى شعورٍ لتحقَّقُوا أنَّهمْ مفسدونَ[9].

والمعاصِي العامَّةُ:

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: "وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ" [الأعراف: 56] أي: لَا تفسدُوا فِي الأرضِ بالمعاصِي الموجبةِ لفسادِ العالمِ بالقحطِ والفتنِ، بعدَ إصلاحهَا بالخصبِ والأمانِ، بمَا يحقِّقُ منافعَ الخلقِ ومصالحِ المكلَّفينَ، فالنَّهيُ هنَا عامٌّ

يشملُ كلَّ فسادٍ قلَّ أو كَثُرَ، ومنْ أنواعهِ: إفسادُ النُّفوسِ والأنسابِ والأموالِ والعقولِ والأديانِ[10].

وخرابُ العالمِ وفسادِ نظامهِ:

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ"[الأنبياء: 22] أي: لوْ تعدَّدتِ الآلهةُ لكانَ بينهمَا التَّنازعُ والتَّغالبُ، ممَّا يؤدِّي إلَى فسادِ نظامِ العالمِ، وفسادِ السَّماءِ والأرضِ: هوَ خرابهمَا وهلاكُ منْ فيهمَا، وذلكَ بسببِ وقوعِ التَّنازعِ بالاختلافِ الواقعِ بينَ الشُّركاءِ، فيبغِي بعضُهمْ علَى بعضٍ، ويذهبُ كلُّ إلهٍ بمَا خلقَ، واقتضابُ القولِ فِي هذَا: أنَّ الإلهينِ لوْ فُرِضَا فوقعَ بينهمَا الاختلافُ فِي تحريكِ جرمٍ وتسكينهِ، فمُحالٌ أنْ تتمَّ الإرادتانِ، كمَا هوَ مُحالٌ ألَّا تتمَّ جميعًا، وإذَا تمَّتْ إحدَى الإرادتينِ كانَ صاحبُ الأخرَى عاجزًا، وهذَا ليسَ بإلهٍ، وجوازُ الاختلافِ عليهمَا بمنزلةِ وقوعهِ منهمَا[11].

والمنكرُ:

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: "فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ"[هود: 116] أي: فهلَا وُجِدَ فيمنْ كانَ قبلكمْ منَ القرونِ منْ فيهِ بقيَّةٌ منَ العقلِ والحزمِ والثُّبوتِ والدِّينِ، ينكرونَ علَى أهلِ الفسادِ فسادهمْ، (إلاَّ قَلِيلاً) أي: لكنَّ قليلاً (مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ) نهَوا عنِ الفسادِ فِي الأرضِ[12].

والحِرَابةُ:

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا..."[المائدة: 33] وهوَ بيانٌ

للحِرابةِ، أي: ويسعونَ بحرابتهمْ مفسدينَ، وهيَ علَى درجاتٍ؛ أدناهَا: إخافةُ الطَّريقِ، ثمَّ أخذُ الأموالِ، ثمَّ قتلُ الأنفسِ(13).

والسّحرُ:

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: "قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ"[يونس: 81] فسحرهمْ هوَ منْ قبيلِ عملِ المفسدينَ، وإضافةِ (عَمَلَ) إلَى (المثفْسِدِينَ) يُؤذِنُ بأنَّهُ عملٌ فاسدٌ، لأنَّهُ فِعْلُ مَنْ شأنُهمُ الإفسادُ، فيكونُ نسجاً علَى منوالهِمْ، وسيرةً علَى معتادهِمْ، واللهُ لَا يؤيِّدُ هذَا العملَ الفاسدَ ولَا يثبِّتهُ ولَا يقوِّيهِ(14).

وأنواعُ الفسادِ فِي الكتابِ والسنَّةِ كثيرةٌ، منهَا أيضًا: الفاحشةُ وأكلُ أموالِ النَّاسِ بالباطلِ، ومنعِ الفقيرِ منَ الزَّواجِ ومَا ينجرُّ عنهُ المفاسيدِ العظيمةِ، منَ ذلكَ انقطاعُ الأنساب، ومنهُ الزنَى، مَا ينجرُّ عنهُ اختلاطُ الأنسابِ، وغيرِ ذلكَ.

---

(1) ينظر: معجم مقاييس اللغة 4: 503، الصحاح 2: 44، المفردات للراغب 2: 192، لسان العرب 3: 335 مادة فسد، التوقيف للمناوي ص556.

(2) ينظر: المفردات للراغب 2: 192، بصائر ذوي التمييز 4: 192، التوقيف للمناوي ص556.

(3) نزهة الأعين النواظر ص469.

(4) ينظر: التعريفات ص214.

(5) ينظر: التوقيف للمناوي ص556.

(6) ينظر: الكليات لأبي البقاء ص1097.

(7) ينظر: الكليات لأبي البقاء ص220.

(8) ينظر: تفسير ابن عطية 1: 99، تفسير القرطبي 1: 247، تفسير البيضاوي 1: 267، تفسير أبي حيان 1: 274، تفسير ابن عجيبة 1: 66.

(9) ينظر: البحر المديد لابن عجيبة 1: 51.

(10) ينظر: تفسير البغوي 3: 238، تفسير ابن عطية 2: 277، تفسير القرطبي 7: 226، تفسير أبي حيان 4: 313، تفسير ابن عجيبة 2: 499.

(11) ينظر: المحرر الوجيز 4: 95، الجامع لأحكام القرآن 11: 279، البحر المديد 4: 499، روح المعاني 17: 25، التحرير والتنوير 17: 39.

(12) ينظر: تفسير الطبري 15: 527، تفسير القرطبي 9: 113، تفسير ابن عجيبة 3: 344.

(13) ينظر: تفسير ابن عطية 2: 215، تفسير ابن عجيبة 2: 241.

(14) ينظر: تفسير القرطبي 8: 368، تفسير البيضاوي 3: 211، تفسير الطاهر بن عاشور 11: 256.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: أثنَى اللهُ علَى اليقينِ، وعلَى الموقنينَ، وأنَّهمْ همُ المنتفعونَ بالآياتِ القرآنيَّةِ، والآياتِ الأفقيَّةِ.

واليقينُ أخصُّ منَ العلمِ، فهوَ: العلمُ الرَّاسخُ، المثمرُ للعملِ والطُّمأنينةِ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: "الم (1) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)" [البقرة: 1 – 2 – 3 – 4]

وقالَ سبحانهُ: "أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ" [النمل: 22].

وقالَ جلَّ جلاهُ: "تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ" [البقرة: 118].

وقالَ جلَّ وعلَا: "مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا" [النساء: 157].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: "وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ" [المائدة: 50].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: "وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَالْمُوقِنِينَ" [الأنعام: 75].

واليقينُ لغةً:

اليقينُ مشتقٌّ منَ الفعلِ يَقِنَ وأيقنَ يوقنُ إيقانًا، وييقنُ يقنًا ويقينًا، فهوَ موقنٌ.
واليقينُ نقيضُ الشكِّ، فهوَ العلمُ وتحقيقُ الأمرِ وإزاحةُ الشكِّ، فكمَا أنَّ العلمَ نقيضُ الجهلِ، فكذلكَ اليقينُ نقيضُ الشكِّ، يقالُ: علَّمتهُ يقينًا، أيْ علمًا لَا شكَّ فيهِ[1].

وليسَ هوَ منَ الفعلِ وَقَنَ وأَوْقَنَ، فإنَّ معنَى وقنَ وأوقنَ: اصطادَ الطَّيرَ منْ وقنتِهِ، أيْ وكنتِهِ (محضنهِ)، فالوقنةُ موضعُ الطَّائرِ فِي الجبلِ، ويقالُ توقَّنَ وأوقنَ فِي الجبلِ: صعدَ فيهِ[2].
ونخلصُ ممَّا سبقَ أنَّ اليقينَ مشتقٌّ منَ الفعلِ يقنَ وأيقنَ بمعنَى علمَ علماً لَا شكَّ فيهِ تطمئنُّ إليهِ النَّفسُ اطمئنانًا يزيلُ الشكَّ ويدفعُ للعملِ بالموقنِ بهِ.

والعربُ تسمِّي اليقينَ ظنًا (فِي الغالبِ) والشَّك ظنًا (أحيانًا)، ومنهُ قولهُ تعالَى : "وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا" [الكهف: 53] أيْ فأيقنُوا أنَّهمْ مواقعوهَا[3].
بلْ قالَ بعضُ المفسِّرينَ: "كلُّ ظنٍّ فِي القرآنِ فهوَ علمٌ ويقينٌ، كمَا ذكرَ ذلكَ الطبرِي بسندهِ عنْ مجاهدٍ، وذكرَ ابنُ كثيرٍ صحَّةَ سندهِ عنهُ[4].

وأمَّا منْ قالَ بأنَّ الظنَّ يأتِي فِي القرآنِ بمعنَى الشكِّ وبمعنَى اليقينِ، نقولُ: الصَّحيحُ أنَّ فِي القرآنِ وفِي لغةِ العربِ إنْ كانَ لفظُ الظنِّ وردَ فِي السِّياقِ قبلَ ترجيحهِ فهوَ شكٌّ، وإنْ كانَ بعدَ ترجيحهِ فهوَ يقينٌ، هذَا لأنَّ الظنَّ هوَ: تجوزُ أمرينِ أحدهمَا أرجحُ منَ الآخرِ، فالرَّاجحُ هوَ الظنُّ ومرجوحهُ هوَ الوهمُ، فيقابلُ الظَّنَّ الوهمَ، كمَا يقابلُ اليقينَ الشكَّ، ومنْ هنَا

فإنْ كانَ الظنُّ مرجَّحًا فهوَ يقينٌ خالصٌ، قالَ تعالَى: "كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28)"[القيامة: 26 – 27 – 28] قالَ الطَّبري: وقولهُ: (وظنَّ أنَّهُ الفراقُ) يقولُ تعالَى ذكرهُ: وأيقنَ الذِي قدْ نزلَ ذلكَ بهِ أنَّهُ فراقُ الدُّنيَا والأهلِ والمالِ والولدِ(5).

وهنَا كانَ أمامَ المحتضرِ أمرينِ، إمَّا أنَّهُ هالكٌ أو لَا، فلمَّا بلغتِ التَّراقِي رجَّحَ أنَّهُ هالكٌ وأيقنَ ذلكَ.

وأمَّا الزَّركشِي فقالَ: وكلُّ ظنٍّ يتَّصلُ بهِ "إنَّ" المشدَّدةُ فهوَ يقينٌ، كقولهِ تعالَى: إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهْ(6)[سورة الحاقة: 20].

قلتُ: وإنْ وردَ لفظُ الظنِّ دونَ ترجيحٍ فهوَ شكٌّ، هذَا لأنَّ الشَّكَّ تجويزُ أمرينِ لَا أحدَ فيهمَا أرجحُ من الآخرِ، أي استوَى فيهِ الأمرانِ ولَا راجحَ بينهمَا، منهَا قولهُ تعالَى: "وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ"[البقرة: 78].

قالَ الطَّبرِي: ومعنَى قولهْ: (إِلَّا يَظُنُّونَ): إلَّا يشكوُّنَ، ولَا يعلمونَ حقيقتهُ وصحَّتهُ. و"الظنُّ" فِي هذَا الموضعِ، الشكُّ.

فمعنَى الآيةِ: ومنهمْ منْ لَا يكتبُ ولَا يخطُّ ولَا يعلمُ كتابَ اللهِ ولَا يدرِي مَا فيهِ، إلَّا تخرُّصًا وتقوُّلًا علَى اللهِ الباطلَ...(7).

---

(1) ينظر: لسان العرب ـ ومعجم مقاييس اللغة ـ والصحاح.
(2) ينظر: لسان العرب.
(3) ينظر: تيسير الكريم الرحمن للسَّعدي.
(4) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن للشيرازي ـ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير.
(5) تفسير الطَّبري.
(6) الإتقلان في علوم القرءان للسيوطي.
(7) تفسير الطَّبري.

وعلَى هذَا همْ لمْ يرجِّحُوا بينَ المسائلِ، لأنَّهمْ أمِّيُّونَ لَا يعلمونَ الكتابَ، والتَّرجيحُ لَا يكونُ إلَّا بالعلمِ فبذلكَ كانَ ظنُّهمْ شكًّا، والسِّياقُ الذِي يُقاسُ عليهِ لمعرفةِ الظنِّ أهوَ شكٌّ أو يقينٌ؟ هوَ سياقُ الآيةِ، فيُنظرُ فِي سياقهَا إنْ كانَ لفظُ الظَّنِ جاءَ بعدَ ترجيحٍ فهوَ يقينٌ، وإنْ كانَ قبلَ التَّرجيحِ فهوَ شكٌّ.

والیقینُ اصطلاحًا:

هوَ الإدراكُ الجازمُ بعلمٍ وطمأنينةٍ واستقرارِ نفسٍ، بكلِّ مَا جاءَ فِي الكتابِ والسنَّةِ عنِ اللهِ تعالَى، يقينًا يدفعُ المرءَ إلَى العبوديَّةِ للهِ تعالَى معَ حرصٍ شديدٍ علَى إخلاصِ النيَّةِ لهُ سبحانهُ، واتِّباعُ مَا جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ.

أوْ تقولُ: هوَ أنْ تتيقَّنَ بكلِّ مَا وردَ منَ الحقِّ، فيكونُ عندكَ كالشَّاهدِ.

فاليقينُ هوَ: إتقانُ العلمِ بانتفاءِ الشكِّ والشُّبهةِ عنهُ، وهوَ العلمُ الجازمُ الذِي لَا شكَّ فيهِ المؤدِّي إلَى استقرارِ القلبِ وطمأنينتهِ، الدَّافعِ إلَى العملِ، يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "اليقينُ هوَ طمأنينةُ القلبِ، واستقرارُ العلمِ فيهِ، وضدُّ اليقينِ الرَّيبُ وهوَ نوعٌ منَ الحركةِ والاضطرابِ"[1].

ويقولُ السَّعدِي: "اليقينُ هوَ العلمُ التَّامُ الذِي ليسَ فيهِ أدنَى شكٍّ، الموجبُ للعملِ"[2].

وقدْ تعدَّدتْ تعريفاتُ العلماءِ لليقينِ وهيَ علَى النَّحوِ:

1) اعتقادُ الشَّيءِ بأنَّهُ كذَا معَ اعتقادِ أنَّهُ لَا يمكنُ إلَّا كذَا، مطابقًا للواقعِ غيرَ ممكنِ الزَّوالِ والقيدِ[3].

2) وقيلَ: هوَ إيقانُ العلمِ بنفيِ الشكِّ والشُّبهةِ عنهُ بالاستدلالِ.
3) وقيلَ: هوَ سكونُ النَّفسِ معَ إثباتِ الحكمِ.
4) وقيلَ: الاعتقادُ الجازمُ الثَّابتُ المطابقُ للواقعِ.
5) وقيلَ: عبارةٌ عنِ العلمِ المستقرِّ فِي القلبِ؛ لثبوتهِ منْ سببٍ متعيِّنٍ لهُ بحيثُ لَا يقبلُ الانهدامَ(4).
6) وقيلَ: العلمُ الحاصلُ عنْ نظرٍ واستدلالٍ(5).

ولعلَّ هذهِ التَّعريفاتِ متقاربةٌ فِي أداءِ المعنَى المرادِ لليقينِ، وخلاصتهَا الاعتقادُ الجازمُ والعلمُ الثَّابتُ فِي القلبِ، معَ نفيِ الشكِّ والشُّبهةِ عنهُ.

وأحسنُ مَا قيلَ فِي اليقينِ هوَ القولُ الثَّانِي وهوَ: "إيقانُ العلمِ بنفيِ الشكِّ والشُّبهةِ عنهُ بالاستدلالِ"

وخلاصةً اليقينُ هوَ: أنَّهُ الإدراكُ الجزامُ.

اليقينُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ مادَّةُ (يقن) فِي القرآنِ الكريمِ (28) مرَّةً(6).

وجاءتْ كلمةُ اليقينِ فِي الاستعمالِ القرآنِي علَى خمسةِ أوجهٍ:

الأوَّلُ: التَّصديقُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: " وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ "[البقرة: 4]، أي: بالبعثِ يصدِّقونَ، (يصدِّقونَ بعلمٍ جازمٍ).

الثَّانِي: الصِّدقُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: " وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ"[النمل: 22]، أي: بخبرٍ صدقٍ، (بخبرٍ صدقٍ علِمتُهُ يقيناً)

الثَّالثُ: المشاهدةُ والعيانُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ[التكاثر:٥]، أي: علمُ العيانِ، (يأتِي بالمشاهدةِ والنَّظرِ).

الرَّابعُ: الموتُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ"[الحجر: 99]، يعنِي: الموتُ.

الخامسُ: العلمُ المتيقَّنُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا"[النساء: ١٥٧]، أي: ومَا قتلوهُ علمًا(7)، (يقينيًّا، بلْ وهمًا).

وممَّا ينبغِي أنْ يُعلمَ أنَّ اليقينَ أعلَى درجاتِ الإدراكِ، قالَ ابنُ تيميَّةَ: "ينبغِي أنْ يُعلمَ أنَّ كلَّ واحدٍ منْ صفاتِ الحيِّ، التِي هيَ العلمُ والقدرةُ والإدراكُ ونحوهَا، لهُ منَ المراتبِ مَا بينَ أوَّلهِ وآخرهِ مَا لَا يستنبطهُ العبادُ، كالشكِّ ثمَّ الظنِّ ثمَّ العلمِ ثمَّ اليقينُ ومراتبهُ، وكذلكَ الهمُّ والإرادةُ والعزمُ..."(8).

والعبدُ يعرفُ منْ نفسهِ بلوغهُ درجةَ اليقينِ بالشَّيءِ كمَا يعرفُ أنَّهُ رأَى الشَّيءَ أوْ سمعهُ، يقولُ ابنُ تيميَّةَ: "العلمُ واليقينُ يجدهُ الإنسانُ منْ نفسهِ كمَا يجدُ سائرَ إدراكاتهِ وحركاتهِ مثلمَا يجدُ سمعهُ وبصرهُ وشمَّهُ وذوقهُ، فهوَ إذَا رأَى الشَّيءَ يقينًا يعلمُ أنَّهُ رآهُ، وإذَا علمهُ يقينًا يعلمُ أنَّهُ علمهُ، وأمَّا إذَا لمْ يكنْ مستيقنًا، فإنَّهُ لَا يجدُ مَا يجدهُ العالمُ، كمَا إذَا لمْ يستيقنْ رؤيتهُ لمْ يجدْ مَا يجدهُ الرَّائِي، وإنَّمَا يكونُ عندهُ ظنٌّ ونوعُ إرادةٍ توجبُ اعتقادهُ"(9).

وبابُ اليقينِ وأقسامهِ ودرجاتهِ واسعٌ جدًّا وكلامُ فيهِ يطولُ، والمقامُ لَا يحتملُ ذلكَ، لكنْ وجبَ منْ تعريفِ اليقينِ، تعريفُ نظائرهِ وأضدادهِ، وبهذَا يتَّضحُ أكثرَ.

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.
(2) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي.
(3) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص٢٥٩، تاج العروس، الزبيدي، ٣٦ / ٣٠٠.
(4) الكليات، الكفوي، ٩٨٠/١.
(5) المصباح المنير، الفيومي، ٦٨١/٢.
(6) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٤٨-٧٤٩.
(7) انظر: الوجوه والنظائر، الدمغاني ص ٤٧٨، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٦٣٥، ٦٣٦، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص ٥١٠ – بتصرف.
(8) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.
(9) جامع الرسائل لابن تيمية.

مراتبُ الإدراكِ:

أوَّلًا: الأدراكُ لغةً: مصدرُ أدركَ[1]، وأدركَ الصبيُّ والفتاةُ: إذَا بلغَا، ويطلقُ الإدراكُ فِي اللُّغةِ ويرادُ بهِ: اللَّحاقُ، يقالُ: مشيتُ حتَّى أدركتهُ، ويرادُ بهِ أيضًا: البلوغُ فِي الحيوانِ والثَّمرِ، كمَا يستعملُ فِي الرُّؤيةِ فيقالُ: أدركتهُ ببصرِي: أيْ رأيتهُ، وقدْ استعملَ الفقهاءُ الإدراكَ بمعنَى: بلوغِ الحلمِ، فيكونُ مساويًا للفظِ البلوغِ بهذَا الإطلاقِ، ويطلقُ بعضُ الفقهاءِ الإدراكَ ويريدونَ بهِ أوانُ النضجِ[2].

ثانيًا: الإدراكُ اصطلاحًا: وصولُ النَّفسِ إلَى المعنَى بتمامهِ[3]، والإدراكُ هوَ العلمُ.

وللإدراكِ مراتبُ ستٌّ[4]:

1) العلمُ: وهوَ إدراكُ الشَّيءِ علَى مَا هوَ عليهِ إدراكًا جازِمًا[5]، كأنْ ترَى شجرةً فتدركُ أنَّهَا شجرةٌ، و ترَى جملًا فتدركُ أنَّهُ جملٌ.

والعلمُ نوعانِ: علمٌ ضروريٌّ، وهوَ مَا يكونُ إدراكُ المعلومِ فيهِ ضروريًّا، بحيثُ يضطرُّ إليهِ منْ غيرِ نظرٍ ولَا استدلالٍ، كالعلمِ بأنَّ النَّارَ حارَّةٌ مثلًا.

وعلمٌ نظرِيٌّ: وهوَ مَا يحتاجُ إلَى نظرٍ واستدلالٍ، كالعلمِ بوجوبِ النِّيَّةِ للوضوءِ والغسلِ منَ الجنابةِ[6].

والإدركُ الجازمُ أوِ العلمُ بقسميهِ، هوَ الذِي يعبَّرُ عنهُ باليقينِ، واليقينُ علَى ثلاثةِ أقسامٍ، - علمُ اليقينِ – وعينُ اليقينِ – وحقُّ اليقينِ، ويجمعهَا قولهُ تعالى:" كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ (6) ثمَّ لتَرَونَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ (7)" [سورة التَّكاثر 7/6/5].

وقولهُ تعالَى: "إنَّ هَذَا لَهُوَ حقُّ اليَقِينِ" [سورة الواقعة 95].

فالأوَّلُ: هوَ العلمُ بالشَّيءِ علمًا جازمًا وهوَ اليقينُ، لقولهِ تعالَى: "وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا" [النَّمل: 14]، **قالَ الطَّبري: " وقولهُ: (وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ) يقولُ: وأيقنتهَا قلوبهمْ، وعلمُوا يقينًا أنَّهَا منْ عندِ اللهِ...[7].**
والثَّاني: هيَ الرُّؤيةُ التِي تحقِّقُ درجةً منَ اليقينِ أعلَى منَ علمِ اليقينِ، والثَّالثُ: هيَ الحقيقةُ الملموسةُ، وهوَ بدخولِهِمْ للجحيمِ، حينهَا يتحقَّق مَا علِموهُ يقينًا ثمَّ رأوهُ، وهوَ حقُّ اليقينِ، ومنهُ قولهُ تعالى: "وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا" [سورة الأعراف: 44].
أيْ وجدُوا مَا وعدهمْ ربُّهمْ حقَّ اليقينِ، وكانُوا قدْ علموهُ فِي دنياهُمْ علمَ اليقينِ، ثمَّ رأوهُ يومَ القيامةِ عينَ اليقينِ، ثمَّ دخلُوا الجنَّةَ فتحقَّقَ اليقينُ.
2) الظَّنُّ: وهوَ إدراكُ الشَّيءِ معَ احتمالِ ضدٍّ مرجوحٍ[7]، وهوَ تجويزُ أمرينِ أحدُهُمَا أرجَحُ منَ الآخرِ، فالرَّاجِحُ هوَ الظَّنُّ.
3) الشَّكُّ: وهوَ إدراكُ الشَّيءِ معَ احتمالٍ مساوٍ[8]، وهوَ تجويزُ أمرينِ لَا أحدَ فيهمَا أرجحُ منَ الآخرِ، ولَا مزيَّةَ لأحدهمَا علَى الآخرِ، أيْ استوَى طرفاهُ.
وهذَا الذِي أخطأَ فيهِ الكثيرونَ حينَ اختلطَ عليهِمُ الأمرُ بينَ الشَّكِ والظَّنِّ والفرقُ بينهمَا شاسعٌ، وهوَ نقيضُ اليقينِ.
فالشَّكُّ هوَ أنْ يبقَى الشَّاكُّ متذبذبًا بينَ أمرينِ ولَا يدرِي الحقيقةَ فِي أيِّهمَا، وأمَّا الظنُّ فهوَ مَا قُرِّرَ بعدَ النَّظرِ.
4) الوهمُ: وهوَ إدراكُ الشَّيءِ معَ احتمالِ ضدٍّ راجحٍ[9]، وهوَ مرجوحُ الظَّنِّ.
كمنْ رأَى ماءً منْ بعيدٍ، فدقَّقَ النَّظرَ فرجَّحَ أنَّهُ ماءٌ، فترجيحهُ هذَا هوَ الظَّنُّ، فلمَّا اقتربَ منَ الماءِ وجدهُ سرابًا، فهذَا ضدُّ الظنِّ ومرجوحهُ، ويسمَى وهمًا، فيقولُ: "ظننتُ

أنِّي رأيتُ ماءً لكنَّني وهمتُ ذلكَ"، لذلكَ سميَّ مرجوحَ الظَّنِّ وهمًا.

5) الجهلُ البسيطُ: وهوَ عدمُ إدراكِ الشَّيئِ بالكلِّيَّةِ[10].

كمنْ سألتهُ عنْ شيءٍ، فقالَ: لَا أدرِي، وهوَ لَا يدرِي حقيقةً.

6) الجهلُ المركَّبُ: وهوَ إدراكُ الشَّيءِ علَى خلافِ مَاهوَ عليهِ[11]، وهوَ شرٌّ مَا فِي البابِ، بحيثُ رُكِّبَ علَى صاحبهِ العديدُ منَ الأمورِ، أوَّلُهَا: أنَّهُ جاهلٌ بالشَّيءِ، الثَّاني: أنَّهُ جاهلٌ بأنَّهُ جاهلٌ، الثَّالثُ: أنَّهُ مدركٌ للشَّيءِ علَى خلافِ مَاهوَ عليهِ، فرُكِّبَ عليهِ جهلانِ وعلمٌ مخالفٌ للحقيقةِ، لذلكَ سمِّيَ جهلًا مركَّبًا، وفيهِ كتَبَ أحدهمْ بيتينِ بشكلِ طُرافةٍ حيثُ قالَ:

قالَ حمارُ الحكيمِ تومَا:

لوْ أنصفَ الدَّهرُ لكنتُ أركَبُ - لأنَّنِي -

جاهلٌ بسيطٌ وصاحبِي جاهلٌ مركَّبُ

ونحنُ لَا نقولُ لوْ أنصفَ الدَّهرُ، فالدَّهرُ هوَ اللهُ تعالَى كمَا نصَّ علَى ذلكَ الحديثُ حيثُ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فِي مَا يخبرُ بهِ عنْ ربِّهِ: "يؤذينِي ابنُ آدمَ يسبُّ الدَّهرَ وأنَا الدَّهرُ..."[1].

ولكنَّنَا نقولُ "لو أنصفَ القومُ لكنتُ أركبُ"، وما كتبناهَا إلَّا للأمانةِ العلميَّةِ.

---

(1) معجم المعاني.
(2) الموسوعة الفقية موقع اسلام واب.
(3) شرح نظم العمريطي.
(4) محمد بن صالح العثيمين في شرحه لثلاثة الأصول مراتب الإدراك. وينظر حاشية كتاب "زينة النواظر وتحفة الخواطر" لابن عطاء الله السكندري.
(5) السابق
(6) السَّابق نفسه.
(7) تفسير الطبري.
(8) محمد بن صالح العثيمين في شرحه لثلاثة الأصول مراتب الإدراك. وينظر حاشية كتاب "زينة النواظر وتحفة الخواطر" لابن عطاء الله السكندري.
(9) ينظر حاشية كتاب "زينة النواظر وتحفة الخواطر" لابن عطاء الله السكندري.
(10) السَّابق.
(11) السَّابق.

وتومَا هذَا كانَ رجلًا يدَّعِي الحكمةَ، وهوَ فِي أصلهِ جاهلٌ جهلًا مركَّبًا، ومنْ حكمِهِ أنَّهُ أفتَى يومًا النَّاسَ وقالَ:
"تصدَّقُوا ببناتكمْ علَى شبابِ المسلمينَ"، وهوَ لَا يدرِي أنَّ النِّكاحَ لهُ شروطٌ يصحُّ بهَا العقدُ، وإنِ اختلَّتِ الشُّروطُ فهوَ زنًا.

فقالَ: المحبِّيُ فِي ذلكَ:

تصدَّقَ بالبناتِ علَى البنينِ * يريدُ بذلك جنَّةَ النَّعيمِ[2].

وتومَا هذَا كانَ أبوهُ طبيبًا وبعدَ وفاتهِ ورثَ كتبَ أبيهِ وبدأَ يشتغلُ بهَا، وكانَ يقرأُ "الحبَّةُ السَّوداءُ شفاءٌ منْ كلِّ داءٍ"، غيرَ أنَّ النُّسخةَ التِي كانَ يقرأُ منهَا فيهَا خطأٌ املائيٌ بسيطٌ، حيثُ استُبدِلَتْ كلمةُ "الحبَّةُ" بـ "الحيَّةِ" فقرأهَا "الحيَّةُ السَّوداءُ شفاءٌ منْ كلِّ داءٍ"، وقيلَ أنَّهُ كانَ يبحثُ عنْ حيَّةٍ سوداءَ فلدغتهُ وماتَ، وفِي روايةٍ قيلَ أنَّهُ تسبَّبَ بموتِ خلقٍ كثيرٍ.

وقد قال أبو حيَّان النَّحوي:

يظنُّ الغَمرُ أنَّ الكتْبَ تهدِي*أخَا فهمٍ لإدراكِ العلومِ

ومَا يدرِي الجهولُ بأنَّ فيهَا*غوامضَ حيَّرتْ عقلَ الفهيمِ

إذَا رُمتَ العلومَ بغيرِ شيخٍ*ضللتَ عنِ الصِّراطِ المستقيمِ

وتلتبسُ الأمورُ عليكَ حتَّى*تكونَ أضلّ منْ تومَا الحكيمِ[3].

---

(1) (متَّفقٌ عليهِ).

(2) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر.

(3) الأداب الشرعية لابن مفلح (2/ 152).

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: أمرَ اللهُ بالصَّبرِ، وأثنَى علَى الصَّابرينَ، وذكرَ جزاءهمْ العاجلَ والآجلَ فِي عدَّةِ آياتٍ، نحوَ تسعينَ موضعًا، وهوَ يشملُ أنواعهُ الثَّلاثةِ: الصبرُ علَى طاعةِ اللهِ، حتَّى يؤدِّيهَا كاملةً منْ جميعِ الوجوهِ، والصَّبرُ عنْ محارمِ اللهِ حتَّى ينهَى نفسهُ الأمَّارةَ بالسُّوءِ عنهَا، والصَّبرُ علَى أقدارِ اللهِ المؤلمةِ، فيتلقَّاهَا بصبرٍ وتسليمٍ، غيرِ متسخِّطٍ فِي قلبهِ ولَا بدنهِ ولَا لسانهِ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى فِي بابِ الأمرِ: " فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ" [الأحقاف: 53].

وقالَ تعالَى فِي الثَّناء علَى الصَّابرينَ: " وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّـهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" [البقرة: 155 – 156 – 157].

وقالَ تعالَى فِي ذكرِ جزاءِ الصَّابرينَ: " وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا" [الإنسان: 12].

وقدْ وردَ ذكرُ الصَّبرِ ومشتقَّاتهِ (مائةً وثلاثَ) مرَّاتٍ فِي القرآنِ الكريمِ، فنجدُ أنَّهُ ذُكرَ فِي (خمسةٍ وأربعينَ) سورةٍ تُمثِّلُ بمجموعهَا (أربعينَ بالمئةِ) منْ مجموعِ سورِ القرآنِ الكريمِ البالغِ عددهَا (مائةً وأربعةَ عشرَ) سورة.

وأمَّا السُّورُ التِي يتكرَّرُ فيهَا ذكرُ كلمةِ "الصَّبرِ" عدَّةَ مرَّاتٍ فهيَ: البقرةُ (9 مرَّات)، آلِ عمرانَ (8 مرَّات)، الكهفُ (8 مرَّات) النَّحلُ (7 مرات)، وتشكِّلُ هذهِ بمجموعهَا ثلثَ المرَّاتِ

التِي يردُ فيهَا ذكرُ الصَّبرِ، وتحتوِي (ثلاثةٌ وتسعينَ) آيةً علَى كلمةِ الصَّبرِ، و(عشرَ) منَ هذهِ الآياتِ يردُ فيهَا ذكرُ الصَّبرِ مرَّتينِ كمَا تردُ كلمةُ "اصبرْ" (تسعةَ عشرَ مرَّةً) و"اصبرُوا" (خمسةَ عشرَ مرَّةً)، و"الصَّابرينَ" بعددِ المرَّاتِ نفسهَا.

والصَّبرُ لغةً: نقيضُ الجَزَعِ، وصَبَرَ يَصْبِرُ صَبْـرًا فهوَ صابِرٌ وصَبَّارٌ وصَبِيرٌ وصَبُورٌ، والأُنثَى صَبُورَ أَيضًا بغيرِ هاءٍ، وجمعهُ صُبُـرٌ، وأَصلُ الصَّبْرِ الحَبْسُ وكلُّ منْ حَبَسَ شيئًا فقدْ صَبَرَهُ، والصَّبرُ: حبسُ النَّفسِ عنِ الجزعِ[1].

الصَّبرُ اصطلاحًا: هوَ حبسُ النَّفسِ عنْ محارمِ اللهِ تعالَى، وحبسهَا علَى فرائضهِ، وحبسهَا عنِ التَّسخُّطِ والشِّكايةِ لأقدارهِ[2].

وقيلَ هوَ: تركُ الشَّكوَى منْ ألمِ البلوَى لغيرِ اللهِ، لَا إلَى اللهِ[3].

وقيلَ الصَّبرُ: حبسُ النَّفسِ علَى مَا يقتضيهِ العقلُ والشَّرعُ، أوْ عمَّا يقتضيانِ حبسهَا عنهُ[4].

وللصَّبرِ أقسامٌ ثلاثةٌ، لَا يُسمَى الإنسانُ صابرًا حتَّى يأتِي بهَا، وقدْ ذكرهَا الشَّيخُ السَّعدِي وقالَ: "الصبرُ علَى طاعةِ اللهِ، حتَّى يؤدِّيهَا كاملةً منْ جميعِ الوجوهِ، والصَّبرُ عنْ محارمِ اللهِ حتَّى ينهَى نفسهُ الأمَّارةَ بالسُّوءِ عنهَا، والصَّبرُ علَى أقدارِ اللهِ المؤلمةِ، فيتلقَّاهَا بصبرٍ وتسليمٍ، غيرِ متسخِّطٍ فِي قلبهِ ولَا بدنهِ ولَا لسانهِ".

وذكرهَا ابنُ القيِّمِ علَى مَا يلِي:

1) الصَّبرُ علَى الأوامرِ والطَّعاتِ حتَّى يُؤدِّيهَا.
2) الصَّبرُ علَى المناهِي والمخلافاتِ حتَّى لَا يقعَ فيهَا.
3) الصَّبرُ علَى الأقدارِ والأقضيةِ حتَّى لَا يتسخَّطهَا[5].

أهميَّةُ الصَّبرِ:

قالَ زينُ العابدينَ عليُّ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهمَا: إذَا جمعَ اللهُ الأوَّلينَ والآخرينَ ينادِي منادٍ: أينَ الصَّابرونَ ليدخلُوا الجنَّةَ قبلَ الحسابِ؟ قالَ: فيقومُ عُنقٌ منَ النَّاسِ ـ أيْ جماعةٌ منَ النَّاسِ ـ فتتلقَّاهمُ الملائكةُ فيقولونَ: إلَى أينَ يَا بنِي آدمَ؟ فيقولونَ: إلَى الجنَّةِ، فيقولونَ: قبلَ الحسابِ؟ قالُوا: نعمْ، قالُوا: منْ أنتمْ؟ قالُوا: نحنُ الصَّابرونَ، قالُوا: ومَا كانَ صبركمْ؟ قالُوا: صبرنَا علَى طاعةِ اللهِ، وصبرنَا عنْ معصيةِ اللهِ حتَّى توفَّانَا اللهُ، قالُوا: أنتمْ كمَا قلتمْ، ادخلُوا الجنَّةَ فنعمَ أجرُ العاملينَ(6).

والصَّابرُ هوَ المتوكِّلُ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا: خرجَ علينَا النَّبيُّ ﷺ يوماً فقالَ: "عُرضتْ عليَّ الأممُ، فجعلَ يمرُّ النَّبيُّ معهُ الرَّجلُ، والنَّبيُّ معهُ الرَّجلانِ، والنَّبيُّ معهُ الرَّهطُ، والنَّبيُّ ليسَ معهُ أحدٌ، ورأيتُ سواداً كثيراً سدَّ الأفقَ، فرجوتُ أنْ تكونَ أمَّتِي، فقيلَ: هذَا موسَى وقومهُ، ثمَّ قيلَ لِي: انظرْ، فرأيتُ سواداً كثيراً سدَّ الأفقَ، فقيلَ لِي: انظرْ هكذَا وهكذَا، فرأيتُ سواداً كثيراً سدَّ الأفقَ فقيلَ: هؤلاءِ أمَّتكَ، ومعَ هؤلاءِ سبعونَ ألفاً يدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ؛ فتفرَّقَ النَّاسُ، ولمْ يبيِّنْ لهمْ فتذاكرَ أصحابُ النَّبيِّ ﷺ، فقالُوا: أمَّا نحنُ فولدنَا فِي الشِّركِ، ولكنَّا آمنَّا باللهِ ورسولهِ، ولكنْ هؤلاءِ همْ أبناؤنَا، فبلغَ النَّبيَّ ﷺ فقالَ: همُ الذينَ لَا يتطيَّرونَ ولَا يكتوونَ ولَا يسترقونَ وعلَى ربِّهمْ يتوكَّلونَ، فقامَ عكاشةُ بنُ محصنٍ، فقالَ: أمنهمْ أنَا يَا رسولَ اللهِ؟ قالَ: نعمْ، فقامَ آخرُ، فقالَ: أمنهمْ أنَا؟ فقالَ: سبقكَ بهَا عكاشةَ(7).

وعندَ الإمامِ مسلمٍ منْ حديثِ عمرانَ بنِ حصينٍ، قالَ: قالَ نبيُّ اللهِ ﷺ: يدخلُ الجنَّةَ منْ أمَّتِي سبعونَ ألفاً بغيرِ حسابٍ، قالُوا: ومنْ همْ يَا رسولَ اللهِ؟ قالَ: همُ الذينَ لَا يكتوونَ ولَا

يسترقونَ وعلَى ربِّهِمْ يتوكَّلونَ، فقامَ عكاشةُ، فقالَ: ادعُ اللهَ أنْ يجعلنِي منهمْ، قالَ: أنتَ منهمْ[8].

والمتوكِّلونَ همْ فِي أعلَى درجاتِ الصَّابرينَ علَى البلايَا، حتَّى أنَّهمْ لَا يطلبونَ منْ يرقيهمْ لمرضٍ ماديٍّ أوْ معنويٍّ أوْ روحيٍّ، ولَا يكتوونَ لأنهُ منهيٌّ عنهُ، ولَا يتطيَّرونَ أيْ لَا يتشائمونَ منْ شيءٍ لعلمهمْ أنَّ الأمرَ كلُّهُ بيدِ اللهِ تعالَى وحدهُ، وبهذَا فهمْ لَا يشتكونَ لمخلوقٍ قطُّ، وهذَا هوَ عين الصَّبرِ والرِّضَى.

والصَّبرُ لَا يمنعُ الشَّكوَى إلَى اللهِ تعالَى ولكنْ يمنعُ الشَّكوَى لغيرهِ، فقدِ اشتكَى أنبياءُ عدَّةٌ إلَى اللهِ تعالَى منهمْ يعقوبُ عليهِ السَّلامُ، قالَ تعالَى: "قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" [يوسف: 86]**.**

قالَ الطَّبري: " يقولُ تعالَى ذكرهُ: قالَ يعقوبُ للقائلينَ لهُ منْ ولدهِ: "تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ": لستُ إليكمْ أشكُو بثِّي وحزنِي، وإنَّمَا أشكُو ذلكَ إلَى اللهَ.

ويعنِي بقولهِ: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي)، مَا أشكُو هَمِّي وحزنِي إلَّا إلَى اللهِ[9].

وهذهِ دلالةٌ علَى أنَّ الشَّكوَى للمخلوقينَ مكروهةٌ، وتحرمُ فِي حالتٍ، إنْ كانَ الشَّاكِي متسخِّطٌ علَى أقدارِ اللهِ تعالَى، وهيَ للهِ مندوبةٌ، وواجبةٌ فِي حالاتٍ، لدلالةِ الآياتِ علَى وجوبِ الدُّعاءِ، والشَّكوَى للهِ هيَ دعاءٌ.

(1) الصحاح للجوهري (ص 706) - ولسان العرب لابن منظور (437/4).
(2) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص 18).
(3) التعريفات)) للجرجاني (ص 131).
(4) مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني (474) - وقريب منه تعريف ابن القيم الصبر بأنه: ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية. (الروح) (ص 241).
(5) مدارج السالكين لابن القيم.
(6) ينظر مختصر ابن كثير في تفسيره (143/1) والحلية لأبي نعيم (139/3).
(7) رواهُ البخاري.
(8) رواه مسلم.
(9) تفسير الطبري.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وكذلكَ أثنَى اللهُ علَى الشُّكرِ، وذكرَ ثوابَ الشَّاكرينَ، وأخبرَ أنَّهمْ أرفعُ الخلْقِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ.

وحقيقةُ الشُّكرِ هوَ: الاعترافُ بجميعِ نعمِ اللهِ، والثَّناءُ علَى اللهِ بهَا، والاستعانةُ بهَا علَى طاعةِ المنعمِ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بالشُّكرِ فِي مواقعَ كثيرةٍ منَ القرآنِ أذكرُ منهَا قولهُ تعالَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" [البقرة: 172].

وقالَ تعالَى: "فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" [النحل: 114].

وأثنَى اللهُ تعالَى علَى الشُّكرِ والشَّاكرينَ بقولهِ: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ۚ" [النحل: 120].

وذكرَ تعالَى ثوابَ الشَّاكرينَ فِي نفسِ الآيةِ السَّابقةِ ذاكرًا ثوابَ وجزاءَ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ فِي الدُّنيَا والأخرَى فقالَ: "اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122)"[النحل: 121 – 122].

وقالَ فِي حقِّ لوطِ عليهِ السَّلامُ: "إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35)"[القمر: 34 – 35].
~~~~~~~~~~

والشُّكرُ لغةً: منْ شكَرَ، يَشكُرُ، شُكْرًا وشُكرانًا وشُكورًا، فهوَ شاكرٌ، والمفعولُ مَشْكورٌ.

تقولُ: شكَرَ اللهَ وشكَر للهِ: أيْ حمِدهُ وذكرَ نعمتهُ وأثنَى عليهِ.

وشكَرَ فلانًا علَى نصائحهِ: أعربَ لهُ عنِ امتنانهِ بهَا[1].

ومادَّةُ (شكرَ) تدلُّ فِي اللُّغةِ علَى الثَّناءِ علَى المحسنِ، والمجازاةِ، وعِرْفَانِ الإحسانِ، يُقالُ: شَكَرَهُ وشَكَرَ له يَشْكُرُ شُكْراً وشُكُوراً وشُكْراناً.

فالشُّكْرُ بالضمِّ: عِرْفانُ الإحسانِ ونَشْرُهُ، أوْ لَا يكونُ إلاَّ عنِ يَدٍ.

يقولُ الجرجانِي: والشُّكرُ اللُّغويُّ هوَ الوصفُ بالجميلُ علَى جهةِ التَّعظيمِ والتَّبجيلِ علَى النِّعمةِ منَ اللِّسانِ والجنانِ والأركانِ[2].

الشُّكرُ اصطلاحًا: يقولُ الجرجانِي: الشُّكرُ العرفيُّ هوَ: صرفُ العبدِ جميعَ مَا أنعمَ اللهُ بهِ عليهِ منَ السمعِ والبصرِ وغيرهمَا إلَى مَا خلقهُ لأجلهِ[3].

وقيلَ فِي تعريفهِ: هوَ الاعترافُ بنعمةِ المنعمِ علَى وجهِ الخضوعِ.

وقيلَ: الثَّناءُ علَى المُحسنِ بذِكرِ إحسانهِ، فالعبدُ يشكرُ اللهَ أيْ يثنِي عليهِ بذكرِ إحسانهِ الذِي هوَ نعمةٌ، واللهُ يشكرُ العبدَ أيْ يثنِي عليهِ بقبولهِ إحسانهِ الذِي هوَ طاعتهُ.

وقالَ بعضهمْ: هوَ عُكُوفُ القَلْبِ علَى محبَّةِ المنعمِ، والجوارحِ علَى طاعتهِ، وجَريانَ اللسانِ بذِكْره والثَّناءِ عليهِ، وهذَا تعريفٌ للشُّكرِ بضروبهِ الثَّلاثةِ.

وقيلَ: هوَ إضافةُ النِّعمِ إلَى مَولاهَا، وقالَ بعضهمْ: الشُّكْرُ: اسْتِفْراغُ الطاقةِ يعنِي فِي الخدمةِ.

الفرقُ بينَ الشُّكرِ والحمدِ:

قدْ قالَ العلماءُ كثيرًا منَ الكلامِ فِي الفرقِ بينَ الشُّكرِ والحمدِ، ومنهمْ منْ لمْ يفرِّقْ بينهمَا.

فقدْ قالَ اللِّحيانِي: الحمدُ: الشُّكرُ، فلمْ يفرِّقْ بينهمَا.

وقالَ الأخفشُ: الحمدُ للهِ: الشُّكرُ للهِ، وقالَ: والحمدُ للهِ الثَّناءُ[4].

والصَّحيحُ أنَّ بينَ الشُّكرِ والحمدِ فرقٌ، وأوَّلُ دلالاتِ الفرقِ بينهمَا أنَّ كلَّ لفظٍ منهمَا ذُكرَ مستقلًا فِي القرآنِ.

فالحمدُ لغةً: نفيضُ الذمِّ؛ يقالُ: حمدتهُ علَى فعلهِ، ومنهُ المحمدةُ خلافُ المذمَّةِ[5].

وقالَ الجرجانِي: الحمدُ هوَ: الثَّناءُ الجميلُ منْ جهةِ التَّعظيمِ منْ نعمةٍ وغيرهَا[6].

وقالَ ثعلبةُ: الحمدُ يكونُ عنْ يدٍ وعنْ غيرِ يدٍ، والشُّكرُ لَا يكونُ إلَّا عنْ يدٍ[7].

الحمدُ اصطلاحًا: الثَّناءُ بالكلامِ علَى الجَميلِ الاختيارِي علَى وجهِ التَّعظيمِ، فموردهُ: اللِّسانُ والقلبُ، والشُّكرُ يكونُ باللِّسانِ والجَنانِ والأركانِ؛ فهوَ أعمُّ منَ الحمدِ متعلَّقًا،

وأخصُّ منهُ سببًا؛ لأنَّهُ يكونُ فِي مُقابلةِ النِّعمةِ، والحمدُ أعمُّ سببًا وأخصُّ متعلَّقًا؛ لأنَّهُ يكونُ فِي مقابلةِ النِّعمةِ وغيرِهَا، فبينهمَا عمومٌ وخصوصٌ وجهِيٌّ، يَجتمعانِ فِي مادَّة وينفرِدُ كلُّ واحدٍ عنِ الآخرِ فِي مادَّةٍ(8).

وقدْ قسَّمَ الجرجانِي الحمدَ إلَى أقسامٍ خمسةٍ وقالَ:

1) الحمدُ الحالِي هوَ: الذِي يكونُ بحسبِ الرُّوحِ والقلبِ كالاتصافِ بالكمالاتِ العلميَّةِ والعمليَّةِ والتخلُّقِ بالأخلاقِ الإلهيَّةِ.

2) الحمدُ العرفيُّ هوَ: فعلٌ يُشعرُ بتعظيمِ المنعمِ بسببِ كونهِ منعمًا أعمُّ منْ أنْ يكونَ فعلُ اللِّسانِ أوالأركانِ.

3) الحمدُ الفعلِي هوَ: الإتيانُ بالأعمالِ البدنيَّةِ ابتغاءً لوجهِ اللهِ تعالَى.

4) الحمدُ القوليُّ هوَ: حمدُ اللِّسانِ وثناؤهُ علَى الحقِّ بمَا أثنَى بهِ علَى نفسهِ علَى لسانِ أنبيائهِ.

5) الحمدُ اللُّغويُّ هوَ: الوصفُ بالجميلِ علَى جهةِ التَّعظيمِ والتبجيلِ باللِّسانِ وحدهُ.

وفِي تاجِ العروسِ قالَ الزُّبيدِي: وقدْ تكلَّمَ النَّاسُ فِي الفرقِ بينَ الحمدِ والشُّكرِ أيُّهمَا أفضلُ؟ والفرقُ بينهمَا أنَّ الشُّكرَ أعمُّ منَ جِهةِ أنواعهِ وأسبابهِ وأخصُّ منْ جِهةِ مُتعلِّقاتهِ، والحمدُ أعمُّ منْ جهةِ المُتعلِّقاتِ وأخصُّ منْ جهةِ الأسبابِ، ومعنَى هذَا أنَّ الشُّكرَ يكونُ بالقلبِ خُضُوعاً واستكانةً وباللِّسانِ ثناءً واعترافاً، وبالجوارحِ طاعةً وانقياداً ومتعلِّقةُ النِّعمِ دونَ الأوصافِ ذاتيَّةِ، فلَا يقالُ: شَكرنَا اللهَ علَى حياتهِ

وسَمعهِ وبصرهِ وعلمهِ، وهوَ المحمودُ بهَا كمَا هوَ محمودٌ علَى إحسانهِ وعدلهِ، والشُّكرُ يكونُ علَى الإحسانِ والنِّعمِ، فكلُّ مَا يتعلَّقُ بهِ الشُّكرُ يتعلَّقُ بهِ الحمدُ منْ غيرِ عكسٍ، وكلُّ مَا يقعُ بهِ الحمدُ يقعُ بهِ الشُّكرُ منْ غيرِ عكسٍ، فإنَّ الشُّكرَ يقعُ بالجوارحِ والحمدُ باللِّسانِ(9).

وقالَ ابنُ منظورٍ فِي اللِّسانِ: فالحمدُ شكرٌ وزيادةٌ، وأمَّا الشُّكرُ فهوَ الثَّناءُ علَى المحسنِ، بسببِ مَا قدَّمَ منْ معروفٍ(10).

وأحسنُ منْ فرَّقَ بينَ الشُّكرِ والحمدِ "ثعلبةُ" حينَ قالَ: الحمدُ يكونُ عنْ يدٍ وعنْ غيرِ يدٍ، والشُّكرُ لَا يكونُ إلَّا عنْ يدٍ(11).

ويمكنُ أنْ نفرِّقَ بينَ الحمدِ والشُّكرِ بأنْ نقولَ: الحمدُ أعمُّ منَ الشُّكر، لأنَّ الحمدَ يقعُ علَى السرَّاءِ والضرَّاءِ، ويقعُ علَى مقابلِ النِّعمةِ ويقعُ علَى غيرِ مقابلِ النِّعمةِ، والشُّكرُ لَا يقعُ إلَّا علَى السرَّاءِ، ولَا يقعُ علَى الضرَّاءِ، لقولهِ تعالَى: "لَإِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمِ" [إبراهيم: 7] ولَا يقعُ إلَّا علَى مقابلِ النِّعمةِ، ولَا يقعُ علَى غيرِ مقابلِ النِّعمةِ(12).

---

(1) معجم المعاني.
(2) التعريفات للجرجاني.
(3) السابق.
(4) لسان العرب الجزء الثاني.
(5) السابق.
(6) التعريفات للجرجاني.
(7) لسان العرب الجزء الثاني.
(8) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب النجدي.
(9) تاج العروس للزبيدي – والفروق – والمدارج لابن الجوزية.
(10) معجم لسان العرب لابن منظور.
(11) لسان العرب الجزء الثاني.
(12) رفع النقاب عن تنقيح الشهاب (وهو شرح الشوشاوي على شرح تنقيح الفصول للقرافي).

أنواعُ الشُّكرِ:

والشُّكرُ علَى ثلاثةِ أنواعٍ هيَ:

1) شكرُ القلبِ: وهوَ تصوُّرُ النِّعمةِ والتعرُّفِ علَى صاحبهَا.

2) وشكرُ اللِّسانِ: وهوَ الثَّناءُ علَى المنعمِ، ومنهُ قولُ النَّبِي ﷺ: "أفضلُ الذِّكرِ لَا إلهَ إِلَّا اللهُ، وأفضلُ الدُّعاءِ الحمدُ للهِ"(1)، ومنَ الشُّكرِ باللِّسانِ التَّحدُّثُ بنعمةِ اللهِ تعالَى عليكَ فعنْ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ النَّبيُّ ﷺ علَى المنبرِ: "منْ لمْ يشكرِ القليلَ لمْ يشكرِ الكثيرَ، ومنْ لمْ يشكرِ النَّاسَ لمْ يشكرِ اللهَ عزَّ وجلَّ، والتَّحدُّثُ بنعمةِ اللهِ شكرٌ، وتركهَا كفرٌ، والجماعةُ رحمةٌ، والفرقةُ عذابٌ(2).

3) وشكرُ الجوارحِ: هوَ مكافأةُ النِّعمةِ بقدرِ استحقاقهِ، بمعنَى استعمالهَا فيمَا خُلقتْ لهُ.

ومنهُ قولهُ تعالَى: "اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً" [سبأ: 13]، قالَ ابنُ كثيرٍ: "وقولهُ: (اِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا) أيْ: وقلنَا لهمْ اعملُوا شكرًا علَى مَا أنعمَ بهِ عليكمْ فِي الدُّنيَا والدِّينِ.

وشكرًا: مصدرٌ منْ غيرِ الفعلِ، أوْ أنَّهُ مفعولٌ لهُ، وعلَى التَّقديرينِ فيهِ دلالةٌ علَى أنَّ الشُّكرَ يكونُ بالفعلِ كمَا يكونُ بالقولِ وبالنيَّةِ، كمَا قالَ الإمامُ الشَّيبانِي:

أفادتكمُ النِّعماءُ منِّي ثلاثةٌ * يدِي ولسانِي والضَّميرُ المحجبَا(3).

قالَ أبُو عبدِ الرَّحمنِ الحُبلِي: الصَّلاةُ شكرٌ، والصِّيامُ شكرٌ، وكلُّ خيرٍ تعملهُ للهِ شكرٌ، وأفضلُ الشُّكرِ الحمدُ. رواهُ ابنُ جريرٍ...(4).

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: وحقيقةُ الشُّكرِ فِي العبوديَّةِ هيَ ظهورُ أثرِ نعمةِ اللهِ علَى لسانِ عبدهِ: ثناءً واعترافًا، وعلَى قلبهِ: شهودًا ومحبَّةً، وعلَى جوارحهِ: انقيادًا وطاعةً[5].

مبانِي الشُّكرِ:

يُبنَى الشُّكرُ علَى خمسةِ قواعدَ يدورُ عليهَا الكلامُ فِي الشُّكرِ:

وأوَّلُ هذهِ القواعدِ هيَ: خضوعُ الشَّاكرِ للمشكورِ.

والثَّانيةُ: الحبُّ للمشكورِ.

والثَّالثةُ: اعترافُ الشَّاكرِ بنعمةِ المشكورِ.

الرَّابعةُ: ثناءُ الشاكرِ عليهِ.

والخامسةُ: استعمالُ هذهِ النِّعمِ فيمَا يرضيهِ، وعدمِ استعمالهَا فيمَا يكرهُ[6].

وجاءَ فِي تاجِ العروسِ: الشُّكرُ مبنِي علَى خمسِ قواعدَ: خُضُوعُ الشَّاكرِ للمَشْكُورِ، وحُبُّهُ لهُ، واعترافهُ بنعمتهِ، والثَّناءُ عليهِ بهَا، وألَّا يَسْتَعْمِلهَا فيمَا يكرهُ، هذهِ الخمسةُ هيَ أساسُ الشُّكْرِ وبناؤهُ عليهَا، فإنْ عُدمَ منهَا واحدةٌ اختلَّتْ قاعدةٌ منْ قواعدِ الشُّكرِ، وكلّ منْ تكلَّمَ في الشُّكْرِ فإنَّ كلامهُ إليهَا يَرجعُ وعليهَا يدورُ[7].

فضلُ الشُّكرِ:

قدِ اشتقَّ اللهُ تعالَى لأهلِ الشُّكرِ اسماً منْ أسمائهِ، فمنْ أسمائهِ سبحانهُ الشَّكورُ، قالَ تعالَى: "وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ" [فاطر: 34].

وقالَ سبحانهُ: "قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ" [الشورى: 23].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: "مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً" [النساء: 147].

قالَ ابنُ القيِّمِ: وسمَّى نفسهُ شاكرًا وشكورًا وسمَّى الشَّاكرينَ بهذينِ الاسمينِ فأعطاهمْ منْ وصفهِ وسمَّاهمْ باسمهِ وحسبكَ بهذَا محبَّةً للشَّاكرينَ وفضلًا[8].

درجاتُ الشُّكرِ:

1) شكرٌ علَى المحابِ.

2) شكرٌ علَى المكارهِ.

3) ألَّا يشهدَ إلَّا المنعمَ[9].

ثمارُ الشُّكرِ:

وثمارُ الشُّكرِ التِي يجنيهَا الشَّاكرُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ كثيرةٌ، ولعلَّ منْ أهمِّهَا:

1) الشُّكرُ منْ كمالِ الإيمانِ وحسنِ الإسلامِ فهوَ نصفُ الإيمانِ.

2) الشُّكرُ اعترافٌ بالمنعمِ والنعمةِ.

3) الشُّكرُ سببٌ منْ أسبابِ حفظِ النِّعمةِ بلْ منَ الزيادةِ فيهَا.

4) الشُّكرُ منْ أسبابِ كسبِ المؤمنِ رضَا الربِّ تعالَى.

5) الشُّكرُ فيهِ دليلٌ علَى سموِّ النَّفسِ وعلوِّهَا.

6) الشَّكورُ قريرُ العينِ، يحبُّ الخيرَ للآخرينَ، ولَا يحسدُ منْ كانَ فِي نعمةٍ.

ومنْ فوائدِهِ وثمارِهِ أيضاً:

1) أنَّ الشُّكرَ يجعلُ صاحبهُ منْ أهلِ خواصِ عبادِ اللهِ تعالَى وقليلٌ مَا همْ.

2) الجزاءُ الحسنُ علَى الشُّكرِ.

3) الاعتبارُ بآياتِ اللهِ تعالَى، والانتفاعُ بهَا.

4) حصولُ الآمانِ منْ عذابِ اللهِ تعالَى.

5) الاقتداءُ بالأنبياءِ الكرامِ فهمْ أهلُ الشُّكرِ، وغيرِ ذلكَ منَ الفوائدِ والثِّمارِ.

قال تعالى: "قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آَتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ" [40: النمل].

---

(1) رواه الترمذي وابن ماجه.

(2) مسند أحمد. (قال الألباني حسن صحيح).

(3) المظومة الشيبانية للإمام الشيباني الشافعي المولود: 703 المتوفى: 777.

(4) تفسير ابن كثير.

(5) مدارج السالكين لابن القيم.

(6) مدارج السالكين لابن القيم.

(7) تاج العروس للزبيدي.

(8) مدارج السالكين.

(9) للمزيد ينظر مدارج السالكين لابن القيم.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وذكرَ اللهُ الخوفَ والخشيةَ، فِي مواضعَ كثيرةٍ، أمرَ بهِ وأثنَى علَى أهلهِ، وذكرَ ثوابهمْ، وأنَّهمُ المنتفعونَ بالآياتِ، التَّاركونَ للمحرَّماتِ.

وحقيقةُ الخوفِ والخشيةِ: أنْ يخافَ العبدُ مقامهُ بينَ يدَي اللهِ، ومقامهِ عليهِ، فينهَى نفسهُ بهذَا الخوفِ عنْ كلِّ مَا حرَّمَ اللهُ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الخوفَ والخشيةَ فِي القرآنِ فِي مواقعَ كثيرةٍ أذكرُ منهَا قولهُ تعالَى فِي باب الأمرِ بالخوفِ:

"إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" [آل عمران: 175].

وقال تعالى: "وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" [البقرة: 150].

وقالَ تعالَى مثنيًا علَى أهلِ الخشيةِ وذاكرًا ثوابهمْ: "إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ" [الملك: 12].

وقالَ تعالَى ذاكرًا أهلَ الخوفِ منهُ: " وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ" [الرحمن: 46].

الخوفُ لغةً: تدلُّ مادَّةُ (خ و ف) علَى الذُّعرِ والفزعِ، يقولُ ابنُ فارسٍ: الخاءُ والواوُ والفاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ علَى الذُّعرِ والفزعِ، يقالُ خفتُ الشَّيءَ خوفًا وخيفةً[1].

الخوفُ اصطلاحًا: توقُّعُ حلولِ مكروهٍ أوْ فواتِ محبوبٍ[2].

أنواعُ الخوفِ:

1) الخوفُ منَ اللهِ تعالَى:

ويسمَى (خوفُ العبادةِ)، وهوَ الخوفُ المقترِنُ بالمحبَّةِ والتَّعظيمِ والتذلُّلِ والخضوعِ، وهوَ الذِي يحملُ العبدَ علَى الطَّاعةِ والبعدِ عنِ المعصيةِ.

حكمهُ: واجبٌ فِي حقِّ اللهِ تعالَى، وصرفهُ لغيرِ اللهِ تعالَى شركٌ أكبرٌ.

والخوفُ منَ اللهِ تعالَى قدْ يكونُ خوفًا ممدوحًا أوْ خوفًا مذمومًا:

أ) الخوفُ الممدوحُ هوَ: الباعثُ علَى العملِ، وهوَ الذِي يحملُ العبدَ علَى أداءِ الفرائضِ واجتنابِ المحرَّماتِ، فتكونُ نتيجتهُ طاعةُ اللهِ تعالَى، وحكمهُ واجبٌ، قالَ تعالَى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ منْ عبادهِ العلماءُ" [فاطر: 28].

ب) والخوفُ المذمومُ هوَ: المُقعِدُ عنِ العملِ، وهوَ مَا يحملُ العبدَ علَى اليأسِ والقنوطِ منْ رحمةِ اللهِ تعالَى، وحكمهُ: كبيرةٌ، قالَ تعالَى: "قَالَ وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الظَّالِمُونَ" [الحجر: 56].

قالَ ابنُ تيميةَ رحمهُ اللهُ تعالَى: "الخوفُ المحمودُ هوَ مَا حجزكَ عنْ محارمِ اللهِ"(3)اهـ، أمَّا إذَا زادَ الخوفُ بحيثُ يؤدِّي إلَى القنوطِ واليأسِ، فهوَ خوفٌ مذمومٌ؛ لذلكَ لَا بدَّ أنْ تتوازنَ عبادةُ الخوفِ معَ عبادةِ الرَّجاءِ(4).

2) الخوفُ منْ غيرِ اللهِ تعالَى وهوَ علَى ثلاثةِ أقسامٍ:

أ) الخوفُ الطبيعِي: وهوَ خوفُ الإنسانِ ممَّا يُؤذيهِ، مثلَ خوفِ المرءِ منَ السَّبعِ أنْ يأكلهُ، ومنَ النَّارِ أنْ تحرقهُ.

حكمهُ: مباحٌ إذَا وُجدتْ أسبابهُ.

وهذَا الخوفُ ليسَ بعبادةٍ، ووقوعهُ فِي القلبِ لَا ينافِي الإيمانَ، قالَ تعالَى عنْ موسَى: "فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ" [القصص: 21]، ولكنْ يجبُ ألَّا يزيدَ عنِ الحدِّ، وألَّا يستقرَّ فِي القلبِ، بلْ يُذهبهُ العبدُ ويَدفعهُ عنْ قلبهِ بالتوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى واللُّجوءِ إليهِ سبحانهُ، قالَ تعالَى: "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" [آل عمران: 173].

فالخوفُ الطَّبيعيُّ لَا يُلامُ عليهِ العبدُ، بشرطِ ألَّا يؤدِّي إلَى تركِ واجبٍ أوْ فعلِ محرَّمٍ، أمَّا إذَا كانَ بلَا سببٍ، أوْ سببهُ ضعيفًا كمنْ يخافُ منَ الظَّلامِ، أوْ كانَ سببًا وهميًّا فهوَ مذمومٌ.

ب) الخوفُ المحرَّمُ: وهوَ الخوفُ الذِي يحملُ علَى تركِ واجبٍ أوْ فعلِ محرَّمٍ.

وهوَ الخوفُ منَ الخلقِ فِي حدٍّ منْ حدودِ اللهِ تعالَى، فيعصِي اللهَ تعالَى خوفًا منَ النَّاسِ، أوْ يتركَ واجبًا منَ الواجباتِ خوفًا

منَ النَّاسِ؛ كمنْ يتركُ الصَّلاةَ فِي المسجدِ خوفًا منَ أنْ يُفصَلَ منْ عملهِ، وبهذهِ الصِّفةِ حكمهُ: محرَّمُ.

هذَا إنْ لمْ يكنِ الخائفُ مكرهًا؛ مُلجأً كاملًا أو حتَّى غيرَ ملجئٍ ناقصًا، لمَا سيأتِي منَ الشَّرحِ.

وشروطُ الإكراهِ أربعةٌ:

الأوَّلُ: أنْ يكونَ فاعلهُ قادرًا علَى إيقاعِ مَا يهدِّدُ بهِ والمأمورُ عاجزًا عنِ الدَّفعِ ولوْ بالفرارِ.

الثَّانِي: أنْ يغلبَ علَى ظنِّهِ أنَّهُ إذَا امتنعَ أوقعَ بهِ ذلكَ.

الثَّالثُ: أنْ يكونَ مَا هدَّدهُ بهِ فوريًّا، فلوْ قالَ: إنْ لمْ تفعلْ كذَا ضربتكَ غدًا، لَا يُعدُّ مكرهًا، ويستثنَى مَا إذَا ذكرَ زمنًا قريبًا جدًّا أوْ جرتِ العادةُ بأنَّهُ لَا يُخلفُ.

الرَّابعُ: ألَّا يَظهرَ منَ المأمورِ مَا يدلُّ علَى اختيارهِ، كمنْ أُكرهَ علَى الزِّنَا فأولجَ وأمكنهُ أنْ ينزعَ ويقولُ أنزلتُ، لكنَّهُ تمادَى حتَّى أنزلَ، فهذَا كانَ باختيارهِ أنْ ينزعَ ولكنَّهُ تمادَى.

والإكراهُ علَى قسمينِ: فقدْ قسَّمَ جمهورُ الأصوليِّينَ والفقهاءِ الإكراهَ إلَى نوعينِ: إكراهٌ ملجئٌ، وهوَ الإكراهُ التَّامُ، المعبَّرِ عنهُ بالإلجاءِ الكاملِ، وإكراهٌ غيرُ ملجئٍ، وهوَ الإكراهُ النَّاقصُ، وهوَ المعبَّرُ عنهُ بغيرِ الملجئِ النَّاقصِ.

الأوَّل: الإكراهُ الملجئُ (الكاملُ):

وهوَ الذِي يقعُ علَى نفسِ المكرهِ، ولَا يبقَى للشَّخصِ معهُ قدرةٌ ولَا اختيارٌ، كأنْ يُهدَّدَ الإنسانُ بقتلهِ أوْ بقطعِ عضوٍ منَ أعضائهِ كيدهِ أوْ رجلهِ، أوْ بضربٍ شديدٍ يفضِي إلَى هلاكهِ أوْ

بإتلافِ جميعِ مالِهِ، فمتَى غلبَ علَى ظنِّهِ أنَّ مَا هُدِّدَ بِهِ سيقعُ عليهِ، جازَ لهُ القيامُ بمَا دفعَ إليهِ بالتَّهديدِ، باعتبارهِ فِي حالةِ ضرورةٍ شرعيَّةٍ[5].

وهوَ حيثُ ينعدمُ الرِّضَا والاختيارُ، وتنتفِي الإرادةُ والقصدُ، وذلكَ بالوقوعِ تحتَ التَّعذيبِ الشَّديدِ أوْ نحوِ ذلكَ، وهذهِ الحالةُ قالَ تعالَى فيهَا: "مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ" [سورة النحل: 106].

وهذَا النَّوعُ منَ الإكراهِ اسمُ صاحبهِ ملجَئٌ كامِلٌ، وهذَا النَّوعُ يعطِي صاحبهُ الرُّخصةَ حتَّى فِي قولِ كلمةِ الكفرِ، بشرطِ أنْ يكونَ قلبهُ مطمئنًّا بالإيمانِ، فهوَ يعطيهِ الرُّخصةَ فِي كلِّ شيءٍ إلَّا القتلِ قالَ أبُو إسحاقٍ الشِّيرازِي: انعقدَ الإجماعُ علَى أنَّ المكرهَ علَى القتلِ مأمورٌ باجتنابِ القتلِ والدَّفعِ عنْ نفسهِ وأنَّهُ يأثمُ إنْ قتلَ منْ أُكرهَ علَى قتلهِ...[6].

ومنهُ حديثُ أبِي عبيدةَ بنِ محمَّدٍ بنِ عمَّارَ بنِ ياسرٍ قالَ: "أخذَ المشركونَ عمَّارًا فعذَّبوهُ حتَّى قاربهمْ فِي بعضِ مَا أرادُوا، فشكَى ذلكَ إلَى النَّبيِّ ﷺ فقالَ لهُ: كيفَ تجدُ قلبكَ؟ قالَ: مطمئنًّا بالإيمانِ، قالَ فإنْ عادُوا فعدْ "[7].

وخلاصةً هذَا النَّوعُ منَ الإكراهِ يعطِي صاحبهُ الرُّخصةَ فِي تركِ بعضِ العباداتِ العقائديَّةِ، بأنْ يأخذَ بالتَّقيَّةِ حفاظًا علَى نفسهِ، إلَّا أنَّ الإمامَ أحمدَ بنَ حنبلَ رضيَ اللهُ عنهُ، منعهَا عنِ الإمامِ المُتَّبَعِ بقولهِ: "إذَا أجابَ العالمُ تقيَّةً، والجاهلُ يجهلُ فمتَى يتبيَّنُ الحقُّ؟..."[8].

وكذلكَ قالَ لهُ صاحبهُ أبُو جعفرَ الأنبارِي الذِي عبرَ الفراتَ للقائهِ قبلَ سفرهِ إلَى طرسوسَ للمناظرةِ والتَّعذيبِ فِي قضيَّةِ

خلقِ القرآنِ، فقالَ: يَا هذَا أنتَ اليومَ رأسٌ، والنَّاسُ يقتدونَ بكَ، فواللهِ لئنْ أجبتَ إلَى خلقِ القرآنِ ليُجِيبَنَّ خلقٌ، وإنْ أنتَ لمْ تُجبْ ليَمْتَنِعَنَّ خلقٌ منَ النَّاسِ كثيرٌ، ومعَ هذَا فإنَّ الرَّجلَ إنْ لمْ يقتلكَ فإنَّكَ تموتُ، لابدَّ منَ الموتِ، فاتَّقِ اللهَ ولَا تُجبْ، فجعلَ الإمامُ أحمدُ يبكِي ويقولُ: مَا شاءَ اللهُ، ثمَّ قالَ: يَا أبَا جعفرَ أعدْ عليَّ، فأعادَ عليهِ، وأحمدُ يبكِي ويقولُ: مَا شاءَ اللهُ.

الثَّانِي: الإكراهُ غيرِ الملجئِ (النَّاقصِ):

وهوَ التَّهديدُ أوِ الوعيدُ بمَا دونَ تلفِ النَّفسِ أوِ العضوِ، كالتَّخويفِ بالضَّربِ أوِ القيدِ أوِ الحبسِ أوِ إتلافِ بعضِ المالِ، وهذَا النَّوعُ يُفسدُ الرِّضَا، ولكنَّهُ لَا يفسدُ الاختيارَ لعدمِ الاضطرارِ إلَى مباشرةِ مَا أُكرهَ عليهِ لتمكُّنهِ منَ الصَّبرِ علَى مَا هُدِّدَ بهِ[9].

وقدْ يلحقُ بهذَا النَّوعِ، التَّهديدُ بحبسِ الأبِ أوِ الابنِ أوِ الزَّوجةِ والأختِ والأمِّ والأخِ، وهناكَ نزاعٌ فِي اعتبارِ هذَا القسمِ منْ أقسامِ الإكراهِ[10]، فالقياسُ يقتضِي عدمَ اعتبارهِ منَ الإكراهِ لأنَّ الضَّررَ فيهِ لَا يلحقُ بالمكرهِ والأصلُ فِي اعتبارِ المكرهِ بهِ (وسيلةَ الإكراهِ) أنْ يلحقَ المُكرهُ بالتَّهديدِ بهِ الخوفُ والمشقَّةُ والضِّيقُ، أمَّا الاستحسانُ فيعدُّهُ منَ الإكراهِ، لأنَّ المكرهَ يلحقهُ الغمُّ والاهتمامُ والحزنُ والحرجُ إذَا أصابَ أحداً منْ محارمهِ مكروهٌ، فيندفعُ إلَى الإتيانِ بمَا أمرَ بهِ كمَا لوْ وقعَ الضَّررُ بهِ أوْ أشدُّ[11].

وهذَا النَّوعُ لَا يُسترخصُ بهِ فِي تركِ بعضِ العباداتِ العقائديَّةِ بلْ لوْ قالَ كلمةَ الكفرِ تحتَ هذَا النَّوعِ منَ الإكراهِ فقدْ كفرَ علَى الحقيقةِ، قالَ فِي نظمِ نواقضِ الإسلامِ:

لَا فرقَ فِي جميعِ مَا فِي نظمهِ * فِي خوفهِ وجدِّهِ وهزلـــــهِ
إلَّا المكرهُ رُفِعَ عَنهُ القلـــــمْ * برحمةٍ منَ الإلهِ ذِي النِّعـــمْ
ومكرهٌ تقسيمهُ عْلَى اثْنـــــنِ * مكمَّل وناقصٌ لَا بيـــــــنِ
أمَّا مكمَّلٌ تجاوز عنه السَّــلامْ * والآخر فلن يصيبهُ إلّا الملامْ[12].

وقيلَ أنَّ هذَا النَّوعَ منَ الإكراهِ يبيحُ مادونَ الكفرِ والمساسِ بمصالحِ الغيرِ، كمنْ أُكرهَ بهذَا النَّوعِ علَى حلقِ لحيتهِ، فيجوزُ لهُ حلقهَا وقسْ علَى ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

الفروقُ الأربعةُ بين المكرهِ والمضطرِّ:

يجبُ أنْ نعلمَ أوَّلًا أنَّ مصبّ الإكراهِ الفعلُ، ومصبَّ الإضطرارِ غيرهُ:

الأوَّلُ: أنَّ مصبَّ الإكراهِ هوَ الفعلُ نفسهُ، كمَا لوْ أُكرِهَ علَى البيعِ، تحتَ وطأةِ السَّيفِ.

وأمَّا مصبُّ الاضطرارِ فهوَ غيرهُ لكنَّهُ سرَى منهُ إليهِ، كمَا لوْ اضطرَّ إلَى بيعِ دارهِ لإنقاذِ ابنهِ، فإنَّ مصبَّ الاضطرارِ فِي الواقعِ هوَ إنقاذُ ابنهِ، أيْ أنَّهُ مضطرٌّ لإنقاذِ ابنهِ، لكنْ حيثُ كانَ بيعُ دارهِ لتحصيلِ الأموالِ التِي بهَا يُنقذُ ابنهُ مقدمةً لإنقاذهِ، صارَ بيعهَا مضطراً إليهِ، فالإضطرارُ إلَى البيعِ بالتَّبعِ، أمَّا فِي الإكراهِ فإنَّهُ مكرهٌ علَى البيعِ نفسهِ، فهوَ مكرَهٌ عليهِ بالذَّاتِ.

الإكراهُ متوقَّفٌ علَى وجودِ مُكرِهٍ، عكسُ الاضطرارِ:

الثَّانِي: أنَّ الإكراهَ متوقَّفٌ علَى وجودِ مُكرِهٍ، أمَّا الاضطرارُ فغيرُ متوقَّفٍ علَى وجودِ مضطَرٍّ (باسمِ الفاعلِ).

والحاصلُ: فِي الإكراهِ أنَّهُ يوجدُ شخصٌ أكرههُ علَى البيعِ، وأمَّا فِي الاضطرارِ فليسَ هناكَ شخصٌ اضطرَّهُ إلَى البيعِ، ولَا يقالُ عنِ ابنهِ الذِي لأجلهِ يبيعُ بيتهُ بِطَوعهِ أنَّهُ أكرههُ علَى البيعِ، أوِ اضطرَّهُ إلَى ذلكَ، ولوْ قيلَ فبتوسُّعٍ.

الاضطرارُ متوقَّفٌ علَى الاحتياجِ، دونَ الإكراهِ:

الثَّالثةُ: إنَّ الاضطرارِ متوقَّفٌ علَى الاحتياجِ، فإذَا لمْ يكنْ محتاجاً فباعَ فلَا يصحُّ أنْ يقولَ أنَّنِي اضطررتُ إلَى البيعِ فبعتُ، ولوْ قالَ فغلطَ أوْ قالهُ مجازًا، أمَّا الإكراهُ فلَا يتوقَّفُ علَى الاحتياجِ كمَا هوَ واضحٌ.

المكرَهُ غيرُ راضٍ والمضطرُّ راضٍ:

الرَّابعةُ: أنَّ الإكراهَ لَا رضَى فيهِ ولَا طيبِ نفسٍ بهِ، عكسُ الاضطرارِ فإنَّ فيهِ طيبَ نفسٍ ثانويًّا.

توضيحهُ: أنَّ المكرَهَ علَى بيعِ دارهِ ليستْ نفسهُ طيبةً بذلكَ، أمَّا المضطرُّ لبيعهَا لينقذَ ابنهُ منَ القتلِ أوِ الموتِ أوِ المرضِ فإنَّ نفسهُ طيِّبةٌ ببيعهَا، لكنْ لَا بالعنوانِ الأوَّلِي (لفرضِ أنَّهُ كارهٌ للبيعِ لولَا توقُّفِ إنقاذِ ابنهِ عليهِ) بلْ بالعنوانِ الثَّانوِي لأنَّهُ يجدهُ الأملَ لإنقاذِ ابنهِ، وبعبارةٍ أوضحَ: أنَّهُ بعدَ الكسرِ والانكسارِ بمرضِ ابنهِ الذِي سيسوقهُ إلى الموتِ المحتَّمِ، طيَّبَ نفسهُ ببيعِ بيتهِ، بلْ تجدهُ يتوسَّلُ بالغيرِ ليشترِي دارهِ ولوْ بنصفِ القيمةِ.

ويتفرَّعُ علَى هذَا الفرقِ، فرقٌ آخرُ فِي الصَّحيحِ والفاسدِ، وهوَ أنَّ بيعَ المضطرَّ صحيحٌ نافذٌ، وأمَّا بيعُ المكرَهِ فباطلٌ فاسدٌ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطِيبَةِ نَفْسٍ مِنْهُ"(13) ولذَا افتَى الفقهاءُ بصحَّةِ بيعِ المضطرِّ لأنَّ لهُ طيبَ نفسٍ بهِ، وببطلانِ بيعِ المكرَهِ لأنَّهُ غيرُ راضٍ، فإنَّ المكرَهَ لَا يقولُ أنَا راضٍ حقيقةً بالذِي أكرهنِي عليهِ، وإلَّا لمَا كانَ مكرَهاً، أمَّا المضطرُّ فيقولُ أنَا راضٍ ببيعِ دارِي مادامَ قدْ توقَّفَ عليهَا إنقاذُ ابنِي.

ومنْ ذلكَ قاعدةُ: (الضَّروراتُ تبيحُ المحظوراتِ).

وهيَ قاعدةٌ أصوليَّةٌ مأخوذةٌ منَ النصِّ، وهوَ قولهُ تعالَى: "إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ"[الأنعام:119].

والاضطرارُ: الحاجةُ الشَّديدةُ، والمحظورُ: المنهيُّ عنْ فعلهِ، ومعنَى القاعدةِ: أنَّ الممنوعَ شرعاً يباحُ عندَ الضَّرورةِ، وقدْ مثَّلَ الفقهاءُ لهذهِ القاعدةِ بأمثلةٍ منهَا:

1) إباحةُ أكلِ الميتةِ عندَ المخمصةِ، أيِ المجاعةِ.

2) إساغةُ اللُّقمةِ بالخمرِ لمنْ غصَّ، ولمْ يجدْ غيرهَا.

3) إباحةُ كلمةُ الكفرِ للمكرهِ عليهَا بقتلٍ أوْ تعذيبٍ شديدٍ.

وهذهِ القاعدةُ هيَ فرعٌ عنْ قاعدةٍ كليَّةٍ سمَّاهَا العلماءُ (الضَّررُ يزالُ)، فكلُّ ما أبيحَ اضطرارًا فمنْ بابِ أولَى أنْ يباحَ إكراهًا، وخلاصةً: قسمةُ المكرهِ علَى ثلاثٍ:

1) مكرهٌ ملجئٌ كاملٌ، وهذَا يبيحُ لهُ حتَّى قولَ كلمةِ الكفرِ بشروطهَا السَّابقةِ.

2) غيرُ ملجئٍ ناقصٍ، وهذَا يبيحُ لهُ تركُ بعضِ السُّننِ.

3) مضطرٌ أيْ لمْ يكرِهُ أحدٌ وهوَ راضٍ عنْ ذلكَ، ولا يندرجُ الاضطرارُ تحتَ أي نوعٍ منَ الإكراهِ، معَ أنَّهُ يشملهُ لغةً، فلَا نقولُ أُكرِهتُ علَى أكلِ لحمِ الخنزيرِ إنْ لمْ يكنْ مكرهًا، بلِ اضطررتُ لأكلِ لحمِ الخنزيرِ منِ مخمصةٍ، ولَا نقولُ اضطررتُ لقولِ كلمةِ الكفرِ، بلْ أكرهتُ علَى قولِ كلمةِ الكفرِ أو أجبرتُ، معَ أنَّهُ يجوزُ لغةً.

والإجبارُ أعلَى منَ الإكراهِ الإلجاءِ الكاملِ، فالمجبورُ علَى الفعلِ محمولٌ عليهِ حملًا، كمنْ قيَّدكَ وفتحَ فاكَ وصبَّ فيهِ الخمرَ صبًّا إلَى أنْ ابتلعتهُ جبرًا، وهذَا النوعُ ليسَ علَى صاحبهِ شيءٌ منْ قريبٍ ولَا منْ بعيدٍ.

والإرغامُ منْ جنسِ الإكراهِ لكنْ يتبعهُ ذلٌّ، قالَ فِي القاموسِ: رَغَّمَ الرَّجُلُ أَنْفَهُ : خَضَعَ، وذَلَّ.
نعودُ إلَى أنواعِ الخوفِ، والقسمِ الثَّالثُ:
ج) خوفُ السرِّ: وهوَ خوفُ غيرِ اللهِ تعالَى فيمَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى، كمَنْ يخافُ مِنَ وليٍّ أوْ إنسٍ أوْ جنٍّ، أنْ يصيبهُ بمرضٍ أوْ مكروهٍ أو أذًى أوْ بليَّةٍ ممَّا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى.
وهذَا النَّوعُ كالخوفِ الواقعِ بينَ عبَّادِ القبورِ المتعلِّقينَ بالأولياءِ؛ قالَ تعالَى عنْ قومِ هودٍ: "إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ"[هود: 54][14] و حكمهُ: شركٌ أكبرٌ.
دليلُ عدمِ جوازِ الخوفِ منْ غيرِ اللهِ تعالَى فِي مَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ: قولهُ تعالَى: "إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"[آل عمران: 175]، قالَ

الطَّبريُّ: يعنِي بذلكَ تعالَى ذكرهُ: إنَّمَا الذِي قالَ لكمْ، أيُّهَا المؤمنونَ: "إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ"، فخوَّفوكمْ بجموعِ عدوِّكمْ ومسيرهمْ إليكمْ، منْ فعلِ الشَّيطانِ ألقاهُ علَى أفواهِ منْ قالَ ذلكَ لكمْ، يخوِّفكمْ بأوليائهِ منَ المشركينَ - أبِي سفيانَ (رضيَ اللهُ عنهُ) وأصحابهِ منْ قريشٍ - لترْهبوهمْ، وتجْبُنُوا عنهمْ.

ثمَّ قالَ: يقولُ: فلَا تخافُوا، أيُّهَا المؤمنونَ، المشركينَ، ولَا يعظُمَنَّ عليكمْ أمرهمْ، ولَا ترهبُوا جمعهمْ، معَ طاعتكمْ إيَّايَ، مَا أطعتمونِي واتَّبعتمْ أمرِي، وإنِّي متكفِّلٌ لكمْ بالنَّصرِ والظفرِ، ولكنْ خافونِ واتَّقُوا أنْ تعصونِي وتخالفُوا أمرِي،

---

(1) معجم مقاييس اللغة.

(2) التعريفات للجرجاني.

(3) تهذيب مدارج السالكين لابن القيم الجوزية.

(4) شبكة الألوكة: موضوع الخوف من الله.

(5) ينظر الإكراه وأثره في عقود المفاوضات المالية - د. إبراهيم العروان - والبدائع للكاساني - حاشية ابن عابدين، وينظر الفرق بين الإكراه والضرورة، التشريع الجنائي، والإكراه وأثره في التصرفات، د. محمد المعيني.

(6) فتح الباري للعسقلاني.

(7) وهو مرسل ورجاله ثقات أخرجه الطبري وقبله عبد الرزاق وعنه عبد بن حميد ، وأخرجه البيهقي من هذا الوجه فزاد في السند فقال : " عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه " وهو مرسل أيضا ، وأخرج الطبري أيضا من طريق عطية العوفي عن ابن عباس نحوه مطولا وفي سنده ضعف.

(8) تفسير البحر المحيط لأبي حيَّان الأندلسي.

(9) ينظر كشف الأسرار للبزودي (383/4) - تبيين الحقائق للزيلعي (5/ 181) - حاشية ابن عابدين (5/ 109).

(10) ذهب بعض الأحناف إلى اعتبار هذا القسم نوعاً ثالثاً، أما بقية الفقهاء فقد أدخلوه في النوعين السابقين، ينظر كشف الأسرار (383/4) - الإكراه وأثره في التصرفات - د. عيسى شقره (ص: 61).

(11) ينظر الإكراه وأثره في التصرفات - د. عيسى شقره (ص: 60، 61) - وينظر في ترجيح ذلك المبسوط للسرخسي (143/24، 144).

(12) منظومة نواقض الإسلام أبي فاطمة عصام الدين.

(13) صحيح أخرجه أحمد والبيهقي والدارقطني وغيرهم.

فتهلكُوا "إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"، يقولُ: ولكنْ خافونِ دونَ المشركينَ ودونَ جميعِ خلقِي، أنْ تخالفُوا أمرِي، إنْ كنتمْ مصدِّقِي رسولِي ومَا جاءكمْ بهِ منْ عندِي[1].

وهذَا دليلٌ علَى أنَّ الخوفَ منْ غيرِ اللهِ تعالَى منهيٌّ عنهُ، وأنَّ الخوفَ منَ اللهِ تعالَى مأمورٌ بهِ، وهوَ شرطٌ فِي صحَّةِ الإيمانِ.

وأمَّا الخشيةُ:

الخشيةُ لغةً: تدلُّ مادَّةُ "خ ش ي" فِي اللُّغةِ علَى خوفٍ ورهبةٍ، قالَ ابنُ فارسٍ: "الخاءُ والشِّينُ والحرفُ المعتلُّ يدلُّ علَى خوفٍ وذعرٍ، ثمَّ يُحملُ علَى المجازِ، فالخشيةُ الخوفُ... والمجازُ قولهمْ: خشيتُ بمعنَى علمتُ" واحتجَّ بقولِ الشَّاعرِ:

ولقدْ خشيتُ بأنْ منْ تبعَ الهدَى * سكنَ الجنانَ معَ النَّبيِّ محمَّدِ[2]

ثمَّ فسَّرَ "خشيت" بقولهِ: أيْ: علمتُ[3].

الخشيةُ اصطلاحًا: تألُّمُ القلبِ بسببِ توقُّعِ مكروهٍ فِي المستقبلِ يكونُ تارةً بكثرةِ الجنايةِ منَ العبدِ وتارةً بمعرفةِ جلالِ اللهِ تعالَى وهيبتهِ، وخشيةُ الأنبياءِ عليهمْ السَّلامُ منْ هذَا القبيلِ.

والخشيةُ خوفٌ يشوبهُ تعظيمٌ، وأكثرُ مَا يكونُ ذلكَ عنْ علمٍ بمَا يخشَى منهُ، ولذلكَ خصَّ اللهُ تعالَى العلماءَ بهَا فِي قولهِ تعالَى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ منْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ"[فاطر: 28].

الفرقُ بينَ الخوفِ والخشيةِ:

لَا يكادُ اللُّغويونَ يفرِّقونَ بينَ الخوفِ والخشيةِ والشَّفقةِ، ولَا شكَّ أنَّ الخشيةَ أعلَى منَ الخوفِ وهيَ أشدُّ الخوفِ فإنَّهَا مأخوذةٌ منْ قولهِمْ: شجرةٌ خشيةٌ، أيْ: يابسةٌ، وهوَ فواتٌ بالكليَّةِ، والخوفُ مأخوذٌ منْ قولهِمْ: ناقةٌ خوفاءُ، أيْ: بهَا داءٌ، وهوَ نقصٌ، وليسَ بفواتٍ، ولذلكَ خُصَّتِ الخشيةَ باللهِ تعالَى، وخُصَّ الخوفُ بغيرهِ فِي قولهِ تعالَى فِي صفةِ المؤمنينَ: "وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ"[الرعد: 21].

ومنَ الفروقِ بينَ الخوفِ والخشيةِ أنَّ الخشيةَ تكونُ منْ عظمِ المُخْتَشَى، وإنْ كانَ الخاشِي قويًّا، ألمْ ترَ إلَى عمرٍ وعليٍّ ومَا لهمَا منْ قوَّةٍ جسديَّةٍ وعلميَّةٍ وسلطةٍ، وهمْ يبكونَ منْ خوفهمْ منْ خالقهمْ، فخوفهمْ هذَا يسمَى خشيةً، وأمَّا الخوفُ يكونُ منْ ضعفِ الخائفِ وإنْ كانَ المخوِّفُ أمرًا يسيرًا، ألمْ ترَ إلَى الجبانِ يخافُ كلَّ شيءٍ حتَّى قيلَ فيهِ أنَّهُ يخافُ منْ ضلِّهِ، ومنَ الأدلَّةِ علَى ذلكَ أنَّ الخاءَ والشِّينَ والياءَ فِي تقاليبهَا تدلُّ علَى العظمةِ، نحوَ قولنَا: شيخٌ للسيِّدِ الكبيرِ، وخيشٌ لمَا غلظَ منَ اللِّباسِ، ولهذَا وردتْ الخشيةُ غالبًا فِي حقِّ اللهِ تعالَى، نحوَ قولهِ تعالَى: " وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ"[البقرة: 74].

وقولهُ تعالَى: "مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ"[ق: 33]، وهذَا يقتضِي أنْ الذِي يخشَى اللهَ تعالَى لَابدَّ أنْ يرجوهُ ويطمعَ فِي رحمتهِ فينيبَ إليهِ ويحبَّهُ ويحبَّ عبادتهُ وطاعتهُ فإنَّ ذلكَ هوَ الذِي ينجيهِ ممَّا يخشاهُ ويحصلُ بهِ مَا يحبُّهُ.

كذلكَ قولهُ تعالُى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" [فاطر:28]، قالَ السَّلفُ وأكثرُ العلماءِ أنَّهُ يدلُّ علَى أنَّ كلَّ منْ يخشَى اللهَ تعالَى فهوَ عالمٌ وأنَّ كلَّ منْ لمْ يخشَ اللهَ تعالَى فهوَ جاهلٌ.

وذلكَ أنَّ الحصرَ فِي معنَى الاستثناءِ، والاستثناءُ منَ النَّفيِ إثباتٌ عندَ جمهورِ العلماءِ، فنفَى الخشيةَ عمَّنْ ليسَ منَ العلماءِ وأثبتهَا للعلماءِ، فكلُّ عالمٍ يخشاهُ، فمنْ لمْ يخشَ اللهَ تعالَى فليسَ منَ العلماءِ بلْ منَ الجهَّالِ كمَا قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ: كفَى بخشيةِ اللهِ علمًا، وكفَى بالاغترارِ باللهِ جهلًا(4)(5).

وخلاصةً: الخشيةُ لَا تكونُ إلَّا منَ اللهِ تعالَى وحدهُ خوفًا ومحبَّةً وطاعةً وتعظيمًا، والخوفُ يكونُ منَ اللهِ تعالَى، ومنَ غيرِ اللهِ تعالَى إنْ كانَ يتحمَّلُ أسبابهُ، قالَ تعالَى: "وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ" [الرعد: 21].

وبمَا أنَّنا عرَّفنَا الخوفَ والخشيةَ والفرقَ بينهمَا وجبَ أنْ نعرِّفَ مَا يتقاربُ منهمَا فِي الألفاظِ والمعانِي:

الذُّعرُ: خَوْفٌ فُجائيٌّ شديدٌ، والمذعورُ منِ اسْتولَى عليهِ الخوفُ.

الهلعُ: جَزَعٌ شديدٌ، اِضْطرابٌ وانْزعاجٌ، وهَوْلٌ، وفزعٌ عظيمٌ، وقلقٌ شديدٌ، والهلِعُ والهلوعُ: خائفٌ جبانٌ جاحدٌ.

الجزعُ: مَا يُحسُّ بهِ المرءُ منَ القلقِ والاضطرابِ وضيقِ الصَّدرِ أوْ عدمِ الصَّبرِ، والجَزُوعُ: ضدُّ الصَّبُورِ علَى الشرِّ.

الرُّعبُ: فقدُ رباطةِ الجَأْشِ وثَباتِ القَلْبِ، والمرعوبُ خائفٌ فزعٌ.

الفزعُ: رعبٌ وخوفٌ إلَى درجةِ الاستغاثةِ بالغيرِ، والفزِعُ الخائفُ المُستغيثُ، والفزِعُ المُغيثُ، (تُطلقُ علَى المغيثِ والمستغيثِ، بكسرِ الزَّاي فِي الحالتينِ).

الرَّهبةُ: خوفٌ يَستَشعِرُ بهِ الشَّخصُ أمامَ منْ يجلُّهُ.

الشَّفقةُ: حُنوٌّ وعَطْفٌ، ورَحْمةٌ، والشَّفيقُ رقيقُ القلبِ.

الإجلالُ: التَّعظيمُ والإحترامُ، والمُجِلُّ المعظِّمُ للشيءِ.

الهيبةُ: الإجلالُ والمخافةُ[6].

---

(1) تفسير الطبري.

(2) البيت لجرير، وقال أحمد حسني في حاشية مجمع البحرين للطريحي: لم أظفر على من نسب هذا البيت إلى جرير - فيما اطلعت عليه من الكتب اللغوية - وهو أيضا غير موجود في ديوانه المطبوع -: وجرير - بفتح الجيم وكسر الراء - هو أبو حزرة جرير بن عطية بن حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع، الشاعر الذي اشتهر بكثرة هجائه وقذفه، وفيه مع ذلك دين وعفة وحسن خلق ورقة طبع، وكان بينه وبين الفرزدق مناوشات شعرية وأهاجي كثيرة، ولد سنة 42 ه باليمامة ومات فيها سنة 114 ه. المؤتلف والمختلف ص 71، الشعر والشعرا. ص 108، جواهر الأدب ج 2 ص 150.

(3) معجم مقاييس اللغة.

(4) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(5) موقع البيان - محمد اسماعيل عتوك – بتصرف.

(6) ينظر قواميس اللغة.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: والرَّجاءُ: أنْ يرجُو العبدُ رحمةَ اللهِ العامَّةِ، ورحمتهُ الخاصَّةُ بهِ، فيرجُو قبولَ مَا تفضَّلَ اللهُ عليهِ بهِ منَ الطَّاعاتِ، وغفرانِ مَا تابَ منهُ منَ الزلَّاتِ، ويعلِّقُ رجاءهُ بربِّهِ فِي كلِّ حالٍ منْ أحوالهِ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الرَّجاءَ فِي كثيرٍ منَ الآياتِ فِي كتابهِ العزيزِ، وأثنَى علَى أهلِ الرَّجاءِ وذكرَ سبحانهُ وتعالَى ثوابهمْ، وتوعَّدَ سبحانهُ الذينَ لَا يرجونهُ بعذابٍ أليمٍ، منْ ذلكَ قولهُ تعالَى: " أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ" [الزمر: 9]**.**

وقالَ سبحانهُ: " وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا" [النساء: 104]**.**

وقالَ جلَّ وعلَا: " وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا" [الإسراء: 28]**.**

وقالَ جلَّ جلالهُ: إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (21) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (22) لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (23) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (24) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (25) جَزَاءً وِفَاقًا (26) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (27)" [النبأ: 27/21]**.**

الرَّجاءُ لغةً هوَ: التَّوَسُّلُ، والتَّفَضُّلُ، ورجاءً: عبارةٌ تُستخدمُ كردٍّ إيجابيٍّ مهذَّبٍ لعرضٍ، وضدُّ الرَّجاءِ: اليأسُ[1].

والرجاءُ هوَ: الأملُ[2].

قالَ ابنُ فارسٍ: أصلُ الكلمةِ: الرَّاءُ والجيمُ والحرفُ المعتلُّ (الواو) أصلانِ متباينانِ: يدلُّ أحدهمَا علَى الأملِ ويدلُّ ثانيهمَا علَى ناحيةِ الشَّيءِ[3].
معنَى كلمةِ الرَّجاءِ (بالمدِّ): التوقُّعُ والأملُ يقالُ رجوتُ الأمرَ أَرْجُوهُ رَجاءً، ومنهُ قولُ اللهِ تعالَى: " فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا" [الكهف: 110].
والرَّجَا (بالقصرِ):
ناحيةُ كلِّ شيءٍ وطرفهُ وحافَّتهُ، وخصَّهُ البعضُ بالنَّاحيةِ منَ البئرِ، وكلُّ ناحيةٍ رَجاً، والتَّثنيةُ منهَا رَجَوانِ والجمعُ أرجاءٌ[4]، ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ" [الحاقة: 17].
قالَ الطَّبريُّ: عنْ مجاهدٍ، قولهُ: (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا) قالَ: أطرافهَا، وقالَ: عنْ قتادةَ (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا): علَى حافاتهَا، وقالَ: قالَ قتادةُ: علَى نواحيهَا.
وأمَّا الإرجاءُ (المهموزُ):
فإنَّهُ يدلُّ علَى التَّأخيرِ ومنهُ قولُ اللهِ تعالَى: "تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ" [الأحزاب: 51]، قالَ ابنُ كثيرٍ: وقدْ تقدَّمَ أنَّ البخاري رواهُ منْ حديثِ أبِي أسامةَ، عنْ هشامِ بنِ عروةَ، فدلَّ هذَا علَى أنَّ المرادُ بقولهِ: (تُرْجي) أي: تُؤخِّرُ.اهـ
ومنهُ سمِّيتِ المرجئةُ[5]، لأنَّهمْ كانُوا يؤخِّرونَ العملَ عنِ النيَّةِ والعقدِ.

ومنْ أقوالهِمْ: لَا تضرُّ معَ الإيمانِ معصيةٌ، كمَا لَا تنفعُ معَ الكفرِ طاعةٌ(6).

وقدْ جاءتْ مادَّةُ الرَّجاءِ فِي القرآنِ الكريمِ لعدَّةِ معانٍ منهَا:

1) الرَّجاءُ بمعنَى الخوفِ، قالَ اللهُ تعالَى: "مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا" [نوح: 13].

والرَّجاءُ لَا يكونُ بمعنَى الخوفِ إلَّا إذَا سبقهُ نفيٌ(7).

2) الرَّجاءُ بمعنَى الطَّمعِ، قالَ تعالَى: "أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا" [الإسراء: 57].

قالَ مكِّي القرطبِي فِي تفسيرِ الهدايةِ إلَى بلوغِ النِّهايةِ: وأصلُ الرَّجاءِ وبابهِ أنْ يأتِي معَ الذِي يقربُ منَ اليقينِ...(8).

3) الرَّجاءُ بمعنَى توقُّعِ الثَّوابِ، قالَ تعالَى: "إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ" [فاطر: 29].

وبذلكَ قالَ البيضاوِي فِي تفسيرهِ فِي قولهِ تعالَى: "بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا" [الفرقان: 41] **قالَ: بلْ كانُوا كفرةً لَا يتوقَّعونَ نشورًا(9).**

الرَّجاءُ فِي اصطلاحِ الشَّرعِ لهُ عدَّةُ تعريفاتٍ وكلُّهَا تدورُ علَى معنًى واحدٍ نذكرُ منهَا:

1) تعلُّقُ القلبِ بحصولِ محبوبٍ فِي المستقبلِ(10).

2) الطَّمعُ فيمَا يمكنُ حصولهُ، ويرادفهُ الأملُ(11).

3) ظنٌّ يقتضِي حصولَ مَا فيهِ مسرَّةٌ(12).

4) تأميلُ الخيرِ، وقربُ وقوعهِ[13].

5) توقُّعُ الخيرِ منَ اللهِ للعلمِ بأنَّهُ بيدهِ، ولَا مالكَ لهُ غيرهُ[14].

وهذهِ التَّعريفاتُ كلُّهَا متقاربةُ المعنَى، وتصدقُ علَى الرَّجاءِ، فهوَ تعلُّقُ القلبِ بحصولِ رحمةِ اللهِ وفضلهِ، وعدمِ اليأسِ والقنوطِ، ويشاركهُ التمنِّي فِي هذَا، ولكنَّ الفرقَ بينهمَا، أنَّ التَّمنِّي يكونُ معَ الكسلِ والخمولِ "والتَّسويفِ"، ولَا يسلكُ بصاحبهِ طريقَ الجدِّ والاجتهادِ [15]، والعزمِ والتوكُّلِ.

والتَّمنِي مذمومٌ وهوَ منْ صفاتِ المغرورينَ، وهوَ:

توقُّعُ الخيرِ منْ دونِ أخذِ بأسبابهِ، قالَ تعالَى: " يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14)" [الحديد: 13 – 14].

فالرَّجاءُ هوَ: توقُّعُ الخيرِ معَ الأخذِ بأسبابهِ الدَّاخلةِ تحتَ اختيارِ المكلَّفِ، فالعبدُ إذَا بثَّ بذرَ الإيمانِ، وسقاهُ ماءُ الطَّاعاتِ، وطهَّرَ القلبَ منْ شَوْكِ الأخلاقِ الرَّديئةِ، وانتظرَ منْ فضلِ اللهِ تعالَى تثبيتهُ علَى ذلكَ إلَى الموتِ، وحُسْنَ الخاتمةِ المفضيةِ إلَى المغفرةِ، كانَ انتظارهُ لذلكَ محمودًا باعثًا علَى المواظبةِ علَى الطَّاعاتِ والقيامِ بمقتضَى الإيمانِ إلَى الموتِ، وإنْ قطعَ بذرَ الإيمانِ عنْ تعهُّدهِ بماءِ الطَّاعاتِ، أوْ تركِ القلبِ مشحونًا برذائلِ الأخلاقِ، وانهمكَ فِي طلبِ لذَّاتِ الدُّنيَا، ثمَّ انتظرَ المغفرةَ، كانَ ذلكَ حمقًا وغرورًا[16].

قالَ اللهُ تعالَى: " فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" [الأعراف: 169]، **قالَ ابنُ كثيرٍ: ...يسوِّفونَ أنفسهمْ ويعدونـهَا بالتَّوبةِ...[17].**

وأمَّا الرَّغبةُ فهيَ بمعنَى الرَّجاءِ.

وهيَ لغةً: الإرادةُ[18]،

والرَّغبةُ شرعًا: سَفَرُ القلبِ فِي طلبِ المرغوبِ فيهِ[19].

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: "والفرقُ بينَ الرَّغبةِ والرَّجاءِ، أنَّ الرَّجاءَ طمعٌ، والرَّغبةُ طلبٌ، فهيَ ثمرةُ الرَّجاءِ، فإنَّهُ إذَا رجَا شيئًا طلبهُ"[20].

قالَ تعالَى: "فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ" [الأنبياء: 90].

قالَ الطَّبرِي: (رَغَبًا) أنـهمْ كانُوا يعبدونـهُ رغبةً منـهمْ فيمَا يرجونَ منهُ منْ رحمتهِ وفضلهِ (وَرَهَبًا) يعنِي رهبةً منـهمْ منْ عذابهِ وعقابهِ، بتركهمْ عبادتهُ وركوبهمْ معصيتهُ[21].

فيقابلُ الرَّجاءَ الخوفُ، ويقابلُ الرغْبةَ الرَّهبةُ، والرَّهبةُ هي: الخوفُ والفزعُ[22].

قالَ السَّعدِي: والرَّجاءُ: أنْ يرجُو العبدُ رحمةَ اللهِ العامَّةِ، ورحمتهُ الخاصَّةُ بهِ... :

معنَى الرَّحْمَةِ لغةً:

الرَّحمةُ: منْ رحمةٍ يرحمهُ، رحمةً ومرحمةً، إذَا رقَّ لهُ، وتعطَّفَ عليهِ، وأصلُ هذهِ المادَّةِ يدلُّ علَى الرِّقَّةِ والعطفِ والرَّأفةِ، وتراحمَ القومُ: رحمَ بعضهمْ بعضًا.

ومنهَا الرَّحِمُ: وهيَ عَلاقةُ القرابةِ، (وسمِّيةِ الرَّحمُ رحمًا، لأنَّ الأقرباءَ رحماءُ ببغضهمْ).

وقدْ تُطلقُ الرَّحْمَةُ، ويرادُ بهَا مَا تقعُ بهِ الرَّحْمَةُ، كإطلاقِ الرَّحْمَةِ علَى الرِّزقِ والغيثِ[23].

معنَى الرَّحْمَةِ اصطلاحًا:

الرَّحْمَةُ رقَّةٌ تقتضِي الإحسانَ إلَى الْمَرْحُومِ، وقدْ تُستعملُ تارةً فِي الرِّقَّةِ المجرَّدةِ، وتارةً فِي الإحسانِ المجرَّدِ عنِ الرِّقَّةِ[24].

وقيلَ: هيَ رِقَّةٌ فِي النَّفسِ، تبعثُ علَى سوقِ الخيرِ لمنْ تتعدَّى إليهِ[25].

وقيلَ: هيَ رِقَّةٌ فِي القلبِ، يلامسهَا الألمُ حينمَا تُدرِكُ الحواسُ أو تُدرَكُ بالحواسِ، أو يتصوَّرُ الفكرُ وجودَ الألمِ عندَ شخصٍ آخرَ، أوْ يلامسهَا السُّرورُ حينمَا تُدركُ الحواسُ أو تدركُ بالحواسِ أو يتصوَّرُ الفكرُ وجودَ المسرَّةِ عندَ شخصٍ آخرَ[26].

معنَى رَحمةِ اللهِ تعالَى:

وصفَ اللهُ تعالَى نفسهُ بأنَّهُ الرَّحمنُ والرَّحيمُ، وهمَا صفتانِ منَ الرَّحمةِ[27].

فاللهُ تعالَى هوَ الرَّحيمُ بعبادهِ وحدهُ دونَ سواهُ، ورحمةُ اللهِ تعالَى لَا تُماثِلُ رحمةَ المخلوقينَ، ولَا شكَّ أنَّ رحمةَ اللهِ تعالَى لَا يضاهيهَا شيءٌ، فهيَ تفوقُ كلَّ شيءٍ، يقولُ تعالَى: "وَرَحمَتي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ" [الأعراف: 156]، وقدْ شبَّهَ النَّبيُّ ﷺ

للصَّحابةِ بمشهدٍ حقيقيٍّ حصلَ أمامهمْ، فِي حديثِ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قدمَ علَى رسولِ اللهِ ﷺ بسبْيٍ، فإذَا امرأةٌ منَ السَّبيِ تسعَى، إذْ وجدتْ صبيًّا فِي السَّبيِ فأخذتهُ وألصقتهُ ببطنِهَا وأرضعتهُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: أترونَ هذهِ طارحةً ولدَهَا فِي النَّارِ؟ قلنَا: لَا واللهِ، وهيَ تقدرُ ألَّا تطرحَهُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: اللهُ أرحمُ بعبادِهِ منَ المرأةِ بولدِهَا(28).

الفرقُ بينَ الاسمينِ: الرَّحمنِ والرَّحيمِ:

كلاهمَا مشتقٌّ منَ الرَّحمةِ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا: همَا اسمانِ رقيقانِ أحدهمَا أرقُّ منَ الآخرِ(29).

وقالَ غيرهُ: الرَّحمنُ بمعنَى: أنَّ رحمتهُ عامَّةٌ تشملُ العالمينَ، المؤمنَ والكافرَ والبرَّ والفاجرَ، والمطيعَ والعاصِي وغيرَ هؤلاءِ، وأمَّا الرَّحيمُ فرحمتهُ خاصَّةٌ بالمؤمنينَ؛ واستدلُّوا بقولِ اللهِ تعالَى: "وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا" [الأحزاب:43]، ولمْ يقلْ: رحماناً.

وقالَ بعضهمْ: الرَّحمنُ صفةُ ذاتٍ، يعنِي: تعلُّقهَا بذاتِ اللهِ تعالَى، ولذلكَ قرنهُ اللهُ باستوائهِ علَى العرشِ فقالَ: "الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى" [طه: 5]، أمَّا الرَّحيمُ فتتعلَّقُ بصفتهِ أيْ بالفعلِ، أيْ تعلُّقهَا بمنْ يرحمُ.

وقيلَ: أنَّهُ رحمنٌ فِي ذاتهِ، ورحيمٌ بغيرهِ.

أنواعُ رحمةِ اللهِ تعالَى:

رحمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ نوعانِ: رحمةٌ عامَّةٌ ورحمةٌ خاصَّةٌ:

أمَّا الرَّحمةُ العامَّةُ: فهيَ لجميعِ الخلقِ، فهوَ أوجدهمْ برحمتهِ، ربَّاهمْ برحمتهِ، رزقهمْ برحمتهِ، أمدَّهمْ بالنِّعمِ والعطايَا برحمتهِ جلَّ جلالهُ، فقدْ أصحَّ أبدانهمْ، وسخَّرَ المخلوقاتِ لهمْ، فالمخلوقاتُ مثلَ: الأنعامِ والدَّوابِ والشَّمسِ والقمرِ والمطرِ والبحارِ والجبالِ سخَّرهَا للنَّاسِ جميعاً، مؤمنهمْ وكافرهمْ، وهذَا تأويلُ قولِ ربِّنَا جلَّ جلالهُ علَى لسانِ الملائكةِ: "رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا"[غافر: 7]، وكذلكَ قولهُ تعالَى: "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ"[الأعراف: 156]، وكذلكَ شملتْ رحمتهُ العامَّةُ الدَّوابَ بأنواعهمْ فمنْ ذلكَ حديثُ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: "سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: جعلَ اللهُ الرَّحمةَ مائةَ جزءٍ، فأمسكَ عندهُ تسعةً وتسعينَ، وأنزلَ فِي الأرضِ جزءًا واحدًا، فمنْ ذلكَ الجزءِ يتراحمُ الخلائقُ، حتَّى ترفعَ الدَّابةُ حافرهَا عنْ ولدهَا خشيةَ أنْ تصيبهُ(30).

وأمَّا الرَّحمةُ الخاصَّةُ: فهيَ للمؤمنينَ، يرحمهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ فِي الدُّنيَا بتوفيقهمْ وهدايتهمْ إلَى الصِّراطِ المستقيمِ، ويرحمهمْ فِي الآخرةِ بإدخالهمْ الجنَّةَ، وإنجائهمْ منْ نقمتهِ وعذابهِ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "لنْ ينجِّي أحدًا منكمْ عملُهُ، قالُوا: ولَا أنتَ يَا رسولُ اللهِ؟ قالَ: ولَا أنَا، إلَّا أنْ يتغمَّدَنِي اللهُ برحمةٍ، سدِّدُوا وقاربُوا، واغدُوا ورُوحُوا، وشيءٌ منَ الدُّلجةِ، والقصدَ القصدَ تبلغُوا"(31).

وأقسامُ رحمةِ اللهِ تعالَى العامَّةِ والخاصَّةِ لَا تُحصَى ولَا تعدُّ.

فيجبُ علَى العبدِ أنْ يرجُو رحمةَ اللهِ تعالَى العامَّةِ منْ عطايَا ورزقٍ وصحَّةٍ فِي الابدانِ وغيرِ ذلكَ، ويستعملهَا فِي طاعتهِ سبحانهُ كيْ يكونَ أهلًا لرحمتهِ الخاصَّةِ، ويرجُو رحمتهُ الخاصَّةِ بأنْ يهديهِ إلَى صراطهِ المستقيمِ ويوفِّقهُ للطَّاعاتِ ويتقبَّلَ منهُ أعمالهُ وأنْ يتوبَ عليهِ ويعفوَ ويغفرَ مَا فاتَ منَ الزلَّاتِ ويُنجيهِ منْ عذابهِ ويُدخلهُ جنَّتهُ، كيْ يفيضَ عليهِ منْ رحمتهِ العامةِ.

---

(1) المعجم العربي.
(2) التعريفات للجرجاني.
(3) المقاييس في اللغة لابن فارس، ولسان العرب لابن منظور.
(4) السابق.
(5) المقاييس في اللغة لابن فارس، ولسان العرب لابن منظور.
(6) ينظر الشهرستاني في الملل والنحل.
(7) تهذيب اللغة للأزهري182/11.
(8) هو الإمام مكي بن أبي طالب القيسي القرطبي تـ 437 هـ، ذكره ابن الجزري ضمن علماء القراءات، ينظر معجم حفاظ القرآن عبر التّاريخ، محمد سالم محيسن الجزء الثاني صفحة 406.
(9) تفسير البيضاوي، الجزء الرابع صـ 125.
(10) التعريفات للجرجاني.
(11) الكليات للكفوي ص: 468.
(12) المفردات للراغب ص: 195، وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي46/3.
(13) فيض القدير للمناوي490/4.
(14) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي518/1.
(15) فيض القدير للمناوي 490/4، مدارج السالكين لابن القيم37/2.
(16) كتاب موقف الإسلام من الانحرافات المتعلقة بتوحيد العبادة لعبد الرازق محمد بشر.
(17) تفسير ابن كثير.
(18) مجمل اللغة لابن فارس388/1، مختار الصحاح للرازي ص: 105.
(19) مدارج السالكين لابن القيم550/1.
(20) مدارج السالكين لابن القيم58/2.
(21) تفسير الطبري.
(22) معجم المعاني.
(23) ينظر: ((الصحاح)) للجوهري (1929/5)، و((مقاييس اللغة)) لابن فارس (498/2)، و((لسان العرب)) لابن منظور (230/12)، و((مختار الصحاح)) للرازي (ص 120).
(24) ((مفردات القرآن)) للراغب (347/1).
(25) ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (21/26).
(26) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن الميداني (3/2).
(27) عبدالرحمن الزّجاجي (1986)، اشتقاق أسماء الله (الطبعة الثانية)، بيروت: مؤسسة الرسالة، صفحة 38. بتصرّف.
(28) رواه أبو نعيم في حلية الاولياء 3/264 وأخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم: (5999)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم: (2754).
(29) تفسير ابن كثير.
(30) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب: جعل الله الرحمة مائة جزء، رقم: (6000)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم: (2752).
(31) رواه البخاري.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وذكرَ اللهُ الإنابةُ فِي مواضعَ كثيرةٍ، وأثنَى علَى المنيبينَ، وأمرَ بالإنابةِ إليهِ، وحقيقةُ الإنابةِ: انجذابُ القلبِ إلَى اللهِ، فِي كلِّ حالةٍ منْ أحوالهِ، ينيبُ إلَى ربِّهِ عندَ النِّعماءِ بشكرهِ، وعندَ الضرَّاءِ بالتضرُّعِ إليهِ، وعندَ مطالبِ النُّفوسِ الكثيرةِ بكثرةِ دعائهِ فِي جميعِ مهمَّاتهِ، وينيبُ إلَى ربِّهِ، باللَّهجِ بذكرهِ فِي كلِّ وقتٍ.
والإنابةُ أيضًا: الرُّجوعُ إلَى اللهِ، بالتَّوبةِ منْ جميعِ المعاصِي، والرُّجوعُ إليهِ فِي جميعِ أعمالهِ وأقوالهِ، فيعرضهَا علَى كتابِ اللهِ، وسنَّةِ رسولهِ ﷺ، فتكونُ الأعمالُ والأقوالُ، موزونةً بميزانِ الشَّرعِ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

ومنَ الآياتِ الواردةِ فِي لفظةِ الإنابة: قولهُ تعالَى:
"إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ" [هود:75].

وقولهُ تعالَى علَى لسانِ شعيبٍ عليهِ السَّلامُ لقومهِ:
"وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" [هود:88].

وقالَ تعالَى: "وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ" [ص:24].

وقالَ تعالَى آمرًا بالإنابةِ: "وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ" [الزمر:54].

وأثنَى تعالَى علَى المنيبينَ قائلًا: "وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ" [الزمر:17].
وقالَ تعالَى: "وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ" [ق:31- 33].

وكذلكَ وردتْ أحاديثُ فِي الإنابةِ، منهَا:

عنْ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهِ عنهمَا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يقولُ إذَا قامَ إلَى الصَّلاةْ منْ جوفِ اللَّيلِ: "اللَّهمَّ لكَ الحمدُ أنتَ نورُ السَّمواتِ والأرضِ، ولكَ الحمدُ أنتَ قيَّامُ السَّمواتِ والأرضِ، ولكَ الحمدُ أنتَ ربُّ السَّمواتِ والأرضِ ومنْ فيهنَّ، أنتَ الحقُّ، ووعدكَ الحقُّ، وقولكَ الحقُّ، ولقاؤكَ حقٌّ، والجنَّةُ حقٌّ، والنَّارُ حقٌّ، والسَّاعةُ حقٌّ، اللَّهمَّ لكَ أسلمتُ، وبكَ آمنتُ، وعليكَ توكَّلتُ، وإليكَ "أنبتُ"، وبكَ خاصمتُ، وإليكَ حاكمتُ، فاغفرِ لِي ما قدَّمتُ وأخَّرتُ، وأسررتُ وأعلنتُ، أنت إلهِي لَا إلهَ إلهَ أنتَ"(1).

وعنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهمَا عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: لا تمنَّوا الموتَ فإنَّ هولَ المطّلعِ شديدٌ، وإنَّ منَ السَّعادةِ أنْ يطولَ عمرُ العبدِ ويرزقهُ اللهُ الإنابةَ"(2).

ومنْ أقوالِ العلماءِ الواردةِ فِي الإنابةِ: قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: "الإنابةُ هيَ عكوفُ القلبِ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ كاعتكافِ البدنِ فِي المسجدِ لَا يفارقهُ، وحقيقةُ ذلكَ عكوفُ القلبِ علَى محبَّتهِ، وذكرهِ بالإجلالِ والتَّعظيمِ، وعكوفِ الجوارحِ علَى طاعتهِ بالإخلاصِ لهُ والمتابعةِ لرسولهِ، ومنْ لمْ يعكفْ قلبهُ علَى اللهِ وحدهُ، عكفَ علَى التَّماثيلِ المتنوِّعةِ"(3).

وعنْ مجاهدِ فِي قولهِ تعالَى: "أَوَّاهٌ مُنِيبٌ"[هود:75]**، حدَّثنَا بشرٌ قالَ: الأوَّابُ: القانتُ الرَّجَّاعُ(4).**

وقالَ ابنُ زيدِ، فِي قولهِ تعالَى: "وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ" [الزمر:54]**: "الإنابةُ: الرُّجوعُ إلَى الطَّاعةِ، والنُّزوعُ عمَّا كانُوا عليهِ، ألَا تراهُ يقولُ: "مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ"(5).**

الإنـابةُ لغةً: تدورُ مادَّةُ (ن و ب) حولَ الرُّجوعِ، يقولُ ابنُ فارسٍ: "النُّونُ والواوُ والباءُ كلمةٌ واحدةٌ تدلُّ علَى اعتيادِ مكانٍ ورجوعٍ إليهِ"[6].
وقالَ ابنُ الأثيرِ: "يقالُ أنابَ ينيبُ إنابةً، فهوَ منيبٌ، إذَا أقبلَ ورجعَ وفِي حديثِ الدُّعاءِ: "وَإليكَ أنبتُ"[7].

والإنـابةُ اصطلاحًا:
قالَ الكفويُّ: "الإنـابةُ: الرُّجوعُ عنْ كلِّ شيءٍ إلَى اللهِ تعالَى"[8].
وقالَ ابنُ القيِّمِ: "الإنـابةُ: الإسراعُ إلَى مرضاةِ اللهِ تعالَى معَ الرُّجوعِ إليهِ فِي كلِّ وقتٍ، وإخلاصِ العملِ لهُ"[9].
وقالَ الرَّاغبُ: "الإنـابةُ إلَى اللهِ تعالَى: الرُّجوعُ إليهِ بالتَّوبةِ وإخلاصِ العملِ"[10].

أنواعُ الإنـابةِ: الإنابةُ إنابتانِ:
1) إنابةٌ لربوبيِّتهِ تعالَى: وهيَ إنابةُ المخلوقاتِ كلِّهَا، (فهيَ إنابةٌ عامَّةٌ)، يشتركُ فيهَا المؤمنُ والكافرُ، والبرُّ والفاجرُ، قالَ اللهُ تعالَى: "وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ" [الروم:33]**، فهذَا عامٌّ فِي حقِّ كلِّ داعٍ أصابهُ ضرٌّ، كمَا هوَ الواقعُ...**

2) إنابةُ لإلهيَّتهِ تعالَى: وهيَ إنابةُ أوليائهِ تعالَى (فهيَ إنابةٌ خاصَّةٌ) وهيَ إنابةُ عبوديَّةٍ ومحبَّةٍ.
وهيَ تتضمَّنُ أربعةَ أمورٍ: محبَّتهُ، والخضوعُ لهُ، والإقبالُ عليهِ، والإعراضُ عمَّا سواهُ، فلَا يستحقُّ اسمَ (المنيبِ) إلَّا منِ اجتمعتْ فيهِ هذهِ الأربعُ، وتفسيرُ السَّلفِ لهذهِ اللَّفظةِ يدورُ علَى ذلكَ[11].

منزلةُ الإنابةِ:

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: منْ نزلَ فِي منزلِ التَّوبةِ، وقامَ فِي مقامهَا نزلَ فِي جميعِ منازلِ الإسلامِ، فإذَا استقرَّتْ قدمهُ فِي منزلِ التَّوبةِ نزلَ بعدهُ فِي منزلِ الإنابةِ، وقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بهَا فِي كتابهِ، وأثنَى علَى خليلهِ بهَا، فقالَ: "وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ" [الزمر:54] وقالَ تعالَى: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ" [هود:75]، وأخبرَ سبحانهُ أنَّ البُشرَى منهُ، إنَّمَا هيَ لأهلِ الإنابةِ فقالَ تعالَى: "وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى" [الزمر:17](12).

ومنْ فوائدِ الإنابةِ:

1) دليلُ كمالِ الإيمانِ وحسنِ الإسلامِ.
2) دليلٌ علَى سلامةِ النِّيَّةِ وحسنِ الطَّويَّةِ.
3) بشارةُ اللهِ تعالَى للمنيبينَ وهدايتهُ لهمْ.
4) معلمٌ علَى صلاحِ العبدِ وقربهِ منْ ربِّهِ تعالَى.
5) دليلٌ علَى حسنِ ظنِّ العبدِ بربِّهِ.
6) طريقُ موصلٌ إلَى الجنَّةِ.
7) المنيبُ يُرزَقُ خشيةَ اللهِ تعالَى(13).

---

(1) أخرجه البخاري.
(2) أخرجه أحمد.
(3) كتاب الفوائد لابن القيِّم.
(4) تفسير الطبري.
(5) السَّابق.
(6) مقاييس اللغة لابن فارس: [367/5].
(7) النهاية لابن الأثير:[123/5].
(8) كتاب الكليات لأبي البقاء (308).
(9) مدارج السالكين لابن القيم (467/1) بتصرف.
(10) المفردات للراغب مادة (نوب) (529).
(11) مدارج السالكين لابن القيم – بتصرُّف.
(12) السابق.
(13) من كتاب: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: أمرَ تعالَى بالإخلاصِ، وأثنَى علَى المخلصينَ، وأخبرَ أنَّهُ لَا يقبلُ إلَّا العملَ الخالصَ.

وحقيقةُ الإخلاصِ: أنْ يقصدَ العاملُ بعملهِ وجهِ اللهِ وحدهُ وثوابهُ، وضدُّهُ: الرِّياءُ، والعملُ للأغراضِ النَّفسيَّةِ.

~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بالإخلاصِ فِي العديدِ منَ الآياتِ فِي كتابهِ العزيزِ وقالَ: "إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (2) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (3)"[الزمر: 2 - 3]**.**

وقالَ تعالَى: "قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (14)"[الزمر: 11-14]**.**

وقالَ جلَّ ذكرهُ: "فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ"[غافر: 14]**.**

وقالَ سبحانهُ: "هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[غافر: 65]**.**

وقالَ جلَّ جلالهُ: "وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ"[الزمر: 65]**.**

والإخلاصُ لغةً واصطلاحًا، هذَا تحدَّثنَا عنهُ فِي الصَّفحةِ رقم: (187) لكنْ لا بأسَ فِي الزِّيادةِ والإعادةِ.

الإخلاصُ لغةً: مأخوذٌ منَ الفعلِ "أخْلَص" والذي مضارعهُ "يُخلِص" ومصدرهُ "إخلاصًا" أي أمحض الشَّيءَ، جعلهُ محضًا ولمْ يخلِطْ معهُ غيرهُ، وأخلصَ الرَّجلُ دينهُ للهِ أي: جعلهُ محضًا للهِ تعالَى ولمْ يخلطْ معهُ فِي دينهِ أحدًا.

وقالَ تعالَى: "إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ"[الحجر: 40]، وقرئَ بالكسرِ "المُخْلِصِينَ".

قالَ ثعلبُ النَّحوِي رحمهُ اللهُ تعالَى: يعنِي بـ "المُخْلِصِينَ" (بالكسر على اللَّام) الذينَ أخلصُوا العبادةَ للهِ تعالَى، و"المُخلَصِينَ"(بالفتحة على اللَّام)الذينَ أخلصهمُ اللهُ تعالَى.

وقالَ الزجَّاج رحمهُ اللهُ تعالَى فِي قولهِ تعالَى: "وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا"[مريم: 51]، قُرِئَ "مُخْلِصًا"، والمخلَصُ: الذِي أخلصهُ اللهُ فجعلهُ مختارًا خالصًا منَ الدَّنسِ، والمخلِصُ: الذِي وحَّد الله تعالَى خالصًا، ولذلكَ قيلَ لسورة "قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ" سورةُ الإخلاصِ.

وقالَ ابنُ الأثيرِ رحمهُ اللهُ تعالَى: سُمِّيتْ بذلكَ (أي سورة الإخلاصِ) لأنَّهَا خالصةٌ فِي صفةِ اللهِ تعالَى وتقدَّسَ، أو لأنَّ اللَّافظَ بهَا قدْ أخلصَ التَّوحيدَ عزَّ وجلَّ.

وكلمةُ الإخلاصِ هيَ كلمةُ التَّوحيدِ[1].

والشَّيءُ الخالصُ: هوَ الصَّافِي الذِي زالَ عنهُ شَوْبُهُ الذِي كانَ فيهِ[2].

---

(1) سلسلة القلوب كتاب الإخلاص لمحمد أعمال صالح المنجد.

(2) لسان العرب – وتاج العروس.

الإخلاصُ اصطلاحًا:

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: الإخلاصُ: هوَ إفرادُ الحقِّ سبحانهُ بالقصدِ والطَّاعةِ[1].

وقالَ الجرجانِي: الإخلاصُ: تصفيةُ الأعمالِ منَ الكدوراتِ[2].

وقالَ بعضهم: الإخلاصُ: ألَّا تطلبَ علَى عملكَ شاهدًا إلَّا اللهُ ولَا مُجازيًا سواهُ[3].

وقد عرَّفهُ شيخنَا السَّعدي اصطلاحًا فِي سنامِ البابِ وقال: وحقيقةُ الإخلاصِ: أنْ يقصدَ العاملُ بعملهِ وجهِ اللهِ وحدهُ وثوابهُ، وضدُّهُ: الرِّياءُ، والعملُ للأغراضِ النَّفسيَّةِ.

والمخلصُ: هوَ الذِي لَا يُبالِي لو خرجَ كلُّ قدرٍ لهُ فِي قلوبِ النَّاسِ منْ أجلِ صلاحِ قلبهِ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولَا يحبُّ أنْ يطَّلعَ النَّاسُ علَى مثاقيلِ الذرِّ منْ عملهِ[4].

حكمُ الإخلاصِ:

الإخلاصُ: فرضٌ عينٍ فِي حقِّ كلِّ مخلوقٍ.

فقدْ أمرَ اللهُ تعالَى عبادهُ بالإخلاصِ فِي العبادةِ وقالَ تعالَى: "وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ"[البينة: 5]**، بلْ إنَّ اللهَ تعالَى أمرَ النَّبيَّ ﷺ ذاتَهُ بإخلاصِ العبادةِ للهِ تعالَى، قالَ تعالَى: "إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ"**[الزمر: 2]**.**

والأمرُ عندنَا يقتضِي الوجوبَ حتَّى تأتِي قرينةٌ تخرجهُ منَ الوجوبِ إلَى غيرِ ذلكَ.

قالَ السَّعدِي: وَإِذَا وَرَدَ الأَمْرُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَالأَصْلُ أَنَّهُ لِلوُجُوبِ إلاَّ بِقَرِينَةٍ تَصْرِفُهُ إِلَى النَّدْبِ أَوِ الإِبَاحَةِ، إِذَا كَانَ بَعْدَ الحَظْرِ غَالِبًا(5).

والدُّعاءُ منَ العبادةِ بلْ هوَ العبادةُ، فعنِ النُّعمانِ بنِ بَشِيرٍ رضيَ اللهُ عنهمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: "إنَّ الدُّعاءَ هوَ العبادةَ"، ثمَّ قرأَ: "وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ"[غافر: 60](6).

وقد تحدَّثنَا عنْ عبادةِ الدُّعاءِ وتعريفهِ والتَّحذيرِ منْ صرفهِ لغيرِ اللهِ تعالَى، ووجوبِ إخلاصهِ للهِ تعالَى وحدهُ، معَ بيانِ أقسامهِ فِي الصَّفحةِ رقمَ: (165 – 166 – 167).

قالَ تعالَى: "وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ"[الأعراف: 29].

فضلُ الإخلاصِ:

منْ فضائلِ الإخلاصِ: قبولُ العملِ، فعنْ أبِي أمامةَ البهلي رضي الله عنهُ قالَ: قالَ النَّبيُّ ﷺ: "إنَّ اللهَ لَا يقبلُ منَ العملِ إلَّا مَا كانَ لهُ خالصًا، وابْتُغِيَ بهِ وجههُ"(7).

---

(1) مدارج السَّالكين.

(2) التَّعريفات للجرجاني.

(3) مدارج السَّالكين.

(4) كتاب الإخلاص لمحمد صالح المنجد.

(5) تسهيل الوصول إلى الرسالة المختصرة في الأصول لعلامة القصيم عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

(6) رواه أحمد 4/ 267، 271، وأبو داود 2/ 76 (1479)، والترمذي 5/ 211 (2969)، والنسائي في الكبرى 6/ 450 (11464)، وابن ماجه 2/ 1258 (3828)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (1329).

(7) رواه النسائي وصححه الألباني.

ومنْ فضائلِ الإخلاصِ: مغفرةُ الذُّنوبِ، يقولُ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى: والنَّوعُ الواحدُ منَ العملِ قدْ يفعلهُ الإنسانُ علَى وجهٍ يكملُ فيهِ إخلاصهُ وعبوديَّتهُ للهِ، فيغفرُ اللهُ لهُ بهِ كبائرَ، كمَا فِي حديثِ عبد اللهِ بنِ عمرو بنِ العاص رضي اللهُ عنهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: "يُصاحُ برجلٍ منْ أمَّتِي يومَ القيامةِ علَى رؤوسِ الخلائقِ، فيُنشرُ لهُ تسعةٌ وتسعونَ سجلًّا، كلُّ سجلٍّ مدَّ البصرِ، ثمَّ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: هلْ تُنكرُ منْ هذَا شيأً؟ فيقولُ: لَا يا ربِّ، فيقولُ: لا ظلمَ عليكَ، فتُخرجُ لهُ بطاقةٌ قدرُ الكفِّ فيهَا شهادةُ أَلَّا إلهَ إِلَّا اللهُ، فيقولُ: أينَ تقعُ هذهِ البطاقةُ معَ هذهِ السِّجلَّاتِ؟ فتوضعُ هذهِ البطاقةُ فِي كفَّةٍ والسِّجلَّاتُ فِي كفَّةٍ، فثقُلتِ البطاقةُ، وطاشتِ السِّجلَّاتُ"[1] فهذَا حالُ منْ قالهَا بإخلاصٍ وصدقٍ كمَا قالهَا هذَا الشَّخصُ، وإلَّا فأهلُ الكبائرِ الذينَ دخلُا النَّار يقولونَ كلُّهمْ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، ولمْ يترجَّح قولهمْ علَى سيِّئاتهمْ كمَا ترجَّحَ قولُ صاحبِ البطاقةِ.

وفِي الحديثِ: أنَّ امرأةً بغيًّا رأتْ كلبًا فِي يومٍ حارٍّ يطيفُ ببئرٍ قدْ أدلعَ لسانهُ منَ العطشِ، فنزعتْ لهُ بمُوقِهَا – أي سقتهُ بخفِّهَا – فغُفِرَ لهَا[2]، فهذهِ سقت الكلبَ بإيمانٍ خالصٍ كانَ فِي قلبهَا فغُفرَ لهَا، وإلَّا فليسَ كُلَّمَا بَغيٌّ سقتْ كلبًا يُغفرُ لهَا[3].

(1) رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الحاكم وقال الذهبي على شرط مسلم.

(2) رواهُ مسلم.

(3) فتاوى ابن تيمية (218/6 – 92).

ومنْ فضائلِ الإخلاصِ: إدراكُ أجرِ العملِ وإنْ عجزَ عنهُ، بلْ يصلُ لمنازلِ الشُّهداءِ والمجاهدينَ وإنْ ماتَ علَى فراشهِ، قالَ تعالَى فِي وصفِ الذينَ لمْ يستطعِ النَّبيُّ ﷺ أخذهمْ معهُ إلَى الجهادِ: "وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ" [التوبة: 92].

وقدْ النَّبيُّ ﷺ عنْ هؤلاءِ المعذورينَ وقالَ: "إنَّ أقوامًا بالمدينةِ خلفنَا مَا سلكنَا شِعبًا ولَا واديًا إلَّا وهمْ معنَا فيهِ، حبسهمُ العذرُ"(1). وفِي روايةٍ: "إلَّا شركوكمْ فِي الأجرِ"(2).

وعنْ أنسٍ بنِ مالكٍ رضي الله عنهُ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: "منْ سألَ الشَّهادةَ بصدقٍ بلَّغهُ اللهُ منازلَ الشُّهداءِ، وإنْ ماتض فِي فراشهِ"(3).

وقدْ يحصلُ الرَّجلُ الفقيرُ علَى أجرِ الغنيِّ المتصدِّقِ بمالهِ إنْ أحسنَ النِّيَّةَ، فعنْ أبي كَبْشَةَ الأَنَّمَارِيُّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : "إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ..."(4).

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه مسلم.

(4) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح ورواه أحمد وصححه الالباني في سنن الترمذي.

ومنْ فضائلِ الإخلاصِ: حصولُ الأجرِ علَى المباحاتِ والعاداتِ، إنِ احتسبهَا للهِ تعالَى، فعنْ سعدِ بنِ أبِي وقَّاصٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "إنَّكَ لنْ تُنقَ نفقةً تبتغِي بهَا وجهَ اللهِ إلَّا أُجرتَ عليهَا، حتَّى مَا تجعلهُ فِي فمِ امرأتكَ"[1].

ومنْ فضائلِ الإخلاصِ علاجُ القلبِ، فعن زيدِ بنِ ثابتٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: "ثلاثٌ لَا يُغِلُّ عليهنَّ قلبُ امرئٍ مسلمٍ: إخلاصُ العملِ للهِ، والمناصحةُ لأئمَّةِ المسلمينَ، ولزومِ جماعتهِم، فإنَّ دعوتهمْ تحيطُ مِنْ ورائهِمْ"[2].

ومنْ فضائلِ الإخلاصِ: حمايةُ النَّفسِ منَ الشَّيطانِ، ومنْ فضائلهِ: انقطاعُ الوسواسِ والبُعدِ عنِ الرِّياءِ، ومنهُ أيضًا: النَّجاةُ منَ الفتنِ، وأيضًا: زوالُ الهمِّ وكثرةُ الرِّزقِ، كذلكَ تفريجُ الكروبِ، وتحلِّي صاحبهُ بالحكمةِ، قالَ مكحولٌ رحمهُ اللهُ تعالَى: "مَا أخلصَ عبدٌ قطُّ أربعينَ يومًا إلَّا ظهرتْ ينابيعُ الحكمةِ منْ قلبهِ علَى لسانهِ"[3].

وفضائلُ الإخلاصِ لَا تُحصَى ولَا تعدُّ، وخلاصةً فإنَّ كلَّ الخيرِ فِي الإخلاصِ.

---

(1) رواه البخاري وسلم.

(2) صحيح: أخرجه ابن ماجه (230)، وأحمد في (المسند) (5/ 183)، والدارمي، (229)، وابن حبان في (صحيحه) (67، 68)، وابن أبي عاصم في (السنة) (1087)، كلهم من طريق زيد بن ثابت. وفي الباب عن ابن مسعود: أخرجه الترمذي (2658)، وابن أبي عاصم في (السنة) (1086). وفي الباب أيضًا عن جُبَير بن مطعم: أخرجه أحمد (4/ 80، 82). وعن معاذ بن جبل أخرجه ابن أبي عاصم في (السنة) (1088)، وصححه الشيخ الألباني في (صحيح الجامع).

(3) مدارج السالكين.

قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: وضدُّهُ: الرِّياءُ، والعملُ للأغراضِ النَّفسيَّةِ.أهـ

وضدُّ الإخلاصِ هوَ الشِّركُ: والرِّياءُ منْ أنواعِ الشِّركِ وهوَ شركٌ أصغرٌ يُحبطُ العملَ وَلَا يُخرجُ منَ الملَّةِ، فعنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ" قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً"[1].

الشركُ لغةً: جاءَ فِي معجمِ مقاييسِ اللُّغة لابنِ فارسٍ: مادَّةُ الشِّركِ المكوَّنةِ منْ حرفِ الشِّينِ والرَّاءِ والكافِ أصلانِ:

أحدهمَا: يدلُّ علَى مقارنةٍ وخلافِ انفرادٍ.

والآخرُ: يدلُّ علَى امتدادٍ واستقامةٍ[2].

ونكتفِي بالأوَّلِ: وهوَ الذِي يدلُّ علَى مقارنةٍ وخلافِ انفرادٍ، والشِّركُ، بالتَّخفيفِ أي بإسكانِ الرَّاءِ، أغلبُ فِي الاستعمالِ، يكونُ مصدرًا واسمًا، تقولُ: شاركتهُ فِي الأمرِ وشرَّكتهُ فيهِ أشركهُ شِركاً، بكسرِ الأوَّلِ وسكونِ الثَّانِي، ويأتِي: شَرِكَةٌ، بفتحِ الأوَّلِ وكسرِ الثَّانِي فيهَا، ويقالُ: أشركتُهُ: أي جعلتهُ شريكاً[3].

فهذهِ اشتقاقاتُ لفظِ الشِّركِ فِي اللُّغةِ علَى الأصلِ الأوَّلِ.

ويطلقُ حينئذٍ علَى المعانِي الآتيةِ:

المحافظةُ، والمصاحبةُ، والمشاركةُ.

قالَ ابنُ منظورٍ: الشَّرْكةُ والشَّرِكةُ سواءٌ؛ مخالطةُ الشَّريكينِ، يقالُ: اشتركنَا، بمعنَى تشاركنَا، وقدْ اشتركَ الرَّجلانِ وتشاركَا، وشاركَ أحدهمَا الآخرَ؛ والشَّريكُ: المشاركُ، والشركُ كالشَّريكُ، والجمعُ أشراكٌ وشركاءٌ(4).

وقالَ ابنُ فارسٍ: الشَّركةُ هوَ أنْ يكونَ الشَّيءُ بينَ اثنينِ لَا ينفردُ بهِ أحدهمَا، ويقالُ: شاركتُ فلاناً فِي الشَّيءِ، إذَا صِرتَ شريكهُ، وأشركتَ فلاناً، إذَا جعلتهُ شريكاً لكَ. قالَ تعالَى حكايةً عنْ موسَى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: "وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي" [طه: 32]،...قالَ الرَّاغبُ: الشَّركةُ والمشاركةُ: خلطُ المُلْكَيْنِ، وقيلَ: هوَ أنْ يوجدَ شيءٌ لاثنينِ فصاعداً عيناً كانَ ذلكَ الشَّيءُ أو معنَى، كمشاركةِ الإنسانِ والفرسِ فِي الحيوانيَّةِ(5).

ويطلقُ علَى الكفرِ أيضاً، قالَ الزُّبيدِي: والشِّركُ أيضاً: الكفرُ(6).

الشِّركُ اصطلاحًا: قالَ شيخُ الإسلامِ محمَّدٌ بنُ عبدِ الوهَّابِ: هوَ صرفُ نوعٍ منَ العبادةِ إلَى غيرِ اللهِ، أوْ: هوَ أنْ يدعُو معَ اللهِ غيرهُ، أوْ يقصدهُ بغيرِ ذلكَ منْ أنواعِ العبادةِ التِي أمرَ اللهُ بهَا(7).

---

(1) رواه أحمد والبيهقي، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة».
(2) معجم مقاييس اللغة مادة (شرك).
(3) انظر ما ذكره الجوهري الصحاح (1593/4-1594)، مادة (شرك) والفيومي المقري: المصباح المنير (474/1-475).
(4) لسان العرب (99/7)، وما بعدها، مادة (شرك)، وانظر ما ذكره الزبيدي في تاج العروس (148/7)، والأزهري في تهذيب اللغة (17/10)، والجوهري (1593/4-1594)، مادة (شرك).
(5) انظر قول الراغب في المفردات (ص: 259).
(6) انظر ما ذكره الزبيدي في تاج العروس (148/7) مادة: (شرك).
(7) كتاب مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (ص: 281)، والدكتور صالح عبد الله العبود في عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وقالَ الشَّيخُ السَّعدِي رحمهُ الله تعالَى: هوَ أنْ يَجعلَ للهِ نداً يدعوهُ كمَا يدعُو اللهَ، أو يخافهُ، أو يرجوهُ، أو يحبُّهُ كحبِّ اللهِ، أو يصرفُ لهُ نوعاً منْ أنواعِ العبادة[1].

وقالَ أيضًا: حقيقةُ الشِّركِ باللهِ: أنْ يُعبدَ المخلوقُ كمَا يُعبدُ اللهُ، أوْ يُعظَّمُ كمَا يُعظمُ اللهُ، أو يُصرفُ لهُ نوعٌ منْ خصائصِ الرُّبوبيَّةِ والإلهيَّةِ[2].

وهذَا التَّعريفُ شاملٌ لجميعِ مدلولاتِ الشِّركِ.

وقيلَ: هوَ كلُّ مَا ناقضَ التَّوحيدَ أوْ قدحَ فيهِ، ممَّا وردَ فِي الكتابِ والسنَّةِ تسميتهُ شركًا[3].

وقيلَ: هوَ أنْ يُثبتَ لغيرِ اللهِ تعالَى شيئاً منْ صفاتهِ المختصَّةِ بهِ، كالتَّصرُّفِ فِي العالمِ بالإرادةِ الذِي يُعبَّرُ عنهُ بـ"كنْ فيكونُ"، أوِ العلمِ الذِي هوَ منْ غيرِ اكتسابٍ بالحواسِ... أوْ الإيجادِ لشفاءِ المريضِ واللَّعنةِ لشخصٍ والسَّخطِ عليهِ حتَّى يَقْدِرَ عليهِ الرِّزقَ، أو يُمرضَ أو يشفَى لذلكَ السَّخطِ، أوِ الرَّحمةُ لشخصٍ حتَّى يبسطَ لهُ الرِّزقَ أو يصحَّ بدنهُ ويسعدَ...[4].

وقيلَ: هوَ أن يعتقدَ المرءُ فِي غيرِ اللهِ تعالَى صفةً منْ صفاتِ اللهِ تعالَى، كأنْ يقولَ: إنَّ فلانًا يعلمُ كلَّ شيءٍ، أوْ يعتقدَ أنَّ فلانًا يفعلُ مَا يشاءُ، أوْ يدَّعِي أنَّ فلانًا بيدهِ خيرِي وشرِي، أو يصرفَ لغيرِ اللهِ منَ التَّعظيمِ مَا لَا يليقُ إلَّا باللهِ تعالَى، كأنْ يسجدَ للشَّخصِ أو يطلبَ منهُ حاجةً أو يعتقدَ التصرُّفَ فِي غيرِ اللهِ تعالَى[5].

وقالَ الشَّيخُ محمَّدٌ إسماعيلُ بن عبدِ الغنيِّ الدهلوِي رحمهُ اللهُ تعالَى: إنَّ الشِّركَ لَا يتوقَّفُ علَى أنْ يعدلَ الإنسانُ أحدًا باللهِ ويساوِي بينهمَا بلَا فرقٍ، بلْ إنَّ حقيقةَ الشِّركِ: أنْ يأتيَ الإنسانُ بخلالٍ وأعمالٍ خصَّهَا اللهُ تعالَى بذاتهِ العليَّةِ وجعلهَا شعاراً للعبوديَّةِ، لأحدٍ منَ النَّاسِ، كالسُّجودِ لأحدٍ، والذَّبحِ باسمهِ والنَّذرِ لهُ، والاستعانةِ بهِ فِي الشِّدَّةِ والاعتقادِ أنَّهُ ناظرٌ فِي كلِّ مكانٍ، وإثباتِ التَّصرُّفِ لهُ، كلُّ ذلكَ يثبتُ بهِ الشِّركُ ويصبحُ بهِ الإنسانُ مشركاً(6).

وهذَا التَّعريفُ فيهِ تصوُّرٌ كاملٌ لحقيقةِ الشِّركِ.

وقيلَ: هوَ إشراكُ غيرِ اللهِ معَ اللهِ فِي اعتقادِ الإلهيَّةِ، وفِي العبادةِ(7).

وقالَ الشَّوكانِي رحمهُ اللهُ تعالَى: إنَّ الشِّركَ هوَ دعاءُ غيرِ اللهِ فِي الأشياءِ التِي تختصُّ بهِ، أوِ اعتقادُ القدرةِ لغيرهِ فيمَا لَا يقدرُ عليهِ سواهُ، أوِ التقرُّبِ إلَى غيرهِ بشيءٍ ممَّا لَا يُتقرَّبُ بهِ إلَّا إليهِ(8).

والذِي يظهرُ منْ هذهِ الأقوالِ: أنَّ الشِّركَ حقيقتهُ فِي اتخاذِ الندِّ معَ اللهِ تعالَى، سواءٌ كانَ هذَا الندُّ فِي الرُّبوبيَّةِ أوِ الألوهيَّةِ.

وبهذَا تتفقُ أقوالُ العلماءِ المحقِّقينَ فِي حقيقةِ الشِّركِ معَ قولِ أصحابِ المعاجمِ بأنَّ أصلَ الشِّركِ اتِّخاذُ الأندادِ معَ اللهِ تعالَى.

فأصلُ الشِّركِ كمَا علمنَا منَ البيانِ السَّابقِ مَا هوَ إِلَّا اتِّخاذُ النِّدِّ معَ اللهِ تعالَى، وهذَا مَا سيتضِّحُ لنَا أكثَرَ عندَ بيانِ حقيقةِ الشِّركِ فِي نصوصِ القرآنِ والسُّنَّةِ.

وإذَا نظرنَا إلَى حقيقةِ الشِّركِ فِي القرآنِ نرَى: أنَّ اللهَ تعالَى بيَّنهَا فِي كتابهِ بياناً شافياً واضحاً لَا لُبسَ فيهِ ولَا غموضَ. فقالَ تعالَى: "فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ" [البقرة: 22]**.**

ومعنَى الآيةِ: النَّهيُ عنِ اتِّخاذِ الأندادِ معَ اللهِ تعالَى بأيِّ وجهٍ منَ الوجوهِ، وقدْ نُقلَ عنِ السَّلفِ فِي تفسيرِ الآيةِ مثلَ هذَا القولِ، فمثلاً:

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: الأندادُ: الأشباهُ"(9)، والندُّ: الشِّبهُ، يقالُ: فلانٌ ندُّ فلانٍ، ونديدهُ: أي مثلهُ وشبههُ، ومنهُ قولُ النَّبيِّ ﷺ لمنْ قالَ لهُ: مَا شاءَ اللهُ وشئتَ: "أجعلتنِي للهِ ندًّا(10)، وكلُّ شيءٍ كانَ نظيراً لشيءٍ وشبيهًا فهوَ لهُ ندٌّ(11).

---

(1) عبد الرحمن السعدي: ((القول السديد في مقاصد التوحيد)) (ص: 24).

(2) عبد الرحمن السعدي: ((تفسير كلام المنان)) (499/2).

(3) أبو بكر الجزائري ((عقيدة المؤمن)).

(4) ولي الله الدهلوي: ((الفوز الكبير في أصول التفسير)) (ص: 3).

(5) محمد إسماعيل بن عبد الغني بن عبد الرحمن العمري: ((تقوية الإيمان)) (22، 23)، و ((رسالة التوحيد)) (ص: 32، 33).

(6) محمد إسماعيل بن عبد الغني بن عبد الرحيم العمري: ((تقوية الإيمان)) (22، 23)، و((رسالة التوحيد)) (ص: 32، 33).

(7) ابن عاشور: الطاهر: ((التحرير والتنوير)) (333/7).

(8) الشوكاني: ((الدر النضيد)) (ص: 34) ط مكتبة الصحابة الإسلامية.

(9) انظر هذا القول فيما ذكره ((الطبري في تفسيره)) (126/1، 127).

(10) رواه أحمد - والبخاري في ((الأدب المفرد)) - والنسائي في ((السنن الكبرى)) ، قال ابن القيم في ((مدارج السالكين)): صحيح. وقال العراقي في ((تخريج الإحياء)): إسناده صحيح، وقال أحمد شاكر في ((مسند أحمد)): إسناده صحيح، وصححه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) .

(11) انظر ما نقله ((الطبري في تفسيره)) (127/1).

قالَ ابنُ مسعودٍ: الأندادُ: الأكفَّاءُ منَ الرِّجالِ تطيعونـهمْ فِي معصيةِ اللهِ[1]، كمَا قالَ جلَّ ثناؤهُ: "اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا[التوبة: 31].

قالَ الطَّبريُّ: قالَ عديٌّ بنُ حاتمَ: أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ وفِي عنقِي صليبٌ منْ ذهبٍ، فقالَ: يَا عدِي، اطرحْ هذَا الوثنَ منْ عنقكَ، فطرحتهُ وانتهيتُ إليهِ وهوَ يقرأُ فِي سورةِ براءةٍ، فقرأَ هذهِ الآيةَ: "اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ"، قلتُ: يَا رسولَ اللهِ، إنَّا لسنَا نعبدهمْ، فقالَ: أليسَ يحرِّمونَ مَا أحلَّ اللهُ فتحرِّمونهُ، ويحلُّونَ مَا حرَّمَ اللهُ فتحلُّونهُ؟ قلتُ: بلَى، قالَ: فتلكَ عبادتهمْ[2].

ففِي هذَا القولِ أيضاً: إثباتُ كونَ الشِّركَ هوَ اتِّخاذُ الندِّ، فإنَّ منْ أثبتَ حقَّ التَّشريعِ والتَّحليلِ والتَّحريمِ لغيرِ اللهِ تعالَى فقدْ أثبتَ لهُ الندَّ.

وقالَ عكرمةُ: "فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً"[البقرة: 22] أيْ تقولُوا: لولَا كَلْبُنَا لدخلَ علينَا اللصُّ الدَّارَ، لولَا كلبنَا صاحَ فِي الدَّارِ، ونحوِ ذلكَ[3]، فنهاهمُ اللهُ تعالَى أنْ يشركُوا بهِ شيئًا، وأنْ يعبدُوا غيرهُ، أو يتَّخذُوا لهُ ندًّا وعدلًا فِي الطَّاعةِ، فقالَ: كمَا لَا شريكَ لِي فِي خلقكمْ وفِي رزقكْم الذِي أرزقكمْ، وملكِي إيَّاكمْ، ونعمتِي عليكمْ، فكذلكَ فأفردُوا لِي الطَّاعةَ، وأخلصُوا لِي العبادةَ، ولَا تجعلُوا لِي شريكاً وندًّا منْ خلقِي، فإنَّكمْ تعلمونَ: أنَّ كلَّ نعمةٍ عليكمْ منِّي[4].

قالَ عبدُ الرَّحمنِ بنِ زيدٍ بنِ أسلمَ: الأندادُ: الآلهةُ التِي جعلوهَا معهُ، وجعلُوا لهَا مثلَ مَا جعلُوا لهُ[5].

فمعنَى الأندادِ علَى هذَا هيَ الآلهةُ، والآلهةُ عندَ الكفَّارِ حينذاكَ بمعنَى الشُّفعاءِ لهمْ عندَ اللهِ، وقدْ سمَّاهمْ اللهُ تعالَى شركاء، فقالَ تعالَى فِي الردِّ علَى اتِّخاذهمْ آلهةً بمعنَى شفعاءٍ لهمْ عندَ اللهِ: "وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء" [الأنعام: 94].

قالَ مجاهدٌ: الأندادُ: العدلاءُ(6).

والعدلاءُ هنَا أيضاً بمعنَى الشُّركاءِ للهِ تعالَى فِي عبادتهِ، قالَ اللهُ تعالَى: "ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ" [الأنعام: 1] أي يشركونَ(7)، ويقالُ: منْ مساواةِ الشَّيءِ بالشَّيءِ: عَدَلْتُ هَذَا بهذَا، إذَا ساويتهُ بهِ عدلاً.

قالَ الطَّبرِي فِي شرحِ هذهِ الآيةِ: يجعلونَ شريكاً فِي عبادتهمْ إيَّاهُ، فيعبدونَ معهُ الآلهةَ والأندادَ والأصنامَ والأوثانَ، وليسَ منهَا شيءٌ شاركهُ فِي خلقِ شيءٍ منْ ذلكَ، ولَا فِي إنعامهِ عليهمْ بمَا أنعمَ عليهمْ، بلْ هوَ المنفردُ بذلكَ كلِّهِ وهمْ يشركونَ فِي عبادتهمْ إيَّاهُ غيرهُ(8).

وقالَ الطَّبري: الأندادُ جمعُ ندٍّ، والندُّ: العدلُ، والمثلُ(9).

والمقصودُ: أنَّ اتِّخاذَ الشَّبيهِ والكفؤِ للهِ تعالَى يسمَى شركاً باللهِ تعالَى، ولهذَا أخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّهُ لمْ يكنْ لهُ كفؤٌ ولَا شبيهٌ ولَا نظيرٌ، لأنَّهُ ليسَ كمثله شيءٌ وهوَ السَّميعُ البصيرُ، قالَ تعالَى: "وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ" [الإخلاص: 4].

قالَ أبُو العاليةِ فِي معنَى الآيةِ: لمْ يكنْ لهُ شبيهٌ ولَا عدلٌ وليسَ كمثلهِ شيءٌ)(10)، أي كيفَ يكونُ لهُ منْ خلقهِ نظيرٌ يساميهِ أو قريبٌ يدانيهِ، تعالَى وتقدَّسَ وتنزَّهَ(11)، وهوَ

الواحدُ الأحدُ، لَا نظيرَ لهُ ولَا وزيرَ ولَا نديدَ، ولَا شبيهَ ولَا عديلَ(12).

هكذَا بيَّنَ اللهُ تعالَى فِي كتابِهِ حقيقةَ الشِّركِ باللهِ تعالَى بيانًا واضحًا، وهوَ: اتِّخاذُ الندِّ معَ اللهِ تعالَى، وكلُّ مَا ذُكرَ فِي معانِي الندِّ منَ الكفؤِ، والشَّبيهِ، والمثلِ، والعدلِ، والآلهةِ، كلُّهَا معانٍ متقاربةٌ تدلُّ علَى معنَى الشِّركِ باللهِ تعالَى، والتِي تدلُّ صراحةً أنَّ الشِّركَ فِي الحقيقةِ: اتِّخاذُ النِّدِ بمعنَى الشبيهِ أوِ العدلِ أوِ المثلِ أوِ الكفؤِ للهِ عزَّ وجلَّ.

---

(1) الطبري: ((جامع البيان)) (127/1).

(2) رواه الترمذي (3095) والطبري في ((تفسيره)) (210/14)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (ص: 1784) والطبراني في ((المعجم الكبير))(92/17)(218) والبيهقي(116/10)، وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث. وقال الذهبي في ((المهذب)) (4108/8): فيه غطيف ضعفه الدارقطني. وقال ابن عثيمين في ((مجموع فتاوى ابن عثيمين))(736/10): إسناده ضعيف. وحسنه ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (67/7) والألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (3293).

(3) رواه الطبري في تفسيره (369/1).

(4) الطبري: ((جامع البيان)) (127/1).

(5) انظر ما ذكره ((الطبري في تفسيره)) (127/1).

(6) انظر ما ذكره ((الطبري في تفسيره)) (127/1).

(7) انظر ما ذكره ((الطبري في تفسيره)) (92/7، 93).

(8) ((تفسير الطبري)) (252/11).

(9) الشرك في القديم والحديث لأبي بكر محمد زكريَّا الجزء الأول.

(10) انظر ما ذكره ((الطبري في تفسيره)) (224/12).

(11) انظر ما ذكره ((ابن كثير في تفسيره)) (570/4).

(12) انظر: ((تفسير ابن كثير)) (527/8).

الشركُ ظلمٌ عظيمٌ:

والشرِّكُ أكبرَ الذُّنوبِ لَا ذنبَ فوقهُ، ولَا قتلُ النَّفسِ ولَا العقوقُ ولَا حتَّى الزِّنَى بالمحارمِ، وصاحبُ الشِّركِ إنْ ماتَ قبلَ التوبةِ فهوَ هالكٌ لَا محالةَ خالدٌ مخلَّدٌ فِي النَّارِ والعياذُ باللهِ فقدْ سبحانهُ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا" [النساء: 116] قالَ الطبرِي: قالَ أبُو جعفرٍ: يعنِي بذلكَ جلَّ ثناؤهُ: إنَّ اللهَ لَا يغفرُ لطعمةَ[1] إذْ أشركَ وماتَ علَى شركهِ باللهِ، ولَا لغيرهِ منْ خلقهِ بشركهمْ وكفرهمْ بهِ "ويغفرُ مَا دونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ"، يقولُ: ويغفرُ مَا دونَ الشِّركِ باللهِ منَ الذُّنوبِ لمنْ يشاءُ. يعنِي بذلكَ جلَّ ثناؤهُ: أنَّ طعمةَ لولَا أنَّهُ أشركَ باللهِ وماتَ علَى شركهِ، لكانَ فِي مشيئةِ اللهِ علَى مَا سلفَ منْ خيانتهِ ومعصيتهِ، وكانَ إلَى اللهِ أمرهُ فِي عذابهِ والعفوِ عنهُ، وكذلكَ حكمُ كلِّ منِ اجترمَ جُرْمًا، فإلَى اللهِ أمرهُ، إلَّا أنْ يكونَ جرمهُ شركًا باللهِ وكفرًا، فإنَّهُ ممَّنْ حَتْمٌ عليهِ أنَّهُ منْ أهلِ النَّارِ إذَا ماتَ علَى شركهِ، فأمَّا إذَا ماتَ علَى شركهِ، فقدْ حرَّمَ اللهُ عليهِ الجنَّةَ ومأواهُ النَّارُ[2].

---

(1) هو طعمة بن أبيرق، الحارث بن عمرو بن حارثة بن الهيثم بن ظفر بن الخزرج بن عمر بن مالك الظفري، الأوسي.

وقيل: هو أبو طعمة بشير بن أبيرق...إلى آخر نسبه.

أحد منافقي صحابة النبي ﷺ، وكان شاعرا يهجو أصحاب النبي ﷺ.

يقال: إنه شهد مع النبي ﷺ واقعة أحد.

بعد أن سرق من عمه ـ قتادة بن النعمان ـ بعض الأشياء وشاع خبره بين أناس هرب إلى مكة في السنة الرابعة من الهجرة، وارتد عن الإسلام.

في أحد الأيام قام بنقب حائط في مكة ليسرق أهله، فسقط الحائط عليه فقتله، وهلك كافرا.

(2) تفسير الطبري.

ومَا سبقَ هوَ عقيدةُ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ أنَّ صاحبَ الشِّركِ إذَا ماتَ علَى شركهِ فهوَ محتَّمٌ عليهِ أنَّهُ منْ أهلِ النَّارِ ومحرَّمٌ عليهِ الجنَّةُ بمَا سبقَ ذكرهُ، وإنْ تابَ فِي الدُّنيَا يتوبُ اللهِ عليهِ، وأنَّ صاحبَ الكبيرةِ إنْ ماتَ دونَ توبةٍ فهوَ تحتَ المشيئةِ إنْ شاءَ عذَّبهُ وإنْ شاءَ غفرَ لهُ، عكسَ منْ تخبَّطَ فِي هذَا الأمرِ فقالُوا بأهوائهمْ، فمنهمْ منْ قالَ: أنَّ صاحبَ الكبيرةِ كافرٌ وهوَ مخلَّدٌ فِي النَّارِ وهمُ الخوارجُ، ومنهمْ منْ قالَ هوَ ليسَ بمسلمٍ ولَا كافرٍ بلْ فِي منزلةٍ بينَ المنزلتينِ وهوَ فِي الآخرةِ مخلَّدٌ فِي النَّارِ وهمُ المعتزلةُ، ومنهمْ منْ يقولُ لَا يضرُّ معَ الإيمانِ معصيةٌ فصاحبُ الكبيرةِ عندهمْ كاملُ الإيمانِ ولَا يدخلُ للنَّارِ أبدًا وهمُ المرجئَةُ، حتَّى أنهمْ قالُوا: لنْ يدخلَ النَّارَ منْ أهلِ التَّوحيدِ أحدٌ(1)، والصَّحيحُ أنَّ الإيمانَ يزيدُ بالتَّقوَى وينقصُ بالمعصيةِ، وأنَّهُ لَا يخلدُ فِي النَّارِ أحدٌ منْ أهلِ التَّوحيدِ، ولكنَّهُ ممكنٌ دخولهُ.

أقسامُ الشِّركِ:

للشِّركِ قسمانِ: شركٌ أكبرٌ وشركٌ أصغرٌ:

أمَّا الشِّركُ الأكبرُ: حكمهُ مخرجٌ منَ الملَّةِ محبطٌ للعملِ، قالَ تعالَى: "إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ" [المائدة: 72]، وقالَ تعالَى: "وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ" [الزمر: 65].

تعريفُ الشِّركِ الأكبرِ: أمَّا الشِّركُ الأكبرُ فحقيقتهُ هيَ: أنْ يضرعَ الإنسانُ بعبادةٍ منَ العباداتِ إلَى غيرِ اللهِ تعالَى صلاةً أوْ نذراً أوِ استغاثةً فِي شدَّةٍ أوْ مكروهٍ فيمَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا

اللهُ تعالَى ونحوِ ذلكَ، مثالهُ فِي الاعتقاداتِ: اعتقادُ أنَّ غيرَ اللهِ يستحقُّ العبادةَ (أي نوعٍ منَ العبادةِ كانتْ) ومثالهُ فِي الأعمالِ: الذَّبحِ لغيرِ اللهِ، ومثالهُ فِي الأقوالِ: دعاءُ غيرِ اللهِ فيمَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ. وهذَا هوَ الذي وردَ فيهِ مثلُ قولِ اللهِ تعالَى: "تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ" [الشعراء: 97-98] وقولهُ تعالَى: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ" [البقرة: 165][2].

وأمَّا الشِّركُ الأصغرُ: فهوَ: كلُّ مَا كانَ ذريعةً إلَى الشِّركِ الأكبرِ ووسيلةً للوقوعِ فيهِ، ونهَى عنهُ الشَّرعُ وسمَّاهُ شركاً[3]، ولَا يخرجُ منَ الملَّةِ. وهوَ قدْ يكونُ فِي الأعمالِ، ومنْ ذلكَ يسيرُ الرِّياءِ كمَا قالَ الرَّسولُ ﷺ "أخوفُ مَا أخافُ علَى أمَّتِي الشِّركُ الأصغرُ ــ فسُئلَ عنهُ فقالَ: الرِّياءُ"[4]، وقدْ يكونُ فِي الأقوالِ: ومنهُ الحلفُ بغيرِ اللهِ تعالَى كمَا ثبتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ قولهُ: "منْ حلفَ بغيرِ اللهِ فقدْ أشركَ"[5]، وقدْ يصيرُ الشِّركُ الأصغرُ شركاً أكبرَ بحسبِ مَا يقومُ بقلبِ صاحبهِ[6].

---

(1) للمزيد يُنظر فتاوي ابن تيمية.

(2) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى لخالد عبد اللطيف– 93/1.

(3) انظر: ((تيسير العزيز الحميد)) (ص: 45)، و((الفتوى رقم 1653 بتاريخ 1397/8/22هـ من فتاوى اللجنة الدائمة بمجلة البحوث الإسلامية عدد رقم 20)) – (ص: 151).

(4) رواه الطبراني (253/4) (4301). من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه. قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (225/10): رجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن شبيب بن خالد، وهو ثقة.

(5) رواه أبو داود (3251)، والترمذي (1535)، وأحمد (125/2) (6072)، وابن حبان (199/10) (4358)، والحاكم (65/1). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وصحح إسناده عبدالحق الإشبيلي في ((الأحكام الصغرى)) (735).

(6) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى لخالد عبد اللطيف– 93/1.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: نهَى اللهُ عنِ التكبُّرِ، وذمَّ الكِبْرَ والمتكبِّرينَ، وأخبرَ عنْ عقوباتهمْ العاجلةَ والآجلةَ.

والتكبُّرُ هوَ: ردُّ الحقِّ، واحتقارُ الخلقِ، وضدُّ ذلكَ التواضعُ، فقدْ أمرَ بهِ، وأثنَى علَى أهلهِ، وذكرَ ثوابهمْ، فهوَ قبولُ الحقِّ ممَّنْ قالهُ، وأنْ لَا يحتقرَ الخلقَ، بلْ يرَى فضلهمْ، ويحبُّ لهمْ مَا يحبُّ لنفسهِ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ نهَى اللهُ تعالَى عنِ التَّكبرِ وذمَّ المتكبِّرينَ وتوعَّدهمْ بالعذابِ فِي كتابهِ وقالَ: "إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23)[النحل: 22، 23].

وقالَ تعالَى: "وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا" [الفرقان: 21].

وقالَ: "وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ" [العنكبوت: 39].

وقال: "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[لقمان: 7].

وقالَ: "ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ" [غافر: 76].

وقالَ: وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8)"[الجاثية: 7، 8].

الكِبْرُ لغةً:

الكِبْرُ: العَظَمَةُ والتَّجَبُّرُ، كالكِبْرِياءِ، وقدْ تكَـبَّرَ واسْتَكْبَرَ وَتَكابَرَ، والتَّكَبُّرُ والاسْتِكْبارُ: التَّعَظُّمُ، والكِبْرُ بالكسرِ: اسمٌ منَ التكبُّرِ(1).

الكِبْرُ اصطلاحًا:

الكِبْرُ جاءَ تعريفهُ فِي حديثِ النَّبيِّ ﷺ فقدْ قالَ: "الكِبْرُ بطرُ الحقِّ، وغمطُ النَّاسِ(2).

وقالَ الزَّبيدي: الكِبْرُ: حالةٌ يتخصَّصُ بهَا الإنسانُ منْ إعجابهِ بنفسهِ، وأنْ يرَى نفسَهُ أَكْبَرَ منْ غيرهِ(3).

وقيلَ الكِبْرُ هوَ: استعظامُ الإنسانِ نفسهُ، واستحسانُ مَا فيهِ منَ الفضائلِ، والاستهانةُ بالنَّاسِ، واستصغارهمْ، والترفُّعُ علَى منْ يجبُ التَّواضعُ لهُ(4).

الفرقُ بينَ الكِبْرِ والكِبْرياءِ:

هوَ أنَّ الكِبْر: إظهارُ عظمِ الشَّأنِ، والكِبْرياءُ هيَ العزُّ والملكُ، وليستْ منَ الكِبْرِ فِي شيءٍ، والشَّاهدُ قولهُ تعالَى: "وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ" [يونس: 78]**، يعنِي الملكُ، والسُّلطانُ، والعزَّةُ، وأمَّا التَّكبرُ فهوَ إظهارُ الكِبْرِ، مثلَ: التشجُّعِ، إظهارُ الشَّجَاعَةِ(5).**

الفرقُ بينَ الاستنكافِ، والاستكبارِ، والتكبُّرِ:
الاستنكافُ: تكبُّرٌ فِي تركهِ أنفةٌ، والأنفةُ: عِزَّةٌ وحميَّةٌ(6)، لذلكَ قالَ تعالَى: "لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا" [النساء: 172]**، وليسَ فِي الاستكبارِ ذلكَ،**

وإنَّمَا يستعملُ الاستكبارُ حيثُ لَا استخفافَ، بخلافِ التَّكبرِ، فإنَّهُ قدْ يكونُ باستخفافِ.

والتَّكبُّرُ: هوَ أنْ يرَى المرءُ نفسهُ أكبرَ منْ غيرهِ، والاستكبارُ طلبُ ذلكَ بالتَّشبُّعِ وهوَ التزيُّنُ بأكثرِ مَا عندهُ[7].

الفرقُ بينَ الجَبَروتِ والجبريَّةِ والكِبْرِ:

أنَّ الجبريَّةَ أبلغُ منَ الكِبْرِ وكذلكَ الجبروتُ، ويدلُّ علَى هذَا فخامةُ لفظهَا، وفخامةُ اللَّفظِ تدلُّ علَى فخامةِ المعنَى، فيمَا يجرِي هذَا المجرَى[8].

الفرقُ بينَ العُجْبِ والكِبْرِ:

أنَّ العُجبَ بالشَّيءِ شدَّةُ السُّرورِ بهِ حتَّى لَا يعادلهُ شيءٌ عندَ صاحبهِ، تقولُ: هوَ مُعجبٌ بفلانٍ، إذَا كانَ شديدَ السُّرورِ بهِ، وهوَ معجبٌ بنفسهِ، إذَا كانَ مسرورًا بخصالهَا.

ولهذَا يقالُ: أَعْجَبَهُ، كمَا يقالُ: سُرَّ بهِ، فليسَ العُجبُ منَ الكِبْرِ فِي شيءٍ، وقالَ علِي بنُ عيسَى: "العُجبُ: عقدُ النَّفسِ علَى فضيلةٍ لهَا ينبغِي أنْ يتعجَّبَ منهَا، وليستْ هيَ لهَا"[9].

---

(1) (تاج العروس) للزبيدي (8/14)، ((المصباح المنير)) للفيومي (523/2).

(2) رواه مسلم.

(3) (تاج العروس) (8/14).

(4) (تهذيب الأخلاق) للجاحظ (ص 32).

(5) (الفروق اللغوية) لأبي هلال العسكري (445/1).

(6) معجم اللغة العربية.

(7) كتاب (الكليات) لأبى البقاء الكفوي (18/1).

(8) (الفروق اللغوية) لأبي هلال العسكري (154/1-155).

(9) السابق.

ذمُّ الكبرِ:

الكِبْرُ منْ أوَّلِ الذُّنوبِ التِي عُصيَ اللهُ تباركَ وتعالَى بهَا، قالَ اللهُ تعالَى مبيِّنًا سببَ امتناعِ إبليسَ عنِ السُّجودِ لآدمَ: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ"[البقرة: 34].

قالَ الطَّبرِي رحمهُ اللهُ تعالَى: وهذَا، وإنْ كانَ منَ اللهِ جلَّ ثناؤهُ خبرًا عنْ إبليسَ، فإنَّهُ تقريعٌ لضُربائهِ منْ خلقِ اللهِ الذينَ يتكبَّرونَ عنِ الخضوعِ لأمرِ اللهِ، والانقيادِ لطاعتهِ فيمَا أمرهمْ بهِ وفيمَا نهاهمْ عنهُ، والتَّسليمُ لهُ فيمَا أوجبَ لبعضهمْ علَى بعضٍ منَ الحقِّ[1].

وقالَ عوفُ بنُ عبدِ اللهِ للفضلِ بنِ المهلبِ: إنِّي أريدُ أنْ أعظكَ بشيءٍ، إيَّاكَ والكِبرَ، فإنَّهُ أوَّلُ ذنبٍ عصَى اللهَ بهِ إبليسُ، ثمَّ قرأَ: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ"[البقرة: 34][2].

والكِبْرُ سببٌ رئيسٌ فِي هلاكِ الأممِ السَّابقةِ: فهؤلاءِ قومُ نوحٍ مَا منعهمْ عنْ قبولِ الدَّعوةِ، والاستماعِ لنداءِ الفطرةِ والإيمانِ، إلَّا الكِبْرُ، فقدْ قالَ اللهُ تعالَى علَى لسانِ نبيِّهمْ نوحٍ عليهِ وعلَى رسولِ اللهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: "وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا[نوح: 7].

---

(1) (جامع البيان) (510/1).

(2) (مفاتيح الغيب) (645/3).

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ، عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: "لَا يدخلُ الجنَّةَ منْ كانَ فِي قلبهِ مثقالُ ذرَّةٍ منْ كبرٍ، فقالَ رجلٌ: إنَّ الرَّجلَ يحبُّ أنْ يكونَ ثوبهُ حسنًا، ونعلهُ حسنةٌ؟ قالَ: إنَّ اللّهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكبرُ: بطرِ الحقِّ وغمطُ النَّاسِ[1].

وعنْ حارثةَ بنِ وهبٍ الخزاعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: "ألَا أخبركمْ بأهلِ الجنَّةِ؟ كلُّ ضعيفٍ متضاعفٍ، لوْ أقسمَ علَى اللهِ لأبرَّهُ، ألَا أخبركمْ بأهلِ النَّارِ؟ كلُّ عتلٍّ[2]، جواظٍ[3]، مستكبرٍ"[4].

وعنْ أَبِي سعيدِ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ، عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: "احتجَّتِ الجنَّةُ والنَّارُ، فقالتْ النَّارُ: فيَّ الجبَّارونَ والمتكبِّرونَ. وقالتِ الجنَّةُ: فيَّ ضعفاءُ النَّاسِ ومساكينهمْ، فقضَى اللهُ بينهمَا: إنَّكِ الجنَّةُ رحمتِي أرحمُ بكِ منْ أشاءُ، وإنَّكِ النَّارُ عذابِي أعذِّبُ بكِ منْ أشاءُ، ولكليكمَا عليَّ ملؤهَا"[5].

وعنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ، قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: "ثلاثةٌ لَا يكلِّمهمُ اللهُ يومَ القيامةِ، ولَا يزكِّيهمْ، ولَا ينظرُ إليهمْ، ولهمْ عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، وملكٌ كذَّابٌ، وعائلٌ مستكبرٌ[6]"[7].

يقولُ ابنُ تيميةَ رحمهُ اللهُ تعالَى: فهؤلاءِ الثَّلاثةُ: اشتركُوا فِي هذَا الوعيدِ، واشتركُوا فِي فعلِ هذهِ الذُّنوبِ معَ ضعفِ دواعيهمْ؛ فإنَّ داعيةَ الزِّنَا فِي الشَّيخِ ضعيفةٌ، وكذلكَ داعيةُ الكذبِ فِي الملكِ ضعيفةٌ؛ لاستغنائهِ عنهُ وكذلكَ داعيةُ الكِبْرِ فِي الفقيرِ، فإذَا أتَوا بهذهِ الذُّنوبِ- معَ ضعفِ الدَّاعِي- دلَّ

علَى أنَّ فِي نفوسهمْ منَ الشرِّ الذِي يستحقُّونَ بهِ منَ الوعيدِ مَا لَا يستحقُّهُ غيرهمْ(8).

أثارُ الكبرِ:

1) الحرمانُ منَ النَّظرِ والاعتبارِ:

أيْ أنَّ الأثرَ الأوَّلَ الذِي يتركهُ التكبُّرُ علَى المسلمِ إنَّمَا هوَ الحرمانُ منَ النَّظرِ والاعتبارِ... ومنْ حَرُمَ النَّظرَ والاعتبارَ، كانتْ عاقبتهُ البوارُ والخسرانُ المبينُ؛ لأنَّهُ سيبقَى مقيمًا علَى عيوبهِ وأخطائهِ، غارقًا فِي أوحالهِ، حتَّى تنتهِي الحياةُ.

2) القلقُ والاضطرابُ النَّفسيُّ:

ذلكَ أنَّ المتكبِّرَ يحبُّ إشباعَ رغبةِ التَّرفُّعِ والتَّعالِي، وأنْ يحنِي النَّاسُ رؤوسهمْ لهُ، وأنْ يكونُوا دومًا فِي ركابهِ، ولأنَّ أعزَّةَ النَّاسِ وكرامهمْ يأبونَ ذلكَ، بلْ ليسُوا مستعدِّينَ لهُ أصلًا، فإنَّهُ يصابُ بخيبةِ أملٍ، تكونُ عاقبتهَا القلقُ والاضطرابُ النَّفسيُّ، هذَا فضلًا علَى أنَّ اشتغالَ هذَا المتكبِّرِ بنفسهِ يجعلهُ فِي إعراضٍ تامٍّ عنْ معرفةِ اللهِ تعالَى وذكرهِ، وذلكَ لهُ عواقبُ أدناهَا فِي هذهِ الدُّنيَا القلقُ والاضطرابُ.

3) الملازمةُ للعيوبِ والنَّقائصِ:

وذلكَ أنَّ المتكبِّرَ لظنِّهِ أنَّهُ بلغَ الكمالَ فِي كلِّ شيءٍ لَا يفتِّشُ فِي نفسهِ، حتَّى يعرفَ أبعادهَا ومعالمهَا، فيُصلحُ مَا هوَ فِي حاجةٍ منهَا إلَى إصلاحٍ، ولَا يقبلُ كذلكَ نصحًا أو توجيهًا أو إرشادًا منَ الآخرينَ، ومثلُ هذَا يبقَى غارقًا فِي عيوبهِ ونقائصهِ، ملازمًا لهَا إلَى أنْ تنقضِي الحياةُ، ويدخلَ النَّارَ معَ الدَّاخلينَ.

4) الحرمانُ منَ الجنَّةِ واستحقاقِ العذابِ:

وذلكَ أمرٌ بدهيٌّ، فإنَّ منْ يعتدِي علَى مقامِ الألوهيَّةِ، ويظلُّ مقيمًا علَى عيوبهِ ورذائلهِ، ستنتهِي بهِ الحياةُ حتمًا ومَا حصَّلَ خيرًا يستحقُّ به ثوابًا أو مكافأةً، فيُحرمُ الجنَّةَ مؤبدًا أو مؤقَّتًا.

5) قلَّةُ كسبِ الأنصارِ بلْ والفرقةُ والتمزُّقُ، والشُّعورُ بالعزلةِ:

ذلكَ أنَّ القلوبَ جُبلتْ علَى حبِّ منْ ألانَ لهَا الجانبَ، وخفضَ لهَا الجناحَ، ونظرَ إليهَا منْ دونٍ لَا منْ علٍ.

6) الحرمانُ منَ العونِ والتَّأييدِ الإلهيِّ:

ذلكَ أنَّ الحقَّ سبحانهُ مضتْ سنَّتهُ أنَّهُ لَا يعطِي عونهُ وتأييدهُ، إلَّا لمنْ هضمُوا نفوسهمْ، حتَّى استخرجُوا حظَّ الشَّيطانِ منهَا بلْ حظَّ نفوسهمْ منْ نفوسهمْ، والمتكبِّرونَ قومٌ كبرتْ نفوسهمْ، ومنْ كانتْ هذهِ صفتهُ، فلَا حقَّ لهُ فِي عونٍ أوْ تأييدٍ إلهيٍّ إلَّا أنْ يتغمَّدهُ اللهُ برحمتهِ ويتوبَ عليهِ قبلَ موتهِ[9].

كيفيَّةُ الشِّفاءِ منْ مرضِ الكبرِ:

قالَ اللهُ تعالَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" [المائدة: 54].

الشَّاهدُ قولهُ تعالَى: "أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ" قالَ ابنُ كثيرٍ: هذهِ صفاتُ المؤمنينَ الكُمَّلِ أنْ يكونَ أحدهمْ متواضعًا لأخيهِ ووليِّهِ، متعزِّزًا علَى خصمهِ وعدوِّهِ[10].

وقالَ القرطبِي: قولهُ تعالَى: "أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ" (أذلَّةٌ) نعتٌ لقومٍ، وكذلكَ (أعزَّةٍ) أي: يرأفونَ بالمؤمنينَ ويرحمونهمْ ويلينونَ لهمْ، منْ قولهمْ: دابةٌ ذلولٌ أي: تنقادُ سهلةٌ، وليسَ منَ الذلِّ فِي شيءٍ، ويغلظونَ علَى الكافرينَ ويعادونهمْ، قالَ ابنُ عبَّاسَ: همُ للمؤمنينَ كالوالدِ للولدِ والسِّيدِ للعبدِ، وهمْ فِي الغلظةِ علَى الكفَّارِ كالسَّبعِ علَى فريستهِ؛ قالَ اللهُ تعالَى: "أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، وَيجوزُ "أذلَّةٌ" بالنَّصبِ علَى الحالِ، أي: يحبُّهمْ ويحبُّونهُ فِي هذَا الحالِ[11].

فمَا ارتدَّ منِ ارتدَّ فِي الآيةِ الكريمةِ إلَّا بكبرٍ فِي نفسهِ، فأخبرَ سبحانهُ أنَّهُ سيأتِي بنقيضهمْ، ونقيضُ الكبرِ التَّواضعُ[12]، ونقيضُ المتكبِّرِ هوَ المتواضعُ، وعلمنَا أنَّ منِ ارتدَّ فِي الآيةِ أنَّهُ متكبِّرٌ خاصَّةً، بذكرِ ضدِّهِ وهوَ الذَّليلِ بمعنَى المتواضعُ.

ومنْ هذهِ الآيةِ الكريمة علمنَا أنَّ الفضلَ كلَّ الفضلِ والعزَّ والشَّرفَ فِي التَّواضعِ للمؤمنينَ.

والمرادُ البذلِّ فِي الآيةِ الكريمةِ هوَ التَّواضعُ والرَّحمةُ والرأفةُ بالمؤمنينَ، فمنْ كانَ فيهِ مرضُ الكبرِ فمَا عليهِ إلَّا كسرُ نفسهِ بالذلِّ أمَامَ المحسنينَ والعلماءِ الربَّانيينَ والْتِمَاسِ رضاهمْ والعلمِ منهمْ، وأنْ يجاهدَ نفسهُ في ذلكَ، فهوَ فِي حربٍ معَ نفسٍ متعاليةٍ كانَ سندهَا الشيطانُ عليهِ لعنةُ اللهِ،

فلَا سبيلَ لكسبِ هذهِ الحربِ إلَّا بكسرِ العدوِّ، والعدوُّ هوَ النَّفسُ، فوجبَ عليهِ كسرُ هذَا العدوِّ، وليتحمَّلْ مَا يظنُ أنَّهُ ألمٌ فِي ذلكَ، لأنَ التواضعَ لأهلِ اللهِ والذلّ لهمْ لَا ألمَ فيهِ بلْ هوَ شرفٌ وعزَّةٌ ورفعةٌ، ولكنَّ النَّفسَ والشَّيطانَ يزيِّنانِ لصاحبِ هذَا المرضِ أنَّ فِي الانكسارِ ألمٌ، فليصبرْ، وليبتسمْ، لمنْ يكرهْ، وليكرمْ منْ يبغضْ، وليحسنْ لعدوِّهِ، وليُكثرْ منْ ذكرِ اللهِ تعالَى قائمًا وقاعدًا وعلَى جنبهِ، حتَّى يُصقلَ ذلكَ القلبُ المريضُ كمَا يُصقلُ الحديدُ الصَّدئُ فيعودُ برَّاقًا، حينهَا يعودُ قلبهُ كقلبِ الرَّضيعِ لَا كبرَ فيهِ ولَا كرهَ ولَا غيرِ ذلكَ، حينَ ذاكَ يصبحُ ذلكَ القلبُ وعاءً للحكمةِ والعلمِ، فالحكمةُ لَا تدخلُ قلبًا وسخًا، واللهُ أعلمُ.

---

(1) رواه مسلم (91).

(2) العتل: قيل: الشديد الخصومة. وقيل: الجافي عن الموعظة. وقيل: الفظ الشديد من كل شيء وهو هنا الكافر.وقيل: العتل الفاحش الآثم وقيل: الغليظ العنيف، وقيل: السمين العظيم العنق والبطن. وقيل: الجموع المنوع. وقيل: القصير البطين. ((فتح الباري)) لابن حجر (663/8).

(3) الجواظ: قيل: الكثير اللحم المختال في مشيه. وقيل: هو الأكول. وقيل: الفاجر. وقيل: الجواظ: الفظ الغليظ. (فتح الباري) لابن حجر (663/8).

(4) رواه البخاري (4918)، ومسلم (2853).

(5) رواه مسلم (2846).

(6) عائل مستكبر أي: فقير متكبر ((مرقاة المفاتيح)) (3190/8) وقيلَ هوَ صاحبُ العيال قليلِ المالِ.

(7) رواه مسلم (107).

(8) (مجموع الفتاوى) (14/18).

(9) موقع الدرر السنية – موسوعة الأخلاقِ (من أثار الكبر- بتصرُّف.

(10) تفسير ابن كثير.

(11) تفسير القرطبي.

(12) ينظر: المفهم لما اشكل من تلخيص شرح صحيح مسلم- لأبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي (تـ 656هـ).

ثمَّ قالَ رحمهُ تعالَى: العدلُ، هوَ: أداءُ حقوقِ اللهِ، وحقوقُ العبادِ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بالعدلِ فِي كتابهِ الكريمِ، وقالَ: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا" [النساء: 58]**.**

وقالَ تعالَى: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" [النحل: 90]**.**

وقالَ سبحانهُ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" [المائدة: 8]**.**

معنَى العدلِ لغةً:

العدلُ خلافُ الجورِ، وهوَ القصدُ فِي الأمورِ، ومَا قامَ فِي النُّفوسِ أنَّهُ مستقيمٌ، مِن عَدَلَ يَعْدِلُ فهوَ عادلٌ منْ عُدولٍ وعَدْلٍ، يقالُ: عَدَلَ عليهِ فِي القضيَّةِ فهوَ عادِلٌ. وبسطَ الوالِي عَدْلَهُ(1).

معنَى العدلِ اصطلاحًا:

العدلُ هوَ: أنْ تعطِي منْ نفسكَ الواجبَ وتأخذهُ(2).

وقيلَ هوَ: عبارةٌ عنِ الاستقامةِ علَى طريقِ الحقِّ بالاجتنابِ عمَّا هوَ محظورٌ دينًا(3).

وقيلَ هوَ: استعمالُ الأمورِ فِي مواضعهَا، وأوقاتهَا، ووجوههَا، ومقاديرهَا، منْ غيرِ سرَفٍ، ولَا تقصيرٍ، ولَا تقديمٍ، ولَا تأخيرٍ(4).

الفرقُ بينَ العدلِ والقسطِ:

القسطُ: هوَ العدلُ البيِّنُ الظَّاهرُ، ومنهُ سمِّيَ المكيالُ قسطًا، والميزانُ قسطًا؛ لأنَّهُ يصوِّرُ لكَ العدلَ فِي الوزنِ حتَّى تراهُ ظاهرًا، وقدْ يكونُ منَ العدلِ مَا يخفَى، ولهذَا قلنَا: إنَّ القسطَ هوَ النَّصيبُ الذِي بُيِّنتْ وجوههُ، وتقسَّطَ القومُ الشَّيءَ تقاسمُوا بالقسطِ(5).

الفرقُ بينَ العدلِ والإنصافِ:

الإنصافُ: إعطاءُ النصفِ، والعدلُ يكونُ فِي ذلكَ وفِي غيرهِ، ألَا ترَى أنَّ السارقَ إذَا قُطعَ قيلَ: إنَّهُ عدلَ عليهِ؟؟ ولَا يقالُ: إنَّهُ أنصفَ، وأصلُ الإنصافِ أنْ تعطيهُ نصفَ الشَّيءِ، وتأخذَ نصفهُ منْ غيرِ زيادةٍ ولَا نقصانٍ، وربَّمَا قيلَ: أطلبُ منكَ النِّصفَ، كمَا يقالُ: أطلبُ منكَ الإنصافَ. ثمَّ استُعملَ فِي غيرِ ذلكَ ممَّا ذكرناهُ، ويقالُ: أنصفَ الشَّيءَ، إذَا بلغَ نصفَ نفسهِ، ونصفَ غيرهِ إذَا بلغَ نصفهُ(6).

أهميَّةُ العدلِ:

لقدْ أرسلَ اللهُ تعالَى رسلهُ وأنزلَ معهمْ ميزانَ العدلِ ليقومَ النَّاسُ بالقسطِ، ومَا ذلكَ إلَّا لأهميَّتهِ، قالَ تعالَى: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ" [الحديد:25].

ووردتْ نصوصٌ قرآنيَّةٌ وأحاديثُ نبويَّةٌ كثيرةٌ تأمرُ بالعدلِ وترغِّبُ فيهِ، وتمدحُ منْ يقومُ بهِ.

يقولُ ابنُ القيِّمِ: ... إنَّ اللهَ سبحانهُ أرسلَ رسلهُ وأنزلَ كتبهُ ليقومَ النَّاسُ بالقسطِ، وهوَ العدلُ الذِي قامتْ بهِ الأرضُ والسَّمواتُ، فإذَا ظهرتْ أماراتُ العدلِ، وأسفرَ وجههُ بأيِّ طريقٍ كانَ؛ فثمَّ شرعَ اللهُ ودينهُ، واللهُ سبحانهُ أعلمُ وأحكمُ وأعدلُ أنْ يخصَّ طرقَ العدلِ وأماراتِه وأعلامهِ بشيءٍ، ثمَّ ينفِي مَا هوَ أظهرُ منهَا وأقوَى دلالةً وأبينَ أمارةً فلَا يجعلهُ منهَا، ولَا يحكمُ عندَ وجودهَا وقيامهَا بموجبهَا، بلْ قدْ بيَّنُ سبحانهُ بمَا شرعهُ منَ الطُّرقِ أنَّ مقصودهُ إقامةُ العدلِ بينَ عبادهِ، وقيامِ النَّاسِ بالقسطِ، فأيِّ طريقٍ استخرجَ بهَا العدلَ والقسطَ فهيَ منَ الدِّينِ وليستْ مخالفةً لَهُ[7].

التَّرغيبُ فِي العدلِ:

لقدْ أقامَ النَّبيُّ ﷺ العدلَ، ورغَّبَ فيهِ، وقدْ وردتْ الأحاديثُ تدلُّ علَى تطبيقهِ قواعدَ العدلِ، وإرسائهِ لمعالمهِ منهَا:

مَا رواهُ عبادةُ بنُ الصَّامتِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: بايعنَا رسولَ اللهِ ﷺ علَى السَّمعِ والطَّاعةِ فِي عسرنَا ويسرنَا، ومنشطنَا ومكارهنَا، وعلَى أنْ لَا ننازعَ الأمرَ أهلهُ، وعلَى أنْ نقولَ بالعدلِ أينَ كنَّا، لَا نخافُ فِي اللهِ لومةَ لائمٍ[1].

---

(1) ((الصحاح في اللغة)) للجوهري (1760/5)، ((لسان العرب)) لابن منظور (430/11). ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص1030)، ((المصباح المنير)) للفيومي (396/2).
(2) ((الأخلاق والسير)) لابن حزم (ص 81).
(3) ((التعريفات)) للجرجاني (ص 147).
(4) ((تهذيب الأخلاق)) المنسوب للجاحظ (ص 28).
(5) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص 428).
(6) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص 80).
(7) ((الطرق الحكمية)) (ص 19).

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ: "إنَّ المقسطينَ يومَ القيامةِ علَى منابرَ منْ نورٍ، عنْ يمينِ الرَّحمنِ، - وكلتَا يديهِ يمينٌ - الذينَ يعدلونَ فِي حكمهمْ وأهليهمْ ومَا وَلُوا"[2]،[3].

وقالَ ابنُ عثيمينَ: فالعدلُ واجبٌ فِي كلِّ شيءٍ، لكنَّهُ فِي حقِّ ولَّاةِ الأمورِ آكدُ وأولَى وأعظمُ، لأنَّ الظُّلمَ إذَا وقعَ منْ ولَّاةِ الأمورِ حصلتِ الفوضَى والكراهةُ لهمْ، حيثُ لمْ يعدلُوا[4].

وعنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "سبعةٌ يظلُّهمُ اللهُ تعالَى فِي ظلِّهِ يومَ لَا ظلَّ إلَّا ظلُّهُ: إمامٌ عدلٌ، وشابٌ نشأَ فِي عبادةِ اللهِ، ورجلٌ قلبهُ معلَّقٌ فِي المساجدِ، ورجلانِ تحابَّا فِي اللهِ اجتمعَا عليهِ وتفرَّقَا عليهِ، ورجلٌ دعتهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، فقالَ: إنِّي أخافُ اللهَ، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاهَا، حتَّى لَا تعلمَ شمالهُ مَا تنفقُ يمينهُ، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خاليًا ففاضتْ عيناهُ[5].

قالَ ابنُ رجبٍ: وأوَّلُ هذهِ السَّبعةَ: الإمامُ العادلُ: وهوَ أقربُ النَّاسِ منَ اللهِ يومَ القيامةِ، وهوَ علَى منبرٍ منْ نورٍ علَى يمينِ الرَّحمنِ، وذلكَ جزاءٌ لمخالفتهِ الهوَى، وصبرهِ عنْ تنفيذِ مَا تدعوهُ إليهِ شهواتهُ وطمعهُ وغضبهُ، معَ قدرتهِ علَى بلوغِ غرضهِ منْ ذلكَ؛ فإنَّ الإمامَ العادلَ دعتهُ الدُّنيَا كلُّهَا إلَى نفسهَا، فقالَ: إنِّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ، وهذَا أنفعُ الخلقَ لعبادِ اللهِ، فإنَّهُ إذَا صلحَ صلحتْ الرعيَّةُ كلُّهَا، وقدْ رُويَ أنَّهُ ظلُّ اللهِ فِي الأرضِ، لأنَّ الخلقَ كلَّهمْ يستظلُّونَ بظلِّهِ، فإذَا عدلَ فيهمْ أظلَّهُ اللهُ فِي ظلِّهِ[6].

(1) رواه النسائي (4153)، وأحمد (441/3) (15691) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه. وصححه ابن عبد البر في ((التمهيد)) (272/23)، وابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (91/4)، والألباني في ((صحيح النسائي)) (4164).

(2) أي: كانت لهم عليه ولاية. ((شرح النووي على مسلم)) (12/ 211).

(3) رواه مسلم (1827).

(4) ((شرح رياض الصالحين)) (641/3).

(5) رواه البخاري (660)، ومسلم (1031).

(6) ((فتح الباري)) (59/4).

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: والظلمُ: عكسهُ، فهوَ يشملُ ظلمَ العبدِ لنفسهِ بالمعاصِي والشِّركِ، وظلمَ العبادِ فِي دمائهمْ وأموالهمْ وأعراضهمْ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

والظُّلمُ عكسهُ أي عكسُ العدلِ، وقدْ نهَى اللهُ تعالَى فِي كتابهِ عنْ ظلمِ النَّفسِ والعبادَ وتوعَّدَ الظَّالمينَ بسوءِ العاقبةِ وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا" [النساء: 168].

وقالَ تعالَى: "أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" [التوبة: 70].

وقالَ سبحانهُ: "وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ" [يونس: 13].

وقالَ جلَّ جلالهُ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" [يونس: 44].

وقالَ تباركَ وتعالَى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ" [إبراهيم: 13].

وقالَ تقدَّستْ أسماؤهُ: "وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ" [إبراهيم: 42].

وقالَ تنزَّهتْ صفاتهُ: "وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا" [الكهف: 59].

وقالَ: "أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" [مريم: 38].

وقالَ: "وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا" [طه: 111].

وقالَ: "فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ" [الروم: 57].

الظلم لغةً:

أصل الظلم: الجور ومجاوزة الحد، يقال: ظَلَمه، يَظْلِمُه ظَلْمًا، وظُلْمًا، ومَظْلمةً، فالظَّلْمُ مَصْدرٌ حقيقيٌّ، والظُّلم الاسم، وهو ظالم وظَلوم. وأصل الظلم، وضع الشيء في غير موضعه[1].

الظلم اصطلاحًا:

هو: وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إمَّا بنقصان أو بزيادة؛ وإما بعدول عن وقته أو مكانه[2].

وقيل: هو عبارة عن التعدِّي عن الحق إلى الباطل وهو الجور. وقيل: هو التصرُّف في ملك الغير، ومجاوزة الحد[3].

---

(1) ((النهاية)) لابن الأثير (161/3)، ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص 1134)، ((المصباح المنير)) للفيومي (ص 146).

(2) ((مفردات ألفاظ القرآن)) للراغب الأصفهاني (537).

(3) ((التعريفات)) للجرجاني (ص 186).

الفرقُ بينَ الظُّلمِ والجورِ:

الجورُ خلافُ الاستقامةِ فِي الحكمِ، وفِي السِّيرةِ السُّلطانيَّةِ تقولُ: جارَ الحاكمُ فِي حكمهِ، والسُّلطانُ فِي سيرتهِ، إذَا فارقَ الاستقامةَ فِي ذلكَ. والظُّلمُ ضررٌ لَا يستحقُّ ولَا يعقبُ عوضًا، سواءً كانَ منْ سلطانٍ، أوْ حاكمٍ، أوْ غيرهمَا، ألَا ترَى أنَّ خيانةَ الدانقِ[1] والدِّرهمِ تسمَّى ظلمًا، ولَا تسمَّى جورًا، فإنْ أُخذَ ذلكَ علَى وجهِ القهرِ أوِ الميلِ سمِّي جورًا وهذَا واضحٌ، وأصلُ الظُّلمِ نقصانُ الحقِّ، والجورُ العدولُ عنِ الحقِّ، منْ قولنَا: جارَ عنِ الطريقِ، إذَا عدلَ عنهُ، وخلفَ بينَ النقيضينِ، فقيلَ فِي نقيضِ الظلمِ الإنصافُ، وهوَ إعطاءُ الحقِّ علَى التَّمامِ، وفِي نقيضِ الجورِ العدلُ، وهوَ العدولُ بالفعلِ إلَى الحقِّ[2].

الفرقُ بينَ الظُّلمِ والغشمِ:

الغشمُ كرهُ الظُّلمِ، وعمومهُ توصفُ بهِ الولَاةُ؛ لأنَّ ظلمهمْ يعمُّ، ولَا يكادُ يقالُ غشمنِي فِي المعاملةِ، كمَا يقالُ: ظلمنِي فيهَا، وفِي المثلِ: وَالٍ غشومٌ خيرٌ منْ فتنةٍ تدومُ، وقالَ أبُو بكرٍ: الغشمُ اعتسافكَ الشَّيءَ، ثمَّ قالَ: يقالُ: غشمَ السُّلطانُ الرَّعيَّةَ يغشمهمْ، قالَ الشَّيخُ أبُو هلالٍ رحمهُ اللهُ: الاعتسافُ خبطُ الطَّريقِ علَى غيرِ هدايةٍ، فكأنَّهُ جعلَ الغشمَ ظلمًا يجرِي علَى غيرِ طرائقِ الظُّلمِ المعهودةِ[3].

الفرقُ بينَ الظلمِ والهضمِ:

أنَّ الهضمَ نقصانُ بعضِ الحقِّ ولَا يقالُ لمنْ أُخذَ جميعُ حقِّهِ قدْ هُضِمَ.

والظُّلمُ يكونُ فِي البعضِ والكلِّ، وفِي القرآنِ "فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا[طه:112]، أيْ: لَا يمنعُ حقَّهُ ولَا بعضَ حقِّهِ، وأصلُ

الهضمِ فِي العربيَّةِ النُّقصانُ، ومنهُ قيلَ للمنخفضُ منَ الأرضِ: هضمٌ، والجمعُ أهضامٌ(4).

أقسامُ الظُّلمِ:

الظلمُ علَى ثلاثةِ أقسامٍ:

الأوَّلُ: ظلمٌ بينَ الإنسانِ وبينَ اللهِ تعالَى: وأعظمهُ: الكفرُ، والشِّركُ، والنِّفاقُ، ولذلكَ قالَ تعالَى: "إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ" [لقمان:13]، وإيَّاهُ قصدَ بقولهِ: "أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ" [هود:18]، وقولهُ تعالَى: "وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" [الإنسان: 31]، فِي آيٍ كثيرةٍ. وقالَ تعالَى: "فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ" [الزمر: 32]، وقالَ تعالَى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا" [الأنعام: 93].

والثَّانِي: ظلمٌ بينهُ وبينَ النَّاسِ، وإيَّاهُ قصدَ بقوله: "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ [الشورى: 40، 41، 42]، وبقولهِ تعالَى: "وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا" [الإسراء: 33].

والثَّالثُ: ظلمٌ بينهُ وبينَ نفسهِ، وإيَّاهُ قصدَ بقولهِ تعالَى: "فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ" [فاطر: 32]، وقولهُ سبحانهُ: " قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ [القصص: 16]، وقولهُ تعالَى: "قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" [النمل: 44]، وقولهُ تعالَى: "وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ" [البقرة:231].

وكلُّ هذهِ الثَّلاثِ فِي الحقيقةِ ظلمٌ للنَّفسِ، فإنَّ الإنسانَ فِي أوَّلِ مَا يهمُّ بالظُّلمِ فقدْ ظلمَ نفسهُ، إذْ أنَّ الظَّالمَ أبدًا مبتدئٌ فِي الظُّلمِ، ولهذَا قالَ تعالَى فِي غيرِ موضعٍ: "وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"[النحل:33]، وقالَ تعالَى: "وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"[البقرة:57]، وقولهُ تعالَى: "وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ"[الأنعام:82](5)(6).

الآثارُ السَّلبيَّةُ للظُّلمِ:

للظُّلمِ آثارٌ سلبيَّةٌ تلحقُ الظَّالمَ فِي قلبهِ ودينهِ، أذكرُ منهَا:

1) الظَّالمُ مصروفٌ عنِ الهدايةِ:

قالَ تعالَى: "إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"[المائدة: 51].

2) الظَّالمُ لَا يفلحُ أبدًا:

قال تعالى: "إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ"[الأنعام:21].

3) الظَّالمُ عليهِ لعنةٌ منَ اللهِ تعالَى إنْ ماتَ بلَا توبةٍ:

يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: "يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ"[غافر: 52].

4) الظَّالمُ يحرمُ منَ الشَّفاعةِ:

قالَ تعالَى: "مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ"[غافر: 18]، ويقولُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: "صنفانِ منْ أمَّتِي لنْ تنالهمَا شفاعتِي: إمامٌ ظلومٌ غشومٌ، وكلُّ غالٍ مارقٍ"(7).

5) الظَّالمُ تصيبهُ دعوةُ المظلومِ ولَا تخطئهُ:

قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: "واتَّقِ دعوةَ المظلومِ، فإنَّهُ ليسَ بينهَا وبينَ اللهِ حجابٌ"(8).

6) بالظُّلمِ يرتفعُ الأمنُ:

قالَ اللهُ تعالَى: "الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ" [الأنعام:82]**.**

7) الظُّلمُ سببٌ للبلاءِ والعقابِ:

قالَ تعالَى: "فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ" [الحج:45]**.**

وقالَ تعالَى: "وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ" [هود:102]**.**

وقالَ سبحانهُ: "وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا" [الكهف: 59]**.**

8) توعُّدُ الظَّالمَ بدخولِ النَّارِ:

فعنْ خولةَ الأنصاريَّةِ رضيَ اللهُ عنهَا قالتْ: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: "إنَّ رجالًا يتخوَّضونَ فِي مالِ اللهِ بغيرِ حقٍّ، فلهمْ النَّارُ يومَ القيامةِ"(9).

قالَ ابنُ حجرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: قولهُ يتخوَّضونَ- بالمعجمتينِ- فِي مالِ اللهِ بغيرِ حقٍّ، أي: يتصرَّفونَ فِي مالِ المسلمينَ بالباطلِ(10).

---

(1) الدانق هو: سدس الدرهم.
(2) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص 385).
(3) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص 172).
(4) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص 557).
(5) ((مفردات ألفاظ القرآن)) للراغب الأصفهاني (537-538).
(6) موقع الدرر السنية - بتصرف.
(7) رواه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (8079)، والخرائطي في ((مساوئ الأخلاق)) (ص 286) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. وحسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (3798).
(8) رواه مسلم (19) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.
(9) رواه البخاري (3118).
(10) ((فتح الباري)) (219/6).

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: الصِّدقُ، هوَ: استواءُ الظَّاهرِ والباطنِ فِي الاستقامةِ علَى الصِّراطِ المستقيمِ، والكذبُ بخلافِ ذلكَ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الصِّدقَ فِي كتابهِ الكريمِ، وأمرَ بهِ، وأثنَى علَى الصَّادقينَ، وذكرَ مَا أعدَّ لهمْ منَ النَّعيمِ وقالَ:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ" [التوبة: 119].

وقالَ تعالَى: "قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" [المائدة: 119].

وقالَ سبحانهُ: " وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (35)" [الزمر: 33 - 35].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ" [الحجرات: 15].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: " مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24)" [الأحزاب: 23، 24].

الصِّدقُ لغةً:

الصِّدقُ ضدُّ الكذبِ، تقولُ: صَدَقَ يَصْدُقُ صَدْقًا وصِدْقًا وتَصْداقًا، وصَدَّقهُ: قَبِلَ قولَهِ، وصدَقَهُ الحديثَ: أَنبأَهُ بالصِّدْقِ، ويقالُ: صَدَقْتُ القومَ، أي: قلتُ لهمْ صِدْقًا وتصادقَا فِي الحديثِ وفِي المودَّةِ[1].

الصِّدقُ اصطلاحًا:

الصِّدقُ: هوَ الخبرُ عنِ الشَّيءِ علَى مَا هوَ بهِ، وهوَ نقيضُ الكذبِ[2].

وقالَ الباجِي: الصِّدقُ: الوصفُ للمخبَرِ عنهُ علَى مَا هوَ بهِ[3].

وقالَ الرَّاغبُ الأصفهانِي: الصدقُ: مطابقةُ القولِ الضَّميرَ والمخبَرُ عنهُ معًا، ومتَى انخرمَ شرطٌ منْ ذلكَ لمْ يكنْ صدقًا تامًّا[4].

الفرقُ بينَ الحقِّ والصِّدقِ:

الحقُّ فِي اللُّغةِ: هوَ الثَّابتُ الذِي لَا يسوغُ إنكارهُ، منْ حقَّ الشَّيءَ يحقُّ إذَا ثبتَ ووجبَ.

وفِي اصطلاحِ أهلِ المعانِي: الحكمُ المطابقُ للواقعِ، يطلقُ علَى الأقوالِ، والعقائدِ، والأديانِ، والمذاهبِ باعتبارِ اشتمالهَا علَى ذلكَ، ويقابلهُ الباطلُ.

وأمَّا الصِّدقُ، فقدْ شاعَ فِي الأقوالِ خاصَّةً، ويقابلهُ الكذبُ.

وقدْ يفرَّقُ بينهمَا بأنَّ المطابقةَ تعتبرُ فِي الحقِّ: منْ جانبِ الواقعِ، وفِي الصِّدقِ: منْ جانبِ الحكمِ.

فمعنَى صدقَ الحكمَ: مطابقتهُ للواقعِ.

ومعنَى حقيتهُ: مطابقةُ الواقعَ إيَّاهُ، وقدْ يطلقُ الحقُّ علَى الموجدِ للشَّيءِ، وعلَى الحكمةِ، ولمَا يوجدُ عليهِ، كمَا يقالُ: اللهُ: حقٌّ، وكلمتهُ: حقٌّ[5].

الفرقُ بينَ الوفاءِ والصِّدقِ:

قيلَ: بينهمَا عمومٌ وخصوصٌ.

فكلُّ وفاءٍ صدقٌ، وليسَ كلُّ صدقٍ وفاءٌ.

فإنَّ الوفاءَ قدْ يكونُ بالفعلِ دونَ القولِ، ولَا يكونُ الصِّدقُ إلَّا فِي القولِ، لأنَّهُ نوعٌ منْ أنواعِ الخبرِ، والخبرُ قولٌ[6].

الفرقُ بينَ الصَّادقِ والصِّدِّيقِ:

قالَ الماوردِي: والفرقُ بينَ الصَّادقِ والصِّدِّيقِ: أنَّ الصَّادقَ فِي قولهِ بلسانهِ، والصدِّيقُ منْ تجاوزَ صدقهُ لسانهُ إلَى صدقِ أفعالهِ فِي موافقةِ حالهِ لَا يختلفُ سرَّهُ وجهرهُ، فصارَ كلُّ صِدِّيقٍ صادقًا، وليسَ كلُّ صادقٍ صِدِّيقًا[7].

---

(1) ((لسان العرب)) لابن منظور (193/10)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص 174).

(2) ((الواضح في أصول الفقه)) لابن عقيل (129/1).

(3) ((إحكام الفصول)) للباجي (ص 235).

(4) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) للراغب الأصفهاني (ص 270).

(5) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص 194).

(6) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص 575).

(7) ((تفسير الماوردي)) (43/3).

التَّرغيبُ فِي الصِّدقِ:

جاءتْ الأحاديثُ النَّبويَّةُ متضافرةً فِي الحثِّ علَى الصِّدقِ، والأمرِ بهِ، وأنَّهُ وسيلةٌ إلَى الجنَّةِ.

فعنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: "إنَّ الصِّدقَ يهدِي إلَى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدِي إلى الجنَّةِ، وإنَّ الرَّجلَ ليصدقُ حتَّى يكونَ صِدِّيقًا، وإنَّ الكذبَ يهدِي إلَى الفجورِ، وإنَّ الفجورَ يهدِي إلَى النَّارِ، وإنَّ الرَّجلَ ليكذبُ حتَّى يكتبَ عندَ اللهِ كذَّابًا"(1).

قالَ النَّووِي فِي شرحهِ لهذَا الحديثِ: قالَ العلماءُ: هذَا فيهِ حثٌّ علَى تحرِّي الصِّدقَ، وهوَ قصدهُ والاعتناءُ بهِ، وعلَى التَّحذيرِ منَ الكذبِ والتَّساهلِ فيهِ؛ فإنَّهُ إذَا تساهلَ فيهِ كَثَّرَ منهُ، فَعُرِفَ بهِ، وكتبهُ اللهُ لمبالغتهِ صِدِّيقًا إنِ اعتادهُ، أوْ كذَّابًا إنِ اعتادهُ.

ومعنَى يُكتبَ هنَا يحكمُ لهُ بذلكَ، ويستحقُّ الوصفَ بمنزلةِ الصِّدِّيقينَ وثوابهمْ، أو صفةِ الكذَّابينَ وعقابهمْ، والمرادُ إظهارُ ذلكَ للمخلوقينَ، إمَّا بأنْ يكتبهُ فِي ذلكَ ليشتهرَ بحظِّهِ منَ الصفتينِ فِي الملأِ الأعلَى، وإمَّا بأنْ يلقيَ ذلكَ فِي قلوبِ النَّاسِ وألسنتهمْ، وكمَا يوضعُ لهُ القبولُ والبغضاءُ، وإلَّا فقدرُ اللهِ تعالَى وكتابهُ السَّابقُ بكلِّ ذلكَ(2).

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو بنِ العاصِ رضيَ اللهُ عنهمَا، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "أربعٌ إذَا كنَّ فيكَ فلَا عليكَ مَا فاتكَ فِي الدُّنيَا: حفظُ أمانةٍ، وصدقُ حديثٍ، وحسنُ خليقةٍ، وعفَّةٌ فِي طعمةٍ"(3).

وعنْ عبادةَ بنِ الصَّامتِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: "اضمنُوا لِي ستًّا منْ أنفسكمْ أضمنْ لكمْ الجنَّةَ: اصدقُوا إذَا حدَّثتمْ، وأوفُوا إذَا وعدتمْ، وأدُّوا إذَا ائتمنتمْ، واحفظُوا فروجكمْ، وغضُّوا أبصاركمْ، وكفُّوا أيديكمْ"(4).

أي: (اضمنُوا لِي ستًّا) منَ الخصالِ، (منْ أنفسكمْ) بأنْ تداومُوا علَى فعلهَا، (أضمنْ لكمْ الجنَّةَ) أي دخولهَا، (اصدقُوا إذَا حدثتمْ) أي: لَا تكذبُوا فِي شيءٍ منْ حديثكمْ، إلَّا إنْ ترجحَ علَى الكذبِ مصلحةٌ أرجحُ منْ مصلحةِ الصِّدقِ، فِي أمرٍ مخصوصٍ، كحفظِ معصومٍ...(5).

وعنْ أبِي محمَّدٍ، الحسنُ بنُ عليٍّ بنِ أبِي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهمَا، قالَ: حفظتُ منْ رسولِ اللهِ ﷺ:

"دعْ مَا يَريبكَ إلَى مَا لَا يَريبكَ، فإنَّ الصِّدقَ طمأنينةٌ، والكذبُ ريبةٌ"(6).

---

(1) رواه البخاري (6094)، ومسلم (2607).

(2) ((شرح صحيح مسلم)) (241/16-243).

(3) رواه أحمد (177/2) (6652)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (449/6). وحسن إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (16/3)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (298/10)، وصححه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (1718).

(4) رواه أحمد (323/5) (22809)، والحاكم (399/4)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (12691). وقال الذهبي في ((المهذب)) (2451/2)، وحسن إسناده ابن كثير في جامع ((المسانيد والسنن)) (5807).

(5) ((فيض القدير شرح الجامع الصغير)) للمناوي

(6) رواه الترمذي (2518)، والنسائي (5711). وقال الترمذي: حسن صحيح. وحسنه النووي في ((المجموع)) (181/1)، وصححه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (318).

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: حدودُ اللهِ هيَ: محارمهُ، وهيَ التِي يقولُ فيهَا: "تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا" ويرادُ بهَا مَا أباحهُ اللهُ وحلَّلهُ، وقدَّرهُ، وفرضهُ، فيقولُ فيهَا "تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا".

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى حدودهُ فِي القرآنِ الكريمِ فِي مواطنَ كثيرةٍ ونهَى عنْ تعدِّيهَا، وتوعَّدَ منْ يتعدَّاهَا، منْ ذلكَ قولهُ تعالَى: "وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" [البقرة: 187]**.**

وقالَ سبحانهُ: "تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" [البقرة: 229]**.**

وقالَ جلَّ جلالهُ: "لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ" [الطَّلاق: 1]**.**

وقالَ: "وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا" [النِّساء: 14]**.**

الحدودُ لغةً جمعُ حدٍّ:

قالَ ابنُ فارسٍ: "الحاءُ والدَّالُ أصلانِ: الأوَّلُ: المنعُ، والثَّانِي: طرفُ الشَّيءِ.

فالحدُّ: الحاجزُ بينَ الشَّيئينِ، وفلانٌ محدودٌ إذَا كانَ ممنوعاً.

قالَ: وحدُّ العاصِي سمَّيَ حدًّا لأنَّهُ يمنعهُ عنِ المعاودةِ"(1).

ويطلقُ الحدُّ علَى التَّعريفِ، فتقولُ: حدُّ علمِ الفقهِ هوَ: العلمُ بالأحكامِ الشَّرعيَّةِ العمليَّةِ، المكتسبةِ منْ أدلَّتهَا التفصيليَّةِ.

أيْ تعريفُ علمِ الفقهِ هو: العلمُ بالأحكامِ الشَّرعيَّةِ...

والحدُّ اصطلاحًا: قالَ الجرجانِي: الحدُّ قولٌ دالٌّ علَى ماهيَّةِ الشَّيءِ وعندَ أهلِ اللهِ، الفصلُ بينكَ وبينَ مولاكَ كتعبُّدكَ وانحصاركَ فِي الزَّمانِ والمكانِ المحدودينِ[2].

وقالَ: الحدودُ جمعُ حدٍّ وهوَ فِي اللُّغةِ: المنعُ، وفِي الشَّرعِ عقوبةٌ مقدرَّةٌ وجبتْ حقًّا للهِ تعالَى[3].

وحدودُ اللهِ تعالَى هيَ: محارمهُ، والمَحْرَمُ: مَا حرَّمَ اللهُ تعالَى والجمعُ: مَحارِمُ[4]، ومنهَا الحريمُ وهوَ: مَا حُرِّمَ فلَا يُنتَهكُ[5]، ومنهُ الحِمَى وحِمَى اللهِ: مَحارِمهُ[6]، ومنْ ذلكَ قولهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "...ألَا وأنَّ لكلِّ ملكٍ حمًى، ألَا وإنَّ حمَى اللهِ محارمهُ..."[7]، أي: أنَّ اللهِ سبحانهُ وتعالَى هوَ الملكُ حقًّا، وقدْ حمَى الشَّريعةَ بحدودٍ محكمةٍ متينةٍ، فحرَّمَ علَى النَّاسِ كلَّ مَا يضرُّهمْ فِي دينهمْ ودنياهمْ، ونهاهمْ عنِ الشُّبهاتِ، وأباحَ لهمْ مَا فيهِ نفعٌ لهمْ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، فتلكَ هيَ حدودُ اللهِ تعالَى ومحارمهُ.

---

(1) مقاييس اللغة (2/3-4).

(2) التعريفات للجرجاني.

(3) السابق.

(4) معجم المعاني.

(5) السابق.

(6) السابق.

(7) رواه البخاري ومسلم.

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: الأمانةُ هيَ: الأمورُ التِي يؤتمنُ عليهَا العبدُ، فيشملُ ذلكَ أداءَ حقوقِ اللهِ، وخصوصًا الخفيَّةُ، وحقوقِ خلقهِ كذلكَ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الأمانةَ فِي كتابهِ العزيزِ، وأمرَ بالمحافظةِ عليهَا، منهَا قولهُ تعالَى: "فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ" [البقرة: 283]**.**

وقالَ تعالَى: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا" [النساء: 58]**.**

وقالَ سبحانهُ: "وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ" [المعارج: 32 - 35]**.**

الأمَانَةُ لغةً:

الأمانةُ ضدُّ الخيانةِ، وأصلُ الأَمْنِ: طمأنينةُ النَّفسِ وزوالُ الخوفِ، والأمانةُ مصدرُ أمِنَ "بالكسرِ" أمانةٌ فهوَ أمينٌ، ثمَّ استُعملَ المصدرُ فِي الأعيانِ مجازًا، فقيلَ الوديعةُ أمانةٌ ونحوهِ، والجمعُ أماناتٌ، فالأمانةُ اسمٌ لمَا يُؤمَّنُ عليهِ الإنسانُ، نحوَ قولهِ تعالَى: "وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ" [الأنفال: 27]**، أي: مَا ائتُمنتمْ عليهِ، وقولهُ تعالَى: "إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ"** [الأحزاب: 72]**(1).**

الأمَانَةُ اصطلاحًا:

الأمانةُ: هيَ كلُّ حقٍّ لزِمَكَ أداؤهُ وحفْظهُ(2).

وقيلَ هيَ: التَّعفُّفُ عمَّا يتصرَّفُ الإنسانُ فيهِ مِنْ مالِ وغيرهِ، ومَا يوثقُ بهِ عليهِ مِنَ الأعراضِ والحرمِ معَ القدرةِ عليهِ، وردُّ مَا يستودعُ إلَى مودعهِ(3).

وقالَ الكفوِي: كلُّ مَا افترضَ علَى العبادِ فهوَ أمانةٌ، كصلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وأداءِ دينٍ، وأوكدهَا الودائعُ، وأوكدُ الودائعِ كتمُ الأسرارِ(4).

الأمانةُ باعتبارِ متعلَّقِهَا تنقسمُ إلَى ثلاثةِ أقسامٍ:

1) أمانةٌ تتعلَّقُ بحقِّ اللهِ تباركَ وتعالَى علَى عبادهِ؛ بإخلاصِ الدِّينِ لهُ وامتثالِ أوامرهِ والبعدِ عنْ نواهيهِ والحذرِ منْ الإشراكِ بهِ تباركَ وتعالَى، قالَ عبدُ اللهُ بنُ مسعودٍ: القتلُ فِي سبيلِ اللهِ كفَّارةُ كلِّ ذنبٍ إلَّا الأمَانَةُ، وإنَّ الأمَانَةَ الصَّلاةُ والزَّكاةُ والغسلُ مِنَ الجنابةِ والكيلُ والميزانُ والحديثُ، وأعظمُ مِنْ ذلكَ الودائعُ(5).

2) وأمانةٌ تتعلَّقُ بحقوقِ الرَّسولِ ﷺ؛ بمحبَّتهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وامتثالِ أوامرهِ والبعدِ عنْ نواهيهِ، وتصديقِ أخبارهِ وتعظيمهِ وتوقيرهِ، والبعدِ عنِ الغلوِّ فيهِ.

3) وأمانةٌ تتعلَّقُ بحقوقِ النَّاسِ؛ كحقِّ الوالدينِ، وحقِّ الأبناءِ، وحقِّ الجيرانِ، وهكذَا.

وقدْ جُمعتْ هذهِ الأقسامُ الثَّلاثةُ فِي قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" [الأنفال:28].

(1) ((لسان العرب)) لابن منظور (21/13)، ((مفردات ألفاظ القرآن)) للرَّاغب الأصفهاني (90/1)، ((المصباح المنير)) للفيومي (24/1).
(2) ((فيض القدير)) للمناوي (288/1).
(3) ((تهذيب الأخلاق)) المنسوب للجاحظ (ص 24).
(4) ((الكليات)) (ص 269).
(5) رواه الخرائطي في ((مكارم الأخلاق)) (159).

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: والعهودُ والعقودُ التِي ذكرهَا الشَّيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى بقولِهِ: العهودُ والعقودُ: يدخلُ فيهَا التِي بينهُ وبينَ اللهِ، وهوَ: القيامُ بعبادةِ اللهِ مخلصًا لهُ الدِّينَ، والتِي بينهُ وبينَ العبادِ منَ المعاملاتِ ونحوهَا.أهـ

هيَ منْ بابِ الأمانةِ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ الكريمِ العهودَ والعقودَ وأمرَ بالمحافظةِ عليهَا، حيثُ قالَ تعالَى:

"وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ"[البقرة: 177]**.**

وقالَ تعالَى: "إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[آل عمران: 75]**.**

وقالَ سبحانهُ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ"[المائدة: 1]**.**

وقالَ جلَّ جلاهُ: "الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ"[الرعد: 20]**.**

وقالَ تباركَ وتعالَى: "وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ"[النحل: 91]**.**

وقالَ: "وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا"[الإسراء: 34]**.**

العهدُ لغةً:

العهدُ: الوصيَّةُ، والأمانُ، والموثقُ، والذمَّةُ، ومنهُ قيلَ للحربيِّ يدخلُ بالأمانِ: ذُو عهدٍ ومعاهدٍ، وقدْ عَهِدْتُ إليهِ، أي أوصيتهُ، ومنهُ اشتُقَّ العَهْدُ الذِي يكتبُ للوُلاةِ، وأصلُ هذهِ المادَّةِ يدلُّ علَى الاحتفاظِ بالشَّيءِ[1].

العهدُ اصطلاحًا:

قالَ الجرجانيُّ: العهدُ: حفظُ الشَّيءِ ومراعاتهُ حالًا بعدَ حالٍ. هذَا أصلهُ ثمَّ استُخدمَ فِي الموثقِ الذِي يلزمُ مراعاتهُ[2].

(وضدُّهُ) عدمُ الوفاءِ بمَا أعلنَ الإنسانُ الالتزامَ بهِ، أوْ قطعهُ علَى نفسهِ منْ عهدٍ أوْ ميثاقٍ، سواءٌ فيمَا بينهُ وبينَ اللهِ تعالَى، أوْ فيمَا بينهُ وبينَ النَّاسِ[3].

ومنَ العهودِ المواثيقُ، وقدْ قالَ تعالَى: "وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" [الحديد: 8].

وقال تعالَى:

"وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ" [المائدة: 7].

وقالَ: "وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا" [النساء: 153].

وقالَ: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ" [البقرة: 84].

وقالَ: "أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ" [الأعراف: 169].

وقالَ: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ" [البقرة: 83].

وكلُّ هذهِ مواثيقُ أخذَهَا اللهُ تعالَى علَى عبادهِ، ونـهَى عنْ نقضِهَا.

العقودُ لغةً:

العقودُ جمعُ عقدٍ، قالَ ابنُ فارسٍ: العينُ والقافُ والدَّالُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ علَى شدٍّ وشدَّةِ وثوقٍ،...[4].

وعقدَ الحبلَ والبيعَ والعهدَ فانعقدَ...[5].

العقدُ اصطلاحًا:

هوَ ارتباطُ إيجابٍ بقبولٍ علَى وجهٍ مشروعٍ يثبتُ أثرهُ فِي محلِّهِ، أوْ تقولُ: تعلُّقُ كلامِ أحدِ العاقدينَ بالآخرِ شرعًا علَى وجهٍ يظهرُ أثرهُ فِي المحلِّ.

وجاءَ فِي الهدايةِ: الانعقادُ هاهنَا تعلُّقُ كلامِ أحدِ العاقدينَ بالآخرِ شرعًا علَى وجهٍ يظهرُ أثرهُ فِي المحلِّ[6].

الفرقُ بينَ العهدِ والعقدِ والميثاقِ:

الميثاقُ: هوَ العهدُ المؤكَّدُ باليمينِ.

والعهدُ أيضًا: مَا أخذهُ اللّهُ تعالَى علَى بنِي آدمَ منَ الإقرارِ بربوبيَّتهِ ووحدانيَّتهِ، ويشملُ أيضًا مَا أخذهُ علَى هذهِ الأمَّةِ أنْ يوفُّوا بهِ ممَّا أحلَّ وحرَّمَ وفوَّضَ، ويتضمَّنُ العهدُ أيضًا مَا يكونُ منِ اتِّفاقٍ بينَ المسلمينَ والمشركينَ.

أمّا العقدُ: فهوَ مَا عقدهُ الإنسانُ علَى نفسهِ للآخرينَ منْ بيعٍ وشراءٍ ونحوهمَا، أوْ مَا عقدهُ للّهُ تعالَى منَ الطَّاعاتِ كالحجِّ والصَّومِ وغيرهمَا منَ العباداتِ، وقيلَ: العهدُ إلزامٌ (مطلقٌ)،

والعقدُ إلزامٌ علَى سبيلِ الإحكامِ والاستيثاقِ، وقيلَ: العقودُ مَا أحلَّ اللّهُ وحرَّمَ وفرضَ وحدَّ فِي جميعِ الأشياءِ.

وكلُّ هذهِ الثَّلاثِ، لهَا قسمانِ إنِ اعتبرنَا عهودَ المؤمنينَ للرسولِ ﷺ منْ قسمِ عهودِ اللهِ تعالَى، فهيَ: مواثيقُ وعهودٌ وعقودٌ بيننَا وبينَ اللهِ تعالَى، ومثلهَا بيننَا وبينَ النَّاسِ، بمَا بيَّنَّا سابقًا.

---

(1) ((الصحاح)) للجوهري (515/2)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (167/4)، ((المصباح المنير)) للفيومي (435/2).

(2) ((التعريفات)) (159).

(3) ((نضرة النعيم)) (5632/11).

(4) معجم مقييس اللغة.

(5) مختار الصحاح للرازي.

(6) العناية شرح الهداية للبابرتي.

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: الحكمةُ والقوام: فعلُ مَا ينبغِي علَى الوجهِ الذِي ينبغِي.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الحكمةَ فِي كتابهِ العزيزِ وقالَ:

"يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" [البقرة: 269]**.**

وقالَ سبحانهُ: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" [النحل: 125]**.**

وقالَ تباركَ وتعالَى: "وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا" [الأحزاب: 34]**.**

وقالَ تعالَى: "ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا" [الإسراء: 39]**.**

وذكرَ سبحانهُ القوامَ وقالَ: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا" [الفرقان: 67]**.**

قالَ السُّيوطِي: (قوامًا) وسطًا(1).

الحِكمَة لغةً:

الحَكَمَةُ: مَا أحاطَ بحَنَكَيِ الفرسِ، سُمِّيتْ بذلكَ؛ لأنَّهَا تمنعهُ منَ الجريِ الشَّديدِ، وتُذلِّلُ الدَّابَّةَ لراكبهَا، حتَّى تمنعهَا منَ الجِماحِ(2)، ومنهُ اشتقاقُ الحِكْمَةِ؛ لأنَّهَا تمنعُ صاحبهَا منْ أخلاقِ الأراذلِ.

وأَحْكَمَ الأَمْرَ: أيْ أَتْقَنَهُ فاستَحْكَمَ، ومنعهُ عنِ الفسادِ، أوْ منعهُ منَ الخروجِ عمَّا يريدُ(3).

الحِكمَةُ اصطلاحًا:

قالَ أبُو إسماعيلَ الهرويِّ: الحِكْمَةُ اسمٌ لإحكامِ وضعِ الشَّيءِ فِي موضعهِ(4).

وقالَ ابنُ القيِّمِ: الحِكْمَةُ: فعلُ مَا ينبغِي، علَى الوجهِ الذِي ينبغِي، فِي الوقتِ الذِي ينبغِي(5).

وقالَ النَّوويُّ: الحِكْمَةُ: عبارةٌ عنِ العلمِ المتَّصفِ بالأحكامِ، المشتملِ علَى المعرفةِ باللهِ تباركَ وتعالَى، المصحوبِ بنفاذِ البصيرةِ، وتهذيبِ النَّفسِ، وتحقيقِ الحقِّ، والعملِ بهِ، والصدِّ عنِ اتِّباعِ الهوَى والباطلِ، والحَكِيمُ منْ لهُ ذلكَ(6).

وتعريفُ الإمامِ النَّووِي أصحُّ وأشملُ التَّعريفاتِ.

والحكمةُ هيَ السنَّةُ المطهَّرةُ، ودليلهُ قولهُ تعالَى: "وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا" [الأحزاب: 34].

قالَ الطَّبريُّ: واذكرنَ مَا يقرأُ فِي بيوتكنَّ منْ آياتِ كتابِ اللهِ والحكمةِ، ويعنِي بالحكمةِ: مَا أوحيَ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ منْ أحكامِ دينِ اللهِ، ولمْ ينـزلْ بهِ قرآنٌ، وذلكَ السنَّةُ، وبنحوِ الذِي قلنَا فِي ذلكَ قالَ أهلُ التَّأويلِ(7).

وقالَ السَّعدِي: والمرادُ بآياتِ اللهِ، القرآنُ، والحكمةُ، أسرارهُ وسنَّةُ رسولهِ ﷺ(8).

وقالَ ابنُ كثيرٍ: اعملنَ بمَا ينزلُ اللهُ علَى رسولهِ فِي بيوتكنَّ منَ الكتابِ والسنَّةِ؛ قالهُ قتادةُ وغيرُ واحدٍ[9].
وقالَ البغويُّ: (والحكمةُ) قالَ قتادةُ: يعنِي السنَّةُ[10].
وتأتِي الحِكْمَةُ بمعنَى النُّبُوَّةِ.
والحِكْمَةُ بمعنَى الفِقْهِ.
والحِكْمَةُ بمعنَى الفَهْمِ، وحُجَّةِ العقلِ وفقًا للشَّريعةِ.
والحِكْمَةُ بمعنَى العِظَةِ[11].
وخلاصةً: الحكمةُ هيَ: رؤيةُ الحقِّ واتِّباعهُ.

والقوامُ لغةً: العَدْلُ: عدلاً وسطًا بين الطَّرفينِ ورُمحٌ قوامٌ: مستقيمٌ[12].
والقوامُ اصطلاحًا: قالَ الطَّبري: أخبرنِي إبراهيمُ بنُ نشيطٍ، عنْ عمرَ مولَى غُفرة، قالَ: قلتُ لهُ: مَا القوامُ؟ قالَ: القوامُ أنْ لَا تنفقَ فِي غيرِ حقٍّ، ولَا تُمسكَ عنْ حقٍّ هوَ عليكَ.
والقوامُ فِي كلامِ العربِ، بفتحِ القافِ، وهوَ الشَّيءُ بينَ الشَّيئينِ، تقولُ للمرأةِ المعتدلةِ الخلقِ: إنَّهَا لحسنةُ القوامِ فِي اعتدالِهَا، كمَا قالَ الحُطَيئةُ:
طافتْ أُمامةُ بالرَّكبِ آونة * يا حُسنهُ منْ قوامٍ مَّا ومنتقَبَا[13].

(1) تفسير الجلالين.
(2) من جمح الفرس: إذا ذهب يجري جريًا غالبًا واعتز فارسه وغلبه. ((لسان العرب)) (426/2).
(3) ((القاموس المحيط)) للفيروز أبادي (ص 1415)، ((لسان العرب)) لابن منظور (143/12)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص 62) ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (119/1)، ((المصباح المنير)) للفيومي (145/1)، ((تاج العروس)) للزبيدي (253/8)، ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (288/1)، ((المعجم الوسيط)) (19/1).
(4) ((منازل السائرين)) للهروي (ص 78).
(5) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (449/2).
(6) ((شرح النووي على مسلم)) (33/2).
(7) تفسير الطَّبري.
(8) تفسير السَّعدي.
(9) تفسير ابن كثير.
(10) تفسير البغوي.
(11) الدرر السَّنية.
(12) معجم المعاني.
(13) تفسير الطَّبري صـ (314).

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: والإسرافُ والتَّبذيرُ: مجاوزةُ الحدِّ فِي الإنفاقِ، والتَّقتيرِ والبخلُ عكسهُ: التقصيرُ فِي النَّفقاتِ الواجبةِ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الإسرافَ والتَّبذيرَ فِي كتابهِ العزيزِ وحذَّرَ منهمَا وأنذرَ وتوعَّد، وكذلكَ حذَّر منَ البخلِ والتَّقتيرِ، فقالَ تعالَى: "يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ"[الأعراف: 31].

وقالَ سبحانهُ: "ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ"[الأنبياء: 9].

وقالَ جلَّ جلالهُ: "لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ"[غافر: 43].

وقالَ تعالَى فِي التَّبذِيرِ: "وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27)" [الإسراء: 26 - 27].

وذكرَ سبحانهُ البخلَ والتَّقتيرَ وقالَ: "وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"[آل عمران: 180].

وقالَ سبحانهُ: "وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77)"[التوبة: 75-76- 77].

وقالَ جلَّ جلالهُ: "هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم" [محمد: 38].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: "وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10)" [الليل: 8 – 9 – 10].

وقالَ: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا" [الفرقان: 67].

الإسرافُ لغةً:

الإسرافُ: مجاوزةُ القصدِ، مصدرٌ منْ أسرفَ إسرافًا، والسَّرَفُ اسمٌ منهُ، يقالُ: أسرفَ فِي مالهِ: عجلَ منْ غيرِ قصدٍ، وأصلُ هذهِ المادَّةِ يدُلُّ علَى تعدِّي الحدِّ، والإغفالِ أيضًا للشَّيءِ[1].

الإسرافُ اصطلاحًا:

الإسرافُ: هوَ صرفُ الشَّيءِ فيمَا لَا ينبغِي زائدًا علَى مَا ينبغِي[2].

وقالَ الرَّاغبُ: السَّرفُ: تجاوزُ الحدِّ فِي كلِّ فعلٍ يفعلهُ الإنسانُ، وإنْ كانَ ذلكَ فِي الإنفاقِ أشهرُ[3].

وقالَ الجرجانِي: الإسرافُ: هوَ إنفاقُ المالِ الكثيرِ فِي الغرضِ الخسيسِ. وقيلَ: تجاوزُ الحدِّ فِي النَّفقةِ، وقيلَ: أنْ يأكلَ الرَّجلُ مَا لَا يحلُّ لهُ، أوْ يأكلَ ممَّا يحلُّ لهُ فوقَ الاعتدالِ، ومقدارِ الحاجةِ. وقيلَ: الإسرافُ تجاوزٌ فِي الكمِّيةِ، فهوَ جهلٌ بمقاديرِ الحقوقِ[4].

التَّبذيرُ لغةً:

التَّبذيرُ: التَّفريقُ: مصدرُ بذَّرَ تبذيرًا، وأصلهُ إلقاءُ البذرِ وطرحهِ، فاستعيرَ لكلِّ مضيِّعٍ لمالهِ، وبذرَ مالهُ: أفسدهُ وأنفقهُ فِي السَّرفِ، وكلُّ مَا فَرَّقتهُ وأفسدتهُ، فقدْ بذَّرتهُ، والمباذرُ والمبذِّرُ: المسرفُ فِي النَّفقةِ؛ وأصلُ هذهِ المادَّةِ يدلُّ علَى نثرِ الشَّيءِ وتَفْرِيقهِ[5].

التَّبذيرُ اصطلاحًا:

قالَ الشَّافعِي: التَّبذيرُ إنفاقُ المالِ فِي غيرِ حقِّهِ[6].

وقيلَ: التَّبذيرُ صرفُ الشَّيءِ فيمَا لَا ينبغِي[7].

وقيلَ: هوَ تفريقُ المالِ علَى وجهِ الإسرافِ[8].

الفرقُ بينَ الإسرافِ والتَّبذيرِ:

الإسرافُ: صرفُ الشَّيءِ فيمَا ينبغِي زائدًا علَى مَا ينبغِي. بخلافِ التَّبذيرِ؛ فإنَّهُ صرفُ الشَّيءِ فيمَا لَا ينبغِي[9].

فبينهمَا عمومٌ وخصوصٌ إذْ قدْ يجتمعانِ فيكونُ لهمَا المعنَى نفسهُ أحيانًا، وقدْ ينفردُ الأعمُّ وهوَ الإسرافُ[10].

---

(1) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (153/3)، ((لسان العرب)) لابن منظور (148/9)، ((المصباح المنير)) للفيومي (274/1).
(2) ((الكليات)) للكفوي (ص113).
(3) ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب الأصفهاني (ص 407).
(4) ((التعريفات)) للجرجاني (ص 24).
(5) ((مقايس اللغة)) لابن فارس (216/1)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب الأصفهاني (ص 114)، ((لسان العرب)) لابن منظور (148/9).
(6) ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (247/10).
(7) ((التعريفات)) للجرجاني (ص 24)، و((الكليات)) للكفوي (ص113).
(8) ينظر ((التعريفات)) للجرجاني (ص51) و((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمناوي (ص 90)، ((لسان العرب)) لابن منظور (50/4).
(9) ((التعريفات)) للجرجاني (ص 24)، وقال ابن عابدين: (التبذير يستعمل في المشهور بمعنى الإسراف، والتحقيق أن بينهما فرقًا). ثم ذكر نحو كلام الجرجاني. ((حاشية ابن عابدين)) (759/6).
(10) ((نضرة النعيم)) (4115/9).

الآثارُ السَّلبيَّةُ للإسرافِ والتَّبذيرِ:

1) عدمُ محبَّةِ اللهِ تعالَى للمسرفينَ والمبذرينَ:

قالَ تعالَى: "إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" [الأنعام: 141].

قالَ ابنُ عاشورٍ: فبيَّنَ أنَّ الإسرافَ منَ الأعمالِ التِي لَا يحبُّهَا، فهوَ منَ الأخلاقِ التِي يلزمُ الانتهاءُ عنهَا، ونفيُ المحبَّةِ مختلفُ المراتبِ، فيعلمُ أنَّ نفيَ المحبةِ يشتدُّ بمقدارِ قوَّةِ الإسرافِ، وهذَا حكمٌ مجملٌ، وهوَ ظاهرٌ فِي التَّحريمِ(1).

2) يفضِي إلَى طلبِ المالِ بالكسبِ الحرامِ:

لأنَّ المسرفَ ربمَا ضاقتْ بهِ المعيشةُ، نتيجةً لإسرافهِ؛ فيلجأُ إلَى الكسبِ الحرامِ، قالَ ابنُ عاشورٍ: فوجهُ عدمِ محبَّةِ اللهِ إيَّاهمْ أنَّ الإفراطَ فِي تناولِ اللَّذَّاتِ والطيِّباتِ، والإكثارِ منْ بذلِ المالِ فِي تحصيلهَا، يفضِي غالبًا إلَى استنزافِ الأموالِ، والشَّرهِ إلَى الاستكثارِ منهَا، فإذَا ضاقتْ علَى المسرفِ أموالهُ؛ تطلَّبَ تحصيلُ المالِ منْ وجوهٍ فاسدةٍ، ليخمدَ بذلكَ نهمتهُ إلَى اللذَّاتِ، فيكونُ ذلكَ دأبهُ، فربَّمَا ضاقَ عليهِ مالهُ، فشقَّ عليهِ الإقلاعُ عنْ معتادهِ، فعاشَ فِي كربٍ وضيقٍ، وربَّمَا تَطَلَّبَ المالَ منْ وجوهٍ غيرِ مشروعةٍ، فوقعَ فيمَا يؤاخذُ عليهِ فِي الدُّنيَا أوْ فِي الآخرةِ، ثمَّ إنَّ ذلكَ قدْ يعقبُ عيالهُ خصاصةً، وضنكَ معيشةٍ، وينشأُ عنْ ذلكَ ملامٌ، وتوبيخٌ، وخصوماتٌ تفضِي إلَى مَا لَا يحمدُ فِي اختلالِ نظامِ العائلةِ(2).

3) كمَا أنَّ الإسرافَ فِي الأكلِ يضرٌّ بالبدنِ:

قالَ عليٌّ بنُ الحسينِ بنِ واقدٍ: جمعَ اللهُ الطبَّ كلَّهُ فِي نصفِ آيةٍ فقالَ: "وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ" [الأعراف: 31](3).

وقالَ ابنُ عاشورٍ: ولَا تسرفُوا فِي الأكلِ بكثرةِ أكلِ اللُّحومِ والدَّسمِ؛ لأنَّ ذلكَ يعودُ بأضرارٍ علَى البدنِ، وتنشأُ منهُ أمراضٌ معضلةٌ.

وقدْ قيلَ: إنَّ هذهِ الآيةَ جمعتْ أصولَ حفظِ الصحَّةِ منْ جانبِ الغذاءِ، فالنَّهيُ عنِ السَّرفِ نهيُ إرشادٍ لَا نهيُ تحريمٍ(4).

وقالَ محمَّدٌ رشيدٌ رضَا: فمنْ جعلَ شهوةَ بطنهِ أكبرُ همِّهِ فهوَ منَ المسرفينَ، ومنْ بالغَ فِي الشَّبعِ وعرضِ معدتهِ وأمعاءهِ للتَّخمِ، فهوَ منَ المسرفينَ، ومنْ أنفقَ فِي ذلكَ أكثرَ منْ طاقتهِ، وعرضَ نفسهُ لذلِّ الدَّيْنِ أوْ أكلِ أموالِ النَّاسِ بالباطلِ فهوَ منَ المسرفينَ، ومَا كانَ المسرفُ منَ المتَّقينَ(5).

4) المسرفُ والمبذِّرُ يشاركهُ الشَّيطانُ فِي حياتهِ:

إنَّ الذِي يسرفُ ويبذِّرُ معرَّضٌ لمشاركةِ الشَّيطانِ فِي مسكنهِ، ومطعمهِ، ومشربهِ، وفراشهِ، يقولُ النَّبيُّ ﷺ: "فراشٌ للرَّجلِ، وفراشٌ لامرأتهِ، والثَّالثُ للضَّيفِ، والرَّابعُ للشَّيطانِ"(6).

5) الإسرافُ والتَّبذيرُ منْ صفاتِ إخوانِ الشَّياطينِ:

قالَ تعالَى: "وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا" [الإسراء: 26-27].

قالَ السَّعدِي: لأنَّ الشَّيطانَ لَا يدعُو إلَّا إلَى كلِّ خصلةٍ ذميمةٍ، فيدعُو الإنسانَ إلَى البخلِ والإمساكِ، فإذَا عصاهُ دعاهُ إلَى الإسرافِ والتَّبذيرِ، واللهُ تعالَى إنَّمَا يأمرُ بأعدلِ الأمورِ وأقسطِهَا ويمدحُ عليه، كمَا فِي قولِه عنْ عبادِ الرَّحمنِ الأبرارِ: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوالَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا [الفرقان: 67](7).

6) الإسرافُ يجرُّ إلَى مذمَّاتٍ كثيرةٍ:

قالَ ابنُ عاشورٍ: والإسرافُ إذَا اعتادهُ المرءُ حملهُ علَى التوسُّعِ فِي تحصيلِ المرغوباتِ، فيرتكبُ لذلكَ مذمَّاتٍ كثيرةٍ، وينتقلُ منْ ملذَّةٍ إلَى ملذَّةٍ فلَا يقفُ عندَ حدٍّ. وقيلَ عطفٌ علَى وَآتُواْ حَقَّهُ أيْ: ولَا تسرفُوا فيمَا بقيَ بعدَ إتيانِ حقِّهِ، فتنفقُوا أكثرَ ممَّا يجبُ، وهذَا لَا يكونُ إلَّا فِي الإنفاقِ والأكلِ ونحوِهِ(8). (يقصدُ آيةَ: "وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" [الأنعام: 141]).

7) التَّعرُّضُ للمساءلةِ والحسابِ عنْ مصارفِ مالِهِ:

عنْ أبِي برزةَ الأسلميِّ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "لَا تزولُ قدمَا عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يُسألَ عنْ عمرِهِ فيمَا أفناهُ، وعنْ علمِهِ فيمَا فعلَ، وعنْ مالِهِ منْ أينَ اكتسبهُ وفيمَا أنفقهُ، وعنْ جسمِهِ فيمَا أبلاهُ"(9).

أيْ: منْ موقفِهِ للحسابِ حتَّى يُسألَ عنْ عمرِهِ فيمَا أفناهُ أفِي طاعةٍ أمْ معصيةٍ، وعنْ عملِهِ فيمَا عملهُ لوجهِ اللهِ تعالَى خالصًا أوْ رياءً وسمعةً، وعنْ مالِهِ منْ أينَ اكتسبهُ، أمنْ حلالٍ أوْ حرامٍ؟ وفيمَا أنفقهُ أفِي البرِّ والمعروفِ أوْ الإسرافِ

والتَّبذيرِ؟ وعنْ جسمهِ فيمَا أبلاهُ أفِي طاعةٍ اللهِ تعالَى أوْ فِي معاصيهِ؟[10].

8) الإسرافُ والتَّبذيرُ فيهِ تضييعٌ للمالِ، وهذَا مشاهَدٌ محسوسٌ.

9) الإسرافُ والتَّبذيرُ عاقبتهمَا وخيمةٌ:

قالَ ابنُ الجوزِي: العاقلُ يدبِّرُ بعقلهِ عيشتهُ فِي الدُّنيَا، فإنْ كانَ فقيرًا، اجتهدَ فِي كسبٍ وصناعةٍ تكفُّهُ عنِ الذُّلِّ للخلقِ، وقلَّلَ العلائقَ، واستعملَ القناعةَ، فعاشَ سليمًا منْ مِنَنِ النَّاسِ عزيزًا بينهمْ، وإنْ كانَ غنيًّا، فينبغِي لهُ أنْ يدبِّرَ فِي نفقتهِ، خوفَ أنْ يفتقرَ، فيحتاجَ إلَى الذُّلِّ للخلقِ، ومنَ البليَّةِ أنْ يبذِّرَ فِي النَّفقةِ، ويباهِي بهَا ليكمدَ الأعداءَ، كأنَّهُ يتعرَّضُ بذلكَ - إنْ أكثرَ - لإصابتهِ بالعينِ... وينبغِي التوسُّطُ فِي الأحوالِ، وكتمانِ مَا يصلحُ كتمانهُ، وإنَّمَا التَّدبيرُ حفظُ المالِ، والتوسُّطُ فِي الإنفاقِ، وكتمانُ مَا لَا يصلحُ إظهارهُ[11].

---

(1) ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (القسم الأول - 123/8).
(2) ((التحرير والتنوير)) لابن عاشور (القسم الأول - 124/8).
(3) ((معالم التنزيل)) للبغوي (189/2).
(4) ((التحرير والتنوير)) (القسم الثاني - 95/8).
(5) ((تفسير المنار)) (25/7).
(6) رواه مسلم (2084) وأبو داود، والنَّسائي.
(7) ((تيسير الكريم الرحمن)) (456).
(8) ((التحرير والتنوير)) (القسم الأول - 123/8).
(9) رواه الترمذي (2417)، والدارمي (452/1)، قال الترمذي حسن صحيح. وقال ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (41/2): إسناده جيد. وصحح إسناده الهيتمي في ((الزواجر)) (242/2). وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (7300).
(10) ((تطريز رياض الصالحين)) لفيصل المبارك (ص 275).
(11) ((صيد الخاطر)) (498).

التَّقتيرُ لغةً: مصدرُ قَتَرَ، وهوَ: البُخلُ والتَّضييقُ.

والتَّقتيرُ علَى العيالِ: تضييقٌ عليهمْ بالنَّفقةِ.

وقتَرَ الرَّجلُ، ضاقَ عيشهُ(1).

وعاشَ عيشَةَ تقتيرٍ وشَظَفٍ: عيشَةَ بُخلٍ وشُحٍّ

وهوَ فِي حالَةِ تقتيرٍ: القَليلُ منَ العَيشِ ومَا يُسَدُّ بِهِ الرَّمَقُ والحاجَةُ(2).

وقالَ ابنُ فارسٍ: (قَتَرَ) القَافُ والتَّاءُ والرَّاءُ أَصلٌ صحيحٌ يَدُلُّ علَى تجميعٍ وتضييقٍ، منْ ذلكَ القُتْرَةُ: بَيْتُ الصَّائِدِ؛ وَسُمِّيَ قُتْرَةً لِضِيقِهِ وَتَجَمُّعِ الصَّائِدِ فِيهِ؛ وَالْجَمْعُ قُتَرٌ. وَالْإِقْتَارُ: التَّضْيِيقُ، يُقَالُ: قَتَرَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَقْتُرُ، وَأَقْتَرَ وَقَتَّرَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا" [الفرقان: 67]**.**

ومنَ البَابِ: القَتَرُ: مَا يغشَى الوجهَ منْ كربٍ، قالَ اللهُ تعالَى: "وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ" [يونس: 26]**، والقَتَرُ: الغُبَارُ. والقاترُ منَ الرِّحَالِ: الحسنُ الوُقُوعِ علَى ظهرِ البعيرِ، وهوَ منَ البابِ، لأَنَّهُ إِذَا وقعَ وقُوعًا حسَنًا ضُمَّ السَّنَامُ، فَأَمَّا القُتَارُ فَالْأَصلُ عِندَنَا أَنَّ صَيَّادَ الْأَسَدِ كَانَ يُقَتِّرُ فِي قُتْرَتِهِ بِلَحمٍ يَجِدُ الأَسَدُ رِيحَهُ فَيُقبِلُ إِلَى الزُّبيَةِ، ثُمَّ سُمِّيَتْ رِيحُ اللَّحمِ المَشوِيِّ كَيفَ كَانَ قُتَارًا، قَالَ طَرَفَةُ:**

وَتَنَادَى القَوْمُ فِي نَادِيهِمُ * أَقُتَارٌ ذَاكَ أَمْ رِيحُ قُطُرْ(3).

---

(1) جامع المعاني.

(2) السابق.

(3) معجم مقاييس اللغة.

والتَّقتيرُ اصطلاحًا: متوافقٌ معَ تعريفهِ اللُّغويِّ، إذْ أنَّ التَّقتيرَ هوَ: حرمانُ النَّفسِ منَ الاستهلاكِ[1]، وإنْ كانَ التَّقتيرِ علَى منْ عليهِ نفقتهُ، فهوَ: تضييقٌ عليهِ فِي النَّفقاتِ، كالزَّوجةِ والعيالِ.

البُخلُ لغةً:

البُخلُ ضدُّ الكرمِ والجُودِ، وقدْ بَخِلَ بكذَا: أيْ ضنَّ بمَا عندهُ ولمْ يجُدْ، ويقالُ: هوَ بخيلٌ وباخلٌ، وجمعهُ بخلاءٌ، والبَخَّالُ: الشَّديدُ البُخْلِ[2].

البُخلِ اصطلاحًا:

قالَ الرَّاغبُ الأصفهانِي: البُخْلُ: إمساكُ المقتنياتِ عمَّا لَا يحقُ حبسهَا عنهُ[3].

وقالَ الجُرجانِي: البُخلُ هوَ: المنعُ منْ مالِ نفسهِ[4].

وقالَ ابنُ حجرٍ: البُخلُ هوَ: منعُ مَا يُطلبُ ممَّا يقتنَى، وشرُّهُ مَا كانَ طالبهُ مستحقًّا، ولَا سيَّمَا إنْ كانَ منْ غيرِ مالِ المسئولِ[5].

وقالَ الفيُّومِي: البُخلُ فِي الشَّرعِ: منعُ الواجبِ[6].

---

(1) النظام الاقتصادي في الإسلام.

(2) انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (62/28)، ((مختار الصحاح)) للرازي (73/1)، و((المعجم الوسيط)) (41/1-42).

(3) ((مفردات القرآن)) (109/1).

(4) ((التعريفات)) (ص42).

(5) ((فتح الباري)) (457/10).

(6) ((المصباح المنير)) (37/1).

الفرقُ بينَ التَّقتيرِ والبُخلِ:

وهوَ: أنَّ التَّقتيرَ هوَ الإنفاقُ بالتَّضييقِ، وأمَّا البُخلُ هوَ منعُ النَّفقةِ بالكليَّةِ، فالأوَّلُ منفقٌ بأقلِّ منْ قدرِ الحاجةِ، والثَّانِي ممسكٌ فلَا ينفقُ أبدًا.

الآثارُ السَّلبيَّةُ للبُخلِ:

1) الحرمانُ منَ الأجرِ المترتِّبِ علَى الإنفاقِ فِي أبوابِ الخيرِ.

2) سببٌ فِي ضعفِ الإيمانِ واضمحلالهِ، لمَا فيهِ منْ سوءِ الظنِّ باللهِ تعالَى.

3) كراهيةُ النَّاسِ للبخيلِ، فهوَ مبغوضٌ مكروهٌ حتَّى منْ أقربِ النَّاسِ إليهِ، بلْ قدْ يصلُ بهمُ الأمرُ إلَى أنْ يتمنَّوا موتهُ حتَّى يستطيعُوا التنعُّمَ بمَا حرمهمْ منهُ.

4) البخلُ سببٌ لحرمانِ الرِّزقِ، فكمَا أنَّ الإنفاقَ سببٌ فِي زيادةِ الرِّزقِ وسعتهِ، فإنَّ البخلَ والشُّحَّ سببٌ فِي تضييقهِ، وهوَ مَا يُعبَّرُ عنهُ بمفهومِ المخالفةِ عدَ الأصوليينَ.

5) الوقوعُ فِي الإثمِ بسببِ منعهِ لمَا يجبُ عليهِ منْ حقوقٍ وواجباتٍ.

6) حرمانُ البخيلِ الشَّحيحِ لنفسهِ ولغيرهِ منْ لذائذِ الدُّنيَا المباحةِ.

7) ومنْ ضررِ البخلِ والشُّحِّ فِي الدُّنيَا تعريضُ مالِ الغنيِّ للضياعِ والنَّهبِ والسَّرقةِ والأحقادِ، وفِي عصرنَا وغيرهِ ظهورُ الحملاتِ الشَّنيعةِ علَى الأغنياءِ المترفينَ، وانتشارِ الأفكارِ والنَّظريَّاتِ المسمَّاةِ بالاشتراكيَّةِ التِي ظهرتْ لتقويضِ أركانِ الرَّأسماليَّةِ[1].

8) البخلُ والشُّحُّ سببٌ لكشفِ عيوبِ المرءِ، وإظهارهَا للخلقِ.

قالَ شمسُ الدِّينِ السفيرِي: والسَّخاءُ والكرمُ سببٌ لسترِ العيوبِ، والبُخلُ والشُّحُّ سببٌ جالبٌ لكشفهَا كمَا أشارَ إليهِ بعضهمْ بقولهِ:

ويُظهرُ عيبَ المرءِ فِي النَّاسِ بخلهُ * ويسترهُ عنهمُ جميعًا سخـــاوُهُ
تغطَّ بأثوابِ السَّخـــــــــاءِ فإنَّنِي * أرَى كلَّ عيبٍ والسَّخاءُ غطاؤهُ[2].

9) منْ آثارِ البخلِ والشُّحِّ، الحرصُ علَى ملازمةِ الأسواقِ لجمعِ المالِ، والأسواقُ هيَ معششُ الشَّياطينِ[3].

10) البخلُ صِنْوٌ لعددٍ منَ الأخلاقِ السَّيِّئةِ التِي يجرُّ بعضهَا بعضًا، كالجهلِ والحسدِ وسوءِ الظَّنِّ باللهِ تعالَى، وغيرهَا منَ الأخلاقِ الرَّديئةِ، (ولهذَا قيلَ فِي حدِّ البخلِ: جهلٌ مقرونٌ بسوءِ الظَّنِّ)[4].

11) والبخلُ صفةٌ غيرُ لائقةٍ بأهلِ الإسلامِ، بلْ هيَ سجيَّةٌ عُرفَ بهَا اليهودُ قديمًا وحديثًا، قالَ الشَّوكانِي: البخلُ قدْ لزمَ اليهودَ لزومَ الظلِّ للشَّمسِ، فلَا ترَى يهوديًّا، وإنْ كانَ مالهُ فِي غايةِ الكثرةِ، إلَّا وهوَ منْ أبخلِ خلقِ اللهِ[5].

12) البخلُ محوُ صفاتِ الإنسانيَّةِ، وإثباتُ عاداتِ الحيوانيَّةِ[6].

13) مَا ينتظرُ البخيلُ والشَّحيحُ منْ عقابٍ أخرويٍّ وطولِ حسابٍ، خاصَّةً إذَا كانَ بخلهُ قدْ أدَّاهُ إلَى عدمِ تأديةِ مَا فرضَ اللهُ تعالَى عليهِ منْ زكاةٍ، وإنفاقٍ علَى منْ تجبُ نفقتهمْ عليهِ.

14) إفسادُ العلاقاتِ بينَ النَّاسِ وإعاقةُ الصُّلحِ بينهمْ، قالَ تعالَى: "وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا [النساء: 128].

قالَ السَّعدِي: اعلمْ أنَّ كلَّ حكمٍ منَ الأحكامِ لَا يتمُّ ولَا يكملُ إلَّا بوجودِ مقتضيهِ وانتفاءِ موانعهِ، فمنْ ذلكَ هذَا الحكمُ الكبيرُ الذِي هوَ الصُّلحُ، فذكرَ تعالَى المقتضيَ لذلكَ ونبَّهَ علَى أنَّهُ خيرٌ، والخيرُ كلُّ عاقلٍ يطلبهُ ويرغبُ فيهِ، فإنْ كانَ - معَ ذلكَ - قدْ أمرَ اللهُ بهِ وحثَّ عليهِ ازدادَ المؤمنُ طلبًا لهُ ورغبةً فيه. وذكرَ المانعَ بقولهِ: وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ أيْ: جُبلتْ النُّفوسُ علَى الشحِّ، وهوَ: عدمُ الرَّغبةِ فِي بذلِ مَا علَى الإنسانِ، والحرصِ علَى الحقِّ الذِي لهُ، فالنفوسُ مجبولةٌ علَى ذلكَ طبعًا، أيْ: فينبغِي لكمْ أنْ تحرصُوا علَى قلعِ هذَا الخلقِ الدنيءِ منْ نفوسكمْ، وتستبدلُوا بهِ ضدَّهُ وهوَ السَّماحةُ، وهوَ بذلُ الحقِّ الذِي عليكَ، والاقتناعُ ببعضِ الحقِّ الذِي لكَ، فمتَى وُفِّقَ الإنسانُ لهذَا الخلقِ الحسنِ سهلَ حينئذٍ عليهِ الصُّلحُ بينهُ وبينَ خصمهِ ومعاملهِ، وتسهَّلتْ الطَّريقُ للوصولِ إلَى المطلوبِ، بخلافِ منْ لمْ يجتهدْ فِي إزالةِ الشُّحِّ منْ نفسهِ، فإنَّهُ يعسرُ عليهِ الصُّلحُ والموافقةُ لأنَّهُ لَا يرضيهِ إلَّا جميعُ مالهِ، ولَا يرضَى أنْ يؤدِّي مَا عليهِ، فإنْ كانَ خصمهُ مثلهُ اشتدَّ الأمرُ[7].

---

(1) ((التفسير المنير)) للزحيلي (180/4).

(2) ((شرح صحيح البخاري)) (348/1).

(3) ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (34/3).

(4) ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (ص 116).

(5) ((فتح القدير)) (66/2).

(6) ((التعريفات)) للجرجاني (ص 43).

(7) ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص 206).

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: المعروفُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ مَا عُرفَ حسنهُ ونفعهُ شرعًا وعقلًا والمنكرُ عكسهُ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى المعروفَ فِي كتابهِ العزيزِ وأمرَ به، ونهَى عنْ ضدِّه وهوَ المنكرُ، وقالَ تعالَى: " وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [آل عمران: 104].

وقالَ سبحانهُ: " قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ" [البقرة: 263].

وقالَ جلَّ جلالهُ: "يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ" [آل عمران: 114].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ" [الأعراف: 157].

وقالَ تباركَ وتعالَى: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" [الأعراف: 199].

وأمرَ اللهُ تعالَى بالنَّهيِ عنِ المنكرِ فِي عديدٍ منَ الآياتِ وقالَ: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ" [آل عمران: 104].

وقالَ تعالَى: "يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ" [لقمان: 108].

وقالَ سبحانهُ: "وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ" [النور: 21].

المعروفُ لغةً:

المعروفُ فِي اللُّغةِ، يدورُ معناهُ غالبًا علَى مَا تعارفَ عليهِ النَّاسُ وعلموهُ ولمْ ينكروهُ.

قالَ فِي القاموسِ: عرفهُ يعرفهُ معرفةً وعرفانًا وعِرفةً بالكسرِ، وعِرِفّانًا بكسرتينِ مشدَّدةُ الفاءِ، علمهُ، والمعروفُ ضدُّ المنكرِ.

وقالَ فِي المعجمِ الوسيطِ: العرفُ المعروفُ وهوَ خلافُ النُّكرِ، ومَا تعارفَ عليهِ النَّاسُ فِي عاداتهمْ ومعاملاتهمْ[1].

المنكرُ لغةً:

المنكرُ فِي اللُّغةِ: يدورُ معناهُ غالبًا علَى مَا جهلهُ النَّاسُ واستنكروهُ وجحدوهُ[2].

والمنكرُ لغةً: الأمرُ المستقبحُ، وأتَى بمنكرٍ، أتَى بقولٍ أوْ فعلٍ مخالفًا للشَّرعِ[3]، أوِ العرفِ، أوِ العقلِ السَّليمِ.

والمنكرُ، مُنكَرٌ، والجمعُ منكراتٌ: اسمُ مفعولٍ منْ أنكرَ.

وهوَ كلُّ فعلٍ أوْ قولٍ تحكمُ العقولُ الصحيحةُ بقُبحهِ، أوْ يقبِّحهُ الشَّرعُ ويكرههُ، وعكسهُ معروفٌ[4].

وقالَ فِي لسانِ العربِ: عرفَ العرفانَ العلمَ... والمعروفُ ضدُّ المنكرِ، والعرفُ ضدُّ النُّكرِ، يقالُ: أولاهُ عرفًا أيْ معروفًا، والمعروفُ والعارفةُ خلافُ النُّكرِ، والمعرَّفُ كالعرفِ، وقولهُ تعالَى: "وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا" [لقمان:15]**، والإنكارُ الجحودُ، وقولهُ تعالَى: "إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ"** [لقمان:19]**، أيْ أقبحَ الأصواتِ[5].**

المعروفُ اصطلاحًا (شرعًا):

كلُّ مَا يعرِّفهُ الشَّرعُ ويأمرُ بهِ ويمدحهُ ويثنِي علَى أهلهِ، ويدخلُ فِي ذلكَ جميعُ الطَّاعاتِ، وفِي مقدِّمتهَا توحيدُ اللهِ عزَّ وجلَّ والإيمانِ بهِ.

والمنكرُ اصطلاحًا (شرعًا): كلُّ مَا ينكرهُ الشَّرعُ وينهَى عنهُ ويذمُّهُ ويذمُّ أهلهُ، ويدخلُ فِي ذلكَ جميعُ المعاصِي والبدعِ، وفِي مقدِّمتهَا الشِّركُ باللهِ عزَّ وجلَّ وإنكارُ وحدانيَّتهِ أو ربوبيَّتهِ أو أسمائهِ أو صفاتهِ.

وعباراتُ المفسِّرينَ فِي تفسيرِ المعروفِ والمنكرِ، لَا تتجاوزُ ذلكَ.

فقيلَ: المعروفُ: كلُّ قولٍ حسنٍ وفعلٍ جميلٍ وخلقٍ كاملٍ للقريبِ والبعيدِ.

وقيلَ: المعروفُ: الخيرُ كلُّهُ، والمنكرُ جميعُ الشرِّ.

وقيلَ: المعروفُ: مَا عُرفَ حسنهُ شرعًا وعقلًا، والمنكرُ: مَا عُرفَ قبحهُ شرعًا وعقلًا.

وقيلَ: المعروفُ: الإحسانُ والطَّاعةُ، وكلُّ مَا عُرفَ فِي الشَّرعِ والعقلِ حسنهُ[6].

وقيلَ: المعروفُ طاعةُ اللهِ تعالَى ومَا يعرِّفهُ الشَّرعُ وأعمالُ البرِّ كلِّهَا.

وقيلَ: المعروفُ: الإيمانُ، والمنكرُ الشِّركُ، وقيلَ المعروفُ السنَّةُ، والمنكرُ البدعةُ[7].

وقيلَ: المعروفُ: خلعُ الأندادِ، ومكارمِ الأخلاقِ وصلةُ الأرحامِ، والمنكرُ: عبادةُ الأصنامِ وقطعُ الأرحامِ.
وقيلَ: المعروفُ: الطَّاعاتُ والفضائلُ أجمعُ.
وقيلَ: العرفُ، صلةُ الأرحامِ، وتقوَى اللهِ تعالَى فِي الحلالِ والحرامِ وغضِّ الأبصارِ والاستعدادُ لدارِ القرارِ.
وقيلَ: المعروفُ: عبادةُ (اللهِ تعالَى) وتوحيدهُ وكلُّ مَا أتبعَ ذلكَ، والمنكرُ، عبادةُ الأوثانِ وكلُّ مَا أتبعَ ذلكَ[8].
وهذهِ الأقوالُ كلُّهَا حقٌّ ولَا تنافٍ بينهَا.

وقالَ ابنُ الأثيرِ فِي النِّهايةِ فِي غريبِ الحديثِ:
(عَرَفَ) قدْ تكرَّرَ ذكرُ المعروفِ فِي الحديثِ، وهوَ اسمٌ جامعٌ لكلِّ مَا عُرفَ منْ طاعةِ اللهِ والتَّقرُّبِ إليهِ والإحسانِ إلَى النَّاسِ، وكلُّ مَا ندبَ إليهِ الشَّرعُ ونهَى عنهُ منَ المحسِّناتِ والمقبِّحاتِ، وهوَ منَ الصِّفاتِ الغالبةِ، أيْ أمرٌ معروفٌ بينَ النَّاسِ، إذَا رأوهُ لَا ينكرونهُ، والمعروفُ النصفةُ وحسنُ الصُّحبةِ معَ الأهلِ وغيرهمْ منَ النَّاسِ، والمنكرُ ضدُّ ذلكَ جميعهُ.
وقالَ: وقدْ تكرَّرَ ذكرُ الإنكارِ والمنكرِ فِي الحديثِ، وهوَ ضدُّ المعروفِ وكلُّ مَا قبَّحهُ الشَّرعُ وحرَّمهُ وكرههُ فهوَ منكرٌ.
يقالُ: أنكرَ الشَّيءَ ينكرهُ إنكارًا فهوَ منكرٌ، ونكِرهُ ينكرهُ نكرًا فهوَ منكورٌ، واستنكرهُ فهوَ مستنكرٌ والنَّكيرُ الإنكارُ، والإنكارُ الجحودُ[9].

---

(1) القول البين الأظهر لعبدالعزيز بن عبدالله الراجحي – بتصرُّف.
(2) السَّابق.
(3) معجم اللغة العربية المعاصرة.
(4) المعجم الغني.
(5) القول البين الأظهر لعبدالعزيز بن عبدالله الراجحي – بتصرُّف.
(6) تفسير السعدي.
(7) تفسير البغوي.
(8) تفسير القرطبي.
(9) القول البين الأظهر لعبد العزيز بن عبد الله الراجحي - ص:10.

وقالَ الشيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى: الاستقامةُ: لزومُ طاعةِ اللهِ، وطاعةِ رسولهِ ﷺ علَى الدَّوامِ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الاستقامةَ فِي كتابهِ الكريمِ وأمرَ بهَا، وأثنَى علَى أهلهَا، وقالَ جلَّ جلالهُ: "قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ"[يونس: 89].

وقالَ سبحانهُ: "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ"[فصلت: 6].

وقالَ جلَّ جلالهُ: "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32)"[فصلت: 30 - 32].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (14)"[الأحقاف: 13، 14].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: "وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا"[الجن: 16].

الاستقامةُ لغةً:

اِستقامةٌ: مصدرُ اِستَقامَ، اِستقامَ الرَّجلُ، استقامَ يستقيمُ، اسْتَقِمْ، استقامةً، فهوَ مُسْتَقِيمٌ.

استقامَ الإنسانُ: اعتدلَ فِي سلوكهِ وكانتْ أخلاقُهُ فاضلةً.

تقولُ: كانَ رَجُلاً في غايَةِ الاسْتِقامَةِ: أي في غايَةِ الصِّدْقِ وَالأَمانَةِ(1).

الاستقامةُ اصطلاحًا:

قالَ الجرجانِي: هيَ الوفاءُ بالعهودِ كلِّهَا وملازمةُ الصِّراطِ المستقيمِ برعايةِ حدِّ التَّوسُّطِ فِي كلِّ الأمورِ منَ الطعامِ والشَّرابِ واللِّباسِ وفِي كلِّ أمرٍ دينيٍّ ودنيويٍّ، فذلكَ هوَ الصِّراطُ المستقيمُ، كالصِّراطِ المستقيمِ فِي الآخرةِ... وأنْ يجمعَ بينَ أداءِ الطَّاعةِ واجتنابِ المعاصِي.

وقيلَ الاستقامةُ ضدُّ الاعوجاجِ، وهيَ مرورُ العبدِ فِي طريقِ العبوديَّةِ بإرشادِ الشَّرعِ والعقلِ والمداومةِ(2).

وقالَ السَّعدِي: هيَ لزومُ طاعةِ اللهِ، وطاعةِ رسولهِ ﷺ علَى الدَّوامِ.

وتعريفُ السَّعدِي أصحُّ مَا فِي البابِ وأوضحُ.

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: "وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ" [مريم: 36].

قالَ الطَّبرِي: يقولُ: هذَا الذِي أوصيتكمْ بهِ، وأخبرتكمْ أنَّ اللهَ أمرنِي بهِ هوَ الطَّريقُ المستقيمُ، الذِي منْ سلكهُ نجَا، ومنْ ركبهُ اهتدَى، لأنَّهُ دينُ اللهِ الذِي أمرَ بهِ أنبياءهُ(3).

ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ" [يس: 61].

قالَ ابنُ كثيرٍ: ...وأمرتكمْ بعبادتِي، وهذَا هوَ الصِّراطُ المستقيمُ(4).

وقالَ الطَّبرِي: ...وإيَّايَ فأطيعُوا، فإنَّ إخلاصَ عبادتِي، وإفرادَ طاعتِي، ومعصيةَ الشَّيطانِ، هوَ الدِّينُ الصَّحيحُ، والطريقُ المستقيمُ(5).

فقدْ أوضحَ اللهُ تعالَى فِي الآيةِ الأولَى والثَّانيةِ أنَّ الصِّراطَ المستقيمَ هوَ عبادةُ اللهِ تعالَى وطاعتهُ.

وقالَ تعالَى: "وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ" [الزخرف: 61].

قالَ الطَّبريُّ: يقولُ تعالَى ذكرهُ: وأطيعونِ فاعملُوا بمَا أمرتكمْ بهِ، وانتهُوا عمَّا نهيتكمْ عنهُ ،(هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) يقولُ: اتِّباعكمْ إيَّايَ أيُّهَا النَّاسُ فِي أمرِي ونهيِ صراطٌ مستقيمٌ، يقولُ: طريقٌ لَا اعوجاجَ فيهِ، بلْ هوَ قويمٌ(6).

وأوضحَ اللهُ تعالَى فِي هذهِ الآيةَ أنَّ الصِّراطَ المستقيمَ، هوَ اتِّباعُ أنبيائهِ والائتمارُ بأوامرهمْ.

وخرجنَا منْ هذَا بأنَّ الصِّراطَ المستقيمَ هوَ: عبادُ اللهِ تعالَى وطاعتهُ وطاعةُ رُسُلهِ علَى الدَّوامِ، فمنْ كانَ علَى هذَا، فهوَ فِي طريقِ الاستقامةِ الذِي هوَ الصَّراطُ المستقيمُ.

---

(1) قاموس المعاني.

(2) التعريفات للجرجاني.

(3) تفسير الطبري.

(4) تفسير ابن كثير.

(5) تفسير الطبري.

(6) السَّابق.

وقالَ رحمهُ اللهُ: مرضُ القلبِ هوَ: اعتلالهُ، وهوَ نوعانِ: مرضُ شكوكٍ فِي الحقِّ، ومرضُ شهوةٍ للأمورِ المحرَّمةِ.

~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى مرضُ القلوبِ فِي كتابهِ العزيزِ، وتوعَّدَ أهلهُ وقالَ: "فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ" [البقرة: 10].

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125)" [التوبة: 124 – 125].

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا" [الأحزاب: 32].

المرضُ لغةً:

المرضُ نوعانِ: مرضٌ حسِّيٌّ، ومرضٌ معنويٌّ.

أمَّا المرضُ الحسِّيُّ: فهوَ كلُّ مَا خرجَ بالكائنِ الحيِّ عنْ حدِّ الصِّحَّةِ والاعتدالِ ـ بسببِ علَّةٍ حسِّيَّةٍ ـ[1].

وأمَّا المرضُ المعنويُّ: فهوَ شكٌّ ونفاقٌ وفتورٌ عنْ تقبُّلِ الحقِّ[2].

---

(1) معجم المعاني.

(2) السابق.

المرضُ اصطلاحًا:

هوَ صفةٌ توجبُ وقوعَ الضَّررِ فِي الأفعالِ الصادرةِ عنْ موضعِ تلكَ الصِّفةِ، وهوَ نوعانِ:

الأوَّلُ: مرضٌ جسمانيٌّ: وهوَ تغييرٌ فِي النَّسيجِ، أوْ عضوٍ أوْ مجموعٍ، يوجبُ تشوُّشًا فِي عملهِ، أوْ يمنعُ إتمامَ وظيفةٍ منَ الوظائفِ الجسديَّةِ.

ومنهُ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: "فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ"[البقرة: 184]، وكذلكَ قولُ اللهِ تعالَى: "لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ"[النور: 61، والفتح: 17].

والثَّانِي: مرضٌ نفسانيٌّ: وهوَ عبارةٌ عنِ الظُّلمِ والجهلِ، والجبنِ والبخلِ والنِّفاقِ، وغيرهَا منَ الرَّذائلِ الخُلقيَّةِ والسَّجايَا الخبيثةِ، وهذَا متعلِّقٌ بالقلبِ.

وذكرَ أهلُ التَّفسيرِ أنَّ المرضَ قدِ استُعملَ فِي القرآنِ علَى ثلاثةِ أوجهٍ:

أحدهَا: مرضُ البدنِ، ومنهُ قولهُ تعالَى: "فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ"[البقرة: 196].

الثَّانِي: مرضُ الشكِّ، ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ"[التوبة: 125].

الثَّالثُ: الفجورُ، ومنهُ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: "فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ"[الأحزاب: 32][1].

---

(1) شبكة الألوكة أمراض القلب وعلاجه في ضوء القرآن الكريم - د. محمد فضل الله شريف.

القلبُ لغةً:

عُضوٌ عَضَلِيٌّ أَجوفُ يستقبل الدَّمَ منَ الأَوردةِ ويدفعهُ فِي الشَّرايينِ، قاعدتهُ إِلَى أَعلَى معلَّقةٌ بنياطٍ فِي الجهةِ اليسرَى منَ التجويفِ الصدريِّ، وبهِ تجويفانِ: يَسَاريٌّ بهِ الدمُّ الأَحمرُ، ويمينيٌّ بهِ الدمُّ الأزرقُ المحتاجُ إِلَى التَّنقيةِ؛ وبكلِّ تجويفٍ تجويفانِ فرعيَّانِ يفصلُ بينهمَا صمَّامٌ، ويسمَى التَّجويفُ العُلْوي: الأُذَينُ، والتَّجويفُ السُّفليُّ: البُطَينُ[1].

القلبُ اصطلاحًا (شرعًا):

هوَ مَا عرَّفهُ رسولُ اللهِ ﷺ بقولهِ: "أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ"[2].

إذًا فالقلبُ عليهِ مدارُ صلاحِ الجسدِ وفسادهِ.

والقلبُ هوَ محلُّ العلمِ والفهمِ والإدراكِ ومحلُّ الإيمانِ، والتعقُّلِ، والسَّمعِ والبصيرةِ، وقدْ يعبَّرُ عنهُ فِي القرآنِ بعدَّةِ أشياءٍ منهَا:

1) يُعبَّرُ عنِ القلبِ بالصدرِ فِي القرآنِ، والصَّدرُ: هوَ محلُّ الإسلامِ ومحلُّ الوسواسِ، والحفظِ والذَّاكرةِ، قالَ تعالَى: "فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ"[الأنعام: 125].

2) ويُعبَّرُ عنهُ بالعقلِ: مثْلمَا أُطلقَ علَى الأذنِ السَّمعُ، فسمِّيتُ الجارحةُ "الأداة" بوظيفتهَا، وقد تُذكرُ الجارحةُ والمرادُ وظيفتهَا خاصَّةً فِي القرآنِ؛ فالقلبُ أداةٌ والعقلُ هوَ وضيفةُ تلكَ الأداةِ، وهناكَ الفكرُ والذَّاكرةُ والحافظةُ والفهمُ

وغيرَ ذلكَ، قالَ تعالَى: "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا" [الحج: 46].

3) الشّغافُ: وهوَ محلُّ محبَّةِ الخلقِ، قالَ تعالَى: "قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا" [يوسف: 30].

4) الفؤادُ: وهوَ محلُّ رؤيةِ الحقِّ، قالَ تعالَى:"مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى" [النجم: 11].

5) السّويداءُ: وهيَ محلُّ العلومِ الدِّينيَّةِ، قالَ تعالَى:"لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا" [الأعراف: 179].

6) مهجةُ القلبِ: وهيَ محلُّ تجلِّي الصِّفاتِ، قالَ تعالَى: "وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ" [التغابن: 11].

7) حبَّةُ القلبِ: وهوَ محلُّ محبَّةِ الحقِّ، قالَ تعالَى: "وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ" [الحجرات: 7].

وعلَى مَا تقدَّمَ فإنَّ أمراضَ القلوبِ علَى ثلاثةِ أقسامٍ:

1) الأمراضُ الحسِّيَّةُ للقلوبِ، بسببِ علَّةٍ ملموسةٍ وهذَا يُرجعُ فيهِ إلَى الأطبَّاءِ.

2) والأمراضُ المعنويَّةُ للقلوبِ، وهوَ بدورهِ علَى قسمينِ اثنينِ، أحدهمَا مرضُ الشُّكوكِ.

3) والثَّانِي مرضُ الفجورِ والشَّهواتِ.

ومرادنَا هوَ أمراضُ القلبِ المعنويَّةِ، وهذهِ إشاراتُ قرآنيَّةٌ لبعضِ ما يطرأُ علَى القلبِ من عِلَلٍ وأدواءٍ، فمنْ ذلكَ:
الغفلةُ، العمَى، الزَّيْغُ، التَّقلُّبُ، الاشمئزازُ، الإقفالُ، القسوةُ، اللَّهْوُ، الرِّياءُ، النِّفاقُ، الحسدُ، وهلمَّ جرًّا، والنَّتيجةُ أنْ

يتعرَّضَ هذَا القلبُ للطَّبعِ والختمِ والموتِ بعدَ نزولِ هذهِ الأمراضِ، وعدمُ مدافعةِ الإنسانِ لهَا، فيكونُ قلبُهُ أسودًا[3].

فالذُّنوبُ والمعاصِي تضُرُّ القلبَ، وإنَّ ضررهَا فِي القلبِ كضررِ السُّمومِ فِي الأبدانِ، علَى اختلافِ درجاتهَا فِي الضَّررِ.

فمتَى مرِضَ القلبُ، وهوَ الملِكُ، أثَّرَ علَى بقيَّةِ الجوارحِ؛ كمَا قالَ النَّبيُّ ﷺ: "ألَا وإنَّ فِي الجسدِ مضغةً، إذَا صلَحتْ صلَحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذَا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلُّهُ، ألَا وهيَ القلبُ"[4].

وإنَّ الذُّنوبَ هيَ أوَّلُ سببٍ لأمراضِ القلبِ قالَ النَّبيُّ ﷺ: "إذَا أذنبَ العبدُ، نُكِتْ فِي قلبِه نكتةٌ سوداءُ، فإنَ تابَ صُقلَ منهَا، فإنْ عادَ زادتْ حتَّى تعظُمَ فِي قلبِه، فذلكَ الرَّانُ الذِي ذكَرهُ اللهُ عزَّ وجلَّ: "كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" [المطففين: 14][5].

---

(1) معجم المعاني.

(2) متفق عليه.

(3) امتحان القلوب، 10، الشيخ ناصر العمر.

(4) متفق عليه.

(5) المستدرك، كتاب الإيمان، حديث: 4244.

أنواعُ أمراضِ القلوبِ:

1) لَهْوُ القلبِ: وهوَ كلُّ مَا يشغلُ الإنسانَ عمَّا يعنيهِ ويهمُّهُ، وقدْ وردَ هذَا اللَّفظُ فِي القرآنِ بهذهِ المعانِي فِي مواضعَ مختلفةٍ، وقدْ ذُكرتْ هذهِ المادَّةِ فِي القرآنِ الكريمِ ستَّ عشرةَ مرَّةٍ، وارتبطَتْ بالقلبِ فِي قولهِ تعالَى: "اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا"[الأنبياء: 1 - 3].

قالَ القرطبيُّ: (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) أيْ: ساهيةً قلوبهمْ، معرضةٌ عنْ ذكرِ اللهِ، متشاغلةً عنِ التأمُّلِ والتَّفهُّمِ(1).

2) القلبُ المغمورُ: ومادَّةُ (غَمَرَ) تكرَّرتْ فِي القرآنِ الكريمِ أربعَ مرَّاتٍ، وارتبطتْ بالقلبِ فِي قولهِ تعالَى: "بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ"[المؤمنون: 63]، والغَمْرةُ: غطاءُ القلبِ عنْ فهمِ مَا أودعَ اللهُ فِي كتابهِ منَ المواعظِ والعِبرِ والحُججِ، وبهذَا قالَ الطَّبريُّ ومجاهدُ(2)، وإذَا بلغَ هذَا المبلغَ، فليسَ للقلبِ تعقُّلٌ صحيحٌ يفرِّقُ بينَ الحسنِ والقبيحِ، إلَّا بمَا تُمليهُ الأهواءُ والرَّغباتُ الناتجةُ عنْ جهلٍ عليهِ.

3) القلبُ المنكِرُ: وقدْ وصفَ اللهُ تعالَى القلبَ المنكرَ بقولهِ: "فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ"[النحل: 22]، قالَ المفسِّرونَ فِي القلوبِ المنكِرةِ: إنَّهَا التِي لَا تقبَلُ الوعظَ، ولَا ينجعُ فيهَا الذِّكرُ، فهمْ مستكبرونَ عنْ عبادةِ اللهِ، معَ إنكارِ قلوبهمْ لتوحيدهِ(3).

والمقصودُ أنَّ القلبَ يتَّصِفُ بالإنكارِ النَّاتجِ عنِ الكبرِ والحسدِ، لَا لأجلِ شبهةٍ أوْ إشكالٍ، بلْ هيَ النّفرةُ عنِ الرُّجوعِ إلَى الحقِّ، وهوَ أعلَى درجةً منَ القلبِ المغمورِ وأدنَى درجةً منَ الاشمئزازِ.

4) اشمئزازُ القلبِ: وقدْ نُسِبَ الاشمئزازُ إلَى القلبِ فِي كتابِ اللهِ، وقالَ تعالَى: "وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ" [الزمر: 45]، والاشمئزازُ: الانقباضُ، حالةٌ تمرُّ علَى القلبِ فيمتلئُ غيظًا وغمًّا يظهَرُ أثرُهُ علَى الجوارحِ، كمَا يشاهدُ فِي وجهِ العابسِ المحزونِ، يعنِي إذَا سارَ القلبُ فِي مراحلِ الموتِ لَا يسمعُ التوحيدَ إلَّا وظهرتْ آثارُ النّفرةِ علَى وجههِ، وهذهِ مرحلةٌ خطيرةٌ جدًّا.

5) أَكِنَّةُ القلبِ أوِ القلوبِ المكنَّنةِ: نُسِبَ إلَى القلبِ فِي القرآنِ الكريمِ فِي أربعةِ مواضعَ؛ كمَا فِي قولهِ تعالَى: "جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا" [الأنعام: 25]، ومثلهَا فِي سورةِ [الإسراء: 46]، وفِي [الكهف: 57]، وفِي [فصلت: 5]، ويقالُ: أكننتُهُ فِي نفسِي؛ أيْ: أسررتُهُ، والأكنَّةُ: الأغطيةُ، ومنهُ قولهُ تعالَى: "جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ" [الأنعام: 25]؛ أيْ: جعلنَا علَى قلوبهمْ أغطيةً وغشاوةً، مجازاةً علَى كفرهمْ، ومنَعْنَا الإيمانَ منْ أنْ يدخلَ قلوبهمْ وأسماعهمْ(4)؛ يعنِي مغاليقَ التفقُّهِ مقفلةٌ عليهِ، وأبوابُ السَّمعِ مؤصدةٌ، وغِلافُ الإدراكِ لَا ينفذُ إليهِ شيءٌ، وهوَ أدنَى درجةً منَ الارتيابِ.

6) القلبُ المرتابُ: وقدْ نُسِبَ الرَّيبُ إلَى القلبِ فِي مواضعَ متعدِّدةٍ؛ فِي مثلِ قولِهِ تعالَى: "إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ[التوبة: 45]، فالرَّيبُ مرحلةٌ متقدِّمةٌ نحوَ موتِ القلبِ، فهوَ أعلَى حالاتِ المرضِ للقلبِ، فرَيْبُ القلبِ هوَ وجودُ شيءٍ واحدٍ فقطْ، وهوَ جانبُ الكرهِ، وهوَ مَا تمكَّنَ فِي القلبِ واستولَى عليهِ؛ ولهذَا نفاهُ اللهُ عنِ المؤمنينَ، وقالَ تعالَى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ[الحجرات: 15]، والرَّيبةُ تأكلُ القلبَ كمَا تأكلُ النَّارُ الحصيدَ، وتميتهُ تقطيعًا، أوْ لَا تزايلهُ حتَّى تميتهُ.

7) تقطيعُ القلبِ: قالَ اللهُ تعالَى: "لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[التوبة: 110]، وذكرَ بعضُ المفسِّرينَ أنَّ القطعَ فِي القرآنِ علَى أحدَ عشرَ وجهًا، وأوصلهَا الفيروز ابادِي إلَى اثنَيْ عشرَ وجهًا؛ منهَا: زوالُ الرَّجاءِ والأملِ، كمَا فِي قولِ اللهِ تعالَى المذكورِ: أيْ يئسُوا ممَّا رجُوا(5).

وتقطيعُ ذُو مراحلَ: فهوَ موتُ أجزاءِ القلبِ، فبحَسَبِ تفاوتِ المعصيةِ يتفاوتُ الغطاءُ الذِي يُغشِّي القلبَ، حتَّى لَا يعِي شيئًا، ويسمَى غِلافًا، ويوصمُ بهِ القلبُ، فيقالُ: قلبٌ أغلفٌ.

8) أغلفةُ القلبِ: وقدْ وردتْ هذهِ المادةُ فِي القرآنِ الكريمِ مرَّتينِ: فِي قولهِ تعالَى عنْ بنِي إسرائيلَ: "وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ"[البقرة: 88]، والثَّانيةُ فِي قولهِ تعالَى: "فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ

بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا" [النساء: 155].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا فِي معنَى قولهِ تعالَى: (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ)؛ أيْ: فِي أكنَّةٍ، وفِي روايةٍ: أيْ لَا تفقهُ، وفِي أخرَى: هيَ القلوبُ المطبوعُ عليهَا(6).

9) إشرابُ القلبِ: وقدْ وُصِفَ القلبُ بالإشرابِ فِي قولهِ تعالَى: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" [البقرة: 93]، فيقالُ: أُشْرِبَ فلانٌ حبَّ فلانةَ؛ أيْ خالطَ قلبَهُ، وأُشرِبَ قلبُهُ محبَّةَ هذَا؛ أيْ حلَّ محلَّ الشرابِ، فمعنَى الآيةِ أنَّهُ داخَلَهمْ حبُّ العِجْلِ، ورسخَ فِي قلوبهمْ صورتُهُ؛ لفرطِ شغفهمْ بهِ، كمَا داخلَ الصبغُ الثَّوبَ.

10) الإسلاكُ فِي القلبِ: قالَ تعالَى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ" [الحجر: 9 - 13]؛ السَّلْكُ: مصدرُ سَلَكَ، وسلكَ الشَّيءَ فِي الشَّيءِ فانسلكَ؛ أيْ أدخلتهُ فيهِ فدخلَ، وهذهِ المادَّةُ قدْ وردتْ فِي القرآنِ الكريمِ اثنتيْ عشرةَ مرَّةٍ، ارتبطَتْ بالقلبِ فِي موضعينِ؛ الأوَّلُ فِي سورةِ الحجرِ السَّابقِ ذكرهَا، والثَّانِي فِي سورةِ الشُّعراءِ، قالَ تعالَى:" وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ

الأَلِيمَ" [الشعراء: 198 - 201] أيْ: سلكَ اللهُ التَّكذيبَ فِي قلوبِ المجرمينَ الذينَ عاندُوا واستكبرُوا عنِ اتِّباعِ الهدَى.

11) صَرْفُ القلبِ: مَا دامَ العبدُ لَا يرعَى حقوقَ اللهِ، ولَا يرتدعُ عنْ غيِّهِ، سيصرفُ اللهُ قلبهُ عنِ الإيمانِ وعنْ طريقِ الهدايةِ؛ جزاءَ سلوكهِ، فلَا يؤمنُ بالآياتِ، وإنَّمَا يميلُ إلَى الشَّهواتِ والرَّغباتِ، ويغفلُ عنْ منافعِ الدُّنيَا والآخرةِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: "سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ" [الأعراف: 146].

12) حَوْلُ اللهِ بينَ العبدِ وقلبهِ: قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" [الأنفال: 24]، قالَ السُّدِّي: يحولُ بينَ الإنسانِ وقلبهِ: لَا يستطيعُ أنْ يؤمنَ ولَا يكفرَ إلَّا بإذنهِ(7).

13) القلبُ الأعمَى: كمَا يفقدُ البصرُ قوَّتهُ الباصرةَ، فالذُّنوبُ إذَا توالَتْ علَى العبدِ طمستْ منَ القلبِ تعقُّلهُ، وحجَبَتْ عنهُ نورَ الإيمانِ الذِي هوَ حياةُ القلوبِ، قالَ تعالَى فِي المكذِّبينَ بالرُّسلِ: "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" [الحج: 46].

14) الرَّانُ علَى القلبِ: فالذَّنبُ علَى الذَّنبِ معَ الإصرارِ وسوءُ الأدبِ، لَا بدَّ أنْ يكسبَ الإنسانُ حالةً أكبرَ منْ أنْ تنجلِي عنْ قلبهِ، فهيَ حالةٌ منْ حالاتِ مراحلِ القلبِ الميِّتِ،

فقدْ جاءَ فِي الحديثِ: "إنَّ العبدَ إذَا أخطأَ خطيئةً، نكتتْ فِي قلبِهِ نكتةٌ، فإذَا هوَ نزعَ واستغفرَ وتابَ صُقلَ قلبُهُ، وإنْ عادَ زِيدَ فيهَا، حتَّى تعلوَ قلبُهُ، وهوَ الرَّانُ الذِي ذكرهُ اللهُ تعالَى"[8]؛ قالَ اللهُ تعالَى: "كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" [المطففين: 14].

ومنْ ذلكَ قولُ أبِي العتاهيةِ:

لَهَونا لَعَمرُ اللهِ حَتّى تَتابَــعَت * ذُنوبٌ عَلى آثارِهِنَّ ذُنوبُ

فَيا لَيتَ أَنَّ اللَهَ يَغفِرُ ما مَضى * وَيَأذَنُ في تَوباتِنا فَنَتــوبُ[9].

15) القفلُ علَى القلبِ: قالَ اللهُ تعالَى فِي وصفِ هذهِ الفئةِ منَ النَّاسِ: "فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" [محمد: 20 - 24]؛ أيْ: أقفلَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِمْ، فهمْ لَا يعقلونَ؛ لأنَّهمْ لمْ يتفهَّمُوا القرآنَ.

16) الطبعُ علَى القلبِ: قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: "الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ" [غافر: 35]، وأخيرًا يخبرهمْ بمقتِ اللهِ ومقتِ المؤمنينَ لمَنْ يجادلُ فِي آياتِ اللهِ بغيرِ حجَّةٍ ولَا برهانٍ، وإنَّمَا هوَ التجبُّرُ والتَّكبُّرُ، فعاقبتهُ الطبعُ علَى قلبِهِ.

17) ختمُ القلبِ: وقدْ عبَّرَ القرآنُ الكريمُ عنْ موتِ القلبِ بالختمِ عليهِ، فمَنْ بلغَ بهِ الكفرُ الحقيقِي آخرَ مداهُ، فهذَا لَا يؤمنُ، كمَا صرَّحَ بذلكَ الحقُّ تباركَ وتعالَى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"[البقرة: 6، 7]، وذُكِرَ الختمُ فِي كتابِ اللهِ تعالَى مرتبطًا بالقلبِ فِي أربعةِ مواضعَ، والختمُ وغيرهُ علَى القلوبِ لَا يكونُ إلَّا بعدَ تمادٍ فِي الكفرِ والعصيانِ.

18) القلبُ الغافلُ: فالقلبُ إذَا خُتمَ عليهِ بعدَ أنْ غطَّتهُ الذُّنوبُ، وعمَّهُ الصَّممُ وعمَى البصيرةِ، لَا بُدَّ أنْ يكونَ منَ الغافلينَ، قالَ اللهُ تعالَى: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا"[الكهف: 28]؛ ولهذَا جاءَ فِي الحديثِ النَّبويِّ الشَّريفِ: "لينتهينَّ أقوامٌ عنْ ودعِهمُ الجُمعاتِ، أوْ ليختمنَّ اللهُ علَى قلوبهمْ، ثمَّ ليكوننَّ منَ الغافلينَ"(10)(11).

---

(1) تفسير القرطبي.
(2) تفسير الطبري.
(3) تفسير ابن كثير.
(4) تفسير القرطبي.
(5) سلمان زيد سلمان اليماني: القلب ووظائفه في الكتاب والسُّنة.
(6) تفسير ابن كثير.
(7) تفسير الطبري.
(8) الترمذي: كتاب التفسير.
(9) إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني ،العنزي (من قبيلة عنزة) بالولاء، أبو إسحاق الشهير بأبي العتاهية.(130هـ-211هـ/747م-826مم) شاعر مكثر، سريع الخاطر، في شعره إبداع. كان ينظم المئة والمئة والخمسين بيتاً في اليوم.
(10) صحيح الإمام مسلم.
(11) مقتبس من شبكة الألوكة ـ أمراض القلب وعلاجه في ضوء القرآن الكريم ـ د. محمد فضل الله شريف.

بعدَ أنْ تعرَّفنَا علَى معنَى أمراضِ القلوبِ وأنواعهَا، لَا بُدَّ أنْ نبيِّنَ شيأً منَ العلاجِ كيْ يتمَّ البابُ علَى كمالهِ.

علاجُ أمراضِ القلوبِ:

أولاً: إنَّ أساسَ صحَّةِ القلبِ وسلامتهِ فِي إيمانهِ باللهِ تعالَى، ويتفرَّعُ عنهُ مَا يأتِي:

كمالُ محبَّةِ اللهِ: بأنْ يكونَ حبُّهُ للهِ وفِي اللهِ تعالَى، وأنْ يكونَ بُغضهُ ومعاداتهُ للهِ، وقدْ بيَّنَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى أنَّ مِنْ أعظمِ وسائلِ علاجِ القلبِ أنْ يمتلئَ قلبُ الإنسانِ بحبِّ اللهِ؛ قالَ تعالَى: "وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ" [البقرة: 165]**.**

وأمَّا وسائلُ محبَّةِ اللهِ تعالَى، فكثيرةٌ؛ منهَا:

قراءةُ القرآنِ وتدبُّرهُ وفَهْمُ معانيهِ، والتقرُّبِ إلَى اللهِ تعالَى بالنَّوافلِ بعدَ الفرائضِ، منْ ذلكَ قولُ النَّبيِّ ﷺ: "إنَّ اللهَ قالَ: منْ عادَى لِي وليًّا فقدْ آذنتهُ بالحربِ، ومَا تقرَّبَ إليَّ عبدِي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُ عليهِ، ومَا يزالُ عبدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتَّى أحبَّهُ، فإذَا أحببتهُ كنتُ سمعهُ الذِي يسمعُ بهِ، وبصرهُ الذِي يبصرُ بهِ، ويدهُ التِي يبطشُ بهَا، ورجلهُ التِي يمشِي بهَا، وإنْ سألنِي لأعطينَّهُ، ولئنْ استعاذنِي لأعيذنَّهُ"(1).

ودوامُ ذكرِ اللهِ علَى كلِّ حالٍ، قالَ تعالَى: "الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" [الرَّعد: 28]**، وإيثارُ محابِّهِ سبحانهُ علَى هوَى نفسهِ ومحابِّهَا، منْ ذلكَ قولُ النَّبيِّ ﷺ لَا يُؤمنُ أحدكمْ حتَّى يكونَ هواهُ تبعًا لمَا جئتُ**

بهِ"[2]، ومطالعةُ القلبِ لأسماءِ اللهِ وصفاتهِ ومشاهدتهَا ومعرفتهَا، (والتَّفكُّرُ فيهَا)، قالَ تعالَى: " الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" [آل عمران: 191]، وانكسارُ القلبِ بينَ يدِي اللهِ عزَّ وجلَّ، قالَ تعالى: "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ" [الحديد: 16] وغيرهَا منَ الوسائلِ[3].

ثانيًا: الإخلاصُ: يقولُ عزَّ وجلَّ: "قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ" [الأنعام: 162، 163].

ثالثًا: حسنُ المتابعةِ: بأنْ يكونَ عملهُ واعتقادهُ وَفْقَ مَا أمرَ اللهِ بهِ ورسولهِ، يقولُ اللهُ تعالَى: "قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ" [آل عمران: 31]، ويقولُ عزَّ وجلَّ: "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا" [الحشر: 7]، وممَّا يُعِينُ علَى تحقيقِ هذهِ الأصولِ ليَسْلمَ القلبُ وينجوَ ممَّا يعرِضُ لهُ منَ ابتلاءٍ وامتحانٍ مَا يأتِي:

1) ذكرُ اللهِ: فإنَّهُ يجلُو صدأَ القلوبِ، ويُذهِبُ مَا رانَ عليهَا منْ آثامٍ ومعاصٍ، ويزيدُ منْ قُرْبِ العبدِ لربِّهِ، لَا سيَّمَا إذَا كانَ مستشعرًا للذِّكرِ، مصاحبًا لهُ فِي كلِّ أحوالهِ وحركاتهِ وهيئاتهِ.

2) المراقبةُ والمحاسبةُ: وقدْ ذكرَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى أنَّهَا منْ أهمِّ العواملِ لعلاجِ القلبِ واستقامتهِ.

3) وسائلُ أخرَى: ومنهَا: العلمُ، وتحقيقُ التَّقوَى، وقيامُ اللَّيلِ، وكثرةِ الدُّعاءِ خاصَّةً فِي الثُّلثِ الأخيرِ منَ اللَّيلِ؛ فإنَّ سهامَ اللَّيلِ لَا تُخطئُ، فليُكثِرِ الإنسانُ فيهِ منَ التَّضرُّعِ إلَى اللهِ وسؤالهِ الصَّفحَ والمغفرةَ والسِّترَ والتَّجاوزَ، ومنهَا: إطابةُ المطعَمِ والملبَسِ والمسكنِ، وكثرةُ الصَّدقةِ؛ قالَ تعالَى: "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا" [التوبة: 103]**، ومنْ أعظمهَا غضُّ البصرِ؛ قالَ سبحانهُ: "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ"** [النور: 30]**.**

وخلاصةُ القولِ: أنَّ علاجَ القلبِ منَ الأمراضِ المذكورةِ فيمَا قبلهُ، لَا بدَّ لهُ منْ صفاءِ القلبِ منْ درنِ الذُّنوبِ العظامِ، والتفكُّرِ فِي قدرةِ اللهِ، والتَّفانِي فِي طاعتهِ بعمارِ الدُّنيَا والآخرةِ، وجَعْلِ الدُّنيَا طريقَ الآخرةِ بإيمانٍ كاملٍ، ويقينٍ صادقٍ، ومداومةٍ علَى الطَّاعةِ فِي الحدودِ المشروعةِ، فينقلهُ ذلكَ منْ مرتبةِ الإخباتِ إلَى مرتبةِ الوجَلِ؛ لأنَّ المُخبتَ إذَا ذُكرَ اللهُ وَجِلَ قلبُهُ، فالقلوبُ مفطورةٌ علَى الإقرارِ باللهِ تصديقًا ودينًا لهُ، لكنْ يعرِضُ لهَا مَا يُفسِدهَا، ومعرفةُ الحقِّ تقتضِي محبَّتَهُ، ومعرفةُ الباطلِ تقتضِي بُغْضهُ؛ لِمَا فِي الفطرةِ منْ حبِّ الحقِّ وبغضِ الباطلِ، فشياطينُ الإنسِ والجنِّ يعتمدونَ علَى نُقطِ الضَّعفِ الموجودةِ فِي التَّكوينِ البشريِّ، فيُحوِّلونَ الفطرةَ عنِ المنهجِ القويمِ، بطريقِ الشُّبهاتِ والشَّهواتِ، فلَا بدَّ منِ اختيارِ الفطرةِ السَّليمةِ واتِّباعهَا، واجتنابِ الغَوايةِ والشُّبهاتِ والشَّهواتِ؛ فبذلكَ يمكنُ أنْ يُعالجَ القلبُ المريضُ(4).

---

(1) رواه البخاري.
(2) كتاب الحجج. إسنادهُ فيهِ كلام – وقالَ ابنُ صححهُ جماعة ضعَّفهُ جماعة ولكن متنهُ صحيح.
(3) مدارج السَّالكين لابن القيم – بتصرف.
(4) شبكة الألوكة - أمراض القلب وعلاجه في ضوء القرآن الكريم - د. محمد فضل الله شريف – بتصرُّف.

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: النِّفاقُ: إظهارُ الخيرِ، وإبطانُ الشرِّ، فيدخلُ فيهِ النِّفاقُ الاعتقادِي والنِّفاقُ العمليُّ.

~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ أوفَى اللهُ تعالَى ذكرَ النِّفاقِ فِي كتابهِ الحكيمِ، محذِّرًا منَ الوقوعِ فيهِ متوعِّدًا أصحابهُ، وقالَ: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (63)"[النساء: 60 - 63].

وقالَ تعالَى: "وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (140) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (144) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145)" [النساء: 140 - 145].

وقالَ سبحانهُ: "يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (68)" [التوبة: 64 - 68].

وقالَ جلَّ جلالهُ: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" [التوبة: 73].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: "وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ" [التوبة: 101].

وقالَ تقدَّستْ أسماؤهُ: "إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ

صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (6) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)"[المنافقون: 1 - 8].

النِّفاقُ لغةً:

اختلفَ علماءُ اللُّغةِ فِي أصلِ النِّفاقِ، فقيلَ: إنَّ ذلكَ نسبةً إلَى النَّفقِ وهوَ السربُ فِي الأرضِ، لأنَّ المنافقَ يسترُ كفرهُ ويغيِّبهُ، فتشبَّهَ بالذِي يدخلُ النَّفقَ يستترُ فيهِ.

وقيلَ: سميَّ بهِ منْ نافقاءِ اليربوعِ، فإنَّ اليربوعَ لهُ جحرٌ يقالُ لهُ: النَّافقاءُ، وآخرُ يقالُ لهُ: القاصعاءُ، فإذَا طُلبَ منَ القاصعاءِ قصعَ فخرجَ منَ النَّافقاءِ، كذَا المنافقُ يخرجُ منَ الإيمانِ منْ غيرِ الوجهِ الذِي يدخلُ فيهِ، وقيلَ: نسبةً إلَى نافقاءِ اليربوعِ أيضاً، لكنْ منْ وجهٍ آخرَ وهوَ إظهارهُ غيرَ مَا يضمرُ، وذلكَ: أنَّهُ يخرقُ الأرضَ حتَّى إذَا كادَ يبلغَ ظاهرَ الأرضِ تركَ قشرةً رقيقةً حتَّى لَا يُعرفَ مكانَ هذَا المخرجِ، فإذَا رابهُ ريبٌ دفعَ ذلكَ برأسهِ، فخرجَ، فظاهرُ جحرهِ ترابٌ كالأرضِ، وباطنهُ حفرٌ، فكذلكَ المنافقُ ظاهرهُ إيمانٌ وباطنهُ كفرٌ(1).

ولعلَّ النِّسبةَ إِلَى نافقاءِ اليربوعِ أرجحُ منَ النِّسبةِ إِلَى النَّفقِ (لأنَّ النَّفقَ ليسَ فيهِ إظهارُ شيءٍ، وإبطالُ شيءٍ آخرَ، كمَا هوَ الحالُ فِي النِّفاقِ، وكونهُ مأخوذاً منَ النافقاءِ باعتبارِ أنَّ المنافقَ يظهرُ خلافَ مَا يبطنُ، أقربُ منْ كونهِ مأخوذاً منهُ باعتبارِ أنَّهُ يخرجُ منْ غيرِ الوجهِ الذِي دخلَ فيهِ، لأنَّ الذِي يتحقَّقُ فيهِ الشكُّ الكاملُ بينَ النَّافقاءِ والنِّفاقِ هوَ إظهارُ شيءٍ وإخفاءُ شيءٍ آخرَ، إضافةً إِلَى أنَّ المنافقَ لمْ يدخلْ فِي الإسلامِ دخولاً حقيقياً حتَّى يخرجَ منهُ)[2].

أمَّا النِّفاقُ فِي الاصطلاحِ الشَّرعِي فهوَ:

القولُ باللِّسانِ أوِ الفعلِ بخلافِ مَا فِي القلبِ منَ القولِ والاعتقادِ[3]، أوْ هوَ الذِي يسترُ كفرهُ ويظهرُ إيمانهُ، وهوَ اسمٌ إسلاميٌّ لمْ تعرفهُ العربُ بالمعنَى المخصوصِ بهِ، وإنْ كانَ أصلهُ فِي اللُّغةِ معروفاً[4] كمَا سبقَ. والمنافقُ لابدَّ وأنْ تختلفَ سريرتهُ وعلانيتهُ وظاهرهُ وباطنهُ، ولهذَا يصفهمُ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ بالكذبِ كمَا يصفُ المؤمنينَ بالصِّدقِ، قالَ تعالَى: "وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ"[البقرة:10]، وقالَ: "وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ"[المنافقون:1]، وأمثالُ هذَا كثيرٌ[5]، إذًا أخصُّ وأهمُّ مَا يميِّزُ المنافقينَ هوَ الاختلافُ بينَ الظاهرِ والباطنِ، وبينَ الدعوَى والحقيقةِ كمَا قالَ تعالَى: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ"[البقرة:8]، قالَ الإمامُ الطَّبريُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: أجمعَ جميعُ أهلِ التَّأويلِ علَى أنَّ هذهِ الآيةَ نزلتْ فِي قومٍ منْ أهلِ النِّفاقِ، وأنَّ هذهِ الصِّفةَ صفتهمْ[6]، وقدْ يطلقُ بعضُ الفقهاءِ لفظَ الزِّنديقِ علَى المنافقِ، قالَ شيخُ الإسلامِ رحمهُ اللهُ

تعالَى: ولمَّا كثرتْ الأعاجمُ فِي المسلمينَ تكلَّمُوا بلفظِ (الزِّنديقِ) وشاعتْ فِي لسانِ الفقهاءِ وتكلَّمَ النَّاسُ فِي الزِّنديقِ: هلْ تُقبلُ توبتهُ؟ ... والمقصودُ هنَا: أنَّ (الزِّنديقَ) فِي عرفِ هؤلاءِ الفقهاءِ، هوَ المنافقُ الذِي كانَ علَى عهدِ النَّبيِّ ﷺ، وهوَ أنْ يُظهرَ الإسلامَ ويبطنَ غيرهُ، سواءٌ أبطنَ ديناً منَ الأديانِ كدينِ اليهودِ والنَّصارَى أوْ غيرهمْ، أوْ كانَ معطِّلاً جاحداً للصانعِ، والمعادِ، والأعمالِ الصالحةِ...[7]، وقالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي بيانِ مراتبِ المكلَّفينَ فِي الدَّارِ الآخرةِ وطبقاتهمْ: الطَّبقةُ الخامسةَ عشرَ: طبقةُ الزَّنادقةِ، وهمْ قومٌ أظهرُوا الإسلامَ ومتابعةِ الرُّسلِ، وأبطنُوا الكفرَ ومعاداةَ اللهِ ورُسُلِهِ، وهؤلاءِ المنافقونَ، وهمْ فِي الدَّركِ الأسفلِ منَ النَّارِ[8][9].

---

(1)انظر معاجم اللغة؛ مادة (نفق): ((لسان العرب)) (10/ 358)، و((تاج العروس)) (463/13)، و((معجم مقاييس اللغة)) (454/5)، و((مفردات القرآن)) (ص819). وانظر معنى النفاق في: ((شرح السنة النبوية)) للبغوي (71/1، 72)، و((تفسير القرطبي)) (195/1)، و((حاشية مختصر سنن أبي داود)) (52/7-53)، و((المنافقون في القرآن الكريم)) د. عبدالعزيز الحميدي.

(2) ((المنافقون في القرآن)) (ص13).

(3) انظر: ((عارضة الأحوذي)) (97/10).

(4) انظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) (98/5)، و((لسان العرب)) (359/10)، و((الإيمان)) لابن تيمية (ص284).

(5) ((الإيمان الأوسط)) (ص: 162). وانظر: ((صفة النفاق)) للإمام الفريابي (ص29).

(6) ((تفسير الطبري)) (268/1).

(7) ((الإيمان الأوسط)) (ص13).

(8) ((طريق الهجرتين)) (ص374).

(9) نواقض الإيمان الاعتقادية لمحمد بن عبدالله بن علي الوهيبي صـ 308.

أنواعُ النِّفاقِ:

النِّفاقُ كالكفرِ والشِّركِ والفسقِ، فهوَ درجاتٌ ومراتبٌ؛ منهَا مَا هوَ مخرجٌ منَ الإسلامِ، ومنهَا غيرُ مخرجٍ منهُ:

أوَّلاً: النِّفاقُ الأكبرُ: وهوَ المخرجُ منَ الملَّةِ، والموجبِ للخلودِ فِي الدَّركِ الأسفلِ منَ النَّارِ:

وهوَ إبطانُ الكفرِ فِي القلبِ، وإظهارُ الإيمانِ علَى اللِّسانِ والجوارحِ، ويترتَّبُ علَى هذَا النَّوعِ مَا يترتَّبُ علَى الكفرِ الأكبرِ منْ حيثُ انتفاءِ الإيمانِ عنْ صاحبهِ، وخلودهِ فِي جهنَّمَ والعياذُ باللهِ؛ لكنَّ المنافقَ أشدَّ عذاباً منَ الكافرِ؛ لأنَّهُ فِي الدَّركِ الأسفلِ منَ النَّارِ إذَا ماتَ عليهِ.

والمنافقُ إذَا لمْ يظهرْ مَا فِي باطنهِ منْ مخالفةِ الدِّينِ، وأظهرَ الأعمالَ الظاهرةَ منَ الإسلامِ؛ فهوَ فِي الظَّاهرِ مسلمٌ، وتجرِي عليهِ أحكامُ الإسلامِ الظَّاهرةِ فِي الدُّنيَا، ويعاملُ معاملةَ المسلمينَ؛ لأنَّنَا لمْ نؤمرْ بالشقِّ عنْ مَا فِي القلوبِ، وهذَا فِي الأصلِ خارجٌ عنْ نطاقِ وقدرةِ ابنِ آدمَ.

هذَا لأنَّ الإيمانَ الظَّاهرَ الذِي تجرِي عليهِ الأحكامُ فِي الدُّنيَا لَا يستلزمُ الإيمانَ الباطنِ الذِي يكونُ صاحبهُ منَ المؤمنينَ حقًّا.

والنِّفاقُ إذَا أُطلقَ ذكرهُ فِي القرآنِ فإنَّ المرادَ بهِ النِّفاقُ الأكبرُ المنافِي للإيمانِ، بخلافِ الكفرِ فإنَّهُ يأتِي بمعنَى الكفرِ الأصغرِ، وكذلكَ الظُّلمُ والفسقُ والشِّركُ، أمَّا فِي السُّنَّةِ فقدْ وردَ النِّفاقُ الأصغرُ.

والمنافقونَ شرٌّ وأسوأُ أنواعِ الكفَّارِ؛ لأنَّهمْ زادُوا علَى كفرهمْ الكذبَ والمراوغةَ والخداعَ للمؤمنينَ، ولذلكَ أخبرنَا اللهُ تعالَى

عنْ صفاتهمْ فِي القرآنِ بالتَّفصيلِ، ووصفهمْ بصفاتٍ الشرِّ كلِّهَا، لكيْ لَا يقعَ المؤمنونَ فِي حبائلهمْ وخداعهمْ، ومنْ صفاتهمْ:

الكفرُ وعدمُ الإيمانِ.

التولِّي والإعراضِ عنْ حكمِ اللهِ تعالَى وحكمِ رسولهِ ﷺ.

الاستهزاءُ بالدِّينِ وأهلهِ والسُّخريةِ منهمْ.

الميلُ بالكلِّيَّةِ إلَى أعداءِ الدِّينِ، ومظاهرتهمْ ومناصرتهمْ علَى المؤمنينَ والمسلمينَ.

ومنْ أنواعِ النفاقِ الكثيرةِ: منْ أظهرَ الإسلامَ وهوَ مكذِّبٌ بمَا جاءَ بهِ اللهُ تعالَى، أوْ بعضِ مَا جاءَ بهِ اللهُ تعالَى، أوْ كذَّبَ الرَّسولَ ﷺ، أوْ بعضِ مَا جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ، وكمثْلِ منْ لمْ يعتقدْ وجوبَ طاعتهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، أوْ أبغضَ الرَّسولَ ﷺ، أوْ آذَى الرَّسولَ ﷺ، أوْ كرهَ الانتصارَ لدينِ الرَّسولِ ﷺ أوْ سُرَّ بكسرِ رايةِ الدِّينِ، أوِ الاستهزاءِ والسُّخريةِ بالمؤمنينَ لأجلِ إيمانهمْ وطاعتهمْ للهِ تعالَى ولرسولهِ ﷺ، أوِ التَّولِي والإعراضِ عنِ الشَّرعِ... إلَى غيرِ ذلكَ منَ الاعتقاداتِ الكفريَّةِ المخرجةِ منَ الملَّةِ.

وهذَا الصِّنفُ منَ المنافقينَ موجودونَ فِي كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

ثانياً: النِّفاقُ الأصغرُ: وهوَ غيرُ مخرجٍ منَ الملَّةِ:

وهوَ النِّفاقُ العمليُّ، واختلافُ السرِّ والعلانيةِ فِي الواجباتِ، وذلكَ بعملِ شيءٍ منْ أعمالِ المنافقينَ، معَ بقاءِ أصلِ الإيمانِ فِي القلبِ وصاحبهُ لَا يخرجُ منَ الملَّةِ، ولَا يُنفَى عنهُ مطلقُ الإيمانِ، ولَا مسمَّى الإسلامِ، وهوَ معرَّضٌ للعذابِ كسائرِ

المعاصِي، دونَ الخلودِ فِي النَّارِ، وصاحبهُ ممَّنْ تنالهُ شفاعةُ الشَّافعينَ بإذنِ اللهِ تعالَى.

وهذَا النَّوعُ منَ النِّفاقِ مقدِّمةٌ وطريقٌ للنِّفاقِ الأكبرِ؛ هذَا لمنْ سلكهُ وكانَ ديدنهُ.

وأمثلةُ ذلكَ: الكذبُ فِي الحديثِ، وإخلافِ الوعدِ، وخيانةِ الأمانةِ، والفجورِ فِي الخصومةِ، والغدرِ بالعهودِ، وكالرِّياءِ الذي لَا يكونُ فِي أصلِ العملِ، وإظهارِ المودَّةِ للغيرِ والقيامِ لهُ بالخدمةِ معَ إضمارِ عكسهِ فِي النَّفسِ.

قالَ النَّبيُّ ﷺ: "أربعٌ منْ كنَّ فيهِ كانَ منافقاً خالصاً، ومنْ كانتْ فيهِ خصلةٌ منهنَّ كانتْ فيهِ خصلةٌ منَ النِّفاقِ حتَّى يدعهَا: إذَا اؤتمنَ خانَ، وإذَا حدَّثَ كذبَ، وإذَا عاهدَ غدرَ، وإذَا خاصمَ فجرَ"[1].

وقالَ النَّبيُّ ﷺ: "آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذَا حدَّثَ كذبَ، وإذَا وعدَ أخلفَ، وإذَا اؤتمنَ خانَ"[2].

وقالَ النَّبيُّ ﷺ: "آيةُ الإيمانِ حبُّ الأنصارِ، وآيةُ النِّفاقِ بغضُ الأنصارِ[3].

وقالَ النَّبيُّ ﷺ: "منْ ماتَ ولمْ يغزُ، ولمْ يحدِّثْ بهِ نفسهُ؛ ماتَ علَى شعبةٍ منَ نفاقٍ[4] [5].

وتختلفُ عباراتُ الأئمَّةِ فِي إيضاحِ هذينِ النَّوعينِ:

فبعضُ الأئمَّةِ كالإمامِ التِّرمذِي، والإمامِ ابنِ العربِي المالكِي، والحافظُ ابنُ كثيرٍ، وابنُ حجرٍ، يقسِّمونَ النِّفاقَ إلَى نفاقٍ اعتقادِي، وهوَ المخرجُ منَ الملَّةِ وإلَى نفاقٍ عمليٍّ، قالَ الإمامُ التِّرمذيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تعليقهِ علَى حديثِ:

"أربعٌ منْ كنَّ فيهِ كانَ منافقاً..."[6] وإنَّمَا معنَى هذَا عندَ أهلِ العلمِ نفاقُ العملِ، وإنَّمَا نفاقُ التَّكذيبِ علَى عهدِ رسولِ ﷺ هكذَا رويَ عنِ الحسنِ البصريِّ شيئاً منْ هذَا أنَّهُ قالَ: النِّفاقُ نفاقانِ، نفاقُ عملٍ ونفاقُ التَّكذيبِ[7].

والمقصودُ بنفاقِ التَّكذيبِ أنْ يُظهرَ الإيمانَ بلسانِهِ أوْ فعلِهِ وهوَ مكذِّبٌ بقلبِهِ كالمنافقينَ علَى عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وقالَ الإمامُ ابنُ العربيِّ: النِّفاقُ هوَ إظهارُ القولِ باللِّسانِ أوِ الفعلِ بخلافِ مَا فِي القلبِ منَ القولِ والاعتقادِ. (أصولهُ) وهيَ قسمانِ:

أحدهمَا: أنْ يكونَ الخبرُ أوِ الفعلُ فِي توحيدِ اللهِ وتصديقهِ أوْ يكونَ فِي الأعمالِ، فإنْ كانَ فِي التَّوحيدِ كانَ صريحاً، وإنْ كانَ فِي الأعمالِ كانتْ معصيةً، وكانَ نفاقاً دونَ نفاقٍ كمَا تقدَّمَ القولُ فِي كفرٍ دونَ كفرٍ...[8].

وقالَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: النِّفاقُ هوَ إظهارُ الخيرِ وإسرارُ الشرِّ، وهوَ أنواعٌ: اعتقاديٌّ، وهوَ الذِي يخلدُ صاحبهُ فِي النَّارِ، وعمليٌّ وهوَ منْ أكبرِ الذُّنوبِ...[9].

وقالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: والنِّفاقُ لغةً: مخالفةُ الباطنِ للظَّاهرِ، فإنْ كانَ فِي تركِ اعتقادِ الإيمانِ فهوَ نفاقُ الكفرِ، وإلَّا فهوَ نفاقُ العملِ، ويدخلُ فيهِ الفعلُ والتَّركُ، وتتفاوتُ مراتبهُ[10].

وبعضُ الأئمَّةِ كالإمامِ ابنِ تيميَّةَ والإمامِ ابنِ القيِّمِ والحافظِ ابنِ رجبٍ يعبرونَ عنْ ذلكَ بتقسيمِ النِّفاقِ إلَى الأكبرِ المخرجِ منَ الملَّةِ وإلَى نفاقٍ أصغرٍ غيرِ مخرجٍ منَ الملَّةِ، يقولُ شيخُ

الإسلامِ رحمهُ اللهِ تعالَى: فمنَ النِّفاقِ مَا هوَ أكبرٌ يكونُ صاحبهُ فِي الدَّركِ الأسفلِ منَ النَّارِ، كنفاقِ عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ وغيرهِ بأنْ يظهرَ تكذيبَ الرَّسولِ...، فهذَا ضربُ النِّفاقِ الأصغرِ: فهوَ النِّفاقُ فِي الأعمالِ ونحوهَا...[11]، ويقولُ أيضاً: والنِّفاقُ كالكفرِ نفاقٌ دونَ نفاقٍ، ولهذَا كثيراً مَا يقالُ: كفرٌ ينقلُ عنِ الملَّةِ، وكفرٌ لَا ينقلُ، ونفاقٌ أكبرٌ، ونفاقٌ أصغرٌ، كمَا يقالُ: الشِّركُ شركانِ أصغرُ وأكبرُ...[12].

وكذلكَ قالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي بيانِ أقسامِ النِّفاقِ: وهوَ نوعانِ: أكبرٌ، وأصغرٌ؛ فالأكبرُ: يوجبُ الخلودَ فِي النَّارِ فِي دركهَا الأسفلِ، وهوَ أنْ يظهرَ للمسلمينَ إيمانهُ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليومِ الآخرِ، وهوَ فِي الباطنِ منسلخٌ منْ ذلكَ كلِّهِ مكذِّبٌ بهِ...[13].

وبينَ القولينِ تقاربٌ فمنْ حصرَ النِّفاقَ المخرجَ منَ الملَّةِ بالنِّفاقِ الاعتقاديِّ، فلعلَّهُ قصدَ بذلكَ نفاقَ التَّكذيبِ، وهوَ أنْ يظهرَ الإيمانَ وهوَ مكذِّبٌ بقلبهِ، أمَّا إنْ كانَ المرءُ فِي الأصلِ مؤمناً باللهِ تعالَى غيرَ مكذِّبٍ وطرأَ النِّفاقُ علَى بعضِ الأعمالِ المتعلِّقةِ بفروعِ الإيمانِ، فهذَا نفاقُ العملِ، وهناكَ احتمالٌ آخرُ وهوَ أنْ يُقصدَ بحصرِ ذلكَ بالنِّفاقِ الاعتقاديِّ اقترانُ المكفِّراتِ العمليَّةِ الصادرةِ منَ المنافقينَ بالجانبِ الاعتقاديِّ.

فِي الغالبِ والأقربِ للصَّوابِ واللهُ تعالَى أعلمُ أنَّ تقسيمُ النِّفاقِ إلَى أكبرَ وأصغرَ لسببينِ:

الأوَّلُ: لأنَّ النِّفاقَ الأكبرَ لَا يختصُّ بالجانبِ الاعتقاديِّ فقطْ، ولذلكَ حينَ ذكرَ القرآنُ صفاتَ المنافقينَ ذكرَ منهَا تنقيصهمْ للرَّسولِ ﷺ، وسخريَّتهمْ بالمؤمنينَ، ومناصرتهمْ للكفَّارِ

ونحوِ ذلكَ، وهذهِ الأمورُ وإنْ اقترنتْ غالباً بفسادٍ اعتقاديٍّ إلَّا أنَّ ذلكَ ليسَ بلازمٍ.

الثَّانِي: ليسَ كلُّ نفاقٍ اعتقاديٍّ يخرجُ منَ الملَّةِ، فقدْ يكونُ ذلكَ منْ جنسٍ يسيرِ الرِّياءِ ونحوهِ، وإليكَ إيضاحاً لنوعيْ النِّفاقِ:

النِّفاقُ الأصغرُ:

والأصلُ فِي ذلكَ مَا ثبتَ فِي الصَّحيحينِ منْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو وأبِي هريرةَ وغيرهمَا منَ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهمْ، فِي ذكرِ آيةِ المنافقِ، فعنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: "آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذَا حدَّثَ كذبَ، وإذَا وعدَ أخلفَ، وإذَا ائتمنَ خانَ[14].

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: "أربعٌ منْ كنَّ فيهِ كانَ منافقاً خالصاً، ومنْ كانتْ فيهِ خصلةٌ منهنَّ كانتْ فيهِ خصلةٌ منَ النِّفاقِ حتَّى يدعهَا: إذَا ائتمنَ خانَ، وإذَا حدَّثَ كذبَ، وإذَا عاهدَ غدرَ، وإذَا خاصمَ فجر"[15].

قالَ الإمامُ النَّوويُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي شرحِ هذَا الحديثِ: هذَا الحديثُ ممَّا عدَّهُ جماعةٌ منَ العلماءِ مشكلاً منْ حيثُ إنَّ هذهِ الخصالِ توجدُ فِي المسلمِ المصدِّقِ الذِي ليسَ فيهِ شكٌّ، وقدْ أجمعَ العلماءُ علَى أنَّ منْ كانَ مصدِّقاً بقلبهِ ولسانهِ وفعلَ هذهِ الخصالَ لَا يُحكمُ عليهِ بكفرٍ، ولَا هوَ منافقٌ يخلدُ فِي النَّارِ فإنَّ إخوةَ يوسفَ ﷺ جمعُوا هذهِ الخصالَ وكذَا وجدَ لبعضِ السَّلفِ والعلماءِ بعضَ هذَا أوْ كلَّهُ، وهذَا الحديثُ ليسَ فيهِ بحمدِ اللهِ تعالَى إشكالٌ، ولكنِ اختلفَ العلماءُ فِي معناهُ،

فالذِي قالهُ المحقِّقونَ والأكثرونَ وهوَ الصَّحيحُ المختارُ: أنَّ معناهُ أنَّ هذهِ الخصالَ خصالُ نفاقٍ، وصاحبهَا شبيهٌ بالمنافقينَ فِي هذهِ الخصالِ ومتخلِّقٌ بأخلاقهمْ، فإنَّ النِّفاقَ إظهارُ مَا يبطنُ خلافهُ، وهذَا المعنَى موجودٌ فِي صاحبِ هذهِ الخصالِ، ويكونُ نفاقهُ فِي حقِّ منْ حدَّثهُ ووعدهُ وائتمنهُ وخاصمهُ وعاهدهُ منَ النَّاسِ لَا أنَّهُ منافقٌ فِي الإسلامِ فيظهرهُ وهوَ يبطنُ الكفرَ، ولمْ يردَّ النَّبيُّ ﷺ، وقولهُ بهذَا أنَّهُ منافقٌ نفاقَ الكفَّارِ المخلَّدينَ فِي الدركِ الأسفلِ منَ النَّارِ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "كانَ منافقاً خالصاً" معناهُ شديدُ الشَّبهِ بالمنافقينَ بسببِ هذهِ الخصالِ، قالَ بعضُ العلماءِ هذَا فيمنْ كانتْ هذهِ الخصالُ غالبةً عليهِ فأمَّا منْ يندرُ ذلكَ منهُ فليسَ داخلاً فيهِ، فهذَا هوَ المختارُ فِي معنَى الحديثِ...[16].

وقالَ الإمامُ الخطَّابيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: هذَا القولُ إنَّمَا خرجَ علَى سبيلِ الإنذارِ للمرءِ المسلمِ، والتَّحذيرِ لهُ أنْ يعتادَ هذهِ الخصالِ، فتُفضِي بهِ إلَى النِّفاقِ، لَا أنَّ منْ بدرتْ منهُ هذهِ الخصالُ، أوْ فَعَلَ شيئاً منْ ذلكَ منْ غيرِ اعتيادٍ أنَّهُ منافقٌ[17].

وقالَ الخطَّابيُّ أيضًا: ويدلُّ عليهِ التَّعبيرُ بـ (إذَا)، فإنَّهَا تدلُّ علَى تكرار الفعل[18]، وتعقَّبهُ الحافظُ ابنُ حجرٍ فقالَ: والأولَى مَا قالهُ الكرمانيُّ: إنَّ حذفَ المفعولِ منْ (حدَّثَ) يدلُّ علَى العمومِ، أيْ: إذَا حدَّثَ فِي كلِّ شيءٍ كذبَ فيهِ، أوْ يصيرُ قاصراً، أيْ: إذَا وجدَ ماهيَةَ الحديثِ كذبَ، وقيلَ: محمولٌ علَى منْ غلبتْ عليهِ هذهِ الخصالُ وتهاونَ بهَا واستخفَّ بأمرهَا، فإنَّ منْ كانَ كذلكَ كانَ فاسدَ الاعتقادِ غالباً[19]، وقالَ الحافظُ ابنُ رجبٍ رحمهُ اللهُ تعالَى بعدمَا شرحَ هذهِ الخصالَ:

وحاصلُ الأمرِ أنَّ النِّفاقَ الأصغرَ كلُّهُ يرجعُ إلَى اختلافِ السَّريرةِ والعلانيةِ كمَا قالهُ الحسنُ...[20].

ومنْ هذَا البابِ الإعراضُ عنِ الجهادِ فإنَّهُ منْ خصالِ المنافقينَ[21]، قالَ النَّبيُّ ﷺ: "منْ ماتَ ولمْ يغزُ ولمْ يحدِّثْ نفسهُ بالغزوِ ماتَ علَى شعبةٍ منْ نفاقٍ[22]، ومنْ ذلكَ مَا رواهُ البخاريُّ فِي (بابِ مَا يُكرهُ منْ ثناءِ السُّلطانِ، وإذَا خرجَ قالَ غيرَ ذلكَ): قالَ أُناسٌ لعبدِ اللهِ بنِ عمرَ: إنَّا ندخلُ علَى سلطاننَا فنقولُ لهمْ بخلافِ مَا نتكلَّمُ إذَا خرجنَا منْ عندهمْ، قالَ: كنَّا نعدهَا نفاقاً[23].

وهذَا هوَ النِّفاقُ الذِي خافهُ الصَّحابةُ علَى أنفسهمْ، يقولُ ابنُ رجبٍ[24] ولمَّا تقرَّرَ عندَ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهمْ أنَّ النِّفاقَ هوَ اختلافُ السرِّ والعلانيةِ خشيَ بعضهمْ علَى نفسهِ أنْ يكونَ إذَا تغيَّرَ عليهِ حضورُ قلبهِ ورقَّتهُ وخشوعهُ عندَ سماعِ الذِّكرِ، برجوعهِ إلَى الدُّنيَا والاشتغالِ بالأهلِ والأولادِ والأموالِ أنْ يكونَ ذلكَ منهُ نفاقاً، كَمَا فِي صحيحِ مسلمٍ عنْ حنظلةَ الأسديِّ: أنَّهُ مرَّ بأبِي بكرٍ وهوَ يبكِي، فقالَ: مَا لكَ؟ قالَ: نافقَ حنظلةُ يَا أبَا بكرٍ، نكونُ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ يذكِّرنَا بالجنَّةِ والنَّارِ كأنَّا رأيُ عينٍ، فإذَا رجعنَا، عافسنَا الأزواجُ والضَّيعةُ فنسينَا كثيراً، قَالَ أبُو بكرٍ: فاللهِ إنَّا لكذلكَ، فانطلقنَا إلَى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: "مالكَ يَا حنظلةُ؟" قالَ: نافقَ حنظلةُ يَا رسولَ اللهِ، وذكرَ لهُ مثلَ مَا قالَ لأبِي بكرٍ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "لوْ تدومونَ علَى الحالِ التِي تقومونَ بهَا منْ عندِي، لصافحتكمْ الملائكةُ علَى مجالسكمْ وفِي طرقكمْ، ولكنْ يَا حنظلةُ ساعةً وساعةً"[25].

وممَّا وردَ فِي هذَا المعنَى أيْ: خوفُ الصَّحابةِ منَ النِّفاقِ مَا قالهُ ابنُ أبِي مليكةَ: أدركتُ ثلاثينَ منْ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ كلُّهمْ يخافُ النِّفاقَ علَى نفسهِ مَا منهمْ أحدٌ يقولُ: إنَّهُ علَى إيمانِ جبريلَ وميكائيلَ[26]، يقولُ الحافظُ ابنُ حجرٍ فِي تعليقهِ علَى هذَا الأثرِ: والصَّحابةُ الذينَ أدركهمْ ابنُ أبِي مليكةَ منْ أجلِّهمْ عائشةُ وأختهَا أسماءُ وأمُّ سلمةَ والعبادلةُ الأربعةُ وأبُو هريرةَ وعقبةُ بنُ الحارثِ والمسورُ بنُ مخرمةَ، فهؤلاءِ ممَّنْ سمعَ منهمْ، وقدْ أدركَ بالسنِّ جماعةً أجلَّ منْ هؤلاءِ كعليٍّ بنِ أبِي طالبٍ، وسعدِ بنِ أبِي وقَّاصٍ، وقدْ جزمَ بأنَّهمْ كانُوا يخافونَ النِّفاقَ فِي الأعمالِ، ولمْ ينقلْ عنْ غيرهمْ خلافَ ذلكَ فكأنَّهُ إجماعٌ، وذلكَ لأنَّ المؤمنَ قدْ يعرضُ عليهِ فِي عملهِ مَا يشعرُ بهِ ممَّا يخالفُ الإخلاصَ، ولَا يلزمُ منْ خوفهمْ منْ ذلكَ وقوعهُ منهمْ، بلْ ذلكَ علَى سبيلِ المبالغةِ منهمْ فِي الورعِ والتَّقوَى رضيَ اللهُ عنهمْ[27].

وخلاصةُ القولِ فِي النِّفاقِ الأصغرِ: أنَّهُ نوعٌ منَ الاختلافِ بينَ السَّريرةِ والعلانيةِ ممَّا هوَ دونَ الكفرِ، وذلكَ كالرِّياءِ الذِي لَا يكونُ فِي أصلِ العملِ، وكإظهارِ مودَّةِ الغيرِ والقيامِ بخدمتهِ معَ إضمارِ بعضهِ والإساءةِ إليهِ وكالخصالِ الواردةِ فِي حديثِ شعبِ النِّفاقِ ونحوِ ذلكَ، فعلَى المسلمِ الحذرُ منَ الوقوعِ فِي شيءٍ منْ ذلكَ.

النفاقُ الأكبرُ:

سبقتِ الإشارةُ إلَى تعريفهِ عندَ الكلامِ عنْ أنواعِ النِّفاقِ، ويمكنُ اختصارُ تعريفهِ، بتعريفٍ ذكرهُ الحافظُ ابنُ رجبٍ حيثُ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: النِّفاقُ الأكبرُ وهوَ أنْ يُظهرَ الإنسانُ

الإيمانَ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليومِ الآخرِ، ويُبطنَ مَا يناقضُ ذلكَ كلَّهُ أوْ بعضهُ، وهذَا هوَ النِّفاقُ الذِي كانَ علَى عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، ونزلَ القرآنُ بذمِّ أهلهِ وتكفيرهمْ، وأخبرَ أنَّهمْ فِي الدَّركِ الأسفلِ منَ النَّارِ(28).

قالَ تعالَى: "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا" [النساء: 145].

صورُ النِّفاقِ الأكبرِ:

ذكرَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى بعضَ هذهِ الصُّورِ فقالَ: فمنَ النِّفاقِ مَا هوَ أكبرُ، ويكونُ صاحبهُ فِي الدَّركِ الأسفلِ منَ النَّارِ، كنفاقِ عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ وغيرهِ، بأنْ يُظهرَ تكذيبَ الرَّسولِ ﷺ أوْ جحودَ بعضِ مَا جاءَ بهِ، أوْ بغضهِ، أوْ عدمِ اعتقادِ وجوبِ اتِّباعهِ، أوِ المسرَّةِ بانخفاضِ دينهِ، أوِ المساءةِ بظهورِ دينهِ، ونحوِ ذلكَ: ممَّا لَا يكونُ صاحبهُ إلَّا عدوًّا للهِ ورسولهِ، وهذَا القدرُ كانَ موجوداً فِي زمنِ رسولِ اللهِ ﷺ، ومازالَ بعدهُ، بلْ هوَ أكثرُ منهُ علَى عهدهِ...(29).

وقالَ فِي موضعٍ آخرٍ: فأمَّا النِّفاقُ المحضُ الذِي لَا ريبَ فِي كفرِ صاحبهِ، فإنَّهُ لَا يرَى وجوبَ تصديقَ الرَّسولِ ﷺ فيمَا أخبرَ بهِ، ولَا وجوبَ طاعتهِ فيمَا أمرَ بهِ، وإنِ اعتقدَ معَ ذلكَ أنَّ الرَّسولَ عظيمُ القدرِ- علماً وعملاً- وأنَّهُ يجوزُ تصديقهُ وطاعتهُ لكنَّهُ يقولُ: إنَّهُ لَا يضرُّ اختلافُ المللِ إذَا كانَ المعبودُ واحداً، ويرَى أنَّهُ تحصيلَ النَّجاةِ والسَّعادةِ بمتابعةِ الرَّسولِ ﷺ وبغيرِ متابعتهِ، إمَّا بطريقِ الفلسفةِ والصبوِ، أوْ بطريقِ التهوُّدِ والتنصُّرِ...(30).

ونقلَ هذهِ الأنواعَ الشَّيخُ محمَّدٌ بنُ عبدِ الوهَّابِ رحمهُ اللهُ تعالَى فقالَ:... فأمَّا النِّفاقُ الاعتقاديُّ فهوَ ستَّةُ أنواعٍ، تكذيبُ الرَّسولِ ﷺ، أوْ تكذيبُ بعضِ مَا جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ، أوْ بغضُ الرَّسولِ ﷺ أوْ بغضُ مَا جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ، أوِ المسرَّةُ بانخفاضِ دينِ الرَّسولِ ﷺ، أوِ الكراهيةُ بانتصارِ دينِ الرَّسولِ ﷺ، فهذِهِ الأنواعُ الستَّةُ صاحبهَا منْ أهلِ الدَّركِ الأسفلِ منَ النَّارِ[31] فيتحصَّلُ ممَّا ذكرهُ هذانِ الإمامانِ بعدَ دمجِ الأنواعِ المتشابهةِ والمتقاربةِ، خمسُ صفاتٍ أوْ أنواعٍ وهيَ:

1) تكذيبُ الرَّسولِ ﷺ، أوْ تكذيبُ بعضِ مَا جاءَ بهِ.
2) بغضُ الرَّسولِ ﷺ، أوْ بغضُ مَا جاءَ بهِ، أوْ بغضُ بعضِ مَا جاءَ بهِ.
3) المسرَّةُ بانخفاضِ دينِ الرَّسولِ ﷺ، أوِ الكراهيَّةُ بانتصارِ دينِ الرَّسولِ ﷺ.
4) عدمُ اعتقادِ وجوبِ تصديقهِ فيمَا أخبرَ ﷺ.
5) عدمُ اعتقادِ وجوبِ طاعتهِ فيمَا أمرَ ﷺ.

وبالنَّظرِ إلَى الآياتِ التِي ذكرتْ أحوالَ المنافقينَ، وكلامِ المفسِّرينَ حولهَا، يمكنُ أنْ يضافَ إلَى هذهِ الصِّفاتِ صفاتٌ أخرَى وهيَ:

6) أذَى الرَّسولِ ﷺ أوْ عيبهِ ولَمْزِهِ.
7) مظاهرةُ الكافرينَ ومناصرتهمْ علَى المسلمينَ.
8) الاستهزاءُ والسُّخريةُ بالمسلمينَ لأجلِ إيمانهمْ وطاعتهمْ للهِ ولرسولهِ ﷺ.
9) التولِّي والإعراضُ عنْ حكمِ اللهِ وحكمِ رسولهِ ﷺ.

فالوقوعُ فِي أيِّ صفةٍ منْ هذهِ الصِّفاتِ يُخرجُ منَ الملَّةِ، وهذهِ الصِّفاتُ أكثرهَا متعلِّقٌ بحقِّ الرَّسولِ ﷺ، يقولُ شيخُ الإسلامِ رحمهُ اللهُ تعالَى:... فالنِّفاقُ يقعُ كثيراً فِي حقِّ الرَّسولِ ﷺ، وهوَ أكثرُ مَا ذكرهُ اللهُ فِي القرآنِ منْ نفاقِ المنافقينَ فِي حياتهِ...[32] [33].

(1) رواه البخاري (34)، ومسلم (58). من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(2) رواه البخاري (33)، ومسلم (59). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(3) رواه البخاري (17)، ومسلم (74). من حديث أنس رضي الله عنه.
(4) رواه مسلم (1910). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(5) الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة لعبد الله بن عبد الحميد الأثري - ص152.
(6) رواه البخاري (34)، ومسلم (58)، والترمذي (2632). من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(7) ((عارضة الأحوذي)) (100/10).
(8) ((عارضة الأحوذي)) (100/10).
(9) ((تفسير ابن كثير)) (47/1).
(10) ((فتح الباري)) (89/1).
(11) ((مجموع الفتاوى)) (434/28-435).
(12) ((الإيمان الأوسط)) (ص: 66).
(13) ((مدارج السالكين)) (376/1)، وانظر في هذا التقسيم: ((الرياض النضرة)) للشيخ عبدالرحمن بن سعدي، رحمه الله (ص240)، و((جامع العلوم والحكم)) (ص403).
(14) رواه البخاري (33)، ومسلم (59). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(15) رواه البخاري (34)، ومسلم (58). من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(16) ((شرح صحيح مسلم)) للنووي (46/2-47).
(17) ((شرح السنة)) (76/1)، و((جامع العلوم والحكم)) (ص407).
(18) ((فتح الباري)) (90/1).
(19) ((فتح الباري)) (91/1). وانظر أقوالاً أخرى حول الحديث في نفس الموضوع في ((شرح صحيح مسلم)) للنووي (46/2-47)، و((حاشية مختصر المنذري)) (53/7)، و((شرح السنة)) (76/1)، و((جامع العلوم والحكم)) (ص406))، و((عارضة الأحوذي)) (98/10، 99).
(20) ((جامع العلوم والحكم)) (ص406).
(21) ((مجموع الفتاوى)) (436/28)، و((شرح صحيح مسلم)) للنووي (56/13).
(22) رواه مسلم (1910) - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(23) رواه البخاري (7178).
(24) ((جامع العلوم والحكم)) (ص408).
(25) رواه مسلم (2750).
(26) رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم قبل حديث رقم (48)، ورواه موصولاً الخلال في ((السنة)) (607/3-608)، ومحمد بن نصر المروزي في ((تعظيم قدر الصلاة)) (634/2). وانظر ((تغليق التعليق)) (52/2-53).
(27) ((فتح الباري)) (111/1)، وانظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص409)، و((جامع العلوم والحكم)) (ص407).
(28) ((جامع العلوم والحكم)) (ص403).
(29) ((مجموع الفتاوى)) (434/28).
(30) ((الإيمان الأوسط)) (ص180).
(31) ((مجموعة التوحيد)) (ص7).
(32) ((الإيمان الأوسط)) (ص181)، وانظر: ((الإيمان)) (ص285).
(33) نواقض الإيمان الاعتقادية لمحمد بن عبد الله بن علي الوهيبي – ص: 253.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: القرآنُ: كلُّهُ محكمٌ، وأحكمتْ آياتهُ منْ جهةِ موافقتهَا للحكمةِ، وأنَّ أخبارهُ أعلَى درجاتِ الصِّدقِ، وأحكامهُ فِي غايةِ الحسنِ، وكلُّهُ متشابهٌ، منْ جهةِ اتِّفاقهِ فِي البلاغةِ والحسنِ، وتصديقِ بعضهِ لبعضٍ وكمالِ اتِّفاقهِ، ومنهُ محكمٌ ومتشابهٌ، منْ جهةِ أنَّ متشابههُ مَا كانَ فيهِ إجمالٌ أوِ احتمالٌ لبعضِ المعانِي، ومحكمهُ واضحٌ مبيَّنٌ صريحٌ فِي معناهُ، إذَا رُدَّ إليهِ المتشابهَ، اتَّفقَ الجميعُ، واستقامتْ معانيهُ.

~~~~~~~~~~~~ الشرح* ~~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ الشَّيخُ رحمهُ اللهُ تعالَى هذهِ القاعدةَ فِي كتابهِ القواعدُ الحسانُ بقولهِ: القرآنُ كُلّهُ مُحكمٌ باعتبارٍ، وكلُّهُ متشابهٌ باعتبارٍ، وبعضهُ مُحكمٌ وبعضهُ مُتشابهٌ باعتبارٍ ثالث(1).

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ أنَّ القرآنَ كلَّهُ محكمٌ، وقالَ: "الرَ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" [هود: 1]**.**

وذكرَ سبحانهُ أنَّ القرآنَ كلَّهُ متشابهٌ وقالَ: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ" [الزمر: 23]**.**

وذكرَ سبحانهُ أنَّهُ محكمٌ ومتشابهٌ وقالَ: " مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ"[آل عمران:7]**.**

المحكمُ لغةً:

قَالَ ابنُ فارسٍ فِي مقاييسِ اللُّغةِ: (ح ك م) الحاءُ والكافُ والميمُ، أصلٌ واحدٌ، وهوَ المنعُ، وأوَّلُ ذلكَ الحكمُ، وهوَ المنعُ منَ الظلمُ. وسمِّيت حكَمةُ الدّابةِ لأنَّهَا تمنعهَا، يقالُ: حكمتُ الدّابّةَ وأحكمتهَا، ويقالُ: حكمتُ السفيهَ وأحكمتهُ، إذَا أخذتُ علَى يديهِ... والحِكمةُ هذَا قياسهَا، لأنَّهَا تمنعُ منَ الجهلِ(2).

(1) القواعد الحسان للسعدي.
(2) معجم مقاييس اللغة لابن فارس.

ومنهُ قولُ الشَّاعرِ:
أَبَني حَنيفَةَ أَحكِموا سُفَهاءَكُم*إِنّي أَخافُ عَلَيكُمُ أَن أَغضَبا[1].
أيْ امنعُوا سفهاءكمْ.

ويدخلُ فِي مَا سبقَ معنَى الإتقانِ، فيقالُ: أحكمَ الأمرَ، أتقنهُ.
ويقالُ: أحكمَ الرَّأيَ: أتقنهُ ومنعهُ منَ الفسادِ.
لأنَّ المنعَ منَ الفسادِ يؤدِّي إلَى الإتقانِ.
والقرآنُ الكريمُ: بهذَا المعنَى اللُّغوي محكمٌ كلُّهُ، أيْ: متقنٌ ممتنعٌ عنِ النَّقصِ والخللِ، لَا يأتيهِ الباطلُ منْ بينِ يديهِ ولَا منْ خلفهِ، قالَ تعالَى: "الرَ كتَاب أُحِكَمْت آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَت منْ لَدُن حِكيمٍ خِبيرٍ"[هود: 1].

المتشابهُ لغةً:
قالَ ابنُ فارسٍ فِي مقاييسِ اللُّغةِ: (ش ب ه) الشِّينُ والباءُ والهاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ علَى تشابهِ الشَّيءِ وتشاكلهِ لونًا ووصفًا. يقالُ شِبهَ وشَبَهَ وشبيهَ. والشّبهُ منَ الجواهرِ: الذِي يشبهُ الذَّهبَ. والمشبّهاتُ منَ الأمورِ: المشكلاتُ. واشتبهَ الأمرانِ، إذَا أشكلَا[2].
وهوَ نوعٌ منَ المماثلةِ حيثُ توجدُ مطابقةٌ منْ وجهٍ ومخالفةٌ منْ وجهٍ آخرَ، ومنهُ فِي القرآنِ الكريمِ قولهُ سبحانهُ وتعالَى وصفًا لرزقِ الجنّةِ:"وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا"[البقرة: 25]، ومنهُ قولهُ تعالَى حكايةً عنْ بنِي إسرائيلَ:"إنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا"[البقرة: 70].

(1) جرير بن عطية بن حذيفة الخَطَفي بن بدر الكلبيّ اليربوعي، من تميم.
(2) معجم مقاييس اللغة لابن فارس.

المحكمُ اصطلاحًا:

المحكمُ اصطلاحًا فِي القرآنِ الكريمِ علَى قسمينِ:

محكمٌ عامٌّ.

محكمٌ خاصٌّ.

فالمحكمُ العامُّ: إتقانهُ بتمييزِ الصِّدقِ منَ الكذبِ فِي أخبارهِ، والرُّشدُ منَ الغيِّ فِي أوامرهِ.

والمحكمُ الخاصُّ: هوَ الفاصلُ بينَ الأمرينِ بحيثُ لَا يشتبهُ أحدهمَا بالآخرِ.

المتشابهُ اصطلاحًا:

المتشابهُ اصطلاحًا فِي القرآنِ الكريمِ علَى قسمينِ:

متشابهٌ عامٌّ.

متشابهٌ خاصٌّ.

فالمتشابهُ العامُّ: هوَ تماثلُ الكلامِ وتناسبهُ بحيثُ يصدِّقُ بعضهُ بعضًا.

والمتشابهُ الخاصُّ: هوَ مشابهةُ الشَّيءِ لغيرهِ منْ وجهٍ معَ مخالفتهِ لهُ منْ وجهٍ آخرَ، بحيثُ يشتبهُ علَى بعضِ النَّاسِ أنَّهُ هوَ أوْ هوَ مثلهُ.

وقدْ اختلفتْ عباراتُ المفسِّرينَ فِي تعريفِ المحكمِ والمتشابهِ منَ الآياتِ، حتَّى قالَ الإمامُ الخطَّابي رحمهُ اللهُ عنْ آيةِ آلِ عمرانَ، " مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ" [آل عمران:7]**: "هذهِ الآيةُ مشكلةٌ جدًّا وأقاويلُ المتأوِّلينَ فيهَا مختلفةٌ"**[1]**.**

(1) ((أعلام الحديث)) 1824/3.

ونكتفِي بعرضِ مَا أوردهُ إمامُ المفسِّرينَ ابنُ جريرٍ الطبريِّ رحمهُ اللهُ تعالَى مختصراً عندَ ذكرِ هذهِ الآيةِ: "فأمَّا المحكماتُ فإنَّهنَّ اللَّواتِي قدْ أُحكمنَ بالبيانِ والتَّفصيلِ، وأثبتتْ حججهنَّ وأدلَّتهنَّ علَى مَا جُعلنَ أدلَّةً عليهِ، منْ حلالٍ وحرامٍ، ووعدٍ ووعيدٍ، وثوابٍ وعقابٍ، وأمرٍ وزجرٍ، وخبرٍ ومثلٍ، وعظةٍ وعبرٍ، ومَا أشبهَ ذلكَ.

ثمَّ وصفَ جلَّ ثناؤهُ هؤلاءِ الآياتِ المحكماتِ بأنَّهنَّ هنَّ أمُّ الكتابِ، يعنِي بذلكَ أنَّهنَّ أصلُ الكتابِ الذِي فيهِ عمادُ الدِّينِ، والفرائضُ والحدودُ، وسائرُ مَا بالخلقِ إليهِ الحاجةُ منْ أمرِ دينهمْ، ومَا كلِّفُوا منَ الفرائضِ فِي عاجلهمْ وآجلهمْ، وإنَّمَا سمَّاهنَّ أمَّ الكتابِ لأنَّهنَّ معظمُ الكتابِ، وموضعُ مفزعُ أهلهُ عندَ الحاجةِ إليهِ.

وأمَّا قولهُ (مُتَشَابِهَاتٌ) فإنَّ معناهُ متشابهاتٌ فِي التِّلاوةِ، مختلفاتٌ فِي المعنَى، كمَا قالَ جلَّ ثناؤهُ: "وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً" [البقرة: 25]، يعنِي فِي المنظرِ، مختلفاً فِي المطعمِ.

وقدِ اختلفَ أهلُ التَّأويلِ فِي تأويلِ قولهِ: "مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ"، ومَا المحكمُ منْ آيِ الكتابِ؟ ومَا المتشابهُ منهُ؟

فقالَ بعضهمْ: المحكماتُ منْ آيِ القرآنِ: المعمولِ بهنَّ وهنَّ النَّاسخاتُ، أوِ المثبِّتاتُ الأحكامِ، والمتشابهاتُ منْ آيهِ: المتروكُ العملُ بهنَّ، المنسوخاتُ.

وقالَ آخرونَ: المحكماتُ منْ آيِ الكتابِ: مَا أحكمَ اللهُ فيهِ بيانَ حلالهِ وحرامهِ، والمتشابهُ منهَا: مَا أشبهَ بعضهُ بعضاً فِي المعانِي، وإنِ اختلفتْ ألفاظهُ.

وقالَ آخرونَ: المحكماتُ منْ آيِ الكتابِ: مَا لمْ يحتملْ منَ التَّأويلِ غيرَ وجهٍ واحدٍ، والمتشابهُ منهُ: مَا احتملَ منَ التَّأويلِ أوجهاً.

وقالَ آخرونَ: معنَى المُحكمِ: مَا أحكمَ اللهُ فيهِ منْ آيِ القرآنِ وقصصِ الأممِ ورسلهمْ الذينَ أرسلُوا إليهمْ، ففصَّلهُ ببيانِ ذلكَ لمحمَّدٍ ﷺ وأمَّتهِ، والمتشابهُ: هوَ مَا اشتبهتِ الألفاظُ بهِ منْ قصصهمْ عندَ التَّكريرِ فِي السُّورِ، بقَصِّهِ باتِّفاقِ الألفاظِ واختلافِ المعانِي، وبقَصِّهِ باختلافِ الألفاظِ واتِّفاقِ المعانِي.

وقالَ آخرونَ: بلِ المحكمُ منْ آيِ القرآنِ: مَا عرفَ العلماءُ تأويلهُ، وفهمُوا معناهُ وتفسيرهُ، والمتشابهُ: مَا لمْ يكنْ لأحدٍ إلَى علمهِ سبيلٌ ممَّا استأثرَ اللهُ بعلمهِ دونَ خلقهِ، وذلكَ نحوَ الخبرِ عنْ وقتِ مخرجِ عيسَى ابنَ مريمَ ووقتِ طلوعِ الشَّمسِ منْ مغربهَا، وقيامِ السَّاعةِ، وفناءِ الدُّنيَا، ومَا أشبهَ ذلكَ، فإنَّ ذلكَ لَا يعلمهُ أحدٌ..."[1].

فهذهِ خمسةُ أقوالٍ مأثورةٍ عنِ السَّلفِ فِي بيانِ المحكمِ والمتشابهِ، فصارَ الكلامُ فِي الإحكامِ والتَّشابهِ يدورُ حولَ خمسةِ متعلِّقاتٍ:

1) النَّسخُ.
2) الحلالُ والحرامُ.
3) احتمالُ المعانِي.
4) القصصُ والأخبارُ.
5) حقائقُ المعانِي الغيبيَّةِ.

وقبلَ أنْ نُبيِّنَ وجهَ الإحكامِ والتَّشابهِ فِي هذهِ الأمورِ، نتعرَّفُ أوَّلًا علَى معنَى الإحكامِ والتَّشابهِ منْ حيثُ استعمالهمَا فِي القرآنِ الكريمِ.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنِ تيميةَ رحمهُ اللهُ تعالَى: (... إنَّ اللهَ وصفَ القرآنَ كلَّهُ بأنَّهُ محكمٌ وبأنَّهُ متشابهٌ، وفِي موضعٍ آخرٍ جعلَ منهُ مَا هوَ محكمٌ ومنهُ مَا هوَ متشابهٌ، فينبغِي أنْ يُعرفَ الإحكامُ والتَّشابهُ الذِي يعمُّهُ، والإحكامُ والتَّشابهُ الذِي يخصُّ بعضهُ، قالَ تعالَى: "الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ"[هود:1]، فأخبرَ أنَّهُ أحكمَ آياتهُ كلَّهَا، وقالَ تعالَى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ"[الزمر: 23]، فأخبرَ أنَّهُ كلُّه متشابهٌ.

والحكمُ هوَ الفصلُ بينَ الشيئينِ، والحاكمُ يفصلُ بينَ الخصمينِ، والحكمةُ فصلٌ بينَ المشتبهاتِ علماً وعملاً، إذَا ميَّزَ بينَ الحقِّ والباطلِ، والصِّدقِ والكذبِ، والنَّافعِ والضَّارِ. وذلكَ يتضمَّنُ فعلَ النَّافعِ وتركِ الضَّارِ، فيُقالُ: حكمتُ السفيهَ، وأحكمتهُ إذَا أخذتَ علَى يديهِ، وحكمتُ الدَّابةَ وأحكمتهَا إذَا جعلتَ لهَا حكَمَةً، وهوَ مَا أحاطَ الحنكَ منَ اللِّجامِ، وإحكامُ الشَّيءِ إتقانهُ، فإحكامُ الكلامِ: إتقانهُ بتمييزِ الصِّدقِ منَ الكذبِ فِي أخبارهِ، وتمييزِ الرُّشدِ منَ الغيِّ فِي أوامرهِ.

والقرآنُ كلُّهُ محكمٌ بمعنَى الإتقانِ، فقدْ سمَّاهُ اللهُ حكيماً بقولهِ: "الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ"[يونس: 1].

وأمَّا التَّشابهُ الذِي يعمُّهُ فهوَ ضدُّ الاختلافِ المنفيِّ عنهُ فِي قولهِ: "أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا"[النساء: 82]، وهوَ الاختلافُ المذكورُ

فِي قولـهِ: "إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ" [الذاريات: 8-9] فالتَّشابهُ هنَا هوَ تماثلُ الكلامِ وتناسبهُ، بحيثُ يصدِّقُ بعضهُ بعضاً.

وهذَا التَّشابهُ العامُ لَا ينافِي الإحكامَ، بلْ هوَ مصدِّق لهُ، فإنَّ الكلامَ المحكمَ المتقنَ يصدِّقُ بعضهُ بعضهُ، لَا يناقضُ بعضهُ بعضاً، بخلافِ الإحكامِ الخاصِ، فإنَّهُ ضدُّ التَّشابهِ الخاصِ. فالتَّشابهُ الخاصُّ هوَ مشابهةُ الشَّيءِ لغيرهِ منْ وجهٍ معَ مخالفتهِ لهُ منْ وجهٍ آخرَ، بحيثُ يشتبهُ علَى بعضِ النَّاسِ أنَّهُ هوَ أوْ هوَ مثلهُ، وليسَ كذلكَ.

والإحكامُ هوَ الفصلُ بينهمَا بحيثُ لَا يشتبهُ أحدهمَا بالآخرِ. وهذَا التَّشابهُ إنَّمَا يكونُ لقدرٍ مشتركٍ بينَ الشَّيئينِ معَ وجودِ الفاصلِ بينهمَا.

ثمَّ منَ النَّاسِ منْ لَا يهتدِي للفصلِ بينهمَا، فيكونُ مشتبهاً عليهِ، ومنهمْ منْ يهتدِي إلَى ذلكَ، فالتَّشابهُ الذِي لَا تمييزَ معهُ قدْ يكونُ منَ الأمورِ النِّسبيَّةِ الإضافيةِ، بحيثُ يشتبهُ علَى بعضِ النَّاسِ دونَ بعضٍ، ومثلَ هذَا يعرفُ منهُ أهلُ العلمِ مَا يزيلُ عنهمْ هذَا الاشتباهَ، كمَا إذَا اشتبهَ علَى بعضِ النَّاسِ مَا وعدُوا بهِ فِي الآخرةِ بمَا يشهدونهُ فِي الدُّنيَا فظنَّ أنَّهُ مثلهُ، فعلمَ العلماءُ أنَّهُ ليسَ هوَ مثلهُ، وإنْ كانَ مشبهاً لهُ منْ بعضِ الوجوهِ)[2].

(1) ((جامع البيان عن تأويل آي القرآن)).

(2) ((التدمرية)) (ص: 102-106) باختصار.

ويتبيَّنُ منْ هذَا العرضِ أنَّ الإحكامَ والتَّشابهَ المتعلِّقَانَ بالقرآنِ أربعةُ أنواعٍ:

1) الإحكامُ العامُّ: بمعنَى الإتقانِ فِي أخبارِهِ وأحكامِهِ.

2) التَّشابهُ العامُّ: هوَ تماثلُهُ وتناسبُهُ وتصديقُ بعضهُ بعضاً.

3) التَّشابهُ الخاصُّ: وهوَ مشابهةُ الشَّيءِ لغيرِهِ منْ وجهٍ، ومخالفتهِ لهُ منْ وجهٍ آخرَ.

4) الإحكامُ الخاصُّ: الفصلُ بينَ الشَّيئينِ المشتبهينِ منْ وجهٍ، المختلفينِ منْ وجهٍ آخرَ.

فالأوَّلُ والثَّانِي متَّفقانِ، والثَّالثُ والرَّابعُ متضادَّانِ[1].

فالمحكمُ هوَ الذِي اتَّضحَ معناهُ وتبيَّنَ، والمتشابهُ هوَ الذِي يخفَى معناهُ، فلَا يعلمهُ النَّاسُ، وهذَا إذَا جُمعَ بينَ المحكمِ والمتشابهِ، وأمَّا إذَا ذُكرَ المحكمُ مفرداً دونَ المتشابهِ، فمعناهُ المتقنُ الذِي ليسَ فيهِ خللٌ: لَا كذبَ فِي أخبارِهِ، ولَا جورَ فِي أحكامهِ، قالَ تعالَى: "وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً"[الأنعام: 115]، وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى الإحكامَ فِي القرآنِ دونَ المتشابهِ، وذلكَ مثلَ قولهِ تعالَى: "تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ"[يونس: 1]، وقالَ تعالَى: "كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ"[هود: 1]. وإذَا ذكرَ المتشابهَ دونَ المحكمِ صارَ المعنَى أنَّهُ يشبهُ بعضهُ بعضاً فِي جودتهِ وكمالهِ، ويصدِّقُ بعضهُ بعضاً ولَا يتناقضُ، قالَ تعالَى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ"[الزمر: 23]، والتَّشابهُ نوعانِ: تشابهٌ نسبيٌّ، وتشابهٌ مطلقٌ، والفرقُ بينهمَا: أنَّ المطلقَ يخفَى علَى كلِّ أحدٍ، والنِّسبِي يخفَى علَى أحدٍ دونَ أحدٍ، وبناءً علَى هذَا التَّقسيمِ ينبنِي الوقفُ فِي قولهِ تعالَى:

"وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا"[آل عمران: 7]، فعلَى الوقوفِ علَى (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ) يكونُ المرادُ بالمتشابهِ أيْ المتشابهُ المطلقِ، وعلَى الوصلِ فِي قولهِ تعالَى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) يكونُ المرادُ بالمتشابهِ أيْ المتشابهُ النِّسبيُّ، وللسَّلفِ فِي ذلكَ قولانِ: القولُ الأوَّلُ: الوقفُ علَى قولهِ تعالَى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ)، وعليهِ أكثرُ السَّلفِ، وعلَى هذَا، فالمرادُ بالمتشابهِ المتشابهُ المطلقُ الذِي لَا يعلمهُ إلَّا اللهُ تعالَى، وذلكَ مثلَ كيفيَّةِ وحقائقِ صفاتِ اللهِ تعالَى، وحقائقِ مَا أخبرَ اللهُ تعالَى بهِ منْ نعيمِ الجنَّةِ وعذابِ النَّارِ، قالَ اللهُ تعالَى فِي نعيمِ الجنَّةِ: "فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ"[السجدة: 17]، أيْ: لَا تعلمُ حقائقَ ذلكَ، ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ: ليسَ فِي الجنَّةِ شيءٌ ممَّا فِي الدُّنيَا إلَّا الأسماءُ(2).

والقولُ الثَّانِي: الوصلُ، فيقرأُ: "وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ"[آل عمران:7]، وعلَى هذَا، فالمرادُ بالمتشابهِ المتشابهُ النِّسبِي، وهذَا يعلمهُ الرَّاسخونَ فِي العلمِ ويكونُ عندَ غيرهمْ متشابهاً، ولهذَا يُروَى عنِ ابنِ عباسٍ أنَّهُ قالَ: "أنَا منَ الرَّاسخينَ الذينَ يعلمونَ تأويلهُ"(3)، ولمْ يقلْ رضيَ اللهُ تعالَى عنهُ هذَا مدحاً لنفسهِ أوْ ثناءً عليهَا، ولكنْ ليعلمَ النَّاسُ أنَّهُ ليسَ فِي كتابِ اللهِ تعالَى شيءٌ لَا يُعرفُ معناهُ، فالقرآنُ معانيهِ بيِّنةٌ، لكنْ بعضُ القرآنِ يشتبهُ علَى ناسٍ دونَ آخرينَ، حتَّى العلماءُ الرَّاسخونَ فِي العلمِ يختلفونَ فِي معنَى القرآنِ، وهذَا يدلُّ علَى أنَّهُ خفيَ علَى بعضهمْ، والصَّوابُ بلَا شكٍّ معَ أحدهمْ، هذَا إذَا كانَ اختلافهمْ اختلافُ تضادٍ لَا اختلافَ تنوُّعٍ، أمَّا إذَا كانتِ الآيةُ تحتملُ المعنيينِ

جميعاً بلَا منافاةٍ ولَا مرجِّحٍ لأحدهمَا، فإنَّهَا تُحملُ عليهمَا جميعاً، وبعضُ أهلِ العلمِ يظنُّونَ أنَّ فِي القرآنِ مَا لَا يمكنُ الوصولُ إلَى معناهُ، فيكونُ منَ المتشابهِ المطلقِ، ويحملونَ آياتِ الصِّفاتِ علَى ذلكِ، وهذَا كلامٌ فيهِ نظرٌ، إذْ ليسَ منَ المعقولِ أنْ يقولَ اللهُ تعالَى: "كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ"[ص: 29]، ثمَّ نستثنِي آياتِ الصِّفاتِ وهيَ أعظمُ وأشرفُ موضوعٍ، وأكثرُ منْ آياتِ الإحكامِ، ولوْ قلنَا بهذَا القولِ، لكانَ مقتضاهُ أنَّ أشرفَ مَا فِي القرآنِ موضوعاً يكونُ خفياً، ويكونَ معنَى قولهِ تعالَى: "لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ"، أيْ: آياتِ الإحكامِ فقطْ، وهذَا غيرُ معقولٍ، بلْ جميعُ القرآنِ يفهمُ معناهُ، إذْ لَا يمكنُ أنْ تكونَ هذهِ الأمَّةُ منْ رسولِ اللهِ ﷺ إلَى آخرهَا لَا تفهمُ معنَى القرآنِ، وعلَى رأيهمْ يكونُ الرَّسولُ ﷺ وأبُو بكرٍ وعمرَ وجميعُ الصَّحابةِ يقرؤونَ آياتِ الصِّفاتِ وهمْ لَا يفهمونَ معناهَا، بلْ هيَ عندهمْ بمنزلةِ الحروفِ الهجائيَّةِ أ، ب، ت، والصَّوابُ أنَّهُ ليسَ فِي القرآنِ شيءٌ متشابهٌ علَى جميعِ النَّاسِ منْ حيثُ المعنَى، ولكنَّ الخطأَ فِي الفهمِ فقدْ يقصرُ الفهمُ عنْ إدراكِ المعنَى أوْ يفهمهُ علَى معنًى خطئٍ، وأمَّا بالنِّسبةِ للحقائقِ، فمَا أخبرَ اللهُ بهِ منْ أمرِ الغيبِ، فمتشابهٌ علَى جميعِ النَّاسِ(4)(5).

---

(1) مذهب أهل التفويض في نصوص الصفات لأحمد بن عبدالرحمن القاضي – ص 298.
(2) رواه الطبري في تفسيره (392/1)، وابن أبي حاتم في تفسيره (66/1)، وأبو نعيم في ((صفة الجنة)) (119)، وابن حزم في ((الفصل)) (86/2)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (77/4)، والبيهقي في ((البعث والنشور)) (322). قال ابن حزم: هذا سند غاية في الصحة. وقال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (408/4): رواه البيهقي موقوفاً بإسناد جيد. وقال الألباني في ((صحيح الجامع)) (5410): صحيح.
(3) رواه ابن كثير من طريق ابن أبي نجيح ، عن مجاهد.
(4) القول المفيد على كتاب التوحيد لمحمد بن صالح بن عثيمين.
(5) مقتبس من موقع الدرر السنية.

واختصرَ الشَّيخُ السَّعدِي كلَّ هذَا فِي كتابهِ القواعدُ الحسانُ، وقالَ: القرآنُ كُلّهُ مُحكمٌ باعتبارٍ، وكُلّهُ متشابهٌ باعتبارٍ، وبعضهُ مُحكمٌ وبعضهُ مُتشابهٌ باعتبارٍ ثالثٍ، وقدْ وصفهُ اللهُ تعالَى بكلِّ واحدةٍ مِنْ هذهِ الأوصافِ الثلاثِ؛ فوصفهُ بأنّهُ مُحكمٌ في عِدّة آياتٍ، وأنّهُ: "أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ"[هود: 1]، ومعنَى ذلكَ أنّهُ غايةٌ فِي الإحكامِ وقوّةِ الاتِّساقِ، وأنّهُ بالغٌ فِي الحكمةِ أقصَى غايةٍ، فأخبارهُ كُلّهَا حَقٌّ وصِدقٌ، لَا تناقضَ فيهَا ولَا اختلافَ، وأوامرهُ كُلّهَا خيرٌ وهدىً وبركةٌ وصلاحٌ، ونواهيهِ عَنْ كلِّ مَا يعودُ علَى الإنسانِ بالشّرورِ والأضرارِ والأخلاقِ الرَّذيلةِ والأعمالِ السّيئةِ فهذَا إحكامهُ.

ووصفهُ بأنّهُ مُتشابهٌ فِي قولهِ مِنْ سورةِ الزُّمرِ: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً"[الزمر:23] أيْ: متشابهاً فِي الحُسنِ والصِّدقِ والهدَى والحقِّ، ووروده بالمعانِي النّافعةِ المُزكِّيَةِ للعقولِ، المُطهِّرةِ للقلوبِ، المُصلحةِ للأحوالِ، فألفاظهُ أحسنُ الألفاظِ ومعانيهِ أحسنُ المعانِي.

ووصَفهُ بأنَّ: "مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ"[آل عمران: 7]، فهنَا وصفهُ بأنَّ بعضهُ هكذَا وبعضهُ هكذا، وأنَّ أهلَ العلمِ بالكتاب يَردّونَ المُتشابهَ منهُ إلَى المُحكَمِ، فيصيرُ كلّهُ مُحكَماً ويقولونَ: "كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا"[آل عمران: 7] أيْ: ومَا كانَ مِنْ عندهِ فلَا تناقضَ فيهِ، فمَا اشتَبهَ منهُ فِي موضعٍ، فسَّرَهُ الموضعُ الآخرُ المُحكَمُ، فحصلَ العلمُ وزالَ الإشكالُ.

---

(1) القواعد الحسان للسَّعدي.

ثمَّ قالَ الإمامُ السَّعديُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: معيَّةُ اللهِ التِي ذكرهَا فِي كتابِهِ، نوعانِ:

معيَّةُ العلمِ والإحاطةِ، وهيَ: المعيَّةُ العامَّةُ، فإنَّهُ معَ عبادهِ أينمَا كانُوا.

ومعيَّةٌ خاصَّةٌ، وهيَ: معيَّتهُ معَ خواصِّ خلقهِ بالنُّصرةِ، واللُّطفِ، والتَّأييدِ.

~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى معيَّتهُ فِي كتابِهِ العزيزِ علَى قسميهَا العامةِ والخاصَّةِ فِي عديدٍ منَ المواضعِ وقالَ تعالَى:

"هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" [الحديد: 4].

وقالَ سبحانهُ: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" [المجادلة: 7].

وقالَ جلَّ جلالهُ: "يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً" [النساء: 108].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: "إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ

تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [التوبة: 40].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: "قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ" [الشعراء: 62].

المعنَى اللُّغوِي للمعيَّةِ:

المعيَّةُ نسبةً إِلَى لفظِ: (مع)، وهوَ لفظٌ يقتضِي الاجتماعَ فِي المكانِ، أوِ الزَّمانِ، أوِ الشَّرفِ أوِ الرُّتبةِ، كمَا يقتضِي النُّصرةَ.

يقولُ الرَّاغبُ الأصفهانِي: (مع) يقتضِي الاجتماعَ إمَّا فِي المكانِ نحوَ همَا معًا فِي الدَّارِ، أوْ فِي الزَّمانِ نحوَ ولدَا معًا، أوْ فِي المعنَى كالمتضايفينِ نحوَ الأخُ ... فإنَّ أحدهمَا صارَ أخًا للآخرِ فِي حالِ صارَ الآخرُ أخاهُ، وإمَّا فِي الشَّرفِ والرُّتبةِ نحوَ: همَا معًا فِي العلوِّ[1].

المعنَى الاصطلاحِي للمعيَّةِ:

تُستعملُ (مع) للمصاحبةِ بينَ أمرينِ لَا يقعُ بينهمَا مصاحبةٌ واشتراكٌ إلَّا فِي حكمٍ يجمعُ بينهمَا، ولذلكَ لَا تكونُ الواوُ التِي بمعنَى معَ إلَّا بعدَ فعلٍ لفظًا أوْ تقديرًا لتصحَّ المعيَّةُ.

وكمالُ معنَى المعيَّةِ الاجتماعُ فِي الأمرِ الذِي بهِ الاشتراكُ...

فالأوَّلُ: يكثرُ فِي أفعالِ الجوارحِ والعلاجِ نحوَ دخلتُ معَ زيدٍ وانطلقتُ معَ عمرٍو وقمنَا معًا ومنهُ قولهُ تعالَى:" وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ" [يوسف: 36].

والثَّانِي: يكثرُ فِي الأفعالِ المعنويَّةِ نحوَ آمنتُ معَ المؤمنينَ وتبتُ معَ التَّائبينَ وفهمتُ المسألةَ معَ منْ فهمهَا، ومنهُ قولهُ تعالَى: "يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ" [آل عمران: 43](2)، **وقولهُ تعالَى: "قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"**[النمل: 44].

المعيَّةُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ الأداةُ (مع) فِي القرآنِ الكريمِ (164) مرَّةً(3)**، والمواضعُ التِي وردتْ متعلِّقةً بالمعيَّةِ الإلهيَّةِ بلغَ عددَ ورودهَا (38) مرَّةً.**

وليسَ لهَا إلَّا صيغةٌ واحدةٌ (مع).

وجاءتْ معيَّةُ اللهِ تعالَى فِي القرآنِ علَى ثلاثةِ وجوهٍ (4)**:**

الأوَّلُ: العلمُ والإحاطةُ: ومنهُ قولهُ تعالَى:" يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ"[النساء: 108]، **يعنِي: عالمٌ بهمْ ومحيطٌ بفعلهمْ.**

الثَّانِي: النَّصرُ والرِّعايةُ: ومنهُ قولهُ تعالَى:"إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا"[التوبة: 40]، **يعنِي: ينصرنَا ويحفظنَا ويرعانَا.**

الثَّالثُ: الاقترانُ: ومنهُ قولهُ تعالَى:"فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ"[الشعراء: 213].

(1) المفردات ص 470.
(2) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص 771 - وبصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي 372/3.
(3) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص772،- و المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الياء ص1437 - 1439.
(4) انظر: الوجوه والنظائر،للدامغاني، ص 428 – 429، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص562.

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ:

الحفظُ لغةً:

دارتْ كلمةُ الحفظِ علَى معانِي الرِّعايةِ، وعدمِ النِّسيانِ، والتَّعهُّدِ، وقلَّةِ الغفلةِ، وعدمِ الضَّياعِ، والضَّبطِ، والمواظبةِ، تقولُ كتبُ اللُّغةِ: الحاءُ والفاءُ والظَّاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ علَى مراعاةِ الشَّيءِ، يقالُ: حفظتُ الشَّيءَ حفظًا، قالَ اللَّيثُ: الحفظُ: نقيضُ النِّسيانِ، وهوَ التَّعاهدُ وقلَّةُ الغفلةِ[1].

الحفظُ اصطلاحًا:

يقالُ: تارةً لهيئةِ النَّفسِ التِي بهَا يثبتُ مَا يؤدِّي إليهِ الفهمُ، وتارةً لضبطِ الشَّيءِ فِي النَّفسِ، ويضادهُ النِّسيانُ، وتارةً لاستعمالِ تلكَ القوَّةِ، فيُقالُ: حفظتُ كذَا حفظًا، ثمَّ يُستعملُ فِي كلِّ تفقُّدٍ وتعهُّدٍ ورعايةٍ[2].

أوْ هوَ كمَا عرَّفهُ الجرجانيُّ: ضبطُ الصُّورِ المُدركةِ[3].

أوْ هوَ: رعايةُ العملِ علمًا وهيئةً ووقتًا وإقامةً بجميعِ مَا يحصلُ بهِ أصلهُ، ويتمُّ بهِ عملهُ وينتهِي إليهِ كمالهُ[4].

الصِّلةُ بينَ الحفظِ والمعيَّةِ:

واضحٌ منْ خلالِ التَّتبُّعِ للمادةِ اللُّغويَّةِ ودوارنِهَا فِي اللِّسانِ العربيِّ العلاقةُ بينهَا وبينَ المعيَّةِ، فالحفظُ يشتركُ معَ المعيَّةِ فِي الرِّعايةِ والتَّعهُدِ والمصاحبةِ والضَّبطِ، وهيَ معانٍ موجودةٌ فِي المعيَّةِ فِي جانبهَا الاصطلاحيِّ.

---

(1) انظر: العين، الفراهيدي 3/ 199، تهذيب اللغة، الأزهري 4/ 265، مقاييس اللغة، ابن فارس 2/ 87.
(2) المفردات، الراغب الأصفهاني ص 244.
(3) التعريفات ص 79.
(4) التوقيف على مهمات التعاريف ص 297.

المصاحبةُ:

المصاحبةُ لغةً: المصاحبةُ والصُّحبةُ تدلُّ علَى معانِي الحفظِ والملازمةِ، والموافقةِ والمشاركةِ، فالمصاحبةُ: الموافقةُ والمشاركةُ فِي الشَّيءِ، يقالُ: صحبهُ اللهُ وأصحبهُ وصاحبهُ أي: حفظهُ، وقالَ أبُو عبيدةَ: وقولهُ جلَّ ثناؤهُ:"وَلَاهُم مِّنَّا يُصْحَبُوْنَ" [الأنبياء: 43]**.**

أي: لَا يُحفظونَ ومنهُ قولهمْ: لَا صَحبهُ اللهُ، أي: لَا حفظهُ. ويقالُ: بأهلهِ صحبةُ اللهِ وصاحبهُ أي: حفظهُ، وتقولُ: أصحبتُ الرَّجلَ إذَا اتَّبعتهُ منقادًا فأنَا مصحِبٌ والرَّجلِ مصحَبٌ، وصاحبتهُ إذَا رافقتهُ فهوَ مصحوبٌ[1]. كمَا تدلُّ علَى المنعةِ، والحمايةِ[2].

المصاحبةُ اصطلاحًا:

الموافقةُ والمشاركةُ فِي الشَّيءِ، فإنْ تتابعُوا معَ ملاقاةٍ واجتماعٍ، فأصحابٌ حقيقةً، وإنْ لَا فمجازٌ[3].

الصِّلةُ بينَ المصاحبةِ والمعيَّةِ:

المصاحبةُ واضحٌ فيهَا معنَى المعيَّةِ، كمَا أنَّ المشاركةَ فيهَا شيءٌ منَ الدَّلالةِ علَى العونِ والنُّصرةِ، وهيَ المعانِي ذاتهَا التِي دارتْ عليهَا مفردةُ المعيَّةِ.

---

(1) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد 280/1 - التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص 307.

(2) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري 4/ 154 - الصحاح، الجوهري 1/ 162.

(3) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص 307.

أنواعُ معيَّةِ اللهِ تعالَى لعبادهِ:

الرَّاصدُ لآياتِ القرآنِ الكريمِ فِي المعيَّةِ والمتتبِّعِ لهَا يجدُ أنَّهَا تدورُ حولَ قطبينِ أساسيينِ أوْ محورينِ رئيسينِ وهمَا: معيَّةٌ عامَّةٌ، ومعيَّةٌ خاصَّةٌ، فالمعيَّةُ العامَّةُ لعمومِ الخلقِ، والمعيَّةُ الخاصَّةُ يتميَّزُ بهَا بعضُ عبادِ اللهِ تعالَى بشروطٍ محدَّدةٍ، مقرونةٍ بصفاتٍ مبيَّنةٍ.

والمعيَّةُ لهَا دلالتانِ، معيَّةٌ بالذَّاتِ، ومعيَّةٌ بالصِّفاتِ، ومعيَّةُ اللهِ تعالَى لعبادهِ المقصودةُ معيَّةٌ بالصِّفاتِ لإجماعِ المسلمينَ سلفًا وخلفًا علَى أنَّ معيَّةَ الذَّاتِ غيرُ مرادةٍ، وإنَّمَا المرادُ معيَّتهُ تعالَى بصفاتهِ اللَّائقةِ بمعنَى المعيَّةِ، كالعلمِ والحفظِ والنُّصرةِ ونحوهَا(1).

ويمكننَا أنْ نتتبَّعَ هذينِ النَّوعينِ علَى النَّحوِ الآتِي:

أوَّلًا: معيَّةٌ عامَّةٌ:

والمعيَّةُ العامَّةُ تكونُ لعمومِ الخلقِ وهيَ بالرِّزقِ والعلمِ والتَّدبيرِ، ممَّا يليقُ بهِ تعالَى ويصلحُ للخلقِ عامَّةً، وقدْ وردتْ آياتٌ كريمةٌ تؤكِّدُ هذَا المعنَى، ومنهَا قولهُ تعالَى: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" [المجادلة: 7]**.**

والمعنَى: أنَّهُ لَا يتناجَى ثلاثةٌ فيمَا بينهمْ، ولَا يتكلَّمونَ فيمَا بينهمْ بكلامِ الشَّرِّ إلَّا هوَ رابعهمْ، لأنَّهُ يعلمُ مَا يقولونَ فيمَا بينهمْ، "ولَا خمسةٌ إلَّا هوَ سادسهمْ" يعنِي: كانَ هوَ سادسهمْ، لأنَّهُ يعلمُ مَا يقولونَ فيمَا بينهمْ، ولَا أدنَى منْ ذلكَ

ولَا أكثرَ إلَّا هوَ معهمْ يعنِي: عالمٌ بهمْ وبأحوالهمْ أينَ مَا كانُوا فِي الأرضِ، "ثمَّ ينبِّئهمْ بمَا عملُوا" يعنِي: يخبرهمْ بمَا عملُوا يومَ القيامةِ منْ خيرٍ أوْ شرٍّ(2).

ويسمعُ سرَّهمْ ونجواهمْ، لَا يخفَى عليهِ شيءٌ منْ أسرارهمْ (وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ) يقولُ: ولَا يكونُ منْ نجوَى خمسةٌ إلَّا هوَ سادسهمْ كذلكَ (وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ) يقولُ: ولَا أقلَّ منْ ثلاثةٍ (وَلَآ أَكْثَرَ) منْ خمسةٍ (إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ) إذَا تناجُوا (أَيْنَ مَا كَانُوا) يقولُ: فِي أيِّ موضعٍ ومكانٍ كانُوا، وعنَى بقولِهِ: (هُوَ رَابِعُهُمْ) بمعنَى أنَّهُ مشاهدهمْ بعلمهِ، وهوَ علَى عرشه(3).

وقالَ أهلُ المعانِي: يريدُ قربهُ بالعلمِ(4) لَا بالذَّاتِ.

ومعنَى كونهُ معهمْ: أنَّهُ يعلمُ مَا يتناجونَ بهِ ولَا يخفَى عليهِ مَا همْ فيهِ، فكأنَّهُ مشاهدهمْ ومحاضرهمْ، وقدْ تعالَى عنِ المكانِ والمشاهدةِ(5).

ومنْ لطائفِ الشَّيخِ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى ربطهُ البديعُ بينَ صدرِ الآيةِ وعجزهَا، واستنباطهِ لهذَا المعنَى اللَّطيفِ فِي المعيَّةِ وهيَ أنَّ هذهِ المعيَّةَ، معيَّةُ العلمِ والاطِّلاعِ، ولهذَا توعَّدَ ووعدَ علَى المجازاةِ بالأعمالِ بقولهِ: (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) أيْ: هوَ تعالَى بصيرٌ بمَا يصدرُ منكمْ منَ الأعمالِ، ومَا صدرتْ عنهُ تلكَ الأعمالُ، منْ برٍّ وفجورٍ، فمجازيكمْ عليهَا، وحافظهَا عليكمْ(6).

فمعيَّةُ اللهِ تعالَى العامَّةُ للنَّاسِ معيَّةُ علمٍ واطِّلاعٍ وانكشافٍ ومشاهدةٍ.

(1) انظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبدالستار سعيد ص 29.
(2) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٤١٦، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين 3/ 359.
(3) جامع البيان، الطبري 22/ 468.
(4) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي 1/ 284 - أنوار التنزيل، البيضاوي 5/ 194 - تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 845.
(5) انظر: الكشاف، الزمخشري 4/ 490 زاد المسير، ابن الجوزي 4/ 245.
(6) تيسير الكريم الرحمن ص 838.

ثانيًا: معيَّةٌ خاصَّةٌ:

فإنْ كنَّا قدْ عرَّفنَا المعيَّةَ العامَّةَ التِي تعنِي العلمَ والإحاطةَ، والرِّزقَ والتَّدبيرَ والرِّعايةَ، فإنَّ هناكَ معيَّةٌ أخرَى خاصَّةٌ يمنحهَا اللهُ تعالَى لعبادهِ المؤمنينَ الذينَ استجمعُوا صفاتٍ يحبُّهَا اللهُ تعالَى ويدعُو إليهَا، وهيَ عندئذٍ تعنِي النَّصرَ، والمعونةَ، والتَّأييدَ، والرِّعايةَ، والرَّحمةَ، والعنايةَ، أوْ رفعَ الدَّرجاتِ أوْ تكفيرَ السَّيِّئاتِ، أوِ الإكرامَ فِي الحياةِ، ونحوِ ذلكَ ممَّا يمنُّ بهِ اللهُ تعالَى علَى عبادهِ الصالحينَ، وتنوَّعَ ورودُ هذَا اللَّونِ منَ المعيَّةِ فِي القرآنِ الكريمِ، كمَا سيأتِي، كمَا أنَّ هؤلاءِ المكرمينَ المُنعمِ عليهمْ بهذهِ المعيَّةِ الخاصَّةِ أصنافٌ عدَّةٌ، منهَا:

معيَّتهُ تعالَى للملائكةِ عليهمُ الصَّلاةُ السَّلامُ.
معيَّتهُ تعالَى لعبادهِ المؤمنينَ.
معيَّتهُ تعالَى للأنبياءِ عليهمْ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

1) معيَّةُ اللهِ تعالَى للملائكةِ:

والمعيَّةُ هنَا معيَّةُ الإعانةِ والنَّصرِ والتَّثبيتِ والتَّأييدِ، كمَا قالَ تعالَى: "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ" [الأنفال: 12].

يعنِي: أَلْهَمَ ربُّكَ الملائكةَ، (أَنِّي مَعَكُمْ) أيْ: معينكمْ وناصركمْ، (فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) يعنِي: بشِّرُوا المؤمنينَ بالنُّصرةِ، فكانَ الملكُ يمشِي أمامَ الصفِّ فيقولُ: أبشرُوا فإنكمْ كثيرٌ وعدوُّكمْ قليلٌ، واللهُ تعالَى ناصركمْ[1].

وإيحاءُ الملائكةِ إلَى المؤمنينَ، إمَّا أنْ يكونَ عنْ طريقِ الظُّهورِ المباشرِ فِي صورةِ رجالٍ، وإمَّا عنْ طريقِ الإلهامِ، يقولُ القشيريُّ فِي لطائفهِ: قيلَ كانُوا يظهرونَ للمسلمينَ فِي صورِ الرِّجالِ يخاطبونهمْ بالإخبارِ عنْ قلَّةِ عددِ المشركينَ واستيلاءِ المسلمينَ عليهمْ، وهمْ لَا يعرفونَ أنَّهمْ ملائكةٌ،

وقيلَ: تثبيتهمْ إيَّاهمْ بأنْ كانُوا يلقونَ فِي قلوبهمْ ذلكَ منْ جهةِ الخواطرِ، ثمَّ إنَّ اللهَ يخلقُ لهمْ فيهَا ذلكَ، فكمَا يوصلُ الحقُّ سبحانهُ وساوسَ الشَّيطانِ إلَى القلوبِ يوصلُ خواطرَ الملكِ، وأيَّدهمْ بإلقاءِ الخوفِ والرُّعبِ فِي قلوبِ الكفَّارِ[2].

وإلقاءِ الرُّعبِ فِي نفوسِ المشركينَ فيهِ نصرٌ للمؤمنينَ وتأييدٌ لهمْ، فلَا معونةَ أعظمُ منْ إلقاءِ الرُّعبِ فِي قلوبِ الكفرةِ ولَا تثبيتَ أبلغُ منْ ضربِ أعناقهمْ، واجتماعهمَا غايةُ النُّصرةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ غيرَ تفسيرٍ، وأنْ يرادَ بالتَّثبيتِ أنْ يُخطِرُوا ببالهمْ مَا تقوَى بهِ قلوبهمْ وتصحَّ عزائمهمْ ونيَّاتهمْ فِي القتالِ، وأنْ يظهرُوا مَا يتيقَّنونَ بهِ أنَّهمْ ممدُّونَ بالملائكةِ[3].

أوْ يكونَ التَّثبيتُ بحضورهمْ معهمُ الحربَ وتكثيرِ سوادهمْ، أوْ محاربتهمْ معهمْ، أوْ طمأنتهمْ وقولهمْ لَا بأسَ عليكمْ ولَا خوفَ منْ عدوِّكمْ، فكانَ الملكُ يسيرُ أمامَ الصفِّ فِي صورةِ الرَّجلِ ويقولُ: سيرُوا فإنَّ اللهَ ناصركمْ؛ ويظنُّ المسلمونَ أنَّهُ منهمْ[4].

---

(1) تفسير السمرقندي 2/ 11.

(2) انظر: طائف الإشارات، القشيري 1/ 607 - زاد المسير، ابن الجوزي 2/ 193.

(3) انظر: الكشاف، الزمخشري 2/ 204 - معالم التنزيل، البغوي 3/ 3330

(4) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 378/7.

2) معيَّةُ اللهِ تعالَى للمؤمنينَ:

وقدْ وردتْ آياتُ القرآنِ الكريمِ تبيِّنُ معيَّةَ اللهِ تعالَى الخاصَّةِ لعبادِهِ المؤمنينَ الذينَ لهمْ صفاتٌ تؤهِّلهمْ لهذهِ المعيَّةِ مثلَ الصَّبرِ والإحسانِ والتَّقوَى ونحوِ ذلكَ منَ الصِّفاتِ التِي تعينهمْ علَى أنْ يكونُوا أهلًا لمعيَّةِ الملكِ سبحانهُ، ومنْ هذهِ الآياتِ قولهُ تعالَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ"[البقرة: 153].

ومعنَى المعيَّةِ هنَا النَّصرُ والمعونةُ، والمظاهرةُ، فإنَّ منْ كانَ اللهُ تعالَى معهُ فهوَ ناصرهُ وظهيرهُ وراضٍ بفعلهِ، كقولِ القائلِ: "افعلْ يَا فلانَ كذَا وأنَا معكَ"، يعنِي: إنِّي ناصركَ علَى فعلكَ ذلكَ ومعينكَ عليهِ(1).

وعلَى الرُّغمِ منْ أنَّ اللهَ تعالَى معَ كلِّ أحدٍ معيَّةً عامَّةً إلَّا أنَّهُ معَ الصَّابرينَ معيَّةً خاصَّةً، وقدْ خصَّهمْ بالمعيَّةِ حتَّى يعلمُوا أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالَى بمعيَّتهِ لهمْ يفرِّجُ عنهمْ، وينصرهمْ، لقدِ استوجبُوا نهايةَ الذُّخرِ، وعلُوِّ القدرِ حيثُ نالُوا معيَّةَ اللهِ تعالَى(2).

قالَ الإمامُ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي شرحِ حديثِ النُّزولِ: لفظُ المعيَّةِ فِي كتابِ اللهِ جاءَ عامًّا كمَا فِي قولهِ تعالَى:" هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"[الحديد: 4]، وفِي قولهِ: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ

وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" [المجادلة: 7]، إِلَى قولهِ: "إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُواْ".

وجاءَ خاصًّا كمَا فِي قولهِ: "إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ" [النحل: 128].

وقولهِ: "قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ" [طه: 46].

وقولهِ: "إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [التوبة: 40].

فلوْ كانَ المرادُ بذاتهِ معَ كلِّ شيءٍ لكانَ التَّعميمُ يناقضُ التَّخصيصَ، فإنَّهُ قدِ علمَ أنَّ قولهُ: "لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا" أرادَ بهِ تخصيصَ نفسهِ وأبَا بكرٍ دونَ عدوِّهمْ منَ الكفَّارِ.

وكذلكَ قولهُ: "إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ" خصَّهمْ بذلكَ دونَ الظَّالمينَ والفجَّارِ.

وأيضًا فلفظُ المعيَّةِ ليستْ فِي لغةِ العربِ ولَا فِي شيءٍ منَ القرآنِ أنْ يرادَ بهَا اختلاطَ إحدَى الذَّاتينِ بالأخرَى، كمَا فِي قولهِ: " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ" [الفتح: 29]، وقولهِ: "فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ" [النساء: 146]، وقولهِ: "اِتَّقُوا اللهَ وَكُوْنُوا مَعَ اُلْصَّادِقِينَ" [التوبة: 119]، وقوله: "وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ" [الأنفال: 75].

ومثلُ هذَا كثيرٌ، فامتنعَ أنْ يكونَ قولهُ "وَهُوَ مَعَكُمْ" يدلُّ علَى أنْ تكونَ ذاتهُ مختلطةٌ بذواتِ الخلقِ وقدْ بسطَ الكلامُ عليهِ فِي موضعٍ آخرَ وبيَّنَ أنَّ لفظَ المعيَّةِ فِي اللُّغةِ، وإنِ اقتضَى المجامعةَ والمصاحبةَ والمقارنةَ، فهوَ إذَا كانَ معَ

العبادِ لمْ ينافِ ذلكَ علوَّهُ علَى عرشِهِ، ويكونُ حكمُ معيَّتِهِ فِي كلِّ موطنٍ بحسبِهِ، فمعَ الخلقِ كلِّهمْ بالعلمِ والقدرةِ والسُّلطانِ، ويخصُّ بعضهمْ بالإعانةِ والنُّصرةِ والتَّأييدِ(3).

وهذهِ المعيَّةُ المقتضيةُ للنَّصرِ والعونِ والإمدادِ، معيَّةٌ خاصَّةٌ كمَا سبقَ، "فاللهُ ناصرهمْ ومجيبُ دعوتهمْ، ومنْ كانَ اللهُ ناصرهُ فلَا غالبَ لهُ، أمَّا الجازعُ فقلبهُ لاهٍ عنْ ذكرِ اللهِ، والقلبُ اللَّاهِي ممتلئٌ بهمومِ الدُّنيَا وأكدارهَا، وإنْ حازَ الدُّنيَا بحذافيرهَا.

وقدْ جرتْ سنَّةُ اللهِ أنَّ الأعمالَ العظيمةَ لَا تنجحُ إلَّا بالثَّباتِ والدأبِ عليهَا، ومدارُ ذلكَ كلِّهِ الصَّبرُ، فمنْ صبرَ فهوَ علَى سنَّةِ اللهِ تعالَى واللهُ معهُ، فيسهلُ لهُ العسيرُ منْ أمرهِ، ويجعلُ لهُ فرجًا منْ ضيقهِ، ومنْ لمْ يصبرْ فليسَ اللهُ معهُ، لأنَّهُ تنكَّبَ عنْ سنَّتهِ، فلنْ يبلغَ قصدهُ وغايتهُ"(4).

وكمَا أنَّ اللهَ تعالَى معَ الصَّابرينَ والمحسنينَ فهوَ كذلكَ معَ المتَّقينَ.

قالَ تعالَى: "واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ" [البقرة: 194].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: "يريدُ معَ أوليائهِ الذينَ يخافونهُ فيمَا كلَّفهمْ منْ أمرهِ ونهيهِ"، وقالَ الزَّجاجُ: "تأويلهُ أنَّهُ ضامنٌ لهمْ النَّصرَ"(5).

وكمَا تكونُ المعيَّةُ بالتَّأييدِ تكونُ كذلكَ منَ الظُّلمِ بالنُّصرةِ والظَّفرِ بالمعونةِ والحفظِ والعلمِ(6).

---

(1) جامع البيان 3/ 214.
(2) انظر: تفسير السمرقندي 1/ 105 - الكشف والبيان، الثعلبي 2/ 21 - لطائف الإشارات، القشيري 1/ 138.
(3) محاسن التأويل 1/ 437.
(4) تفسير المراغي 2/ 23.
(5) انظر: التفسير البسيط 10/ 417.
(6) انظر: تفسير السمعاني 2/ 308 - المحرر الوجيز، ابن عطية 3/ 31 - التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي 1/ 439.

3) معيَّةُ الرُّسلِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ وهيَ علَى أقسامٍ:

منْ صورِ المعيَّةِ الواردةِ فِي القرآنِ الكريمِ معيَّةُ المرسلينَ عليهمُ السَّلامُ، ويُقصدُ بهَا جانبانِ: معيَّةُ الرُّسلِ للنَّاسِ، ومعيَّةُ النَّاسِ للرُّسلِ.

أوَّلًا: معيَّةُ الرُّسلِ للنَّاسِ، وهيَ علَى أقسامٍ:

وقدْ جمعهَا بعضهمْ علَى التَّالِي:

أ) معيَّةُ التَّربُّصِ والانتظارِ:

وهيَ فِي جانبِ المدعوِّينَ بعدَ إقامةِ الحجَّةِ عليهمْ وتنكُّرهمْ للبرهانِ واعتسافهمْ للدَّليلِ، ومنهُ مَا حدثَ معَ نبيِّ اللهِ هودٍ عليهِ السَّلامُ معَ قومهِ، إذْ قالَ اللهُ تعالَى فيهمْ: "قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ" [الأعراف: 71].

والمعنَى كمَا قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا: وجبَ ونزلَ عليكمْ عذابٌ وسخطٌ[1].

وهذَا تهديدٌ ووعيدٌ منَ الرَّسولِ لقومهِ ولهذَا عقبهُ بقولهِ: "فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ" [الأعراف: 72].

وقدْ ذكرَ اللهُ سبحانه صفةَ إهلاكهمْ فِي أماكنَ أخرَى منَ القرآنِ[2]، وقالَ تعالَى: "وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ" [الذَّاريات: 41 – 42].

ومنهُ مَا وردَ علَى لسانِ شعيبٍ عليهِ السَّلامُ: "وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ[هود:٩٣].

يعنِي: اعملُوا فِي هلاكِي وفِي أمرِي، إنِّي عاملٌ فِي أمركمْ ومكانتكمْ، ثمَّ قالَ: (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) وهذَا وعيدٌ لهمْ، ستعلمونَ منْ هوَ كاذبٌ، وقالَ: (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) يعنِي: يهلكهُ ويهينهُ، وقالَ (وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) يعنِي: ستعلمونَ منْ هوَ كاذبٌ.

ويقالُ معناهُ: منْ يأتيهِ عذابٌ يخزيهِ، ويخزِي أمرهُ، منْ هوَ كاذبٌ علَى اللهِ تعالَى بأنَّ معهُ شريكًا، (وَارْتَقِبُوا) يعنِي: انتظرُوا بِي العذابَ (إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) يعنِي: منتظرٌ بكمْ العذابَ فِي الدُّنيَا[3].

والمعنَى: (اعملُوا) علَى تؤدتكمْ[4] وتمكُّنكمْ فإنِّي علَى تمكنِّي، فسوفَ تعلمونَ أيُّنَا الجانِي علَى نفسهِ، والمخطئُ فِي فعلهِ، فذلكَ قولهُ: (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) يذلهُ (وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) وانتظرُوا العذابَ إنِّي معكمْ منتظرٌ[5].

ب) معيَّةُ الصَّبرِ والالتزامِ، معَ ضعفاءِ المؤمنينَ:

ومنهُ قولهُ تعالَى: " وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا"[الكهف: 28].

وفِي الآيةِ الكريمةِ يأمرُ اللهُ تعالَى نبيَّهُ ﷺ بالصَّبرِ معَ هذهِ الفئةِ المؤمنةِ حتَّى يبلِّغهمْ رسالتهُ، وألَّا يرفعَ بصرهُ عنهمْ،

وعدمِ الانشغالِ بمنْ غفلَ عنْ ذكرِ اللهِ تعالَى، واتَّبعَ هوَى نفسهِ.

يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: (وَاصْبِرْ) يا محمَّدُ (نَفْسَكَ مَعَ) أصحابكَ (الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) بذكرِهمْ إيَّاهُ بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ والتَّهليلِ والدُّعاءِ والأعمالِ الصَّالحةِ منَ الصَّلواتِ المفروضةِ وغيرِهَا (يُرِيدُونَ) بفعلِهمْ ذلكَ (وَجْهَهُ) لَا يريدونَ عرضًا منْ عرضِ الدُّنيَا.

وقولهُ تعالَى: (تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ ﷺ: لَا تعدُ عيناكَ عنْ هؤلاءِ المؤمنينَ الذينَ يدعونَ ربَّهمْ إلَى أشرافِ المشركينَ، تبغِي بمجالستهمُ الشَّرفَ والفخرَ[6].

ومنْ روائعِ الآيةِ الكريمةِ ولطائفهَا أنَّهُ تعالَى قالَ: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ) ولمْ يقلْ: "قلبكَ" لأنَّ قلبهُ كانَ معَ الحقِّ، فأمرهُ بصحَّتهِ جهرًا بجهرٍ، واستخلصَ قلبهُ لنفسهِ سرًّا بسرٍّ.

وقالَ: (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ): معناهَا مريدينَ وجههُ أيْ فِي معنَى الحالِ، وذلكَ يشيرُ إلَى دوامِ دعائهمْ ربِّهمْ بالغداةِ والعشيِّ وكونِ الإرادةِ علَى الدَّوامِ[7].

---

(1) انظر: النكت والعيون، الماوردي 2/ 234 - زاد المسير، ابن الجوزي 2/ 134.

(2) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 390/3.

(3) انظر: جامع البيان، الطبري 15/ 263 - تفسير السمرقندي 2/ 168.

(4) تؤدت: إذا اختالت المرأة، يثنظر فقه اللغة وسر العربية للثعالبي.

(5) انظر: معالم التنزيل، البغوي 4/ 197 - تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين 2/ 307.

(6) جامع البيان، الطبري 18/ 6.

(7) لطائف الإشارات، القشيري 2/ 391.

ثانيًا: معيَّةُ النَّاسِ للرُّسلِ:

والمتأمِّلُ للآياتِ التِي تناولتْ معيَّةَ النَّاسِ للرُّسلِ يمكنُ أنْ يقسمهَا إلَى قسمينِ:

معيَّةٌ لهَا اتِّصالٌ غيرُ مباشرٍ بالدِّينِ، مثلَ معيَّةَ صاحبَيْ يوسفَ ليوسفَ فِي السِّجنِ، ومعيَّةُ إسماعيلَ لإبراهيمَ عليهمَا السَّلامُ عندمَا بلغَ معهُ السَّعيَ.

ومعيَّةٌ لهَا اتِّصالٌ مباشرٌ بالدِّينِ وهيَ التِي تعنِي الاتِّباعَ ويعبِّرُ عنهَا القرآنُ الكريمُ بالاستجابةِ والإسلامِ، والطَّاعةِ، والنُّصرةِ، والجهادِ، والعبادةِ، والتَّوبةِ، ونحوهَا.

وقدْ سلكَ القرآنُ الكريمُ فِي بيانِ معيَّةِ النَّاسِ للرُّسلِ مسلكينِ، مسلكٌ عامٌّ ومسلكٌ خاصٌّ، فالعامُّ هوَ مَا ذُكرتْ فيهِ المعيَّةُ بصفةٍ عامَّةٍ دونَ تحديدِ صاحبِ المعيَّةِ، وتأتِي هذهِ الآياتُ فِي صورةٍ سننيَّةٍ قاعديةٍ مطَّردةٍ، كقولهِ تعالَى: " وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ"[آل عمران:146].

وكمَا نلاحظُ فِي الآيةِ الكريمةِ أنَّ لفظةَ: (نَبِي) وردتْ نكرةً بمَا يفيدُ عمومهَا وشيوعهَا، ومنهُ قولهُ تعالَى: " أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ۖ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ"[البقرة: 214].

وفِي هاتينِ الآيتينِ تبدُو صورةُ المعيَّةِ فِي أقوَى مراحلهَا وفِي أدقِّ خصائصهَا إذْ هيَ فِي مرحلةِ الابتلاءِ والاختبارِ والجهادِ ومسِّ البأساءِ والضرَّاءِ والزَّلزلةِ.

والمعنَى وكأيِّنِ منْ نبيٍّ قاتلَ معهُ جماعاتٌ كثيرةٌ ربَّانيونَ علماءُ أتقياءُ، أوْ عابدونَ لربِّهمْ، فمَا وهنُوا لمَا أصابهمْ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى، ومَا فترُوا ولمْ ينكسرْ جدُّهمْ لمَا أصابهمْ منْ قتلِ النَّبيِّ أوْ بعضهمْ، ومَا ضعفُوا عنِ العدوِّ أوْ فِي الدِّينِ،

ومَا استكانُوا ومَا خضعُوا للعدوِّ بلْ صبرُوا وثبتُوا، وشجَّعُوا أنفسهمْ، هذَا تسليةٌ للمؤمنينَ، وحثٌّ علَى الاقتداءِ بهمْ، والفعلِ كفعلِهمْ، وأنَّ هذَا أمرٌ قدْ كانَ متقدِّمًا، لمْ تزلْ سنَّةُ اللهِ تعالَى جاريةٌ بذلكَ(1).

ثالثًا: معيَّةُ الرُّسلِ الخاصَّةِ:

وأمَّا المسلكُ الخاصُّ فقدْ بدَا فِي حديثِ القرآنِ الكريمِ عنِ الرُّسلِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ بذكرهمْ صراحةً، فقدْ حفلتْ آياتُ القرآنِ ببيانِ هذهِ المعيَّةِ، ويمكنُ أنْ نتتبَّعهَا علَى النَّحوِ الآتِي:

معيَّةُ نوحٍ عليهِ السَّلامُ:

أوَّلُ مَا نلمحُ فِي الآياتِ التِي وردتْ عنِ المعيَّةِ فِي حقِّ نوحٍ والذينَ آمنُوا معهُ، يبدُو لنَا أنَّهَا منْ أكثرِ المواطنِ التِي تكرَّرَ فيهَا لفظُ المعيَّةِ، معَ نبيٍّ منَ الأنبياءِ، فقدْ وردتْ ثمانِي مرَّاتٍ وكأنَّ فِي ذلكَ تأسيسًا لأنَّ معيَّةَ الصَّالحينَ أصلٌ فِي قيامِ الحضارةِ وبقاءِ الإنسانيَّةِ أصلًا، كمَا أنَّ فِي ذلكَ بيانًا وإشارةً إلَى أنَّ قيامَ الجماعةِ المؤمنةِ أصلٌ قديمٌ فِي دعوةِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ، كمَا نلاحظُ أنَّ معيَّةَ نوحٍ والإيمانُ باللهِ سببٌ فِي النَّجاةِ والفوزِ، فقدْ فصلتِ الآياتُ الكريمةُ بينَ معسكرينِ، معسكرُ الخيرِ والحقِّ وهمْ منْ ركبُوا معَ نوحٍ فِي الفلكِ، ومعسكرِ الشَّرِّ والباطلِ وهمُ المغرقونَ، ولذلكَ دعَا نوحٌ عليهِ السَّلامُ ابنهُ ليركبَ معهمْ وقالَ: "يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ" [هود: 42].

كمَا تلمِّحُ الآياتُ الكريمةُ أنَّ منْ تمامِ نعمةِ اللهِ تعالَى علَى المؤمنينَ معهُ أنْ أهلكَ عدوَّهمْ، وتكرَّرَ هذَا فِي آياتٍ متعدِّدةٍ،

حيثُ قالَ سبحانهُ:

"فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ" [الأعراف: 64].

وقالَ تعالَى: "فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ" [يونس: 73].

معيَّةُ صالحٍ عليهِ السَّلامُ:

وفِي حقِّ صالحٍ عليهِ السَّلامُ مَا زالَ التَّأكيدُ أنَّ المعيَّةَ والإيمانَ سببُ النَّجاةِ والعصمةِ، فقدْ وردَ التَّلازمُ بينَ الإيمانِ والمعيَّةِ كذلكَ، فقالَ تعالَى: "فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ" [هود: 66].

معيَّةُ شعيبٍ عليهِ السَّلامُ:

وفِي حقِّ شعيبٍ عليهِ السَّلامُ يستمرُّ الأمرُ علَى تباعدِ الزَّمانِ والمكانِ، بلْ تتَّضحُ تلازميَّةُ النَّصرِ بالمؤمنينَ منْ خلالِ معرفةِ الكافرينَ بهذَا، فلمْ يقتصرْ التَّهديدُ هنَا لشعيبٍ فقطْ بلْ هوَ والذينَ معهُ، وهنَا قالَ تعالَى: "۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ [الأعراف: 88].

بلْ تبدُو سنَّةً منْ سننِ اللهِ تعالَى فِي الدَّعواتِ وأصحابهَا إلَى الإخراجِ والإبعادِ، وهيَ سنَّةٌ تتكرَّرُ، شأنُ السُّننِ الماضيةِ؛ فقدْ هدَّدُوا شعيبًا والذينَ آمنُوا معهُ بالطَّردِ والإبعادِ حتَّى يعودُوا فِي ملَّتهمْ مرَّةً أخرَى، والزَّمنُ يعيدُ نفسهُ وسننهُ

الماضيةَ، والجوابُ علَى تراخِي الزَّمنِ وتباعدِ المكانِ فقدْ قالَ تعالَى: "قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ" [الأعراف: 89].

ويستمرُّ الجوابُ علَى نفسِ السُّؤالِ حتَّى يقضِي اللهُ تعالَى بالحقِّ وينتصرَ الصِّدقُ ورسالةُ الإسلامِ.

معيَّةُ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ:

وتستمرُّ النَّماذجُ الرَّائدةُ فِي المعيَّةِ معَ الأنبياءِ والمرسلينَ علَى تباعدِ المكانِ وتطاولِ الزَّمانِ، فنصلُ إلَى إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ، وتستمرُّ آياتُ المعيَّةِ فِي التَّأكيدِ علَى أهميَّةِ الأمَّةِ الجديدةِ وضرورةِ صلابتِهَا فِي مقارعةِ الباطلِ ومنازلةِ الشِّركِ إلَى آخرِ مدَى، ويبدُو منَ الآيةِ الكريمةِ مصارعةُ الذينَ آمنُوا للكافرينَ مصارعةً فكريَّةً واضحةً بانَ فيهَا إعلانُ البراءةِ منهمْ، وكفرهمْ بهمْ، وبدوِّ العداوةِ والبغضاءِ أبدًا حتَّى يؤمنُوا باللهِ تعالَى وحدهُ، وهذهِ نقلةٌ فِي الخطابِ لمْ تكنْ منْ قبلُ، تبدُو فيهَا المفاصلةُ والمباينةُ حتَّى يظهرَ معنَى الولاءِ والبراءِ، ثمَّ الالتجاءُ إلَى اللهِ تعالَى والتوكُّلِ عليهِ والإنابةِ إليهِ، والوعيِ العمليِّ بأنَّ الكلَّ صائرٌ إليهِ.

فيقولونَ فِي وضوحٍ وشموخٍ: "إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۖ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" [الممتحنة: 4].

ولأمرٍ حكيمٍ صُدِّرَتِ الآيةُ بندبِ المؤمنينَ إلَى التأسِّي بهذهِ الصِّفاتِ التِي لَا بدَّ منهَا فِي المقارعةِ، ثمَّ كرَّرَ القرآنُ الكريمُ لفتَ أنظارِ المؤمنينَ إلَى هذهِ الأسوةِ الحسنةِ بعدَ آيةٍ واحدةٍ فقالَ: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ [الممتحنة: 6]**.**

معيَّةُ موسَى وهارونَ عليهمَا السَّلامُ:

ومنْ جمعِ الآياتِ التِي تتحدَّثُ عنْ معيَّةِ موسَى عليهِ السَّلامُ يمكننَا أنْ نستبينَ بعضَ المفاهيمِ منهَا:

إنَّ المعيَّةَ كانتْ منْ بدايةِ الدَّعوةِ، وهيَ معيَّةُ هارونَ أخيهِ لهُ، قالَ تعالَى: "وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ" [القصص: 43]**.**

وأنَّ المعيَّةُ أمرٌ منَ اللهِ تعالَى منْ بدايةِ الدَّعوةِ، قالَ تعالَى: "حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ" [الأعراف: 105]**.**

وهذَا مبنِي علَى أنَّ الأمرَ بالمعيَّةِ كانَ منْ بدايةِ الدَّعوةِ: "فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ" [الشعراء: 16 – 17]**.**

فالإرسالُ مقيَّدٌ بالمعيَّةِ فِي الآياتِ جميعًا، وليسَ مجرَّدَ إرسالٍ مطلقٍ يتحرَّرُ بهِ بنُو إسرائيلَ منْ بطشِ فرعونَ فقطْ، وإنَّمَا هوَ دخولٌ فِي معيَّةِ الجماعةِ المسلمةِ الجديدةِ، التِي تتميَّزُ بهَا عنْ معيَّةِ فرعونَ وقومهِ(2)**.**

معيَّةُ موسَى وموقفِ أتباعِ فرعونَ منهَا:

وهذهِ المعيَّةُ كمَا كانتْ أمرًا منْ بدايةِ الدَّعوةِ، وطلبًا منْ موسَى وهارونَ لفرعونَ حينَ طلبَا أنْ يرسلَ معهمْ بنِي إسرائيلَ، أدركهَا أتباعُ فرعونَ حينَ أرادُوا وأْدَ الدَّعوةِ منَ البدايةِ، فاطيَّرُوا بهَا وبهِ وبهمْ فكانُوا كمَا وصفَ القرآنُ الكريمُ: "فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" [الأعراف: 131].

وكذلكَ كانتْ نظرةُ أتباعِ فرعونَ إلَى موسَى وهارونَ وقومهمَا حينَ ظهرتْ دعوتهمْ، وبدأَ النَّاسُ يقتنعونَ بهَا، كمَا وصفَ القرآنُ الكريمُ: " فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ" [غافر: 25].

استنقاذُ بنِي إسرائيلَ منْ فرعونَ:

كمَا كانتِ المعيَّةُ واضحةً فِي نجاةِ هؤلاءِ المؤمنينَ، قالَ تعالَى: "وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ" [الشعراء: 65].

والمعنَى: وأنجينَا موسَى ممَّا أتبعنَا بهِ فرعونَ وقومهِ منَ الغرقِ فِي البحرِ ومنْ معَ موسَى منْ بنِي إسرائيلَ أجمعينَ(3).

معيَّةُ عيسَى عليهِ السَّلامُ:

وأمَّا نبيُّ اللهِ عيسَى عليهِ السَّلامُ فأظنُّهُ لمْ يكنْ مؤسِّسًا لأمَّةٍ جديدةٍ، بلْ متمِّمًا مَا بدأهُ أخوهُ موسَى عليهِ السَّلامُ فإنَّ الحديثَ عنْ معيَّتهِ قدْ وردَ علَى لسانِ الحواريينَ كمَا قالَ تعالَى: "فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى

اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ" [آل عمران: 52 – 53].

أي: نحنُ أنصارُ اللهِ تعالَى ومنْ ينصرِ الرَّسولَ فقدْ نصرَ اللهَ تعالَى لقولهِ تعالَى: "مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا" [النساء: 80].

أي: نحنُ أنصارُ اللهِ تعالَى آمنَّا بهِ إيمانًا صادقًا واتَّبعنَا رسلهُ واشهدْ بأنَّا مسلمونَ؛ إذِ الإسلامُ هوَ دينُ كلِّ الأنبياءِ والرُّسلِ معَ اختلافِ شرائعهمْ.

ثمَّ قالَ الحواريونَ: ربَّنا آمنَّا وصدَّقنَا بمَا أنزلتَ فِي كتابكَ واتَّبعنَا الرَّسولَ عيسَى ابنَ مريمَ عليهِ السَّلامُ، فاكتبنَا مع الشَّاهدينَ الذينَ يشهدونَ لأنبيائكَ بالصِّدقِ(4).

معيَّةُ محمَّدٍ رسولُ اللهِ ﷺ:

لمَّا انتقلنَا إلَى النَّبيِّ ﷺ وبيانِ المعيَّةِ فِي حقِّهِ فاجأنَا أنَّ آياتِ المعيَّةِ فِي حقِّهِ هيَ أكثرُ المواطنِ ورودًا فِي القرآنِ الكريمِ، وأكثرهَا تفصيلًا بينَ خاصٍّ وعامٍّ، والخاصُّ فيهِ تفصيلاتٌ دقيقةٌ يأتِي بيانهَا، لكنِ الإشارةُ الواضحةُ هنَا فِي الآياتِ أنَّهُ كمَا أنَّ الأمَّةَ الخاتمةَ تحتاجُ إلَى جهدٍ فِي تأسيسهَا وبنائهَا، فهيَ كذلكَ تحتاجُ إلَى طولِ معيَّةٍ وصحبةٍ للرَّسولِ ﷺ فِي حياتهِ، وبعدَ وفاتهِ لسنَّتهِ ومنهاجهِ، وكلَّمَا اقتربتِ الأمَّةُ منْ سنَّتهِ ودخلتْ فِي معيَّتهِ كلَّمَا اقتربتْ منَ النَّجاةِ والفلاحِ، والعزِّ والنَّجاحِ، وكلَّمَا ابتعدتْ عنْ منهاجهِ كلَّمَا ضلَّتْ سبيلهَا وتنكَّبتْ طريقهَا.

قالَ تعالَى: "لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [التوبة: 88].
وهنَا ربطَ اللهُ تعالَى حصولهمْ علَى الخيراتِ والفلاحِ بالإيمانِ والمعيَّةِ والجهادِ بالأموالِ والأنفسِ.
وإذَا حصرنَا الآياتَ التِي تناولتْ تلكَ المعيَّةَ المباركةَ وجدنَا أنَّهَا سارتْ فِي محورينِ رئيسينِ، محورٌ عامٌّ وآخرَ خاصٌّ.
فالمعيَّةُ العامَّةُ هيَ التِي تناولتْ أمورَ الدِّينِ والرِّسالةِ جملةً، وفيهَا حديثٌ إلَى المدعوِّينَ عامَّةً كقولهِ تعالَى: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" [الملك: 28].
وقولهُ سبحانهُ: "أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُمْ مُعْرِضُونَ" [الأنبياء: 24].
وقدْ كانتْ هذهِ المعيَّةُ واضحةً وظاهرةً حتَّى فِي أذهانِ المشركينَ إذْ قالُوا: "وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا" [القصص: 57].
والمعيَّةُ الخاصَّةُ وهيَ التِي بدَا فيهَا معيَّةُ النَّبيِّ ﷺ للمؤمنينَ، وتنوَّعتْ هذهِ المعيَّةُ وكثرتْ صورهَا فمرَّةً تكونُ فِي الجهادِ، كقولهِ تعالَى: "لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [التوبة: 88].
ومرَّةً فِي عتابِ المنافقينَ المخلفينَ عنِ الجهادِ كقولهِ: "وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ" [التوبة: 86].

ولذَا أرشدَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ إلَى حرمانـهمْ منْ هذهِ المعيَّةِ، فقالَ: "فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ"[التوبة: 83].

ومرَّةً تكونُ فِي صلاةِ الخوفِ كقولـهِ تعالَى: "وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ"[النساء: 102].

ومرَّةً تكونُ فِي الهجرةِ، كقولـهِ تعالَى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ"[الأحزاب: 50].

ومرَّةً فِي تعليمِ المسلمينَ منـهجيَّةَ التَّعاملِ معَ النَّبيِّ ﷺ وعدمِ تركهِ إلَّا بإذنٍ، تربيةً لهمْ علَى الأخلاقِ الحميدةِ، وأخذًا بأيديهمْ إلَى طرقِ الرَّبَّانيَّةِ كيْ يكونُوا ربَّانيينَ، فيقولُ سبحانـهُ: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[النور: 62].

---

(1) انظر: جامع البيان، الطبري 6/ 111 - معالم التنزيل، البغوي 2/ 116.

(2) المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبدالستار سعيد ص 149 – بتصرُّف.

(3) جامع البيان، الطبري 19/ 360.

(4) التفسير الواضح، محمد حجازي 1/ 236.

المعيَّةُ الممنوعةُ المنهيُّ عنهَا:

والنَّهيُ فيهَا علَى قسمينِ:

الأوَّلُ: فِي النَّهيِ عنِ الجلوسِ معَ المعاندينَ والمستهزئينَ حالَ خوضهمْ فِي آياتِ اللهِ تعالَى، وتقعُ هذهِ المعيَّةُ دائمًا بعدَ نهيٍ عنهَا وأمرٍ بمفارقةِ أصحابهَا وعدمِ شهودِ مجالسهمْ، ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" [الأنعام: 68].

يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: وإذَا رأيتَ يَا محمَّدُ المشركينَ الذينَ يخوضونَ فِي آياتنَا التِي أنزلناهَا إليكَ، ووحينَا الذِي أوحيناهُ إليكَ، و"خوضهمْ فيهَا"، كانَ استهزاءهمْ بهَا، وسبُّهمْ منْ أنزلهَا وتكلَّمَ بهَا، وتكذيبهمْ بهَا (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) يقولُ: فصدَّ عنهمْ بوجهكَ، وقمْ عنهمْ، ولَا تجلسْ معهمْ (حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) يقولُ: حتَّى يأخذُوا فِي حديثٍ غيرِ الاستهزاءِ بآياتِ اللهِ منْ حديثهمْ بينهمْ وإنْ أنساكَ الشَّيطانُ نهينَا إيَّاكَ عنِ الجلوسِ معهمْ والإعراضِ عنهمْ فِي حالِ خوضهمْ فِي آياتنَا، ثمَّ ذكرتَ ذلكَ، فقمْ عنهمْ، ولَا تقعدْ بعدَ ذكركَ ذلكَ معَ القومِ الظالمينَ الذينَ خاضُوا فِي غيرِ الذِي لهمْ الخوضُ فيهِ بمَا خاضُوا بهِ فيهِ[1].

وهؤلاءِ المرادُ بهمْ المشركونَ أوِ اليهودُ أوْ أصحابُ الأهواءِ كمَا منعهُ اللهُ تعالَى منْ شهودهمْ ومخالطتهمْ عقوبةً لهمْ بالحرمانِ، وإبعادًا لهمْ عنْ أسبابِ التَّوفيقِ جزاءَ فعلهمْ، فقالَ تعالَى: " قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ

فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ" [الأنعام: 150].

والمعنَى: (فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ) أيْ: لأنَّهمْ إنَّمَا يشهدونَ والحالةَ هذهِ كذبًا وزورًا (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) أي: يشركون به ويجعلون له عديلا[2].

والثَّاني: فِي جعلِ آلهةٍ معَ اللهِ تعالَى:

فقدْ تعدَّدتْ أساليبُ القرآنِ الكريمِ فِي بيانِ نفيِ أنْ يكونَ معَ اللهِ آلهةٌ أخرَى، فمرَّةً يأتِي البيانُ فِي صورةِ النَّفيِ ومرَّةً فِي صورةِ النَّهيِ، وثالثةً فِي صورةِ الخبرِ التهديدِي، وأخرَى فِي صورةِ الشَّرطِ، وخامسةً فِي صورةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ.

أوَّلًا: النَّفيُ الصَّريحُ:

وقدْ وردتْ آياتٌ كثيرةٌ فِي القرآنِ الكريمِ تنهَى نهيًا صريحًا عنِ اتِّخاذِ آلهةٍ معَ اللهِ تعالَى، ومنَ المواطنِ التِي وردَ فيهَا ذلكَ فِي مقامِ بيانِ وعدِ اللهِ تعالَى بالاستخلافِ للمؤمنينَ قولهُ تعالَى: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" [النور: 55].

وفيهَا بيانٌ للعلاقةِ بينَ عدمِ الشِّركِ باللهِ والاستخلافِ فِي الأرضِ كمَا هوَ واضحٌ فِي الآيةِ، وورد كذلكَ فِي مقامِ بيانِ

صفاتِ المؤمنينَ قولهِ تعالَى: "وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ" [المؤمنون: 59].

ومنهَا قولهُ تعالَى: "وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا" [الفرقان: 68].

والمعنَى: لَا يشركونَ بهِ شيئًا، بلْ يوحِّدونهُ ويخلصونَ لهُ العبادَةَ والدعوةَ[3]**.**

وقدْ وردَ فِي السُّنَّةِ فِي هذَا المعنَى: عنْ عمرِو بنِ شرحبيلَ، عنْ عبدِ اللهِ، قالَ: "قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الذَّنبِ أعظمُ؟ قالَ: أنْ تجعلَ للهِ ندًّا وهوَ خلقكَ، قلتُ: ثمَّ أي؟ قالَ: أنْ تقتلَ ولدكَ خشيةَ أنْ يأكلَ معكَ، قلتَ: ثمَّ أي؟ قالَ: أنْ تزانِي حليلةَ جاركَ"[4] **فأُنزلَ تصديقُ قولِ النَّبيِّ ﷺ: " وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ"** [الفرقان: 68].

كمَا وردَ النَّفيُ فِي موضعٍ آخرَ فِي قولهِ تعالَى: "مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ" [المؤمنون: 91].

ونلمحُ فِي سياقِ الآيةِ الكريمةِ معَ النَّفيِّ ترتيبًا عجيبًا يغرِي العقلَ بالتفكُّرِ، والذِّهنَ بالعملِ، وهوَ ترتيبُ الانفصامِ والانفصالِ بينَ هذهِ الآلهةِ المزعومةِ إنْ وجدتْ ! وبينَ وجودهَا، وهذَا مَا اعتمدهُ علماءُ العقيدةِ فِي أدلَّةِ وبراهينِ نفيِ الشُّركاءِ والآلهةِ عنِ اللهِ تعالَى.

ثانيًا: النَّهيُ الصَّريحُ:

ومنْ أساليبِ القرآنِ فِي نفيِ المعيَّةِ عنِ اللهِ تعالَى: النَّهيُ الصَّريحُ، وهذَا أشدُّ فِي نفيِ المعيَّةِ وأقوَى، ومنْ هذهِ المواضعِ التِي وردَ فيهَا النَّهيُ قولهُ تعالَى: "لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا" [الإسراء: 22]**.**

والمعنَى لَا تتَّخذُ معَ اللهِ إلهًا آخرَ فتصيرَ إلَى الذمِّ لأنَّكَ أسندتَ النِّعمةَ إلَى غيرِ منعمهَا وحمدتَ منْ لَا يستحقُّ الحمدَ وغمطَّ صاحبَ الفضلِ والنِّعمةِ، وساعتهَا تصيرُ مذمومًا لاختلالِ النَّظرِ لديكَ وفسادِ الحكمِ فِي ناظريكَ، ومخذولًا لأنَّ صاحبَ النِّعمةِ والمنَّةِ سيكلكَ إلَى منْ تألَّهتَ لهُ وتعبَّدتَ فيهِ، وليسَ هوَ منْ ينصرُ ولَا يعينُ.

وقولهُ: (تَقْعُدَ) منْ قولهمْ شحذَ الشفرةَ حتَّى قعدتْ، كأنَّهَا حربةٌ بمعنَى صارتْ، يعنِي: فتصيرَ جامعًا علَى نفسكَ الذمَّ ومَا يتبعهُ منَ الهلاكِ منْ إلهكَ، والخذلانَ والعجزَ عنِ النصرةِ ممَّنْ جعلتهُ شريكًا لهُ[5]**.**

ويبيِّنُ الإمامُ الرَّازِي سببَ هذهِ العقوبةِ الشديدةِ والجزاءَ الوفاقَ الذِي يتناسبُ معَ هذهِ الجريمةِ النُّكراءِ والعملَ الكالحَ بصورةٍ منطقيَّةٍ عقليَّةٍ فيرَى أنَّ منْ أشركَ باللهِ كانَ مذمومًا مخذولًا، والذِي يدلُّ علَى أنَّ الأمرَ كذلكَ وجوهٌ:

الأوَّلُ: أنَّ المشركَ كاذبٌ والكاذبُ يستوجبُ الذمَّ والخذلَانَ.

الثَّانِي: أنَّهُ لمَّا ثبتَ بالدَّليلِ أنَّهُ لَا إلهَ ولَا مدبِّرَ ولَا مقدِّرَ إلَّا الواحدُ الأحدُ، فعلَى هذَا التَّقديرِ تكونُ جميعُ النِّعمِ حاصلةً منَ اللهِ تعالَى، فمنْ أشركَ باللهِ فقدْ أضافَ بعضَ تلكَ النِّعمِ إلَى

غيرِ اللهِ تعالَى، معَ أنَّ الحقَّ أنَّ كلَّهَا منَ اللهِ تعالَى، فحينئذٍ يستحقُّ الذَّمَّ، لأنَّ الخالقَ تعالَى استحقَّ الشُّكرَ بإعطاءِ تلكَ النِّعمِ فلمَّا جحدَ كونهَا منَ اللهِ تعالَى، فقدْ قابلَ إحسانَ اللهِ تعالَى بالإساءةِ والجحودِ والكفرانِ فاستوجبَ الذَّمَّ وإنَّمَا قلنَا إنَّهُ يستحقُّ الخذلانَ، لأنَّهُ لمَّا أثبتَ شريكًا للهِ تعالَى استحقَّ أنْ يفوِّضَ أمرهُ إلَى ذلكَ الشَّريكِ، فلمَّا كانَ ذلكَ الشَّريكُ معدومًا بقيَ بلَا ناصرٍ ولَا حافظٍ ولَا معينٍ، وذلكَ عينُ الخذلانِ.

الثَّالثُ: أنَّ الكمالَ فِي الوحدةِ والنُّقصانَ فِي الكثرةِ، فمنْ أثبتَ الشَّريكَ فقدْ وقعَ فِي جانبِ النُّقصانَ واستوجبَ الذمَّ والخذلانَ، واعلمْ أنَّهُ لمَّا دلَّ لفظُ الآيةِ علَى أنَّ المشركَ مذمومٌ مخذولٌ وجبَ بحكمِ الآيةِ أنْ يكونَ الموحِّدُ ممدوحًا منصورًا[6].

ومنْ لطائفِ البيانِ القرآنيِّ هنَا، أنَّ الأمرَ علَى الرُّغمِ منْ عمومهِ وأنَّهُ موجَّهٌ إلَى كلِّ الخلائقِ إلَّا أنَّ التَّكليفَ والتَّوجيهَ أتَى بصيغةِ الفرديَّةِ ووجِّهَ إلَى المفردِ ليحسَّ كلُّ أحدٍ أنَّهُ أمرٌ خاصٌّ بهِ، صادرٌ إلَى شخصهِ، فالاعتقادُ مسألةٌ شخصيَّةٌ مسؤولٌ عنهَا كلُّ فردٍ بذاتهِ، والعاقبةُ التِي تنتظرُ كلَّ فردٍ يحيدُ عنِ التَّوحيدِ أنْ "يَقْعُدَ" "مَذْمُومًا" بالفعلةِ الذَّميمةِ التِي أقدمَ عليهَا، "مَخْذُولًا" لَا ناصرَ لهُ، ومنْ لَا ينصرهُ اللهُ تعالَى فهوَ مخذولٌ وإنْ كثرَ ناصروهُ، ولفظُ: "فَتَقْعُدَ" يصوِّرُ هيئةَ المذمومِ المخذولِ وقدْ حطَّ بهِ الخذلانُ فقعدَ، ويلقِي ظلَّ الضَّعفِ فالقعودُ هوَ أضعفُ هيئاتِ الإنسانِ وأكثرهَا استكانةً وعجزًا، وهوَ يلقِي كذلكَ ظلَّ الاستمرارِ فِي حالةِ النَّبذِ

والخذلانِ، لأنَّ القعودَ لَا يوحِي بالحركةِ ولَا تغيُّرِ الوضعِ، فهوَ لفظٌ مقصودٌ فِي هذَا المكانِ(7).

وهذَا التذييلُ هوَ بيانٌ لاختلافِ أحوالِ المسلمينَ والمشركينَ، فإنَّ خلاصةَ أسبابِ الفوزِ تركُ الشِّركِ لأنَّ ذلكَ هوَ مبدأُ الإقبالِ علَى العملِ الصَّالحِ فهوَ أوَّلُ خطواتِ السَّعيِ لمريدِ الآخرةِ، لأنَّ الشِّركَ قاعدةُ اختلالِ التَّفكيرِ وتضليلِ العقولِ(8).

ومنْ هذهِ المواضعِ التِي نفَى فيهَا سبحانهُ المعيَّةَ بصورةِ النَّهيِ قولهُ تعالَى: " ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا"

[الإسراء: 39].

والمعنَى: احذرْ أيُّهَا المكلَّفُ أنْ تتَّخذَ معَ اللهِ إلهًا غيرهُ: "إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ"[النحل: 51].

إنْ فعلتَ ذلكَ فقدْ حقَّ عليكَ أنْ تُرمَى وتُطرحَ فِي نارِ جهنَّمَ فِي مهانةٍ وذلَّةٍ، وأنتَ معلومٌ منْ نفسكَ علَى مَا اقترفتَ وملومٌ منَ الملائكةِ خزنةِ جهنَّمَ حينَ تعنِّفكَ(9).

ولَا يحتاجُ إلَى بيانٍ هنَا أنَّ الخطابَ وإنْ كانَ واردًا للنَّبيِّ ﷺ إلَّا أنَّ المرادَ بهِ أمَّتهُ لاستحالةِ صدورِ ذلكَ منهُ فهوَ المعصومُ ﷺ(10).

ويلاحظُ أنَّ الآياتِ الكريمةِ السَّابقةِ صدرتْ بالنَّهيِ عنِ الشِّركِ وبيانِ أنَّ اللهَ تعالَى قضَى بأنْ لَا يُعبدَ إلَّا إيَّاهُ، وكرَّرَ النَّهيَ هنَا للتَّنبيهِ علَى أنَّ التَّوحيدَ مبدأُ الأمرِ ومنتهاهُ، فإنَّ منْ لَا قصدَ لهُ بطلَ عملهُ ومنْ قصدَ بفعلهِ أوْ تركهِ غيرهُ ضاعَ سعيهُ، وأنَّهُ رأسُ الحكمةِ وملاكهَا، ورتَّبَ عليهِ أوَّلًا مَا

هوَ عائدهُ الشِّركَ فِي الدُّنيَا وثانيًا مَا هوَ نتيجتهُ فِي العقبَى فقالَ تعالَى: (فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلوْمًا) تلومَ نفسكَ[11].

ومنْ لطائفِ النَّصِّ القرآنيِّ البديعِ مَا ذكرهُ الإمامُ الشَّوكانيُّ بأنَّ القرآنَ راعَى فِي هذَا التَّأكيدِ دقيقهُ فرتَّبَ علَى الأوَّلِ كونهُ مذمومًا مخذولًا، وذلكَ إشارةٌ إلَى حالِ الشِّركِ فِي الدُّنيَا، ورتَّبَ علَى الثَّانِي أنَّهُ يُلقَى فِي جهنَّمَ ملومًا مدحورًا وذلكَ إشارةٌ إلَى حالهِ فِي الآخرةِ، وفِي القعودِ هناكَ، والإلقاءُ هنَا، إشارةٌ إلَى أنَّ للإنسانِ فِي الدُّنيَا صورةُ اختيارٍ بخلافِ الآخرةِ[12].

ومنهَا قولهُ تعالَى: " فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ" [الشعراء: 213].

ونلاحظ هنا شدة النهي وترتب العذاب على الاتخاذ إن وجد، مع ذكرنا منهجية القرآن في خطاباته للنبي ﷺ والتي غالبا ما تصدر بما يشعر بأنها ليست عتابا مثل قولهِ تعالَى: "عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ" [التوبة: 43] وقولهِ: "عَبَسَ وَتَوَلَّى" [عبس: 1].

بصيغةِ الغائبِ، والخطابُ هنَا واردٌ علَى تحذيرِ غيرهِ مبالغةً بذكرهِ هوُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، كأنَّ القرآنَ يقولُ: إذَا كانَ هذَا تهديدنَا ووعيدنَا لكَ فكيفَ يكونُ لغيركَ.

كمَا قالَ الإمامُ القرطبيُّ: المعنَى قلْ لمنْ كفرَ هذَا القولَ تهديدًا لهُ بالتَّعذيبِ، وقيلَ: هوَ مخاطبةٌ لهُ عليهِ الصَّلاةُ السَّلامُ وإنْ كانَ لَا يفعلُ هذَا، لأنَّهُ معصومٌ مختارٌ ولكنَّهُ خوطبَ بهذَا والمقصودُ غيرهُ، ودلَّ علَى هذَا قولهُ تعالَى: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" [الشعراء: 214].

أيْ: لَا يتَّكلونَ علَى نسبهمْ وقرابتهمْ فيدعونَ مَا يجبُ عليهمْ(13).

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا يحذِّرُ بهِ غيرهُ، يقولُ: أنتَ أكرمُ الخلقِ عليَّ، ولوِ اتَّخذتَ إلهًا غيرِي لعذَّبتكَ(14).

وورد التَّركيبُ بهذهِ الصُّورةِ فخوطبَ بهِ النَّبيُّ ﷺ معَ ظهورِ استحالةِ صدورِ المنهيِّ عنهُ منهُ ﷺ تهييجًا وحثًّا علَى ازديادِ الإخلاصِ ولطفًا لسائرِ المكلَّفينَ ببيانِ أنَّ الإشراكَ منَ القبحِ والسُّوءِ بحيثُ ينهَى عنهُ منْ لَا يمكنُ صدورهُ عنهُ فكيفَ بمنْ عداهُ(15).

ثانيًا: الاستفهامُ الإنكاريُّ:

ومنْ أساليبِ القرآنِ فِي إنكارِ الآلهةِ معَ اللهِ تعالَى، استعمالُ الاستفهامِ الإنكاريِّ:

وقدْ وردَ هذَا فِي مواطنَ متعدِّدةٍ منَ القرآنِ الكريمِ، كقولهِ تعالَى: "قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُلْ لَا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ"[الأنعام: 19].

والمعنَى: يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: قلْ لهؤلاءِ المشركينَ، الجاحدينَ نبوَّتكَ، العادلينَ باللهِ، ربًّا غيرهُ: (أَئِنَّكُمْ) أيُّهَا المشركونَ (لَتَشْهَدُوْنَ أَنَّ مَعَ اللهِ ءالِهَةً ألإخْرَى) يقولُ: تشهدونَ أنَّ معهُ معبوداتٍ غيرهُ منَ الأوثانِ والأصنامِ، (أوِ الأشخاصِ والحيواناتِ).

ثمَّ قالَ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: (قُلْ) يَا محمَّدُ (لَا أَشْهَدُ) بمَا تشهدونَ: أنَّ معَ اللهِ آلهةً أخرَى، بلْ أجحدُ ذلكَ وأنكرهُ فإنَّمَا هوَ معبودٌ واحدٌ، لَا شريكَ لهُ فيمَا يستوجبُ علَى خلقهِ منَ العبادةِ، وقلْ: (وَإِنَّنِي بَرِيءٌ) منْ كلِّ شريكٍ تدعونهُ للهِ، وتضيفونهُ إلَى شركتهِ، وتعبدونهُ معهُ، لَا أعبدُ سوَى اللهِ شيئًا، ولَا أدعُو غيرهُ إلهًا[16].

إنَّهُ لمَّا بيَّنَ تعالَى شهادتهُ التِي هيَ أكبرُ الشَّهاداتِ علَى توحيدهِ قالَ: قلْ لهؤلاءِ المعارضينَ لخبرِ اللهِ تعالَى والمكذِّبينَ لرسلهِ: "أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُلْ لَا أَشْهَدُ" أي: إنْ شهدُوا فلَا تشهدْ معهمْ.

فوازنَ بينَ شهادةَ أصدقِ القائلينَ وربِّ العالمينَ وشهادةَ أزكَى الخلقِ المؤيِّدةِ بالبراهينِ القاطعةِ والحججِ السَّاطعةِ علَى توحيدِ اللهِ تعالَى وحدهُ لَا شريكَ لهُ وشهادةُ أهلِ الشِّركِ الذينَ مرجتْ عقولهمْ وأديانهمْ وفسدتْ آراؤهمْ وأخلاقهمْ وأضحكُوا علَى أنفسهمْ العقلاءَ.

بلْ خالفُوا بشهادةِ فطرهمْ وتناقضتْ أقوالهمْ علَى إثباتِ أنَّ معَ اللهِ تعالَى آلهةً أخرَى معَ أنَّهُ لَا يقومُ علَى مَا قالوهُ أدنَى شبهةٍ فضلًا عنِ الحججِ، واخترْ لنفسكَ أيَّ الشَّهادتينِ إنْ كنتَ تعقلُ ونحنُ نختارُ لأنفسنَا مَا اختارهُ اللهُ تعالَى لنبيِّهِ ﷺ الذِي أمرنَا اللهِ تعالَى بالاقتداءِ بهِ فقالَ: (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) أي: منفردٌ لَا يستحقُّ العبوديَّةَ والإلهيَّةَ سواهُ كمَا أنَّهُ المنفردُ بالخلقِ والتَّدبيرِ[17](والملكِ).

وهذَا تقريرٌ لهمْ معَ إنكارٍ واستبعادٍ قلْ لَا أشهدُ شهادتكمْ[18].

ففيهِ إنكارٌ عليهمْ وتوبيخٌ وتقريعٌ[19].

ثالثًا: الخبرُ التَّهديدِي:

ولقدْ تنوَّعتْ أساليبُ القرآنِ فِي نفيِ وجودِ آلهةً معَ اللهِ تعالَى، ومنْ هذهِ الأساليبِ: الخبرُ التَّهديديُّ، وتكرَّرَ هذَا فِي القرآنِ الكريمِ مرَّاتٍ عديدةٍ، ومنْ هذَا قولهُ تعالَى: "إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ" [الحجر: 95 - 96].

وواضحٌ فِي الآيةِ الكريمةِ بلاغةُ التَّهديدِ، وشدَّةِ الوعيدِ خاصَّةً فِي قولهِ تعالَى: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

والمعنَى أنَّ اللهَ تعالَى يقولُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: إنَّا كفيناكَ المستهزئينَ يَا محمَّدُ، الذينَ يستهزئونَ بكَ ويسخرونَ منكَ، فاصدعْ بأمرِ اللهِ، ولَا تخفْ شيئًا سوَى اللهِ، فإنَّ اللهَ كافيكَ منْ ناصبكَ وآذاكَ كمَا كفاكَ المستهزئينَ[20].

وفِي الآيةِ تسليةٌ لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتهوينًا للخطبِ عليهِ، بأنَّهمْ أصحابُ تلكَ الجريمةِ العظمَى، التِي هيَ أكبرُ الكبائرِ، التِي سيُخذلونَ بسببهَا، كمَا قالَ: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) أي: عاقبةَ أمرهمْ، وفِي الآيةِ وعيدٌ شديدٌ لمنْ جعلَ معهُ تعالَى معبودًا آخرَ، وقدْ أشارَ كثيرٌ منَ المفسِّرينَ إلَى أنَّ قولهُ تعالَى: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ) عنَى بهِ مَا عجَّلهُ منْ إهلاكهمْ[21].

ومنَ الآياتِ التِي حملتْ الخبرَ التَّهديدِي لمنْ يجعلْ معَ اللهِ آلهةً أخرَى، قولهُ تعالَى: "وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ" [المؤمنون: 117].

والمعنَى: ومنْ يدعُ معَ اللهِ إلهًا آخرَ لَا برهانَ لهُ بهِ، أي: لَا حجَّةَ ولَا بيِّنةَ لهُ، بهِ لأنَّهُ لَا حجَّةَ فِي دعوَى الشِّركِ (فَإِنَّمَا حِسَابُهُ)، جزاؤهُ عندَ ربِّهِ يجازيهِ بعملهِ(22).

والمعنَى الذِي لهُ عندَ ربِّهِ، أنَّهُ لَا يفلحُ (فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) فيجازيهِ عليهِ كمَا قالَ:(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)[الغاشية: 26](23).

وفِي الآيةِ إنذارٌ لكلِّ منْ يدعُو معَ اللهِ إلهًا آخرَ ويشركهُ معهُ فِي الاتِّجاهِ والعبادةِ بدونِ برهانٍ، فحسابهُ عندَ ربِّهِ ولنْ يلقَى فلاحًا(24).

رابعًا: أسلوبُ الشَّرطِ:

ومنْ أساليبِ القرآنِ الكريمِ فِي النَّهيِ عنِ اتِّخاذِ آلهةٍ معَ اللهِ، وبيانِ أنَّهَا شركٌ: أسلوبُ الشَّرطِ، قالَ تعالَى فِي موضعٍ: "وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ" [المؤمنون: 117].

وفِي الآيةِ الكريمةِ منَ التَّهديدِ والوعيدِ مَا فيهِ، ومنَ التَّعبيرِ القرآنيِّ البديعِ: (فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) غايةٌ فِي التَّهديدِ والوعيدِ، واختيارِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ التِي تُشعرُ باللَّومِ والعتابِ علَى عدمِ رعايةِ العبدِ لهذهِ الرُّبوبيَّةِ، وخلطهَا بغيرهَا، وعدمِ عرفانِ العبدِ بهَا مبيَّنٌ أيْ بيانٌ عنْ عدمِ توفيقِ هذَا الذِي يستجلبُ علَى نفسهِ غضبَ ربِّهِ والرَّبُّ بصفاتهِ يعمُّ بفضلهِ مخلوقاتهِ، ويشملُ بفيضهِ جميعَ الكائناتِ، فالمحرومُ منْ حُرمَ هذهِ الرَّحمةَ علَى سعتهَا، والمغبونُ منْ جانبهُ هذَا الفضلَ علَى اتِّساعهِ وعمومهِ، والمخذولُ منْ خلاهُ هذَا التَّوفيقُ الرَّبَّانيُّ.

وقولهُ: (لَا بُرْهَانَ لهُ) معَ أنَّهُ معلومٌ أنَّهُ لَا يمكنُ أنْ يكونَ لهُ برهانٌ مشعرٌ بأنَّهُ ليسَ لديهِ أيَّ دليلٍ ولوْ كانَ الدَّليلُ وهميًّا علَى اتِّخاذِ هذَا معَ اللهِ تعالَى، فهوَ لَا حجَّةَ لهُ بالكفرِ ولَا عذرٍ يومَ القيامةِ، كمَا أنَّ تركيبَ الجملةِ بهذهِ الصُّورةِ، وورودِ الخاتمةِ: (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) هذَا الورودُ مشعرٌ بأنَّهُ جوابٌ لسؤالٍ سابقٍ أوْ مستترٍ كأنَّهُ قيلَ: لمَ كلُّ هذَا؟ فقيلَ: لأنَّهُ لَا يفلحُ الكافرونَ.

يقولُ الإمامُ البيضاويُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ) يعبدهُ إفرادًا أوْ إشراكًا (لَا بُرْهَانَ لهُ بِهِ) صفةٌ أخرَى لـ (إِلَهًا) لازمةٌ لهُ فإنَّ الباطلَ لَا برهانَ بهِ، جيءَ بهَا للتَّأكيدِ وبناءِ الحكمِ عليهِ تنبيهًا علَى أنَّ التَّديُّنَ بمَا لَا دليلَ عليهِ ممنوعٌ فضلًا عمَّا دلَّ الدَّليلُ علَى خلافهِ، أوِ اعتراضٍ بينَ الشَّرطِ والجزاءِ لذلكَ: (فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) فهوَ مُجازٌ لهُ مقدارُ مَا يستحقُّهُ[25].

ومن هذا الباب قوله تعالى: " قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا" [الإسراء: 42].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: قلْ لأهلِ مكَّةَ لوْ كانَ معهُ آلهةٌ كمَا يقولونَ منَ الأوثانِ، إذًا لابتغُوا إلَى ذِي العرشِ سبيلًا، أي: طريقًا وكانُوا كهيئتهِ، وقالَ قتادةُ: أي يعرفُوا فضلَ ذِي العرشِ ومرتبتهُ عليهمْ، ويقالُ: ابتغُوا طريقًا للوصولِ إليهِ، وقالَ مقاتلٌ: لطلبُوا سبيلًا ليقهروهُ كفعلِ الملوكِ بعضهمْ بعضًا، ثمَّ نزَّهَ نفسهُ عنِ الشَّريكِ، فقالَ تعالَى: سبحانهُ، أي :تنزيهًا لهُ وتعالَى عمَّا يقولونَ، أي: عمَّا يقولُ الظَّالمونَ إنَّ معهُ شريكًا، علوًّا كبيرًا، أي: بعيدًا عمَّا يقولُ الكفَّارُ[26].

وهذَا تنزيهٌ منَ اللهِ تعالَى ذكرهُ نفسهُ عمَّا وصفهُ بهِ المشركونَ، الجاعلونَ معهُ آلهةً غيرهُ، المضيفونَ إليهِ البناتَ، فقالَ: تنزيهًا للهِ وعلوًّا لهُ عمَّا تقولونَ أيُّهَا القومُ، منَ الفريةِ والكذبِ، فإنَّ مَا تضيفونَ إليهِ منْ هذهِ الأمورِ ليسَ منْ صفتهِ، ولَا ينبغِي أنْ يكونَ لهُ صفةٌ[27].

وهكذَا تتنوَّعُ أساليبُ القرآنِ الكريمِ فِي نفيِ وجودِ آلهةٍ معَ اللهِ تعالَى، وسبحانَ منْ عزَّ عنِ النَّظيرِ والشَّبيهِ وتعالَى عنِ الندِّ والمثيلِ.

---

(1) انظر: جامع البيان، الطبري 11/ 436 - معالم التنزيل، البغوي 2/ 301 - زاد المسير، ابن الجوزي 31/2.
(2) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 322/3.
(3) فتح القدير، الشوكاني 4/ 102.
(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه، 8/ 8.
(5) الكشاف، الزمخشري 2/ 657.
(6) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي 20/ 320 - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 5/ 64.
(7) في ظلال القرآن 4/ 2220.
(8) التحرير والتنوير 15/ 64.
(9) انظر: جامع البيان، الطبري 18/ 452 - التفسير الوسيط، الواحدي 5/ 758.
(10) تفسير السمعاني 3/ 243 - معالم التنزيل، البغوي 3/ 135.
(11) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 5/ 77.
(12) فتح القدير، الشوكاني 3/ 272.
(13) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 13/ 142 - مدارك التنزيل، النسفي 2/ 586.
(14) انظر: معالم التنزيل، البغوي 3/ 380 - تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 598.
(15) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود 267/6 - التحرير والتنوير، ابن عاشور 200/19.
(16) جامع البيان، الطبري 11/ 292.
(17) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 253.
(18) انظر: الكشاف، الزمخشري 2/ 11 - زاد المسير، ابن الجوزي 2/ 15.
(19) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 6/ 399.
(20) جامع البيان، الطبري 17/ 153.
(21) محاسن التأويل، القاسمي 6/ 346.
(22) معالم التنزيل، البغوي 3/ 378.
(23) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج 4/ 25.
(24) التفسير الحديث، محمد عزت 5/ 338.
(25) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي 3/ 97 - محاسن التأويل، القاسمي 7/ 306.
(26) انظر: تفسير السمرقندي 2/ 312.
(27) انظر: جامع البيان، الطبري 17/ 453 - التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي 1/ 447.

آثارُ المعيَّةِ الإلهيَّةِ:

للمعيَّةِ أثرٌ لَا يُنكرهُ عاقلٌ، وفضلٌ لَا يخفَى علَى متدبِّرٍ، فمعيَّةُ اللهِ تعالَى سرُّ النَّجاحِ ولبُّ الفلاحِ، ومدارُ الهدايةِ والتَّوفيقِ، والنَّصرِ والتَّأييدِ، والحفظِ والرِّعايةِ والحياطةِ والعنايةِ، فمنْ كانَ اللهُ تعالَى معهُ فمنْ يكونُ عليهِ، ومنْ كانَ اللهُ تعالَى عليهِ فمنْ يكونُ معهُ.

وقدْ قالَ قتادةُ: منْ يتَّقِ اللهَ يكنْ معهُ، ومنْ يكنِ اللهُ معهُ فمعهُ الفئةُ التِي لَا تُغلبُ، والحارسُ الذِي لَا ينامُ، والهادِي الذِي لَا يضلُّ(1).

فمنْ آثارِ المعيَّةِ، أوَّلًا: المراقبةُ:

فالمراقبةُ منْ أهمِّ آثارِ المعيَّةِ، سواءٌ كانتِ المراقبةُ منْ قِبَلِ العبدِ لربِّهِ أمْ منَ اللهِ تعالَى لعبدهِ، وإنْ كانَ الأغلبُ فيهَا مراقبةُ العبدِ لربِّهِ ونظرهِ لهُ ومشاهدتهِ إيَّاهُ فِي أعمالهِ وسلوكهِ، والمقصودُ منَ المراقبةِ: استدامةُ علمِ العبدِ باطِّلاعِ الربِّ عليهِ فِي جميعِ أحوالهِ(2).

وهوَ حينَ يتحقَّقُ بهذهِ الصِّفةِ ويتحلَّى بهذَا الخلقِ، يصلُ إلَى معانٍ تملأُ عليهِ نفسهُ بالخيرِ والرِّضَا واليقينِ والثَّباتِ، فهوَ فِي معيَّةِ اللهِ تعالَى يشعرُ بمراقبةِ اللهِ تعالَى لهُ فَيَجِّلُهُ عنْ أنْ يراهُ علَى غيرِ مَا يرضيهِ، أوْ يتفقدهُ فيمَا يرضيهِ، وهذَا المعنَى هوَ الواردُ فِي حديثِ الإيمانِ، إذْ يقولُ الرَّسولُ لجبريلَ عليهمَا الصَّلاةُ والسَّلامُ حينمَا سألهُ عنِ الإحسانِ: "أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لمْ تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ(3).

وقدْ غرستْ آياتُ المعيَّةِ الواردةِ فِي القرآنِ الكريمِ هذَا المعنَى فِي نفوسِ المؤمنينَ بصورٍ شتَّى، وألوانٍ متعدِّدةٍ، ومنْ هذهِ الآياتِ الكريمةِ قولهُ تعالَى لموسَى وهارونَ: "اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى"[طه: 43 - 46].

أي: إنَّنِي معكمَا بحفظِي وكلاءتِي ونصرِي وتأييدِي فلَا تخافَا منهُ، فإنَّنِي معكمَا أسمعُ كلامكمَا وكلامهُ، وأرَى مكانكمَا ومكانهُ، لَا يخفَى عليَّ منْ أمركمْ شيءٌ، واعلمَا أنَّ ناصيتهُ بيدِي، فلَا يتكلَّمُ ولَا يتنفَّسُ ولَا يبطشُ إلَّا بإذنِي وبعدَ أمرِي، وأنَا معكمَا بحفظِي ونصرِي وتأييدِي(4).

وفِي هذَا طمأنةٌ لهمَا بأنَّ فرعونَ ليسَ بالذِي يصلُ إلَى قتلهمَا حتَّى يبلِّغَا الرسالةَ، وأرادَ بذلكَ سبحانهُ تقويةَ قلوبهمَا وأنَّهُ متولٍّ لحفظهمَا وكلاءتهمَا(5).

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ فِي معنَى الآيةِ الكريمةِ: أسمعُ دعاءكمَا فأجيبهُ، وأرَى مَا يرادُ بكمَا فأمنعهُ(6).

ولذَا قالَ موسَى عليهِ السَّلامُ: الآنَ لَا أبالِي بعدمَا أنتَ معِي(7).

قالَ: (لَا تَخَافَا) أي: منْ فرطهِ وطغيانهِ (إِنَّنِي مَعَكُمَا) أي: بالحفظِ والنُّصرةِ (أَسْمَعُ وَأَرَى) أي: مَا يجرِي بينكمَا وبينهُ، فأرعاكمَا بالحفظِ(8).

وقدْ دلَّ اللهُ تعالَى عبادهُ علَى تصوُّرِ هذهِ المعيَّةِ منْ خلالِ تعريفهمْ أنَّ عليهمْ حافظينَ، كرامًا كاتبينَ، فليكرموهمْ وليراقبُوا أنفسهمْ فِي ضوءِ معرفةِ هؤلاءِ الكرامِ بهمْ.

ولذَا قالَ صاحبُ لطائفِ الإشاراتِ: حشمتهمْ منِ اطِّلاعِ الحقِّ، ولوْ علمُوا ذلكَ حقَّ العلمِ لكانَ توقِّيهمْ عنِ المخالفاتِ لرؤيتهِ سبحانهُ، واستحياؤهمْ منِ اطِّلاعهِ- أتمَّ منْ رؤيةِ الملائكةِ[9].

ثانيًا: النَّصرُ والتَّأييدُ:

ومنْ آثارِ المعيَّةِ نصرُ اللهِ تعالَى لعبدهِ الذِي يكونُ فِي معيَّتهِ، وتأييدهِ لهُ، وقدْ نصَّتْ آياتُ القرآنِ الكريمِ علَى هذَا الأثرِ منْ آثارِ المعيَّةِ، فاللهُ تعالَى يمدُّ عبيدهُ بنصرهِ ويؤيِّدهمْ بهِ، ومنْ هنَا دعاهمْ إلَى عدمِ الهوانِ أوِ التَّفريطِ والتَّسليمِ والتَّنازلِ والتَّخاذلِ، فهمْ أُولُو المعيَّةِ وأصحابِ نصرِ اللهِ تعالَى وتأييدهِ.

قالَ تعالَى آمرًا عبادهُ بمراعاةِ أثرِ هذهِ المعيَّةِ منَ النَّصرِ والتَّأييدِ: "فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ" [محمد: 35].

والمعنَى: أنتمُ الأعلونَ بالنُّصرةِ، وهوَ تعالَى معكمُ بالحفظِ، والمعونةِ[10]، والتَّأييدِ والتَّسديدِ، ومنْ كانَ اللهُ تعالَى معهُ بنصرهِ فمنْ يغلبهُ، ومنْ كانَ معهُ بتأييدهِ فمنْ يعلوهُ، ومنْ كانَ معهُ بتسديدهِ فمنْ يصرفهُ عنْ طريقِ الهدَى، أوْ يشغبَ علَى منهاجهِ المستقيمِ؟

كمَا أنَّ فِي ذلكَ لكلِّ منْ غُلبَ علَى حقِّهِ، وأوذيَ فِي اللهِ تعالَى أنْ يستصحبَ معيَّةَ اللهِ تعالَى ويتحقَّقَ بهَا، ففيهَا بشارةٌ

عظيمةٌ بالنَّصرِ والظَّفرِ علَى الأعداءِ، وقدْ قالَ تعالَى فِي الآيةِ نفسهَا: (وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ)، أي: ولنْ يحبطهَا ويبطلهَا ويسلبكمْ إيَّاهَا بلْ يوفِّيكمْ ثوابهَا ولَا ينقصكمْ منهَا شيئًا(11).
وشعورهمْ بأنَّ اللهَ تعالَى معهمْ بالعونِ، والنَّصرِ، والتَّأييدِ، موجبٌ لقوَّةِ قلوبهمْ، وإقدامهمْ علَى عدوِّهمْ(12).
ولذلكَ رأينَا رؤوسَ المصلحينَ والدُّعاةِ الصادقينَ علَى تباعدِ المكانِ وتطاولِ الزَّمانِ فِي أتونِ المحنةِ يهشونَ للعطاءِ ويستروحونَ نسائمَ المنحِ، فنسمعُ شيخَ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي محنتهِ يقولُ: مَا يصنعُ أعدائِي بِي؟ أنَا جنَّتِي وبستانِي فِي صدرِي، إنْ رحتَ فهيَ معِي لَا تفارقنِي، إنَّ حبسِي خلوةٌ، وقتلِي شهادةٌ، وإخراجِي منْ بلدِي سياحةٌ.
وكانَ يقولُ فِي محبسهِ فِي القلعةِ: لوْ بذلتُ لهمْ ملءَ هذهِ القلعةِ ذهباً مَا عدلَ عندِي شكرَ هذهِ النِّعمةِ، وكانَ يقولُ فِي سجودهِ وهوَ محبوسٌ: اللَّهمَّ أعنِّي علَى ذكركَ وشكركَ وحسنِ عبادتكَ، وقالَ مرَّةً: المحبوسُ منْ حبسَ قلبهُ عنْ ربِّهِ تعالَى، والمأسورُ منْ أسرهُ هواهُ(13).
وفِي اشتدادِ الصِّراعِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وهوَ سنَّةٌ منْ سننِ اللهِ الجاريةِ، والتِي لَا تتبدَّلُ ولَا تتحوَّلُ ينبِّههمْ سبحانهُ علَى معيَّتهِ لهمْ المقتضيةِ للنَّصرِ والعونِ والتَّأييدِ والتَّسديدِ، فيقولُ: " وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ" [التوبة: 36].
وفِي حلقةٍ منْ حلقاتِ الصِّراعِ بينَ الحقِّ والباطلِ، يُبيِّنُ عزَّ وجلَّ أنَّ معيَّتهُ ونصرهُ وتأييدهُ معَ عبادهِ الصَّابرينَ فيقولُ: " فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ

غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة:٢٤٩].

وهذَا إعلامٌ منهُ تعالَى ذكرهُ عبادهُ المؤمنينَ بهِ أنَّ بيدهِ النَّصرُ والظَّفرُ والخيرُ والشَّرُّ(14).

وأنَّ هذَا النَّصرَ ليسَ بهمْ بلْ بإذنِ اللهِ تعالَى، بمشيئتهِ وعونهِ ونصرتهِ، واللهُ معَ الصَّابرينَ بالنُّصرةِ والتَّأييدِ والقوَّةِ والمعونةِ(15).

وأعظمُ جالبٍ لمعونةِ اللهِ تعالَى صبرُ العبدِ للهِ، فوقعتْ موعظتهُ فِي قلوبهمْ وأثرتْ معهمْ(16).

وقدْ تكرَّرَ هذَا المعنَى فِي القرآنِ الكريمِ، ومنهُ فِي مقامِ دفعِ الكفَّارِ والحملةِ عليهمْ يَردُ قولهُ تعالَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ" [التوبة: 123].

وقدْ قالَ بعضُ الصَّحابةِ: إنَّمَا تقاتلونَ النَّاسَ بأعمالكمْ وأهلهَا همُ المجدُّونَ فِي طرقِ الحقِّ، فوعدَ تعالَى أنَّهُ معَ أهلِ التَّقوَى ومنْ كانَ اللهُ معهُ فلنْ يُغلبَ(17).

ومنْ روائعِ صاحبِ تفسيرِ المنارِ وبدائعهِ؛ أنْ يربطَ معنَى التَّقوَى للهِ تعالَى بالسُّننِ، فيرَى أنَّ تقواهُ تعنِي أيضًا مراعاتهُ فِي أحكامهِ وسننهِ، حتَّى يستجلبَ نصرهُ وتُستدعَى معونتهُ، فيرَى أنَّ المتَّقينَ هنَا همُ المتَّقونَ لهُ فِي مراعاةِ أحكامهِ وسننهِ بالمعونةِ والنَّصرِ، وأهمِّهَا مَا يجبُ اتِّقاؤهُ فِي الحربِ، منَ التَّقصيرِ فِي أسبابِ النَّصرِ والغلبِ التِي بيَّنهَا فِي كتابهِ، والتِي تُعرفُ بالعلمِ والتَّجاربِ، كإعدادِ مَا يُستطاعُ منْ قوَّةٍ، والصَّبرِ والثَّباتِ، والطَّاعةِ والنِّظامِ، وتركِ التَّنازعِ

والاختلافِ، وكثرةِ ذكرِ اللهِ تعالَى، والتوكُّلِ عليهِ فيمَا وراءَ الأسبابِ(18).

وفِي معيَّتِهِ تعالضى للملائكةِ يؤيِّدهمْ وينصرهمْ، ويعينهمْ ويثبِّتهمْ، ويأمرهمْ بتثبيتِ المؤمنينَ ونصرهمْ إذْ يقولُ تعالَى: " إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" [الأنفال: 12 – 13].

وفِي هذَا تعهُّدٌ منَ اللهِ تعالَى بإعانةِ أهلِ الإيمانِ الحقِّ، وبنصرتهمْ علَى غيرهمْ ولوْ كانُوا ثلَّةً قليلةً، مَا تمسَّكُوا بإيمانهمْ وثبتُوا علَى دينهمْ، وكانتْ صلتهمْ باللهِ تعالَى موصولةً غيرَ مقطوعةٍ(19).

والمعنَى: إنِّي أعينكمْ علَى تنفيذِ مَا آمركمْ بهِ منْ تثبيتهمْ علَى قلوبهمْ، حتَّى لَا يفرُّوا منْ أعدائهمْ علَى كونهمْ يفوقونهمْ عَدَدًا وعُدَدًا ومَدَدًا - إعانةَ حاضرٍ معكمْ لَا يخفَى عليهِ ولَا يعجزهُ شيءٌ منْ إعانتكمْ، والوعدُ بالإعانةِ وحدهُ لَا يفيدُ هذَا المعنَى كلِّهِ، ففِي المعيَّةِ معنَى زائدٌ علَى أصلِ الإعانةِ نعقلُ منهُ مَا ذُكِرَ، ولَا نعقلُ كنْهَهُ(20) وصفتهُ(21).

ومعنَى (أَنِّي مَعَكُمْ)أي: بالعونِ والنَّصرِ والتَّأييدِ، (فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءامَنُوا) أي: ألقُوا فِي قلوبهمْ، وألهموهمْ الجراءةَ علَى عدوِّهمْ، ورغِّبوهمْ فِي الجهادِ وفضلهِ(22).

ثالثًا: التَّوفيقُ والمحبَّةُ:

ومنْ ثمراتِ المعيَّةِ: التَّوفيقُ والمحبَّةُ، والدَّلالةُ علَى سبلِ الرَّشادِ، وطرقِ الهدايةِ، وتلكَ لهَا مقدِّماتهَا التِي تفضِي إلَى نتائجهَا، وأسبابهَا التِي تعينُ علَى الوصولِ إليهَا.

وقدْ قالَ تعالَى: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ" [العنكبوت: 29].

إنَّ هذهِ المعيَّةَ التي أدَّتْ إلَى الهدايةِ والتَّوفيقِ والمحبَّةِ ليستْ منْ فراغٍ، بلْ بُنيتْ علَى جهادٍ ومجاهدةٍ، وصبرٍ ومصابرةٍ، ودلالة قولهِ تعالَى (فِينَا) علَى جهةِ الجهادِ وصدقِ النيَّةِ فيهِ وتمحُّضِ المقصودِ بهِ مَا فيهِ، ومعنَى المعيَّةِ هنَا: بالعونِ والنَّصرِ والهدايةِ(23).

وإذَا تتبَّعنَا أقوالَ المفسِّرينَ فِي دلالةِ المعيَّةِ هنَا وجدنَا أكثرهمْ يركِّزُ علَى أنَّ المقصودَ بهَا هوَ النَّصرُ، والمقامُ هنَا ليسَ مقامَ صراعٍ بينَ فئتينِ، بلْ صراعٌ بينَ النَّفسِ البشريَّةِ ومتطلِّباتهَا، أوْ صراعٌ بينَ المحبوبِ والمكروهِ، والنَّصرُ هنَا هوَ نصرُ الهدايةِ والتَّوفيقِ والدَّلالةِ علَى سلامةِ المنحَى وصحَّةِ الطَّريقِ.

ولذَا قالَ الإمامُ الشَّوكانيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: المعيَّةُ هنَا بالنَّصرِ والعونِ، ومنْ كانَ معهُ لمْ يُخذلْ(24).

رابعًا: الحفظُ والرِّعايةُ:

ومنْ ثمراتِ المعيَّةِ كذلكَ حفظُ اللهِ تعالَى ورعايتهُ لمنْ كانَ فِي معيَّتهِ.

وتبدُو هذهِ المعيَّةُ وتظهرُ آثارهَا فِي الحفظِ والرِّعايةِ فِي مقامِ الدَّعوةِ فيبيِّنُ لهمْ تعالَى أنَّهُ حافظهمْ وراعيهمْ؛ حتَّى يطمئنَّ أصحابُ الدَّعواتِ والذينَ يكونونَ فِي معيَّتهِ تعالَى أنَّهمْ محفوظونَ ومراعونَ منْ قبلِ ربِّهمْ، فهو ناصرهمْ ومعينهمْ ومؤيِّدهمْ ومثبِّتهمْ، كمَا قالَ تعالَى: "وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ" [النحل: 127 – 128].

والمقصودُ منْ معيَّتهِ تعالَى هنَا أنَّهُ سبحانهُ يعينهمْ ويحفظهمْ منْ مكرِ الأعداءِ بهمْ، وينصرهمْ عليهمْ، فهيَ معيَّةُ رعايةٍ وحفظٍ[25].

ودلَّتْ آياتٌ كثيرةٌ علَى هذَا المعنَى منهَا قولهُ تعالَى فِي حقِّ النَّبيِّ ﷺ وصاحبهِ إذْ همَا فِي الغارِ: "إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [التوبة: 40].

وأيُّ فضلٍ أعظمُ منْ هذهِ المعيَّةِ التِي يُنالُ بهَا صاحبهَا السَّكينةُ والتَّأييدُ وعلوِّ الكلمةِ وأصبحَ فِي جوارِ العزيزِ الحكيمِ، ومعنى (إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا): أي: بالنَّصرِ والرِّعايةِ والحفظِ والكلاءةِ[26].

والمعنَى: (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ) أي: إنْ لمْ تنصروهُ فسينصرهُ اللهُ كمَا نصرهُ، (إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ) ولمْ يكنْ معهُ إلَّا رجلٌ واحدٌ، أوْ إنْ لمْ تنصروهُ فقدْ أوجبَ اللهُ تعالَى لهُ النَّصرَ حتَّى نصرهُ فِي مثلِ ذلكَ الوقتِ فلنْ يخذلهُ فِي غيرهِ، (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ) وهوَ أبُو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) بالعصمةِ والمعونةِ[27].

وتلكَ سنَّةُ اللهِ تعالَى فِي رسلهِ وأنبيائهِ، وهيَ ماضيةٌ معَ عبادهِ المؤمنينَ الذينَ نالُوا شرفَ معيَّتهُ عزَّ وجلَّ، فكمَا كانَ للمعيَّةِ أثرُ الحفظِ والرِّعايةِ معَ رسولنَا ﷺ وصاحبهِ، كانَ لهَا نفسُ الأثرِ معَ موسَى وهارونَ منْ قبلُ، حينمَا أمرهمَا اللهُ تعالَى بالذَّهابِ إلَى فرعونَ لبلاغِ الرِّسالةِ، واستخلاصِ بنِي إسرائيلَ منْ قهرهِ وسخرتهِ، قالَ تعالَى حاكيًا عنهمَا: "قَالَا

رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ" [طه: 45 – 46].

والمرادُ بـ (لَا تَخَافَا) ممَّا عرضَ فِي قلبكمَا منَ الإفراطِ والطُّغيانِ؛ لأنَّ ذلكَ هوَ المفهومُ منَ الكلامِ، يبيِّنُ ذلكَ أنَّهُ تعالَى لمْ يؤمِّنهمَا منَ الردِّ ولَا منَ التَّكذيبِ بالآياتِ ومعارضةِ السَّحرةِ، وقولهُ: (إِنَّنِ مَعَكُمَآ) عبارةٌ عنِ الحراسةِ والحفظِ، وأكدَّ ذلكَ بقولهِ تعالَى: (أَسْمَعُ وَأَرَى) فبيَّنَ سبحانهُ وتعالَى أنَّهُ معهمَا بالحفظِ والعلمِ فِي جميعِ مَا ينالهمَا، وذلكَ هوَ النِّهايةُ فِي إزالةِ الخوفِ.

قالَ القفَّالُ: قولهُ: (أَسْمَعُ وَأَرَى) يحتملُ أنْ يكونَ مقابلًا لقولهِ: (أَن يَّفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَّطْغَى) والمعنَى: يفرطَ علينَا بأنْ لَا يسمعَ منَّا: أوْ أنْ يطغَى بأنْ يقتلنَا، فقالَ اللهُ تعالَى: إنَّني معكمَا أسمعُ كلامهُ معكمَا فأسخِّرهُ للاستماعِ منكمَا، وأرَى أفعالهُ فلَا أتركهُ حتَّى يفعلَ بكمَا مَا تكرهانهِ، واعلمَا أنَّ ناصيتهُ بيدِي، فلَا يتكلَّمُ ولَا يتنفَّسُ ولَا يبطشُ إلَّا بإذنِي وبعدَ أمرِي، وأنَا معكمَا بحفظِي ونصرِي وتأييدِي(28).

وهذَا مَا كانَ، فقدْ تحقَّقَ وعدهُ عزَّ وجلَّ، سواءٌ فِي بلاغِ الرِّسالةِ أوْ فِي حفظِ موسَى وهارونَ منْ فرعونَ وجندهِ، وتيقَّنَ موسَى منْ هذَا حتَّى معَ مَا كانَ فِي قلبهِ فِي بدايةِ الدَّعوةِ منْ خوفٍ بشريٍّ فطريٍّ جعلهُ يقولُ مَا يقولُ.

إلَّا أنَّنَا نراهُ فِي موقفٍ أشدَّ وأحدَّ فِي موقفِ عبورِ النَّهرِ وهوَ يقولُ لقومهِ رادعًا لهمْ وزاجرًا عنْ أوهامهمْ عندمَا قالُوا: إنَّا لَمُدْرَكُونَ: "قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ" [الشعراء: 62].

فنبَّههمْ موسَى أنْ ليسَ الأمرُ كمَا ذكرتمْ، كلَّا لنْ تُدركُوا إنَّ معيَ ربِّي سيهدينِي، يقولُ: سيهدينِي لطريقٍ أنجُو فيهِ منْ فرعونَ وقومهِ وسيكفينِي، أي: للنَّجاةِ، وقدْ وعدنِي ذلكَ، ولَا خلفَ لموعودهِ(29).

وفِي بيانِ موسَى عليهِ السَّلامُ وردِّهِ علَى قومهِ بهذهِ الشدَّةِ (كَلَّا) مَا فيهِ منْ توكيدٍ ويقينٍ وثقةٍ واطمئنانٍ إلَى قدرةِ اللهِ الحافظِ ونصرتهِ وهوَ المعينُ (كَلَّا) فِي شدَّةٍ وَتوكيدٍ، كلَّا لنْ نكونَ مدركينَ، كلَّا لنْ نكونَ هالكينَ، كلَّا لنْ نكونَ مفتونينَ، كلَّا لنْ نكونَ ضائعينَ، كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِي.

نعمْ، بهذَا الجزمِ والتَّأكيدِ واليقينِ.

ثمَّ فِي اللَّحظةِ الأخيرةِ ينبثقُ الشُّعاعُ المنيرُ فِي ليلِ اليأسِ والكربِ، وينفتحُ طريقُ النَّجاةِ منْ حيثُ لَا يحتسبونَ[30][31].

(1) انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم 340/2.
(2) التعريفات، الجرجاني ص 210.
(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل، 19/1، رقم 50 - ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، 1/ 39، رقم 9.
(4) انظر: تفسير القرآن العظيم 6/ 124 - 261/5.
(5) انظر: تفسير يحيى بن سلام 1/ 261 - فتح القدير، الشوكاني 4/ 111.
(6) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي، معالم التنزيل، البغوي 5/ 276.
(7) لطائف الإشارات، القشيري 2/ 458.
(8) محاسن التأويل، القاسمي 7/ 127.
(9) لطائف الإشارات 3/ 698.
(10) انظر: تفسير السمعاني 5/ 185 - زاد المسير 4/ 123.
(11) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 7/ 299.
(12) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 790.
(13) المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية 1/ 135 – الوابل الصيب ص 48.
(14) جامع البيان، الطبري 5/ 316.
(15) انظر: لطائف الإشارات، القشيري 1/ 194.
(16) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 108.
(17) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية 3/ 98 - فتح القدير، الشوكاني 2/ 484.
(18) تفسير المنار، محمد رشيد رضا 11/ 66.
(19) التيسير في أحاديث التفسير 2/ 314.
(20) الكنه: جوهر الشيءِ وحقيقتهُ (معجم المعاني)
(21) تفسير المنار 10/ 107.
(22) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 316.
(23) المصدر السابق ص 636.
(24) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل 15/ 380.
(25) انظر: معاني القرآن، الزجاج 3/ 224 - التفسير الوسيط، الواحدي 5/ 708.
(26) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 8/ 146.
(27) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 136/4 - محاسن التأويل، القاسمي 5/ 419.
(28) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي 22/ 54 - اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل 258/13.
(29) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٥٦، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١١٨.
(30) في ظلال القرآن، سيد قطب 5/ 2599.
(31) كل الباب مقتبس من موقع: موسوعة التفسير المضوعي للقرآن الكريم.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: الدُّعاءُ والدَّعوةُ، يشملُ دعاءَ العبادةِ، فيدخلُ فيهِ كلُّ عبادةٍ أمرَ اللهُ بهَا ورسولهُ ﷺ.

ودعاءُ المسألةِ، وهوَ: سؤالُ اللهِ جلبَ المنافعِ، ودفعَ المضارِّ.

~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~

فقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بالدُّعاءِ فِي كتابهِ الكريمِ وحثَّ عليهِ ومدحَ الدَّاعينَ وأنذرَ المعرضينَ عنْ دعائهِ سبحانهُ فِي مواقعَ كثيرةٍ وقالَ: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" [البقرة: 186].

وقالَ تعالَى: "ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" [الأعراف: 55].

وقالَ سبحانهُ: "وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ" [غافر: 60].

وقالَ فِي النَّهي عنْ دعاءِ غيرِ اللهِ تعالَى: "وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" [القصص: 88].

وقالَ جلَّ جلالهُ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ" [الحج: 73].

وقدْ شرحَ الشَّيخُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى هذهِ القاعدةَ فِي كتابهِ القواعدُ الحسانُ بقولهِ: كلُّ مَا وردَ فِي القرآنِ منْ الأمرِ بالدُّعاءِ، والنَّهيِ عنْ دعاءِ غيرِ اللهِ، والثَّناءِ علَى الدَّاعينَ، تناولَ دعاءَ المسألةِ ودعاء العبادةِ.

وهذهِ قاعدةٌ نافعةٌ، فإنَّ أكثرَ النَّاسِ إنَّمَا يتبادرُ لهمْ منْ لفظِ الدُّعاءِ والدَّعوةِ: دعاءُ المسألةِ فقطْ، ولَا يظنُّونَ دخولَ جميعَ العباداتِ فِي الدُّعاءِ.

ويدلُّ علَى عمومِ ذلكَ: قولهُ تعالَى: "وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" [غافر: 60]، أيْ أستجبْ طلبكمْ، وأتقبَّلُ عملكمْ ثمَّ قالَ تعالَى: "إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ" [غافر: 60]، فسمَّى ذلكَ عبادةً، وذلكَ لأنَّ الدَّاعِي دعاءَ المسألةِ يطلبُ مسئولهُ بلسانِ المقالِ، والعابدِ يطلبُ منْ ربِّهِ القبولَ والثَّوابَ، ومغفرةَ ذنوبهِ بلسانِ الحالِ[1].

الدُّعاء لغةً:

كلمةُ الدُّعاءِ فِي الأصلِ مصدرٌ منْ قولكَ: دعوتُ الشَّيءَ أدعوهُ دعاءً، وهوَ أنْ تُميلَ الشَّيءَ إليكَ بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منكَ[2].

قالَ ابنُ منظورٍ: "دعَا الرجلَ دعوًا ودعاءً: ناداهُ، والاسمُ: الدَّعوةُ، ودعوتُ فلانًا: أيْ صِحتُ بهِ واستدعيتهُ[3].

الدُّعاءُ اصطلاحًا (شرعًا):

عُرِّفَ بعدَّةِ تعريفاتٍ:

فقالَ الخطابيُّ: "معنَى الدُّعاءِ استدعاءُ العبدِ ربَّهُ عزَّ وجلَّ العنايةَ، واستمدادُهُ منهُ المعونةَ، وحقيقتهُ: إظهارُ الافتقارِ

إلَى اللهِ تعالَى، والتبرُّؤِ منَ الحولِ والقوّةِ، وهوَ سمةُ العبوديَّةِ، واستشعارُ الذلَّةِ البشريَّةِ، وفيهِ معنَى الثَّناءِ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ، وإضافةُ الجودِ والكرمِ إليهِ"(4).

وقالَ ابنُ منظورٍ: "هوَ الرَّغبةُ إلَى اللهِ عزَّ وجلَّ"(5).

معانِي الدُّعاءِ فِي القرآنِ الكريمِ:

ورَدَ الدُّعاءُ فِي القرآنِ الكريمِ علَى وجوهٍ، منهَا:

1) العبادةُ، كمَا فِي قولِهِ تعالَى: "وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ" [الكهف: 28]، وقولهُ تعالَى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ" [الأعراف: 194].

2) الطلبُ والسؤالُ منَ اللهِ سبحانهُ، كمَا فِي قولِهِ تعالَى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ" [البقرة: 186]، وقولهُ تعالَى: "وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" [غافر:60].

3) الاستغاثةُ، كمَا فِي قولِهِ تعالَى: "قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ" [الأنعام: 41،40]، وقولهُ تعالَى: "وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" [البقرة: 23].

---

(1) القواعد الحسان.

(2) انظر: مقاييس اللغة (279/2).

(3) لسان العرب مادة (د ع و).

(4) شأن الدعاء (ص4).

(5) لسان العرب مادة (د ع و).

4) النِّداءُ، كمَا فِي قولـهِ تعالَى: "يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ"[الإسراء: 52]، وقوله تعالى: "إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا"[القصص: 25].

5) توحيدُ اللهِ وتمجيدهُ والثَّناءُ عليهِ، كمَا فِي قولـهِ تعالَى: "قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ"[الإسراء: 110].

6) الحثُّ علَى الشَّيءِ، كمَا فِي قولـهِ تعالَى: "قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ"[يوسف: 33]، وقولـهُ تعالَى: "وَٱللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَامِ"[يونس: 25].

7) رفعةُ القدرِ، كمَا فِي قولـهِ تعالَى: "لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلاَ فِى ٱلآخِرَةِ"[غافر: 43].

8) القولُ، كمَا فِي قولـهِ تعالَى: "فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُم بَأْسُنَا إِلا أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ"[الأعراف: 5].

9) سؤالُ الاستفهامِ، كمَا فِي قولـهِ تعالَى: "ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيّنَ لَّنَا مَا هِىَ"[البقرة: 68].

10) التَّسميةُ، كمَا فِي قولـهِ تعالَى: "لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَاء ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُمْ بَعْضاً"[النور: 63]، وقولـهُ تعالَى: "قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلأَسْمَاء ٱلْحُسْنَىٰ"[الإسراء: 110]، قالَ ابنُ القيِّمِ: "ليسَ المرادُ مجرَّدَ التَّسميةِ الخاليةِ عنِ العبادةِ والطَّلبِ، بلِ التَّسميةُ الواقعةُ فِي دعاءِ الثَّناءِ والطَّلبِ، فعلَى هذَا المعنَى يصحُّ أنْ يكونَ فِي (تَدْعُوا) معنَى (تُسَمُّوا) فتأملهُ، والمعنَى: أيًّا مَا تُسمُّوا فِي ثنائكمْ ودعائكمْ وسؤالكمْ"(1).

11) وقيلَ: وردَ بمعنَى العذابِ، كمَا فِي قولِهِ تعالَى: "تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ" [المعارج: 17]، قالَ المبردِ: "تدعُو أيْ: تعذِّبَ"، وقالَ غيرهُ: "تناديهمْ واحدًا واحدًا بأسمائهمْ"، قالَ السَّمعانِي: "وهوَ الأظهرُ"[2].

تعريفُ دعاءِ العبادةِ ودعاءُ المسألةِ:

الدُّعاءُ الذِي حثَّ اللهُ تعالَى عليهِ فِي كتابِهِ، ووعدَ المخلصينَ فيهِ بجزيلِ ثوابِهِ، نوعانِ: دعاءُ المسألةِ، ودعاءُ العبادةِ[3].

فدعاءُ المسألةِ هوَ: طلبُ مَا ينفعُ الدَّاعِي، وطلبُ كشفِ مَا يضرهُ ودفعهُ[4].

وأمَّا دعاءُ العبادةِ فهوَ: التَّقرُّبُ إلَى اللهِ تعالَى بجميعِ أنواعِ العبادةِ، الظَّاهرةِ والباطنةِ، منَ الأقوالِ والأعمالِ، والنيَّاتِ والتُّروكِ، التِي تملأُ القلوبَ بعظمةِ اللهِ وجلالهِ[5].

الفرقُ بينَ دعاءِ العبادةِ ودعاءُ المسألةِ:

أوَّلًا: دعاءُ المسألةِ: هوَ طلبُ مَا ينفعُ، أوْ طلبُ دفعِ مَا يضرُّ، بأنْ يسألَ اللهَ تعالَى مَا ينفعهُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، ودفعَ مَا يضرُّهُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ.

---

(1) انظر بدائع الفوائد (5/3).

(2) تفسير السمعاني (47/6).

(3) انظر: النبوات (ص136).

(4) انظر: مجموع الفتاوى (10/15)، بدائع الفوائد (2/3).

(5) انظر: تصحيح الدعاء (ص17).

كالدُّعاءِ بالمغفرةِ والرَّحمةِ، والهدايةِ والتَّوفيقِ، والفوزِ بالجنَّةِ، والنَّجاةِ منَ النَّار، وأنْ يؤتيهِ اللهُ حسنةً فِي الدُّنيَا، وحسنةً فِي الآخرةِ ... إلخ.

ثانيًا: دعاءُ العبادةِ: والمرادُ بهِ أنْ يكونَ الإنسانُ عابداً للهِ تعالَى، بأيِّ نوعٍ منْ أنواعِ العباداتِ، القلبيَّةِ أوِ البدنيَّةِ أوِ الماليَّةِ، كالخوفِ منَ اللهِ ومحبَّةِ رجائهِ والتوكُّلِ عليهِ، والصَّلاةِ والصِّيامِ والحجِّ، وقراءةِ القرآنِ والتَّسبيحِ والذِّكرِ، والزَّكاةِ والصَّدقةِ والجِّهادِ فِي سبيلِ اللهِ، والدَّعوةِ إلَى اللهِ، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكرِ ... إلخ.

فكلُّ قائمٍ بشيءٍ منْ هذهِ العباداتِ فهوَ داعٍ للهِ تعالَى[1].

والغالبُ أنَّ كلمةَ (الدُّعاءِ) الواردةِ فِي آياتِ القرآنِ الكريمِ يرادُ بهَا المعنيانِ معاً؛ لأنَّهمَا متلازمانِ، فكلُّ سائلٍ يسألُ اللهُ بلسانهِ فهوَ عابدٌ لهُ، فإنَّ الدُّعاءَ عبادةٌ، وكلُّ عابدٍ يصلِّي للهِ أوْ يصومُ أوْ يحجُّ فهوَ يفعلُ ذلكَ يريدُ منَ اللهِ تعالَى الثَّوابَ والفوزَ بالجنَّةِ والنَّجاةِ منَ العقابِ.

قالَ الشَّيخُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى:

كلُّ مَا وردَ فِي القرآنِ منَ الأمرِ بالدُّعاءِ، والنَّهيِ عنْ دعاءِ غيرِ اللهِ، والثَّناءِ علَى الدَّاعينَ، يتناولُ دعاءَ المسألةِ، ودعاءَ العبادةِ[2]. انتهى

وقدْ يكونُ أحدَ نوعيِ الدُّعاءِ أظهرَ قصدًا منَ النَّوعِ الآخرِ فِي بعضِ الآياتِ.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي قولِ اللهِ عزّ وجلّ: "ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ *

وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ" [الأعراف: 55 – 56]:

"هاتانِ الآيتانِ مشتملتانِ علَى آدابِ نوعَيِ الدُّعاءِ: دعاءُ العبادةِ، ودعاءُ المسألةِ:

فإنّ الدُّعاءَ فِي القرآنِ يرادُ بهِ هذَا تارةً وهذَا تارةً، ويرادُ بهِ مجموعهمَا؛ وهمَا متلازمانِ؛ فإنّ دعاءَ المسألةِ: هوَ طلبُ مَا ينفعُ الدّاعِي، وطلبُ كشفِ مَا يضرُّهُ ودفعِهُ،... فهوَ يدعُو للنَّفعِ والضرِّ دعاءَ المسألةِ، ويدعُو خوفاً ورجاءً دعاءَ العبادةِ؛ فعُلمَ أنَّ النَّوعانِ متلازمانِ؛ فكلُّ دعاءِ عبادةٍ مستلزمٌ لدعاءِ المسألةِ، وكلُّ دعاءِ مسألةٍ متضمنٌ لدعاءِ العبادةِ.

وعلَى هذَا فقولهُ: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فإنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذَا دَعَانِ" يتناولُ نوعيِ الدُّعاءِ ... وبكلٍّ منهمَا فُسِّرتِ الآيةُ، قيلَ: أُعطيهِ إذَا سألنِي، وقيلَ: أُثيبهُ إذَا عبدنِي، والقولانِ متلازمانِ.

وليسَ هذَا منِ استعمالِ اللَّفظِ المشتركِ فِي معنييهِ كليهمَا، أوِ استعمالِ اللَّفظِ فِي حقيقتهِ ومجازهِ؛ بلْ هذَا استعمالهُ فِي حقيقتهِ المتضمِّنةِ للأمرينِ جميعاً[3].

العلاقةُ بينَ النَّوعينِ:

دعاءُ المسألةِ ودعاءُ العبادةِ متلازمانِ؛ وذلكَ منْ وجهينِ:

الأوَّلُ: منْ جهةِ الدَّاعِي : فإنَّ دعاءهُ بنوعيهِ مبنِي علَى الخوفِ والرَّجاءِ.

قالَ ابنُ تيميَّةَ: "وكلُّ سائلٍ راغبٌ وراهبٌ، فهوَ عابدٌ للمسؤولِ، وكلُّ عابدٍ لهُ فهوَ أيضًا راغبٌ وراهبٌ، يرجُو

رحمتهُ ويخافُ عذابهُ، فكلُّ عابدٍ سائلٍ، وكلُّ سائلٍ عابدٍ، فأحدُ الاسمينِ يتناولُ الآخرَ عندَ تجرُّدِهِ عنهُ، ولكنْ إذَا جمعَ بينهمَا فإنَّهُ يرادُ بالسَّائلِ الذِي يطلبُ جلبَ المنفعةِ ودفعَ المضرَّةِ بصيغِ السُّؤالِ والطَّلبِ، ويرادُ بالعابدِ منْ يطلبُ ذلكَ بامتثالِ الأمرِ، وإنْ لمْ يكنْ فِي ذلكَ صيغُ سؤالٍ، والعابدُ الذِي يريدُ وجهَ اللهِ والنَّظرِ إليهِ، هوَ أيضًا راجٍ خائفٌ راغبٌ راهبٌ، يرغبُ فِي حصولِ مرادهِ، ويرهبُ منْ فواتهِ، قالَ تعالَى: "إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَبا" [الأنبياء:90]، وقالَ تعالَى: تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً" [السجدة:16]، ولَا يتصوَّرُ أنْ يخلُو داعٍ للهِ (دعاءَ عبادةٍ أوْ مسألةٍ) منَ الرَّغبِ والرَّهبِ، ومنَ الخوفِ والطمعِ"(4).

والثَّانِي: منْ جهةِ المدعُو: فإنَّهُ لَا بدَّ أنْ يكونَ مالكًا للنَّفعِ والضرِّ.

قالَ ابنُ القيِّمِ: "كلُّ منْ يملكُ الضرَّ والنَّفعَ، فإنَّهُ هوَ المعبودُ حقًّا، والمعبودُ لَا بدَّ أنْ يكونَ مالكًا للنَّفعِ والضرِّ، ولهذَا أنكرَ اللهُ تعالَى علَى منْ عبدَ منْ دونهِ مَا لَا يملكُ ضرًّا ولَا نفعًا، وذلكَ كثيرٌ فِي القرآنِ، كقولهِ تعالَى: "وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ" [يونس:18]، وقولهِ تعالَى: "وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ" [يونس:106]، وقولهِ تعالَى: "قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ" [المائدة: 76]، فنفَى سبحانهُ عنْ هؤلاءِ المعبودينَ منْ دونهِ النَّفعَ والضرَّ، القاصرَ والمتعدِّي، فلَا يملكونهُ لأنفسهمْ ولَا لعابديهمْ، وهذَا فِي القرآنِ كثيرٌ، بيْدَ أنَّ

المعبودَ لَا بدَّ أنْ يكونَ مالكًا للنَّفعِ والضرِّ، فهوَ يُدعَى للنَّفعِ والضرِّ دعاءَ المسألةِ، ويُدعَى خوفًا ورجاءً دعاءَ العبادةِ، فعُلِمَ أنَّ النَّوعينِ متلازمانِ، فكلُّ دعاءِ عبادةٍ مستلزمٌ لدعاءِ المسألةِ، وكلُّ دعاءِ مسألةٍ متضمِّنٌ لدعاءِ العبادةِ(5).

حكمُ الدُّعاءِ:

حكمُ الدُّعاءِ: هوَ الوجوبُ وجبًا عينيًّا، والدَّليلُ علَى ذلكَ:

قالَ أهلُ السنَّةِ والجماعةِ: الدُّعاءُ واجبٌ، ولَا يستجابُ منهُ إلاّ مَا وافقَ القضاءَ المُبرمَ، ويُستجابُ حتَّى إنْ لمْ يوافقْ القضاءَ المعلَّقَ بإذنِ اللهِ تعالَى، لقولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: " لا يردُّ القضاءَ إلَّا الدُّعاءُ ، ولا يزيدُ في العمرِ إلَّا البرُّ"(6).

فالقضاءُ قضاءانِ: قضاءٌ مبرمٌ، وقضاءٌ معلَّقٌ، فالقضاءُ المبرمُ هوَ مَا قضاهُ اللهُ تعالَى منْ غيرِ أنْ يعلِّقهُ بفعلٍ، وهوَ نافذٌ لَا يتغيَّرُ، وهوَ الواردُ فِي قولِ اللهِ تعالَى: "وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ"[الرعد:11]، وأشارَ إليهِ النَّبيُّ ﷺ فِي حديثٍ طويلٍ وفيهِ: "... وإنَّ ربِّي قالَ: يَا محمَّدُ، إنِّي إذَا قضيتُ قضاءً فإنَّهُ لَا يُردُّ ..."(7).

والقضاءُ الثَّانِي: القضاءُ المعلَّقُ، وهوَ مَا قضاهُ اللهُ تعالَى وقضَى أنَّهُ يندفعُ أوْ يتغيَّرُ بفعلٍ منَ العبدِ، وعليهِ يُحملُ الحديثُ الأوَّلُ وهوَ: "لَا يردُّ القضاءَ إلَّا الدُّعاءَ"، فمثالُهُ: أنَّ الإنسانَ ميتٌ لامحالةَ فهذَا قضاءٌ مبرمٌ لَا يتغيَّرُ بحالٍ، ومدَّةُ حياتهِ هيَ قضاءٌ أيضًا، ولكنَّ المدَّةَ معلَّقةٌ بفعلِ العبدِ مصداقًا لقولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "ولَا يزيدُ فِي العمرِ إلَّا البرُّ" وهوَ القضاءُ المعلَّقُ، والمسلمُ مطالبٌ علَى الوجوبِ بالدُّعاءِ

فقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بهِ، وحضَّ عليهِ، فقالَ سبحانهُ: "ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ" [غافر:60]، وقالَ: "ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً" [الأعراف:55]، وقالَ: "قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ" [الفرقان:77]، والآياتُ فِي البابِ كثيرةٌ، ولمَّا ذكرَ اللهُ تعالَى جملةَ مَا أمرَ بهِ ذكرَ منْ بينِ ذلكَ الدُّعاءَ فقالَ تعالَى: "قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ" [الأعراف: 29].

قالَ الخطَّابِي: "فأمَّا منْ ذهبَ إلَى إبطالِ الدُّعاءِ، فمذهبهُ فاسدٌ... ومنْ أبطلَ الدُّعاءَ فقدْ أنكرَ القرآنَ وردَّهُ، ولَا خفاءَ بفسادُ قولهِ، وسقوطِ مذهبِهِ"(8).

وقالَ الشَّوكانِي: "إنَّهُ سبحانهُ وتعالَى أمرَ عبادهُ أنْ يدعوهُ، ثمَّ قالَ: "إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى" [غافر:60]، فأفادَ ذلكَ أنَّ الدُّعاءَ عبادةٌ، وأنَّ تركَ دعاءِ الربِّ سبحانهُ استكبارٌ، ولَا أقبحَ منْ هذَا الاستكبارِ"(9).

وعنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "منْ لمْ يسألِ اللهَ يغضبُ عليهِ"(10).

وقالَ المناوِي: "لأنَّ تاركَ السُّؤالِ إمَّا قانطٌ وإمَّا متكبِّرٌ، وكلُّ واحدٍ منَ الأمرينِ موجبُ الغضبِ"، ثمَّ نقلَ عنِ ابنِ القيِّمِ قولهُ: "هذَا يدلُّ علَى أنَّ رضاهُ فِي مسألتهِ وطاعتهِ، وإذَا رضيَ الربُّ تعالَى فكلُّ خيرٍ فِي رضاهُ، كمَا أنَّ كلَّ بلاءٍ ومصيبةٍ فِي غضبهِ... فهوَ تعالَى يغضبُ علَى منْ لمْ يسألهُ، كمَا أنَّ الآدميَّ يغضبُ علَى منْ يسألهُ"(11).

وقالَ المباركفورِي: "لأنَّ تركَ السُّؤالَ تكبُّرٌ واستغناءٌ وهذَا لَا يجوزُ للعبدِ"، ونقلَ عنِ الطَّيبِي قولهُ: "وذلكَ لأنَّ اللهَ يحبُّ

أنْ يُسألَ منْ فضلهِ، فمنْ لمْ يسألِ اللهَ يبغضهُ، والمبغوضُ مغضوبٌ عليهِ لَا محالةَ"[12].

ونختمُ هذَا المبحثَ بحديثِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ، رضيَ اللهُ عنهُ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "إنَّ الدُّعاءَ هوَ العبادةُ ، ثمَّ قرأَ: "أُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عنْ عِبَادَتِي"[غافر: 60]"[13].

وإنْ أردتَ أنْ تعرفَ فضلَ الدُّعاءِ وفوائدهِ، اعرفْ فضلَ الشَّهادتينِ وفضلهمَا.

---

(1) انظر: "القول المفيد" (264/1)، "تصحيح الدعاء" (ص 15- 21).

(2) القواعد الحسان للسعدي.

(3) مجمع الفتاوى.

(4) مجموع الفتاوى (10/239-240).

(5) بدائع الفوائد (3/2-3).

(6) حديث حسن رواه الترمذي عن سلمان الفارسي، وحسَّنه الألباني.

(7) رواه مسلم (2889).

(8) شأن الدعاء (ص8-9).

(9) تحفة الذاكرين (ص 28).

(10) أخرجه أحمد (442/2)، والترمذي (3373)، وابن ماجه (3827)، وصححه الحاكم (491/1)، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (512).

(11) فيض القدير (12/3).

(12) تحفة الأحوذي (221/9).

(13) رواه "أحمد" في "المسند" (18352)، و"البخاري" في "الأدب المفرد" (714).

ثمَّ قالَ الإمامُ السَّعدي رحمهُ اللهُ تعالَى: الطيِّباتُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ طيِّبٍ نافعٍ، منَ العقائدِ، والأخلاقِ، والأعمالِ، والمآكلِ، والمشاربِ والمكاسبِ، والخبيثُ ضدُّ ذلكَ.

وقدْ يُرادُ بالخبيثِ: الرَّديءُ، وبالطيِّبِ: الخيارُ كقولهِ تعالَى: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ".

~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى لفظَ الطيِّبات فِي القرآنِ فِي كثيرٍ منَ المواضعِ وقالَ سبحانهُ: "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ" [المائدة: 4].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: "إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ" [فاطر: 10].

وقالَ جلَّ جلالهُ: "يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا" [المؤمنون: 51].

وقالَ تعالَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ" [البقرة: 267].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: "قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ" [آل عمران: 38].

وقالَ: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ" [إبراهيم: 24].

وقالَ: "حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ" [يونس: 22].

وقالَ: "وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ" [الأعراف: 58].
~~~~~~~~~~~

وقالَ: "وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ" [النور: 26].

وقدْ ذُكرَ اللهُ سبحانهُ الطيِّباتِ عمومًا وذكرهَا خصوصًا منْ أقوالٍ وأعمالٍ وعقائدَ وأماكنَ وأشخاصٍ، وذكرَ سبحانهُ الطَّيِّباتَ ومعهَا نقيضهَا وهيَ الخبائثُ، عمومًا وخصوصًا كذلكَ.

فقالَ جلَّ جلالهُ: "وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ" [الأعراف: 157].

وقالَ تعالَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ" [البقرة: 267].

وقالَ سبحانهُ: "الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ" [النور: 26] .

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ" [إبراهيم: 26].

وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ" [الأنبياء: 74].

مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ" [آل عمرانَ: 179].

الطَّيِّباتُ لغةً:

جمعُ طيِّبٍ، والطيِّبِ خلافُ الخبيثِ، إلَّا أنَّهُ قدْ تتَّسعُ معانيهِ، فيُقالُ: أرضٌ طيِّبةٌ للَّتِي تصلحُ للنَّباتِ، وريحٌ طيِّبةٌ إذَا كانتْ ليِّنةً ليستْ شديدةً، وطعمةٌ طيِّبةٌ إذَا كانتْ حلالًا، وامرأةٌ طيِّبةٌ إذَا كانتْ حصانًا عفيفةً، وكلمةٌ طيِّبةٌ إذَا لمْ يكنْ فيهَا مكروهٌ،

وبلدةٌ طيِّبةٌ، أيْ: آمنةٌ كثيرةُ الخيرِ، ونكهةٌ طيِّبةٌ إذَا لمْ يكنْ فيهَا نتنٌ، وإنْ لمْ يكنْ فيهَا ريحُ طيِّبةٌ كرائحةِ العودِ وغيرهَا، وطعامٌ طيِّبٌ للذِي يستلذُّ الآكلُ طعمهُ، والكلمةُ الطيِّبةُ: شهادةُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ ﷺ(1).

والطّيّبُ: الحلالُ، والطيِّبُ: مَا يُتطيَّبُ بهِ، وقدْ تطيَّبَ بالشَّيءِ، وطيَّبَ الثَّوبَ وطابهُ، والطيِّبُ منْ كلِّ شيءٍ: أفضلهُ، واستطبناهمْ: سألناهمْ ماءً عذبًا(2).

وبهذَا يتَّضحُ أنَّ كلمةَ الطَّيبِ ليسَ لهَا معنًى ثابتٌ فِي اللُّغةِ، وإنَّمَا هيَ علَى حسبِ السِّياقِ الذِي تردُ فيهِ.

والطيِّباتُ اصطلاحًا:

لَا يوجدُ هناكَ تعريفٌ اصطلاحيٌّ خاصٌّ بالطيِّبِ، ولكنْ تختلفُ دلالتهُ الاصطلاحيَّةُ بحسبِ المضافِ إلَى الطيِّبِ، فمثلًا الرِّزقُ الطيِّبُ هوَ الحلالُ(3)، وهكذَا.

وأصلُ الطّيّبِ: مَا تستلذّهُ الحواسُّ، ومَا تستلذّهُ النّفسُ، والطّعامُ الطّيّبُ فِي الشّرعِ: مَا كانَ متناولًا منْ حيثُ مَا يجوزُ، ومنَ المكانِ الذِي يجوزُ، فإنّهُ متَى كانَ كذلكَ كانَ طيّبًا عاجلًا وآجلًا لَا يستوخمُ، وإلَّا فإنَّهُ وإنْ كانَ طيّبًا عاجلًا لمْ يطبْ آجلًا(4).

وقالَ الحسنُ: الحلالُ الطّيّبُ: هوَ مَا لَا يُسألُ عنهُ يومَ القيامةِ، وقالَ ابنُ عبّاسٍ: الحلالُ الذِي لَا تبعةَ فيهِ فِي الدّنيَا، ولَا وبالَ فِي الآخرةِ، وقيلَ: الحلالُ مَا يجوّزهُ المفتِي، والطّيّبُ مَا يشهدُ لهُ القلبُ بالحلّ(5).

واسمُ الطَّيِّبِ: هوَ منْ أسماءِ اللهِ الحسنَى، فعنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "أيُّهَا النَّاسُ إنَّ اللهَ طيِّبٌ ولَا يقبلُ إلَّا طيِّباً..."(6).

قالَ النَّوويُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي شرحِ الحديثِ: قالَ القاضِي عياضُ: الطيِّبُ فِي صفةِ اللهِ تعالَى بمعنَى المنزَّهِ عنِ النَّقائصِ وهوَ بمعنَى القدُّوسِ، وأصلُ الطيِّبِ: الزَّكاةُ والطَّهارةُ والسَّلامةُ منَ الخبثِ(7).

وقالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي شرحهِ لقولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "والصَّلواتُ والطيِّباتُ" وذلكَ فِي دعاءِ التَّشهُّدِ: وكذلكَ قولهُ: (والطيِّباتُ) هيَ صفةُ الموصوفِ المحذوفِ أي: الطيِّباتُ منَ الكلماتِ والأفعالِ والصِّفاتِ والأسماءِ للهِ وحدهُ، فهوَ طيِّبٌ وأفعالهُ طيِّبةٌ، وصفاتهُ أطيبُ شيءٍ، وأسماؤهُ أطيبُ الأسماءِ، واسمهُ (الطيِّبُ)، ولَا يصدرُ عنهُ إلَّا طيِّبٌ، ولَا يصعدُ إليهِ إلَّا طيِّبٌ، ولَا يقربُ منهُ إلَّا طيِّبٌ، وإليهِ يصعدُ الكلمُ الطيِّبُ وفعلهُ طيِّبٌ، والعملُ الطيِّبُ يعرجُ إليهِ، فالطيِّباتُ كلُّهَا لهُ ومضافةٌ إليهِ وصادرةٌ عنهُ ومنتهيةٌ إليهِ... فإذَا كانَ هوَ سبحانهُ الطيِّبُ علَى الإطلاقِ فالكلماتُ الطيِّباتُ، والأفعالُ الطيِّباتُ، والصِّفاتُ الطيِّباتُ، والأسماءُ الطيِّباتُ كلُّهَا لهُ سبحانهُ لَا يستحقُّهَا أحدٌ سواهُ، بلْ مَا طابَ شيءٌ قطٌّ إلَّا بطيبتهِ سبحانهُ فطيبُ كلِّ مَا سواهُ منْ آثارِ طيبتهِ، ولَا تصلحُ هذهِ التَّحيَّةُ الطيِّبةُ إلَّا لهُ(8).

وقدْ وردتْ مادَّةً (طيِّبٌ) فِي القرآنِ بصيغٍ متعدِّدةٍ، بلغتْ خمسينَ مرَّةً(9).

وقدْ أطلقتِ الطِّيِّباتُ فِي الاستعمالِ القرآني علَى عدَّةِ أمورٍ، نذكرُ منهَا "علَى وجهِ الاختصارِ".

الأوَّلُ: الذِّكرُ والدُّعاءُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ" [فاطر: 10].

قالَ الطبريُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: و(الكلمُ الطيِّبُ) هوَ التَّوحيدُ الصَّادرُ عنْ عقيدةٍ طيِّبةٍ وقيلَ: هوَ التَّحميدُ والتَّمجيدُ، وذكرُ اللهِ ونحوهِ(10).

الثَّانِي: الرِّزقُ: ومنهُ قولهُ تعالَى:" وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا" [الإسراء: 70] يعنِي: جميعَ رزقِ بنِي آدمَ: الخبزُ والعسلُ والسَّمنُ، ونحوهِ منَ أطايبِ الطَّعامِ، وجعلَ رزقهمْ أطيبَ منْ رزقِ البهائمِ والدَّوابِ والطَّيرِ.

الثَّالثُ: الحلالُ: ومنهُ قولهُ تعالَى:" فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا" [النساء: 160] وقدْ كانتْ لهمْ حلالًا فِي التَّوراةِ(11).
وقدْ أطلقَ لفظُ الطَّيِّباتِ علَى غيرِ ذلكَ.

(1) انظر: الصحاح، للجوهري - مقاييس اللغة لابن فارس - تاج العروس للزبيدي.

(2) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير - لسان العرب لابن منظور.

(3) انظر: مفاتيح الغيب للرازي.

(4) المفردات للراغب الأصفهاني.

(5) البحر المحيط لأبي حيان.

(6) رواه مسلم (1015).

(7) ((شرح مسلم للنووي)) (100/7).

(8) ((الصلاة وحكم تاركها)) (ص: 214، 215).

(9) المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم.

(10) تفسير الطبري.

(11) الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٢٠-٣٢٢، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤١٨-٤١٩.

الخبائث لغةً:

جمعُ خبيثٍ، قالَ ابنُ فارسٍ: الخاءُ والباءُ والثَّاءُ أصلٌ واحدٌ يدلّ علَى خلافِ الطّيّب، يقالُ خبيثٌ، أيْ ليسَ بطيّبٍ، وأخبثَ: إذَا كانَ أصحابهُ خبثاءٌ، ومنْ ذلكَ التعوّذُ منَ الخبيثِ المخبثِ فالخبيثُ فِي نفسهِ والمخبثُ الذِي أصحابهُ وأعوانهُ خبثاءٌ [1].

الخبائثُ اصطلاحًا:

قالَ الرَّاغبُ: الخبثُ والخبيثُ: مَا يكرهُ رداءةً وخساسةً، محسوسًا كانَ أوْ معقولًا[2].

الصِّلةُ بينَ الخبائثِ والطيِّباتِ:

لَا شكَّ أنَّ العلاقةَ بينهمَا علاقةُ تضادٍّ، فالطيِّبُ خلافُ الخبيثِ، والخبيثُ خلافُ الطِّيِّبِ.

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالطَّيِّباتِ:

الحلالُ:

الحلالُ لغةً: ضدُّ الحرامِ، وهوَ منْ: حلّ يحلّ حِلًّا، بالكسرِ. وأحلّهُ اللهُ، وحلّلهُ، واستحلّهُ: اتّخذهُ حلالًا، أوْ سألهُ أنْ يحلّهُ لهُ[3].

الحلالُ اصطلاحًا:

هوَ مَا أطلقَ الشَّرعُ فعلهُ، أوْ هوَ كلُّ شيءٍ لَا يعاقبُ عليهِ باستعمالهِ[4].

الصِّلةُ بينَ الحلالِ والطيِّباتِ:

الطيِّبُ: مَا هوَ طيِّبٌ فِي ظاهرِ الشَّرعِ سواءٌ كانَ طيِّبًا فِي الواقعِ أمْ لَا، والحلالُ: مَا هوَ حلالٌ وطيِّبٌ فِي الواقعِ لمْ تعرضْهُ النَّجاسةُ والخباثةُ قطعًا، ولمْ تتناولهُ أيدِي المتغلِّبةِ أصلًا[5].

المحرَّماتُ:

المحرَّماتُ لغةً:

الحرامُ لغةً: الحرامُ منْ حرمَ، فالحاءُ والرَّاءُ والميمُ أصلٌ واحدٌ، وجمعُ الحرامِ حرُمٌ، والحرامُ ضدُّ الحلالِ، والحرامُ هوَ المنعُ والتَّشديدُ[6].

المحرَّماتُ اصطلاحًا:

الحرامُ: هوَ مَا طلبَ الشَّارعُ منَ المكلَّفِ تركهُ علَى وجهِ الإلزامِ، بحيثُ يعاقبُ فاعلهُ ويثابُ تاركهُ[7].

أوْ تقولُ: يستحقُّ العقابَ فاعلهُ، ويستحقُّ الثَّوابَ تاركهُ.

الصِّلةُ بينَ المحرَّماتِ والطيِّباتِ:

منَ الواضحِ أنَّ هناكَ فرقًا شاسعًا بينهمَا، فكلٌّ منهمَا ضدُّ الآخرِ.

(1) مقاييس اللغة، ١٩٤/٢.
(2) المفردات، ص٢٧٢.
(3) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٨٦.
(4) التعريفات، الجرجاني، ص٩٢.
(5) الفروق اللغوية، العسكري، ص١٦٩.
(6) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤٥/٢.
(7) انظر: علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف ص١١٣.

الحثُّ علَى ابتغاءِ الطيِّبِ فِي القرآنِ:

تنوَّعتْ أساليبُ القرآنِ فِي الحثِّ علَى ابتغاءِ الطَّيِّبِ:

أولًا: أسلوبُ الطَّلبِ:

جاءَ الأمرُ فِي القرآنِ بابتغاءِ الطيِّباتِ فِي الحياةِ الدُّنيَا، وأكَّدَ ربُّنَا سبحانهُ وتعالَى علَى ذلكَ فِي مواضعَ، نذكرُ منـهَا:

جاءَ الأمرُ بابتغاءِ الصَّعيدِ الطيِّب للتيمُّمِ، فقالَ تعالَى: "وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا"[النساء: ٤٣].

وقالَ تعالَى: "وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"[المائدة: 6].

ففِي آيةِ سورةِ النِّساءِ، عنَى سبحانهُ: وإنْ كنتمْ جرحَى أوْ بكمْ قروحٌ أوْ كسرٌ، أوْ علَّةٌ لَا تقدرونَ معهَا علَى الاغتسالِ منَ الجنابةِ، وأنتمْ مقيمونَ غيرُ مسافرينَ، أوْ إنْ كنتمْ مسافرينَ وأنتمْ أصحاءُ جنبٍ، أوْ جاءَ أحدٌ منكمْ منَ الغائطِ، قدْ قضَى حاجتهُ وهوَ مسافرٌ صحيحٌ، أوْ لامستمْ النِّساءَ (وهوَ مختلفٌ فِي تأويلهِ بينَ الجماعِ أوْ مجرَّدِ اللَّمسِ، والصَّحيحُ الرَّاجحُ أنَّهُ الجماعُ أوِ اللَّمسُ بشهوةٍ، فإنْ لمْ يلمسْ ووجدَ شهوةً فلَا شيأَ عليهِ، وإنْ لمسَ ولمْ يجدْ فلَا شيأَ عليهِ، وإنْ لمسَ ووجدَ فالغالبُ أنَّهُ عليهِ وضوءٌ، وقالَ ابنُ بازٍ: ...

فالصَّوابُ أنَّهُ لَا ينقضُ الوضوءَ (أيِ اللَّمسُ) إذَا لمْ يخرجْ منهُ شيءٌ، إذَا لمْ يُنزلْ منيًّا ولَا مذياً، فإنَّ مجرَّدَ اللَّمسِ لَا ينقضُ الوضوءَ، إذَا لمْ يكنْ معهُ خروجُ شيءٍ؛ لأنَّهُ ﷺ ثبتَ عنهُ أنَّهُ قبَّلَ بعضَ نسائهِ ثمَّ صلَّى ولمْ يتوضَّأْ[1]، ولأنَّ ابنَ عباسٍ وجماعةٌ فسَّرُوا الملامسةَ بالجماعِ، فالصَّوابُ أنَّ الملامسةَ المرادُ بهَا الجماعُ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ وعلَا نبَّهَ علَى الحدثِ الأصغرِ بقولهِ: "أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ"[المائدة: 6][2].

فقولهُ رحمهُ تعالَى "ولَا مذيًا" فالمعلومُ أنَّ المذيَ لَا يخرجُ إلَّا بشهوةٍ، ونخرجُ بهذَا أنَّ معنَى اللَّمسِ المرادَ فِي الأيةِ هوَ الجماعُ أوِ اللَّمسُ بشهوةٍ.) فطلبتمُ الماءَ لتتطهَّرُوا بهِ فلمْ تجدوهُ بثمنٍ ولَا غيرِ ثمنٍ، فاقصدُوا صعيدًا طيِّبًا لتتيمَّموا بهِ. والصَّعيدُ: هوَ وجهُ الأرضِ الخاليةِ منَ النَّباتِ والغروسِ والبناءِ، المستويةِ[3].

وقدْ أمرَ اللهُ تعالَى فِي آخرِ الآيةِ بشكرهِ علَى تصييرهِ الصَّعيدَ طيِّبًا، وعلَى نعمهِ.

فقالَ الطَّبريُّ: وقولهُ: "وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ"[المائدة: 6] فإنّهُ يقولُ: ويريدُ ربّكمْ معَ تطهيركمْ منْ ذنوبكمْ بطاعتكمْ إيّاهُ فيمَا فرضَ عليكمْ منَ الوضوءِ والغسلِ إذَا قمتمْ إلَى الصّلاةِ بالماءِ إنْ وجدتموهُ، وتيمّمكمْ إذَا لمْ تجدوهُ، أنْ يتمّ نعمتهُ عليكمْ بإباحتهِ لكمُ التّيمّمَ، وتصييرهِ لكمْ الصّعيدَ الطّيّبَ طهورًا، رخصةً منهُ لكمْ فِي ذلكَ معَ سائرِ نعمهِ التِي أنعمَ بهَا عليكمْ أيّهَا المؤمنونَ "لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"[المائدة: 6] يقولُ: تشكرونَ اللهَ

علَى نعمهِ التِي أنعمهَا عليكمْ بطاعتكمْ إيّاهُ فيمَا أمركمْ ونـهاكمْ[4].

الأمرُ بأكلِ الطيِّبِ منَ الرِّزقِ:

فقدْ أمرَ اللهُ تعالَى الرُّسلَ وقالَ: " يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ" [المؤمنون: 51].

وأمرَ المؤمنينَ بمَا أمرَ بهِ المرسلينَ، فقالَ تعالَى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" [البقرة: 172].

وأمرَ اللهُ تعالَى النَّاسَ جميعًا بذلكَ، فقالَ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ " [البقرة: 168].

والمرادُ بالطّيّبِ هنَا: مَا تستطيبهُ النّفوسُ بالإدراكِ المستقيمِ السّليمِ منَ الشّذوذِ، وهيَ النّفوسُ التِي تشتهِي الملائمَ الكاملَ أوِ الرّاجحَ بحيثُ لَا يعودُ تناولهُ بضرٍّ جثمانيٍّ أوْ روحانيٍّ، منْ ذلكَ قولهُ تعالَى: " يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ" [المائدة: 4].

وفِي هذَا الوصفِ معنًى عظيمٌ منَ الإيماءِ إلَى قاعدةِ الحلالِ والحرامِ؛ فلذلكَ قالَ أهلُ العلمِ: إنّ حكمَ الأشياءِ التِي لمْ ينصَّ الشّرعُ فيهَا بشيءٍ: إنَّ أصلَ المضارِّ منهَا التّحريمُ، وأصلُ المنافعِ الحلُّ، وهذَا بالنّظرِ إلَى ذاتِ الشّيءِ، بقطعِ النّظرِ عنْ عوارضهِ، كتعلّقِ حقِّ الغيرِ بهِ الموجبِ تحريمهِ؛ إذِ التّحريمُ حينئذٍ حكمٌ للعارضِ لَا للمعروضِ[5].

ثانيًا: الثَّناءُ علَى الطيِّبينَ فِي القرآنِ:

جاءَ الثَّناءُ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ فِي قرآنهِ علَى عبادهِ الطيِّبينض، فقالَ تعالَى: " جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(32)"[النحل: 31 – 32].

يقولُ تعالَى ذكرهُ: كذلكَ يجزِي اللهُ المتَّقينَ الذينَ تقبضُ أرواحهمْ ملائكةُ اللهِ، وهمْ طيِّبونَ بتطييبِ اللهِ إياهمْ بطهرِ الإيمانِ، ونظافةِ الإسلامِ فِي حالِ حياتهمْ وحالِ مماتهمْ.

فالملائكةُ تقبضُ أرواحَ هؤلاءِ، وهمْ يقولونَ لهمْ: سلامٌ عليكمْ صيرُوا إلَى الجنَّةِ، بشارةً منَ اللهِ تعالَى تبشِّرهمْ بهَا الملائكةُ.

وفِي معنَى طيّبينَ ستَّةُ أقوالٍ:

أحدهَا: مؤمنينَ.

والثَّانِي: طاهرينَ منَ الشِّركِ (كبيرهِ وصغيرهِ).

والثَّالثُ: زاكيةً أفعالهمْ وأقوالهمْ.

والرَّابعُ: أنْ تكونَ وفاتهمْ طيِّبةً سهلةً لَا صعوبةَ فيهَا ولَا ألمَ، بخلافِ مَا تقبضُ بهِ روحُ الكافرِ والمخلطِ.

والخامسُ: طيِّبةً أنفسهمْ بالموتِ، ثقةً بالثَّوابِ.

والسَّادسُ: طيِّبةً نفوسهمْ بالرُّجوعِ إلَى اللهِ تعالَى.

والآيةُ هنَا تحتملُ كلَّ هذهِ المعانِي(6).

ثالثًا: امتنانُ اللهِ تعالَى علَى عبادهِ بالطيِّباتِ فِي القرآنِ:

فقدِ امتنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ علَى عبادهِ فِي القرآنِ أنْ رزقهمْ بالطيِّباتِ، وأحلَّهَا لهمْ:

وامتنَّ اللهُ تعالَى علَى النَّاسِ جميعًا صالحهمْ وطالحهمْ.

فقالَ تعالَى: " وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ"[النحل: 72].

وقالَ تعالَى: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلً"[الإسراء: 70].

قالَ ابنُ كثيرٍ: أيْ: منْ زروعٍ وثمارٍ، ولحومٍ وألبانٍ، منْ سائرِ أنواعِ الطّعومِ والألوانِ، المشتهاةِ اللّذيذةِ، والمناظرِ الحسنةِ، والملابسِ الرّفيعةِ منْ سائرِ الأنواعِ، علَى اختلافِ أصنافِهَا وألوانِهَا وأشكالِهَا، ممّا يصنعونهُ لأنفسهمْ، ويجلبهُ إليهمْ غيرهمْ منْ أقطارِ الأقاليمِ والنّواحِي(7).

وامتنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ علَى بنِي إسرائيلَ.

وقالَ تعالَى: " وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ"[يونس: 93].

وقالَ تعالَى: " وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ" [الجاثية: 16].

قالَ ابنُ عاشورٍ: وأمّا رزقهمْ منَ الطّيّباتِ فبأنْ يسّرَ لهمْ امتلاكَ بلادِ الشّامِ التِي تفيضُ لبنًا وعسلًا كمَا فِي التّوراةِ فِي وعدِ إبراهيمَ والتِي تجبَى إليهَا ثمراتُ الأرضينَ المجاورةِ لهَا، وتردُ عليهَا سلعُ الأممِ المقابلةِ لهَا علَى سواحلِ البحرِ، فتزخرُ مراسيهَا بمختلفِ الطّعامِ واللّباسِ والفواكهِ والثّمارِ والزّخارفِ؛ وذلكَ بحسنِ موقعِ البلادِ منْ بينِ المشرقِ برًّا والمغربِ بحرًا، والطّيّباتُ: هيَ التِي تطيبُ عندَ النّاسِ، وتحسنُ طعمًا ومنظرًا ونفعًا وزينةً(8).

وقالَ تعالَى: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [الأعراف: 157].

وللطيِّباتِ فِي هذهِ الآيةِ أربعةُ أقوالٍ:

أحدهَا: أنَّهَا الحلالُ، والمعنَى: يحلُّ لهمُ الحلالَ.

والثَّانِي: أنَّهَا مَا كانتِ العربُ تستطيبهُ.

والثَّالثُ: أنَّهَا الشُّحومُ المحرَّمةُ علَى بنِي إسرائيلَ.

والرَّابعُ: مَا كانتِ العربُ تحرِّمهُ منَ البحيرةِ والسَّائبةِ والوصيلةِ والحامِ.

يقولُ الإمامُ ابنُ القيِّمِ: "وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ" فهذَا صريحٌ فِي أنَّ الحلالَ كانَ طيِّبًا قبلَ حلِّهِ، وأنَّ الخبيثَ كانَ خبيثًا قبلَ تحريمهِ، ولمْ يستفدْ طيبُ هذَا وخبثُ هذَا منْ نفسِ التَّحليلِ والتَّحريمِ لوجهينِ اثنينِ:

أحدهمَا: أنَّ هذَا علمٌ منْ أعلامِ نبوَّتـهِ التِي احتجَّ اللهُ بهَا علَى أهلِ الكتابِ، فقالَ: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ" فلوْ كانَ الطيِّبُ والخبيثُ إنَّمَا استفيدَ منَ التَّحريمِ والتَّحليلِ لمْ يكنْ فِي ذلكَ دليلٌ، فإنَّهُ بمنزلةِ أنْ يُقالَ: يحلُّ لهمْ مَا يحلُّ، ويحرِّمُ عليهمْ مَا يحرِّمُ، وهذَا أيضًا باطلٌ، فإنَّهُ لَا فائدةَ فيهِ وهوَ الوجهُ الثَّانِي[9].

فثبتَ أنَّهُ أحلَّ مَا هوَ طيِّبٌ فِي نفسهِ قبلَ الحلِّ، فكساهُ بإحلالهِ طيبًا آخرَ، فصارَ منشأُ طيبهِ منَ الوجهينِ معًا[10].

ونقلَ ابنُ كثيرٍ أنَّ بعضَ العلماءِ قالَ: كلّ مَا أحلّ اللهُ تعالَى فهوَ طيّبٌ نافعٌ فِي البدنِ والدّينِ، وكلّ مَا حرّمهُ فهوَ خبيثٌ ضارٌّ فِي البدنِ والدّينِ[11].

وقدْ بيَّنَ اللهُ تعالَى الواجبَ علَى عبادهِ تُجاهَ الطيِّباتِ التِي امتنَّ بهَا عليهمْ:

فأمرَ سبحانهُ وتعالَى الصَّحابةَ أنْ يقابلُوا فضلهُ عليهمْ بالطيِّباتِ، بأنْ يحقِّقُوا شكرهَا، فقالَ تعالَى: "وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" [الأنفال: 26].

والمقصودُ بالطيِّباتِ فِي هذهِ الآيةِ قولانِ:

أحدهمَا: أنَّهَا الغنائمُ التِي أحلَّهَا لهمْ، قالهُ السدِّي.

والثَّانِي: أنَّهَا الخيراتُ التِي مكنَّهمْ منهَا، ذكرهُ الماوردِي[12].

وذكرَ أنَّهُ امتنَّ عليهمْ بهذهِ النِّعمِ لشكرهِ والقيامِ بعبادتهِ.

قالَ الطَّبرِي فِي تفسيرِ قولهِ تعالَى: (وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) يقولُ: وأطعمكمْ غنيمتهمْ حلالًا طيّبًا (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) يقولُ: لكيْ تشكرُوا علَى مَا رزقكمْ، وأنعمَ بهِ عليكمْ منْ ذلكَ وغيرهِ منْ نعمهِ عندكمْ[13].

وقالَ تعالَى: "فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" [النحل: 114].

يقولُ الطَّبرِي: يقولُ تعالَى ذكرهُ: فكلُوا أيّهَا النّاسُ ممّا رزقكمُ اللهُ منْ بهائمِ الأنعامِ التِي أحلّهَا لكمْ حلالًا طيّبًا مذكّاةً غيرِ محرّمةً عليكمْ.

(وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ) يقولُ: واشكرُوا اللهِ علَى نعمهِ التي أنعمَ بهَا عليكمْ فِي تحليلهِ مَا أحلّ لكمْ منْ ذلكَ، وعلَى غيرِ ذلكَ منْ نعمهِ.

(إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) يقولُ: إنْ كنتمْ تعبدونَ اللهَ، فتطيعونهُ فيمَا يأمركمْ وينهاكمْ[14].

والشُّكرُ يكونُ بالاعترافِ بهَا بالقلبِ، والثَّناءِ علَى اللهِ بهَا، وصرفهَا فِي طاعةِ اللهِ[15].

وحالُ الشُّكرِ حالُ كلِّ العباداتِ القلبيَّةِ، أنْ تكونَ قولًا باللِّسانِ وتصديقًا بالجنانِ وعملًا بالجوارحِ.

وإظهارُ اسمِ الجلالةِ فِي قولهِ: (وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ) معَ أنّ مقتضَى الظّاهرِ الإضمارُ؛ لزيادةِ التّذكيرِ[16].

وللطيِّباتِ صورٌ معنويَّةٌ وصورٌ حسيَّةٌ، أمَّا الحسيَّةُ فعلَى ثلاثةِ أقسامٍ:

القسمُ الأوَّلُ: الاعتقادُ:

فقدْ أخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّهُ يختبرُ العبادَ ليتبيَّنَ طيِّبُ القلبِ والاعتقادِ منْ خبيثهِ، فقالَ تعالَى: " مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ

عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ

[آل عمران: 179].

يقولُ تعالَى ذكرهُ: يحشرُ اللهُ هؤلاءِ الذينَ كفرُوا بربّهِمْ، وينفقونَ أموالهمْ للصَّدّ عنْ سبيلِ اللهِ إلَى جهنّمَ؛ ليفرّقَ بينهمْ وهمْ أهلُ الخبثِ، كمَا قالَ وسمّاهمْ (الخبيثَ) وبينَ المؤمنينَ باللهِ وبرسولهِ، وهمُ الطّيّبونَ، كمَا سمّاهمْ جلّ ثناؤهُ، فميّزَ جلّ ثناؤهُ بينهمْ بأنْ أسكنَ أهلَ الإيمانِ بهِ وبرسولهِ جنّاتهِ، وأنزلَ أهلَ الكفرِ نارهُ(17).

وفِي آيةٍ أخرَى يشيرُ سبحانهُ إلَى أنَّهُ وإنْ لمْ يفتضحْ ويتميَّزَ هؤلاءِ الذينَ يحملونَ خبيثَ الاعتقادِ فِي الدُّنيَا، ففِي الآخرةِ لَا بدَّ أنْ يميزَ اللهُ الخبيثَ منَ الطيِّبَ بأنْ يحشرَ هؤلاءِ الكافرونَ إلَى النَّارِ "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ(37)" [الأنفال: 36 – 37].

وفِي معنَى الآيةِ ثلاثةُ أقوالٍ: أحدهَا: ليميزَ أهلَ السَّعادةِ منْ أهلِ الشَّقاءِ، رواهُ ابنُ أبِي طلحةَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا، وقالَ السدِّي، ومقاتلٌ: يميِّزُ المؤمنَ منَ الكافرِ، والثَّانِي: ليميزَ العملَ الطيِّبَ منَ العملِ الخبيثِ، قالهُ أبُو صالحٍ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا، والثَّالثُ: ليميِّزَ الإنفاقَ الطيِّبَ فِي سبيلهِ، منَ الإنفاقِ الخبيثِ فِي سبيلِ الشَّيطانِ، قالهُ ابنُ زيدٍ والزجَّاجُ(18).

القسمُ الثَّانِي: الأعمالُ:

أكَّدَ سبحانهُ أنَّهُ مهمَا ارتفعَ خبيثُ الأعمالِ، ومهمَا كثرَ فلَا بدَّ أنْ يخزيهِ اللهُ تعالَى، ويتميَّزَ أهلُ العملِ الطيِّبِ، قالَ تعالَى: " قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[المائدة: ١٠٠].

(قُلْ) للنَّاسِ محذِّرًا عنِ الشرِّ، ومرغِّبًا فِي الخيرِ (لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ) منْ كلِّ شيءٍ، فلَا يستوِي الإيمانُ والكفرُ، ولَا الطَّاعةُ والمعصيةُ، ولَا أهلُ الجنَّةِ وأهلُ النَّارِ، ولَا الأعمالُ الخبيثةُ والأعمالُ الطيِّبةُ، ولَا المالُ الحرامُ بالمالِ الحلالِ.

(وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ) فإنَّهُ لَا ينفعُ صاحبهُ شيئًا، بلْ يضُّرهُ فِي دينهِ ودنياهُ.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) فأمرَ أولِي الألبابِ، أيْ: أهلَ العقولِ الوافيةِ، والآراءِ الكاملةِ، فإنَّ اللهَ تعالَى يوجِّهُ إليهمُ الخطابَ، وهمُ الذينَ يؤبهُ لهمْ، ويرجَى أنْ يكونَ فيهمْ خيرٌ.

ثمَّ أخبرَ أنَّ الفلاحَ متوقِّفٌ علَى التَّقوَى التِي هيَ موافقةُ اللهِ تعالَى فِي أمرهِ ونهيهِ، فمنْ اتَّقاهُ أفلحَ كلَّ الفلاحِ، ومنْ تركَ تقواهُ حصلَ لهُ الخسرانُ، وفاتتهُ الأرباحُ(19).

وقالَ صاحبُ ظلالِ قرآنِ: ... إنَّ المناسبةَ الحاضرةَ لذكرِ الخبيثِ والطيِّبِ فِي هذَا السِّياقِ، هيَ مناسبةُ تفصيلِ الحرامِ والحلالِ فِي الصَّيدِ والطَّعامِ، والحرامُ خبيثٌ، والحلالُ طيِّبٌ، ولَا يستوِي الخبيثُ والطيِّبُ، ولوْ كانتْ كثرةُ الخبيثِ تغرُّ وتعجبُ، ففِي الطيِّبِ متاعٌ بلَا معقَّباتٍ منْ ندمٍ أوْ تلفٍ، وبلَا عقابيلَ(20) منْ ألمٍ أوْ مرضٍ، ومَا فِي الخبيثِ منْ لذَّةٍ إلَّا وفِي

الطيِّبِ مثلهَا علَى اعتدالٍ، وأمنٍ منَ العاقبةِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، والعقلُ حينَ يتخلَّصُ منَ الهوَى بمخالطةِ التَّقوَى لهُ ورقاقةُ القلبِ لهُ، يختارُ الطيِّبَ علَى الخبيثِ، فينتهِي الأمرُ إلَى الفلاحِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(21).

القسمُ الثَّالثُ: الأقوالُ:

ضربَ اللهُ عزَّ وجلَّ مثلًا للأقوالِ الطيِّبةِ والأقوالِ الخبيثةِ، فقالَ سبحانهُ: " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26)[إبراهيم: 24 – 26].

يقولُ سبحانهُ: ألمْ ترَ كيفَ ضربَ اللهُ مثلًا كلمةً طيِّبةً، وهيَ شهادةُ أن لَّا إلهَ إلَّا اللهُ وفروعهَا، كشجرةٍ طيِّبةٍ، وهيَ النَّخلةُ، أصلهَا ثابتٌ فِي الأرضِ، وفرعهَا منتشرٌ فِي السَّماءِ، وهيَ كثيرةُ النَّفعِ دائمًا، تؤتِي ثمرتهَا كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّهَا، فكذلكَ شجرةُ الإيمانِ، أصلهَا ثابتٌ فِي قلبِ المؤمنِ، علمًا واعتقادًا، وفرعهَا منَ الكلمِ الطيِّبِ، والعملِ الصالحِ، والأخلاقِ المرضيَّةِ، والآدابِ الحسنةِ، فِي السَّماءِ دائمًا يصعدُ إلَى اللهِ تعالَى منهُ منَ الأعمالِ والأقوالِ التِي تخرجهَا شجرةُ الإيمانِ مَا ينتفعُ بهِ المؤمنُ، وينفعُ غيرهُ، ويضربُ اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ لعلَّهمْ يتذكَّرونَ مَا أمرهمْ بهِ، ونهاهمْ عنهُ، فهذهِ صفةُ كلمةِ التَّوحيدِ وثباتهَا فِي قلبِ المؤمنِ.

ثمَّ ذكرَ ضدَّهَا وهيَ كلمةُ الكفرِ وفروعهَا، فقالَ: ومثلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةِ المأكلِ والمطعمِ، وهيَ: شجرةُ الحنظلِ

ونحوهَا، اجتثَّتْ هذهِ الشَّجرةُ منْ فوقِ الأرضِ مَا لهَا منْ ثبوتٍ، فلَا عروقَ تمسكهَا، ولَا ثمرةً صالحةً تنتجهَا، بلْ إنَّ وجدَ فيهَا ثمرةٌ فهيَ ثمرةٌ خبيثةٌ؛ كذلكَ كلمةُ الكفرِ والمعاصِي، ليسَ لهَا ثبوتٌ نافعٌ فِي القلبِ، ولَا تثمرُ إلَّا كلَّ قولٍ خبيثٍ وعملٍ خبيثٍ، يستضرُّ بهِ صاحبهُ، ولَا ينتفعُ، فلَا يصعدُ إلَى اللهِ تعالَى منهُ عملٌ صالحٌ، ولَا ينفعُ نفسهُ، ولَا ينتفعُ بهِ غيرهُ[22].

(1) سنن النَّسائي - ص 170 – حديث صحيح.

(2) موقع الإمام ابن باز.

(3) انظر: جامع البيان، الطبري ٤٠٨/٨.

(4) المصدر السابق ٢١٨/٨.

(5) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠٢/٢.

(6) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٧٢/١٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٥.

(7) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩٨/١٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٥٥٨/٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠١/١٠ - تفسير القرآن العظيم، ٩٧/٥.

(8) التحرير والتنوير ٣٤٥/٢٥.

(9) زاد المسير، ابن الجوزي ١٦٠/٢.

(10) التفسير القيم ص٢٨٩.

(11) تفسير القرآن العظيم ٤٨٨/٣.

(12) زاد المسير، ابن الجوزي ٢٠٢/٢.

(13) جامع البيان، ١١٧/١١.

(14) المصدر السابق ٣٨٧/١٤.

(15) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٥١.

(16) التحرير والتنوير ٣٠٩/١٤.

(17) جامع البيان، الطبري ١٧٥/١١.

(18) زاد المسير لابن الجوزي.

(19) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٥.

(20) العقبول: الشّديد من الأمور، وبقيّة العلّة، والعداوة والعشق، وما يخرج على الشّفة على أثر الحمى، جمعه عقابيل، والعقابيل الدّواهي. انظر: المعجم الوسيط ٦١٣/٢.

(21) في ظلال القرآن للسيد قطب.

(22) التفسير القيم.

قالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ: شبَّهَ سبحانَهُ الكلمةَ الطيِّبةَ بالشَّجرةِ الطيِّبةِ؛ لأنَ الكلمةَ الطيِّبةَ تثمرُ العملَ الصالحَ، والشَّجرةَ الطيِّبةَ تثمرُ الثَّمرَ النَّافعَ، وهذَا ظاهرٌ علَى قولِ جمهورِ المفسِّرينَ الذينَ يقولونَ: الكلمةُ الطيِّبةُ: هيَ شهادةُ أن لَّا إلهَ إلَّا اللهُ، فإنَّهَا تثمرُ جميعَ الأعمالِ الصَّالحةِ، الظَّاهرةِ والباطنةِ، فكلُّ عملٍ صالحٍ مُرْضٍ للهِ فهوَ ثمرةُ هذهِ الكلمةِ.

وفِي تفسيرِ عليٍّ بنِ أبِي طلحةَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا قالَ: كلمةٌ طيبةٌ: شهادةُ أن لَّا إلهَ إلَّا اللهُ، كشجرةٍ طيِّبةٍ وهوَ المؤمنُ، أصلهَا ثابتٌ قولُ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ فِي قلبِ المؤمنِ، وفرعهَا فِي السّماءِ يقولُ: يرفعُ بهَا عملُ المؤمنِ إلَى السَّماءِ.

وقالَ الرَّبيعُ بنُ أنسٍ: كلمةٌ طيِّبةٌ: هذَا مثلُ الإيمانِ، فإنَّ الإيمانَ: الشَّجرةَ الطيِّبةَ، وأصلهَا الثَّابتُ الذِي لَا يزولُ: الإخلاصُ فيهِ، وفرعهَا فِي السَّماءِ: خشيةَ اللهِ، والتَّشبيهُ علَى هذَا القولِ أصحُّ وأظهرُ وأحسنُ، فإنَّهُ سبحانَهُ شبَّهَ شجرةَ التَّوحيدِ فِي القلبِ بالشَّجرةِ الطيِّبةِ الثَّابتةِ الأصلِ، الباسقةِ الفرعِ فِي السَّماءِ علوًّا، التِي لَا تزالُ تؤتِي ثمرتهَا كلَّ حينٍ.

وإذَا تأمَّلتَ هذَا التَّشبيهَ رأيتهُ مطابقًا لشجرةِ التَّوحيدِ الثَّابتةِ الرَّاسخةِ فِي القلبِ التِي فروعهَا منَ الأعمالِ الصَّالحةِ صاعدةً إلَى السَّماءِ، ولَا تزالُ هذهِ الشَّجرةُ تثمرُ الأعمالَ الصَّالحةِ كلَّ وقتٍ، بحسبِ ثباتهَا فِي القلبِ، ومحبَّةُ القلبِ لهَا، وإخلاصهُ فيهَا، ومعرفتهُ بحقيقتهَا، وقيامهِ بحقوقهَا، ومراعاتهَا حقَّ رعايتهَا، فمنْ رسختْ هذهِ الكلمةُ فِي قلبهِ

بحقيقتهَا التِي هيَ حقيقتهَا، واتَّصفَ قلبهُ بهَا، وانصبغَ بهَا بصبغةِ اللهِ التِي لَا أحسنَ صبغةً منهَا، فعرَفَ حقيقةَ إلهيَّتهِ التِي يثبتهَا قلبهُ للهِ، ويشهدُ بهَا لسانهُ، وتصدِّقهَا جوارحهُ، ونفيُ تلكَ الحقيقةِ ولوازمهَا عنْ كلِّ مَا سوَى اللهِ وواطأَ قلبهُ لسانهُ فِي هذَا النَّفي والإثباتِ، وانقادتْ جوارحهُ لمنْ شهدَ لهُ بالوحدانيَّةِ طائعةً سالكةً سبلَ ربِّهِ ذللًا غيرَ ناكبةً عنهَا، ولَا باغيةً سواهَا بدلًا، كمَا لَا يبتغِي القلبُ سوَى معبودَه الحقِّ بدلًا، فلَا ريبَ أنَّ هذهِ الكلمةَ منْ هذَا القلبِ علَى هذَا اللِّسانِ لَا تزالُ تؤتِي ثمرتهَا منَ العملِ الصَّالحِ الصَّاعدِ إلَى اللهِ كلَّ وقتٍ، فهذهِ الكلمةُ الطيِّبةُ هيَ التِي رفعتْ هذَا العملَ الصَّالحَ إلَى الربِّ تعالَى.

وهذهِ الكلمةُ الطيِّبةُ تثمرُ كلمًا كثيرًا طيِّبًا، يقارنهُ عملٌ صالحٌ، فيرفعُ العملُ الصالحُ الكلمَ الطيِّبَ، كمَا قالَ تعالى: " يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ"[فاطر: 10].

فأخبرَ سبحانهُ أنَّ العملَ الصَّالحَ يرفعُ الكلمَ الطيِّبَ، وأخبرَ أنَّ الكلمةَ الطيِّبةَ تثمرُ لقائلهَا عملًا صالحًا كلَّ وقتٍ.

والمقصودُ: أنَّ كلمةَ التَّوحيدِ إذَا شهدَ بهَا المؤمنُ عارفًا بمعناهَا وحقيقتهَا نفيًا وإثباتًا، ومتصِّفًا بموجبهَا، قائمًا قلبهِ ولسانهِ وجوارحهِ بشهادتهِ، فهذهِ الكلمةُ الطيِّبةُ هيَ التِي رفعتْ هذَا العملَ منْ هذَا الشَّاهدِ أصلهاَ ثابتٌ راسخٌ فِي قلبهِ، وفروعهَا متَّصلةٌ بالسَّماءِ، وهيَ مخرجةٌ ثمرتهَا كلَّ وقتٍ(1).

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٤.

صورُ الطيِّباتِ الحسيَّةِ:

ذكرَ القرآنُ الكريمُ صورًا للطيِّباتِ الحسيَّةِ نذكرُ منهَا:

أولًا: المطعوماتُ:

لقدْ بَيَّنَ الحقُّ سبحانهُ وتعالَى أنَّهُ أحلَّ لعبادهِ منَ المطعوماتِ الطيِّباتِ فقطْ، فقالَ سبحانهُ: " يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ۖ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (4) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(5)" [المائدة: 4-5]

يقولُ اللهُ تعالَى لنبيهِ ﷺ: (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ) منَ الأطعمةِ؟ (قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ) وهيَ كلُّ مَا فيهِ نفعٌ أوْ لذَّةٌ، من غيرِ ضررٍ بالبدنِ ولَا بالعقلِ، فدخلَ فِي ذلكَ جميعُ الحبوبِ والثِّمارِ التِي فِي القُرَى والبرارِي، ودخلَ فِي ذلكَ جميعُ حيواناتِ البحرِ وجميعُ حيواناتِ البرِّ، إلَّا مَا استثناهُ الشَّارعُ، كالسِّباعِ والخبائثِ منهَا.

ولهذَا دلَّتِ الآيةُ بمفهومهَا علَى تحريمِ الخبائثِ، كمَا صرَّحَ بهِ فِي قولهِ تعالَى: " الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ" [الأعراف: 157].

وأصلُ معنَى الطيِّبِ الطَّهارةُ والزَّكاءُ، والوقعُ الحسنُ فِي النَّفسِ عاجلًا وآجلًا، فالشَّيءُ المستلذُّ إذَا كانَ وخمًا لَا يسمَّى طيِّبًا؛ لأنَّهُ يعقبُ ألمًا أو ضرًّا؛ ولذلكَ كانَ طيِّب كلِّ شيءٍ: أنْ يكونَ منْ أحسنِ نوعهِ وأنفعهِ.

والطيِّباتُ هنَا هيَ الحلالُ، وكلُّ حرامٍ فليسَ بطيِّبٍ، وقيلَ: مَا التذَّهُ آكلهُ وشاربهُ، ولمْ يكنْ عليهِ فيهِ ضررٌ فِي الدُّنيَا، ولَا فِي الآخرةِ، وقيلَ: الطيِّباتُ الذَّبائحُ؛ لأنَّهَا طابتْ بالتَّذكيةِ[1].

ثانيًا الأموالُ:

جاءَ الحديثُ عنِ الأموالِ الطيِّبةِ فِي مواضعَ منَ القرآنِ:

أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الصَّحابةَ أنْ يتمتَّعُوا بالأموالِ التِي غنموهَا، والتِي أحلَّهَا اللهُ تعالَى، وجعلهَا طيِّبةً لهمْ بعدَ أنْ كانتْ محرَّمةً علَى الأممِ السَّابقةِ.

فقالَ تعالَى: " فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" [الأنفال: 69].

يقولُ تعالَى ذكرهُ للمؤمنينَ منْ أهلِ بدرٍ: فكلُوا أيُّهَا المؤمنونَ ممَّا غنمتمْ منْ أموالِ المشركينَ حلالًا بإحلالهِ لكمْ طيِّبًا، وخافُوا اللهَ أنْ تعودُوا، أنْ تفعلُوا فِي دينكمْ شيئًا بعدَ هذهِ منْ قبلِ أنْ يعهدَ فيهِ إليكمْ، كمَا فعلتمْ فِي أخذِ الفداءِ، وأكلِ الغنيمةِ، وأخذتموهمَا منْ قبلِ أنْ يَحِلَّا لكمْ، إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

قالَ بعضهمْ: قولهُ: (حَلَالًا طَيِّبًا) واحدٌ، كلُّ حلالٍ طيِّبٌ، وكلُّ حرامٍ خبيثٌ، وإنَّمَا يطيبُ إذَا حلَّ، ويخبثُ إذَا حرمَ، ولكنْ يحتملُ قولهُ: (حلالًا) بالشَّرعِ، (طيِّبًا) فِي الطبعِ، وكذلكَ الحرامُ هوَ حرامٌ بالشَّرعِ، وخبيثٌ بالطَّبعِ، وإنَّمَا يتكلَّمُ بالحلِّ والحرمةِ منْ جهةِ الشَّرعِ، والطيِّبُ والخبيثُ بالطَّبعِ.
والطيِّبُ: هوَ الذِي يتلذَّذُ بهِ ولَا تبعةَ فيهِ؛ لأنَّ خوفَ التَّبعةِ ينغصُّ عليهِ، ويذهبُ بطيبهِ ولذَّتهِ، وجائزٌ مَا ذكرَ منَ الطِّيِّبِ (هَا هنَا) لمَا أنَّ أهلَ الشِّركِ كانُوا يأخذونَ الأموالَ ويجمعونهَا منْ وجهٍ لَا يحلُّ، وبأسبابٍ فاسدةٍ، فيكرهونَ التَّناولَ منهَا إذَا غنموهَا لتلكَ الأسبابِ الفاسدةِ، فطيَّبَ قلوبهمْ بقولهِ: "طيِّبًا"[2].
هذَا عنِ الغنائمِ، كذلكَ مهرُ المرأةِ إذَا تنازلتْ عنهُ يكونُ مالًا طيِّبًا "وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا" [النساء: 4] .
فإنْ طبنَ لكمْ عنْ شيءٍ منَ الصَّداقِ بأنْ سمحنَ لكمْ عنْ رضًا واختيارٍ بإسقاطِ شيءٍ منهُ، أوْ تأخيرهِ، أوِ المعاوضةِ عنهُ فلَا حرجَ عليكمْ فِي ذلكَ ولَا تبعةَ[3].
هذَا عنِ المالِ الطيِّبِ الذِي يتحصَّلُ عليهِ الإنسانُ منْ طريقٍ حلالٍ، ومنْ هذهِ الطُّرقِ الحلالِ: الغنائمُ، وتنازلُ المرأةِ عنْ مهرهَا.
وأمَّا مَا يخرجهُ الإنسانُ منْ مالٍ صدقةً للهِ عزَّ وجلَّ، فقدْ نهانَا اللهُ سبحانهُ أنْ نختارَ أخبثَ مَا عندنَا نخرجهُ، وأمرنَا أنْ نتصدَّقَ منْ أطيبِ الأموالِ، فقالَ: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا

تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ" [البقرة: 267].

يأمرُ تعالَى عبادهُ المؤمنينَ بالنَّفقةِ منْ طيِّباتِ مَا يسَّرَ لهمْ منَ المكاسبِ، وممَّا أخرجَ لهمْ منَ الأرضِ، فكمَا منّ عليكمْ بتسهيلِ تحصيلهِ، فأنفقُوا منهُ شكرًا للهِ تعالَى، وأداءً لبعضِ حقوقِ إخوانكمْ عليكمْ، وتطهيرًا لأموالكمْ، واقصدُوا فِي تلكَ النَّفقةِ الطيِّبَ الذِي تحبُّونهُ لأنفسكمْ، ولَا تيمَّموا الرَّديءَ الذِي لَا ترغبونهُ، ولَا تأخذونهُ إلَّا علَى وجهِ الإغماضِ والمسامحةِ.

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) فهوَ غنيٌّ عنكمْ، ونفعُ صدقاتكمْ وأعمالكمْ عائدٌ إليكمْ، ومعَ هذَا فهوَ حميدٌ علَى مَا يأمركمْ بهِ منَ الأوامرِ الحميدةِ، والخصالِ السَّديدةِ، فعليكمْ أنْ تمتثلُوا أوامرهُ لأنَّهَا قوتُ القلوبِ، وحياةُ النُّفوسِ، ونعيمُ الأرواحِ.

وفِي المرادِ بالطيِّبِ هنَا، قولانِ:

أحدهمَا: أنَّهُ الجيّدُ الأنفسُ، قالهُ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا.

والثَّانِي: أنَّه الحلالُ، قالهُ أبُو معقلٍ فِي آخرينَ[4].

ثالثًا: الأزواجُ:

فإنَّ أساسَ اختيارِ الرَّجلِ لزوجتهِ أنْ تكونَ المرأةُ منَ الطيِّباتِ، وأساسُ قبولِ المرأةِ للرجلِ أنْ يكونَ الرَّجلَ منَ الطيِّبينَ.

قالَ تعالَى: " الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ" [النور: 26].

وفِي معنَى الخبيثِ والطيِّبِ أربعةُ أقوالٍ:

أحدهَا: الكلماتُ الخبيثاتُ لَا يتكلَّمُ بهَا إلَّا الخبيثُ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ، والكلماتُ الطيِّباتُ لَا يتكلَّمُ بهَا إلَّا الطيِّبونَ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ.

والثَّانِي: الكلماتُ الخبيثاتُ إنَّمَا تلصقُ بالخبيثينَ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ، فأمَّا الطيِّباتُ والطيِّبونُ فلَا يصلحُ أنْ يقالَ فِي حقِّهمْ إلَّا الطيِّباتُ.

والثَّالثُ: الخبيثاتُ منَ الأعمالِ للخبيثينَ منَ النَّاسِ، والخبيثونَ منَ النَّاسِ للخبيثاتِ منَ الأعمالِ، وكذلكَ الطيِّباتُ.

والرَّابعُ: الخبيثاتُ منَ النِّساءِ للخبيثينَ منَ الرِّجالِ، والطيِّباتُ منَ النِّساءِ للطيِّبينَ منَ الرِّجالِ(5).

والآيةُ تحتملُ كلَّ هذهِ المعانِي، لكنَّ الآيةَ واردةٌ فِي وسطِ سياقِ تبرئةِ أمِّ المؤمنينَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا فِي حادثةِ الإفكِ، فأقربُ المعانِي: هوَ أنْ يكونَ حديثُ الآيةِ عنِ الطيِّبِ والخبيثِ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ.

والمقصودُ بالطيِّباتِ منَ النِّساءِ: هيَ صاحبةُ الدِّينِ، كمَا قالَ النَّبيُّ ﷺ: "تُنكحُ المرأةُ لأربعٍ: لمالهَا، ولحسبهَا، ولجمالهَا، ولدينهَا، فاظفرْ بذاتِ الدِّينِ، تربتْ يداكَ"(6).

رابعًا: المسكنُ:

فقدِ امتنَّ اللهُ تعالَى علَى أهلِ سبأٍ؛ بأنْ رزقهمْ البلدةَ الطيِّبةَ، والمسكنَ الطيِّبَ.

قالَ تعالَى: "لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ" [سبأ: 15].

يقولُ تعالَى ذكرهُ: لقدْ كانَ لولدِ سبأٍ فِي مسكنهمْ علامةٌ بيِّنةٌ، وحجَّةٌ واضحةٌ علَى أنَّهُ لَا ربَّ لهمْ إلَّا الذِي أنعمَ عليهمْ النِّعمَ

التِي كانُوا فيهَا، حيثُ آتاهمْ اللهُ عزَّ وجلَّ بستانينِ كانَا بينَ جبلينِ، عنْ يمينِ منْ أتاهمَا وشمالهِ، ثمَّ أمرهمْ سبحانهُ: كلُوا منْ رزقِ ربِّكمْ الذِي يرزقكمْ منْ هاتينِ الجنَّتينِ منْ زروعهمَا وأثمارهمَا، واشكرُوا لهُ علَى مَا أنعمَ بهِ عليكمْ منْ رزقهِ ذلكَ.

ثمَّ ابتدأَ الخبرَ عنِ البلدةِ فقالَ: هذهِ بلدةٌ طيِّبةٌ، وربٌّ غفورٌ لذنوبكمْ إنْ أنتمْ أطعتموهُ.

يحتملُ مَا ذكرَ منْ طيبهَا: هوَ سعتهَا، وكثرةُ ريعهَا ومياههَا وألوانِ ثمارهَا وفواكههَا، وقيلَ: غيرَ سبخةٍ، وقيلَ: طيِّبةٌ ليسَ فيهَا هوامٌ لطيبِ هوائهَا، وقيلَ: طاهرةٌ عنِ المؤذياتِ لَا حيَّةَ فيهَا ولَا عقربٌ ولَا وباءٌ ولَا وخمٌ(7).

ولقدْ ضربَ اللهُ عزَّ وجلَّ المثلَ فِي الدُّنيَا بالمسكنِ الطَّيِّبِ والبلدةُ الطيِّبةُ.

قالَ تعالَى: "وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ" [الأعراف: 58].

يقولُ سبحانهُ: والبلدُ الطيِّبُ، أيْ: طيِّبُ التُّربةُ والمادَّةُ إذَا نزلَ عليهِ مطرٌ يخرجُ نباتهُ الذِي هوَ مستعدٌّ لهُ بإرادةِ اللهِ تعالَى ومشيئتهِ، فليستِ الأسبابُ مستقلَّةً بوجودِ الأشياءِ حتَّى يأذنَ اللهُ تعالَى بذلكَ(8).

هذَا عنِ المسكنِ الطيِّبِ فِي الدُّنيَا، أمَّا فِي الآخرةِ فقدْ بشَّرَ اللهُ عزَّ وجلَّ أهلَ الإيمانِ بالمساكنِ الطيِّبةِ فِي الجنَّةِ.

قالَ تعالَى: "وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" [التوبة: 72].

وقالَ تعالَى: "يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" [الصف: 12].

والمساكنُ الطيِّبةُ الواردةُ فِي الآيتينِ تفسَّرُ بأنَّهَا مساكنُ قدْ زخرفتْ وحسِّنتْ، وأعدَّتْ لعبادِ اللهِ المتَّقينَ، قدْ طابَ مرآهَا، وطابَ منزلهَا ومقيلهَا، وجمعتْ منْ آلاتِ المساكنِ العاليةِ مَا لَا يتمنَّى فوقهُ المتمنُّونَ، حتَّى إنَّ اللهَ تعالَى قدْ أعدَّ لهمْ غرفًا فِي غايةِ الصَّفاءِ والحسنِ، يرَى ظاهرهَا منْ باطنهَا، وبَاطنهَا منْ ظاهرهَا.

فهذهِ المساكنُ الأنيقةُ التِي حقيقٌ بأنْ تسكنَ إليهَا النُّفوسُ، وتنزعُ إليهَا القلوبُ، وتشتاقُ لهَا الأرواحُ؛ لأنَّهَا فِي جنَّاتِ عدنٍ، أيْ: إقامةً لَا يظعنونَ عنهَا، ولَا يتحوَّلونَ منهَا(9).

قالَ ابنُ كثيرٍ: "وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ "[التوبة: 72].

يخبرُ تعالَى بمَا أعدّهُ للمؤمنينَ بهِ والمؤمناتِ منَ الخيراتِ والنّعيمِ المقيمِ فِي (جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أي: حسنةُ البناءِ، طيّبةُ القرارِ، (خَالِدِينَ فِيهَا) أيْ: ماكثينَ فيهَا أبدًا، كمَا قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "جنّتانِ منْ ذهبٍ آنيتهمَا ومَا فيهمَا، وجنّتانِ منْ فضّةٍ آنيتهمَا ومَا فيهمَا، ومَا بينَ القومِ وبينَ أنْ ينظرُوا إلَى ربّهمْ إلّا رداءُ الكبرياءِ علَى وجههِ فِي جنّةِ عدنٍ"(10).

وبهِ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "إنّ للمؤمنِ فِي الجنّةِ لخيمةً منْ لؤلؤةٍ واحدةٍ مجوّفةٍ، طولهَا ستّونَ ميلًا فِي السّماءِ،

للمؤمنِ فيهَا أهلونَ يطوفُ عليهمْ، لا يرَى بعضهمْ بعضًا"(11).

وفِي الصّحيحينِ أيضًا عنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "منْ آمنَ باللهِ ورسولِهِ، وأقامَ الصّلاةَ، وصامَ رمضانَ، فإنّ حقًّا علَى اللهِ أنْ يدخلهُ الجنّةَ، هاجرَ فِي سبيلِ اللهِ، أوْ جلسَ فِي أرضهِ التِي ولدَ فيهَا.

قالُوا: يَا رسولَ اللهِ، أفلَا نخبرُ النّاسَ؟

قالَ: (إنّ فِي الجنّةِ مائةُ درجةٍ، أعدّهَا اللّهُ للمجاهدينَ فِي سبيلهِ، بينَ كلّ درجتينِ كمَا بينَ السّماءِ والأرضِ، فإذَا سألتمْ اللّهَ فاسألوهُ الفردوسَ، فإنّهُ أعلَى الجنّةِ، وأوسطُ الجنّةِ، ومنهُ تفجّرُ أنهارُ الجنّةِ، وفوقهُ عرشُ الرّحمنِ"(12)(13).

خامسًا: الذريَّةُ:

قالَ تعالَى: "هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ"[آل عمران: 38]**.**

عندَ رؤيةِ زكريَّا مَا رأَى عندَ مريمٍ منْ رزقِ اللهِ الذِي رزقهَا، وفضلهُ الذِي آتاهَا منْ غيرِ تسبُّبِ أحدٍ منَ الآدميينَ فِي ذلكَ لهَا، ومعاينتهُ عندهَا الثَّمرةَ الرَّطبةَ التِي لَا تكونُ فِي حينِ رؤيتهِ إيَّاهَا عندهَا فِي الأرضِ؛ طمعَ بالولدِ، معَ كبرِ سنِّهِ، منَ المرأةِ العاقرِ فرجًا أنْ يرزقهُ اللهُ تعالَى منهَا الولدَ، معَ الحالِ التِي همَا بهَا، كمَا رزقَ مريمَ علَى تخلِّيهَا منَ النَّاسِ مَا رزقهَا منْ ثمرةِ الصَّيفِ فِي الشِّتاءِ، وثمرةِ الشِّتاءِ فِي الصَّيفِ، وإنْ لمْ يكنْ مثلهُ ممَّا جرتْ بوجودهِ فِي مثلِ ذلكَ الحينِ العاداتُ فِي الأرضِ، بلِ المعروفُ فِي النَّاسِ غيرُ ذلكَ، كمَا أنَّ ولادةَ العاقرِ غيرُ الأمورِ الجاريةِ بهِ العاداتُ فِي النَّاسِ، فرغبَ إلَى اللهِ جلَّ ثناؤهُ فِي الولدِ، وسألهُ الذريَّةَ

الطيِّبةَ، وهيَ المباركةُ طاهرةُ الأخلاقِ، طيِّبةَ الآدابِ، لتكملَ النِّعمةُ الدينيَّةُ والدنيويَّةُ بهمْ(14).

سادسًا: الرِّيحُ:

قالَ تعالَى: "هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" [يونس: 22].

فِي الآيةِ التِي قبلهَا ذكرَ تعالَى القاعدةَ العامَّةَ فِي أحوالِ النَّاسِ عندَ إصابةِ الرَّحمةِ لهمْ بعدَ الضرَّاءِ، واليسرِ بعدَ العسرِ، ثمَّ يذكرُ حالةً تؤيِّدُ ذلكَ، وهيَ حالهمْ فِي البحرِ عندَ اشتدادهِ، والخوفِ منْ عواقبهِ، فقالَ: هوَ الذِي يسيِّركمْ فِي البرِّ والبحرِ بمَا يسَّرَ لكمْ منَ الأسبابِ المسيَّرةِ لكمْ فيهَا، وهداكمْ إليهَا، حتَّى إذَا كنتمْ فِي السُّفنِ البحريَّةِ، وجرينَ بهمْ بريحٍ طيِّبةٍ موافقةٍ لمَا يهوونهُ، منْ غيرِ انزعاجٍ ولَا مشقَّةٍ. وفرحُوا بهَا، واطمأنُّوا إليهَا، فبينمَا همْ كذلكَ إذْ جاءتهمْ ريحٌ عاصفٌ شديدةُ الهبوبِ، وجاءهمُ الموجُ منْ كلِّ مكانٍ، وعرفُوا أنَّهُ الهلاكُ، فانقطعَ حينئذٍ تعلُّقهمْ بالمخلوقينَ، وعرفُوا أنَّهُ لَا ينجيهمْ منْ هذهِ الشدَّةِ إلَّا اللهُ وحدهُ، فدعوهُ مخلصينَ لهُ الدِّينَ، ووعدُوا منْ أنفسهمْ علَى وجهِ الإلزامِ، فقالُوا: لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا منْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فلمَّا أنجاهمْ نسُوا تلكَ الشدَّةِ وذلكَ الدُّعاءِ، ومَا ألزموهُ أنفسهمْ، فأشركُوا باللهِ، منِ اعترفُوا بأنَّهُ لَا ينجيهمْ منَ الشَّدائدِ، ولَا يدفعُ عنهمْ المضايقَ، فهلَّا أخلصُوا للهِ العبادةَ فِي الرَّخاءِ، كمَا أخلصوهَا فِي الشدَّةِ؟

والطيِّبُ: الموصوفُ بالطيِّبِ الشَّديدِ، وأصلُ معنَى الطيِّبِ: الملاءمةُ فيمَا يرادُ منَ الشَّيءِ، ويقالُ: طابَ لهُ المقامُ فِي مكانِ كذَا، ومنهُ سميَّ الشَّيءُ الذِي لهُ ريحٌ وعرفٌ طيِّبًا.
وكأنَّهُ سبحانهُ يتكلَّمُ هنَا عنِ السُّفنِ الشِّراعيَّةِ التِي تسيرُ بالهواءِ المتجمّعِ فِي أشرعتهَا، وإذَا كانَ التقدُّمِ فِي صناعةِ السُّفنِ قدْ تعدّى الشِّراعَ، وانتقلَ إلَى البخارِ، ثمَّ الكهرباءِ، فإنَّ كلمةَ الحقِّ سبحانهُ: (بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) تستوعبُ كلَّ مراحلِ الارتقاءِ، خصوصًا وأنَّ كلمةَ (الرِّيحِ) قدْ وردتْ فِي القرآنِ الكريمِ بمعنَى القوَّةِ أيًّا كانتْ: منْ هواءٍ، أوْ محرِّكٍ يسيرُ بأيَّةِ طاقةٍ(15).

سابعًا: الحياةُ:

بشَّرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الذينَ آمنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ، فقالَ: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 97].
يقولُ تعالَى ذكرهُ: منْ عملَ بطاعةِ اللهِ، وأوفَى بعهودِ اللهِ إذَا عاهدَ منْ ذكرٍ أوْ أنثَى منْ بنِي آدمَ (أوْ منَ الجنِّ)، وهوَ مصدّقٌ بثوابِ اللهِ الذِي وعدَ أهلَ طاعتهِ علَى الطَّاعةِ، وبوعيدِ أهلِ معصيتهِ علَى المعصيةِ، فلنحيينَّهُ حياةً طيِّبةً، ويجزيهمْ أجرهمْ فِي الآخرةِ بأحسنِ مَا كانُوا يعملونَ(16).
قالَ الطَّبرِي رحمهُ اللهُ تعالَى: فلنحيينَّهُ حياةً طيِّبةً بالقناعةِ؛ وذلكَ أنَّ منْ قنَّعهُ اللهُ بمَا قسمَ لهُ منْ رزقٍ لمْ يكثرْ للدُّنيَا تعبهُ، ولمْ يعظمْ فيهَا نصبهُ، ولمْ يتكدّرْ فيهَا عيشهُ باتباعهِ بغيةَ مَا فاتهُ منهَا، وحرصهُ علَى مَا لعلَّهُ لَا يدركهُ فيهَا...(17).
فهذهِ الحياةُ الطيِّبةُ أساسهَا وقوامهَا علَى أمرينِ اثنينِ، أمرينِ عظيمينِ جليلينِ يسيرينِ علَى منْ يسَّرهمَا اللهُ عليهِ:

الأمرُ الأوَّلُ: الإيمانُ باللهِ تباركَ وتعالَى.
والأمرُ الثَّانِي: عملُ الصَّالحاتِ وفقَ مَا شرعهُ اللهُ تبارك وتعالَى، ومَا جاءِ عنْ رسولهِ ﷺ[18]، وللهِ درُّ منْ قالَ:

إنَّ السَّعادةَ أنْ تعيـــشَ * لفكرةِ الحقِّ التَّليـــدِ
لعقيدةٍ كبرَى تحــــلُّ * قضيَّةَ الكونِ العتيـــدِ
هذِي العقيدةُ للسَّعيـــدِ * هيَ الأساسُ هيَ العمودُ
منْ عاشَ يحملهَا ويهتفُ * باسمهَا فهوَ السَّعيـــدُ[19].

فالحياةُ الطيِّبةُ هيَ التِي يحقِّقُ المرءُ فيهَا السَّعادةَ الحقيقيَّةَ، والتِي يمثلهَا قولُ النَّبيِّ ﷺ: "منْ أصبحَ منكمْ آمنًا فِي سربهِ، معافًى فِي جسدهِ، عندهُ قوتُ يومهِ، فكأنّمَا حيزتْ لهُ الدّنيَا بحذافيرهَا"[20].

ومَا السَّعادةُ فِي الدُّنيَا لذِي أملٍ * إنّ السَّعيدَ الذِي ينجُو منَ النَّارِ[21].

آثارُ ابتغاءِ الطيِّباتِ المعنويَّةِ:

بيَّنَ لنَا الجبَّارُ سبحانهُ فِي القرآنِ بعضًا منْ آثارِ ابتغاءِ الطيِّباتِ المعنويَّةِ، فمنْ ذلكَ:

1) ابتغاءُ الطيِّباتِ سببٌ فِي القوْلِ:

قالَ سبحانهُ: "وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ" [الحج: 24].

جائزٌ أنْ يكونَ هذَا فِي الدُّنيَا والآخرةِ، أمَّا فِي الدُّنيَا: هوَ قولُ التَّوحيدِ، وشهادةُ الإخلاصِ.

وأمّا فِي الآخرةِ كقولهِ تعالَى: "دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" [يونس: 10].

فهوَ القولُ الطيِّبُ الذِي هدُوا إليهِ.

و(الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ) هوَ كلُّ قولٍ حسنٍ[22].

وهذَا القولُ الطيِّبِ الذِي يهدِي اللهُ تعالَى المؤمنينَ إليهِ هوَ الذِي يُرفعُ إلَى اللهِ عزَّ وجلَّ، ويقبلهُ ويثنِي علَى صاحبهِ.

2) ابتغاءُ الطيِّباتِ سببٌ فِي الثَّباتِ والتَّوفيقِ:

قالَ سبحانهُ: " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25)) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ" [إبراهيم: 24 – 26].

يقولُ سبحانهُ: ألمْ ترَ كيفَ ضربَ اللهُ مثلًا كلمةً طيِّبةً (وهيَ شهادةُ أن لَّا إلهَ إلَّا اللهُ وفروعهَا) كشجرةٍ طيِّبةٍ (وهيَ النَّخلةُ) أصلهَا ثابتٌ فِي الأرضِ، وفرعهَا منتشرٌ فِي السَّماءِ، وهيَ كثيرةُ النَّفعِ دائمًا، تؤتِي ثمرتهَا كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّهَا، فكذلكَ شجرةُ الإيمانِ، أصلهَا ثابتٌ فِي قلبِ المؤمنِ، علمًا واعتقادًا، وفرعهَا منَ الكلمِ الطيِّبِ والعملِ الصَّالحِ والأخلاقِ المرضيَّةِ، والآدابِ الحسنةِ فِي السَّماءِ دائمًا يصعدُ إلَى اللهُ منهُ منَ الأعمالِ والأقوالِ التِي تخرجهَا شجرةُ الإيمانِ مَا ينتفعُ بهِ المؤمنُ وينفعُ غيرَهُ، ويضربُ اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ لعلَّهمْ يتذكَّرونَ مَا أمرهمْ بهِ ونهاهمْ عنهُ، فهذهِ صفةُ كلمةِ التَّوحيدِ وثباتهَا، فِي قلبِ المؤمنِ(23).

هذهِ هيَ صفةُ المؤمنِ الذِي يبتغِي الطيِّبَ، ضربَ اللهُ تعالَى لهُ مثلًا بالشَّجرةِ الثَّابتةِ الأركانِ والأصولِ.

ويكونُ جزاؤهُ حينهَا التَّوفيقُ والتَّثبيتُ كمَا قالَ تعالَى:

" يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ" [إبراهيم: 28].

آثارُ ابتغاءِ الطيِّباتِ الحسيَّةِ:

بيَّنَ ربُّنَا العظيمُ سبحانهُ وتعالَى أنَّ ابتغاءَ الطيِّباتِ سببٌ للمغفرةِ فِي الدُّنيَا، ودخولِ الجنَّةِ فِي الآخرةِ.
قالَ سبحانهُ: "الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ" [النور: 26].
سبقَ ذكرُ شيءٍ منَ الآثارِ فِي المطلبِ السَّابقِ، ونقولُ:
إنَّ الآثارَ الحسيَّةَ والمعنويَّةَ لطلبِ الطيِّباتِ كثيرةٌ معروفةٌ، وهيَ متداخلةٌ أيضًا.
يقولُ سيد قطبٍ: العملُ الصَّالحُ معَ الإيمانِ جزاؤهُ حياةٌ طيِّبةٌ فِي هذهِ الأرضِ.
لَا يهمُّ أنْ تكونَ ناعمةً رغدةً ثريَّةً بالمالِ، فقدْ تكونُ بهِ، وقدْ لَا يكونَ معهَا.
وفِي الحياةِ أشياءُ كثيرةٌ غيرُ المالِ الكثيرِ تطيبُ بهَا الحياةُ فِي حدودِ الكفايةِ:
فيهَا الاتصالُ باللهِ، والثِّقةُ بهِ، والاطمئنانُ إلَى رعايتهِ وسترهِ ورضاهُ.
وفيهَا الصحَّةُ والهدوءُ، والرضَّا والبركةُ، وسكنُ البيوتِ، وموداتُ القلوبِ.
وفيهَا الفرحُ بالعملِ الصَّالحِ وآثارهِ فِي الضَّميرِ، وآثارهِ فِي الحياةِ.
وليسَ المالُ إلَّا عنصرًا واحدًا يكفِي منهُ القليلُ، حينَ يتَّصلُ القلبُ بمَا هوَ أعظمُ وأزكَى وأبقَى عندَ اللهِ تعالَى(24).
والخبيثُ عكسُ كلِّ مَا سبقَ فِي هذَا البابِ

(1) التفسير القيم.
(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦٥/٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١١/٦، تيسر الكريم الرحمن، السعدي ص٢٢١.
(3) انظر: جامع البيان، الطبري ٧٢/١٤، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢٦٤/٥.

(4) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٣.
(5) زاد المسير، ابن الجوزي ٢٤١/١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١١٥/١.
(6) زاد المسير، ابن الجوزي ٢٨٧/٣.
(7) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، ٧/٧، رقم ٥٠٩٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، ١٠٨٦/٢، رقم ١٤٦٦.
(8) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٧٥/٢٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٨٤/١٤.
(9) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٢.
(10) انظر المصدر السابق ص٣٤٣.
(11) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (ومن دونهما جنتان)، ١٤٥/٦، رقم ٤٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، ١٦٣/١، رقم ١٨٠.
(12) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (حور مقصورات في الخيام)، ١٤٥/٦، رقم ٤٨٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين، ٢١٨٢/٤، رقم ٢٨٣٨.
(13) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال هذه سبيلي وهذا سبيلي، ١٦/٤، رقم ٢٧٩٠.
(14) تفسير القرآن العظيم ١٧٥/٤.
(15) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٥٩/٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٩.
(16) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣٧/١١، تفسير السعدي ص٣٦١، تفسير الشعراوي ٥٨٥١/١٠.
(17) جامع البيان، الطبري ٢٨٩/١٧.
(18) جامع البيان، ٢٩١/١٧.
(19) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، ٢٢٩٥/٤، رقم ٢٩٩٩.
(20) هذه أبيات من قصيدة السعادة، ليوسف القرضاوي، من ديوانه نفحات ولفحات ص١٠٥.
(21) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب منه، ١٥٢/٤، رقم ٢٣٤٦، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب القناعة، ١٣٨٧/٢، رقم ٤١٤١. وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٠٤٤/٢، رقم ٦٠٤٢.
(22) البيت لجحدر بن معاوية العكلي. انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، محمد بن المبارك البغداي ص ١١٣.
(23) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٤٠٣/٧.
(24) في ظلال القرآن ٢١٩٣/٤.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: النَّفقةُ، تشملُ النَّفقةَ الواجبةَ: كالزَّكاةِ، والكفَّارةِ، ونفقةِ النَّفسِ، والعائلةِ، والمماليكِ، والنَّفقةُ المستحبَّةُ: كالنَّفقةِ فِي جميعِ طرقِ الخيرِ.

~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى النَّفقاتِ الواجبةِ والمستحبَّةِ فِي كثيرٍ منَ الآياتِ فِي القرآنِ الكريمِ وحثَّ عليهَا، ومدحَ المنفقينَ فِي سُبُلِ الخيرِ وتوعَّدَ أهلَ البخلِ والإقتارِ والمسرفينَ بالعذابِ الشَّديدِ، فقالَ تعالَى: "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"[البقرة: 110].

وقالَ سبحانهُ: "وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"[البقرة: 195].

وقالَ جلَّ جلالهُ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ"[البقرة: 254].

ثمَّ جاءَ الحثُّ علَى النَّفقاتِ ووعدُ المنفقينَ بالخيراتِ العاجلةِ والآجلةِ ونصحهمْ وضربِ الأمثالِ لهمْ فِي قولهِ جلَّ وعلَا: "مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" [البقرة: 261 - 274] .

ثمَّ جاءَ الوعيدُ لأهلِ البخلِ فِي قولهِ تعالَى: "وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" [آل عمران: 180].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: "الذِينَ يَبْخَلُونَ ويَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا" [النساء: 37].

الإنفاقُ لغةً:

الإنفاقُ مصدرٌ للفعلِ الرُّباعيِّ أنفقَ، فيُقالُ: أنفقَ ينفقُ إنفاقًا، فهوَ منفقٌ، والمفعولُ مُنْفَقٌ (للمتعدِّي)، أنفقَ مالًا: صرفهُ وأنفدهُ، وهوَ بذلَ المالَ ونحوهِ فِي وجهٍ منْ وجوهِ الخيرِ، ويأتِي بمعنَى الفقرِ والإملاقِ؛ لأنَّ الإنفاقَ سببٌ للافتقارِ منَ الشَّيءِ المنفقِ[1].

ومنهُ (النَّفقةُ): وهيَ اسمٌ لمَا يُنفَقُ منَ الدَّراهمِ والزَّادِ ونحوهمَا، ومَا يُفرضُ للزَّوجةِ علَى زوجهَا منْ مالٍ للطَّعامِ والكساءِ والسُّكنَى والحضانةِ ونحوهَا، والجمعُ: نفقاتٌ، ونِفَاقٌ[2]، (وهوَ ليسَ إبطانُ الكفرِ وإظهار الإسلام)

الإنفاقُ اصطلاحًا:

لَا يوجدُ كبيرُ فرقٍ بينَ المعنَى اللُّغوِي والمعنَى الاصطلاحِي للإنفاقِ، وقدْ عرَّفهُ الجرجانيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى بقولهِ:

هوَ صرفُ المالِ فِي الحاجةِ[3].

واختارَ الرَّاغبُ: أنَّهُ يكونُ فِي المالِ وغيرهِ[4].

فهوَ علَى هذَا: بذلُ المالِ ونحوهِ فِي أوجهِ الخيرِ، ويُطلقُ أيضًا علَى مَا ينفقهُ الرَّجلُ علَى نفسهِ وعلى أهلهِ.

ويشملُ كلَّ مَا أمرَ اللهُ تعالَى بهِ فِي دينهِ منَ الإنفاقِ، سواءٌ كانَ إنفاقًا فِي حجٍّ أوْ عمرةٍ، أوْ كانَ جهادًا بالنَّفسِ، أوْ تجهيزًا للغيرِ، أوْ كانَ إنفاقًا فِي صلةِ الرَّحمِ، أوْ فِي الصَّدقاتِ، أوْ علَى العيالِ، أوْ فِي الزَّكواتِ والكفَّاراتِ، أوْ عمارةِ السَّبيلِ وغيرِ ذلكَ.

والتَّعريفُ المختارُ للإنفاقِ هوَ: إخراجُ المالِ منَ ملكيَّةِ صاحبهِ، فِي سبيلِ تحصيلِ منفعةٍ صحيحةٍ، عينيَّةٍ أوْ معنويَّةٍ، لهُ أوْ لغيرهِ.

الإنفاقُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ مادَّةُ (نفق) فِي القرآنِ (73) مرة[5].

وجاءَ الإنفاقُ فِي القرآنِ علَى أربعةُ أوجهٍ[6]:

الأوَّلُ: الصَّدقةُ والزَّكاةُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" [البقرة: 3]، يعنِي: يتصدَّقونَ ويؤدُّونَ الزَّكاةَ.

الثَّانِي: النَّفقةُ الواجبةُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: " وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ" [الطلاق: 6]، يعنِي: علَى الزَّوجاتِ.

الثَّالثُ: الإعمارُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: " وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا

وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا" [الكهف: 42]، **يعنِي: مَا عمَّرَ فيهَا.**

الرَّابعُ: الرِّزقُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: " بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ" [المائدة: 64]، **يعنِي: يرزقُ كيفَ يشاءُ.**

ألفاظ ذات الصلة:

الزَّكاةُ:

الزَّكاةُ لغةً:

النَّماءُ، يقالُ: زكَى الزَّرعُ يزكُو، أي: نمَا، وهيَ الطَّهارةُ والبركةُ والمدحُ(7).

الزَّكاةُ اصطلاحًا:

إيجابُ طائفةٍ منَ المالِ فِي مالٍ مخصوصٍ لمالكٍ مخصوصٍ، معتبرًا فيهِ الحولُ والنِّصابُ(8). وغيرِ ذلكَ منَ التَّعاريفِ الصَّحيحةِ.

الصِّلةُ بيَن الإنفاقِ والزَّكاةِ:

الإنفاقُ أعمُّ منَ الزَّكاةِ منْ حيثُ أحكامِ الشَّرعِ وأصنافِ المالِ، فالإنفاقُ يكونُ فِي عمومِ أنواعِ المالِ، ويكونُ علَى سبيلِ الوجوبِ والاستحبابِ والإباحةِ، وأمَّا إذَا أنفقَ المرءُ فِي المكروهاتِ والمحرَّماتِ لمْ تعدْ تحملُ اسمَ النَّفقةِ، بلْ هوَ منَ الإسرافِ، بينمَا الزَّكاةُ فهيَ مقدَّرةٌ فِي مالٍ مخصوصٍ، ولهَا حكمُ الوجوبِ فقطْ.

التصدُّقُ:

التصدُّقُ لغةً:

إعطاءُ الصَّدقةِ، تصدَّقَ بـ، يتصدَّقُ، تصدُّقًا، فهوَ مُتصدِّقٌ، والمفعولُ مُتصدَّقٌ عليهِ.

تَصَدَّقَ عَلَى الفُقَرَاءِ فِي يَوْمِ عِيدٍ: أَعْطَاهُمْ صَدَقَاتٍ، تقولُ: تصدَّقَ الأجيرُ بالأجرةِ: أيْ جعلَ أجرتهُ صدقةً يتصدَّقُ بهَا علَى الفقراءِ تقرُّبًا إلَى اللهِ تعالَى [9].

التَّصدُّقُ اصطلاحًا:

مَا يخرجهُ الإنسانُ (المسلمُ) منْ مالهِ علَى وجهِ القربةِ[10].

الصِّلةُ بينَ الإنفاقِ والتصدُّقِ:

الإنفاقُ أعمُّ منَ التصدُّقِ منْ حيثُ أحكامِ الشَّرعِ، فالإنفاقُ يكونُ علَى سبيلِ الوجوبِ والاستحبابِ والإباحةِ، أمَّا التصدُّقُ فلهُ حكمُ الاستحبابِ فقطْ.

الإقراضُ:

الإقراضُ لغةً:

مصدرٌ منْ أقرضتهُ المالَ إقراضًا، ومنهُ القرضَ، والجمعُ قروضٌ[11].

الإقراضُ اصطلاحًا:

هوُ إعطاءُ غيركَ منْ مالكَ لتقضاهُ[12].

الصِّلةُ بينَ الإنفاقِ والإقراضِ:

أنَّ الإنفاقَ فيهِ إخراجٌ للمالِ منَ الملكيَّةِ، بينمَا الإقراضُ يبقَى فيهِ المالُ ملكًا لمخرجهِ فِي ذمَّةِ غيرهِ؛ ليردَّهُ إليهِ.

الإيتاءُ:

الإيتاءُ لغةً:

الإعطاءُ، آتَى يؤاتِي إيتاءً، وآتاهُ إيتاءً، أيْ: أعطاهُ، ويقالُ: آتاهُ الشَّيءَ، أيْ: أعطاهُ إيَّاهُ(13).

الإيتاءُ اصطلاحًا:

إعطاءُ المالِ للغيرِ علَى سبيلِ التَّمليكِ وحريَّةِ التَّصرُّفِ.

الصِّلةِ بينَ الإيتاءِ والإنفاقِ:

الإنفاقُ أعمُّ منَ الإيتاءِ، فالإنفاقُ قدْ يكونُ علَى سبيلِ التَّمليكِ المفضِي إلَى حريَّةِ التَّصرُّفِ، وقدْ يكونُ التصرُّفُ فِي المالِ مشروطًا، أوْ يكونُ لهُ مقابلٌ، بينمَا الإيتاءُ لَا يكونُ إلَّا علَى سبيلِ التَّمليكِ، ولَا يكونُ مشروطًا، أوْ لهُ مقابلٌ، وإنْ لمْ يكنْ كذلكَ فليسَ بإيتاءٍ(14).

الإعطاءُ:

الإعطاءُ لغةً:

المناولةُ، أعطاهُ الشَّيءَ أيْ: ناولهُ إيَّاهُ.

الإعطاءُ اصطلاحًا:

هوَ مناولةُ الشَّيءَ للآخرِ علَى سبيلِ تصرُّفٍ مأذونٍ فيهِ منَ المناولِ(15).

الصِّلةُ بينَ الإنفاقِ والإعطاءِ:

الإنفاقُ هوَ إخراجُ المالِ منَ الملكِ، والإعطاءُ لَا يقتضِي إخراجَ المعطِي المالَ منَ الملكِ(16)، فالإعطاءُ أعمُّ فهوَ يشملُ كلَّ عطاءٍ.

البخلُ:

البخلُ لغةً:

منعُ الفضلِ والإمساكِ عنِ البذلِ، منعَ الرَّجلُ القادرِ العطاءِ بالمعروفِ منْ مالهِ[17].

البخلُ اصطلاحًا:

هوَ إمساكُ المالِ وعدمُ صرفهِ فِي الوجوهِ المعتبرةِ حرصًا علَى بقائهِ وزيادتهِ وخوفًا منْ نفادهِ[18].

الصِّلةُ بينَ الإنفاقِ والبخلِ:

بينهمَا تضادٌّ واضحٌ، فالإنفاقُ هوَ البذلُ تلبيةً لسدِّ الحاجةِ، والبخلُ الإمساكُ عنِ البذلِ وإنْ دعتْ إليهِ الحاجةُ.

(1) عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢٠٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٤٢، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر ٣/ ٢٢٦٠.
(2) المعجم الوسيط ٨٠٦/٢.
(3) التعريفات ٥٧/١.
(4) المفردات ص ٨١٩.
(5) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧١٥، ٧١٦.
(6) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤٣٥، ٤٣٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١٦٠/٥.
(7) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٣٠٧، طلبة الطلبة، نجم الدين النسفي ص ١٦.
(8) التعريفات ص ١١٤.
(9) قاموس المعاني مادَّة "تصدَّق".
(10) تاج العروس ٢٦/ ١٢، معجم لغة الفقهاء ص ٢٧٢.
(11) المطلع على ألفاظ المقنع، شمس الدين البعلي ص ٢٩٥، المصباح المنير، الحموي ٢/ ٤٩٨.
(12) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٧١، المصباح المنير، الحموي ٢/ ٤٩٨.
(13) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥١، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٧.
(14) دستور العلماء، الأحمد نكري ١/ ١٨.
(15) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص ١٦٧.
(16) المصدر السابق.
(17) معجم لغة الفقهاء، قلعجي، قنيبي ص ١٠٤.
(18) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، أبو الفضل البستي ٢/ ٢٤٥.

الأساليبُ القرآنيَّةُ فِي عرضِ الإنفاقِ:

تنوَّعتْ أساليبُ القرآنِ فِي الحديثِ عنِ الإنفاقِ، وهذَا مَا سنتناولهُ بالبيانِ فيمَا يأتِي:

أوَّلًا: الأمرُ بالإنفاقِ:

جاءَ الأمرُ بالإنفاقِ، وبذلِ المالِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى صريحًا فِي القرآنِ الكريمِ، فقالَ تعالَى: "وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" [البقرة: 195].

وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ" [البقرة: 254].

ثانيًا: الثَّناءُ علَى المنفقينَ، وخاصَّةً عندَ الحاجةِ:

فمنْ أساليبِ القرآنِ الكريمِ فِي الحثِّ علَى الإنفاقِ والتَّرغيبِ فِي البذلِ والعطاءِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى أنَّهُ امتدحَ المنفقينَ، ورفعَ منْ مكانةِ المحسنينَ، وجعلهمْ مهتدينَ مفلحينَ، قالَ تعالَى: "الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)" [البقرة: 3، 4، 5].

فالإشارةُ بِـ (أولئكَ) فِي قولهِ تعالَى: "أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" إلَى منْ سبقتْ أوصافهمْ، وهمُ المتَّقونَ، أصحابُ الصِّفاتِ الخمسِ (وهيَ 1 - الإيمانُ بالغيبِ 2 - وإقامةِ الصَّلاةِ 3 - والإنفاقُ 4 - والإيمانُ بمَا أُنزلَ علَى

النَّبيِّ ﷺ ومَا أُنزلَ علَى إخوانهِ منَ الأنبياءِ منْ قبلهِ 5 - والإيمانُ باليومِ الآخرِ إيمانًا يقينيًّا) والتِي منهَا الإنفاقُ ممَّا رزقهمْ اللهُ تعالَى، ويشيرُ اسمُ الإشارةِ (أولئكَ) إلَى علوِّ مرتبتهمْ، والعنايةِ التامَّةِ بهمْ، كأنَّهمْ حضرُوا بينَ يديْ المتكلِّمِ، وفيهِ الفصلُ بينَ الغايةِ والوسيلةِ، فالغايةُ: الفلاحُ، ووسيلتهُ: مَا سبقَ – ذكرهُ منَ الصِّفاتِ -، والفلاحُ: هوَ الفوزُ بالمطلوبِ، والنَّجاةُ منَ المرهوبِ، فهيَ كلمةٌ جامعةٌ لانتفاءِ جميعِ الشُّرورِ، وحصولِ جميعِ الخيرِ(1).

ثالثًا: الوعدُ بالإخلافِ علَى المنفقينَ والأجرِ الكبيرِ فِي الآخرةِ:

أمرَ اللهُ تعالَى عبادهُ بالإنفاقِ فِي أوجهِ الطَّاعاتِ منَ المالِ الذِي أعطاهمْ إيَّاهُ، وجعلهُ بينَ أيديهمْ علَى سبيلِ الأمانةِ، أوِ الإعارةِ، ووعدهمْ بالخلفِ، أيْ: العوضِ المضاعفِ، فقالَ: "وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ" [سبإ: 39].

أيْ: مهمَا أنفقتمْ منْ شيءٍ فيمَا أمركمْ بهِ اللهُ، وأباحهُ لكمْ، فهوَ يخلفهُ عليكمْ فِي الدُّنيَا بالبدلِ، وفِي الآخرةِ بالجزاءِ والثَّوابِ.

وقولهُ تعالَى: (وَمَا أَنْفَقْتُمْ) (مَا) هنَا تفيدُ العمومَ، يعنِي: سواءٌ كانَ المُنْفَقُ صغيرًا أوْ كبيرًا. ومعنَى: (فَهُوَ يُخْلِفُهُ) أيْ: يخلفهُ عليكمْ، يقالُ: أخلفَ لهُ، وأخلفَ عليهِ، إذَا أعطاهُ عوضهُ وبدلهُ، وذلكَ البدلُ إمَّا فِي الدُّنيَا وإمَّا فِي الآخرةِ، والمقصودُ: لَا تتوَّهمُوا أنَّ الإنفاقَ ممَّا ينقصُ الرِّزقَ، بلْ وعدَ بالخلفِ للمنفقِ، الذِي يبسطُ الرِّزقَ لمنْ يشاءُ ويقدرُ.

وقدْ جاءَ فِي الحديثِ: "عنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ فِي مَا يُخبرُ عنْ ربِّهِ: (قالُ اللهُ: أَنْفِقْ يَا ابنَ آدمَ أُنْفِقُ عليكَ)"(2).

رابعًا: الوعيدُ الشَّديدُ لمنْ يكنزُ الذَّهبَ والفضَّةَ والمالَ عمومًا ولَا ينفقهُ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى:

توعَّدَ اللهُ تعالَى كلَّ منْ يكنزُ الذَّهبَ والفضَّةَ ولَا ينفقهَا فِي سبيلِ اللهِ بعذابٍ أليمٍ، فقالَ سبحانهُ: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (35)" [التوبة: 34، 35].

وهذَا إخبارٌ منَ اللهِ تعالَى عنِ الكنوزِ وأصحابهَا يومَ القيامةِ، ومَا يتعلَّقُ بعذابهمْ فِي اليومِ الآخرِ.

فقولهُ: (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ) يحتمل فِي ظاهرِ الآيةِ أنْ يرادَ بهمْ: أولئكَ الأحبارُ والرُّهبانُ السَّابقِ ذكرهمْ فِي الآيةِ، فيكونُ قدْ وصفهمْ بالحرصِ الشَّديدِ علَى أخذِ أموالِ النَّاسِ، بقولهِ تعالَى: (إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) ووصفهمْ أيضًا بالبخلِ الشَّديدِ والامتناعِ منْ إخراجِ الواجباتِ عنْ أموالِ أنفسهمْ، بقولهِ تعالَى: (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)، ويُحتملُ أنْ يرادَ بهمُ: المسلمونَ الذينَ يجمعونَ المالَ ولَا يؤدُّونَ حقَّهُ، ويكونُ اقترانهمْ بالمرتشينَ منَ اليهودِ والنَّصارَى تغليظًا، ودلالةً علَى أنَّ منْ يأخذُ منْ أهلِ الكتابِ السحتَ، ومنْ لَا

يعطِي منَ المسلمينَ زكاةَ مالهِ سواءٌ فِي استحقاقِ البشارةِ بالعذابِ الأليمِ، واحتمالُ أنْ يرادَ بذلكَ الجميعَ وهوَ الرَّاجحُ، وهوَ كلُّ منْ كنزَ المالَ ولمْ يخرجْ منهُ الحقوقَ الواجبةَ، سواءٌ كانَ منَ الأحبارِ والرهبانِ أوْ كانَ منَ المسلمينَ.

والكنزُ بفتحِ الكافِ مصدرُ (كنزَ) إذَا ادَّخرَ مالًا، وكلُّ شيءٍ غمزتهُ فِي وعاءٍ أوْ أرضٍ فقدْ كنزتهُ، واكتنزَ: اجتمعَ وامتلأَ[3]، يقالُ: هذَا جسمٌ مكتنزُ الأجزاءِ إذَا كانَ مجتمعُ الأجزاءِ، ويُطلقُ علَى المالِ منَ الذَّهبِ والفضَّةِ الذِي يخزَّنُ، وعلَى كلِّ شيءٍ ثمينٍ، سواءٌ دُفنَ فِي باطنِ الأرضِ أوْ لمْ يُدفنْ، ولكنْ شاعَ استعمالهُ فيمَا يدفنُ فِي باطنِ الأرضِ، ولكنْ شيوعهُ لَا يمنعَ أصلَ إطلاقهِ، ولَا يمنعُ الشُّيوعَ منْ أنْ يُطلقَ علَى الأصلِ اللُّغوِي، ولقدْ قالَ شيخُ المفسِّرينَ الطَّبرِي: الكنزُ: كلُّ شيءٍ مجموعٌ بعضهُ إلَى بعضٍ فِي بطنِ الأرضِ كانَ أوْ علَى ظهرهَا[4].

والمعنَى: أنَّهمْ يجمعونهمَا ويحفظونهمَا سواءٌ كانَ ذلكَ بالدَّفنِ، أوْ بوجهٍ آخرَ، وسمِّي الذَّهبُ ذهبًا لأنَّهُ يذهبُ ولَا يبقَى، وسمِّيتِ الفضَّةُ فضَّةً لأنَّهَا تُنفضُ، أيْ: تتفرَّقُ ولَا تبقَى، وحسبكَ بالاسمينِ دلالةً علَى فنائهمَا، وأنَّهُ لَا بقاءَ لهمَا[5].

وخُصَّ الذَّهبُ والفضَّةُ بالذِّكرِ لأنَّهمَا الأصلُ الغالبُ فِي الأموالِ، ولأنَّهمَا مقياسُ التَّقديرِ لكلِّ الأموالِ، ولأنَّهمَا اللَّذانِ يُقصدانِ بالكنزِ أكثرَ منْ غيرهمَا، وقدْ قالَ فِي ذلكَ الزَّمخشرِي: إنَّهمَا قانونُ التَّمولِ، وأثمانُ الأشياءِ، ولَا يكنزهمَا إلَّا منْ فَضُلَا عنْ حاجتهِ، ومنْ كَثُرَا عندهُ حتَّى

يكنزهمَا لمْ يعدمْ سائرَ أجناسِ المالِ، فكانَ ذكرُ كنزهمَا دليلًا علَى مَا سواهمَا[6].

وأمَّا منِ امتنعَ عنِ الإنفاقِ فحسبهُ حديثُ رسولِ اللهِ ﷺ:

"فعنِ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (مَا منْ صاحبِ ذهبٍ ولَا فضَّةٍ لَا يؤدِّي منهَا حقَّها إلَّا إذَا كانَ يومُ القيامةِ صفِّحتْ لهُ صفائحَ منْ نارٍ فأحميَ عليهَا منْ نارِ جهنَّمَ فيُكوَى بهَا جنبهُ وجبينهُ وظهرهُ كلَّمَا بردتْ أعيدتْ لهُ فِي يومٍ كانَ مقدارهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ حتَّى يُقضَى بينَ العبادِ فيرَى سبيلهُ إمَّا إلَى الجنَّةِ وإمَّا إلَى النَّارِ قيلَ: يَا رسولَ اللهِ فالإبلُ قالَ: ولَا صاحبَ إبلٍ لَا يؤدِّي منهَا حقَّهَا ومنْ حقِّهَا حلبهَا يومَ وردهَا إلَّا إذَا كانَ يومُ القيامةِ بُطحَ لهَا بقاعٍ أوفرَ مَا كانتْ لَا يفقدُ منهَا فصيلًا واحدًا تطأهُ بأخفافهَا وتعضُّهُ فأفواههَا كلَّمَا مرَّ عليهِ أوَّلاهَا أعيدَ عليهِ أخراهَا فِي يومٍ كانَ مقدارهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ حتَّى يُقضَى بينَ العبادِ فيرَى سبيلهُ إمَّا إلَى الجنَّةِ وإمَّا إلَى النَّارِ قيلَ يَا رسولَ اللهِ فالبقرُ والغنمُ قالَ ولَا صاحبَ بقرٍ وغنمٍ لَا يؤدِّي منهَا حقَّهَا إلَّا إذَا كانَ يومُ القيامةِ بُطحَ لهَا بقاعٍ قرقرَ لَا يفقدُ منهَا شيئًا ليسَ فيهَا عفصاءُ ولَا جلحاءُ ولَا عضباءُ تنطحهُ بقرونهَا وتطأهُ بأظلافهَا كلَّمَا مرَّ عليهِ أولاهَا رُدَّ عليهِ أُخراهَا فِي يومٍ كانَ مقدارهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ حتَّى يُقضَى بينَ العبادِ فيرَى سبيلهُ إمَّا إلَى الجنَّةِ وإمَّا إلَى النَّارِ ...[7].

أنواعُ الإنفاقِ ومجالاتهِ:

تعدَّدتْ أنواعُ الإنفاقِ ومجالاتهُ التِي تحدَّثَ عنهَا القرآنُ، وهيَ علَى أقسامٍ:

أولًا: الإنفاقُ الواجبُ:

ذكرَ القرآنُ الكريمُ أنواعًا منَ الإنفاقِ الواجبِ، وبيَّنتهُ السنَّةُ المطهَّرةُ، وينحصرُ الإنفاقُ الواجبُ فِي الأنواعِ الآتيةِ:

1) الزَّكاةُ المفروضةُ:

والزَّكاةُ لغةً: النَّماءُ والزِّيادةُ، وفِي الشَّرعِ: هيَ دفعُ مالٍ مخصوصٍ، لطائفةٍ مخصوصةٍ، تعبُّدًا للهِ عزَّ وجلَّ، وسمِّيتْ زكاةً لأنَّهَا تزكِّي الإنسانَ ومالهُ[8]، تُنمِّيهِ.

وهيَ ركنٌ منْ أركانِ الإسلامِ، ومبانيهِ العظامِ، وقدْ قُرنتْ بالصَّلاةِ، وأمرَ اللهُ تعالَى بأدائهَا فِي آياتٍ كثيرةٍ، ومنْ تلكَ الآياتِ قولهُ تعالَى: "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" [التوبة: 103].

والخطابُ فِي قولهِ: (خُذْ) للرَّسولِ ﷺ، ولمنْ جاءَ بعدهُ منَ خلفاءِ الإسلامِ، وفِي الآيةِ إشارةٌ إلَى أنَّ الأئمَّةَ بعدهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ همْ نوَّابهُ، وقائمينَ بمَا كانَ يقومُ بهِ، فيتناولهمْ حكمُ الخطابِ الواردِ لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وظاهرُ الآيةِ للوجوبِ، فدلَّ هذَا النصُّ علَى أنَّ أخذهَا واجبٌ.

وفِي الآيةِ دلالةٌ علَى أنَّ هذهِ الزَّكاةَ يتولَّى أخذهَا وتفرقتهَا الإمامُ، ومنْ يُولَّى منْ قِبَلِهِ، والدَّليلُ عليهِ: أنَّ اللهَ تعالَى جعلَ للعاملينَ عليهَا سهمًا فيهَا؛ وذلكَ يدلُّ علَى أنَّهُ لابدَّ فِي أداءِ

هذهِ الزَّكواتِ منْ عاملٍ، والعاملُ هوَ الذِي نصَّبهُ الإمامُ لأخذِ الزكواتِ، فدلَّ هذَا النصُّ علَى أنَّ الإمامَ هوَ الذِي يأخذُ هذهِ الزكواتِ، وتأكَّدَ هذَا النصُّ بقولهِ تعالَى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)[9].

وقالَ: (مِنْ أَمْوَالِهِمْ) ولمْ يقلْ: خذْ أموالهمْ؛ لأنَّ المرادَ بعضَ المالِ لَا كلِّهِ، فَـ (منْ) للتَّبعيضِ، ممَّا يدلُّ علَى أنَّ القدرَ المأخوذَ بعضُ تلكَ الأموالِ لَا كلَّهَا.

ومقدارُ ذلكَ البعضُ غيرُ مذكورٍ هنَا بصريحِ اللَّفظِ، بلْ المذكورُ قولهِ: (صَدَقَةً) ومعلومٌ أنَّهُ ليسَ المرادُ منهُ التَّنكيرُ حتَّى يكفيَ أخذُ أيِّ جزءٍ كانَ وإنْ كانَ فِي غايةِ القلَّةِ، مثلَ الحبَّةِ الواحدةِ منَ الحنطةِ، أوِ الجزءُ الحقيرُ منَ الذَّهبِ، بلِ المرادُ صدقةٌ معلومةُ الصِّفةِ والكيفيَّةِ والكميَّةِ عندهمْ، حتَّى يكونُ قولهُ: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) أمرًا بأخذِ تلكَ الصَّدقةِ المعلومةِ، فحينئذٍ يزولُ الإجمالُ، ومعلومٌ أنَّ تلكَ الصَّدقةِ ليستْ إلَّا الصَّدقاتِ التِي وصفهَا رسولُ اللهِ ﷺ، وبيَّنَ كيفيِّتهَا[10] فعنْ أنسٍ أنَّ أبَا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهمَا كتبَ لهُ هذَا الكتابَ لمَّا وجَّههُ إلَى البحرينِ: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ هذهِ فريضةُ الصَّدقةِ التِي فرضَ رسولُ اللهِ ﷺ علَى المسلمينَ والتِي أمرَ اللهُ بهَا رسولهُ ﷺ فمنْ سُئلهَا منَ المسلمينَ علَى وجههَا فليعطهَا ومنْ سُئلَ فوقهَا فلَا يعطِ: فِي أربعٍ وعشرينَ منَ الإبلِ فمَا دونهَا منَ الغنمِ منْ كلِّ خمسٍ شاةٍ، إذَا بلغتْ خمسًا وعشرينَ إلَى خمسٍ وثلاثينَ ففيهَا بنتُ مخاضٍ أنثَى، فإذَا بلغتْ ستًّا وثلاثينَ إلَى خمسٍ وأربعينَ ففيهَا بنتُ لبونٍ أنثَى فإذَا، بلغتْ ستًّا وأربعينَ إلَى ستِّينَ ففيهَا حقَّةٌ طروقةُ الجملِ، فإذَا بلغتْ واحدةً وستِّينَ إلَى خمسٍ

وسبعينَ ففيهَا جذعةٌ، فإذَا بلغتْ يعنِي ستًّا وسبعينَ إلَى تسعينَ ففيهَا بنتَا لبونٍ، فإذَا بلغتْ إحدَى وتسعينَ إلَى عشرينَ ومائةٍ ففيهَا حقَّتانِ طروقتَا الجملِ فإذَا زادتْ علَى عشرينَ ومائةٍ ففِي كلِّ أربعينَ بنتُ لبونٍ وفِي كلِّ خمسينَ حقَّةٌ ومنْ لمْ يكنْ معهُ إلَّا أربعَ منَ الإبلِ فليسَ فيهَا صدقةٌ إلَّا أنْ يشاءَ ربُّهَا، فإذَا بلغتْ خمسًا منَ الإبلِ ففيهَا شاةٌ، وفِي صدقةِ الغنمِ فِي سائمتهَا إذَا كانتْ أربعينَ إلَى عشرينَ ومائةٍ شاةٌ، فإذَا زادتْ علَى عشرينَ ومائةٍ إلَى مائتينِ شاتانِ، فإذَا زادتْ علَى مائتينِ إلَى ثلاثَ مائةٍ ففيهَا ثلاثُ شياهٍ فإذَا زادتْ علَى ثلاثِ مائةٍ ففِي كلِّ مائةٍ شاةٌ، فإذَا كانتْ سائمةُ الرَّجلِ ناقصةٌ منْ أربعينَ شاةً واحدةً فليسَ فيهَا صدقةٌ إلَّا أنْ يشاءَ ربُّها، وفِي الرقَّةِ ربعُ العشرِ فإنَ لمْ تكنْ إلَّا تسعينَ ومائةٍ فليسَ فيهَا شيءٌ إلَّا أنْ يشاءَ ربُّهَا[11].

وقولهُ: (وفي الرِّقةِ) بكسرِ الرَّاء وتخفيفِ القافِ: الفضّةُ الخالصةُ سواءٌ كانتْ مضروبةً أوْ غيرُ مضروبةٍ – أيْ فِي سبائكَ أو حليٍّ-، وقيلَ: أصلهَا الورِقُ، فحذفتْ الواوُ وعوِّضتِ الهاءُ، وقيلَ: يطلقُ علَى الذَّهبِ والفضَّةِ بخلافِ الورقِ فعلَى هذَا قيلَ: إنَّ الأصلَ فِي زكاةِ النَّقدينِ نصابُ الفضَّةِ، فإذَا بلغَ الذَّهبُ ماَ قيمتهُ مائتَا درهمٍ فضَّةً خالصةً وجبتْ فيهِ الزَّكاةُ وهوَ ربعُ العشرِ، وهذَا قولُ الزُّهري، وخالفهُ الجمهورُ.

وقولهُ: (فإذَا لمْ تكنْ) أيِّ الفضَّةُ (إلَّا تسعينَ ومائةٍ) يُوهمُ أنَّهَا إذَا زادتْ علَى التِّسعينَ ومائةٍ قبلَ بلوغِ المائتينِ أنَّ فيهَا صدقةً، وليسَ كذلكَ، وإنَّمَا ذكرَ التِّسعينَ لأنَّهُ آخرُ عقدٍ قبلَ المائةِ، والحسابُ إذَا جاوزَ الآحادَ كانَ تركيبهُ بالعقودِ

كالعشراتِ والمئينَ والألوفِ، فذكرَ التِّسعينَ ليدلَّ علَى أنَّ لَا صدقةَ فيمَا نقصَ عنِ المائتينِ، ويدلُّ عليهِ قولهُ الماضِي: ليسَ فيمَا دونَ خمسِ أواقٍ صدقةٍ.

وقولهُ: (إِلَّا أنْ يشاءَ ربُّهَا فِي المواضعِ الثَّلاثةِ) أيْ: إِلَّا أنْ يتبرَّعَ متطوِّعًا(12).

فيكونُ المرادُ بالصَّدقةِ حينهَا فِي الآيةِ: الزَّكاةُ المفروضةُ، فالصَّدقةُ تطلقُ علَى الفرضِ والنَّفلِ، كمَا فِي قولهِ تعالَى: "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" [التوبة: 60].

بينمَا الزَّكاةُ لَا تُطلقُ إِلَّا علَى الفرضِ فقطْ، ومنِ امتنعَ عنْ أداءِ الزَّكاةِ أخذهَا الإمامُ كرهًا، ووضعهَا موضعهَا.

والظاهرُ فِي قولهِ: (أَمْوَالِهِمْ) العمومُ، فتجبُ الزَّكاةُ فِي جميعِ المالِ حتَّى فِي الدُّيونِ، وفِي مالِ الرِّكازِ، وفِي مالِ الضِّمانِ.

وقولهُ: (تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ) معنَى التَّطهيرُ: إذهابُ مَا يتعلَّقُ بهمْ منْ أثرِ الذُّنوبِ، ومعنَى التَّزكيةُ: المبالغةُ فِي التَّطهيرِ، والمقصودُ أنَّ الزَّكاةَ تزكِّي الإنسانَ فِي أخلاقهِ وعقيدتهِ، وتطهِّرهُ منَ الرَّذائلِ؛ لأنَّهَا تخرجهُ منْ حظيرةِ البخلاءِ إِلَى حظيرةِ الأجوادِ والكرماءِ، وتكفِّرُ سيِّئاتهِ، فهيَ تطهِّرُ ظاهرهُ وباطنهُ، يتزكَّى أوَّلًا منَ الشِّركِ بالنِّسبةِ لمعاملةِ اللهِ، فيعبدُ اللهَ تعالَى مخلصًا لهُ الدِّينَ، لَا يُرائِي وَلَا يطلبُ جاهًا ولَا رئاسةً، فيمَا يتعبَّدُ بهِ اللهَ عزَّ وجلَّ، وإنَّمَا يريدُ بهذَا وجهَ اللهِ تعالَى والدَّارَ الآخرةَ، ويتزكَّى فِي اتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ، بحيثُ لَا يبتدعُ فِي شريعتهِ لَا بقليلٍ ولَا كثيرٍ، لَا فِي الاعتقادِ ولَا فِي

الأقوالِ ولَا فِي الأفعالِ[13]، وكونَ إخراجِ الزَّكاةِ فيهَا تطهيرًا لهمْ وتزكيةٌ لأنَّ المالَ مادَّةُ الشَّهواتِ، فأمرَ – اللهُ تعالَى - النَّبيَّ ﷺ بالأخذِ منْ ذلكَ ليكونَ أوَّلَ حالهمُ التَّجرُّدُ لتنكسرَ قوَى النَّفسُ، وتضعفَ أهواؤهَا وصفاتهَا، فتتزكَّى منَ الهيئاتِ المظلمةِ، وتتطهَّرَ منْ خبثِ الذُّنوبِ، ورجسِ دواعِي الشَّيطانِ[14].

2) النَّفقةُ فِي الجهاد:

ومنَ النَّفقاتِ الواجبةِ، النَّفقةُ فِي الجهادِ، حيثُ أمرَ اللهُ بالإنفاقِ فيهِ فِي جميعِ الأوقاتِ، وبأنواعِ الصَّدقاتِ المتعدِّدةِ، سواءٌ كانَ منَ الزَّكاةِ المفروضةِ أوْ منْ غيرِهَا، ووعدَ علَى ذلكَ الأجرَ العظيمَ، قالَ تعالَى: "انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ" [التوبة: 41]**.**

فقولهُ تعالَى: (وَجَاهِدُوا) أمرٌ بالجهادِ، وحقيقتهُ: بذلُ الجهدِ والطَّاقةِ، وهوَ قسمانِ، جهادُ بالنَّفسِ وجهادٌ بالمالِ، أمَّا الجهادُ بالنَّفسِ فمعلومٌ، وهوَ منْ فروضِ الكفاياتِ، إلَّا عندَ هجومِ العدوِّ فيصيرُ متعيِّنًا.

وأمَّا بالمالِ فبزادهِ وراحلتهِ إذَا قدرَ علَى الجهادِ بنفسهِ، فإنْ عجزَ عنهُ بنفسهِ فببذلِ المالِ بدلًا عنهُ، فمنِ استطاعَ الجهادَ بالمالِ والنَّفسِ وجبَ عليهِ الجهادُ بهمَا، ومنْ قدرَ علَى أحدهمَا دونَ الآخرِ وجبَ عليهِ مَا كانَ فِي قدرتهِ منهمَا، إلَى هذَا ذهبَ كثيرٌ منَ العلماءِ، وقيلَ: هوَ إيجابٌ للقسمِ الأوَّلِ فقطْ[15].

وقولهُ تعالَى: (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أيْ: فِي سبيلِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالَى ونصرةِ دينهِ ورسولهِ ﷺ، قالَ الشّوكانيُّ: فيهِ الأمرُ بالجهادِ بالأنفسِ والأموالِ، وإيجابهِ علَى العبادِ، فالفقراءُ يجاهدونَ بأنفسهمْ، والأغنياءُ بأموالهمْ وأنفسهمْ، والجهادُ منْ آكدِ الفرائضِ وأعظمهَا، وهوَ فرضُ كفايةٍ مهمَا كانَ البعضُ يقومُ بجهادِ العدوِّ وبدفعهِ، فإنْ كانَ لَا يقومُ بالعدوِّ إلَّا جميعُ المسلمينَ فِي قطرٍ منَ الأرضِ، أوْ أقطارٍ وجبَ عليهمْ ذلكَ وجوبَ عينٍ[16].

3) الإنفاقُ علَى الزَّوجةِ:

النَّفقةُ علَى الزَّوجةِ بالمعروفِ واجبةٌ بنصِّ القرآنِ، قالَ تعالَى: "وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ" [البقرة: 233].

أيْ: وعلَى والدِ الطِّفلِ نفقةُ الوالداتِ، وكسوتهنَّ بالمعروفِ، أيْ: بمَا جرتْ بهِ عادةُ أمثالهنَّ فِي بلدهنَّ منْ غيرِ إسرافٍ ولَا إقتارٍ، بحسبِ قدرتهِ فِي يسارهِ وتوسُّطهِ وإقتارهِ[17].

قالَ ابنُ رشدٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: واتفقُوا علَى أنَّ منْ حقوقِ الزَّوجةِ علَى الزَّوجِ: النَّفقةُ والكسوةُ؛ لقولهِ تعالَى: (وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) ولمَا ثبتَ منْ قولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: "ولهنَّ عليكمْ رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروفِ"[18]، ولقولهِ لهندٍ: "خذِي مَا يكفيكِ وولدكِ بالمعروفِ"[19][20].

فقولهُ تعالَى: (وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ) أيِ: الأبُ، وظاهرُ الآيةِ أنَّهُ لَا فرقَ بينَ أنْ تكونَ الزَّوجةُ فِي حبالهِ أوْ بائنًا منهُ، فإنْ كانتْ فِي حبالهِ فلوجوبِ الإنفاقِ عليهَا سببانِ: الزَّوجيَّةُ

والإرضاعُ، وإنْ لمْ تكنْ فِي حبالهِ فلهَا سببٌ واحدٌ وهوَ الإرضاعُ، ولَا يمتنعُ أنْ يكونَ للحكمِ الواحدِ سببانِ، كمَا فِي الزَّوجِ يكونُ ابنَ عمٍّ فيرثُ بالزَّوجيَّةِ والقرابةِ[21].

وقولهُ تعالَى: (بِالمَعْرُوفِ) أيْ: أنَّهُ يُرجعُ إِلَى العرفِ فِي نوعِ الرِّزقِ وكمِّيتهِ وكيفيَّتهِ وكذلكَ الكسوةُ.

ومنَ المعلومِ أنَّ الكفايةَ بالمعروفِ تتنوَّعُ بحالِ الزَّوجةِ فِي حاجتهَا، وبتنوُّعِ الزَّمانِ والمكانِ، وبتنوُّعِ حالِ الزَّوجِ فِي يسارهِ وإعسارهِ، فليستْ كسوةُ القصيرةِ الضَّئيلةِ ككسوةِ الطَّويلةِ الجسيمةِ، ولَا كسوةُ الشِّتاءِ ككسوةُ الصَّيفِ، ولَا كفايةُ طعامِ الشِّتاءِ مثلَ طعامِ الصَّيفِ، ولَا طعامُ البلادِ الحارَّةِ كالباردةِ، ولَا المعروفُ فِي بلادِ التَّمرِ والشَّعيرِ كالمعروفُ فِي بلادِ الفاكهةِ والخبزِ، فيطعمهَا فِي كلِّ بلدٍ ممَّا هوَ عادةُ أهلِ البلدِ والعرفِ عندهمْ.

وقالَ بعضهمْ: هيَ مقدَّرةٌ بالشَّرعِ نوعًا وقدرًا، مدًّا منْ حنطةٍ، أوْ مدًّا ونصفًا، أوْ مدَّينِ قياسًا علَى الإطعامِ الواجبِ فِي الكفارةِ.

والصَّوابُ المقطوعُ بهِ مَا عليهِ الأمَّةُ علمًا وعملًا قديمًا وحديثًا أنَّ تقديرهَا بالعرفِ لَا بالشَّرعِ؛ لقولهِ فِي هذهِ الآيةِ: (بِالمَعْرُوفِ) ولقولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لهندٍ: "خذِي مَا يكفيكِ وولدكِ بالمعروفِ[22] ولمْ يقدِّرْ لهَا نوعًا ولَا قدرًا، ولوْ كانَ ذلكَ مقدَّرًا بشرعٍ لبيَّنهُ لهَا قدرًا ونوعًا، كمَا بيَّنَ فرائضَ الزكواتِ والدِّيَّاتِ[23].

والنَّفقةُ التِي تجبُ للمرأةِ علَى زوجهَا هذهِ الأربعةُ: الطَّعامُ والشَّرابُ والكسوةُ والمسكنُ، فإذَا أعطاهَا هذهِ الأربعةَ فقدْ

خرجَ إليهَا منْ نفقتهَا، فإنْ تفضَّلَ بعدَ ذلكَ فهوَ مأجورٌ، فأمَّا هذهِ الأربعةُ فلابدَّ لهَا منهَا؛ لأنَّ بهَا إقامةُ المهجةِ[24].

---

(1) انظر: تفسير العثيمين الفاتحة والبقرة ١/ ٣٢.
(2) رواهُ البخاري وسلم - وأخرجه أحمد ٢٤٢/٢، ٧٢٩٦، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».
(3) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦٦٣/١.
(4) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤٦/٣.
(5) القاموس المحيط ٦٧٣/١.
(6) جامع البيان، الطبري ٢٢٥/١٤.
(7) صحيح رواه مسلم 987.
(8) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ٢٧٦/٥.
(9) الكشف والبيان للثعلبي ٤١٢/٣.
(10) انظر: التعريفات للجرجاني ١٥٢/١، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ٣٨٧/١.
(11) فتح الباري ص: 372.
(12) السَّابق.
(13) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٧٧.
(14) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣٦/٨.
(15) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٦٧.
(16) فتح القدير ٢/ ٥٢٧.
(17) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٣٤.
(18) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ٣٩/٤، ٣٠٠٩.
(19) أخرجه البخاري في كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف ٥٠٧/٩، ومسلم في كتاب الأقضية، باب قضية هند ٧/١٢.
(20) بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٤٤/٢.
(21) تفسير القرآن للعثيمين ١١٧/٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١٠٤/١.
(22) أخرجه البخاري في كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف ٥٠٧/٩، ومسلم في كتاب الأقضية، باب قضية هند ٧/١٢.
(23) انظر: اللباب في علوم الكتاب ٣٣٧/١٥.
(24) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٥٣/١١.

وهذهِ النَّفقةُ تسقطُ إذَا كانتِ الزَّوجةُ ناشزًا، أيْ: عاصيةً لزوجهَا، كخروجهَا بدونِ إذنهِ، وامتناعهَا عنْ إعطائهِ حقِّهِ، وتلزمُ نفقةُ المطلَّقةِ طلاقًا رجعيًا خلالَ العدَّةِ، فإنْ طلَّقهَا وهيَ حاملٌ فعدَّتهَا إلَى وضعِ الحملِ، فيلزمهُ النَّفقةُ عليهَا والسُّكنَى خلالَ حملهَا، ولوْ طلَّقهَا بائنًا، وذلكَ باتِّفاقِ الفُقهاءِ؛ لقولهِ تعالَى: "وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ" [الطلاق: 6].

وأمَّا المطلَّقةُ قبلَ الدُّخولِ فلأنَّهُ لَا عدَّةَ عليهَا فالنَّفقةُ ساقطةٌ بلَا ريبٍ، وكذلكَ السُّكنَى، والمتعةُ المذكورةُ لهَا فِي القرآنِ هيَ عوضٌ عنِ المهرِ، والملاعنةُ لَا نفقةَ لهَا ولَا سُكنَى؛ لأنَّهَا إنْ كانتْ المطلَّقةُ بائنًا كانتْ مثلهَا فِي ذلكَ، وإنْ كانتِ المتوفَّى عنهَا زوجهَا فكذلكَ، ولَا ريبَ أنَّ فرقتهَا أشدُّ منْ فرقةِ المطلَّقةِ بائنًا؛ لأنَّ هذهِ يجوزُ نكاحهَا فِي حالٍ منَ الأحوالِ بخلافِ تلكَ.

والمقصودُ أنَّ الآيةَ تدلُّ علَى فرضيةِ الإنفاقِ للزَّوجةِ، والمقصودُ بالنَّفقةِ هوَ تأمينُ الحاجاتِ الضَّروريَّةِ التِي لابدَّ منهَا للإنسانِ؛ كيْ لَا يحتاجَ إلَى الغيرِ، والحاجاتُ الأساسيَّةُ التِي لَا يستغنِي عنهَا الإنسانُ فِي حياتهِ هيَ: الغذاءُ والكساءُ والمسكنُ، فأمَّا الغذاءُ ففيهِ قوامُ حياةِ الإنسانِ وبقاءُ بنيتهِ الأساسيَّةِ، فالغذاءُ يقيمُ بناءهُ، ويديمُ وجودهُ فِي الدَّاخلِ، وأمَّا اللِّباسُ أوِ الكساءُ ففيهِ حمايتهُ منَ الخارجِ، وأمَّا المسكنُ فيأوِي إليهِ، ويرتاحُ فيهِ، ويحتمِي بهِ منْ عواديِّ الدَّهرِ، فالنَّفقةُ الواجبةُ علَى الزَّوجِ لزوجتهِ لَا تتعدَّى هذهِ الثَّلاثةَ، ومَا يتبعهَا منَ الخدمةِ، ومَا تتضرَّرُ بتركهِ.

ومنْ أدلَّةِ القرآنِ علَى وجوبِ نفقةِ الزَّوجةِ أيضًا: قولهُ تعالى: " الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ" [النساء: 34].

أيْ: قائمونَ علَى شؤنهنَّ بسببِ تفضيلهِ الرِّجالَ علَى النِّساءِ بالحزمِ والعزمِ والقوَّةِ والفتوَّةِ وغيرهَا منَ الشَّمائلِ الشَّاملةِ، وبسببِ إنفاقهمْ منْ أموالهمْ فِي نكاحهنَّ كالمهرِ والنَّفقةِ، وهذَا أدلُّ علَى وجوبِ النَّفقاتِ علَى الزَّوجاتِ منَ الأزواجِ.

قالَ ابنُ كثيرٍ: أي: منَ المهورِ والنَّفقاتِ والكلفِ التِي أوجبهَا اللهُ عليهمْ لهنَّ فِي كتابهِ، وسنَّةِ نبيِّهِ ﷺ، فالرَّجلُ أفضلُ منَ المرأةِ فِي نفسهِ، ولهُ الفضلُ عليهَا والإفضالُ، فناسبَ أنْ يكونَ قيِّمًا عليهَا، كمَا قالَ اللهُ تعالَى: "وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ..." الآية[البقرة: ٢٢٨] (1).

وقالَ القرطبيُّ: قدْ جعلَ الإنفاقَ عليهنَّ منْ شرطِ القوامةِ، فمتَى مَا عجزَ عنْ نفقتهَا لمْ يكنْ قوامًا عليهَا، وإذَا لمْ يكنْ قوامًا عليهَا كانَ لهَا فسخُ العقدِ؛ لزوالِ المقصودِ الذِي شُرعَ لأجلهِ النِّكاحُ(2).

وأخذَ بعضُ العلماءِ وجوبَ نفقةِ الزَّوجةِ علَى زوجهَا منْ قولهِ تعالَى: " فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ" [طه: ١١٧].

حيثُ جاءَ الخطابُ شاملًا لآدمَ وحوَّاءَ، ثمَّ خصَّ آدمَ بالشَّقاءِ دونهَا فِي قولهِ تعالَى: (فَتَشْقَىٰ) فدلَّ ذلكَ علَى أنَّهُ هوَ المكلَّفُ بالكدِّ عليهَا، وتحصيلِ لوازمِ الحياةِ الضَّروريَّةِ لهَا، منْ مطعمٍ ومشربٍ وملبسٍ ومسكنٍ.

قالَ القرطبيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ هذهِ الآيةِ الكريمةِ مَا نصَّهُ: وإنَّمَا خصَّهُ بذكرِ الشَّقاءِ ولمْ يقلْ: فتشقيَا، يعلِّمنَا أنَّ نفقةَ الزَّوجةِ علَى الزَّوجِ، فمِنْ يومئذٍ جرتْ نفقةُ النِّساءِ علَى الأزواجِ، فلمَّا كانتْ نفقةُ حوَّاءَ علَى آدمَ كذلكَ نفقاتُ بناتهَا علَى بنِي آدمَ بحقِّ الزوجيَّةِ[3].

4) النَّفقةُ علَى الوالدينِ:

ومنَ النَّفقاتِ الواجبةِ نفقةُ الوالدِ (الأبُ أوِ الأمُّ) الفقيرِ الذِي لَا مالَ لهُ ولَا كسبَ علَى ولدهِ الغنيِّ، ذكرًا كانَ أوْ أنثَى، وتقدَّرُ النَّفقةُ بالكفايةِ وسدِّ الحاجةِ، فإذَا كانَا غنيَّينِ أوْ لهمَا مالٌ خاصٌّ انتفَى سببُ وجوبِ النَّفقةِ لهمْ.

قالَ ابنُ المنذرِ: أجمعَ أهلُ العلمِ علَى وجوبِ نفقةِ الوالدينِ اللَّذينِ لَا كسبَ لهمَا ولَا مالَ، سواءٌ أكانَ الوالدينِ مسلمينِ أوْ كافرينِ، وسواءٌ كانَ الفرعُ ذكرًا أوْ أنثَى[4]؛ لقولهِ تعالى: "وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" [البقرة: 38].

وقولهُ سبحانهُ: "وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا" [لقمان: 15].

فإنَّ منْ إكرامِ الوالدينِ والإحسانِ إليهمَا أنْ يقدِّمَ لهمَا مَا يحتاجانِ إليهِ منْ مالٍ وغيرهِ، وخاصَّةً حينَ يصبحانِ غيرَ قادرينِ علَى العملِ، وليسَ منَ الإحسانِ ولَا منَ المصاحبةِ بالمعروفِ أنْ يموتَ الوالدانِ جوعًا والولدُ فِي سعةٍ منَ العيشِ، ولَا ينفقُ عليهمَا!

ولقولهِ سبحانهُ وتعالَى: " يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ" [البقرة: 215].

أي: يسألونكَ عنِ النَّفقةِ، وهذَا يعمُّ السُّؤالَ عنِ المنفقِ والمنفَقِ عليهِ، فأجابهمْ عنهمَا، فقالَ: (قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ) أي: مالٍ قليلٍ أوْ كثيرٍ، فأولَى النَّاسِ بهِ وأحقُّهمْ بالتَّقديمِ أعظمهمْ حقًّا عليكَ، وهمُ الوالدانِ الواجبُ برُّهمَا، والمحرَّمِ عقوقهمَا، ومنْ أعظمِ برِّهمَا النَّفقةُ عليهمَا، ومنْ أعظمِ العقوقِ تركُ الإنفاقِ عليهمَا؛ ولهذَا كانتِ النَّفقةُ عليهمَا واجبةٌ علَى الولدِ الموسرِ، ومنْ بعدِ الوالدينِ الأقربونَ علَى اختلافِ طبقاتهمْ، الأقربُ فالأقربِ، علَى حسبِ القربِ والحاجةِ، فالإنفاقُ عليهمْ صدقةٌ وصلةٌ، ولقولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمنْ جاءَ يشكُو أباهُ الذِي يريدُ أنْ يجتاحَ مالهُ، فقالَ: أنتَ ومالكَ لأبيكَ[5].

5) النَّفقةُ علَى الأبناءِ:

وتجبُ نفقةُ الطفلِ الحرِّ الفقيرِ علَى أبيهِ[6] للإجماعِ علَى ذلكَ[7]، ويؤيِّدهُ قولهُ تعالَى: " فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ" [الطلاق: 6].

وهوَ أمرٌ للأزواجِ يقضِي بوجوبِ إعطاءِ المرأةِ أجرةَ الرَّضاعِ المستلزمةِ وجوبَ المؤونةِ عمومًا منْ رضاعٍ وغيرهِ[8].

ولقولهِ تعالَى: " وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ" [البقرة: 233].

فلفظُ "المَوْلُودِ لَهُ" يعمُّ الوالدَ وسيِّدَ العبدِ، ويبيِّنُ أنَّ الولدَ لأبيهِ لَا لأمِّهِ، والآيةُ توجبُ رزقَ الرَّضيعِ علَى أبيهِ دونَ غيرِهِ(9).

وقدْ دلَّتِ السنَّةُ علَى ذلكَ فِي كثيرٍ منَ الأحاديثِ، منهَا: مَا رُويَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنهُ قالَ لهندٍ: "خذِي مَا يكفيكِ وولدكِ بالمعروفِ(10).

وهذَا يقتضِي لزومَ نفقةِ الولدِ علَى أبيهِ وإلَّا لمَا كانَ لهَا الأخذُ بالمعروفِ.

ولمَا روَى أبُو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رجلًا جاءَ إلَى النبيِّ ﷺ فقالَ: يَا رسولَ اللهِ: عندِي دينارٌ؟ فقالَ: "أنفقهُ علَى نفسكَ، قالَ: عندِي آخرُ؟ فقالَ: أنفقهُ علَى ولدكَ... الحديث"(11).

ففِي هذَا الحديثِ أمرَ ﷺ بالإنفاقِ علَى الولدِ بمَا فضُلَ عنْ كفايةِ النَّفسِ، والأمرُ للوجوبِ، ممَّا يدلُّ علَى وجوبِ إنفاقِ الأبِ علَى أولادهِ.

وسببُ وجوبِ هذهِ النَّفقةِ هوَ الولادةُ؛ لأنَّ بهِ تثبتُ الجزئيَّةُ والبعضيَّةُ، والإنفاقُ علَى المحتاجِ إحياءٌ لهُ، ويجبُ علَى الإنسانِ إحياءَ كلِّهِ وجزئهِ، ولأنَّهَا قرابةٌ يحرمُ قطعهَا، وإذَا حرُمَ القطعُ حرمَ كلُّ سببٍ مفضٍ إليهِ، وتركُ الإنفاقِ منْ ذِي الرَّحمِ المحرَّمِ معَ قدرتهِ وحاجةِ المنفَقِ عليهِ، تُفضِي إلَى قطعِ الرَّحمِ فيحرمُ التَّركُ.

وإذَا حرمَ التَّركُ وجبَ الفعلُ(12)، ممَّا يدلُّ علَى وجوبِ الإنفاقِ علَى الأولادِ، ولأنَّ للأبَ ولايةٌ علَى ابنهِ، ممَّا يدلُّ علَى

استحقاقهِ النَّفقةَ منْ أبيهِ[13]، ولأنَّ ولدَ الإنسانِ بعضهُ، فكمَا يجبُ علَى الإنسانِ أنْ ينفقَ علَى نفسهِ، فيجبُ عليهِ أنْ ينفقَ علَى ولدهِ[14].

6) النَّفقةُ علَى القريبِ غيرِ الأبوينِ والأبناءِ:

أمَّا نفقةُ الأقاربِ غيرِ الأبوينِ والأبناءِ: فلَا تجبُ النَّفقةُ علَى القريبِ لقريبهِ إلَّا منْ بابِ صلةِ الرَّحمِ؛ لعدمِ ورودِ دليلٍ يخصُّ ذلكَ، بلْ جاءتْ أحاديثُ صلةُ الرَّحمِ وهيَ عامَّةٌ، والرَّحمُ المحتاجُ إلَى نفقةٍ أحقُّ الأرحامِ بالصِّلةِ، (ومنْ قالَ هذَا نراهُ يرَى النَّفقَ علَى القريبِ مندوبٌ مؤكَّدٌ).

وقيلَ: بلْ تجبُ؛ لأنَّ سببَ وجوبِ هذهِ النَّفقةِ هيَ القرابةُ[15] المحرَّمةُ للقطعِ؛ لأنَّهُ إذَا حرمَ قطعهَا حرمَ كلُّ سببٍ مفضٍ إليهِ، وتركُ الإنفاقِ منْ ذِي الرَّحمِ المحرَّمِ[16]، معَ قدرتهِ وحاجتهِ تفضِي إلَى قطعِ الرَّحمِ، فيحرمُ التَّركُ، وإذَا حرمَ التَّركُ وجبَ الفعلُ ضرورةً[17].

وهذَا هوَ الصَّوابُ؛ لقولهِ تعالَى: "وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ" [الإسراء: 26].

فقدْ أمرَ اللهُ سبحانهُ بالإحسانِ إلَى القرابةِ، وإيتائهِ حقَّهَا، ولَا ريبَ أنَّ منْ كانَ يتقلَّبُ فِي النِّعمِ وقريبهُ قدْ أضرَّ بهِ الجوعُ أوْ العريُ فهوَ غيرُ محسنٍ إليهِ ولَا قائمٍ بحقِّهِ، ولمَا جاءَ عندَ أبِي داودَ أنَّ رجلًا سألَ النَّبيَّ ﷺ: منْ أبرُّ؟ قالَ: "أمُّكَ وأباكَ، وأختكَ وأخاكَ، ومولاكَ الذِي يلِي ذلكَ، حقٌّ واجبٌ، ورحمٌ موصولةٌ"[18].

7) النَّفقةُ علَى الرَّقيقِ.

ومنَ النَّفقاتِ الواجبةِ أنْ ينفقَ السيِّدُ علَى مملوكهِ ذكورًا أوْ إناثًا بالمعروفِ، سواءٌ أكانَ المملوكُ صحيحًا أمْ سقيمًا، أوْ أعمَى، أوْ زمنًا، أوْ مدبَّرًا، أوْ مستولدًا، أوْ مستأجرًا، أوْ معارًا، أوْ قنًّا، أوْ مشتركًا، أو مبعَّضًا، أوْ صغيرًا أوْ كبيرًا، بخلافِ المكاتبِ فنفقتهُ لَا تجبُ علَى سيِّدهِ؛ لاستقلالهِ بالكسبِ[19].

وسببُ وجوبِ هذهِ النَّفقةِ: الملكُ[20] الموجبُ للاختصاصِ بالمملوكِ انتفاعًا وتصرُّفًا؛ ليكونَ بهِ صلاحهُ ودوامهُ، ومنْ ملكَ منفعةَ شيءٍ لزمتهُ مؤنتهُ؛ إذِ "الخراجُ بالضَّمانِ يجبُ"[21] ولأنَّ الرَّقيقَ لَا مالَ لهُ ومَا فِي يدهِ لمولاهُ، فلَا يجوزُ للرَّقيقِ أنْ ينفقَ علَى نفسهِ منْ مالِ غيرهِ، ممَّا يجعلُ الإنفاقَ واجبًا علَى سيِّدهِ[22].

وقدْ دلَّ الكتابُ علَى ذلكَ، قالَ تعالَى: "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا" [النساء: 36].

ففِي هذهِ الآيةِ أمرٌ بالإحسانِ علَى المماليكِ، ومطلقُ الأمرِ يُحملُ علَى الوجوبِ؛ لأنَّ الإنفاقَ عليهمِ منَ الإحسانِ بهمْ، فكانَ واجبًا، غيرَ أنَّهُ قدْ يردُ أنَّ الأمرَ ليسَ للوجوبِ حيثُ يكونُ للنَّدبِ.

ويجابُ علَى ذلكَ بأنَّهُ لوْ سلمَ بذلكَ لكانَ الأمرُ بالإحسانِ إليهمْ علَى وجهِ النَّدبِ؛ لغرضِ توسيعِ النَّفقةِ بعدَ وجوبِ

أصلـهَا؛ لأنَّ المرءَ لَا يتركَ أصلَ النَّفقةِ علَى مملوكهِ إشفاقًا، ومحافظةً علَى بقاءِ ملكهِ، وقدْ أُمرَ بالإنفاقِ عليهِ حتَّى لَا يقترَ النَّفقةَ عليهِ؛ لكونـهِ مملوكًا فِي يدهِ، فأمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ السَّاداتَ بتوسيعِ النَّفقةِ علَى مماليكهمْ شكرًا لمَا أنعمَ عليهمْ منْ جعلِ منْ هوَ فِي جوهرهمْ وأمثالهمْ فِي الخلقةِ يقومونَ بخدمتهمْ[23].

وأمَّا منَ السنَّةِ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "إخوانكمْ خولكمْ، جعلهمْ اللهُ تحتَ أيديكمْ، فمنْ كانَ أخوهُ تحتَ يدهِ فليطعمهُ ممَّا يأكلُ، وليلبسهُ ممَّا يلبسُ، ولَا تكلِّفوهمْ مَا يغلبهمْ، فإنَّ كلَّفتموهمْ فأعينوهمْ"[24].

ففِي هذَا الحديثِ أمرٌ بالإنفاقِ علَى الرَّقيقِ واضحٌ، والأمرُ يقتضِي الوجوبَ، ممَّا يدلُّ علَى وجوبِ نفقةِ الرَّقيقِ علَى مالكهِ.

تمَّ الإنفاقُ الواجبُ.

ثانيًا: الإنفاقُ المندوبُ:

ومنْ أنواعِ الإنفاقِ المذكورةِ فِي القرآنِ الكريمِ الإنفاقُ المندوبُ، فقدْ دعَا الإسلامُ إلَى البذلِ وحثَّ عليهِ، فِي أسلوبٍ يبعثُ فِي النَّفوسِ بواعثَ الخيرِ، ويثيرُ فيهَا معانِي البرِّ والإحسانِ، وجاءَ مَا يدلُّ علَى عظمِ الأجرِ والثَّوابِ لمنْ يعوِّدُ نفسهُ الإنفاقَ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى بشتَّى أنواعهِ وأحوالهِ وزمانهِ ومكانهِ، بلْ لمْ تقتصرِ الصَّدقةُ فِي نظرِ الشَّرعِ علَى نوعٍ معيَّنٍ منْ أعمالِ البرِّ، وإنَّمَا القاعدةُ العامَّةُ: أنَّ كلَّ معروفٍ صدقةٌ.

ومنَ الأدلةِ علَى ذلكَ فِي القرآنِ: قولهُ تعالَى: " لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ " [البقرة: 177].

فهذهِ الآيةُ قدِ اشتملتْ علَى خمسةَ عشرَ نوعًا منْ أنواعِ البرِّ الذِي يهدِي إلَى الحياةِ السَّعيدةِ فِي الدُّنيا، وإلَى رضَا اللهِ تعالَى فِي الآخرةِ، وقدْ أرشدتْ إلَى أنَّ البرَّ أنواعٌ ثلاثةٌ، جامعةٌ لكلِّ خيرٍ، برٌّ فِي العقيدةِ، وبرٌّ فِي العملِ، وبرٌّ فِي الخلقِ، فأمَّا برُّ العقيدةِ فقدْ بيَّنتهُ أكملَ بيانِ الآيةُ فِي قولهِ تعالَى: (وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) وأمَّا برُّ العملِ فقدْ بيَّنتهُ فِي قولهِ: (وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ) وأمَّا برُّ الخلقِ فقدْ بيَّنتهُ فِي قولهِ تعالَى: (وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ) ولَا شكَّ أنَّ إنفاقَ المالِ فِي تلكَ الوجوهِ منْ شأنهِ أنْ يُسعدَ الأفرادَ والجماعاتِ والأممِ، ويكونُ مظهرًا منْ أفضلِ مظاهرِ العملِ الصَّالحِ الذِي يرضِي اللهَ تعالَى.

ومعنَى الآيةُ: ليسَ الخيرُ عندَ اللهِ تعالَى فِي التوجُّهِ فِي الصَّلاةِ إلَى جهةِ المشرقِ والمغربِ إنْ لمْ يكنْ عنْ أمرِ اللهِ

تعالَى وشرعهِ، وإنَّمَا الخيرُ كلُّ الخيرِ هوَ إيمانُ منَ آمنَ باللهِ تعالَى وصدقَ بهِ معبودهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، وآمنَ بيومِ البعثِ والجزاءِ وبالملائكةِ جميعًا، وبالكتبِ المنزلةِ كافَّةً، وبجميعِ النَّبيينَ منْ غيرِ تفريقٍ، وأعطَى المالَ تطوُّعًا ذوِي القربَى واليتامَى المحتاجينَ الذينَ ماتَ آباؤهمْ وهمْ دونَ سنِّ البلوغِ، والمساكينِ الذينَ أرهقهمْ الفقرُ، والمسافرينَ المحتاجينَ الذينَ بعدُوا عنْ أهلهمْ ومالهمْ، والسَّائلينَ الذينَ اضطرُّوا إلَى السُّؤالِ لشدَّةِ حاجتهمْ، وأنفقَ فِي تحريرِ الرَّقيقِ والأسرَى، وأقامَ الصَّلاةَ، وأدَّى الزَّكاةَ المفروضةَ.

والضَّمير فِي قولهِ تعالَى: (عَلَى حُبِّهِ) يعودُ إلَى المالِ، أي: أعطَى المالَ وبذلهُ عنْ طيبِ خاطرهِ حالَ كونهِ محبًّا لهُ راغبًا فيهِ؛ لأنَّ الإعطاءَ والبذلَ فِي هذهِ الحالةِ يدلُّ علَى قوَّةِ الإيمانِ، وصفاءِ الوجدانِ، ويسمُو بصاحبهِ إلَى أعلَى الدَّرجاتِ، كمَا قالَ تعالَى: " لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ" [آل عمران: 92].

وكقوله تعالى: " وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا" [الإنسان: 8].

وقدْ بيَّنَ النبيُّ ﷺ أنَّ أفضلَ الصَّدقةَ مَا كانَ فِي حالِ الصحَّةِ؛ لأنَّ الإنسانَ فِي هذهِ الحالةَ يكونُ مظنَّةَ الحاجةِ إلَى المالِ، فقدْ جاءَ رجلٌ إلَى النبيِّ ﷺ فقالَ: يَا رسولَ اللهِ أيُّ الصَّدقةُ أعظمُ أجرًا؟ قالَ: "أنْ تصَّدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ، تخشَى الفقرَ وتأملَ الغنَى، ولَا تمهلَ حتَّى إذَا بلغتِ الحلقومَ قلتَ: لفلانٍ كذَا وكذَا، وقدْ كانَ لفلانٍ[25].

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٩٢.
(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٦٩.
(3) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٥٣/١١.
(4) المغني، ابن قدامة ٨/ ٢١٢.

(5) أخرجه ابن ماجه في التجارات، باب ما للرجل من مال ولده ٢/٧٦٩، ٢٢٩٢، وصححه الألباني في الإرواء ٨٣٨.
(6) انظر: مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ١/٤٩٦، وحاشية ابن عابدين ٣/٦١٢، ٦/٧٥١، وتبيين الحقائق للزيلعي ٣/٦٢، ٦٤، والمبسوط للسرخسي ٥/٢٢٢، وفتح القدير، ابن الهمام ٤/٢١٧، ٢٢٠، والقوانين الفقهية، ابن جزي ص١٤٨، ومغني المحتاج ٣/٤٤٨، ٤٥١، والمجموع شرح المهذب ١٧/١٧٢، ١٧٨، ١٨٠، والمغني، ابن قدامة ٧/٥٨٢، ٥٨٤، ٦٢٧، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد ٩/٣٩٢، ٣٩٦.
(7) انظر: مجمع الأنهار في شرح ملتقى الأبحر ١/٤٩٦، وبدائع الصنائع ٤/٣٢، والمغني، ابن قدامة ٧/٥٨٣.
(8) انظر: مغني المحتاج ٣/٤٤٧.
(9) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣٤/١٠٥.
(10) أخرجه البخاري في النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف ٩/٥٠٧، ومسلم في الأقضية، باب قضية هند ١٢/٧.
(11) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب في صلة الرحم ٥/١١٠، والنسائي في الزكاة، باب أي الصدقة أفضل ٥/٧٠، وأحمد ٢/٢٥١، والحاكم في الزكاة، باب الإعطاء للأقرباء أعظم الأجر ١/٤١٥، وصححه الألباني في المشكاة ١٩٤٠.
(12) انظر: بدائع الصنائع ٤/٣١.
(13) انظر: المجموع شرح المهذب ١٧/١٧٢.
(14) انظر: المغني، ابن قدامة ٧/٥٨٣.
(15) انظر: مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ١/٤٨٤، وحاشية ابن عابدين ٣/٥٧٢، وتبيين الحقائق للزيلعي ٣/٥٠، والمبسوط للسرخسي ٥/١٨٠، وفتح القدير، ابن الهمام ٤/١٩٣، ومغني المحتاج ٣/٤٢٥، وحاشية الشرقاوي على تحفة الطلاب ٢/٣٤٥، والمغني، ابن قدامة ٧/٥٨٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع ٥/٤٦٠، وبلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ١/٥٢٥.
(16) الرحم المحرم: هو من لا يحل مناكحته على التأبيد، مثل الأخوة والأخوات وأولادهما. مجمع الأنهر ١/٥٠٠.
(17) انظر: بدائع الصنائع ٤/١٦، ٣١.
(18) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في بر الوالدين ٤/٣٣٦، ٤٥، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر ص ٣٢.
(19) انظر: المبسوط ٥/١٩٩، وبلغة السالك ١/٥٢٥، وحاشية الدسوقي ٢/٥٢٢، وحاشية العدوي ٢/١٢٤، ومغني المحتاج ٣/٤٦٠، ونهاية المحتاج ٧/٢٣٦، وقليوبي وعميرة ٤/٩٢.
(20) انظر: مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ١/٤٨٤، وحاشية ابن عابدين ٣/٥٧٢، وتبيين الحقائق للزيلعي ٣/٥٠، والمبسوط للسرخسي ٥/١٨٠، وفتح القدير لابن الهمام ٤/١٩٣، ومغني المحتاج ٣/٤٢٥، والمغني لابن قدامة ٧/٥٨٤، وبلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ١/٥٢٥.
(21) منظومة القواعد الفقهية لعثمان بن سند المالكي.
(22) انظر: بدائع الصنائع ٤/٣٩، والمغني لابن قدامة ٧/٥٨٥.
(23) انظر: بدائع الصنائع ٤/٣٩.
(24) أخرجه البخاري في الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ١/٨٤، ومسلم في الإيمان، باب صحبة المماليك ١١/١٣٣، ١٣٤.
(25) أخرجه البخاري في الزكاة، باب فضل صدقة الشحيح الصحيح ٢/١١٠، ١٤١٩، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح رقم ١٠٣٢.

وحثَّ سبحانهُ وتعالَى علَى إطعامِ الأيتامِ والمساكينِ، ويزدادُ ذلكَ فضلًا بكونهِ فِي يومٍ ذِي مجاعةٍ؛ لأنَّ إخراجَ المالَ فِي وقتِ القحطِ أثقلُ علَى النَّفسِ، وأوجبُ لجزيلِ الأجرِ، قالَ تعالَى: "فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ(15)أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ(16)"[البلد: 13، 14، 15، 16].

ففِي هذهِ الآياتِ بيانٌ لفضيلةٍ منَ الفضائلِ التِي تؤدِّي إلَى اقتحامِ العقبةِ، تتمثَّلُ فِي فكِّ الرِّقابِ، وإطعامِ المحتاجينَ، فِي يومٍ يشتدُّ فيهِ جوعهمْ، والمسغبةُ: المجاعةُ، وهوَ مصدرٌ ميميٌّ، بمعنَى السَّغبِ، يقالُ: سغبَ الرَّجلَ كفرحَ ونصرَ إذَا أصابهُ الجوعُ، ووصفَ اليومَ بذلكَ علَى سبيلِ المبالغةِ، كمَا فِي قولهمْ: نهارهُ صائمٌ، وقيَّدَ سبحانهُ اليتيمَ بكونهِ ذَا مقربةٍ؛ لأنَّهُ فِي هذهِ الحالةَ يكونُ لهُ حقَّانِ: حقُّ القرابةِ وحقُّ اليتمِ، ومنْ كانَ كذلكَ فهوَ أولَى بالمساعدةِ منْ غيرهِ.

تنوُّعُ الإنفاقِ فِي وجوهِ الخيرِ:

الإنفاقُ فِي وجوهِ الخيرِ بابٌ واسعٌ، وصدقاتُ التطوُّعِ أنواعٌ متعدِّدةٌ، فمنهَا مَا يسمَّى بالصَّدقةِ الجاريةِ، أوِ الوقفِ الخيريِّ الدَّائمِ الإنتاجِ لصالحِ منْ وقفَ عليهمْ، ومنْ ذلكَ الواجبُ الاجتماعيُّ كمدِّ يدِ المساعدةِ لكلِّ محتاجٍ، وكإنشاءِ دورِ المعوقينَ، وإغاثةِ الملهوفينَ، وإشباعِ الجائعينَ، وكسوةِ العارينَ، وبناءِ المساجدِ لعامَّةِ المسلمينَ، وتشييدَ المستشفياتِ لمرضاهمْ، وحفرِ الآبارِ لهمْ فِي أيِّ مكانٍ يوجدُ فيهِ منْ يقولُ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ محمَّدٌ رسولُ اللهِ، وقدْ جاءَ أنَّ علَى المسلمِ فِي مالهِ حقوقًا عظيمةَ غيرَ الزَّكاةِ المفروضةِ.

وكمَا أنَّ الإنفاقَ فِي الخيرِ متنوِّعٌ، فكذلكَ المستفيدينَ منْ صدقةِ التطوُّعِ أيضًا شرائحُ متنوِّعةٌ، بينهمْ قاسمٌ مشتركٌ ألَا وهوَ الحاجةُ والعوزُ والفقرُ، والمرضُ والعجزُ، واليتمُ والترمُّلُ، وكبُر السنِّ، حتَّى بهيمةُ الأنعامِ يمكنُ أنْ تستفيدَ منَ صدقةِ التطوُّعِ، وهيَ أيضًا لهَا إنفاقٌ واجبٌ إنْ لهَا مالكٌ.

ثالثًا: الإنفاقُ المذمومُ:

ومنْ أنواعِ الإنفاقِ المذكورةِ فِي القرآنِ الكريمِ الإنفاقُ المذمومُ، ومنهُ إنفاقُ الأموالِ فِي الصدِّ عنْ سبيلِ اللهِ تعالَى، كمَا وقعَ منْ كفَّارِ قريشٍ يومَ بدرٍ ويومَ أحدٍ ويومَ الأحزابِ، فإنَّ الرُّؤساءَ كانُوا ينفقونَ أموالهمْ علَى الجيشِ لقتالِ الرَّسولِ ﷺ، والصدِّ عنْ سبيلِ اللهِ تعالَى.

قالَ تعالَى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ" [الأنفال: 36].

أيْ: إنَّ الذينَ جحدُوا وحدانيَّةَ اللهِ تعالَى، وعصُوا رسولهُ ﷺ، ينفقونَ أموالهمْ فيعطونهَا أمثالهمْ منَ المشركينَ وأهلِ الضَّلالِ؛ ليصدُّوا عنْ سبيلِ اللهِ تعالَى، ويمنعُوا المؤمنينَ عنِ الإيمانِ باللهِ ورسولهِ، فينفقونَ أموالهمْ فِي ذلكَ، ثمَّ تكونُ عاقبةُ نفقتهمْ تلكَ ندامةً وحسرةً عليهمْ؛ لأنَّ أموالهمْ تذهبُ ولَا يظفرونَ بمَا يأملونَ منْ إطفاءِ نورِ اللهِ تعالَى، والصدِّ عنْ سبيلهِ، ثمَّ يهزمهمُ المؤمنونَ آخرَ الأمرِ، والذينَ كفرُوا إلَى جهنَّمَ يحشرونَ فيعذَّبُونَ فيهَا.

والآيةُ وإنْ نزلتْ فِي أهلِ بدرٍ إلَّا أنَّهَا كمَا قالَ ابنُ كثيرٍ عامَّةٌ، وإنْ كانَ سببُ نزولهَا خاصًّا، فقدْ أخبرَ تعالَى أنَّ

الكفَّارَ ينفقونَ أموالهمْ ليصدُّوا عنِ اتِّباعِ طريقِ الحقِّ، فسيفعلونَ ذلكَ، ثمَّ تذهبُ أموالهمْ (ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً) أيْ: ندامةً؛ حيثُ لمْ تجدْ شيئًا؛ لأنَّهمْ أرادُوا إطفاءَ نورِ اللهِ، وظهورِ كلمتهمْ علَى كلمةِ الحقِّ، واللهُ متمٌّ نورهُ ولوْ كرهَ الكافرونَ، وناصرٌ دينهُ ومعلنٌّ كلمتهُ، ومظهرٌ دينهُ علَى كلِّ دينٍ، فهذَا الخزيُ لهمْ فِي الدُّنيَا، ولهمْ فِي الآخرةِ عذابُ النَّارِ، فمنْ عاشَ منهمْ رأَى بعينهِ وسمعَ بأذنهِ مَا يسوءهُ، ومنْ قتلَ منهمْ أوْ ماتَ فإلَى الخزيِ الأبديِّ والعذابِ السرمديِّ[1].

والآيةُ واردةٌ فِي مقامِ الإنذارِ لمنْ هذَا حالهُ منَ الذينَ ينفقونَ أموالهمْ ليصدُّوا عنْ سبيلِ اللهِ تعالَى، فأخبرَ اللهُ تعالَى أنَّهَا ستعودُ عليهمْ بالحسرةِ، وأنَّهمْ سينفقونهَا لتضيعَ فِي النِّهايةِ وليغلبُوا همْ، وينتصرُ الحقُّ فِي هذهِ الدُّنيَا، وسيحشرونَ فِي الآخرةِ إلَى جهنَّمَ فتتمُّ الحسرةُ الكبرَى، حيثُ يجمعُ اللهُ تعالَى الخبيثَ علَى الخبيثِ فيلقِي بهِ فِي جهنَّمَ، وتلكَ غايةُ الخسرانِ.

والتَّعبيرُ القرآنيُّ يجسِّمُ الخبيثَ حتَّى لكأنَّهُ جرمٌ ذُو حجمٍ، وكأنَّمَا هوَ كومةٌ منَ الأقذارِ، يقذفُ بهَا فِي النَّارِ دونَ اهتمامٍ ولَا اعتبارٍ.

فمَا أعظمهَا منْ حسرةٍ، فإنفاقُ الأموالِ هدرًا، وانقلابهَا حسرةً وغلبةً منْ دواعِي الهمِّ والغمِّ أنْ ينفقَ الإنسانُ مالهُ لهدفٍ منَ الأهدافِ، ثمَّ يكونُ الفشلُ بضياعِ المالِ دونَ تحقيقِ الغايةِ، وممَّا يزيدُ الأمرَ مرارةً أنْ ينقلبَ هذَا الإنفاقُ حسرةً عليهمْ، ليسَ ذلكَ فحسبُ، بلْ تكونُ الهزيمةُ والغلبةُ عليهمْ

أيضًا، بالإضافةِ إلَى العذابِ الأخرويِّ، وهوَ الحشرُ إلَى جهنَّمَ ليذوقُوا العذابَ، فاعتبرُوا يَا أولِي الألبابِ.

فهذَا وعيدٌ يتلوهُ وعيدٌ، أربعةُ تهديداتٍ متتاليةٍ لأولئكَ الذينَ ينفقونَ الأموالَ لأجلِ الصدِّ عنْ سبيلِ اللهِ وإماتةِ سنَّةَ رسولهِ ﷺ، فإنَّهَا قضيَّةٌ قديمةٌ وحديثةٌ، فالكفَّارُ والضلَّالُ فِي زماننَا ومنْ والاهمْ ينفقونَ الأموالَ والثَّرواتِ لأجلِ محاربةِ الإسلامِ والمسلمينَ، وإماتةِ مظاهرِ السنَّةِ منَ الوجودِ، فسينفقونهَا وقدْ أنفقوهَا ثمَّ تكونُ عليهمْ حسرةً ثمَّ يغلبونَ، ثمَّ إلَى جهنَّمَ يحشرونَ، هكذَا أخبرَ اللهُ تعالَى.

والإنفاقُ فِي الصدِّ عنْ سبيلِ اللهِ تعالَى مستمرٌّ فِي كلِّ زمانٍ، ومنهُ الإنفاقُ علَى الفتنةِ والفسادِ والكبائرِ كلِّهَا، وإغواءِ عبادِ اللهِ بأنواعِ منَ الفتنِ، كمنْ يطلقُ قنواتٍ فضائيَّةً غنائيَّةٍ وغيرَ غنائيَّةٍ، فيهَا الفُحشُ والتعرِّي، أوْ فيهَا الدَّعوةُ إلَى تقليدِ أعداءِ الدِّينِ، والسَّيرِ فِي ركابهمْ، وفيهَا تخديرُ العقولِ، وتعطيلُ الطَّاقاتِ، والإعجابُ بالأعداءِ وبعاداتهمْ وتقاليدهمْ، ونزعِ حاجزِ العداوةِ الذِي بيننَا وبينهمْ واللهث تعالَى يقولُ: "قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ" [الممتحنة: 4]، أوْ ينفقونَ أموالهمْ فِي نشرِ البدعِ والضَّلالاتِ والسحرِ والشَّعوذةِ والخرافاتِ، فكلُّ منْ أنفقَ هذهِ الأموالَ فِي هذهِ المنابرِ هوَ منَ الصادِّينَ عنْ سبيلِ اللهِ تعالَى، وكذلكَ منْ يقومونَ بالدِّعايةِ لهَا، أوِ التَّرويجِ لهَا، ببيعٍ أوْ

تسويقٍ ونحوهَا فمنْ شاركَ فِي العصيانِ فهوَ عاصٍ وقسْ علَى ذلكَ، نسألُ اللهَ تعالَى أنْ يكفَّ أذاهمْ عنِ المسلمينَ.

ونلحظُ فِي هذهِ الآيةِ أنَّ اللهُ سبحانهُ وتعالَى أخبرَ عنِ الغيبِ علَى وجهِ الإعجازِ، فقالَ تعالَى: (فَسَيُنْفِقُونَهَا) أيْ: سيقعُ منهمْ هذَا الإنفاقُ (ثُمَّ تَكُونُ) كمَا وعدَ اللهُ بهِ، فِي مثلِ قولهِ: "كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" [المجادلة: 21].

كمَا أنَّ ظاهرَ قولهِ: (إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) يفيدُ أنَّهُ لَا يكونُ حشرهمْ إلَّا إلَى جهنَّمَ؛ لأنَّ تقديمَ الخبرَ يفيدُ الحصرَ، ومعنَى: (ثُمَّ) فِي الموضعينِ إمَّا التَّراخِي فِي الزَّمانِ لمَا بينَ الإنفاقِ المذكورِ وبينَ ظهورِ دولةِ الإسلامِ منَ الامتدادِ، وإمَّا التَّراخِي فِي الرُّتبةِ لمَا بينَ بذلِ المالِ وعدمِ حصولِ المقصودِ منَ المباينةِ.

وأتَى بصيغةِ المضارعِ فِي قولهِ تعالَى (يُنْفِقُونَ) للإشارةِ إلَى أنَّ ذلكَ دأبهمْ، وأنَّ الإنفاقَ مستمرٌّ لإعدادِ العددِ لغزوِ المسلمينَ وصرفهمِ عنْ دينهمْ، فإنفاقهمْ حصلَ فِي الماضِي ويحصلُ فِي الحالِ والتَّنفيسِ، وأشعرتْ لامُ التَّعليلِ بأنَّ الإنفاقَ مستمرٌّ؛ لأنَّهُ منوطٌ بعلَّةٍ ملازمةٍ لنفوسهمْ وهيَ بغضُ الإسلامِ، وصدِّهمُ النَّاسَ عنهُ.

و(أَمْوَالَهُمْ) جمعٌ مضافٌ، يجعلهُ منْ صيغِ العمومِ، فكأنَّهُ قيلَ: ينفقونَ أموالهمْ كلَّهَا مبالغةً، وإلَّا فإنَّهمْ ينفقونَ بعضَ أموالهمْ، والفاءُ فِي (فَسَيُنْفِقُونَهَا) تفريعٌ علَى العلَّةِ؛ لأنَّهمْ لمَّا كانَ الإنفاقُ دأبهمْ لتلكَ العلَّةِ المذكورةِ كانَ ممَّا يتفرَّعُ علَى ذلكَ تكرَّرَ هذَا الإنفاقُ فِي المستقبلِ، أيْ: ستكونُ لهمْ

شدائدُ منْ بأسِ المسلمينَ تضطرهمْ إلَى تكريرِ الإنفاقِ علَى الجيوشِ لدفاعِ قوَّةِ المسلمينَ.

وضميرُ (يُنْفِقُونَهاَ) راجعٌ إلَى الأموالِ لَا بقيدِ كونهَا المنفقةُ، بلِ الأموالُ الباقيةُ، أوْ بمَا يكتسبونهُ...، وأسندتِ الحسرةُ إلَى الأموالِ؛ لأنَّهَا سببُ الحسرةِ بإنفاقهَا، ثمَّ إنَّ الإخبارَ عنهَا بنفسِ الحسرةِ مبالغةٌ، مثلَ الإخبارُ بالمصادرِ؛ لأنَّ الأموالَ سببٌ التحسُّرِ لَا سببَ الحسرةِ نفسهَا، وهذَا إنذارٌ بأنَّهمْ لَا يحصلونَ منْ إنفاقهمْ علَى طائلٍ فيمَا أنفقُوا لأجلهِ؛ لأنَّ المنفقَ إنَّمَا يتحسَّرُ ويندمُ إذَا لمْ يحصلْ لهُ المقصودث منْ إنفاقهِ، ومعنَى ذلكَ أنَّهمْ ينفقونَ ليغلبُوا فلَا يغلبونَ، فقدْ أنفقُوا بعدَ ذلكَ علَى الجيشِ يومَ أحدٍ...، ثمَّ أنفقُوا علَى الأحزابِ حينَ هاجمُوا المدينةَ، ثمَّ انصرفُوا بلَا طائلٍ، فكانَ إنفاقهمْ حسرةً عليهمْ، وقولهُ تعالَى: (ثُمَّ يُغْلَبُونَ) ارتقاءٌ فِي الإنذارِ بخيبتهمْ وخذلانهمْ؛ فإنَّهمْ بعدَ أنْ لمْ يحصلُوا منْ إنفاقهمْ علَى طائلٍ، توعدُّوا بأنَّهمْ سيغلبهمُ المسلمونَ بعدَ أنْ غلبوهمْ أيضًا يومَ بدرٍ، وهوَ إنذارٌ لهمْ بغلبِ فتحِ مكَّةَ، وانقطاعِ دابرِ أمرهمْ، وإسنادُ الفعلِ إلَى المفعولِ لكونِ فاعلِ الفعلِ معلومًا بالسِّياقِ، فإنَّ أهلَ مكَّةَ مَا كانُوا يقاتلونَ غيرَ المسلمينَ[2].

والصدُّ عنْ سبيلِ اللهِ تعالَى قدْ يكونُ عامًا، وذلكَ بالصدِّ عنِ الدِّينِ كلِّيةً، وقدْ يكونُ الصدُّ جزئيًّا، وذلكَ بالصدِّ عنْ بعضِ تشريعاتِ الإسلامِ، ومحاربتهَا ومنعهَا، والتَّضييقِ علَى أهلهَا، كالحجابِ والنِّقابِ وإرخاءِ اللِّحيةِ والأذانِ وحلقاتِ القرآنِ، فمنَ النَّاسِ منْ يستغلُّ كلَّ إمكاناتهِ العقليَّةِ وقدراتهِ

الماليَّةِ فِي تزيينِ الباطلِ وتلميعهِ بشتَّى ألوانِ الزِّينةِ والإغراءِ، يريدُ إضلالَ النَّاسِ، وتجهيلهمْ وإبعادهمْ عنِ الهدَى، ومنْ ثمَّ فإنَّ وجههُ يتمعَّرُ غضبًا حينمَا يرَى كلمةَ الحقِّ قدْ أينعتْ وآتتْ أكلهَا، فلَا يهدأُ لهُ بالٌ، أوْ يطمئنُّ لهُ حالٌ، حتَّى يفسدَ تلكَ الثِّمارِ بكلِّ تشنُّجٍ واضطرابٍ، والغريبُ فِي الأمرِ أنَّ منْ هؤلاءِ تجدهمْ لَا يَتركونَ صلاةً فِي المسجدِ، ولكنَّهمْ يبغونهَا عوجًا.

وهؤلاءِ القومُ مساكينُ يظنُّونَ أنَّهمْ بكلمةٍ عوراءُ أوْ عصًا غليظةً أو جحورٍ مظلمةٍ سوفَ يقضونَ علَى شجرةِ التَّوحيدِ، ويقطعونَ أغصانَ الفضيلةِ، ومَا درُوا أنَّ اللهَ تعالَى متمٌّ نورهُ، ومظهرٌ دينهُ، وناصرٌ أولياءهُ ولوْ كرهَ الكافرونَ والمجرمونَ الضَّالونَ.

وقدْ أخبرَ اللهُ تعالَى أنَّ هؤلاءِ لَا يستفيدونَ منْ بذلهمْ أموالهمْ فِي تلكَ الإنفاقاتِ إلَّا الحسرةِ والخيبةِ فِي الدُّنيَا، والعذابِ الشَّديدِ فِي الآخرةِ؛ وذلكَ يوجبُ الزَّجرَ العظيمَ عنْ ذلكَ الإنفاقِ الخبيثِ.

آدابُ الإنفاقِ:

تحدَّثَ القرآنُ الكريمُ عنْ آدابِ الإنفاقِ، وهوَ بدورهِ علَى أقسامٍ:

أوَّلًا: أنْ يكونُ الإنفاقُ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى:

فقدْ حثَّ الإسلامُ علَى الإنفاقِ، وأنْ يكونَ فِي سبيلِ اللهِ، فِي كثيرٍ منَ الآياتِ والأحاديثِ؛ لأنَّ الإنفاقَ فِي سبيلِ اللهِ هوَ نتيجةٌ مباشرةٌ للإيمانِ باللهِ تعالَى، وعلامةٌ علَى عمقِ اليقينِ

باللهِ، وبأنَّهُ واهبُ الحياةِ والغنَى والملكِ والهدَى، وشخصيَّةُ المسلمِ تتميَّزُ بأنَّهَا معطاءةٌ، وعطاؤهَا ليسَ منْ أجلِ شهرةٍ أوْ رياءٍ، بلْ خالصًا لوجهِ اللهِ تعالَى فإنَّ كلَّ عملٍ يُرجَى منهُ الأجرُ تشترطُ فيهِ النيَّةُ.

قال تعالى: "وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" [البقرة: 195].

ثانيًا: ألَّا يتبعَ الإنفاقَ بالمنِّ والأذَى:

ومنْ آدابِ الإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى ألَّا يتبعَ المنفقَ نفقتهُ بالمنِّ والأذَى، قالَ اللهُ تعالَى: "الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" [البقرة: 262].

ونظيرهُ قولهُ تعالَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" [البقرة: 264].

فقوله: (ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ) أي: لَا يتبعُ نفقتهُ التِي أنفقهَا منًّا أوْ أذًى، وعطفَ بـ (ثُمَّ) إمَّا لبعدِ مَا بينَ المنزلتينِ، أوْ للمهلةِ حقيقةً، ويكونُ فيهِ إشارةٌ إلَى أنَّهمْ يمنُّونَ بنفقةٍ طالَ أمدهَا، ودامُوا عليهَا، فأحرَى أنْ لَا يمنُّوا بنفسِ الإنفاقِ(3)، ولأنَّ ذكرَ المنِّ والأذَى وإنْ كانَ متأخِّرًا عنِ الإنفاقِ إلَّا أنَّ هذَا الذِّكرَ المتأخِّرَ يدلُّ ظاهرًا علَى أنَّهُ حينَ أنفقَ مَا كانَ إنفاقهُ لوجهِ اللهِ، بلْ لأجلِ الترفُّعِ علَى النَّاسِ، وطلبِ الرِّياءِ

والسُّمعةِ، ومتَى كانَ الأمرُ كذلكَ كانَ إنفاقهُ غيرَ موجبٍ للثَّوابِ.

وفيهِ إشارةٌ علَى أنَّ المنَّ والأذَى ولوْ تراخَى عنِ الصَّدقةِ وطالَ زمنهُ ضرَّ بصاحبهِ، ولمْ يحصلْ لهُ مقصودُ الإنفاقِ، ولوْ أتَى بالواوِ، فِي قولهِ: (ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى) لأوهمتِ تقييدَ ذلكَ بالحالِ، وإذَا كانَ المنُّ والأذَى المتراخِي مبطلًا لأثرِ الإنفاقِ، مانعًا منَ الثَّوابِ، فالمقارنُ أولَى وأحرَى[4].

وقولهُ: (مَنًّا وَلَا أَذًى) المنُّ: أنْ يعتدَّ بإحسانهِ علَى منْ أحسنَ إليهِ، بحيثُ يقولُ: أنَا فعلتُ معهُ كذَا وكذَا، إظهارًا لميزتهِ عليهِ، والأذَى: أنْ يتطاولَ عليهِ بذلكَ، ويقولُ: لولَا أنَا لمْ يكنْ منكَ شيءٌ مثلًا، ويقعانِ بالقولِ والفعلِ.

ولكثرةِ وقوعِ المنِّ منَ المتصدِّقينَ وعسرِ تحفُّظهمْ منهُ أفردهُ بالذكرِ، وقدَّم علَى الأذَى، وإلَّا فالأذَى يشملُ المنَّ وغيرهُ، وإنَّمَا نصَّ عليهِ لكثرتهِ.

وقدْ جعلَ ابنُ القيِّمِ المنَّ نوعينِ، فقالَ: فالمنُّ نوعانِ: أحدهمَا: منٌّ بقلبهِ، منْ غيرِ أنْ يصرِّحَ بهِ بلسانهِ، وهذَا إنْ لمْ يُبطلْ الصَّدقةَ فهوَ منْ نقصانِ شهودِ منَّةِ اللهِ عليهِ فِي إعطائهِ المالِ، وحرمانِ غيرهِ، وتوفيقهِ للبذلِ، ومنعِ غيرهِ منهُ، فللَّهِ المنَّةُ عليهِ منْ كلِّ وجهٍ، فكيفَ يشهدُ قلبهُ منَّةً لغيرهِ.

والنَّوعُ الثَّانِي: أنْ يمنَّ عليهِ بلسانهِ، فيعتدَّى علَى منْ أحسنَ إليهِ بإحسانهِ، ويريهِ أنَّهُ اصطنعهُ، وأنَّهُ أوجبَ عليهِ حقًّا وطوَّقُه منَّةً فِي عنقهِ، فيقولُ: أمَّا أعطيتكَ كذَا وكذَا، ويعدِّدُ

أياديهِ عندهُ، قالَ سفيانُ: يقولُ: أعطيتكَ فمَا شكرتَ، وقالَ عبدُ الرَّحمنِ بنُ زيدٍ: كانَ أبِي يقولُ: إذَا أعطيتَ رجلًا شيئًا، ورأيتَ أنَّ سلامكَ يثقلُ عليهِ، فكُفَّ سلامكَ عنهُ، وكانُوا يقولونَ: إذَا اصطنعتمْ صنيعةً فانسوهَا، وإذَا أسديتُ إليكمْ صنيعةً فلَا تنسوهَا...، وحظرَ اللهُ علَى عبادهِ المنَّ بالصَّنيعةِ، واختصَّ بهِ صفةً لنفسهِ؛ لأنَّهُ منَ العبادِ تكديرٌ وتعييرٌ، ومنَ اللهِ سبحانهُ وتعالَى إفضالٌ وتذكيرٌ، وأيضًا فإنَّهُ هوَ المنعمُ فِي نفسِ الأمرِ والعبادِ وسائطُ، فهوَ المنعمُ علَى عبدهِ فِي الحقيقةِ، وأيضًا فالامتنانُ استعبادٌ، وكسرٌ وإذلالٌ لمنْ يمنُّ عليهِ، ولَا تصلحُ العبوديَّةُ والذلُّ إلَّا للهِ...، ومنْ هنَا ـ واللهُ أعلمُ ـ بطلتْ صدقتهُ بالمنِّ، فإنَّهُ لمَا كانتْ معاوضتهُ ومعاملتهُ معَ اللهِ، وعوضَ تلكَ الصَّدقةَ عندهُ فلمْ يرضَ بهِ، ولاحظَ العوضَ منَ الأخذِ، والمعاملةَ عنهُ، فمنَّ عليهِ بمَا أعطاهُ أبطلَ معاوضتهُ معَ اللهِ، ومعاملتهُ لهُ[5].

ويُفهمُ منْ هذهِ الآيةِ أنَّ منْ أتبعَ إنفاقهُ المنَّ والأذَى لمْ يحصلْ لهُ هذَا الثَّوابَ المذكورَ هنَا، فِي قولهِ تعالَى: " لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"[البقرة: 262].

وقدْ صرَّحَ تعالَى بهذَا المفهومِ فِي قولهِ: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ"[البقرة: 264].

ثالثًا: الإنفاقُ فِي السرِّ أولَى، إلَّا أنْ يكونَ قدوةً لغيرهِ:

ذكرَ اللهُ تعالَى فِي القرآنِ الكريمِ إنفاقَ السرِّ وإنفاقَ العلانيَّةِ، وجعلَ كليهمَا سلوكًا عامًا للمؤمنينَ، ومدحَ كلَا النَّوعينِ فِي سياقٍ واحدٍ، فقالَ تعالَى: "الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ

وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" [البقرة: 274].

وقال: " وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ" [الرعد: 22].

فهذهِ الآياتُ تفيدُ أنَّ الإنفاقَ فِي كلَا الحالينِ فِي السرِّ وفِي العلانيَّةِ مشروعٌ ومحمودٌ، وأنَّ الصَّدقاتِ فِي كلِّ أحوالهَا خيرٌ محضٌ، مَا دامَ المنفقُ قدْ خلصَ منَ الرِّياءِ، وجانبَ المنَّ والأذَى، وإذَا كانَ ثمَّةَ تفاوتٌ فهوَ فِي حالِ النَّفسِ، والاحتياطِ للرِّياءِ، وسدِّ مداخلهِ.

إلَّا أنَّ هناكَ تفصيلًا منْ ناحيةِ أفضليَّةِ أيٍّ منهمَا فِي أحوالٍ وظروفٍ معيَّنةٍ، ومنطلقُ العلماءِ فِي مسألةِ تفضيلِ الإنفاقِ سرًّا علَى علانيَّتهِ أوِ العكسُ هوَ قولهُ تعالَى: " إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" [البقرة: 271].

فذهبَ جمهورُ المفسِّرينَ إلَى أنَّ هذهِ الآيةِ فِي صدقةِ التطوُّعِ، فالإخفاءُ فيهَا أفضلُ منَ الإظهارِ، وكذلكَ سائرُ العباداتِ الإخفاءُ أفضلُ فِي تطوِّعهَا؛ لانتفاءِ الرِّياءِ عنهَا، وليسَ كذلكَ الواجباتُ، قالَ الحسنُ: إظهارُ الزَّكاةِ أحسنُ، وإخفاءُ التطوُّعِ أفضلُ؛ لأنَّهُ أدلُّ علَى أنَّهُ يرادُ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ وحدهُ(6)، ويُروى عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا أنَّهُ قالَ: جعلَ اللهُ صدقةَ السرِّ فِي التطوُّعِ تفضلُ علَى علانيتهَا سبعينَ

ضعفًا، وجعلَ صدقةَ الفريضةِ علانيَّتهَا أفضلُ منْ سرِّهَا بخمسةٍ وعشرينَ ضعفًا[7].

قالَ ابنُ العربِي: أمَّا صدقةُ الفرضِ فلَا خلافَ أنَّ إظهارهَا أفضلُ، كصلاةِ الفرضِ، وسائرِ فرائضِ الشَّريعةِ؛ لأنَّ المرءَ يحرزُ بهَا إسلامهُ، ويعصمُ مالهُ ... ثمَّ قالَ فِي مسألةِ صدقةِ النَّفلِ: والتَّحقيقُ فيهَا: أنَّ الحالَ فِي الصَّدقةِ تختلفُ بحالِ المعطِي لهَا، والمُعطَى إيَّاهَا، والنَّاسِ الشَّاهدينَ لهَا، أمَّا المعطِي فلهُ فائدةُ إظهارِ السنَّةِ وثوابُ القدوةِ، وآفتهَا الرِّياءُ والمنُّ والأذَى، وأمَّا المُعطَى إيَّاهَا فإنَّ السرَّ أسلمَ لهُ منِ احتقارِ النَّاسِ لهُ، أوْ نسبتهُ إلَى أنَّهُ أخذهَا معَ الغنَى عنهَا، وتركِ التعفُّفِ، وأمَّا حالُ النَّاسِ فالسرِّ عنهمْ أفضلُ منَ العلانيَةِ لهمْ، منْ جهةِ أنَّهمْ ربَّمَا طعنُوا علَى المعطِي لهَا بالرِّياءِ، وعلَى الآخذِ لهَا بالاستثناءِ؛ ولهمْ فيهَا تحريكُ القلوبِ إلَى الصَّدقةِ، لكنْ هذَا اليومَ قليلٌ[8].

وبعضُ العلماءِ يرَى أنَّ أفضليَّةَ إخفاءِ الصَّدقةِ مقيَّدةٌ بإيتاءِ الفقراءِ خاصَّةً لَا فِي كلِّ الصَّدقاتِ؛ تماشيًا معَ منطوقِ الآيةِ، يقولُ ابنُ القيِّمِ: تأمَّلْ تقييدهُ تعالَى الإخفاءَ بإيتاءِ الفقراءِ خاصَّةً، ولمْ يقلْ: وإنْ تخفوهَا فهوَ خيرٌ لكمْ، فإنَّ منَ الصَّدقةِ مَا لَا يمكنُ إخفاؤهُ كتجهيزِ جيشٍ، وبناءِ قنطرةٍ، وإجراءِ نهرٍ، أوْ غيرِ ذلكَ[9].

والمقصودُ أنَّ أكثرَ العلماءِ يرونَ أنَّ الأفضلَ فِي الصَّدقاتِ الواجبةِ الإظهارُ، وأمَّا فِي سائرِ الصَّدقاتِ المندوبةِ فالأفضلُ فيهَا الإخفاءُ والإسرارُ، وهذَا فِي الأحوالِ العاديَّةِ، أمَّا فِي

أحوالٍ أخرَى استثنائيَّةٍ، فيمكنُ النَّظرُ فِي المصلحةِ المتحقِّقةِ بينَ إخفاءٍ أوْ إسرارِ الصَّدقةِ الواجبةِ أوِ النَّافلةِ.

رابعًا: أنْ يكونَ المالُ المنفقُ منهُ منَ الطيِّبِ:

فمنْ آدابِ الإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى أنْ يكونَ الإنفاقُ منَ الطيِّبِ، وقدْ حثَّ القرآنُ الكريمُ علَى الإنفاقِ ممَّا يحبهُ المسلمُ، فقالَ تعالَى: "لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ" [آل عمران: 92].

فقوله: (لَنْ تَنَالُوا) أي: تدركُوا، وتبلغُوا البرَّ الذِي هوَ كلُّ خيرٍ منْ أنواعِ الطَّاعاتِ، وأنواعِ المثوباتِ الموصلِ لصاحبهِ إلَى الجنَّةِ (حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) أي: منْ أموالكمُ النَّفيسةِ التِي تحبُّهَا نفوسكمْ، فإنَّكمْ إذَا قدَّمتمْ محبَّةَ اللهِ تعالَى علَى محبَّةِ الأموالِ فبذلتموهَا فِي مرضاتهِ، دلَّ ذلكَ علَى إيمانكمْ الصَّادقِ، وبرِّ قلوبكمْ، ويقينِ تقواكمْ، فيدخلُ فِي ذلكَ إنفاقُ نفائسِ الأموالِ، والإنفاقُ فِي حالِ حاجةِ المنفقِ إلَى مَا أنفقهُ، والإنفاقُ فِي حالِ الصحَّةِ، ودلَّتِ الآيةُ أنَّ العبدَ بحسبِ إنفاقهِ للمحبوباتِ يكونُ برُّهُ، وأنَّهُ ينقصُ منْ برِّهِ بحسبِ مَا نقُصَ منْ ذلكَ(10).

الإنفاقُ منَ الطيِّبِ:

وأمرَ اللهُ تعالَى بالإنفاقِ منَ أطيبِ المالِ وأجودهِ وأنفسهِ، ونهاهمْ عنِ التصدُّقِ برذالةِ المالِ ودنيئهِ وخبيثهِ، فإنَّ اللهَ تعالَى طيِّبٌ لَا يقبلُ إلَّا طيِّبًا، قالَ تعالَى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ" [البقرة: 267].

وهوَ المعبَّرُ عنهُ بِـ (الحسنِ) فِي قولِهِ تعالَى: " مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا" [البقرة: 245].

فقولُهُ: (أَنْفِقُوا) يشملُ النَّفقةَ الواجبةَ والمستحبَّةَ، أمَّا الواجبةُ وهيَ الزَّكاةُ، فيُحملُ الأمرُ علَى الوجوبِ؛ إذْ لَا يصحُّ دفعُ الرَّديءِ فيهَا، وأمَّا التطوُّعُ فعلَى سبيلِ الكمالِ.

وقولُهُ: (مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ) أي: منْ أجودِ مَا كسبتمْ ومختارِهِ، كذَا قالَ الجمهورُ، وقالَ جماعةٌ: إنَّ معنَى الطيِّباتِ هنَا الحلالُ، ولَا مانعَ منِ اعتبارِ الأمرينِ جميعًا؛ لأنَّ جيِّدَ الكسبِ ومختارِهِ إنَّمَا يطلقُ علَى الحلالِ عندَ أهلِ الشَّرعِ، وإنْ أطلقهُ أهلُ اللُّغةِ علَى مَا هوَ جيِّدٌ فِي نفسهِ حلالًا كانَ أوْ حرامًا، فالحقيقةُ الشَّرعيَّةُ مقدَّمةٌ علَى اللَّغويَّةِ(11).

ومنهُ قولهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "إنَّ اللهَ طيِّبٌ لَا يقبلُ إلَّا طيِّبًا ..." (12).

وقولهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "مَنْ تصدَّقَ بعدْلِ تمرَةٍ مِنْ كسبٍ طيِّبٍ، ولَا يقبَلُ اللهُ إلَّا الطيِّبَ، فإنَّ اللهَ يتقبَّلُها بيمينِهِ، ثُمَّ يُرَبيها لصاحبِها، كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّهُ حتى تكونَ مثلَ الجبَلِ"(13).

خامسًا: أنْ تطيبَ نفسُ المنفقِ بالنَّفقةِ:

ومنْ آدابِ الإنفاقِ أنْ تطيبَ نفسُ المنفقِ بالنَّفقةِ، قالَ تعالَى: "وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ" [البقرة: 265].

فمعنَى: (وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ) أي: صدرَ الإنفاقُ علَى وجهٍ منشرحةٍ لهُ النَّفسُ، سخيَّةٍ بهِ، لَا علَى وجهِ التردُّدِ، وضعفِ

النَّفسِ فِي إخراجِهَا؛ وذلكَ أنَّ النَّفقةَ يعرضُ لهَا آفتانِ: إمَّا أنْ يقصدَ الإنسانُ بهَا محمدةَ النَّاسِ ومدحهمْ، وهوَ الرِّياءُ، أوْ يخرجهَا علَى خورٍ وضعفِ عزيمةٍ وتردُّدٍ، فهؤلاءِ سلمُوا منْ هاتينِ الآفتينِ، فأنفقُوا ابتغاءَ مرضاتِ اللهِ تعالَى لاَ لغيرَ ذلكَ منَ المقاصدِ، وتثبيتًا منْ أنفسهمْ(14).

فقولهُ تعالَى: (وَتَثْبِيتًا) معطوفةٌ علَى (اِبْتِغَاءَ)، وقولهُ تعالَى: (وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ) (منْ) ابتدائيَّةٌ؛ يعنِي: تثبيتًا كائنًا فِي أنفسهمْ لمْ يحملهمْ عليهِ أحدٌ، ومعنَى يثبِّتونهَا: يجعلونهَا تثبتُ، وتطمئنُ، أيْ: لَا تتردَّدُ فِي الإنفاقِ، ولَا تشكُّ فِي الثَّوابِ؛ وهذَا يدلُّ علَى أنَّهمْ ينفقونَ طيِّبةً نفوسهمْ بالنَّفقةِ(15).

سادسًا: أنْ يكونَ الإنفاقُ وسطًا، لَا إسرافَ فيهِ ولَا تقتيرٌ:

ومنْ آدابِ الإنفاقِ التوسُّطُ فيهِ، وقدْ نهَى اللهُ تعالَى عنِ الإسرافِ فِي الإنفاقِ، فقالَ تعالَى: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا" [الإسراء: 29].

قالَ الطَّبري: وهذَا مثلٌ ضربهُ اللهُ تباركَ وتعالَى للممتنعِ منَ الإنفاقِ فِي الحقوقِ التِي أوجبهَا فِي أموالِ ذوِي الأموالِ، فجعلهُ كالمشدودةِ يدهُ إلَى عنقهِ، الذِي لَا يقدرُ علَى الأخذِ بهَا والإعطاءِ.

وإنَّمَا معنَى الكلامِ: ولَا تمسكْ يَا محمَّدٌ يدكَ بخلًا عنِ النَّفقةِ فِي حقوقِ اللهِ، فلَا تنفقُ فيهَا شيئًا إمساكَ المغلولةِ يدهِ إلَى عنقهِ، الذِي لَا يستطيعُ بسطهَا (وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) يقولُ: ولَا تبسطهَا بالعطيَّةِ كلّ البسطِ، فتبقَى لَا شيءَ عندكَ، ولَا تجدُ إذَا سُئلتَ شيئًا تعطيهِ سائلكَ (فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)

يقولُ: فتقعدَ يلومكَ سائلوكَ إذَا لمْ تعطهمْ حينَ سألوكَ، وتلومكَ نفسكَ علَى الإسراعِ فِي مالكَ وذهابِهِ، محسورًا: يقولَ: مَعِيبًا، قَدِ انقُطِعَ بكَ، لَا شيءَ عندكَ تنفقُهُ، وأصلهُ منْ قولِهمْ للدَّابةِ التِي قدْ سيرَ عليهَا حتَّى انقَطَعَ سيرهَا، وكلَّتْ ورَزحتْ منَ السَّيرِ، بأنَّهُ حَسِيرٌ، يقالُ منهُ: حَسَرْتُ الدَّابَّةَ فأنَا أحسِرُهَا، وأحسُرهَا حَسْرًا، وذلكَ إذَا أظنيتهُ بالسَّيرُ، وحَسَرتهُ بالمسألةِ إذَا سألتهُ فألحفتَ، وحَسَرَ البصرُ فهوَ يَحْسِرُ، وذلكَ إذَا بلغَ أقصَى المنظرَ فكَلّ، ومنهُ قولهُ عزَ وجلَ "يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ" وكذلكَ ذلكَ فِي كلّ شيءٍ كَلَّ وأزحفَ حتَّى يَضْنَى[16].

والإسرافُ والسَّرفُ: تجاوزُ الحدِّ الذِي يقتضيهِ الإنفاقُ، بحسبِ حالِ المنفقِ، وحالِ المنفَقِ عليهِ، وهذَا النَّهيُ عنِ الإسرافِ نهيُ إرشادٍ وإصلاحٍ، والإسرافُ إمَّا أنْ يكونَ بالزِّيادةِ علِى القدرِ الكافِي، والشَّرهِ فِي المأكولاتِ، الذِي يضرُّ بالجسمِ، وإمَّا أنْ يكونَ بزيادةِ الترفُّهِ، والتنوُّعِ فِي المآكلِ والمشاربِ واللِّباسِ، وإمَّا بتجاوزِ الحلالِ إلَى الحرامِ[17].

قالَ تعالَى: "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ"[الأعراف: 31]**. فإنَّ السَّرفَ يبغضهُ اللهُ تعالَى، ويضرُّ بدنَ الإنسانِ ومعيشتهِ، حتَّى إنَّهُ ربَّمَا أدَّتْ بهِ الحالُ إلَى أنْ يعجزَ عمَّا يجبُ عليهِ منَ النَّفقاتِ، ففِي هذهِ الآيةِ الكريمةِ الأمرُ بتناولِ الأكلِ والشُّربِ، والنَّهيُ عنْ تركهمَا، وعنِ الإسرافِ فيهمَا[18]، ولهذَا كانَ منَ الأعمالِ التِي لَا يحبُّهَا اللهُ تعالَى، ومنَ الأخلاقِ التِي يلزمُ الانتهاءُ عنهَا، ونفيُ المحبَّةِ**

مختلفُ المراتبِ، فيُعلمُ أنَّ نفيَ المحبَّةِ يشتدُّ بمقدارِ قوَّةِ الإسرافِ، وهذَا حكمٌ مجملٌ، وهوَ ظاهرٌ فِي التَّحريمِ.

ووجهُ عدمِ محبَّةِ اللهِ تعالَى للمسرفِ أنَّ الإفراطَ فِي تناولِ اللذَّاتِ والطيِّباتِ والإكثارِ منْ بذلِ المالِ فِي تحصيلهَا يفضِي غالبًا إلَى استنزافِ الأموالِ، والشَّرهِ إلَى الاستكثارِ منهَا، فإذَا ضاقتْ علَى المسرفِ أموالهُ تطلَّبَ تحصيلُ المالِ منْ وجوهٍ فاسدةٍ؛ ليُخمدَ بذلكَ نهمتهُ إلَى اللذَّاتِ، فيكونُ ذلكَ دأبهُ، فربَّمَا ضاقَ عليهِ مالهُ فشقَّ عليهِ الإقلاعُ عنْ معتادهِ، فعاشَ فِي كربٍ وضيقٍ، وربَّمَا تطلَّبَ المالَ منْ وجوهٍ غيرِ مشروعةٍ، فوقعَ فيمَا يؤاخذُ عليهِ فِي الدُّنيَا أوْ فِي الآخرةِ، ثمَّ إنَّ ذلكَ قدْ يعقبُ عيالهِ خصاصةً وضنك معيشةٍ، وينشأُ عنْ ذلكَ ملامٌ وتوبيخٌ وخصوماتٌ، تفضِي إلَى مَا لَا يحمدُ فِي اختلالِ نظامِ العائلةِ[19].

فأمَّا كثرةُ الإنفاقِ فِي وجوهِ البرِّ فإنَّهَا لَا توقعُ فِي مثلِ هذَا؛ قالَ ابنُ عاشورٍ: قيلَ فِي الكلامِ الذِي يصحُّ طردًا وعكسًا: لَا خيرَ فِي السَّرفِ ولَا سرفَ فِي الخيرِ[20].

وفِي معنَى هذهِ الآيةِ قولهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "ويكرهُ لكمْ: قيلَ وقالَ، وكثرةَ السُّؤالِ، وإضاعةُ المالِ"[21].

وفِي آيةٍ أخرَى يقولُ تعالَى: " وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا [الإسراء: 26، 27].

فقولهُ تعالَى: (إِخْوَانَ) يعنِي: أنَّهمْ فِي حكمهمْ؛ إذِ المبذِّرُ ساعٍ فِي الإفسادِ كالشَّياطينِ، أوْ أنَّهمْ يفعلونَ مَا تسوِّلُ لهمْ

أنفسهِمْ، أوْ أنَّهمْ يقرنونَ بهمْ غدًا فِي النَّارِ، ثلاثةُ أقوالٍ، والإخوانُ هنَا جمعُ: أخٍ منْ غيرِ النَّسبِ.

قالَ الطَّبريُّ: وأمَّا قولهُ (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) فإنَّهُ يعنِي: إنّ المفرّقينَ أموالهمْ فِي معاصِي اللهِ المنفقيهَا فِي غيرِ طاعتهِ أولياءُ الشَّياطينَ، وكذلكَ تقولُ العربُ لكلّ ملازمِ سنَّةَ قومٍ وتابعٍ أثرهمْ: هوَ أخوهمْ.

---

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥٣/٤.

(2) انظر: التحرير والتنوير ١٧٥٧/١.

(3) تفسير ابن عرفة ١/ ٣٤٢.

(4) التفسير القيم، ابن القيم ٢٦١/١.

(5) التفسير القيم، ابن القيم ٢٦٠/١.

(6) الجامع لأحكام القرآن ٣٣٢/٣.

(7) انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٧٧/٢.

(8) أحكام القرآن ٣١٥/١.

(9) التفسير القيم للإمام ابن القيم ص١٧٠.

(10) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١٣٨/١.

(11) فتح القدير ٤٣٦/١.

(12) راوه الترمذي وصححه الألباني.

(13) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب ٥١١/٢، ١٣٤٤، ومسلم في الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ٨٥/٣، ٢٣٩٠، واللفظ للبخاري.

(14) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١١٤/١.

(15) تفسير القرآن للعثيمين ٢٥٨/٥.

(16) تفسير الطبري.

(17) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢٨٧/١.

(18) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢٨٧/١.

(19) التحرير والتنوير ١٤٤٣/١.

(20) السابق.

(20) أخرجه مسلم في الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة ١٣٠/٥، ٤٥٧٨.

(21) تفسير الطبري.

آثارُ الإنفاقِ:

للإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى فوائدُ عديدةٌ، وآثارٌ حميدةٌ، يجنيهَا المتصدِّقُ إذَا أحسنَ القصدَ، وأخلصَ العملَ لوجهِ اللهِ تعالَى، ومنْ هذهِ الآثارِ الدُّنيويَّةِ:

1) تهذيبُ النَّفسِ وتطهيرهَا منَ الشحِّ:

وتعدُّ عمليَّةُ الإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى درسًا تهذيبيًّا أكثرَ منْ كونهَا مساعدةً ماليَّةً؛ وذلكَ لمَا للإنفاقِ منْ دورٍ عظيمٍ فِي تهذيبِ النُّفوسِ، وإصلاحُ حالِ الفردِ، واستقامةِ المجتمعِ، وتليينٍ وتذليلٍ ومعالجةٍ لتِلْكُمُ القلوبِ الصَّلدةِ القاسيةِ، كمَا أنَّ الجودَ والسَّخاءَ يقلبُ البغضاءَ محبَّةً، والعداوةَ ودًّا، بإذنِ اللهِ تعالَى، وفيهِ مواساةٌ للفقراءِ والمساكينِ والمعوزينَ عمومًا.

والصَّدقةُ وسيلةٌ منْ وسائلِ تطهيرِ النَّفسِ، وتهذيبِ الأخلاقِ، فهيَ تزيلُ الخطايَا، وتغسلُ صحيفةَ صاحبهَا منَ الأدناسِ، وتطهِّرهَا منَ الذُّنوبِ، وقدْ دلَّ الكتابُ العزيزُ والسنَّةُ المطهَّرةُ علَى أنَّ الصَّدقةَ تطهِّرُ الإنسانَ وتزكِّي نفسهُ؛ ولهذَا سمِّيتِ الصَّدقةُ الواجبةُ زكاةً، وهيَ: النَّماءُ والطَّهارةُ، وزكَا الشَّيءُ: نمَا وتكاثرَ، وزكتِ النَّفسُ: طهُرتْ، وقدْ قالَ اللهُ تعالَى: "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا"[التوبة: 103].

أس تطهِّرهمْ منَ البخلِ والشحِّ، وحبِّ المالِ، وتزكِّيهمْ بنماءِ أموالهمْ وحسناتهمْ، وتهذيبْ نفوسهمْ؛ وبذلكَ يرتفعونَ إلَى منازلِ المخلصينَ الطيِّبينَ.

كمَا أنَ الإسلامَ يريدُ تربيةَ النُّفوسِ علَى البذلِ والعطاءِ حتَّى تتخلَّقَ بأخلاقِ اللهِ تعالَى، فكلَّمَا اعتادَ الإنسانُ البذلَ والعطاءَ

ارتقَى منْ حضيضِ الشحِّ إلَى أفقِ الإحسانِ، قالَ الرازِي: إنَّ النَّفسَ النَّاطقةَ لهَا قوَّتانِ نظريَّةٌ وعمليَّةٌ، فالقوَّةُ النظريَّةُ كمالهَا فِي التعظيمِ لأمرِ اللهِ، والقوَّةُ العمليَّةُ كمالهَا فِي الشَّفقةِ علِى خلقِ اللهِ، فأوجبَ اللهُ الزَّكاةَ ليحصلَ لجوهرِ الرُّوحِ هذَا الكمالُ، وهوَ اتِّصافهُ بكونهِ محسنًا إلَى الخلقِ، ساعيًا فِي إيصالِ الخيراتِ إليهِمْ، دافعًا للآفاتِ عنهمْ[1].

ولمَا كانَ البذلُ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى برهانُ الصِّدقِ وعلامةُ الإيمانِ، كمَا قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: "...والصَّدقةُ برهانٌ ..."[2] كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أجودَ النَّاسِ، وقدْ عُرفَ بذلكَ منْ قبلِ رسالتهِ؛ لأنَّ اللهَ هيَّأهُ لمكارمِ الأخلاقِ، فقدْ قالتْ لهُ خديجةُ رضيَ اللهُ عنهَا فِي حديثِ بدءِ الوحيِ: "إنَّكَ تحملُ الكَلَّ، وتكسبُ المعدومَ[3].

والإنفاقُ يقِي صاحبهُ منَ الشحِّ المنهيِّ عنهُ، فإذَا يُسرَّ علَى المرءِ الإنفاقُ فيمَا أمرَ اللهُ بهِ فقدِ وُقِيَ شُحَّ نفسهِ؛ وذلكَ منَ الفلاحِ، كمَا قالَ اللهُ تعالَى: "وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [الحشر: 9].

وإضافةُ (الشحِّ) إلَى النَّفسِ للإشارةِ إلَى أنَّ الشحَّ منْ طباعِ النُّفوسِ، فإنَّ النُّفوسَ شحيحةٌ بالأشياءِ المحبَّبةِ إليهَا، كمَا قالَ تعالَى: "وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ" [النساء: 128].

وفِي الحديثِ لمَّا سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عنْ أفضلِ الصَّدقةِ، قالَ: "أنْ تصدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ، تخشَى الفقرَ وتأملَ الغنَى، وأنْ لَا تدعَ حتَّى إذَا بلغتِ الحلقومَ قلتَ: لفلانٍ كذَا ولفلانٍ كذَا، وقدْ كانَ لفلانٍ[4].

2) حسنُ التَّكافلِ الاجتماعِي:

ومنْ آثارِ الإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى تحقيقُ التَّكافلِ الاجتماعِي بأبهَى صورهِ؛ حيثُ يتمُّ تحقيقُ كفايةِ الفقيرِ دونَ المساسِ بكفايةِ الغنيِّ.

وقدْ عُرفَ أنَّ منْ أعظمِ وسائلِ تقويةِ التَّكافلِ الاجتماعيِّ فِي الإسلامِ البذلُ والإنفاقُ؛ لذلكَ حبَّبَ الإسلامُ إلَى بنيهِ أنْ تكونَ نفوسهمْ سخيَّةً، وأكُفُّهُمْ نديَّةً، وأنْ يجعلُوا تقديمَ الخيرِ إلَى النَّاسِ شغلهمْ الدَّائمِ، لَا ينفكُّونَ عنهُ أبدًا باللَّيلِ ولَا بالنَّهارِ فِي السرِّ والعلانيةِ، يقولُ اللهُ تعالَى: "الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" [البقرة: ٢٧٤].

والإسلامُ وهوَ يدعُو إلَى الإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى علَى الفقراءِ والمحتاجينَ، يحرصُ أنْ يجعلَ المسلمينَ كتلةً واحدةً، يشدُّ بعضهَا بعضًا، يربطُ بينهمْ رباطُ الإيمانِ والعقيدةِ، يعطفُ كبيرهمْ علَى صغيرهمْ، وغنيُّهمْ علَى فقيرهمْ، كلُّ منهمْ يتحسَّسُ حاجةَ أخيهِ المسلمِ، ويفعلُ الأسبابَ لإزالةِ هذهِ الحاجةِ بصدرٍ رحبٍ، وقلبٍ منشرحٍ، ينطلقونَ منْ توجهاتِ كتابهمْ، بقولهِ تعالَى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ" [الحجرات: 10].

وقولهُ تعالَى: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى البرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوانِ" [المائدة: 2].

ومنْ سنَّةِ رسولهمْ ﷺ، بقولهِ: "مثلُ المؤمنينَ فِي توادهمْ وتراحمهمْ وتعاطفهمْ، مثلُ الجسدِ إذَا اشتكَى منهُ عضوٌ تداعَى لهُ سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحمَّى"(5).

وبقولِهِ ﷺ: "المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضهُ بعضًا"(6).

فصدقةُ التطوُّعِ تساعدُ علَى إذابةِ التَّفاوتِ الطبقيِّ بينَ المسلمينَ، وتعينهمْ علَى حلِّ مشكلةِ الفقرِ، ومَا ينتجُ عنهُ منْ مآسٍ ومشاكلٍ، وهيَ أيضًا سببٌ منْ أسبابِ الألفةِ والمحبَّةِ بينَ المسلمينَ، ولهَا دورٌ فِي إشاعةِ روحِ التَّسامحِ والتَّعاونِ والتَّآخِي بينهمْ.

وقدْ قالَ ﷺ: منْ نفَّسَ عنْ مؤمنْ كربةً منْ كربِ الدُّنيَا نفَّسَ اللهُ عنهُ كربةً منْ كربِ يومِ القيامةِ، ومنْ يسَّرَ علَى معسرٍ يسَّرَ اللهُ عليهِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، ومنْ سترَ مسلمًا سترهُ اللهُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، واللهِ فِي عونِ العبدِ مَا كانَ العبدُ فِي عونِ أخيهِ"(7). وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذَا جاءهُ السَّائلُ، أوْ طُلبتْ إليهِ حاجةٌ، قالَ: "اشفعُوا توُجروا، ويقضِي اللهُ علَى لسانِ نبيِّهِ ﷺ مَا شاءَ"(8) يقولُ ابنُ حجرٍ: فِي الحديثِ حضٌّ علَى الخيرِ وفعلهِ، والتسبُّبِ إليهِ بكلِّ وسيلةٍ، والشَّفاعةُ إلَى الكبيرِ فِي كشفِ كربةٍ، ومعونةِ ضعيفٍ(9).

3) سعةُ الرِّزقِ:

ومنْ آثارِ الإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى أنَّ الصَّدقةَ تجلبُ الرِّزقَ، وتحفظُ المالَ منَ الآفاتِ والهلكاتِ والمفاسدِ، وتحلُّ فيهِ البركةُ، وتكونُ سببًا فِي إخلافِ اللهِ علَى صاحبِهَا بمَا هوَ أنفعُ لهُ، وأكثرَ وأطيبَ، دلَّتْ علَى ذلكَ النُّصوصُ الثَّابتةُ، والتَّجربةُ المحسوسةُ، فمنَ النَّصوصِ الدَّالةِ علَى ذلكَ قولهُ تعالَى: "وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ" [سبأ: 39].

قالَ ابنُ عاشورٍ: وأكدَّ ذلكَ الوعدَ بصيغةِ الشَّرطِ، وبجعلِ جملةِ الجوابِ اسميَّةً، وبتقديمِ المسندِ إليهِ علَى الخبرِ الفعليِّ بقولهِ: (فَهُوَ يُخْلِفُهُ) ففِي هذَا الوعدِ ثلاثُ مؤكِّداتٍ دالَّةٌ علَى مزيدِ العنايةِ بتحقيقهِ...، وجملةُ: (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) تذييلٌ للتَّرغيبِ والوعدِ بزيادةِ أنَّ مَا يخلفهُ أفضلُ ممَّا أنفقهُ المنفقُ(10).

وقالَ السَّعدِي: قولهُ: (وَمَا أَنْفَقْتُم منْ شَيْءٍ) نفقةً واجبةً أوْ مستحبَّةً، علَى قريبٍ أوْ جارٍ أوْ مسكينٍ أوْ يتيمٍ أوْ غيرِ ذلكَ فهوَ تعالَى يخلفهُ، فلَا تتوهَّمُوا أنَّ الإنفاقَ ممَّا ينقصُ الرِّزقَ، بلْ وعدَ بالخلفِ للمنفقِ الذِي يبسطُ الرِّزقَ ويقدرُ(11).

وقدْ قالَ النَّبيُّ ﷺ: "مَا نقصَ مالٌ منْ صدقةٍ"(12).

ومنَ النُّصوصِ الدَّالةِ أيضًا علَى أنَّ الصَّدقةَ بوَّابةٌ للرِّزقِ، ومنْ أسبابِ سعتهِ واستمرارهِ، وأنها لا تزيد العبد إلا كثرة: قوله تعالى: "لَإِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِدَنَّكُمْ" [إبراهيم: 7].

إذِ الصَّدقةُ غايةٌ فِي الشُّكرِ، وقولهُ عزَّ وجلَّ فِي الحديثِ القدسيِّ: "يَا ابنَ آدمَ أنفقْ أنفقُ عليكَ"(13).

وقولهُ ﷺ: "مَا فتحَ رجلٌ بابَ عطيَّةٍ بصدقةٍ أوْ صلةٍ إلَّا زادهُ اللهُ بهَا كثرةً"(14).

وقولهُ ﷺ: مَا منْ يومٍ يصبحُ العبادُ فيهِ إلَّا ملكانِ ينزلانِ، فيقولُ أحدهمَا: اللهمَّ أعطِ منفقًا خلفًا، ويقولُ الآخرُ: اللهمَّ أعطِ ممسكًا تلفًا(15).

كمَا يدلُّ علَى ذلكَ قولهُ ﷺ: بينَا رجلٌ بفلاةٍ منَ الأرضِ فسمعَ صوتًا فِي سحابةٍ: اسقِ حديقةَ فلانٍ، فتنحَّى ذلكَ السَّحابُ،

فأفرغَ ماءهُ فِي جرَّةٍ، فإِذَا شرجةٌ قدِ استوعبتْ ذلكَ الماءَ كلَّهُ، فتتبَّعَ الماءَ، فإِذَا رجلٌ قائمٌ فِي حديقتهِ، يحولُ الماءُ بمسحاتهِ، فقالَ لهُ: يَا عبدَ اللهِ! مَا اسمكَ؟ قالَ: فلانٌ - للاسمِ الذِي سمعَ فِي السَّحابةِ-، فقالَ لهُ: يَا عبدَ اللهِ لمْ تسألنِي عنْ اسمِي؟ فقالَ: إنِّي سمعتُ صوتًا فِي السَّحابِ الذِي هذَا ماؤهُ، يقولُ: اسقِ حديقةَ فلانٍ -لاسمكَ-، فماذَا تصنعُ فيهَا؟ قالَ: أمَّا إذْ قلتَ هذَا فإنِّي أنظرُ إلَى مَا يخرجُ منهَا فأتصدَّقُ بثلثهِ، وآكلُ أنَا وعيالِي ثلثهُ، وأردُّ فيهَا ثلثهُ[16].

وفِي روايةٍ: "وأجعلُ ثلثهُ فِي المساكينِ والسائلينَ وابنِ السبيلِ"[17].

وفِي المقابلِ جاءتْ نصوصٌ عديدةٌ تردُّ علَى فئاةٍ منَ الخلقِ - ممَّنْ رقَّ دينهمْ وساءتْ أفهامهمْ- ظنُّوا أنَّ الصَّدقةَ منقصةٌ للمالِ، جالبةٌ للفقرِ، مسبِّبةٌ للضيعةِ، بلْ أبانتْ هذهِ النُّصوصُ أنَّ الصَّدقةَ لَا تنقصُ مالَ العبدِ، وأنَّ شحَّهُ بهِ هوَ سببُ حرمانِ البركةِ، وتضييقِ الرِّزقِ، وإهلاكِ المالِ، وعدمِ نمائهِ، ومنْ هذهِ النُّصوصِ قولهِ ﷺ: "مَا نقصتْ صدقةٌ منْ مالٍ، ومَا زادَ اللهُ عبدًا بعفوٍ إلَّا عزًّا، ومَا تواضعَ عبدٌ إلَّا رفعهُ اللهُ"[18].

ومنْ ذلكَ حديثُ أسماءَ بنتُ أبِي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهمَا قالتْ: قالَ لِي رسولُ اللهِ ﷺ: لَا تُوكِي فيُوكَى عليكِ[19]، وفِي روايةٍ: أنفقِي وانفحِي أوِ انضحِي، ولَا تُحصِي فيُحصِي اللهُ عليكِ، ولَا توعِي فيوعِي اللهُ عليكِ[20].

قولهُ ﷺ: (لَا تُوكِي)، بمعنَى لا تُمسكِي، فالإنسانُ حينمَا يوكِيءُ الإناءَ بمعنَى أنَّهُ يحكمُ إغلاقهُ، وإذَا كانَ عندَ الإنسانِ

صرّةٌ منْ مالٍ ثمَّ أوكَى هذهِ الصرَّةَ فمعنَى ذلكَ أنَّهُ أغلقهَا وربطهَا وأحكمَ ربطهَا فلَا يُخرجُ منهَا شيءٌ، فقولهُ ﷺ (لَا تُوكِي فيُوكَى عليكِ)، يعنِي: لَا تمسكِي مَا عندكِ، ولَا تمنعِي مَا بيدكِ فيوكَى عليكِ، أي: فيكونُ ذلكَ متسبِّباً بمنعِ الربِّ تباركَ وتعالَى رزقهُ عنكِ، والجزاءُ منْ جنسِ العملِ.

وقولهُ ﷺ: (ولَا تُحصِي فيُحصِيَ اللهُ عليكِ)، فُسِّرَ بمعنَى لَا تدَّخرِي، ولكنَّهُ يمكنُ أنْ يُفسَّرَ بمعنًى مقاربٌ لقولهِ: لَا تُحصِي فيُحصيَ اللهُ عليكِ، بمعنَى أنَّ الإنسانَ لَا يدقِّقُ فِي نفقاتهِ بحيثُ يحسبُ كمْ يخرجُ وكمْ يُبقِي وإذَا أخرجَ هذهِ النَّفقةَ حسبَ كمْ سيبقَى عندهُ بعدهَا ومَا إلَى ذلكَ منْ هذَا التنقيرِ الذِي قدْ يكونُ سبباً لذهابِ البركةِ.

وقولهُ ﷺ: (ولَا توعِي فيوعِي اللهُ عليكِ)، لَا توعِي بمعنَى لَا تمنعِي مَا زادَ عنْ حاجتكِ، أي لَا تمنعيهِ عمَّنْ احتاجَ إليهِ فيكونُ ذلكَ سبباً لمنعِ اللهِ تعالَى لرزقهِ عنكِ.

ثانيًا: آثارُ أُخرويَّةٌ:

كمَا أنَّ للإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى آثارٌ دنيويَّةٌ، فمنْ بابِ أولَى أنْ تكونَ لهُ آثارٌ أخرويَّةٌ، ومنْ هذهِ الآثارِ:

1) الحصولُ علَى محبَّةِ اللهِ تعالَى ورحمتهُ ورضاهُ:

فمنْ فوائدِ الصَّدقةِ وآثارهَا الحميدةِ أنَّهَا طريقٌ للظَّفرِ بمحبَّةِ اللهِ ورحمتهِ ورضاهِ، ففِي الصَّدقةِ إحسانٌ ورحمةٌ، وتفضُّلٌ وشفقةٌ؛ ولذَا كانتْ منْ وسائلِ نيلِ محبَّةِ ربِّ العالمينَ، والحصولِ علَى رحمتهِ، والظَّفرِ برضوانهِ؛ لأنَّهُ سبحانهُ يحبُّ المحسنينَ، ويرحمُ الرُّحماءَ، وقدْ دلَّت نصوصُ القرآنِ

والسنَّةِ علَى ذلكَ، فممَّا يدلُّ علَى أنَّ التصدُّقَ والإنفاقَ فِي سبيلِ مرضاةِ اللهِ تعالَى منْ دواعِي حبِّهِ عزَّ وجلَّ للعبدِ: قولهُ تعالَى: "وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" [البقرة: 195].

فقولهُ: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) تذييلٌ للتَّرغيبِ فِي الإحسانِ؛ لأنَّ محبَّةَ اللهِ عبدهُ غايةُ مَا يطلبهُ النَّاسُ؛ إذْ محبَّةُ اللهِ العبدَ سببُ الصَّلاحِ والخيرِ دنيًا وآخرةً، واللَّامُ للاستغراقِ العرفِي، والمرادُ: المحسنونَ منَ المؤمنينَ[21].

وقالَ السَّعدِي: وهذَا يشملُ جميعَ أنواعِ الإحسانِ؛ لأنَّهُ لمْ يقيِّدهُ بشيءٍ دونَ شيءٍ، فيدخلُ فيهِ الإحسانُ بالمالِ كمَا تقدَّمَ، ويدخلُ فيهِ الإحسانُ بالجاهِ وبالشَّفاعاتِ ونحوِ ذلكَ ...، ويدخل في الإحسان أيضًا الإحسان في عبادة الله تعالى»[22].

وفِي الآيةِ إثباتُ المحبَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ، وهيَ محبَّةٌ حقيقيَّةٌ علَى ظاهرهَا، وليسَ المرادُ بهَا الثَّوابُ ولَا إرادةُ الثَّوابِ، خلافًا للأشاعرةِ وغيرهمْ منْ أهلِ التَّحريفِ المعنويِّ الذينِ يحرِّفونَ هذَا المعنَى العظيمِ إلَى معنًى آخرَ لَا يكونُ بمثابتهِ، فإنَّ مجرَّدَ الإرادةِ ليستْ بشيءٍ بالنِّسبةِ للمحبَّةِ، وشبهتهمْ أنَّ المحبَّةَ إنَّمَا تكونُ بينَ شيئينِ متناسبينِ، وهذَا التَّعليلُ باطلٌ، ومخالفٌ للنصِّ، ولإجماعِ السَّلفِ، ومنقوضٌ بمَا ثبتَ بالسَّمعِ والحسِّ منْ أنَّ المحبَّةَ قدْ تكونُ بينَ شيئينِ غيرَ متناسبينِ،

فقدْ أثبتَ النبيُّ ﷺ أنَّ أُحُدًا وهوَ جبلٌ يُحِبُّ ويُحَبُّ، فقالَ: ... هذَا جبلٌ يحبِّنَا ونحبِّهُ[23]، وليسَ بينَ الجبالِ والبشرُ تناسبٌ.

زمنَ الواضحِ، أنَّ المحبَّةَ أعمقُ منْ مجرَّدِ الرضَا، فمحبَّةُ اللهِ تعالَى لهَا معنًى عظيمٌ لهُ تأثيرهُ الخاصُ فِي النَّفسِ.

ومنَ النُّصوصِ الدَّالةِ علَى أنَّ الصَّدقةَ دافعةٌ لغضبِ اللهِ تعالَى وسخطهِ، وجالبةٌ لرضوانهِ ورحمتهِ: مَا جاءَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: "إنَّ الصَّدقةَ لتطفُئ غضبَ الربِّ، وتدفعُ ميتةَ السُّوءِ[24]. وحديثُ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ الذِي تضمَّنَ قصَّةَ الأبرصِ والأقرعِ والأعمَى، وفيهِ قولُ الملكِ للأعمَى لمَّا بذلَ المالَ محتسبًا الثَّوابَ منَ اللهِ تعالَى، وأمسكهُ صاحباهُ شحًّا بهِ وبخلًا: "أمسكْ مالكَ، فإنَّمَا ابتليتمْ؛ فقدْ رضيَ اللهُ عنكَ، وسخطَ علَى صاحبيكَ[25].

كمَا أتتْ أحاديثُ عديدةٌ تبيِّنُ أنَّ اللهَ تعالَى يحبُّ المتصدِّقينَ وذوِي البرِّ والإحسانِ، وصانعِي المعروفِ، منهَا قولهُ ﷺ: "أحبُّ النَّاسِ إلَى اللهِ أنفعهمْ للنَّاسِ"[26].

كمَا جاءتْ أحاديثُ تبيِّنُ أنَّ اللهَ تعالَى لَا يرحمُ منْ عبادهِ إلَّا الرُّحماءُ بخلقهِ، المشفقينَ علَى عبادهِ وهيَ صفةُ المتصدِّقينَ ومنهَا: قولهُ ﷺ: "الرَّاحمونَ يرحمهمُ الرَّحمنُ، ارحمُوا أهلَ الأرضِ يرحمكمْ أهلُ السَّماءِ"[27]، وقولهُ ﷺ: "منْ لَا يرحمِ النَّاسَ لَا يرحمهُ اللهُ عزَّ وجلَّ"[28].

2) مغفرةُ الذُّنوبِ:

وجعلَ اللهُ تعالَى الصَّدقةَ سببًا لغفرانِ المعاصِي، وإذهابِ السيِّئاتِ، والتَّجاوزِ عنِ الهفواتِ، دلَّتْ علَى ذلكَ نصوصُ الكتابِ والسنَّةِ، ومنهَا: قولهُ تعالَى: "إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ" [هود: 114].

وهذَا نصٌّ عامٌّ يشملُ كلَّ حسنةٍ وفعلِ خيرٍ، والصَّدقةُ منْ أعظمِ الحسناتِ والخيراتِ، فهيَ داخلةٌ فيهِ بالأولويَّةِ.

وقولهُ سبحانهُ: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" [الأحزاب: 35].

وقولهُ عزَّ وجلَّ: "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ" [آل عمران: 133، 134].

فهاتانِ الآيتانِ أفادتَا أنَّ منْ أولَى وأجلِّ مَا تُنالُ بهِ مغفرةُ اللهِ، وتجاوزهُ عنِ الذُّنوبِ الإنفاقُ فِي مرضاتهِ سبحانهِ.

وممَّا يدلُّ علَى أنَّ الصَّدقةَ تمحُو الذُّنوبَ وترفعُ الدَّرجاتِ: قولُ اللهِ تعالَى: "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا" [التوبة: 103].

يقولُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: أي: تطهِّرهمْ منَ الذُّنوبِ والأخلاقِ الرَّذيلةِ، وتزكيهمْ أيْ: تنمِّيهمْ وتزيدُ فِي أخلاقهمُ الحسنةِ وأعمالهمُ الصَّالحةَ، وتزيدُ فِي ثوابهمُ الدُّنيويِّ والأخرويِّ، وتنمِّي أموالهمْ[29].

وقولهُ تعالَى: "الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" [البقرة: 268].

قالَ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: أي: يخوِّفكمُ الفقرَ؛ لتمسكُوا مَا بأيديكمْ فلَا تنفقوهُ فِي مرضاةِ اللهِ...، (وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً

مِنْهُ وَفَضْلًا) أي: فِي مقابلةِ مَا أمركمُ الشَّيطانُ بالفحشاءِ، و(فَضْلًا) أي: فِي مقابلةِ مَا خوَّفكمُ الشَّيطانُ منَ الفقرِ[30].

ومنَ النُّصوصِ الدَّالةِ علَى ذلكَ: مَا أخرجهُ البخارِي فِي بابِ: الصَّدقةِ تكفِّرُ الخطيئةَ منْ حديثِ حذيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ، وفيهِ: "فتنةُ الرَّجلِ فِي أهلهِ ومالهِ وولدهِ وجارهِ تكفِّرهَا الصَّلاةُ والصَّدقةُ والمعروفُ"[31].

3) الحشرُ تحتَ ظلِّ الصَّدقةِ.

ومنْ فوائدِ الإنفاقِ الأخرويَّةِ: أنَّ النَّاسَ إذَا حشرُوا يومَ القيامةِ واشتدَّ الكربُ فإنَّ المتصدِّقينَ يتفيَّئونَ فِي ظلِّ صدقاتهمْ، وقدْ ثبتَ ذلكَ فِي أحاديثَ كثيرةٍ، منهَا: قولهُ ﷺ: "كلُّ امرئٍ فِي ظلِّ صدقتهِ يومَ القيامةِ حتَّى يُفصلَ بينَ النَّاسِ - أوْ قالَ: حتَّى يحكمَ بينَ النَّاسِ - قالَ يزيدُ (راوِي الحديثِ): وكانَ أبُو الخيرِ لَا يخطئهُ يومٌ إلَّا تصدَّقَ فيهِ بشيءٍ، ولوْ كعكةٌ أوْ بصلةٌ أوْ كذَا[32].

وقالَ ﷺ فِي الذينَ يظلُّهمُ اللهُ فِي ظلِّهِ يومَ لَا ظلَّ إلَّا ظلُّهُ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى في ظِلِّهِ يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: إمَامٌ عَدْلٌ، وشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ اللَّهِ، ورَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ، ورَجُلَانِ تَحَابَّا في اللَّهِ، اجْتَمعا عليه وتَفَرَّقَا عليه، ورَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ فَقالَ: إنِّي أَخَافُ اللَّهَ، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَةٍ فأخْفَاهَا حتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ، ورَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"[33].

وأمَّا قولهُ ﷺ: (فِي ظلِّ صدقتهِ) ظاهرهُ العمومُ، فيشملُ صدقتهُ الواجبةَ والنَّافلةَ، والمرادُ بقولهِ: (يومَ القيامةِ)، أي

حينَ تدنُو الشَّمسُ منَ الرُّؤوسِ، ويبلغُ الكربُ فِي النَّاسِ مبلغهُ.
والمقصودُ أنَّ أعمالهِمْ تُظلُّهمْ أوْ تضحيهِمْ، فإضافةُ الظلِّ إِلَى الأعمالِ إضافةُ سببٍ؛ فالأعمالُ الصَّالحةُ أصحابهَا فِي ظلِّهَا، وكلُّ ذلكَ فِي ظلِّ العرشِ وليسَ المرادُ بهَا ظلَّهُ منْ حرِّ الشَّمسِ فقطْ، بلْ تمنعهُ منْ جميعِ المكارهِ، وتسترهُ منَ النَّارِ إذَا واجهتهُ، وتوصلهُ إلَى جميعِ المحابِّ، منْ قولهِمْ: فلانٌ فِي ظلِّ فلانٍ، وتمسكُ بهِ منْ فضلِ الغنيِّ الشَّاكرِ علَى الفقيرِ الصابرِ، ولوْ لمْ يكنْ فِي فضلِ الصَّدقةِ إلَّا أنَّهَا لمَا تفاخرتْ الأعمالُ كانَ لهَا الفضلُ عليهنْ لكفَى[34].

5) دخولُ جنَّاتِ النَّعيمِ:

ومنْ فوائدِ الصَّدقةِ، وآثارهَا الحميدةِ أنَّهَا سببٌ فِي دخولِ الجنَّةِ، وأصلُ ذلكَ بيانُ الرَّبِّ سبحانهُ أنَّ الجنَّةَ هيَ دارُ المحسنينَ والمحسناتِ منْ عبادهِ وإمائهِ، فقالَ تعالَى: "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44)" [المرسلات: 41، 42، 43، 44].

وقولهُ تعالَى: "وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا" [الأحزاب: 229].

وقولهُ تعالَى: "لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ" [الزمر: 34].

وقولهُ تعالَى: "فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ" [المائدة: 75].

وقالَ تعالَى: "وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها

وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ(23)" [الرعد: 22، 23].

فذكرَ اللهُ تعالَى هنَا الذينَ صبرُوا علَى مشاقِّ الطَّاعةِ وترك المخالفةِ، أوْ علَى مَا تكرههُ النُّفوسُ ويخالفهُ الهوَى، وفعلُوا ذلكَ ابتغاءَ وجهِ ربِّهمْ، وطلبًا لرضاهُ، لَا فخرًا ورياءً، وأقامُوا الصَّلاةَ المفروضةَ، بحيثُ حافظُوا علَى شروطهَا وأركانهَا، وأنفقُوا ممَّا رزقهمْ منْ الأموالِ فرضًا ونفلًا، سرًّا وعلانيَّةً، ويدرؤونَ بالحسنةِ السيِّئةَ، أي: يدفعونَ الخصلةَ السيِّئةَ بالخصلةِ الحسنةِ، فيجازونَ الإساءةَ بالإحسانِ.

ثمَّ ذكرَ جزاءهمْ، فقالَ تعالَى: (أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) أي: عاقبةُ دارِ الدُّنيَا، ومَا يؤولُ إليهِ أهلهَا، وهيَ: الجنَّةُ التِي فسَّرهَا بقولهِ: (جَنَّاتُ عَدْنٍ) أي: إقامةً، (يَدْخُلُونَهَا) مخلَّدينَ فيهَا، والعدنُ: الإقامةُ، وقيلَ: هيَ بطنانُ الجنَّةِ: أي: مداخلهَا(35).

وممَّا يدلُّ علَى أنَّ منْ آثارِ الصَّدقةِ دخولُ الجنَّةِ قولهُ تعالَى: " إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ" [الحديد: 18].

فالأجرُ الكريمُ هنَا: هوَ الجنَّةُ.

قالَ السَّعدِي فِي تفسيرِ قولهِ تعالَى: (الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ) أي: الذينَ أكثرُوا منَ الصَّدقاتِ الشَّرعيَّةِ والنَّفقاتِ المرضيَّةِ (وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) بأنْ قدَّمُوا منْ أموالهمْ فِي طرقِ الخيراتِ مَا يكونُ مدَّخرًا لهمْ عندَ ربِّهمْ (يُضَاعَفُ لَهُمْ) الحسنةُ بعشرِ أمثالهَا إلَى سبعمائةِ ضعفٍ، إلَى أضعافٍ كثيرةٍ (وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ) وهوَ مَا أعدَّهُ اللهُ لهمْ فِي الجنَّةِ ممَّا لَا تعلمهُ النفوسُ(36).

(1) مفاتيح الغيب، الرازي ٦٥/٨. بتصرُّف.
(2) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء ١٤٠/١، ٥٥٦.
(3) أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤/١، ٣، ومسلم في الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٩٧/١، ٤٢٢.

(4) أخرجه البخاري في الزكاة، باب فضل صدقة الشحيح الصحيح ٢/ ١١٠، ١٤١٩، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح رقم ١٠٣٢.
(5) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٨/ ٢٠، ٦٧٥١.
(6) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا ٥/ ٢٢٤٢، ٥٦٨٠، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٨/ ٢٠، ٦٧٥٠.
(7) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٨/ ٧١، ٧٠٢٨.
(8) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها ٢/ ٥٢٠، ١٣٦٥.
(9) فتح الباري ١٠/ ٤٥١.
(10) التحرير والتنوير ١/ ٣٤٤٧.
(11) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٦٨١.
(12) صحيح رواه ابن الملقن في الإعلام.
(13) أخرجه أحمد ٢/ ٢٤٢، ٧٢٩٦، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».
(14) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٢٣٣، ٣٤١٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٦٤٦.
(15) أخرجه البخاري في الزكاة، باب قول الله تعالى: (فأما من أعطى واتقى)، ٢/ ١١٥، ١٤٤٢، ومسلم في كتاب الكسوف، باب في المنفق والممسك ٢/ ٧٠٠، ١٠١٠.
(16) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين ٨/ ٢٢٢، ٧٦٦٤.
(17) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين ٨/ ٢٢٣، ٧٦٦٥.
(18) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع ٨/ ٢١، ٦٧٥٧.
(19) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها ٢/ ٥٢٠، ١٣٦٦.
(20) متفق عليه.
(21) التحرير والتنوير ١/ ٥٤٦.
(22) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٩٠.
(23) أخرجه البخاري في المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه ٥/ ١٠٣، ٤٠٨٣، ومسلم في الحج، باب فضل المدينة ٢/ ٩٩٣، ١٣٦٥.
(24) أخرجه الترمذي في أبواب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة ٣/ ٤٣، ٦٦٤.
(25) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٤/ ١٧١، ٣٤٦٤.
(26) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/ ١٣٩، ٦٠٢٦، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٦.
(27) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الرحمة ٤/ ٤٤٠، ٤٩٤٣، والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين ٤/ ٣٢٣، ١٩٢٤، وأحمد ١١/ ٣٣، ٦٤٩٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٢٢.
(28) أخرجه مسلم في الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك ٤/ ١٨٠٩، ٢٣١٩.
(29) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٣٥٠.
(30) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٧٠٠
(31) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة تكفر الخطيئة ٢/ ٥٢٠، ١٣٦٨.
(32) أخرجه أحمد ٤/ ١٤٧، وابن حبان ٣٣١٠، والحاكم ١/ ٤١٦، وصححه الألباني في التعليق الرغيب ٢/ ٢٥.
(33) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين ١٤٢٣، ومسلم في الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة ١٠٣١.
(34) فيض القدير ٢/ ٤٥٩.
(35) البحر المديد ٣/ ١٦٣.
(36) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٨٤٠.

ثمَّ قالَ السَّعديُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: التوكُّلُ علَى اللهِ والاستعانةُ بهِ: قدْ أمرَ اللهُ بهَا، وأثنَى علَى المتوكِّلينَ فِي آياتٍ كثيرةٍ.

وحقيقةُ ذلكَ: قوَّةُ اعتمادِ القلبِ علَى اللهِ فِي جلبِ المصالحِ، ودفعِ المضارِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، معَ الثِّقةِ بهِ فِي حصولِ ذلكَ.

~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى التوكُّلَ فِي كتابهِ الكريمِ فِي كثيرٍ منَ المواضعِ وأمرَ بهِ وأثنَى علَى المتوكِّلينَ، فقالَ سبحانهُ آمرًا للمسلمينَ بالتوَّكُّلِ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" [المائدة: 11].

وقالَ جلَّ جلالهُ: "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ" [التوبة: 129].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: "وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" [يونس: 84، 85].

وقالَ تعالَى مثنيًا علَى أهلِ التوكُّلِ وآمرًا لهُ بهِ: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" [آل عمران: 159، 160].
~~~~~~~~~~

وقالَ سبحانهُ وتعالَى فِي بابِ الثَّناءِ علَى المتوكِّلينَ: "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ" [آل عمران: 173، 174].

وقالَ تعالَى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" [الأنفال: 2].

التوكُّلُ لغةً:

منْ الجِّذرِ "و ك ل" وأصلهَا: اعتمادكَ علَى غيركَ(1)، تقولُ: وكَّلتهُ إليكَ أَكِلُهُ كَلَةً، أي: فوَّضتهُ، ورجلٌ وكِلٌ ووكِلةٌ وهوَ الـمواكلُ يعتمدُ علَى غيرهِ فيضيعُ أمرهُ، وتقولُ: وكلتُ باللهِ، وتوكّلتُ علَى اللهِ، ووكلتُ فلانًا إلَى اللهِ، أكِلهُ إليهِ، والوكيلُ: فعلهُ التّوكّلُ، والتوكّلُ إظهارُ العجزِ والاعتمادُ علَى غيركَ، وكذلكَ يعنِي "التُكلانُ" الذِي انقلبتْ تاؤهُ عنْ واوٍ، ومصدرُ التوكُّلِ الوكالةُ(2)، قالَ ابنُ منظورٍ: يقالُ:توكّلَ بالأمرِ إذَا ضمنَ القيامَ بهِ، ووكَّلتُ أمرِي إلَى فلانٍ أي ألجأتهُ إليهِ واعتمدتُ فيهِ عليهِ، ووكّلَ فلانٌ فلانًا إذا استكفاهُ أمرهُ؛ ثقةً بكفايتهِ، أو عجزًا عنِ القيامِ بأمرِ نفسهِ(3).

التوكُّلُ اصطلاحًا:

غلبَ استخدامُ مصطلحِ التوكُّلِ فِي توكُّلِ العبدِ علَى ربِّهِ تعالَى؛ لذَا عرَّفهُ العلماءُ أنَّهُ: الثِّقةُ بمَا عندَ اللهِ تعالَى، واليأسُ عمَّا فِي أيدِي النَّاسِ(4)، وقالَ الرَّازِي: التوكُّلُ هوَ أنْ يراعِي الإنسانُ الأسبابَ الظَّاهرةَ، ولكنْ لَا يعوِّل بقلبهِ عليهَا،

بلْ يعولُ علَى عصمةِ الحقِّ[5]، وأضافَ النّسفِي أنَّ التوكُّلَ هوَ: قطعُ العلائقِ وتركُ التملُّقِ للخلائقِ[6]، وقالَ ابنُ عاشورٍ:هوَ انفعالٌ قلبيٌّ عقليٌّ يتوجّهُ بهِ الفاعلُ إلَى اللهِ تعالَى؛ راجيًا الإعانةَ، ومستعيذًا منَ الخيبةِ والعوائقِ[7].

وقدْ نخلصُ منَ المعانِي السَّابقةِ إلَى أنَّ التوكُّلَ علَى اللهِ تعالَى هو: تفويضُ كلَّ الأمورِ الظَّاهرةِ والباطنةِ إلَى اللهِ تعالَى، معَ الثِّقةِ التامَّةِ في قدرتهِ سبحانهُ علَى جلبِ النَّفعِ ودفعِ الضرِّ.

والمتأمِّلُ فِي التَّعريفينِ اللُّغوِي والاصطلاحِي يجدُ توافقًا واضحًا بينهمَا، فالتوكُّلُ لغةً هوَ تفويضُ الأمرِ والاعتمادُ علَى الآخرِ معَ الثِّقةِ، والمعنَى الاصطلاحِي يتضمَّنُ تفويضَ الأمرِ للهِ تعالَى، والاعتمادِ عليهِ وحدهُ فِي تسييرِ الأمورِ؛ ثقةً بقدرتهِ الكاملةِ عزَّ وجلَّ.

التوكُّلُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ مادَّةُ "وكل" فِي القرآنِ سبعينَ مرَّةً[8].

والتوكُّلُ هوَ: الاعتمادُ علَى الغيرِ وتفويضُ الأمورِ لهُ، ولمْ يخرجْ فِي الاستعمالِ القرآنِي عنْ هذَا المعنَى[9].

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ:

الثِّقةُ:

الثِّقةُ لغةً:

الائتمانُ[10].

الثِّقةُ اصطلاحًا:

منْ يعتمدُ عليهِ فِي القولِ والفعلِ[11].

الصِّلةُ بينَ الثِّقةِ والتوكُّلِ:

يوجدُ تكاملٌ كبيرٌ فِي المفردتينِ، فلَا يمكنُ أنْ يتوكَّلَ الإنسانُ إلَّا علَى منْ يثقُ بهِ ويأتمنهُ علَى القيامِ بالأمرِ.

الاعتمادُ:

الاعتمادُ لغةً:

اعتمدَ علَى الشَّيءِ اتَّكأَ، واعتمدَ عليهِ فِي كذَا اتَّكلَ، ويقالُ: اعتمدَ الشّيءَ: قصدهُ وأمضاهُ، ويقالُ:اعتمدَ الرَّئيسُ الأمرَ: وافقَ عليهِ وأمرَ بإنفاذهِ[12].

الاعتمادُ اصطلاحًا:

هوَ: القصدُ إلَى الشَّيءِ والاستنادُ إليهِ معَ حسنِ الرُّكونِ[13].

الصِّلةُ بينَ الاعتمادِ والتوكُّلِ:

المفردتانِ متقاربتانِ؛ لأنَّ فِي كلتيهمَا استنادًا إلَى المعتمَدِ عليهِ معَ حسنِ الرُّكونِ والاطمئنانِ.

التَّواكلُ:

التَّواكلُ لغةً:

تواكلَ القومُ: اتَّكلَ بعضهمْ علَى بعضٍ[14].

التَّواكلُ اصطلاحًا:

هوَ التَّخاذلُ وتركِ العملِ بالأسبابِ، وانتظارِ الأمانِي[15].

الصِّلةُ بينَ التَّواكلِ والتوكُّلِ:

المفردتانِ متضادَّتانِ كلَّ التَّضادِ، فالتوكُّلُ هوَ عملُ الجوارحِ معَ توكُّلِ القلبِ، أمَّا الكسلُ عنِ الأخذِ بالأسبابِ معَ الادِّعاءِ بالتوكُّلِ هوَ حقيقةُ التَّواكلِ.

التَّفويضُ:

التَّفويضُ لغةً:

فوَّضَ إليهِ الأمرَ تفويضًا: ردَّهُ إليهِ، وجعلهُ الحاكمَ فيهِ[16].

التَّفويضُ اصطلاحًا:

هوَ: ردّ الأمرِ إلَى اللهِ تعالَى والتبرُّؤُ منَ الحولِ والقوَّةِ[17].

الصِّلةُ بينَ التَّفويضِ والتوكُّلِ:

المفردتانِ متقاربتانِ، فالتَّفويضُ والتوكُّلُ يشتركانِ فِي ردِّ الأمورِ إلَى الآخرِ فيمَا لَا تستطيعهُ قدرةُ الشَّخصِ.

دلالةُ اقترانِ التوكُّلِ بالإيمانِ والعبادةِ:

التوكُّلُ منْ أعظمِ العباداتِ المرتبطةِ بالإيمانِ؛ لذلكَ كثُرَ اقترانهُ بمصطلحيْ «العبادةِ» و«الإيمانِ»، فالتوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى هوَ أجمعُ أنواعِ العبادةِ، وأعلَى مقاماتِ التَّوحيدِ وأعظمهَا وأجلِّهَا؛ لمَا ينشأُ عنهُ منَ الأعمالِ الصَّالحةِ؛ فإنَّهُ إذَا اعتمدَ علَى اللهِ تعالَى فِي جميعِ أمورهِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ دونَ كلِّ مَا سواهُ؛ صحَّ إخلاصهُ ومعاملتهُ معَ اللهِ تعالَى،

وكذلكَ لَا يصحُّ إيمانُ الإنسانِ إذَا فسدَ توكُّلهُ، فالتوكُّلُ شرطٌ فِي الإيمانِ[18]، بدلالةِ قولِ اللهِ تعالَى: "وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" [المائدة: 23].

والصَّحيحُ أنَّ عدمَ التوكُّلِ لَا يُفسدُ الإيمانَ بلْ يُنقِصهُ إلَّا إذَا توكَّلَ علَى غيرِ اللهِ تعالَى فِي لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى فهذَا قدِ انتقضَ إيمانه وسيأتِي تفصيلهُ، وكذلكَ التوكُّلُ فهوَ شرطُ كمالٍ لَا شرطُ صحَّةٍ، وإنْ قلنَا بمَا سبقَ فإنَّ منْ لمْ يتوكَّلْ علَى اللهِ تعالَى فِي حالٍ منَ الأحوالِ نُزِعَ عنهُ الإيمانُ؟ وهذَا غيرُ صحيحٍ لأنَّ المسلمَ لَا يخلُو منْ خللٍ، فلابدَّ أنْ يفقدَ التوكُّلَ علَى اللهِ مرَّةً إنْ لمْ تكنْ مرَّاتٍ، وبذلكَ ينقصُ إيمانهُ ولَا يفسدُ، واللهُ أعلمُ.

وبمَا قلتُ أشارَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ الآيةِ السَّابقةِ: ودلَّ هذَا علَى وجوبِ التوكُّلِ، وعلَى أنَّهُ بحسبِ إيمانِ العبدِ يكونُ توكُّلهُ[19].

وبمَا يُقاربهُ قالَ ابنُ عاشورٍ: أيْ علَى اللهِ وحدهُ اعتمدُوا وثقُوا، فهوَ وكيلكمْ الأعلمُ بمَا يصلحُ لكمْ إنْ كنتمْ مؤمنينَ، وإنْ لمْ تكونُوا متوكِّلينَ فلنْ ينطبقَ عليكمْ سمتُ المؤمنينَ[20].

وفي موضع آخر قال جل وعلا: "وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ" [يونس: 84].

قالَ القرطبِي: قولهُ تعالَى وقالَ موسَى يَا قومِ إنْ كنتمْ آمنتمْ أيْ صدَّقتمْ باللهِ فعليهِ توكَّلُوا أيِ اعتمدُوا إنْ كنتمْ مسلمينَ كرَّرَ الشَّرطَ تأكيدًا، وبيَّنَ أنَّ كمالَ الإيمانِ بتفويضِ الأمرِ إلَى اللهِ تعالَى[21].

وخرجنَا منْ هذَا أنَّ التوكُّلَ شرطٌ فِي الإيمانِ، إلَّا أنَّهُ شرطُ كمالٍ لَا شرطُ صحَّةٍ.

وقدْ قُرِنَ التوكُّلُ بالعبادةِ فِي أكثرِ منْ موضعٍ، منهَا قولُ اللهِ تعالَى: "وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ" [هود: 123].

وقدْ بيّنَ الرَّازِي أنَّ أوَّلَ درجاتِ السَّيرِ إلَى اللهِ تعالَى هوَ عبوديَّةُ اللهِ تعالَى، وآخرهَا التوكُّلُ علَى اللهِ (وحدهُ)، وأنَّ هذَا هوَ السَّببُ الذِي أدّى إلَى ترتيبَ الآيةِ هكذَا: (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)، بمعنَى أنَّ المخلصَ فِي العبادةِ المؤدِّي لهَا بيقينٍ وتأمُّلٍ وصفاءٍ يصلُ بهِ التدبُّرُ إلَى عظمِ الخالقِ عزَّ وجلَّ وروعةِ إبداعهِ، وأنَّهُ لَا يملكُ أمامَ تلكَ القدرةِ المطلقةِ سوَى تفويضِ أمورهِ كلِّهَا والاعتمادِ عليهِ تعالَى فِي تسييرِ شؤونِ حياتهِ كلِّهَا(22).

ولعلَّ ترتيبَ الآيةِ السَّابقةِ يؤكِّدُ علَى مبدئِ العبادةِ والعملِ، ومنْ ثمّ تفويضُ الأمورِ للهِ تعالَى، وهذَا هوَ التوكُّل الصَّحيحُ، خلافًا لمَا يفعلهُ المتواكلونَ منَ القعودِ عنِ العملِ، وتركِ الأمورِ بحجَّةِ التَّفويضِ، وإسنادِ الأمورِ للخالقِ عزَّ وجلَّ، فاللهُ تعالَى يحبُّ العاملينَ ولَا يحبُّ المتخاذلينَ.

التوكُّل فِي حقِّ اللهِ تعالَى:

فممَّا لهُ أنْ يُعلمَ أنَّ منْ أسماءِ اللهِ تعالَى "الوكيلُ"، وقدْ حقّ لجلالهِ وعزَّتهِ وحكمتهِ هذَا الاسمُ، فعليهِ يجبُ أنْ يتوكَّلَ المؤمنونَ، وعلَى غيرهِ لَا يصحُّ التوكُّلُ؛ لأنَّ التوكُّلَ عبادةٌ قلبيَّةٌ، لَا تُصرفُ إلَّا للهِ عزَّ وجلَّ(23)، ودونكمْ بيانُ معنَى اسمِ اللهِ الوكيلِ واستحقاقهِ جلَّ وعلَا لهذَا الاسمِ:

أوَّلًا: الوكيلُ منْ أسماءِ اللهِ الحسنَى:

أثبتَ اللهُ تعالَى لنفسهِ اسمَ الوكيلِ، يقولُ الحقُّ تعالَى: " اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ"[الزمر: 62].

وقالَ تعالَى فِي موضعٍ آخرَ: " الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ "[آل عمران: 173].

والوكيلُ هوَ المتكفِّلُ باحتياجاتِ عبادهِ، وقيلَ: الموكولُ إليهِ ذلكَ، فإنَّ عبادهُ وكّلُوا إليهِ مصالحهمُ اعتمادًا علَى إحسانهِ عزَّ وجلَّ(24).

يقولُ الطُّوسِي: الوكيلُ: هوَ الموكولُ إليهِ الأمورُ، ولكنَّ الموكولَ إليهِ ينقسمُ إلَى منْ يوكَلُ إليهِ بعضُ الأمورِ، وذلكَ ناقصٌ، وإلَى منْ يوكَلُ إليهِ الكلُّ، وليسَ ذلكَ إلَّا اللهُ سبحانهُ وتعالَى، والموكولُ إليهِ ينقسمُ إلَى: منْ يستحقُّ أنْ يكونَ موكولًا إليهِ لا بذاتهِ ولكنْ بالتَّفويضِ والتَّوكيلِ، وهذَا ناقصٌ؛ لأنَّهُ فقيرٌ إلَى التَّفويضِ والتَّوليَةِ، وإلَى منْ يستحقُّ بذاتهِ أنْ تكونَ الأمورُ موكولةً إليهِ، والقلوبُ متوكِّلةٌ عليهِ لَا بتوليَةٍ وتفويضٍ منْ جهةِ غيرهِ، وذلكَ هوَ الوكيلُ المطلقُ، والوكيلُ أيضًا ينقسمُ إلَى: منْ يفِي بمَا وكّلَ إليهِ وفاءً تامًّا منْ غيرِ قصورٍ، وإلَى: منْ لَا يفِي بالجميعِ، والوكيلُ المطلقُ: هوَ الذِي الأمورُ موكولةٌ إليهِ وهوَ مليٌّ بالقيامِ بهَا، وفيٌّ بإتمامهَا، وذلكَ هوَ اللهُ تعالَى(25).

والفرقُ بينَ وكالةِ اللهِ تعالَى ووكالةِ العبادِ، أنَّ الوكيلَ صفةُ اللهِ جلَّ جلالهُ التِي تعنِي المتولِّي القائمِ بتدبيرِ (شؤونِ) خلقهِ؛ لأنَّهُ مالكٌ لهمْ رحيمٌ بهمْ، أمَّا توكيلُ العبادِ إنَّمَا يعقدُ بالتَّوكيلِ، ولَا يتضمَّنُ الرَّحمةَ(26)، لذَا حريٌّ بنَا أنْ نتوجَّهَ إلَى اللهِ جلَّ جلالهُ بالدُّعاءِ باسمهِ الوكيلَ، وبجميعِ أسمائهِ الحسنَى، فاللهُ تعالَى حقيقٌ بذلكَ، وقدْ أمرنَا بهذَا فِي قولهِ تعالَى: "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" [الأعراف: 180].

وعلَى الإنسانِ أنْ يستحضرَ لحظةَ الدُّعاءِ عزَّةَ الرُّبوبيَّةِ وذلَّةَ العبوديَّةِ، فبذلكَ يعظمُ الدُّعاءُ ويحسنُ الذكرُ(27).

ثانيًا: استحقاقُ اللهِ تعالَى للتوكّلِ لاتِّصافهِ بصفاتِ الكمالِ:

للهِ تعالَى منَ الصِّفاتِ المطلقةِ مَا يجعلنَا نسارعُ إلَى عبادتهِ، ونجتهدُ فِي التوكُّلِ عليهِ، توقًا إلَى رحمتهِ، وحرصًا علَى استحقاقِ جنَّتهِ، فمنْ أهمِّ مَا يجعلُ المؤمنَ يتوكَّلُ علَى ربِّهِ عزَّ وجلَّ:

1) سعةُ علمهِ جلَّ جلالهُ:

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هوَ العليمُ، وعلمهُ واسعٌ لَا تدركهُ العقولُ، فقدْ أثبتَ العلمَ المطلقَ لنفسهِ تباركَ وتعالَى وقالَ: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" [الأنفال: 61].

وأثبتهَا لهُ صفوةُ عبادهِ المؤمنينَ، فقدْ وردتْ علَى لسانِ أنبياءِ اللهِ الكرامِ، كقولِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهمَا الصَّلاةُ

السَّلامُ: "وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" [البقرة: 127].

وأيضًا أثبت العلم المطلق لله تعالى يعقوب عليه السلام في قوله: "قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" [يوسف: 83].

وقالَ تعالَى عنْ مريمَ بنةِ عمرانَ: "إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " [آل عمران: 35].

والعليمُ يعنِي: أنَّ اللهَ تعالَى يحيطُ بكلِّ شيءٍ علمًا، ظاهرهُ وباطنهُ، دقيقهُ وجليلهُ، أوَّلهُ وآخرهُ، عاقبتهُ وفاتحتهُ، فمعلوماتهُ تعالَى لَا نهايةَ لهَا، وكذلكَ وضوحهَا وكشفهَا علَى أتمِّ مَا يمكنُ فيهِ، بحيثُ لَا يتصوَّرُ مشاهدةٌ وكشفٌ أظهرَ منهُ، ثمَّ لَا يكونُ تعالَى مستفيدًا منَ المعلوماتِ، بلْ تكونُ المعلوماتُ مستفادةٌ منهُ، فهوَ تعالَى الذِي يمدّ بالعلمِ منْ يشاءُ(28)، وهذَا العلمُ الإلهِي يجعلنَا نسلِّمُ أمورنَا متوكِّلينَ علَى اللهِ تعالَى؛ فنحنُ الجاهلونَ وهوَ الأعلمُ بحالنَا وبمَا يصلحُ لشؤونِ ديننَا ودنيانَا، وهوَ الرَّاضِي عنَّا بهذَا التوكُّلِ، وهوَ كافينَا مَا أهمّنَا.

2) سعةُ رحمتهِ سبحانهُ:

وصفَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذاتهُ المقدَّسةَ بالرَّحمةِ الواسعةِ، فقدْ قالَ تعالَى: "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ" [الأعراف: 156].

وقالَ أيضًا: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" [البقرة: 160].

وتقرَّرتِ الصِّفةُ مرَّةً أخرَى فِي موضعٍ ليسَ ببعيدٍ عنِ الموضعِ السَّابقِ فِي قولِه تعالَى: "وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ "[البقرة: 163].

وقدْ أثبتَ صفةَ الرَّحمةِ للهِ تعالَى أنبياءُ اللهِ الكرامُ، فقدْ قالَ تعالَى عنْ موسَى: "وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"[البقرة: 54].

وعنْ سليمانَ "إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ "[النمل: 30].

وأثبتهَا لهُ تعالى نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ فقالَ تعالَى: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"[الأحقاف: 8].

ورحمةُ اللهِ تعالَى هيَ تفضُّلهُ وكرمهُ علَى المؤمنينَ، فقدْ أوجبَ تعالَى الرَّحمةَ علَى نفسهِ تفضلًا وإحسانًا، ولمْ يوجبهَا عليهِ أحدٌ[29] فِي قولهِ: "كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ"[الأنعام: 12].

فهوَ الممتنُّ عليهمْ بعطائهِ الجزيلِ، وهوَ الذِي يتوبُ علَى عبادهِ، يقولُ الطبريُّ: يقولُ تعالَى ذكرهُ: إنَّ هؤلاءِ العادلينَ بِي الجاحدينَ نبوَّتكَ يَا محمَّدُ، إنْ تابُوا وأنابُوا قبلتُ توبتهمْ، وإنِّي قدْ قضيتُ فِي خلقِي: أنَّ رحمتِي وسعتْ كلَّ شيءٍ[30]، ونحنُ نقولُ: إذَا كانتْ هذهِ رحمتهُ بالمعرضينَ عنهُ، فكيفَ

تكونُ رحمتهُ بالمقبلينَ عليهِ، السَّاجدينَ بينَ يديهِ، المتوكِّلينَ عليهِ فِي تسييرِ أمورهمْ، وكيفَ لهمْ ألَّا يتوكَّلُوا إذَا مَا علمُوا عطفهُ علَى عبادهِ ورفقهُ بهمْ، ورحمتهُ فيمَا يقدّرُ لهمْ منْ مقاديرَ!

3) عزَّتهُ وقوَّتهُ تعالَى:

إنَّ عزاءَ المؤمنِ المظلومِ والمقهورِ فِي هذهِ الدُّنيَا يقينهُ أنَّ اللهَ تعالَى هوَ القويُّ العزيزُ، الذِي لَا تضيعُ عندهُ الحقوقُ ولَا يفلتُ منْ عقابهِ الظالمونَ.

قالَ تعالَى: "فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ" [هود: 66].

وتتجلَّى قوَّةُ اللهِ وعزتُّهُ تعالَى فِي الآيةِ: كونهُ تعالَى قدْ أوصلَ العذابَ إلَى الكفَّارِ بصالحٍ عليهِ السَّلامُ، وصانَ أهلَ الإيمانِ عنهُ، وهذَا لَا يصحّ إلاّ منَ القادرِ الذِي يقدرُ علَى قهرِ طبائعِ الأشياءِ، فيجعلُ الشّيءَ الواحدَ بالنّسبةِ إلَى إنسانٍ بلاءً وعذابًا، وبالنِّسبةِ إلَى آخرَ راحةً وريحانًا[31].

وقالَ تعالَى: "اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ "[الشورى: 19].

أي: أنَّ ربَّ العزَّةِ ذُو لطفٍ بعبادهِ مؤمنهمْ وكافرهمْ، فهوَ الذِي يطعمهمْ ويسقيهمْ، وحتَّى فِي خلواتِ المعصيةِ يمرّرُ إليهمُ الهواءَ فيحييهمْ، وهوَ تعالَى علَى كرمهِ معهمْ قادرٌ علَى أخذهمْ بقوَّتهِ التامَّةِ؛ فهوَ الذِي لَا يعجزهُ شيءٌ، وهوَ العزيزُ فِي انتقامهِ إذَا أرادَ الانتقامَ منْ أحدٍ[32].

وقدِ ابتلَى اللهُ ابنَ آدمَ بالموتِ؛ ليرَى نتيجةَ عملهِ، واللهُ هوَ العزيزُ المنتقمُ منَ الظالمينَ، القابلِ توبةَ التَّائبينَ(33): "الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ" [الملك: 2].

والذِي يفهمُ بحقٍّ معنَى عزَّةِ اللهِ تعالَى وقوَّتهِ، ويدركُ أنَّ اللهَ مقتصٌّ منَ الظَّالمينَ، ناصرٌ للطَّائعينَ عاجلًا كانَ أمْ آجلًا، سيفوّضُ أمورهُ كلَّهَا للهِ تعالَى واثقًا متوكِّلًا موقنًا أنَّهُ لنْ يضيعَ لهُ حقٌّ.

4) حكمتهُ تعالَى:

منْ أسماءِ اللهِ تعالَى: الحكيمُ، فهوَ سبحانهُ صاحبُ الحكمةِ المطلقةِ.

يقولُ عزَّ وجلَّ: "وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ" [الأنعام: 18].

قالَ ابنُ القيِّمِ: الحكمةُ: فعلُ مَا ينبغِي، علَى الوجهِ الذِي ينبغِي، فِي الوقتِ الذِي ينبغِي(34).

وقالَ الطُّوسِي: الحكمةُ: هيَ معرفةُ أفضلِ الأشياءِ بأفضلِ العلومِ... ولَا يعرفُ كنهَ معرفتهِ غيرهُ، فهوَ الحكيمُ الحقُّ؛ لأنَّهُ يعلمُ أجلّ الأشياءِ بأجلّ العلومِ، إذْ أجلّ العلومِ هوَ العلمُ الأزليُّ الدَّائمُ الذِي لَا يُتصوَّرُ زوالهُ، المطابقُ للمعلومِ مطابقةً لَا يتطرَّقُ إليهَا خفاءٌ ولَا شبهةٌ، ولَا يتصِّفُ بذلكَ إلَّا علمُ اللهِ سبحانهُ وتعالَى، وقدْ يقالُ لمنْ يحسنُ دقائقَ الصِّناعاتِ ويحكمهَا ويتقنُ صنعتهَا حكيمٌ، وكمالُ ذلكَ أيضًا ليسَ إلَّا للهِ تعالَى، فهوَ الحكيمُ الحقُّ(35).

وقدْ أثبتتْ آياتُ القرآنِ الكريمِ هذهِ الصِّفةَ للهِ تعالَى، قالَ جلَّ وعلَا علَى لسانِ ملائكتهِ الكرامِ عليهمُ الصَّلاةُ والسّلامُ: "قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" [البقرة: 32].

وقال على لسان يوسف عليه السلام: "وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" [يوسف: 100].

وفِي الآيةِ الأخيرةِ تقريرٌ لحكمةِ اللهِ العليمِ، فقدْ مرَّتْ بيوسفَ عليهِ السَّلامُ ظروفٌ صعبةٌ، ابتداءً منْ إلقائهِ فِي الجبِّ وانتهاءً بسجنهِ واتِّهامهِ ظلمًا، إلَّا أنَّ نبيَّ اللهِ المعصومِ يعلمُ أنَّ ربَّهُ حكيمٌ، يجرِي كلَّ حدثٍ بمرادٍ دقيقٍ، وبمَا تقتضيهِ مصلحةُ الإنسانِ(36)، فإذَا تيقَّنَ المرءُ منْ وجودِ الحكمةِ فِي تقديرِ اللهِ تعالَى وتدبيرهِ، فسيتركُ التفكيرَ، ويقطعَ السعيَ فيمَا ليسَ للبشرِ قدرةٌ عليهِ، وسيفوّضُ أمورهُ كلَّهَا لخالقهِ الحكيمِ العالمِ بمرادِ البشرِ، المتوكِّلِ بمصالحهمْ.

ثالثًا: نفيُ كمالِ الإيمانِ عنْ غيرِ المتوكِّلِ علَى اللهِ تعالَى:

التوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى واجبٌ وشرطٌ لحصولِ (كمالِ) الإيمانِ، و(أمَّا) انتفاؤهُ (بالكليَّةِ) انتفاءٌ للإيمانِ بمقتضَى قولِ اللهِ تعالَى(37): "وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ" [يونس: 84].

أقسامُ التوَّكُّلِ:

فلأنَّ التوكُّلَ عبادةٌ قلبيَّةٌ، فلَا يصحُ صرفهُ لغيرِ اللهِ تعالَى، فهذَا ضربٌ منَ الشِّركِ.

وقدْ قسّمَ العلماءُ التوكُّلَ علَى غيرِ اللهِ تعالَى إلَى قسمينِ:

الأوَّلُ: التوكُّلُ علَى غيرِ اللهِ فِي الأمورِ التِي لَا يقدرُ عليهَا إلَّا اللهُ؛ كالذينَ يتوكَّلونَ علَى الأمواتِ، ويطوفونَ بالقبورِ استشفاءً أو طلبًا للنَّصرِ والرِّزقِ، فهذَا شركٌ أكبرٌ.

الثَّانِي: التوكُّلُ علَى غيرِ اللهِ فِي الأمورِ التِي يقدرُ عليهَا العبادُ؛ كأنْ يتوكَّلَ علَى وزيرٍ أوْ أميرٍ فِي مَا جعلهُ اللهُ فِي يدهِ منْ سلطةٍ أوْ وظيفةٍ، فِي جلبِ مصلحةٍ أو دفعِ أذًى، فهذَا ينافِي كمالَ الإيمانِ ويضعفهُ.

والوكالةُ الجائزةُ: هيَ توكيلُ الإنسانِ فِي فعلٍ مقدورٍ عليهِ، ولكنْ ليسَ لهُ أنْ يتوكَّلِ عليهِ، وإنْ وكّلهُ، بلْ يتوكَّلُ علَى اللهِ تعالَى ويعتمدُ عليهِ فِي تيسيرِ مَا وكّلَ صاحبهُ فيهِ(38).

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ: ومَا رجَا أحدٌ مخلوقًا أوْ توكَّلَ عليهِ إلَّا خابَ ظنَّهُ فيهِ فإنَّهُ مشركٌ(39).

وقدَ قالَ ربُّ العزَّةِ: "حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ" [الحج: 31].

والمشركُ المتوكِّلُ علَى غيرِ اللهِ فِي مَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى أوْ فِي مَا يقدرُ عليهِ عبادهُ، يوقعُ اللهُ فِي قلبهِ التعلُّقَ بالمخلوقينَ، فيخافهمْ ويرجوهمْ فيحصلُ لهُ رعبٌ، كمَا قالَ تعالَى: "سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ" [آل عمران: 151].

والخالصُ منَ الشِّركِ يحصلُ لهُ الأمنُ واطمئنانُ النَّفسِ والتعفُّفِ عنْ سؤالِ النَّاسِ[40].

(1) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١٣٦/٦.
(2) انظر: العين، الفراهيدي ٤٠٥/٥، مختار الصحاح، الرازي ٣٤٤/١.
(3) لسان العرب ٧٣٤/١١.
(4) التعريفات، الجرجاني ٧٠/١.
(5) مفاتيح الغيب ٤١٠/٩.
(6) مدارك التنزيل ٤٣٩/١.
(7) التحرير والتنوير ١٥١/٤.
(8) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٦٢-٧٦٣، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ١٤٢٥-١٤٥٣.
(9) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٣٣٦/٤-٣٣٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢٦٦/٥-٢٧٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٦٠٧-٦٠٨.
(10) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٤٥٠/٢٦.
(11) التوقيف، المناوي ١١٦/١.
(12) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣٠٢/٣، مختار الصحاح، الرازي، ٢١٨/١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٦٢٦/٢.
(13) الكليات، الكفوي ١٥١/١.
(14) العين، الفراهيدي ٢٦٦/٢.
(15) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٤٢/٤.
(16) تاج العروس، الزبيدي ٤٩٦/١٨.
(17) التوقيف، المناوي ١٠٤/١.
(18) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، صالح الفوزان ٧٨/١.
(19) تفسير السعدي.
(20) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠٣/١٣.
(21) انظر: تفسير القرطبي.
(22) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤١٤/١٨.
(23) انظر: الجواب الكافي، ابن القيم ١٣٧/١.
(24) انظر: المواقف، الإيجي ٣٢٢/٣.
(25) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص١٢٩.
(26) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ٥٧٧/١.
(27) انظر: مراح لبيد، محمد الجاوي ٤٠٩/١.
(28) انظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، الطوسي ص٨٦.
(29) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الهراس ص١٠٧.
(30) جامع البيان ١٠٧/١.
(31) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥١٧/١٠.
(32) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٦٠٥/٤.
(33) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٠٥/٢٣.
(34) مدارج السالكين ٤٤٩/٢.
(35) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص١٢٠.
(36) انظر: تفسير الشعراوي ٧٠٨٦/١٢.
(37) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٦/٧.
(38) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالوهاب ٤٢٨/١.
(39) الفتاوى الكبرى ٢٣٢/٥.
(40) انظر: المصدر السابق ٢٣٢/٥.

قالَ تعالَى: "الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ" [الأنعام: 82].

ولعلَّ منْ أهمِّ قوادحِ التوكُّلِ التِي نراهَا فِي هذهِ الأيامِ اعتمادُ المسلمينَ علَى الرُّقيةِ لاَ بذاتِهَا أنَّهَا كلامُ اللهِ تعالَى، بلْ يعتمدُ فيهَا علَى شخصٍ معيَّنٍ، أوِ العلاجِ علَى يدِ طبيبٍ بعينهِ اعتقادًا بقدرتِهمَا علَى الشِّفاءِ، وهذَا الأمرُ منافٍ للتوكُّلِ الصَّحيحِ الذِي يعتمدُ علَى رجاءِ اللهِ تعالَى أوَّلًا، ثمَّ عملِ مَا يلزمُ بواسطةِ البشرِ معَ عدمِ تعليقِ الأملِ علَى أشخاصِهمْ ثانيًا.

دوافعُ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى:

للتَّوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى دافعانِ رئيسانِ، وهمَا: الإيمانُ باللهِ تعالَى، والإيمان بالقدرُ خيرِه وشرِّهِ:

أوَّلًا: الإيمانُ باللهِ تعالَى:

التوكُّلُ مبنيٌّ علَى الإيمانِ، لقولِ اللهِ تعالَى: "وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" [المائدة: 23].

قالَ ابنُ القيِّمِ: فذكرُ اسمَ الإيمانِ هَاهنَا دونَ سائرِ أسمائِهمْ دليلٌ علَى استدعاءِ الإيمانِ للتوكُّلِ، وإنَّ قوَّةَ التوكُّلِ وضعفهِ بحسبِ قوَّةِ الإيمانِ وضعفهِ، وكلَّمَا قويَ إيمانُ العبدِ كانَ توكُّلهُ أقوَى، وإذَا ضعفَ الإيمانُ ضعفَ التوكُّلُ، وإذَا كانَ التوكُّلُ ضعيفًا، فهوَ دليلٌ علَى ضعفِ الإيمانِ ولَا بدَّ، واللهُ تعالَى يجمعُ بينَ التوكُّلِ والعبادةِ، وبينَ التوكُّلِ والإيمانِ، وبينَ التوكُّلِ والإسلامِ، وبينَ التوكُّلِ والتقوَى، وبينَ التوكُّلِ والهدايةِ(41).

وانتفاءُ التوكُّلِ يعني انتفاءُ الإيمانِ، يقولُ المولَى عزَّ وجلَّ: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" [الأنفال: 2، 3].

هذَا وقدْ ذهبَ بعضُ العلماءِ إلَى أنَّ الآيةَ تعنِي أنَّ منِ اتَّصفَ بتلكَ الأوصافِ هوَ المؤمنُ كاملُ الإيمانِ، بينمَا منْ لمْ يتَّصفْ بهَا هوَ مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، فلَا ينتفِي عنهُ الإيمانُ بالجملةِ[42]، لكنَّ المتأمِّلَ فِي الآيةِ وفِي معنَى التوكُّلِ يعلمُ أنَّ التوكُّلَ أمرٌ عقديٌّ، لذَا يستبعدُ أنْ يكونَ المتوكِّلُ علَى غيرِ اللهِ تعالَى فِي مَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى مؤمنًا إيمانًا ناقصًا، بلْ يرجّحُ انتفاءُ الإيمانِ عنهُ، والمتوكِّلُ علَى غيرِ اللهِ تعالَى في مَا يقدرُ عليهِ عبادهُ هوَ مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، واللهُ أعلى وأعلم.

ثانيًا: الإيمانُ بالقدرِ:

الإيمانُ بالقدرِ منْ أهمِّ مَا يدفعُ المسلمَ إلَى التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى؛ فالذِي يعلمُ يقينًا أنَّ اللهَ تعالَى قدْ قدّرَ حياتهُ ومعادهُ ورزقهُ وذريَّتهُ وزوجهُ وأمورَ معاشهِ كلَّهَا، لَا يتوانَى فِي تسليمِ أمورهِ كلِّهَا للهِ، ولَا يقلقُ ولَا يجزعُ منَ المستقبلِ، فالذِي خلقهُ هوَ منْ قدّرَ سيرَ حياتهِ، فيعيشُ مطمئنَّ البالِ راضيًا بمَا كتبَ اللهُ لهُ، لَا يلهثُ وراءَ الدُّنيا ولَا يتكالبُ علَى المناصبِ والأرزاقِ، فاللهُ تعالَى قدْ كتبَ لهُ مقدارًا منَ الخيرِ سيأتيهِ دونَ غيرهِ.

قالَ تعالَى: "وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ

(70)وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ "[النحل: 70، 71، 72].

وعنْ محمَّدٍ بنِ عمرانَ قالَ: قيلَ لحاتمٍ الأصمِّ: علَى مَا بنيتَ أمركَ هذَا منَ التوكُّلِ؟ قالَ: أربعُ خلالٍ:

علمتُ أنَّ رزقِي ليسَ يأكلهُ غيرِي، فلستُ أشغلُ بهِ.

وعلمتُ أنَّ عملِي لَا يعملهُ غيرِي، فأنَا مشغولٌ بهِ.

وعلمتُ أنَّ الموتَ يأتينِي بغتةً، فأنَا أبادرهُ.

وعلمتُ أنِّي بِعَيْنِ اللهِ فِي كلِّ حالٍ، فأنَا مستحيٍ منهُ(43).

والتوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى لَا يعنِي تركَ الأسبابِ بحجَّةِ كونِ الأمورِ مقدَّرةٌ عندَ اللهِ، فتركُ الأسبابِ بدعوَى التوكُّلِ لَا يكونُ إلَّا عنْ جهلٍ بالشَّرعِ أوْ فسادٍ فِي العقلِ، فالتوكُّلُ محلُّهُ القلبُ، والعملُ بالأسبابِ محلُّهُ الأعضاءُ والجوارحُ، ولَا يكملُ التَّوكلُ إلَّا بالعملِ، فالمؤمنُ يعملُ ويأخذُ بالأسبابِ ثمَّ يتوكَّلُ علَى اللهِ تعالَى فِي جلبِ المنفعةِ(44).

وقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بأخذِ الأسبابِ فِي كلِّ الأحوالِ، تأمَّلْ قولَ اللهِ تعالَى: "فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ"[الملك: 15].

فبالرُّغمِ منْ كونِ الرِّزقَ مقدَّرًا إلَّا أنَّنَا مأمورونَ بالسَّعيِ منْ أجلهِ، وبالاجتهادِ فِي استصلاحِ الأرضِ والحصولِ علَى ثرواتهَا(45).

وانظرْ قولهُ تعالَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا "[النساء: 71].

فالحذرُ عملٌ بأسبابِ النَّصرِ، وكذلكَ الاستعدادُ للمعركةِ منْ عواملِ النَّصرِ، قالَ تعالَى: "وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ"[الأنفال: 60].

وفِي الآيةِ: تنبيهٌ إلَى ضرورةِ الاستعدادِ وعدمِ الاتِّكالِ علَى حسنِ النَّوايَا وطيبِ الهدفِ، فيجبُ ألَّا نقصرَ فِي إعدادنَا للقوَّةِ التِي تعيننَا علَى ملاقاةِ الأعداءِ ونبذلَ فِي سبيلِ ذلكَ جهودنَا وأموالنَا؛ حتَّى نستحقَّ نصرَ اللهِ وتأييدهُ(46)، وتدبَّرْ قولَ يعقوبَ عليهِ السَّلامُ لابنهِ يوسفَ: "قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ"[يوسف: 5].

فقدْ أمرَ يعقوبُ ابنهُ يوسفَ عليهمَا السَّلامُ أنْ يجتنبَ ذكرَ أمرِ الرُّؤيَا أمامَ إخوتهِ، علَى الرُّغمِ منْ فهمهِ ويقينهِ أنَّ اللهَ سيجعلُ ليوسفَ مستقبلًا عظيمًا، إلَّا أنَّ هذَا لَا يمنعُ منْ صيانةِ الإنسانِ لنفسهِ وحفظهِ لأمورهِ منَ الحسدِ والكيدِ(47).

مواطنُ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى:

يدخلُ التوكُّلُ فِي تفاصيلِ حياةِ المسلمِ كلِّهَا، فلَا يخلُو سلوكُ المؤمنِ منِ استحضارِ التوكُّلِ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ فِي جميعِ أمورهِ، ومنْ تلكَ المواطنِ التِي نتوكَّلُ فيهَا علَى اللهِ تعالَى:

أوَّلًا: تحقيقُ المصالحِ ودفعُ المضارِّ:

يمرُّ الإنسانُ فِي حياتهِ بلحظاتٍ يكونُ فيهَا بأمسِّ الحاجةِ إلَى توفيقٍ ربانيٍّ وحفظٍ إلهيٍّ، فالدِّراسةُ للامتحانِ والاجتهادُ

وحدهُ ليسَ كافيًا للحصولِ علَى درجةٍ عاليةٍ، أوِ التَّنافسُ علَى وظيفةٍ راقيةٍ، ووجودُ الزَّوجةِ ليسَ ضامنًا لإنجابِ الذريَّةِ، ووجودُ الذريَّةِ ليسَ مؤشرًا علَى الرَّاحةِ عندَ الكبرِ، وكلُّ مَا يفعلهُ الإنسانُ منِ اجتهاداتٍ لَا يغيِّرُ شيئًا؛ لوْ لمْ يقترنْ بحفظِ اللهِ تعالَى ونصرهِ وتسديدهِ.

يقولُ المولَى عزَّ وجلَّ: "إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" [آل عمران: 160].

وفِي الآيةِ: خطابٌ للمؤمنينَ أنَّهُ إنْ ينصركمْ اللهُ ويثبِّتكمْ ويوفِّقكمْ فلنْ يستطيعَ أحدٌ خذلانكمْ أوْ مضرَّتكمْ، وإنْ تركَ اللهُ نصرتكمْ فلنْ يستطيعَ أحدٌ نفعكمْ، فتوكَّلُوا علَى ربِّكمْ وثقُوا بنصرهِ، وفوِّضُوا جميعَ أموركمْ إليهِ؛ حتَّى تنالُوا إسنادهُ وتوفيقهُ ونصرتهُ[48].

قالَ الرَّاغبُ الأصفهانِي: إنَّ حصلَ لكمْ النُّصرةُ فلَا تعتدّوا مَا يعرضُ منَ العوارضِ الدنيويَّةِ فِي بعضِ الأحوالِ غلبةً، وإنْ خذلكمْ فِي ذلكَ فلَا تعتدّوا مَا يحصلُ لكمْ منَ القهرِ فِي الدُّنيَا نصرةً، فالنُّصرةُ والخذلانُ معتبرانِ بالمآلِ[49].

وفِي السنَّةِ النبويَّةِ مَا يدلُّ علَى دوامِ توكلِّ النبيِّ ﷺ قولًا وفعلًا، منْ ذلكَ مَا وردَ عنِ ابنِ عباسٍ: "كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذَا قامَ منَ اللَّيلِ يتهجدُ، قالَ: اللهمَّ لكَ الحمدُ، أنتَ نورُ السَّمواتِ والأرضِ ومنْ فيهنَّ، ولكَ الحمدُ، أنتَ قيِّمُ السَّمواتِ والأرضِ ومنْ فيهنَّ، ولكَ الحمدُ، أنتَ الحقُّ، ووعدكَ حقٌ، وقولكَ حقٌ، ولقاؤكَ حقٌّ، والجنَّةُ حقٌّ، والنَّارُ حقٌّ، والسَّاعةُ حقٌّ، والنبيونَ حقٌّ، ومحمَّدٌ حقٌّ، اللهمَّ لكَ

أسلمتُ، وعليكَ توكَّلتُ، وبكَ آمنتُ، وإليكَ أنبتُ، وبكَ خاصمتُ، وإليكَ حاكمتُ، فاغفرْ لِي مَا قدَّمتُ ومَا أخَّرتُ، ومَا أسررتُ ومَا أعلنتُ، أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ، لَا إلهَ إلَّا أنتَ، أوْ قالَ: لَا إلهَ غيركَ)[50].

فدعاؤهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ دليلٌ علَى توكُّلهِ القوليِّ، واجتهادهِ فِي التنبُّهِ ليلًا والتوجُّهِ إلَى اللهِ بالصَّلاةِ والدُّعاءِ والرَّجاءِ علَى الرُّغمِ منْ كونهِ نبيُّ هذهِ الأمَّةِ، وأوُّلُ منْ يدخلُ الجنَّةَ علَى الإطلاقِ؛ دليلٌ علَى أهميَّةِ العملِ لأجلِ طاعةِ اللهِ ولاستحقاقِ رحمتهِ وجنَّتهِ، هذَا إلَى جانبِ مواقفهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ التِي يصعبُ عدّهَا والتِي جسّدَ لنَا فيهَا القدوةَ الرَّائعةَ للتوكُّلِ علَى اللهِ تعالِى.

فعلَى المؤمنِ أنْ يقتدِي برسولهِ الكريمِ ﷺ فِي كلِّ أحوالهِ فهوَ الذِي علَّمنَا ألَّا ندعَ التوكُّلَ علَى اللهِ فِي كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ؛ فهوَ راحةٌ وطمأنينةٌ واستقرارٌ للرِّضَا فِي قلبِ المؤمنِ، بالإضافةِ إلَى أنَّهُ يعودُ علَى الإنسانِ بالعزَّةِ والاستغناءِ عنِ البشرِ.

قالَ اللهُ تعالَى: "وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ" [الطلاق: 3] أي: كافيهِ ومغنيهِ عمَّنْ سواهُ[51].

فيجبُ أنْ نأخذَ بالأسبابِ وكأنَّهَا كلُّ شيءٍ، وينبغِي أنْ نتوكَّلَ علَى اللهِ وكأنَّ الأسبابَ ليستْ بشيءٍ، فكأنَّ الطَّريقَ الصَّحيحَ عنْ يمينهِ وادٍ سحيقٌ، وعنْ يسارهِ وادٌ سحيقٌ، إنْ أخذنَا بالأسبابِ واعتمدنَا عليهَا فقدْ وقعنَا فِي وادِي الشِّركِ، وإنْ لمْ نأخذْ بهَا وقعنَا فِي وادِي المعصيةِ والتَّواكلِ، لكنَّ الموقفَ الأعقلَ والأكملَ أنْ نأخذَ بالأسبابِ؛ لأنَّهَا طريقُ الأهدافِ، ثمَّ

نتوكَّلُ علَى اللهِ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ جلالهُ لَا يمكنُ أنْ يعطِي لهذهِ الأسبابِ فاعليةً إلَّا بمشيئتهِ وقدرتهِ.

ويكفينَا حديثُ عمرُو بنُ أميَّةَ قالَ: قالَ رجُلٌ لِلنَّبيِّ ﷺ: أُرسِلُ ناقتي وأتوكَّلُ؟ قال : اعقِلْها وتوكَّلْ)"[52].

ثانيًا: الجهادُ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى:

التوكُّلُ فِي ميدانِ الجهادِ فِي سبيلِ اللهِ منْ أهمِّ الأمورِ التِي تعودُ علَى المؤمنينَ بالنَّصرِ والتَّوفيقِ، وقدوتنَا فِي ذلكَ نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ صاحبُ السِّيرةِ الزَّاخرةِ بالتوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى، وجهادهِ منذُ نزولِ الوحيِ عليهِ وبدئهِ الدَّعوةِ السرِّيةِ، ثمَّ انتقالهِ للدَّعوةِ الجهريِّةِ، فالهجرةِ والحروبِ كلِّهَا تجسيدٌ لهذَا الأدبِ العظيمِ الذِي لَا بدَّ أنْ نحتذيهِ فِي جهادنَا ضدَّ أعداءِ الإسلامِ.

قالَ تعالَى: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159) إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ (160)" [آل عمران: 159، 160].

وانطلاقًا منَ الأمرِ الإلهيِّ بالتوكُّلِ سلكَ النبيُّ ﷺ مسلكَ الثِّقةِ واتِّخاذِ الأسبابِ فِي شؤونِ الجهادِ والهجرةِ.

فقدْ رتَّبَ أمورَ الهجرةِ بشكلٍ دقيقٍ حتَّى يتجنَّبَ اللَّحاقَ بهِ منْ قبلِ المشركينَ، وقدْ حرصَ علَى عدمِ إلحاقِ الأذَى بالمسلمينَ فجعلهمْ يهاجرونَ قبلهُ، وأبقَى معهُ أبَا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ،

وأمرهُ بتجهيزِ الدَّوابِ للسَّفرِ، ثمَّ خرجَ خروجَ الواثقِ بربِّهِ المستندِ إلَى الحقِّ، فمرَّ منْ بينِ المشركينَ وهمْ ينتظرونَ رؤيتهُ ليقتلوهُ، فأرادَ اللهُ لعبدهِ المتوكِّلِ النَّصرَ، فأعمَى أبصارهمْ وحفَّهُ برعايتهِ سبحانهُ وتعالَى.

ثمَّ التقَى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بحبيبهِ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ، فانطلقَا تحفُّهمَا رعايةُ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، واتَّخذَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دليلًا خبيرًا ليدلَّهُ علَى الطَّريقِ، كمَا استعانَ بمنْ يمسحُ آثارَ خيلهِ أثناءَ الرِّحلةِ حتَّى لَا يكتشفَ المشركونَ أمرهُ.

وقدْ أطالَ الرِّحلةَ التِي تحتاجُ ثلاثةَ أيَّامٍ إلَى أسبوعٍ؛ تحقيقًا للأمنِ، وتمويهًا للعدوِّ، فأدلجَ إلَى غارِ ثورٍ حتَّى يهدأَ الطَّلبُ وتفترَ الهممُ فِي اقتفاءِ أثرهِ، فيتمكَّنَ منَ السَّيرِ وهوَ آمنٌ، وطلبَ فِي هذهِ الفترةِ منِ ابنِ أبِي بكرٍ موافاتهُ بأخبارِ المشركينَ أوَّلًا بأوَّلٍ، واختارَ أسماءَ بنتِ أبِي بكرٍ لتزويدهمْ بالغذاءِ؛ فقدْ كانتْ تستعدُّ للمخاضِ ولمْ تكنْ تحرُّكاتهَا لتثيرَ شكوكَ قريشٍ.

ورغمَ بذلهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ للجهدِ فِي التخفِّي إلَّا أنَّ قريشًا وصلتْ إلَى الغارِ! لكنَّ لَا يخشَى منْ وثقَ باللهِ وبذلَ فِي سبيلِ ذلكَ كلَّ الأسبابِ، فلَا يضيِّعُ اللهُ عملَ المتوكِّلِ العاملِ، فكانَ مطمئنًّا ومثبِّتًا لقلبِ أبِي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ[53].

قالَ تعالَى: "إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا

وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [التوبة: 40].

فاظرْ إِلَى النَّبيِّ الكريمِ القدوةِ الذِي لمْ يركنْ إِلَى أنَّهُ رسولٌ منْ ربِّ العالمينَ بعثَهُ ليبلِّغَ دينهُ، ولمْ ينتظرْ النُّصرةَ وهوَ قاعدٌ فِي بيتهِ، فالإنسانُ وإنْ سمتْ رسالتهُ وتعلَّقتْ باللهِ تعالَى عليهِ أنْ يبذلَ منْ أجلهَا الأسبابَ؛ حتَّى تتحقَّقَ الغايةُ منهَا.

وفِي حروبهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معَ المشركينَ نماذجُ كثيرةٌ منْ التوكُّلِ، أهمُّهَا غزوةُ بدرٍ، أولَى الغزواتِ التِي خرجَ فيهَا المسلونَ للقاءِ منْ يفوقهمْ عدَّةً وعتادًا، خرجُوا واثقينَ بنصرِ اللهِ مصطحبينَ مَا استطاعُوا جمعهُ منْ عتادٍ، وقدْ لَا نتصوَّرُ اطمئنانَ هذهِ الفئةِ وهمْ أمامَ جمعٍ غفيرٍ منَ الجنودِ المدجَّجينَ بالسِّلاحِ الذينَ أرادُوا استئصالَ الإسلامَ، لكنَّهُ التوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى والثِّقةُ بنصرهِ التِي لَا يوازيهَا شيءٌ.

قالَ تعالَى: "إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (11) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12)" [الأنفال: 9، 10، 11، 12].

قالَ الزَّجاجُ: أمرُ بدرٍ كانَ مْن أعظمِ الآياتِ؛ لأنَّ عددَ المسلمينَ كانَ قليلًا جدًّا، وكانُوا رجّالةً، فأيدهمُ اللهُ، وكانَ المشركونَ أضعافهمْ، وأمدّهمُ اللّهُ بالملائكةِ[54].

وقدِ اجتهدَ رسولُ اللهِ ﷺ فِي الاستعدادِ لغزوةِ الأحزابِ، التِي تكالبَ فيهَا المشركونَ واليهودُ علَى المسلمينَ، وكانتْ أعدادهمْ ثلاثةَ أضعافِ عددِ المسلمينَ، لكنَّ هذَا لمْ يفتّ فِي عضدِ المؤمنينَ الصَّادقينَ، فحفرَ رسولُ اللهِ ﷺ معَ الصَّحابةِ الكرامِ الخندقَ فِي جوٍّ منَ البردِ والجوعِ، لَا يؤازرهمْ سوَى انتصارهمْ لدينِ اللهِ تعالَى.

وقدْ مَنَّ اللهُ عليهمْ بأنْ أرعبَ الأحزابَ وشرَّدهمْ[55].

قال تعالى: "وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (25) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (26) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (27)" [الأحزاب: 25، 26، 27]

فاللهُ تعالَى هوَ ناصرُ المؤمنينَ المتوكّلينَ.

قالَ السَّعدِي: لَا يغالبهُ أحدٌ إلَّا غُلبَ، ولَا يستنصرهُ أحدٌ إلَّا غَلبَ، ولَا يعجزهُ أمرٌ أرادهُ، ولَا ينفعُ أهلَ القوَّةِ والعزَّةِ، قوَّتهمْ وعزَّتهمْ، إنْ لمْ يعنهمْ بقوَّتهِ وعزَّتهِ[56].

ثالثًا: طلبُ الرِّزقِ:

التوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى فِي طلبِ الرِّزقِ سمةُ المؤمنينَ؛ لأنَّ الرِّزقَ مكفولٌ بربوبيَّةِ اللهِ تعالَى للمؤمنِ والكافرِ إنْ عملَ الاثنانِ بالأسبابِ.

يقولُ المولَى عزَّ وجلَّ: "وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62)"[العنكبوت: 60، 61، 62].

فاللهُ تعالَى يرزقُ بفضلهِ جميعَ عبادهِ، ولَا أدلّ علَى كرمهِ تعالَى منْ امتنانهِ بكنوزِ قارونَ التِي بسطهَا لهُ بسطًا، فلهُ خزائنُ السَّماواتِ والأرضِ، وهوَ الممتنُّ علَى عبادهِ بالطَّعامِ والشَّرابِ والذريَّةِ وكلِّ مَا يملكونَ، وهوَ المتكفِّلُ بأرزاقِ المستقبلِ.

قالَ تعالَى: "وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُون (23)"[الذاريات: ٢٢، ٢٣].

والآيةُ الكريمةُ تلفتُ انتباهَ الإنسانَ إلَى السَّببِ الأهمِّ للرِّزقِ، فالسَّببُ الظَّاهرُ للرِّزقِ هوَ رعايةُ الأرضِ التِي تخرجُ النَّباتَ والثَّرواتِ، لكنَّ المؤمنَ العاقلَ عليهِ أنْ يرفعَ بصرهُ نحوَ السَّماءِ؛ فالسَّببُ الحقيقيُّ للرِّزقِ هوَ اللهُ تعالَى، الذِي يرزقُ عبادهُ بفضلهِ لَا بجهدهمْ، فالأصلُ أنْ يتوكَّلَ الإنسانُ علَى اللهِ تعالَى جازمًا أنَّهُ وحدهُ هوَ المانحُ للأرزاقِ، وأنْ يعملَ بأسبابِ تلكَ الأرزاقِ حتَّى ينالَ رحمةَ اللهِ تعالَى وفضلهِ.

يقولُ سيِّدُ قطبٍ فِي تعليقهِ علَى الآيةِ: والقلبُ المؤمنُ يدركُ هذهِ اللَّفتةَ علَى حقيقتهَا، ويفهمهَا علَى وضعهَا ويعرفُ أنَّ المقصودَ بهَا ليسَ هوَ إهمالُ الأرضِ وأسبابهَا، فهوَ مكلَّفٌ بالخلافةِ فيهَا وتعميرهَا، إنَّمَا المقصودُ هوَ ألَّا يعلِّقَ نفسهُ بهَا، وألَّا يغفلَ عنِ اللهِ فِي عمارتهَا، ليعملَ فِي الأرضِ وهوَ يتطلَّعُ إلَى السَّماءِ، وليأخذَ بالأسبابِ وهوَ يستيقنُ أنَّهَا ليستْ هيَ التِي ترزقهُ، فرزقهُ مقدَّرٌ فِي السَّماءِ، ومَا وعدهُ اللهُ لَا بدَّ أنْ يكونَ[57].

وقدْ وعدَ اللهُ عزَّ وجلَّ المتوكِّلَ عليهِ بكفايتهِ ورزقهِ، قالَ تعالَى: "وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3)" [الطلاق: 2، 3].

وفِي الآياتِ بيانٌ لضرورةِ تقوَى اللهِ فِي أمورِ الطَّلاقِ أوِ الإمساكِ، وحضٌّ علَى التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى؛ لأنَّهُ الرزَّاقُ، ولأنَّ اللهَ تعالَى بالغُ أمرهِ، (سواءً) توكَّلَ الإنسانُ عليهِ أوْ لمْ يتوكَّلْ عليهِ، غيرَ أنَّ المتوكِّلَ يكفِّرُ عنهُ سيِّئاتهِ، ويعظمُ لهُ أجرًا[58]، وقدْ قسَّمَ ابنُ عجيبةَ الأسبابَ منْ حيثُ الأخذِ والتَّركِ إلَى ثلاثةِ أسبابٍ:

أوَّلهَا سببٌ معلومٌ قطعًا قدْ أجراهُ اللهُ، وهوَ سنَّةٌ منْ سننِ الدُّنيَا، فهذَا لَا يجوزُ تركهُ، كالأكلِ لرفعِ الجوعِ واللِّباسِ لرفعِ البردِ، والثَّانِي: سببٌ مظنونٌ، كالتِّجارةِ وطلبِ المعاشِ، وشبهِ ذلكَ، فهذَا لَا يقدحُ فعلهُ فِي التوكُّلِ، فإنَّ التوكُّلَ منْ أعمالِ القلوبِ لَا منْ أعمالِ البدنِ، ويجوزُ تركهُ (أي السبب) لمنْ قويَ عليهِ، لكنَّهُ أخذَ بأسبابِ الرِّزقِ وفعلهُ محمودٌ،

والثَّالثُ: سببٌ موهومٌ بعيدٌ، فهذَا يقدحُ فعلهُ فِي التوكُّلِ، ثمَّ بيّنَ أنَّ الثَّالثَ مثلَ طلبِ الكيمياءِ والكنوزِ وعلمِ النَّارِ والسِّحرِ، وشبهِ ذلكِ[59]، وأرَى أنَّ طلبَ الكنوزِ بالطُّرقِ المشروعةِ هوَ منَ الأسبابِ منَ القسمِ الثَّاني أيِ السببِ المظنونِ، لأنَّ صاحبهُ تسبَّبَ بالبحثِ والحفرِ وتوكَّلَ علَى اللهِ تعالَى فِي كلِّ ذلكَ، وهذَا الأرجحُ واللهُ أعلمُ.

قالَ الزحيليُّ: ومنْ شروطِ التوكُّلِ الصَّحيحِ: تنفيذُ الأحكامِ الشرعيَّةِ، ومراعاةِ السُّننِ المطلوبةِ فِي الحياةِ، منِ اتِّخاذِ الأسبابِ ثمَّ تفويضِ الأمرِ إلَى اللهِ تعالَى[60].

وقدْ حثَّتِ السنَّةُ النبويَّةُ علَى التوكُّلِ فِي طلبِ الرِّزقِ، فعنْ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: "لوْ أنّكمْ كنتمْ توكّلونَ علَى اللّهِ حقّ توكّلهِ لرزقتمْ كمَا يرزقُ الطّيرَ، تغدُو خماصًا، وتروحُ بطانًا"[61].

---

(41) طريق الهجرتين وباب السعادتين ٢٥٥/١.
(42) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٦٥/٧، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤٩/٣.
(43) الكشف والبيان، الثعلبي ١٩٤/٢، سير أعلام النبلاء، الذهبي ٤٨٤/١١.
(44) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٧٠/٤.
(45) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢٣٨/٨.
(46) انظر: تفسير الشعراوي ٤٧٧٥/٨.
(47) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢٥٢/٤.
(48) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١٦٢/٢.
(49) تفسير الراغب الأصفهاني ٩٥٥/٣.
(50) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل ٧٠/٨، رقم ٦٣١٧.
(51) انظر: تفسير السمرقندي، ٤٦١/٣.
(52) حديث حسن صحيح ابن حبان.
(53) انظر: الهجرة النبوية، محمد السيد الوكيل ١٧٩/١.
(54) معاني القرآن وإعرابه ٤٠٤/٢.
(55) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٦٧/٢١.
(56) تيسير الكريم الرحمن ٦٦٠/١.
(57) في ظلال القرآن ٣٣٨١/٦.
(58) انظر: جامع البيان، الطبري ٤٧/٢٣.
(59) انظر: البحر المديد ٤٢٨/١
(60) التفسير المنير ٨/٩.
(61) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب في التوكل على الله ٥٧٣/٤، رقم ٢٣٤٤.

وفِي الآنِ نفسهِ أمرَ المؤمنَ بالأخذِ بأسبابِ الرِّزقِ اقتداءً بأنبياءِ اللهِ الكرامِ، فعنِ المقدامِ رضيَ اللهُ عنهُ، عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، قالَ: "مَا أكلَ أحدٌ طعامًا قطُّ، خيرًا منْ أنْ يأكلَ منْ عملِ يدهِ، وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ عليهِ السَّلامُ، كانَ يأكلُ منْ عملِ يدهِ(62).

أمَّا تركُ الكسبِ والاعتمادِ علَى الخوارقِ والجوائزِ الربَّانيةِ فهذَا سمتُ المتقاعسينَ الذِي ذمّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ فيهِ إبطالًا لقانونِ الأسبابِ والمسبِّباتِ الذِي وضعهُ اللهُ فِي الكونِ، ودعوةً إلَى التكاسلِ والقعودِ ومخالفةً لأمرِ اللهِ تعالَى بإعمارِ الأرضِ بالعملِ.

رابعًا: الدَّعوةُ إلَى اللهِ تعالَى:

الدَّعوةُ مضمارٌ مهمٌّ يخوضهُ المسلمُ بجدٍّ وحبٍّ وإخلاصٍ مقرونٌ بالعلمِ، ولَا يتأتِى لنَا جنيُ ثمراتِ الدَّعوةِ إلَّا بعدَ التوكُّلِ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ والثِّقةِ بأنَّهُ تعالَى إنْ شاءَ أجرَى الحجَّةَ علَى لسانِ الدَّاعيةِ وقَلَمِهِ، فجعلَ القلوبَ تنجذبُ إليهِ وتنقادُ إلَى مَا يدعُو إليهِ، وإنْ لمْ يشأْ فلنْ يُكتبُ للدعوةِ نجاحٌ، مهمَا بلغتْ حجَّةُ الدَّاعيةِ، ومهمَا عظمتْ خبرتهُ.

وقدْ خلّدَ التَّاريخُ نماذجَ عديدةً منَ الدُّعاةِ المتوكِّلينَ الذينَ لمْ يعتمدُوا علَى سموِّ الهدفِ وربَّانيَّةِ مصدرِ الرِّسالةِ فحسبُ، بلِ اجتهدُوا وأخذُوا بأسبابِ النَّجاحِ حتَّى تسمُو دعوتهمْ وتنتصرَ فكرتهمْ.

قال تعالى: " وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم

مُّهْتَدُونَ (21) وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (24) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ" [يس: 20 – 26].

ولعلَّ المتأمِّلَ فِي الأسبابِ التِي اتَّخذهَا هذَا الدَّاعيةُ المخلصُ المتوكِّلُ علَى اللهِ تعالَى فِي دعوتهِ لقومهِ المكذِّبينَ يعلمُ أنَّهُ استحقَّ دخولَ الجنَّةَ بحقٍّ، ومنْ هذهِ الأسبابِ(63):

السُّرعةُ وعدمُ التباطئِ فِي الدَّعوةِ، فحينمَا استشعرَ حقيقةَ الإيمانِ، تحرَّكتْ هذهِ الحقيقةُ فِي ضميرهِ، فلمْ يتوانَ فِي الإسراعِ منْ أجلِ الدَّعوةِ إليهَا.

حضورهُ منْ أقصَى المدينةِ، وهوَ مكانٌ بعيدٌ، وهذَا يؤكِّدُ إخلاصهُ فِي الدَّعوةِ مَا جعلهُ يحتملُ مشاقَّ الطَّريقِ منْ أجلِ إنجاحِ دعوتهِ.

سعيهُ، والكلمةُ دالَّةٌ علَى إسراعهِ معَ بذلهِ الجهدَ فِي المجيءِ للدَّعوةِ؛ إنقاذًا لهمْ منْ ظلماتِ الكفرِ.

رفقهُ ولينهُ معَ قومهِ، واستعطافهُ لهمْ بقولهِ «يَا قَوْمِ».

لفتهُ أنظارهمْ إلَى ميزاتِ الأنبياءِ منْ حيثُ الاهتداءِ وعدمِ طلبِ المالِ.

مخاطبتهُ لنفسهِ منْ منطلقِ إشعارهمْ أنَّهُ يخشَى عليهمْ مَا يخشَى علَى نفسهِ ويحبُّ لهمْ مَا يحبُّ لنفسهِ، واجتهادهُ فِي تغييرِ الأساليبِ لفتًا لانتباههمْ.

تنبيههمْ إلَى أنَّ اللهَ فاطرُ النُّفوسِ وإليهِ المعادُ، وهوَ الخالقُ الذِي بيدهِ النَّفعُ والضرُّ، وعندهُ الجزاءُ بالثَّوابِ والعقابِ دونَ سواهُ.

تكرارُ الدَّعوةِ وطلبهُ أنْ يهتمّوا بسماعهِ وفهمِ مَا يقولهُ.

تحمُّلِ تعذيبهمْ لهُ مقابلَ إيصالِ الحقِّ ونشرِ دينِ اللهِ، وحرصهِ علَى إعلامهمْ بثوابِ المؤمنِ علَى الرُّغمِ منْ إيذائهمْ لهُ.

قالَ القرطبِي: وفِي هذهِ الآيةِ تنبيهٌ عظيمٌ، ودلالةٌ علَى وجوبِ كظمِ الغيظِ، والحلمِ عنْ أهلِ الجهلِ، والترؤُّفِ علَى منْ أدخلَ نفسهُ فِي غمارِ الأشرارِ وأهلِ البغيِ، والتشمُّرِ فِي تخليصهِ، والتلطُّفِ فِي افتدائهِ، والاشتغالِ بذلكَ عنِ الشماتةِ بهِ والدُّعاءِ عليهِ(64).

ولعلَّ التوكُّلَ علَى اللهِ تعالَى هوَ المسهِّلُ الرَّئيسُ للدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، فلوِ استحضرَ الإنسانُ عندَ دعوتهِ مَا قدْ يعودُ عليهِ منْ همومٍ وغمومٍ، وانتقاداتٍ وإعراضٍ، فإنَّهُ سيتركُ أمرَ الدَّعوةِ، لكنَّهُ معَ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى يشعرُ بقوَّةٍ وعزَّةٍ ومناصرةٍ منَ اللهِ تعالَى، فيهونُ عليهِ أمرُ الدَّعوةِ، ومنَ الأمورِ التِي تبعثُ الدَّاعيةَ علَى التوكُّلِ:

رسوخُ التَّوحيدِ فِي قلبهِ، وإدراكهُ لمعانِي أسماءِ اللهِ وصفاتهِ العلَا، والثِّقةُ بهِ عزَّ وجلَّ.

معرفةُ الدَّاعيةِ إمكاناتِ نفسهِ، وإدراكهُ لضعفهِ وعجزهِ إنْ حُرمَ التَّوفيقَ منَ اللهِ.

المعرفةُ بفضلِ التوكُّلِ وأحوالِ المتوكِّلينَ منَ السَّلفِ والخلفِ.

وفِي سيرةِ أنبياءِ اللهِ الكرامِ جميعًا، وهمْ أوائلُ الدُّعاةِ إلَى اللهِ تعالَى، نماذجُ عظيمةٌ منَ التوكُّلِ علَى اللهِ فِي الدَّعوةِ، وعلَى رأسهمْ إمامُ المتوكِّلينَ محمَّدٌ ﷺ.

وتأمَّلْ قولَ اللهِ تعالَى: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (128) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129)" [التوبة: 128، 129].

وقدْ بيّنَ اللهُ تعالَى فضلَ النبيِّ ﷺ، وأنَّهُ جاءَ العربَ منْ جنسهمْ ومنْ نسبهمْ، فهوَ عربيٌّ قرشيٌّ مثلهمْ، يخافُ عليهمْ سوءَ العاقبةِ والوقوعَ فِي العذابِ، حريصٌ ألَّا تفلتَ منهُ أيُّ نفسٍ إلَى النَّارِ، وهوَ رؤوفٌ رحيمٌ بحالهمْ، قيلَ: لمْ يجمعِ اللهُ اسمينِ منْ أسمائهِ لأحدٍ غيرَ رسولِ اللهِ ﷺ فِي قولهِ: (رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) ثمَّ يواسِي اللهُ تعالَى نبيَّهُ الكريمَ ﷺ قائلًا: فإنْ أعرضُوا عنِ الإيمانِ بكَ وناصبوكَ فاستعنْ باللهِ وفوّضْ أمركَ إليهِ، فهوَ كافيكَ معرّتهمْ ولَا يضرُّونكَ، وهوَ ناصركَ عليهمْ، وهكذَا كانَ فعلهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ دومًا، فهوَ الصَّبورُ علَى أذاهمْ، الحريصُ علَى دعوتهمْ، المتوكِّلُ علَى اللهِ تعالَى فِي كلِّ حالٍ[65].

خامسًا: مواجهةُ الظَّالمينَ والمجرمينَ:

يلزمُ علَى المؤمنِ استحضارُ قوَّةِ اللهِ تعالَى ومساندتهِ عندَ مواجهةِ الظَّالمينَ والمجرمينَ، والتوكُّلِ عليهِ تعالَى فِي ذلكَ، فالطَّاقةُ البشريَّةُ قاصرةٌ، سيَّمَا وإنْ كانتْ تتَّجهُ لمحاربةِ الظَّالمينَ، فالظَّالمُ لَا يخشَى اللهَ تعالَى، ولَا يردعهُ شيءٌ، وهوَ مستعدٌّ لبذلِ أرخصِ الوسائلِ وأرذلهَا للحصولِ علَى

غرضه، وقدْ مرّتْ قصصٌ عبرَ التَّاريخِ تجسِّدُ أدبَ التوكُّلِ علَى اللهِ فِي محاربةِ الظَّلمةِ، منْ ذلكَ قصَّةُ موسَى عليهِ السَّلامُ معَ الطاغيةِ فرعونُ.

تأمَّلْ قولَ اللهِ تعالَى: "ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (107)"[الأعراف: 103 – 107].

إلى قوله تعالى: "قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (125) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (126) وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128)"[الأعراف: 121 – 128].

وفِي الآياتِ الكريمةِ تصويرٌ دقيقٌ لتفكيرِ وسلوكِ الطُّغاةِ، فهمْ يخشونَ الدِّينَ؛ لعلمهمْ أنَّ الأمَّةَ إنِ التزمتْ بهِ ووحدَّتْ

خالقهَا ستنصرفُ عنْ تقديسهمْ ورجائهمْ فِي أمورِ حياتهمْ، وستخرجُ منْ ظلماتِ التبعيَّةِ إلَى نورِ التحُّررِ منَ القيودِ البشريَّةِ والانقيادِ للهِ تعالَى وحدهُ دونَ شركاءَ، وهذَا مَا حصلَ عندمَا طلبَ موسَى منْ فرعونَ أنْ يتركَ بنِي إسرائيلَ ليعبدُوا اللهَ وحدهُ، فأدركَ فرعونُ وملؤهُ أنَّ هذَا يعنِي سلبَ السُّلطةِ منهمْ، فأرادُوا إحراجهُ بتقديمِ الحجَّةِ علَى صدقهِ أمامَ النَّاسِ.

وقدْ أظهرَ اللهُ تعالَى علَى يديهِ معجزاتهِ التِي أبهرتْ سحرةَ فرعونَ كلِّهمْ، فآمنُوا، وواجهُوا ذلكَ الطَّاغيةِ المستبدِّ الذِي أرادَ استئصالَ هذَا الدِّينِ وأتباعهِ، وعلَى الرُّغمِ منْ تهديدهِ ووعيدهِ إلَّا أنَّ المؤمنينَ أيقنُوا أنَّ مردَّهمْ إلَى اللهِ تعالَى طالَ عمرهمْ أمْ قصرَ، وأنَّهمْ اختارُوا الموتَ فِي سبيلِ للهِ علَى الموتِ كفَّارًا، وواساهمْ نبيُّهمُ الكريمُ وذكّرهمْ بصفةِ المؤمنِ، وهيَ الاستعانةُ باللهِ الكريمِ، السَّندِ المتينِ لعبادهِ، الذِي يكفيهمْ مَا أهمّهمْ، فليسَ لهمْ غيرَ اللهِ تعالَى، فهوَ الملاذُ الحصينُ، وعليهمْ أنْ يصبرُوا حتَّى يأذنَ الولَى بالنُّصرةِ فِي الوقتِ الذِي يقدِّرهُ بحكمتهِ وعلمهِ، وإنَّ الأرضَ للهِ، ومَا فرعونُ وقومهُ إلَّا نزلاءُ فيهَا، فيجبُ ألَّا يُنظرَ إلَى الطَّاغوتِ أنَّهُ مكينٌ فِي الأرضِ غيرِ مزحزحٍ عنهَا، فصاحبُ الأرضِ ومالكهَا هوَ الذِي يقرِّرُ متَى يطردهمْ منهَا، وإنَّ العاقبةَ للمتَّقينَ حتمًا، فلَا يخالجُ قلوبَ الدَّاعينَ إلَى ربِّ العالمينَ قلقٌ علَى المصيرِ(66).

هذَا هوَ نبيُّ اللهِ الذِي قالَ عنهُ جلَّ وعلَا: "وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ" [يونس: 84]**.**

فهوَ الذِي يذكِّرُ قومهُ دومًا بحقيقةِ الإيمانِ واستلزامهِ للتوكُّلَ علَى اللهِ وحدهُ دونَ سواهُ.

وقدْ واجهَ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ أعتَى الظَّالمينَ، فقدْ جسَّدَ النَّمرودُ مثالًا للطَّغيانَ.

يقولُ تعالَى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ "[البقرة: 258].

فالنَّمرودُ بنُ كنعانَ هوَ أوَّلُ منْ تجبَّرَ فِي الأرضِ وادّعَى الربوبيَّةَ، وكانَ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ قدْ دخلَ بلدتهُ، فأرسلَ إليهِ النَّمرودُ، وقالَ:منْ ربُّكَ؟ ويظهرُ أنَّهُ لمْ يسألْ إبراهيمَ ليعرفَ الجوابَ، بلْ سألهُ استهزاءً، فهوَ يعلمُ أنَّهُ نبيُّ اللهِ تعالَى، وأنَّهُ يدعُو إلَى توحيدِ اللهِ وعدمِ الإشراكِ بهِ، فردَّ عليهِ إبراهيمُ واثقًا متوكِّلًا متسلِّحًا بالإيمانِ والحجَّةِ التِي أجراهَا اللهُ علَى لسانهِ فقالَ: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ).

فمَا كانَ منْ تفكيرهِ القاصرِ، وغرورهِ المتغلغلِ فِي أعماقِ نفسهِ إلَّا أنْ يعمدَ إلَى سجنائهِ، فيقتلَ منْ صدرَ بحقِّهِ التخليةُ، ويخلِي منْ صدرَ بحقِّهِ القتلُ، واعتقدَ أنَّهُ بذلكَ قدْ أبطلَ حجَّةَ نبيِّ اللهِ إبراهيمَ، فسألهُ إبراهيمُ حينهَا مَا إنْ كانَ يستطيعُ الإتيانَ بالشَّمسِ منَ المغربِ؛ فاللهُ يأتِي بهَا منَ المشرقِ.

وقدْ ذكرَ الماوردِي أنَّ لتحوُّلِ إبراهيمَ للحجَّةِ الثَّانيةِ دونَ البقاءِ لنصرةِ الحجَّةِ الأولَى احتمالينِ:

أحدهمَا: أنَّهُ قدْ ظهرَ منْ فسادِ قولِ النَّمرودِ مَا لمْ يحتجْ معهُ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ إلَى النُّصرةِ، ثمَّ أتبعَ ذلكَ بغيرهَا تأكيدًا عليهِ فِي الحجَّةِ.

والاحتمالُ الثَّانِي: أنَّهُ لمّا كانَ فِي تلكِ الحجَّةِ منْ تحايلِ النَّمرودِ بمَا عارضهَا بهِ منَ الشُّبهةِ، أحبَّ أنْ يحتجَّ عليهِ بمَا لَا تحايلَ فيهِ؛ قطعًا لهُ واستظهارًا[67].

هذَا هوَ نبيُّنَا إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ الذِي مَا تركَ التوكُّلَ علَى اللهِ تعالَى فِي دعوتهِ.

يقولُ الحقُّ تعالَى داعيًا إلَى التأسِّي بهِ عليهِ السَّلامُ: " قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" [الممتحنة: 4].

وقد واجه ذو القرنين ظلم يأجوج ومأجوج بالتوكل على الله مع الأخذ بأسباب التوكل واتخاذ عوامل الحيطة منهم.

قال تعالى: " حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا (93) قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا (95) ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا (96) فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن

يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا (97) قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا (98)"[الكهف: 93 – 98].

وقدْ وردَ فِي تفسيرِ الآياتِ أنَّ ذِي القرنينِ ملكٌ حكمَ الدُّنيَا بأسرهَا، فاستغاثَ بهِ قومٌ ليحميهمْ منْ يأجوجَ ومأجوجَ، وهمْ جماعةٌ عظيمةٌ منْ نسلِ ولديّ يافثٍ بنِ نوحٍ، اشتهرُوا بالكثرةِ وقدْ هابهمْ أولئكَ القومُ وخشُوا ظلمهمْ، فسألُوا ذَا القرنينِ أنْ يبنيَ لهمْ سدًّا منيعًا يحميهمْ منْ أذَى قومِ يأجوجَ ومأجوجَ مقابلَ خرجٍ منَ المالِ، فمَا كانَ منهُ إلَّا أنْ تواضعَ للهِ ولمْ يغترّ بقوَّته، بلِ اعترفَ بفضلِ اللهِ عليهِ أنْ آتاهُ الصحَّةَ والعافيةَ التِي هيَ خيرٌ منْ أموالهمْ التِي سيجمعونهَا لهُ[68].

ووافقَ أنْ يبنيَ السدَّ متوكِّلًا علَى اللهِ وحدهُ، وقدْ أخذَ بأسبابِ إنجاحِ مشروعهِ فطلبَ منهمْ إعانتهُ بالرِّجالِ وعملِ الأبدانِ والآلةِ التِي يبنِي بهَا السدَّ، وهذَا بدايةُ النَّجاحِ فِي العملِ، فإنَّ القومَ لوْ جمعُوا لهُ خرجًا، لمْ يعنهُ أحدٌ، ولتركوهُ يبنِي، فكانَ عونهمْ أسرعُ فِي إنجازِ العملِ وإنجاحِ المشروعِ، واستخدمَ الموادَ المناسبةَ لتقويةِ السدِّ، منْ حديدٍ وحرارةٍ ونحاسٍ، وهنَا يتجلّى ظهورُ العملِ المخلصِ، وهوَ أهمُّ مقوِّماتِ التوكُّلِ، ثمَّ أقرّ ذُو القرنينِ مرَّةً أخرَى بفضلِ اللهِ عليهِ، وأنَّ بقاءَ السدِّ مرهونٌ بإرادةِ اللهِ تعالَى، وأنَّ المولَى سيشاءُ أنْ يجعلهُ دكاءً فِي وقتٍ يعلمهُ ويقدِّرهُ سبحانهُ[69].

سادسًا: مواجهةُ الشَّيطانِ وأعوانـهِ:

يتوجَّبُ علَى المؤمنِ إخلاصُ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى فِي مواجهةِ الشَّيطانِ وأعوانـهِ، قالَ تعالَى: " إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ "[المجادلة: 10].

فلولَا التوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى لنْ يكونَ للإنسانِ قدرةٌ فِي مجابهةِ قوَى الشرِّ العظيمةِ التِي يستخدمـهَا الشَّيطانُ فِي إغواءِ العبادِ، ففِي الآيةِ الكريمةِ علَى لسانِ إبليسَ لعنـهُ اللهُ: " قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّـهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْـهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83)"[ص: 82، 83].

أيْ لأحسِّننَّ لـهمْ معاصيكَ، ولأحبِّبنـهَا إلَى قلوبـهمْ حتَّى يرتكبوهَا، ولأضلنَّـهمْ عنْ سبيلِ الرَّشادِ إلَّا منْ أخلصتـهُ بتوفيقكَ فهديتـهُ، فإنَّ ذلكَ ممَّنْ لَا سلطانَ لِي عليـهِ ولَا طاقةَ لِي بـهِ(70).

وكان الرد الإلهي المتحدي: " قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْـهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْـهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (64) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (65)"[الإسراء: 63، 64، 65].

فقدْ أمرهُ اللهُ تعالَى أمرَ إهانـةٍ أنْ يبذلَ كلَّ جهدهِ وأنْ يقطعَ منْ يشاءُ عنِ الحقِّ، وأنْ يستخدمَ كلَّ صوتٍ لـهُ ولأعوانـهِ فِي الوسوسةِ والإبعادِ عنِ الدِّينِ، وأمرهُ أنِ اجمعْ فِي سبيلِ إغوائـهمْ خيولكَ ورجالكَ التِي تمشِي فِي الإفسادِ، وشاركـهمْ

فِي أموالهمْ بأنْ تجعلهمْ ينفقونهَا علَى المعاصِي واجعلْ منْ أولادهمْ بالزِّنَا لكَ نصيبًا، أوْ سيطرْ علَى عقولهمْ فاجعلهمْ يهوّدونَ أبناءهمْ وينصّرونهمْ، ومنهمْ بالأمانِي الكاذبةِ أنْ لَا جنَّةَ ولَا نارَ، وأنَّهمْ غيرَ محاسَبينَ علَى مَا يفعلونَ، فعبادُ اللهِ المؤمنونَ لنْ يغترُّوا بكذبكَ، فهمُ المخلصونَ فِي عبادتهمْ، واللهُ كافيهمْ وعاصمهمْ منْ سيطرةِ إبليسَ عليهمْ وهوَ الحافظُ لهمْ منْ كلِّ سوءٍ(71).

وعلَى قدرِ هذَا التحدِّي الكبيرِ يجبُ أنْ يعملَ المؤمنُ لحمايةِ نفسهِ منْ سيطرةِ الشَّيطانِ وأعوانهِ، فهمْ لَا يألونَ جهدًا فِي إسقاطنَا فِي المعصيةِ مهمَا صغرتْ أوْ كبرتْ.

ولنَا فِي قصَّةِ نبيِّ اللهِ يوسفَ عليهِ السَّلامُ نموذجٌ رائعٌ فِي تحدِّي الشَّيطانِ وأعوانهِ، فبالرُّغمِ منْ تعرُّضهِ عليهِ السَّلامُ لضغوطٍ شديدةٍ منْ أجلِ الوقوعِ فِي الرَّذيلةِ، إلَّا أنَّهُ واجههَا بقوَّةٍ نابعةٍ منْ إيمانهِ باللهِ تعالَى، وأعانهُ علَى ذلكَ استعانتهُ باللهِ تعالَى وتوكُّلهُ عليهِ حقَّ التوكُّلِ.

قالَ تعالَى مصوِّرًا لنَا تفاصيلَ القصَّةِ: " وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25)"[يوسف: 23، 24، 25].

حتَّى قولهِ عزَّ وجلَّ: " قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34)" [يوسف: 33، 34].

فقدْ عاشَ يوسفُ عليهِ السَّلامِ فِي كنفِ عزيزِ مصرَ، ويوسفُ معترفٌ بفضلهِ وفضلِ زوجهِ عليهِ، وقدْ تعرَّضَ لفتنةِ امرأةِ العزيزِ وهوَ فِي مرحلةِ النُّضجِ والشَّبابِ، ومنْ طلبتْ منهُ الفاحشةَ هيَ صاحبةُ الفضلِ عليهِ وهيَ متزيِّنةٌ متأهِّبةٌ لهُ، وقدْ أوصدتِ الأبوابَ وأخلتِ الأجواءَ لوقوعِ الجريمةِ، ورغمَ كلِّ هذهِ العواملِ التِي اجتمعتْ علَى نبيِّ اللهِ المعصومِ إلَّا أنَّهُ واجهَ تلكَ المحنةَ بالتعفُّفِ الشَّديدِ عنِ الرذيلةِ(72).

ومنَ الأسبابِ التِي أخذَ بهَا يوسفُ عليهِ السَّلامُ فِي توكُّلهِ علَى اللهِ واستعانتهِ بهِ وحدهِ علَى مواجهةِ الشَّيطانِ:

استعاذتهُ باللهِ تعالَى عندمَا غلَّقتْ عليهِ الأبوابَ.

استحضارهُ وتذكيرهُ إيَّاهَا بأنَّ الإحسانَ لَا يردُّ إلَّا بمثلهِ.

بذلُ الجهدِ واستباقُ البابِ، وعدمُ القعودِ وانتظارِ إجبارهِ علَى ارتكابِ المعصيةِ.

الرضَا بالمكوثِ فِي السِّجنِ ظلمًا علَى السُّقوطِ فِي الرَّذيلةِ، وهذَا قمَّةُ الاجتهادِ فِي البعدِ عنِ المعصيةِ.

اللُّجوءُ إلَى اللهِ تعالَى والتوكِّلِ عليهِ والافتقارِ إليهِ وطلبِ العونِ والسَّندِ فِي مجابهةِ المحنةِ.

ولنَا فِي هذهِ القصَّةِ القدوةِ الحسنةِ، فشبابنَا وبناتنَا الآنَ يتعرَّضونَ لمحنٍ كثيرةٍ تتعلَّقُ بالعفَّةِ، فنجدهمْ يستسلمونَ

للشَّيطانِ ويسمحونَ لهُ بأنْ يتحكَّمَ فِي عقولهمْ ويزيِّنُ لهمُ المنكرَ، علَى أنَّهُ علاقةٌ اعتياديةٌ أوْ علاقةٌ مبدئيَّةٌ لحصولِ الزَّواجِ، وكذلكَ يتدخَّلُ الشَّيطانُ فِي كلِّ أمورِ حياتنَا، فهوَ الذِي يوسوسُ للسَّارقِ أنْ يستكثرَ منْ مالهِ، وللأبناءِ أنْ يتركُوا برَّ آبائهمْ، وللآباءِ أنْ يقصِّرُوا فِي حقِّ أبنائهمْ وللطُّغاةِ أنَّهمْ علَى حقٍّ ليستمرُّوا فِي طغيانهمْ.

وليسَ للمؤمنِ للخروجِ منْ هذهِ الابتلاءاتِ إلَّا أنْ يتوكَّلَ علَى اللهِ تعالَى، ويثقَ بهِ فِي تصريفِ أمورهِ، معَ الأخذِ بالأسبابِ المعينةِ علَى مواجهةِ الشَّيطانِ، ومنْ ذلكَ:

إخلاصُ العملِ للهِ تعالَى، واستحضارُ عظمتهِ ومراقبتهِ عزَّ وجلَّ فِي كلِّ الأوقاتِ.

الاستكثارُ منْ أعمالِ الخيرِ واستغلالِ الوقتِ فِي ذلكَ؛ فهيَ معينةٌ علَى سدِّ مداخلِ الشَّيطانِ.

الاستعاذةُ والدُّعاءُ والتزامُ الذِّكرِ وقراءةِ القرآنِ لتحصينِ النَّفسِ منَ الشَّيطانِ وأعوانهِ.

الابتعادُ عنْ أعوانِ الشَّيطانِ منَ السَّحرةِ والكهَّانِ والعرَّافينَ والقائلينَ بالأبراجِ الفلكيَّةِ ومَا إلَى ذلكَ.

الاستعانةُ بالصُّحبةِ الصَّالحةِ المعينةِ علَى تقوَى اللهِ تعالَى.

ثمراتُ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى:

للآدابِ الربَّانيَّةِ آثارٌ يشاءُ اللهُ تعالَى أنْ تظهرَ عاجلًا، فيرَى المؤمنُ المتحلِّي بهَا أثرهَا فِي حياتهِ وفِي نظرةِ النَّاسِ إليهِ، ثمَّ يكرمهُ اللهُ بهَا فِي الآخرةِ فيعطيهِ جزاءهُ الأمثلَ، وللتوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى ثمراتٌ عاجلةٌ وآجلةٌ:

أوَّلًا: ثمراتُ التوكُّلِ فِي الدُّنيَا:

1) محبَّةُ اللهِ تعالَى للمتوكِّلينَ:

تأكَّدَ فِي القرآنِ الكريمِ حبَّ اللهِ عزَّ وجلَّ للمتوكِّلينَ، قالَ تعالَى: " فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ "[آل عمران: 109].

فقدْ دعَا ربُّ العزَّةِ نبيَّهُ الكريمَ ﷺ إلَى مشاورةِ المؤمنينَ فِي أمورهِ، ثمَّ قالَ لهُ: إذَا اطمأنّ قلبكَ لمَا اخترتَ ففوّضْ أمركَ إلَى اللهِ واعتمدْ عليهِ، وامضِ بجوارحكَ، فاللهُ يحبُّ المتوكِّلينَ، ومحبَّتهُ تعالَى هيَ أعظمُ محبَّةٍ وهيَ التِي تجلبُ النُّصرةَ والهدايةَ والتَّوفيقَ(73).

ويمتنّ اللهُ تعالَى علَى منْ يحبُّ منْ عبادهِ بأنْ يجعلَ لهُ حبًّا فِي قلوبِ النَّاسِ.

قالَ تعالَى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا"[مريم: 96].

والمعنضى: إنَّ الذينَ صدقُوا اللهَ ورسولهُ، وعملُوا بمَا أمرهمْ منْ آدابٍ وشيمٍ (ومنْ أجلّ تلكَ الآدابِ التوكُّلُ) سيوقعُ اللهَ محبَّتهمْ وألفتهمْ فِي صدورِ عبادهِ(74).

وذكرَ أنَّ اللهَ تعالَى سيحدثُ لهمْ فِي القلوبِ مودَّةً منْ غيرِ تودُّدٍ منهمْ، يحبُّهمُ النَّاسُ، ويتحابُّونَ فيمَا بينهمْ، ويحبُّهمُ اللّهُ تعالَى ويرضَى عنهمْ(75).

وفِي الحديثِ عنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ اللهَ تباركَ وتعالَى إذَا أحبَّ عبدًا نادَى جبريلَ: إنَّ اللهَ قدْ أحبّ فلانًا فأحبّهُ، فيحبُّهُ جبريلُ ثمَّ ينادِي جبريلُ فِي

السَّماءِ: إنَّ اللهَ قدْ أحبّ فلانًا فأحبّوهُ، فيحبُّهُ أهلُ السَّماءِ ويوضعُ لهُ القبولُ فِي أهلِ الأرضِ(76).

2) كفايةُ اللهِ للمتوكِّلينَ:

وعدَ اللهُ عزَّ وجلَّ عبادهُ المتوكِّلينَ عليهِ بالكفايةِ.

قالَ تعالَى: "وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ" [الطلاق: 3].

فقدْ قضَى اللهُ عزَّ وجلَّ علَى نفسهِ كفايةَ المتوكِّلينَ، فهوَ سبحانهُ الذِي يكفيهمْ مَا أهمّهمْ فِي دينهمْ ودنياهمْ، وهوَ الضَّامنُ لهمْ الرِّزقَ، الحافظُ لهُ منْ كلِّ مَا يخشونَ(77).

قالَ الرَّبيعُ بنُ خثيمَ يبيّنُ معنَى (فَهُوَ حَسْبُهُ): منْ كلِّ مَا ضاقَ علَى النَّاسِ(78).

وقدْ دعَا المؤمنونَ اللهَ تعالَى باسمهِ الوكيلِ كيْ يحميهمْ ويمنعَ عنهمْ كيدَ الكائدينَ.

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُ: حسبنَا اللهُ ونعمَ الوكيلُ، قالهَا إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ حينَ ألقيَ فِي النَّارِ، وقالهَا محمَّدٌ ﷺ حينَ قالُوا: " الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ " [آل عمران: 173](79).

أيِ: اللهُ ربُّنَا، وهوَ كافينَا كلَّ مَا أهمَّنَا وهوَ المفوَّضُ إليهِ تدبيرُ عبادهِ، والقائمِ بمصالحهمْ(80).

3) النَّجاةُ منَ الخذلانِ:

النَّصرُ والنَّجاةُ منَ الخذلانِ هيَ مكافأةُ اللهِ تعالَى للمتوكِّلينَ عليهِ.

قالَ تعالَى: "إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" [آل عمران: 160].

فَنَصْرُ اللهُ تعالَى هوَ النَّصرُ الحقيقيُّ، وخذلانهُ للعبدِ بتركهِ نصرتهِ ومساندتهِ هوَ الخذلانُ الحقيقيُّ، فمهمَا بلغتْ مناصرةُ البشرِ فهيَ ليستْ بشيءٍ أمامَ مناصرةِ ربَّ البشرِ، ومنْ ناصرهُ اللهُ تعالَى فلنْ يضَّرهُ خذلانُ الخاذلينَ، ولنْ يضيرهُ تقاعسُ المتقاعسينَ، قالَ ابنُ القيِّمِ: هوَ حسبُ منْ توكَّلَ عليهِ، وكافِي منْ لجأَ إليهِ، وهوَ الذِي يؤمّنُ الخائفَ ويجيرُ المستجيرَ، فمنْ تولَّاهُ واستنصرَ بهِ وتوكَّلَ عليهِ وانقطعَ بكليّتهِ إليهِ؛ تولَّاهُ وحفظهُ وحرسهُ وصانهُ، ومنْ خافهُ واتَّقاهُ أمّنهُ ممَّا يخافُ ويحذرُ، وجلبَ إليهِ مَا يحتاجُ إليهِ منْ المنافعِ(81).

4) النَّجاةُ منْ كيدِ الشَّيطانِ:

قالَ تعالَى: "وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلً" [الإسراء: 64، 65].

فقدْ تحدَّى اللهُ تعالَى الشَّيطانَ أنْ يبذلَ كلَّ جهدهِ وأنْ يقطعَ منْ يشاءُ عنِ الحقِّ، وأنْ يستخدمَ كلَّ صوتٍ لهُ ولأعوانهِ فِي الوسوسةِ والإبعادِ عنِ الدِّينِ، وأنْ يبذلَ فِي سبيلِ ذلكَ كلَّ الوسائلِ المادِّيةِ المتاحةِ لهُ، ووعدَ عزَّ وجلَّ عبادهُ ألَّا يجعلَ للشَّيطانِ سلطانًا عليهِمْ، وأنَّهُ تعالَى سيكفيهِمْ ويعصمهمْ منْ إغوائهِ وكيدهِ(82)، وهوَ تعالَى القائلُ فِي محكمِ كتابهِ:

"وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" [المجادلة: 10].

فالمؤمنُ لَا يضرُّهُ التآمرُ منْ أيِّ كائنٍ كانَ؛ لأنَّ اللّٰهَ تعالَى حافظُهُ، يقولُ سيِّدُ قطبٍ: فهوَ الحارسُ الحامِي، وهوَ القويُّ العزيزُ، وهوَ العليمُ الخبيرُ، وهوَ الشَّاهدُ الحاضرُ الذِي لَا يغيبُ، ولَا يكونُ فِي الكونِ إلَّا مَا يريدُ، وقدْ وعدَ بحراسةِ المؤمنينَ، فأيُّ طمأنينةٍ بعدَ هذَا وأيُّ يقينٍ؟[83]

5) النَّجاةُ منَ الكرباتِ:

ومنَ النَّماذجِ التِي تبيّنُ نجاةَ المؤمنينَ المتوكِّلينَ بفضلِ اللّٰهِ تعالَى قصَّةُ أصحابِ الكهفِ، فقدْ فرّوا منْ ملكهِمْ وقومهِمْ الكافرينَ ولجؤُوا إلَى حمايةِ اللّٰهِ تعالَى.

قالَ تعالَى: " إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11)" [الكهف: 10، 11].

فقدْ أوَى أولئكَ الفتيةُ إلَى الكهفِ خائفينَ لعلّهمْ يستترونَ عنِ الأنظارِ فلَا يراهمْ أحدٌ منْ قومهِمْ، وهذَا أخذٌ بالأسبابِ، فلمْ يكتفُوا بالدُّعاءِ والمكوثِ بينَ الظُّلمةِ، بلْ تركُوا المكانَ، وذادُوا بدينهمْ إلَى مكانٍ أمينٍ، ثمَّ فوّضُوا أمرهمْ إلَى ربِّهمْ، فضربَ اللّٰهُ تعالَى علَى آذانهمْ حجابًا يمنعهمْ منْ سماعِ الأصواتِ والحركاتِ، فنامُوا فِي كهفهمْ ثلاثمائةَ وتسعَ سنينَ، وكانُوا يتقلَّبونَ بلطفِ اللّٰهِ تعالَى وتدبيرهِ منْ جنبٍ إلَى جنبٍ، حتَّى بعثهمْ منْ نومهمْ وكانتْ قريتهمْ وقتئذٍ قدْ آمنتْ ولمْ يعدْ فيهَا ملكٌ ظالمٌ، وهذَا تفريجُ اللّٰهِ تعالَى لكربتهمْ واستجابتهُ لتضرّعهمْ[84].

وقدْ بيّنَ سيِّدُ قطبٍ أنَّ قلوبَ هؤلاءِ الفتيةِ مؤمنةٌ ثابتةٌ راسخةٌ، متوكِّلةٌ مطمئنَّةٌ إلَى الحقِّ الذِي عرفتْ، معتزَّةً بالإيمانِ الذِي اختارتْ، وقدْ استحقَّتْ بذلكَ رحمةَ اللهِ تعالَى(85).

ومنْ أروعِ الأمثلةِ علَى تفريجِ الكرباتِ، مَا حدثَ أثناءَ هجرةِ نبيِّنَا الكريمِ ﷺ وأبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ.

قالَ اللهُ تعالَى: " إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "[التوبة: 40].

فقدْ خرجَ رسولنَا ﷺ إلَى المدينةِ بعدَ إيذاءِ المشركينَ وتآمرهمْ علَى قتلهِ، وليسَ لديهِ قوَّةٌ تكفِي لمقاومتهمْ ومدافعتهمْ، والعربُ كلُّهمْ ضدَّهُ، وكانَ معهُ صاحبهُ أبُو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ، فكانَ المقامُ مقامَ أدبِ التوكُّلِ الكاملِ(86).

وقدْ لجآ إلَى الغارِ، فأقامَا فيهِ ثلاثةَ أيَّامٍ ليسكنَ الطلبُ عنهمَا، وذلكَ لأنَّ المشركينَ حينَ فقدوهمَا ذهبُوا فِي طلبهمَا كلَّ مذهبٍ منْ سائرِ الجهاتِ، وجعلُوا لمنْ ردَّهمَا أوْ أحدهمَا مائةً منَ الإبلِ، واقتصُّوا آثارهمَا حتَّى اختلَطَ عليهِمْ، واحتارُوا فِي مكانهمَا، فصعدُوا الجبلَ الذِي همَا فيهِ، وجعلُوا يمرُّونَ علَى بابِ الغارِ، فتحاذِي أرجلهمْ بابَ الغارِ ولَا يرونهمَا، حفظًا منَ اللهِ لهمَا(87).

وقدْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ متأدِّبًا بالثِّقةِ فِي نصرِ اللهِ تعالَى، فنصرهُ اللهُ وأعلَى قدرهُ، ومكّنَ دينهُ فِي سائرِ أنحاءِ الأرضِ،

واللهُ عزيزٌ فِي انتقامهِ وانتصارهِ، منيعُ الجنابِ، لَا يضامُ منْ لاذَ ببابهِ واحتمَى بالتمسُّكِ بخطابهِ، حكيمٌ فِي أقوالهِ وأفعالهِ[88].

ثانيًا: ثمراتُ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى فِي الآخرةِ:

1) النَّجاةُ منَ العذابِ:

النَّجاةُ منَ العذابِ هيَ مطلبُ كلِّ مؤمنٍ، وهيَ الحقُّ الذِي وعدَ اللهُ بهِ عبادهُ المخلصينَ.

قالَ تعالَى: "ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ" [يونس: 103].

فالمؤمنُ المتّبعُ لرسلِ اللهِ عليهمُ السَّلامُ، المخلصُ المتقِّي الشَّاكرُ المتوكِّلُ يستحقُّ الرَّحمةَ منَ العذابِ[89].

ويذكرُ السَّعدِي أنَّ تلكَ النَّجاةَ تثبتُ للمؤمنينَ فِي الدُّنيَا والآخرةِ علَى السَّواءِ، وهذَا منْ قبيلِ دفاعِ اللهِ تعالَى عنِ المؤمنينَ الذِي وردَ فِي قولهِ تعالَى: "إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ" [الحج: 38].

وأوضحَ أنَّهُ علَى قدرِ مَا يتحلَّى المرءُ بالآدابِ، تحصلُ لهُ النَّجاةُ منَ المكارهِ[90].

ومنْ نماذجِ نجاةِ المؤمنينَ منَ العذابِ، نجاةُ سيِّدنَا هودٍ ومنْ آمنَ معهُ.

قالَ تعالَى: "وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ" [هود: 58].
وذكرَ ابنُ عجيبةَ أنَّ ذكرَ النَّجاةِ تكرَّرَ فِي هذهِ الآيةِ مرَّتينِ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى عنَى بالأولَى تنجيتهمْ منْ عذابِ ريحِ السَّمومِ

الذِي أصابَ قومهمْ، والتَّنجيةُ الأخرَى منَ العذابِ الغليظِ، قصدَ بهَا نجاتهمْ منَ النَّارِ يومَ القيامةِ[91].

وذكرَ اللهُ تعالَى نجاةَ قومِ صالحٍ عليهِ السَّلامُ فِي قولهِ تعالَى: "فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ" [هود: 66].

وذكرَ القشيريُّ أنَّ ربَّ العزَّةِ قدْ أجرَى علَى المكذِّبينَ مَا توعَّدهمْ بهِ منْ عذابٍ غيرِ مكذوبٍ، ونجّى نبيّهمْ المتوكِّلِ عليهِ السَّلامُ، ونجّى منِ اتّبعهُ منْ كلِّ عقوبةٍ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، سنّةً منهُ سبحانهُ فِي تنجيةِ أوليائهِ أمضاهَا، وعادةً فِي تلطُّفهِ ورحمتهِ بالمستحقِّينَ أجراهَا[92].

2) دخولُ الجنَّةِ:

الجنَّةُ هيَ أسمَى غاياتِ المؤمنِ، وأرجَى آمالهِ، وغايةُ عملهِ وعبادتهِ.

قالَ تعالَى واعدًا عبادهُ المتوكِّلينَ الصَّابرينَ بالخلودِ فِي النَّعيمِ المقيمِ: "وَالَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ منَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي منْ تَحْتهَا الْأَنْهارُ خالدينَ فيها نعْمَ أَجْرُ الْعاملينَ (58) الَّذينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبّهمْ يَتَوَكَّلُونَ (59)" [العنكبوت: 58، 59].

فهذَا وعدُ اللهِ تعالَى للمؤمنينَ المتوكِّلينَ بإسكانهمْ منازلَ عاليةٍ فِي الجنَّةِ، تجرِي منْ تحتِ أشجارهَا الأنهارُ، علَى اختلافِ أصنافهَا، منْ ماءٍ وخمرٍ وعسلٍ ولبنٍ، ماكثينَ فيهَا أبدًا، لَا يبغونَ عنهَا حولًا، جزاءً لهمْ علَى أعمالهمْ، وأنعمْ بهِ منْ جزاءٍ[93].

قالَ تعالَى: "فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" [الشورى: 36].

حيثُ يكونُ ثوابُ اللهِ نعيمًا لَا يفنَى، ورزقًا لَا ينفدُ، وهذَا الجزاءُ للَّذينَ آمنُوا، وتوكَّلُوا علَى ربِّهمْ، وأسلمُوا أمرهمْ لهُ،

فثوابُ اللهِ تعالَى خيرٌ فِي طبيعتهِ، أبقَى فِي مدَّتهِ منْ أيِّ ثوابٍ(94).

وفِي الحديثِ عنِ ابنِ عباسٍ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "يدخلُ الجنَّةَ منْ أمَّتِي سبعونَ ألفًا بغيرِ حسابٍ ... همُ الذينَ لَا يسترقونَ، ولَا يتطيَّرونَ، وعلَى ربِّهمْ يتوكَّلونَ"(95).

(62) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده ٥٧/٣، رقم ٢٠٧٢.
(63) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١٦٣/٧-١٦٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٦٥/٢٢.
(64) الجامع لأحكام القرآن ١٧/١٥.
(65) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣٢٥/٢.
(66) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١٣٥٥/٣.
(67) انظر: النكت والعيون ٣٢٩/١-٣٣٠.
(68) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٩٦/٥، فتح القدير، الشوكاني ٤٣٠/٣.
(69) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٣٢/١٦.
(70) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠٣/١٧.
(71) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٨٨/١٠.
(72) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١٠٨/٢.
(73) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١٢٣/٢، السراج المنير، الخطيب الشربيني ٢٦٠/١.
(74) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٤٦٠٠/٧.
(75) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٦٩/١٦.
(76) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة ١٤٢/٩، رقم ٧٤٨٥.
(77) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣٣٨/٩.
(78) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب الرقاق، باب (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، ٩٩/٨.
(79) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، ٣٩/٦، رقم ٤٥٦٣.
(80) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٧.
(81) بدائع الفوائد ٢٣٧/٢.
(82) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٨٨/١٠.
(83) في ظلال القرآن ٣٥١٠/٦.
(84) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢٣٨/٣.
(85) انظر: في ظلال القرآن ٢٢٦١/٤.
(86) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٧٥/٤.
(87) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٢٢٣/٣.
(88) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٥٥/٤.
(89) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢١٤/٣.
(90) انظر: تيسير الكريم الرحمن ٤٨٨/١.
(91) انظر: البحر المديد ٣٠٤/٣.
(92) انظر: لطائف الإشارات ١٤٥/٢.
(93) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٥/٢١.
(94) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢٧٠٥/٥.
(95) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، ١٠٠/٨، رقم٦٤٧٢.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: العقلُ الذِي مدحهُ اللهُ وأثنَى علَى أهلهِ، وأخبرَ أنَّهمْ همُ المنتفعونَ بالآياتِ، هوَ: الذِي يفهمُ، ويعقلُ الحقائقَ النَّافعةَ، ويعملُ بهَا، ويعقلُ صاحبهُ عنِ الأمورِ الضَّارةِ، ولذلكَ قيلَ لهُ: حجرٌ، ولُبٌّ، ونُهْيٌ، لأنَّهُ يحجرُ صاحبهُ وينهاهُ عمَّا يضرُّهُ.

~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~

ولقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى العقلَ فِي العديدِ منَ المواقعِ فِي القرآنِ الكريمِ بينَ مدحٍ لأهلهِ وذمٍّ للَّذينَ لَا يعقلونَ، وقَدْ وردَ لفظُ العقلِ بصيغةِ الفعلِ فِي القرآنِ في تسعةٍ وأربعين موضعًا، ولم يَرِدْ بشكلِ مصدرٍ مطلقًا، وكلُّ أفعالِ العقلِ تدلُّ علَى عمليَّةِ الإدراكِ والتَّفكيرِ والفهمِ لدَى الإنسانِ، ويمكنُ حصرُ هذهِ الأفعالِ بمَا يلِي:

1) لفظُ العقلِ:

أ) وردَ فعلُ العقلِ بصيغةِ "تعقلونَ" فِي أربعٍ وعشرينَ موضعًا فِي القرآنِ؛ منهَا قولهُ تعالَى:

"كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"[البقرة: 242]، وقولهُ تعالَى: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"[يوسف: 2].

ب) ووردَ بصيغةِ "يعقلونَ" فِي اثنينِ وعشرينَ موضعًا؛ منهَا قولهُ تعالَى: "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ"[البقرة: 171].

ج) ووردَ بصيغةِ "يعقِلُهَا" مرةً واحدةً فِي قولهِ تعالَى: "وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ"[العنكبوت: 43].
~~~~~~~~~~~

د) وورد بصيغة "نعقلُ" مرةً واحدةً فِي قولهِ تعالَى: "وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ" [الملك: 10].

هـ) وورد بصيغة "عقَلوهُ" مرَّةً واحدةً فِي قولهِ تعالَى: "ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" [البقرة: 75].

2) وُرودهُ بلفظِ الألبابِ وهوَ جمعُ لُبٍّ:

وقدْ وردتْ كلمةُ "الألبابِ" فِي القرآنِ فِي صفةِ أصحابِ العقولِ ستَّ عَشْرةَ مرةً فِي القرآنِ الكريمِ؛ منهَا قولهُ تعالَى: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ" [البقرة: 179]، وقولهُ تعالَى: "وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" [البقرة: 269].

3) ورودهُ بلفظِ النُّهَى الدالِّ علَى العقلِ:

وقدْ وردتْ أيضًا كلمةُ "النُّهَى" فِي القرآنِ لتدلَّ علَى أصحابِ العقولِ أيضًا، مرَّتينِ فِي القرآنِ؛ وهمَا قولهُ تعالَى: "وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى" [طه: 54]، وقولهُ تعالَى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى" [طه: 128].

4) ورودهُ بلفظِ القلبِ:

وقدْ وردَ فِي القرآنِ الكريمِ لفظُ "القلبِ" ليدلَّ علَى العقلِ أيضًا فِي إحدَى دلالاتهِ، وذُكرَ القلبُ عامَّةً فِي القرآنِ فِي مائةٍ وأربعٍ وأربعينَ موضعًا، قالَ تعالَى: "لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا" [الأعراف: 179]، وقالَ سبحانهُ: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" [ق: 37].

5) ورودهُ بلفظِ الحِجْر:

وردَ العقلُ بلفظِ "الحِجْرِ" ليدلَّ علَى العقلِ مرَّةً واحدةً فِي القرآنِ الكريمِ، قالَ تعالَى: "هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ" [الفجر: 5].

6) وُرودهُ بلفظِ الفكرِ الذِي هوَ نتاجُ العقلِ:

أ) وردَ بصيغةِ "فكَّر" مرَّةً واحدةً فِي قولهِ تعالَى : "إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19)" [المدثر: 18، 19].

ب) ووردَ بصيغةِ "تتفكَّرُوا" مرَّةً واحدةً أيضًا فِي قولهِ تعالَى: "أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا" [سبأ: 46].

جـ) ووردَ بصيغةِ "تتفكَّرونَ" ثلاثَ مرَّاتٍ؛ منهَا قولهُ تعالَى: "كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ" [البقرة: 219].

د) ووردَ بصيغةِ "يتفكَّرُوا" مرَّتينِ؛ منهَا قولهُ تعالَى: "أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ" [الروم: 8].

هـ) ووردَ بصيغةِ "يتفكَّرونَ" إحدَى عشرةَ مرَّةً، منهَا قولهُ تعالَى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" [الرعد: 3][1].

والنَّاظرُ لمَا سبقَ يرَى أنَّ لفظَ القلبِ باختلافِ ألفاظهِ جاءَ بينَ مدحٍ وذمٍّ.

العقلُ لغةً:

أصلُ مادَّةِ (عقل) تدلُّ علَى حُبسةٍ فِي الشَّيءِ أوْ مَا يقاربُ الحُبسةَ، منْ ذلكَ العقلُ، وهوَ الحابسُ عنْ ذميمِ القولِ والفعلِ[2].

والعقلُ أيضًا: نقيضُ الجهلِ، يقالُ: عَقِلَ يعقلُ عقلًا فهوَ عاقلٌ، والمعقولُ: مَا تعقِلُهُ فِي فؤادكَ، ويقالُ: هوَ مَا يُفهمُ منَ العقلِ[3].

وأصلُ العقلِ: الإمساكُ والاستمساكُ، كعقلِ البعيرِ بالعقالِ، وعقلِ الدَّواءِ البطنِ[4].

قالَ الزبيديُّ: العقلُ هوَ العلمُ بصفاتِ الأشياءِ منْ حسنهَا وقبحهَا، وكمالهَا ونقصانهَا[5].

وهوَ مأخوذٌ منَ عقالِ الدَّابةِ، فكذلكَ العقلُ يمنعُ صاحبهُ منَ الكفرِ والجحودِ[6].

العقلُ اصطلاحًا:

عرَّفهُ ابنُ عطيَّةَ بأنَّهُ: الإدراكُ المانعُ منَ الخطأِ[7].

ويقولُ الأصفهانِي: هوَ القوَّةُ المتهيِّئةُ لقبولِ العلمِ، ويقالُ للعلمِ الذِي يستفيدهُ الإنسانُ بتلكَ القوَّةِ عقلٌ[8].

وقيلَ: إنَّ العقلَ هوَ المدركُ للأشياءِ علَى مَا هيَ عليهِ منْ حقائقِ المعانِي[9].

وأُسمِيَ العقلُ عقلًا: لأنَّهُ يعقلُ بهِ مَا ينفعهُ منَ الخيرِ، وَ ينعقلُ بهِ عمَّا يضرُّهُ[10].

فالعقلُ يُميِّزُ بهِ الحقُّ والباطلُ، ويمنعُ صاحبهُ منِ ارتكابِ مَا يضرُّ.

ألفاظُ ذاتُ صلةٍ بالعقلِ:

اللُّبُّ:

اللُّبُّ لغةً:

لُبُّ: لُبُّ كُلِّ شيءٍ: داخلُهُ، ولُبابُهُ أيضًا، وكذلكَ الخالصُ الخيارُ منْ كلِّ شيءٍ[11]، واللُّبُّ: خُلاصةُ الشَّيءِ وقلبُهُ، ولُبُّ الرَّجلِ: مَا جعلَ فِي قلبهِ منَ العقلِ، وشيءٌ لبابٌ: خالصٌ. وقالَ ابنُ جنِّي: هوَ لبابُ قومهِ، وهمْ لبابُ قومهمْ، وهيَ لبابُ قومهَا، ولبيبٌ: عاقلٌ ذُو لبٍّ[12]. لببَ: الألبابُ: العقولُ[13].

اللُّبُّ اصطلاحًا:

أطلقَ هنَا علَى عقلِ الإنسانِ؛ لأنَّهُ أنفعُ شيءٍ فيهِ، ولبُّ الرَّجلِ: مَا جعلَ فِي قلبهِ منَ العقلِ[14]، وقيلَ: هوَ مَا زكَى منَ العقلِ، فكلُّ لبٍّ عقلٌ وليسَ كلُّ عقلٍ لُبًّا[15].

الصِّلةُ بينَ العقلِ واللبِّ:

كلُّ لبيبٍ لهُ عقلٌ حصيفٌ، يعقلُ بهِ خالصَ الأمورِ وأنفعهَا.

النُّهَى:

النُّهَى لغةً:

نَهَيَ: النُّونُ والهاءُ والياءُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ علَى غايةٍ وبلوغٍ[16]، و النُّهيةُ: العقلُ؛ لأنَّهُ ينهَى عنْ قبيحِ الفعلِ والجمعُ نُهَى[17]، وهوَ الزَّجرُ عنِ الشَّيءِ[18]، وجُعلَ اسمًا للعقلِ الذِي انتهَى منَ المحسوساتِ إلَى معرفةِ مَا فيهِ منَ المعقولاتِ[19].

النُّهَى اصطلاحًا:

النُّهَى اصطلاحًا لهُ نفسُ المعنَى اللُّغوِي، فقولهُ تعالَى: "وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى"[طه: 54]، فسَّرهُ القرطبِي بقولهِ: (إنَّ فِي ذلكَ لآياتٍ لأولِي النُّهَى) قالَ لهمْ ذلكَ؛ لأنَّهمْ الذينَ ينتهَى إلَى رأيهمْ، وقيلَ: لأنَّهمْ ينهونَ النَّفسَ عنِ القبائحِ[20].

وقالَ البغوِي: (لآياتٍ لأولِي النُّهَى) لذوِي العقولِ، واحدتهَا: نهيةٌ سمِّيتْ نُهيةً لأنَّهَا تنهَى صاحبهَا عنِ القبائحِ والمعاصِي.

قالَ الضحَّاكُ: (لأولِي النُّهَى) الذينَ ينتهونَ عمَّا حُرِّمَ عليهِم[21].

وقالَ السَّعدي: النُّهَى، أيِ: العقولُ السَّليمةُ والفطرُ المستقيمةُ والألبابُ التِي تزجرُ أصحابهَا عمَّا لَا ينبغِي[22].

الصِّلةُ بينَ العقلِ والنُّهَى:

العقلُ والنُّهَى مترادفانِ فبالعقلِ يُمْنَعُ الشَّخصُ عنِ ارتكابِ المعصيةِ، وبالنُّهَى ينزجرُ وينتهِي عنِ المحرَّماتِ والمعاصِي.

الحجَا:

الحجَا لغةً:

الحاءُ والجيمُ والحرفُ المعتلُّ أصلانِ متقاربانِ، أحدهمَا إطافةُ الشَّيءِ بالشَّيءِ وملازمتهُ، والآخرُ القصدُ والتعمُّدُ[23]، الحجَا: السِّترُ والعقلُ[24]، و"حجَا": مفردٌ، الجمعُ أحجاءٌ، وأحجيةٌ: عقلٌ وفطنةٌ، منْ ذوِي الحجَا: ذكيٌ حكيمٌ[25].

الحجَا اصطلاحًا:

الحجَا هوَ ثباتُ العقلِ منْ قولهِمْ: تَحَجَّى بالمكانِ إذَا أقامَ فيه[26].

الصِّلةُ بينَ العقلِ والحجَا:

بالعقلِ يتمُّ الفهمُ والحفظُ، وبالحجةِ يقوَى علَى الاستنباطِ وإظهارِ المعانِي.

الذِّهنُ:

الذِّهنُ لغةً:

الذَّالُ والهاءُ والنُّونُ أصلٌ يدلُّ علَى قوَّةٍ، وهوَ الفطنةُ للشَّيءِ والحفظُ لهُ[27].

الذِّهنُ اصطلاحًا:

هوَ قوَّةٌ للنَّفسِ معدَّةٌ لاكتسابِ العلومِ، تشملُ الحواسَ الظَّاهرةَ والباطنةَ(28)، وقيلَ: هوَ قوَّةٌ للنَّفسِ تشملُ الحواسَ الظَّاهرةَ والباطنةَ معدَّةٌ لاكتسابِ العلومِ، وهوَ الاستعدادُ التَّامُ لإدراكِ العلومِ والمعارفِ بالفكرِ(29).

الصِّلةُ بينَ الذِّهنِ والعقلِ:

بالعقلِ والذِّهنِ يتمُّ الفهمُ والحفظُ وإدراكُ العلومِ والمعارفِ، وذلكَ باشتراكِ الحواسِ الظَّاهرةِ والباطنةِ.

الحجرُ:

الحجرُ لغةً:

الحاءُ والجيمُ والرَّاءُ أصلٌ واحدٌ مطردٌ، وهوَ المنعُ والإحاطةُ(30).

الحجرُ اصطلاحًا:

هوَ قولهُ تعالَى لذِي حجرٍ أيْ: عقلٍ ولبٍّ، فمنْ كانَ ذَا عقلٍ ولبٍّ علمَ، قالَ الحسنُ: لذِي حجرٍ، أي: لذِي حلمٍ، وقالَ أبُو مالكٍ: لذِي سترٍ منَ النَّاسِ، وقالَ الجمهورُ: الحجرُ: العقلُ. قالَ الفرَّاءُ: الكلُّ يرجعُ إلَى معنًى واحدٍ، لذِي عقلٍ ولذِي حلمٍ ولذِي سترٍ، الكلُّ بمعنَى العقلِ. والعربُ تقولُ: إنَّهُ لذُو حجرٍ إذَا كانَ قاهرًا لنفسهِ ضابطًا لهَا(31).

الصِّلةُ بينَ العقلِ والحجرِ:

صاحبُ العقلِ السَّليمِ والفطرةِ السويَّةِ يكونُ ذَا حِجْرٍ، حيثُ يمنعُ صاحبهُ ويحجرهُ عنِ الوقوعِ فِي مَا لَا يحلُّ لهُ، ولَا يليقُ بهِ منَ القبائحِ.

(1) شبكة الألوكة "العقل في القرآن الكريم" مقالة: فهمي قطب الدين النَّجار.

(2) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦٩/٤، مجمل اللغة، ابن فارس، ٦١٧/١.

(3) انظر: العين، الفراهيدي، ١٥٩/١، جمهرة اللغة، أبو بكر الأزدي، ٩٣٩/٢، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده المرسي، ٢٠٥/١.

(4) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص٥٧٨.

(5) انظر: تاج العروس ١٨/٣٠.

(6) انظر: معالم التنزيل، البغوي،٨٨/١.

(7) انظر: المحرر الوجيز،١٣٧/١.

(8) انظر: المفردات ص٥٧٧.

(9) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٧٠/١.

(10) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥١.

(11) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد،٤٥١/٢.

(12) جمهرة اللغة، الأزدي ٧٦/١، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣٦٦/١٠، وانظر: لسان العرب، ابن منظور ٧٢٩/١.

(13) تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، أبو حيان الأندلسي،٢٧٤/١.

(14) لسان العرب، ابن منظور،٧٢٩/١.

(15) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٣٣.

(16) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣٥٩/٥.

(17) المصدرالسابق.

(18) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٢٦.

(19) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني،١٣٧/١.

(20) تفسير القرطبي.

(21) تفسير البغوي.

(22) تيسير الكريم الرحمن، ص٥١٦.

(23) مقاييس اللغة، ابن فارس،١٤١/٢.

(24) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٥٩/١.

(25) معجم اللغة العربية المعاصرة، د.أحمد مختار - ٤٥١/١.

(26) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٨٥.

(27) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣٦٣/٢.

(28) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص١٧١.

(29) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري،ص٨٥.

(30) مقاييس اللغة، ابن فارس،١٣٨/٢.

(31) فتح القدير، الشوكاني، ٥٢٨/٥.

نعمةُ العقلِ:

إنَّ منْ أفضلِ نعمِ اللهِ تعالَى علَى عبادهِ نعمةُ العقلِ، فلولَا العقلُ لمَا عَرَفَ الإنسانُ دينَ الإسلامِ والنبوَّةَ، والخيرَ والشرَّ، والحقَّ والباطلَ، والمعروفَ والمنكرَ.

قالَ تعالَى: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا" [الإسراء: 70].

فاللَّهُ سبحانهُ وتعالَى فضَّلَ بنِي آدمَ علَى غيرهمْ منَ الجماداتِ والحيواناتِ، والنَّباتاتِ بهذَا العقلِ.

فإذَا فقدَ الإنسانُ العقلَ السَّليمَ الذِي يقودهُ إلَى الخيرِ ويبعدهُ عنِ الشرِّ، فقدْ أصبحَ كالبهيمةِ التِي تأكلُ وتشربُ ولَا تعقلُ شيئًا، بلْ إنَّهَا خيرٌ منهُ كمَا فِي قولهِ تعالَى: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" [الأعراف: 179].

قالَ ابنُ حزمٍ: وَحَدُّ العقلِ ينطوِي فيهِ فعلُ الطَّاعاتِ والفضائلِ، واجتنابِ المعاصِي والرذائلِ، وقدْ نصَّ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ علَى أنَّ منْ عصاهُ لَا يعقلُ.

قالَ تعالَى: "وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ" [الملك: 10].

وَحَدُّ الحمقِ: استعمالُ المعاصِي والرذائلِ، وهوَ ضدُّ العقلِ، ولَا واسطةَ بينَ الحمقِ والعقلِ إلَّا السُّخفُ(1).

وأفضلُ مواهبِ اللهِ لعبادهِ العقلُ، ولقدْ أحسنَ الذِي قالَ(2):

أفضلُ قسمِ اللهِ للمرءِ عقلـــــــهُ*فليسَ منَ الخيراتِ شيءٌ يقاربهُ
إذَا أكملَ الرَّحمنُ للمرءِ عقلـــــهُ*فقدْ كملتْ أخلاقهُ ومآربـــــــــهُ

يعيشُ الفتَى فِي النَّاسِ بالعقلِ إنَّهُ*علَى العقلِ يجرِي علمهُ وتجاربهُ
يزيدُ الفتَى فِي النَّاسِ جودةُ عقلِه*وإنْ كانَ محظورًا عليهِ مكاسبهُ
قال تعالى: "وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ" [النور: 40].
وقدْ جُعِلَ للعقلِ نَظَرٌ وإدراكٌ ورؤيةٌ وإبصارٌ، وجعلَ لهُ أضدادُهُ منَ العمَى وغيرهِ، قالَ اللهُ تعالَى: "وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ" [الأعراف: 198](3)**.**
إنَّمَا العاقلُ منْ وَحَّدَ اللهَ تعالَى وعملَ بطاعتهِ، وقالَ تعالَى حكايةً عنْ أهلِ النَّارِ: "وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ" [الملك: 10](4)**.**
قيلَ لابنِ المباركِ: مَا خيرُ مَا أُعطيَ الرَّجلُ؟ قالَ: غريزةُ عقلٍ، قيلَ: فإنْ لمْ يكنْ؟ قالَ: أدبٌ حسنٌ، قيلَ: فإنْ لمْ يكنْ؟ قالَ: أخٌ صالحٌ يستشيرهُ، قيلَ: فإنْ لمْ يكنْ؟ قالَ: صمتٌ طويلٌ، قيلَ: فإنْ لمْ يكنْ؟ قالَ: موتٌ عاجلٌ(5).
وفِي الصَّحيحينِ منْ حديثِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رضيَ اللهُ عنهمَا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: ... ألَا وإنَّ فِي الجسدِ مضغةً، إذَا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذَا فسدتَ فسدَ الجسدُ كلُّهُ، ألَا وهيَ القلبُ(6).
فإذَا آمنَ القلبُ، آمنتْ الجوارحُ بفعلِ المأموراتِ وتركِ المنهيَّاتِ؛ لأنَّ القلبَ أميرُ البدنِ، وذلكَ يدلُّ دلالةً واضحةً علَى أنَّ القلبَ مَا كانَ كذلكَ إلَّا لأنَّهُ محلُّ العقلِ الذِي بهِ الإدراكُ والفهمُ.
وقدْ حشدَ القرآنُ الكريمُ عشراتِ الآياتِ القرآنيَّةِ الدَّاعيةِ إلَى استعمالِ العقلِ والتفكُّرِ والتدبُّرِ فِي آياتِ اللهِ الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ، وآياتِ اللهِ القرآنيَّةِ، وجعلَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى

التَّفكيرَ فريضةً إسلاميَّةً فقالَ تعالَى: " وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ "[النحل: 44].

وقدْ خصَّ أصحابَ العقولِ الصافيةِ، والقلوبِ النيِّرةِ أولِي الألبابِ، وأصحابِ الفطرةِ السَّليمةِ بهذَا التفكُّرِ والتدبُّرِ، قالَ تعالَى: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ"[آل عمران: 190].

وخَصَّ اللهُ بالآياتِ أولِي الألبابِ، وهمْ أهلُ العقولِ؛ لأنَّهمْ همُ المنتفعونَ بهَا، النَّاظرونَ إليهَا بعقولهمْ لَا بأبصارهمْ[7].

والواجبُ علَى المسلمِ أنْ يقومَ بالمحافظةِ عليهِ؛ كيْ يبقَى سليمًا بعيدًا عنِ الشُّبهاتِ التِي تتسبَّبُ فِي نقصِ الإيمانِ أوِ انعدامهِ كليَّةً، كذلكَ الابتعادُ عنْ تعاطِي كلَّ مَا يخامرُ العقلَ ويؤدِّي بالإنسانِ إلَى ارتكابِ حماقاتٍ أوْ جرائمَ هوَ والمجتمعُ فِي غنًى عنهَا، عدَا ذلكَ الأضرارُ الصحيَّةُ ومَا ينجمُ عنهَا منْ خسائرَ وأضرارَ ماديَّةٍ ومعنويَّةٍ تعودُ علَى الشَّخصِ وعائلتهِ وكذلكَ المجتمع.

لذَا فقدْ حدَّدَ الشَّارعُ الحكيمُ أمورًا لابدَّ منَ الابتعادِ عنهَا للمحافظةِ علَى العقلِ سليمًا منهَا، قالَ تعالَى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[المائدة: 90].

(1) انظر: الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص٥٨.

(2) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان، ص١٧.

(3) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الأصفهاني، ص١٣٥.

(4) المصدر السابق ص١٣٦.

(5) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان، ص١٧.

(6) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، فضل من استبرأ لدينه، ٢٠/١، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ١٢١٩/٣، رقم ١٥٩٩

(7) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦١.

ثمارُ استعمالِ العقلِ:

أوَّلًا: الهدايةُ:

إنَّ القرآنَ هوَ كتابُ العقلِ، وأنَّهُ بأكملهِ دعوةٌ لتحريرِ العقلِ منْ عقالهِ، وأنَّهُ يدعونَا بعباراتٍ تختلفُ فِي أسلوبهَا وتتَّحدُ فِي معناهَا إلَى استعمالِ العقلِ ووزنِ كلِّ شيءٍ بميزانهِ.

قالَ تعالَى: "قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (67)" [الأنبياء: 66، 67].

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) يعنِي: أليسَ لكمْ عقلٌ تعقلونَ بهِ أنَّ هذهِ الأصنامَ لَا تستحقُّ العبادةَ؟[1].

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) أنَّ منْ ليسَ لهُ ذهنٌ ولَا قوَّةٌ ولَا منفعةٌ ولَا مضرَّةٌ أنْ لَا تعبدوهُ[2].

وقولهُ: (أَفَلا تَعْقِلُونَ) أيْ: أليسَ لكمْ عقلٌ تعرفونَ هذَا؟[3].

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) أيْ: أفلَا تتدبَّرونَ مَا أنتمْ فيهِ منَ الضلالِ والكفرِ الغليظِ، الذِي لَا يروجُ إلَّا علَى جاهلٍ ظالمٍ فاجرٍ؟[4].

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) أيْ: ألَا تتفكَّرونَ فلَا تعقلونَ قبحَ صنيعكمْ[5].

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) أيْ: أفلَا تتدبَّرونَ مَا أنتمْ فيهِ منَ الضَّلالِ والكفرِ الذِي لَا يدينُ بهِ إلَّا كلُّ جاهلٍ ظالمٍ فاجرٍ[6].

قالَ تعالَى: "أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ" [الزمر: 18].

وقولهُ تعالَى: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ) أي: المتَّصفونَ بهذهِ الصِّفةِ همُ الذينَ هداهمُ اللهُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، (وَأُولَٰئِكَ هُمْ

أُولُو الْأَلْبَابِ) أيْ: ذَوُو العقولِ الصَّحيحةِ، والفطرِ المستقيمةِ[7].

وقولهُ تعالَى: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ) أيْ: أرشدهمُ اللهُ إلَى الحقِّ، وقولهُ: (وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) أيْ: أولُو العقولِ[8].

فقولهُ: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ) أيْ: لدينهِ، (وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) أيِ: العقولِ السَّليمةِ عنْ منازعةِ الوهمِ والعادةِ، وفِي ذلكَ دلالةٌ علَى أنَّ الهدايةَ تحصلُ بفعلِ اللهِ وقبولِ النَّفسِ لهاَ[9].

وممَّا سبقَ نجدُ أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالَى أكرمَ الإنسانَ بالعقلِ، وبهذَا العقلِ السَّليمِ اهتدَى لوحدانيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فأكرمهُ اللهُ تعالَى بالهدايةِ والعلمِ، ممَّا زادَ تقواهُ وخشيتهُ للهِ تعالَى، وهذَا فضلٌ منَ اللهِ تعالَى ومنَّةٌ لذوِي العقولِ السَّليمةِ والفطرةِ الصافيةِ.

ثانيًا: مطابقةُ العلمِ للعملِ:

منَ العارِ أنْ يكونَ الإنسانُ متعلِّمًا لأمرٍ معيَّنٍ، ويعلِّمهُ لغيره، وهوَ أولَى أنْ يقومَ بالعملِ بمَا يعلمُ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مادحًا منْ تعلَّم وعلَّمَ، أيْ: منْ عملَ بعلمهِ، فالإنسانُ العاقلُ هوَ منْ يقومُ بالعملِ بمَا يعلمُ، فعنْ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: "خيركمْ منْ تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمهُ"[10].

قالَ الحكماءُ: العقلُ رائدُ الرُّوحِ، والعلمُ رائدُ العقلِ، وحياةُ المروءةِ الصِّدقُ، وحياةُ الرُّوحِ العفافُ، وحياةُ الحلمِ العلمُ، وحياةُ العلمِ الفهمُ، وحياةُ الفهمِ العملُ، وحياةُ العملِ القبولُ[11].

وقالَ بعضهمْ: أفضلُ العقلِ معرفةُ الرَّجلِ نفسهُ، وأفضلُ العلمِ وقوفُ الرَّجلِ عندَ علمهِ[12].

قالَ تعالَى: "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" [البقرة: 44]**.**

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) قيلَ: أنَّ منْ وعظَ النَّاسَ يجتهدُ أن ينفذَ موعظتهُ إلَى القلوبِ، فإذَا خالفَ قولهُ فعلهُ كانَ ذلكَ سببُ تنفيرِ القلوبِ عنْ قبولِ موعظتهِ[13].

فالعقلُ يحثُّ صاحبهُ أنْ يكونَ أوَّلَ فاعلٍ لمَا يأمرُ بهِ، وأوَّلَ تاركٍ لمَا ينهَى عنهُ، فمنْ أمرَ غيرهُ بالخيرِ ولمْ يفعلهُ، أوْ نهاهُ عنِ الشرِّ فلمْ يتركهُ، دلَّ علَى عدمِ عقلهِ وجهلهِ، خصوصًا إذَا كانَ عالمًا بذلكَ، قدْ قامتْ عليهِ الحجَّةُ[14].

وقالَ الحرالِيُّ: ولمَّا كانَ فيهمْ منْ أشارَ علَى منِ استهداهُ بالهدايةِ لاتِّباعِ محمَّدٍ ﷺ، ولمْ يهدُوا أنفسهمْ لمَا أرشدُوا إليهِ غيرهمْ، أعلنَ تعالَى عليهمْ بذلكَ نظمًا لمَا تقدَّمَ منْ نقضِ عهدهمْ ولبسهمْ وكتمهمْ بمَا ظهرَ منْ نقصِ عقولهمْ، فِي أنَّ يظهرَ طريقَ الهدَى لغيرهِ ولَا يتَّبعهُ، فأخرجهمْ بذلكَ عنْ حدِّ العقلِ الذِي هوَ أدنَى أحوالِ المخاطبينَ، وزادَ فِي تبكيتهمْ بجملةٍ حاليَّةٍ حاكيةٍ تلبُّسهمْ بالعلمِ والحكمةِ النَّاهيةِ عمَّا همْ عليهِ[15].

وقولهُ: (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) استفهامٌ عنِ انتفاءِ تعقُّلهمْ استفهامًا مستعملًا فِي الإنكارِ والتَّوبيخِ، نزلُوا منزلةً منِ انتفى تعقُّلهُ فأنكرَ عليهمْ ذلكَ، ووجهُ المشابهةِ بينَ حالهمْ وحالَ منْ لَا يعقلونَ أنَّ منْ يستمرُ بهِ التغفُّلُ عنْ نفسهِ وإهمالُ التفكُّرِ فِي

صلاحهَا معَ مصاحبةِ شيئينِ يذكِّرانهِ، قاربَ أنْ يكونَ منفيًّا عنهُ التعقُّلُ[16].

وهكذَا نجدُ التقريعَ والذمَّ لمنْ لَا يعملُ بمَا يعلِّمهُ للنَّاسِ.

قالَ تعالَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (3)" [الصف: 2، 3].

تتناولُ ذمَّ منْ قالَ مَا لَا يفعلهُ علَى أيِّ وجهٍ كانَ منْ مطلقٍ أوْ مقيَّدٍ بشرطٍ[17].

هذَا الاستفهامُ للتَّقريعِ والتَّوبيخِ، أيْ: لمَ تقولونَ منَ الخيرِ مَا لَا تفعلونهُ؟[18].

أيْ: لمَ تقولونَ الخيرَ وتحثُّونَ عليهِ، وربَّمَا تمدَّحتمْ بهِ وأنتمْ لَا تفعلونهُ، وتنهونَ عنِ الشرِّ، وربَّمَا نزَّهتمْ أنفسكمْ عنهُ، وأنتمْ متلوِّثونَ بهِ ومتَّصفونَ بهِ، فهلْ تليقُ بالمؤمنينَ هذهِ الحالةُ الذَّميمةُ؟ أمْ منْ أكبرِ المقتِ عندَ اللهِ أنْ يقولَ العبدُ مَا لَا يفعلُ؟ ولهذَا ينبغِي للآمرِ بالخيرِ أنْ يكونَ أوَّلَ النَّاسِ إليهِ مبادرةً، وللنَّاهِي عنِ الشرِّ أنْ يكونَ أبعدَ النَّاسِ منهُ[19].

قالَ تعالَى: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ (177) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178)" [الأعراف: 175 – 178].

قالَ قتادةُ: هذَا مثلٌ ضربهُ اللهُ لمنْ عرضَ عليهِ الهدَى فلمْ يقبلهُ[20].

أنَّهُ مالَ إلَى الدُّنيَا ورغبَ فيهَا وآثرهَا علَى الآخرةِ واتَّبعَ هواهُ، أيْ: اتَّبعَ مَا يهواهُ، وتركَ العملَ بمَا يقتضيهِ العلمُ الذِي علَّمهُ اللهُ، وهوَ حطامُ الدُّنيَا[21].

وفِي هذهِ الآياتِ التَّرغيبُ فِي العملِ بالعلمِ، وأنَّ ذلكَ رفعةٌ منَ اللهِ لصاحبهِ، وعصمةٌ منَ الشَّيطانِ، والتَّرهيبُ منْ عدمِ العملِ بهِ، وأنَّهُ نزولٌ إلَى أسفلِ سافلينَ، وتسليطٌ للشَّيطانِ عليهِ، وفيهِ أنَّ اتِّباعَ الهوَى، وإخلادُ العبدِ إلَى الشَّهواتِ، يكونُ سببًا للخذلانِ[22].

هنَا نفيٌ بضربِ المثلِ للمكذِّبينَ بآياتِ اللهِ المنزلةِ علَى رسولهِ الكريمِ بعدَ أنْ أيَّدهَا بالأدلَّةِ العقليَّةِ والكونيَّةِ، وهوَ مثلُ منْ آتاهُ اللهُ آياتهِ فكانَ عالمًا بهَا قادرًا علَى بيانهَا، لكنَّهُ لَا يعملُ بهَا، بلْ يأتِي عملهُ مخالفًا لعلمهِ، لذَا سلبهُ اللهُ مَا آتاهُ[23].

فالعملُ المباركُ المقبولُ هوَ مَا كانَ عنْ علمٍ، كذلَكَ العلمُ الطيِّبُ المباركُ هوَ الذِي ينفعُ صاحبهُ ويعملُ بهِ، فيكونُ حجَّةً لهُ لَا عليهِ، ويرفعُ اللهُ درجاتهِ فِي الجنَّةِ.

ثالثًا: الامتناعُ عنِ المعاصِي:

فالسَّعيدُ الذِي منحهُ اللهُ تعالَى عقلًا سليمًا وقلبًا عامرًا بالتَّقوَى والإيمانِ، فهوَ يكونُ بعيدًا كلَّ البعدِ عنِ المعاصِي؛ لأنَّ قلبهُ مضاءٌ بنورِ الإيمانِ، وعقلهُ النيِّرُ وفطرتهُ السَّليمةُ يصدُّ بهمَا كلَّ خطراتِ الشَّيطانِ، كذلكَ نفسهُ التِي بينَ جنبيهِ

تكونُ مطمئنَّةً، تدعوهُ للعملِ الصَّالحِ والطَّاعةِ والسُّلوكِ القويمِ الذِي يرضِي اللهَ تعالَى عنهُ، فلَا يسلكُ سبلَ الشَّيطانِ الملتويَةِ، بلْ يبتعدُ عنْ كلِّ مَا يغضبُ اللهَ تعالَى، وإنْ وقعَ منهُ الخطأُ سارعَ بالتَّبةِ ولوْ تكرَّرَ الخطأُ كرَّرَ التَّوبةَ.

قالَ تعالَى: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" [الأنعام: 151].

(لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أيْ: لكيْ تنتفعُوا بعقولكمْ[24].

(لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أيْ: تستعملونَ عقولكمْ التِي تعقلُ نفوسكمْ وتحبسهَا عنْ مباشرةِ القبائحِ المذكورةِ[25].

وقولهُ تعالَى: (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) رجاءٌ أنْ يعقلُوا، أيْ: يصيرُوا ذوِي عقولٍ؛ لأنَّ ملابسةَ بعضَ هذهِ المحرَّماتِ ينبِّئُ عنْ خساسةِ عقلٍ، بحيثُ ينزلُ ملابسوهَا منزلةَ منْ لَا يعقلُ، فلذلكَ رجيَ أنْ يعقلُوا[26].

ذلكمْ وصَّاكمْ بهِ اللهُ، وأرشدكمْ، لتعقلُوا الخيرَ والمنفعةَ فِي فعلِ مَا أمرَ بهِ، وتركِ مَا نهَى عنهُ، إذْ هوَ ممَّا تدركهُ العقولُ، وفِي هذَا تعريضٌ بأنَّ مَا همْ عليهِ لَا يُعقلُ لهُ معنَى، ولَا تظهرُ لهُ فائدةٌ عندَ ذوِي العقولِ الرَّاجحةِ[27].

لعلَّكمْ تعقلونَ عنِ اللهِ أوامرهُ ونواهيهِ، أيْ: ليعدكمْ لأنْ تعقلُوا الخيرَ والمصلحةَ فِي فعلِ مَا أمرَ بهِ وتركِ مَا نهَى عنهُ[28].

قالَ تعالَى: "أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (22) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (23) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (24) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27)"[الزخرف: 21 – 27].

أيْ: أنَا أتبرَّأُ ممَّا تعبدونَ إلَّا منَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويجوزُ أنْ يكونَ (إلاَّ) بمعنَى لكنَّ، فيكونُ المعنَى: لكنَّ الذِي فطرنِي فإنَّهُ سيهدينِي، أيْ: سيرشدنِي لدينهِ ويوفِّقنِي لطاعتهِ[29].

يعنِي: بريءٌ منْ معبودكمْ، إلَّا الذِي خلقنِي، فإنِّي لَا أتبرَّأُ منهُ، (فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) يعنِي: يثبِّتنِي علَى دينِ الإسلامِ[30].

قالَ ذلكَ ثقةً باللهِ وتنبيهًا لقومهِ أنَّ الهدايةَ منْ ربِّهِ[31].

لكنَّ الذِي فطرنِي هوَ معبودِي الهادِي المنجِي منَ العذابِ، وفِي هذَا استدعاءٌ لهمْ، وترغيبٌ فِي طاعةِ اللهِ، وتطميعٌ فِي رحمتهِ[32].

فصاحبُ العقلِ السَّليمِ والفطرةِ السَّليمةِ، يمنعُ نفسهُ منِ ارتكابِ المعاصِي والوقوعِ فِي المحرَّماتِ، وذلكَ لأنَّ العقلَ معناهُ: الكفُّ والحبسُ، فهوَ يحبسُ صاحبهُ ويكفُّهُ عنْ كلِّ مَا يغضبُ اللهَ سبحانهُ وتعالَى.

رابعًا: البعدُ عنِ التَّقليدِ المذمومِ:

فقدْ أرسلَ اللهُ تعالَى الرُّسلَ لهدايةِ النَّاسِ والأخذِ بأيديهمْ منَ الظُّلماتِ إلَى النُّورِ وهدايةِ قلوبهمْ بنورِ الإيمانِ، بعدَ مَا كانتْ مظلمةً بظلمةِ الكفرِ، واتِّباعهمْ لتقاليدِ الآباءِ الكفريَّةِ والشركيَّةِ التِي هيَ بعيدةٌ كلَّ البعدِ عنْ شريعةِ الإسلامِ، ولكنَّ بعضهمْ رفضُوا الانقيادَ لمنهجِ اللهِ القويمِ، فكانَ عقابهمْ جهنَّمُ وبئسَ المصيرَ، فخسرُوا الدُّنيَا والآخرةَ، وشبَّههمْ اللهُ تعالَى بالأنعامِ بلْ همْ أضلُّ سبيلًا؛ لتعطيلهمْ عقولهمْ عنِ الفهمِ والإدراكِ، وصمَّهمْ لآذانهمْ، وطمسِ أبصارهمْ عنْ نورِ الهدايةِ والإيمانِ.

فإنَّ البشريَّةَ قدْ بلغتْ رشدهَا فأصبحتْ تقادُ بالعقلِ وحدهُ، ولمْ يعدْ ينفعُ معهَا مجرَّدُ الخوارقِ والقوارعِ الملجئةِ أوْ شبهِ الملجئةِ، فجاءَ الإسلامُ دينًا منطقيًّا، رفعَ منْ قيمةِ العقلِ، ثمَّ هوَ بعدَ ذلكَ يذمُّ التَّقليدَ وينعِي علَى المقلِّدينَ لآبائهمْ وأحبارهمْ ورهبانهمْ(33).

قالَ تعالَى: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ (170) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (171)" [البقرة: 170، 171].

(لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا) يعنِي لَا يعلمونَ شيئًا منْ أمرِ الدِّينِ، لفظهُ عامٌ ومعناهُ خاصٌّ، وذلكَ أنَّهمْ كانُوا يعقلونَ أمرَ الدُّنيَا (وَلاَ يَهْتَدُونَ) أيْ: إلَى الصَّوابِ(34).

قالَ الضحَّاكُ عنِ ابنِ عباسَ: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ) يعنِي: كفَّارَ قريشٍ منْ بنِي عبدِ الدَّارِ، قالُوا: (قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) منْ عبادةِ الأصنامِ، فقالَ اللهُ: (لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا) منَ التَّوحيدِ ومعرفةِ الرَّحمنِ (وَلاَ يَهْتَدُونَ) للحجَّةِ البالغةِ لَا يعقلونَ شيئًا منْ أمرِ الدِّينِ ولَا يهتدونَ.
معنَى الآيةِ فِي أحدِ الأقوالِ: ومثلُ الذينَ كفرُوا فِي قلَّةِ عقلِهمْ وفهمِهمْ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ وعنْ رسولِه وسوءِ قبولِهمْ عنهمَا كمثلِ المنعوقِ بهِ منَ البهائمِ، التي لَا تفقهُ منَ الأمرِ والنَّهيِ غيرَ الصَّوتِ، فكذلكَ الكافرُ فِي قلَّةِ فهمِه وسوءِ تفكُّرِه، فالكافرُ ليسَ لهُ منْ دعائِه الآلهةَ وعبادتِه الأوثانِ إلَّا العناءُ والبلاءُ، ولَا ينتفعُ منهَا بشيءٍ فهمْ لَا يعقلونَ[35].

يقولُ تعالَى ذكرهُ لهؤلاءِ الكفَّارِ: فكيفَ أيُّهَا النَّاسُ تتَّبعونَ مَا وجدتمْ عليهِ آباءكمْ فتتركونَ مَا يأمركمْ بهِ ربُّكمْ، وآباؤكمْ لَا يعقلونَ منْ أمرِ اللهِ شيئًا، ولَا همْ مصيبونَ حقًّا، ولَا مدركونَ رشدًا؟ وإنَّمَا يتَّبعُ المتَّبعُ ذَا المعرفةِ بالشَّيءِ المستعملِ لهُ فِي نفسهِ، فأمَّا الجاهلُ فلَا يتبعهُ (فيمَا هوَ بهِ جاهلٌ) إلَّا منْ لَا عقلَ لهُ ولَا تمييزَ[36].

معناهُ أيتَّبعونَ آباءهمْ وإنْ كانُوا جهَّالًا فيتابعوهمْ بغيرِ حجَّةٍ؟ فكأنَّهُ نهاهمْ عنِ التَّقليدِ وأمرهمْ بالتمسُّكِ بالحجَّةِ[37].

وفِي هذَا دلالةٌ علَى ذمِّ التَّقليدِ (عمومًا)، وهوَ قبولُ الشَّيءِ بلَا دليلٍ ولَا حجَّةٍ، وحكَى ابنُ عطيَّةَ أنَّ الإجماعَ منعقدٌ علَى إبطالهِ فِي العقائدِ، وفِي الآيةِ دليلٌ علَى أنَّ مَا كانَ عليهِ آباؤهمْ هوَ مخالفٌ لمَا أنزلَ اللهُ تعالَى، فاتِّباعُ أبنائهمْ لآبائهمْ

تقليدٌ فِي ضلالٍ، وفِي هذَا دليلٌ علَى أنَّ دينَ اللهِ هوَ اتِّباعُ مَا أنزلَ اللّهُ، لأنَّـهمْ لمْ يؤمرُوا إلَّا بهِ(38).

وهكذَا نجدُ كيفَ أنَّ اللهَ تعالَى ذمَّ المقلِّدينَ للآباءِ أوِ الرُّؤساءِ الجهَّالِ، والمعرضينَ عنِ اتِّباعِ منهجِ اللهِ تعالَى وتعاليمهِ.

قالَ تعالَى: " أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (22) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ"[الزخرف: 21 – 23].

وفِي هذَا دليلٌ علَى إبطالِ التَّقليدِ، لذمِّهِ إيَّاهمْ علَى تقليدِ آبائـهمْ وتركهمْ النَّظرَ فيمَا دعاهمْ إليهِ الرَّسولُ ﷺ (39).

أيْ: لمْ يأتُوا بحجَّةٍ عقليَّةٍ أوْ نقليَّةٍ بلِ اعترفُوا بأنَّ لَا سندَ لهمْ سوَى تقليدُ آبائهمُ الجهلةُ مثلهمْ(40).

---

(1) لباب التأويل، الخازن، ٢٢٩/٣.

(2) تفسير السمرقندي، ٤٣١/٢.

(3) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير اليماني، ١١٤/١.

(4) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣٥١/٥.

(5) إرشاد العقل السليم،أبو السعود ٧٦/٦.

(6) التفسير المنير، الزحيلي، ٨٤/١٧.

(7) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٩٠/٧

(8) تفسير السمعاني، ٤٦٤/٤.

(9) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣٩/٥.

(10) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم ٥٠٢٧، ١٩٢/٦.

(11) المجالسة وجواهر العلم، الدينوري، ٣٣٢/٤.

(12) المصدر السابق، ٤٩٣/٤.

(13) لباب التأويل، الخازن، ٤٢/١.

(14) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥١.

(15) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٩٢/١.

(16) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤٧٧/١.

(17) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧٩/١٨.

(18) فتح القدير، الشوكاني، ٢٦١/٥.

(19) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٥٨.

(20) لباب التأويل، الخازن، ٢٧٢/٢.

(21) فتح القدير، الشوكاني، ٣٠٢/٢.

(22) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٠٨.

(23) تيسير التفسير، إبراهيم القطان، ٨٩/٢.

(24) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣١٥/٤.

(25) إرشاد العقل السليم،أبو السعود، ١٩٩/٣.

(26) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨ أ/١٦٢.

(27) التفسير الواضح، محمد محمود الحجازي، ٦٨٢/١.

(28) التفسير المنير، الزحيلي، ٩٨/٨.

(29) مفاتيح الغيب، الرازي، ٦٢٩/٢٧.

(30) تفسير السمرقندي، ٢٥٥/٣.

(31) النكت والعيون، الماوردي، ٢٢٢/٥.

(32) الجواهر الحسان، الثعالبي، ١٧٨/٥.

(33) انظر: مجلة البحوث الإسلامية، محمد حسين الذهبي، ٥٩/١.

(34) لباب التأويل، الخازن، ١٠٢/١.

(35) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ٤٣/٢.

(36) جامع البيان، الطبري، ٣٠٧/٣.

(37) تفسير السمرقندي، ١١٢/١.

(38) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ١٠٣/٢.

(39) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧٥/١٦.

(40) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤٣/٨.

وهذَا منْ أعظمْ الأدلَّةِ الدَّالةِ علَى بطلانِ التَّقليدِ وقبحهِ، فإنَّ هؤلاءِ المقلِّدةِ فِي الإسلامِ إنَّمَا يعملونَ بقولِ أسلافهمْ، ويتبعونَ آثارهمْ، ويقتدونَ بهمْ، فإذَا رامَ الدَّاعِي إلَى الحقِّ أنْ يخرجهمْ منْ ضلالةٍ، أوْ يدفعهمْ عنْ بدعةٍ قدْ تمسَّكُوا بهَا وورثوهَا عنْ أسلافهمْ بغيرِ دليلٍ نَيِّرٍ، ولَا حجَّةٍ واضحةٍ، بلْ بمجرَّدِ قالَ وقيلَ لشبهةٍ داحضةٍ، وحجَّةٍ زائفةٍ، ومقالةٍ باطلةٍ، قالُوا بمَا قالهُ المترفونَ منْ هذهِ المللِ: إنَّا وجدنَا آباءنَا علَى أمَّةٍ وإنَّا علَى آثارهمْ مقتدونَ[1].

أيْ: لمْ يأتُوا بحجَّةٍ عقليَّةٍ، أوْ نقليَّةٍ، بلِ اعترفُوا بتقليدِ آبائهمْ الجهلةِ، وقالُوا: إنَّا وجدنَا آباءنَا علَى حالةٍ عظيمةٍ تقصدُ، وإنَّا مهتدونَ علَى أعمالهمْ، وكذلكَ، أيْ: والأمرُ كمَا ذكرَ منْ عجزهمْ عنِ الحجَّةِ وتمسُّكهمْ بالتَّقليدِ[2].

وهذَا الاحتجاجُ منْ هؤلاءِ المشركينَ الضَّالينَ، بتقليدهمْ لآبائهمْ الضَّالينَ، ليسَ المقصودُ بهِ اتِّباعُ الحقِّ والهدَى، وإنَّمَا هوَ تعصُّبٌ محضٌ، يرادُ بهِ نصرةُ مَا معهمْ منَ الباطلِ[3].

هذَا الكلامُ مسوقٌ مساقَ الذمِّ لهمْ إذْ لمْ يقارنُوا بينَ مَا جاءهمْ بهِ الرَّسولُ ﷺ وبينَ مَا تلقَّوهُ منْ آبائهمْ، فإنَّ شأنَ العاقلِ أنْ يميِّزَ مَا يُلقَى إليهِ منَ الاختلافِ ويعرضهُ علَى معيارِ الحقِّ[4].

ليستْ لهمْ حجَّةٌ عقليَّةٌ ولَا حجَّةٌ نقليَّةٌ تبرِّرُ لهمْ أفعالهمْ، وإنَّمَا السَّببُ الحقيقِي أنَّهمْ يقلِّدونَ آباءهمْ تقليدَ الأعمَى معَ التَّعصُّبِ الشَّديدِ ولوْ كانُوا علَى باطلٍ[5].

وهذَا دليلٌ علَى إبطالِ التَّقليدِ فِي العقائدِ والأصولِ، لأنَّ اللهَ ذمَّهمْ علَى تقليدِ آبائهمْ، وتركهمُ النَّظرَ فيمَا دعاهمْ إليهِ الرَّسولُ ﷺ(6).

قالَ سبحانهُ عنْ أهلِ النَّارِ: "وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ" [الملك: 10].

فقدْ كانتْ لديهمْ عقولٌ وأسماعٌ لزمتهمْ بهَا الحجَّةُ عندَ اللهِ تعالَى(7).

قالَ تعالَى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ" [لقمان: 21].

بيَّنَ أنَّ مجادلتهمْ معَ كونهَا منْ غيرِ علمٍ فهيَ فِي غايةِ القبحِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يدعوهمْ إلَى كلامِ اللهِ، وهمْ يأخذونَ بكلامِ آبائهمْ، وبينَ كلامِ اللهِ وكلامِ العلماءِ بَوْنٌ عظيمٌ، فكيفَ مَا بينَ كلامِ اللهِ وكلامِ الجهَّالِ؟!(8).

(قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) أيْ: وإذَا قيلَ لهؤلاءِ المجادلينَ فِي توحيدِ اللهِ: اتَّبعُوا مَا أنزلَ اللهُ علَى رسولهِ منَ الشَّرائعِ المطهَّرةِ، لمْ يكنْ لهمْ حجَّةٌ إلَّا اتِّباعُ الآباءِ الأقدمينَ فيمَا اعتقدُوه منْ دينٍ، وهذَا فِي غايةِ القبحِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ يدعوهمْ إلَى كلامِ اللهِ الهادِي إلَى الحقِّ والخيرِ، وهمْ يأخذونَ بكلامِ آبائهمْ، وهذَا منعٌ صريحٌ منَ التَّقليدِ فِي أصولِ العقيدةِ، لذَا وبَّخهمُ اللهُ علَى سوءِ مقالتهمْ(9).

فهذَا هوَ سندهمُ الوحيدُ، وهذَا هوَ دليلهمُ العجيبُ! التقليدُ الجامدُ المتحجِّرُ الذِي لَا يقومُ علَى علمٍ ولَا يعتمدُ علَى تفكيرٍ.

التَّقليدُ الذِي يريدُ الإسلامُ أنْ يحرِّرهمْ منهُ، وأنْ يُطلقَ عقولَهمْ للتدبُّرِ وينشرَ فيهَا اليقظةَ والحركةَ والنُّورَ، فيأبُوا همُ الانطلاقَ منْ إسارِ الماضِي المنحرفِ، ويتمسَّكُوا بالأغلالِ والقيودِ.

إنَّ الإسلامَ حريَّةٌ فِي الضَّميرِ، وحركةٌ فِي الشُّعورِ، وتَطَلُّعٌ إلَى النُّورِ، ومنهجٌ جديدٌ للحياةِ، طليقٌ منْ إسارِ التَّقليدِ والجمودِ، ومعَ ذلكَ كانَ يأباهُ ذلكَ الفريقُ منَ النَّاسِ، ويدفعونَ عنْ أرواحهمْ هداهُ، ويجادلونَ فِي اللهِ بغيرِ علمٍ ولَا هدًى ولَا كتابٍ منيرٍ(10).

وإذَا دعُوا إلَى اتِّباعِ وحيِ اللهِ رجعُوا إلَى التَّقليدِ المحضِ بغيرِ حجَّةٍ فسلكُوا طريقَ الآباءِ، فكانَ القائلُ منهمْ يقولُ: همْ يتَّبعونَ دينَ آبائهمْ ولوْ كانَ مصيرهمْ إلَى السَّعيرِ(11).

خامسًا: إدراكُ الحكمةِ منَ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ:

لقدْ مَنَّ اللهُ علَى النَّاسِ بنعمةِ العقلِ، ليُهتدَى بهِ خلالَ رحلةِ الحياةِ، فعنْ طريقهِ يُعبدُ اللهَ تعالَى علَى بصيرةٍ، حيثُ تُتدبَّرُ الأحكامَ الشَّرعيَّةِ، بينَ تعلُّمهَا وفهمهَا وفقهِ مَا بهَا منْ أوامرَ ونواهٍ، فبإدراكِ الحكمةِ يزدادُ اليقينُ، ويقوَى الإيمانُ، وتتَّسعُ مداركُ العقولُ.

إنَّ الآياتِ التَّشريعيَّةِ التِي تبيِّنُ فضلَ اللهِ علَى النَّاسِ فِي تشريعِ الأحكامِ لهمْ كثيرةٌ تكفلُ القسمَ المدنِي منَ القرآنِ بهَا، وجاءتْ وفقَ مبادئِ الإسلامِ العظيمِ فِي التَّيسيرِ ورفعِ الحرجِ وغيرهَا، ممَّا ميَّزَ طبيعةَ التَّشريعِ الإسلاميِّ عنْ غيرهِ، وهنَا فنحنُ أمامَ مجموعةٍ منَ الآياتِ المتحدِّثةِ عنْ حكمةِ تحريمِ الخمرِ والميسرِ، وعنْ مشروعيَّةِ النَّفقةِ والصَّدقةِ، وعنْ

أهميَّةِ سنَّةِ الزَّواجِ، وهيَ أمورٌ قليلةٌ إنْ قورنتْ بمجموعِ مَا تحدَّثَ عنهُ القرآنُ فِي مسائلِ التَّشريعِ، لكنْ طلبَ التَّفكيرِ فيهَا ربَّمَا لأمورٍ خفيَّةٍ قدْ لَا تُدركُ بمجرَّدِ العقلِ أوِ السَّمعِ، فلَا بدَّ منْ إعمالِ الفكرِ فيهَا[12].

القرآنُ العظيمُ جاءَ بهداياتٍ كاملةٍ تامَّةٍ، تفِي بحاجاتِ جميعِ البشرِ فِي كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ لأنَّ الذِي أنزلهُ هوَ العليمُ بكلِّ شيءٍ، خالقُ البشريَّةِ والخبيرُ بمَا يصلحهَا ويفسدهَا، ومَا ينفعهَا ويضرُّهَا، فإذَا شرعَ أمرًا جاءَ فِي أعلَى درجاتِ الحكمةِ والخبرةِ، قالَ تعالَى: "أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" [الملك: 14].

ويزدادُ الوضوحُ عندَ التأمُّلِ فِي أحوالِ الأنظمةِ والقوانينِ البشريَّةِ التِي يظهرُ عجزهَا عنْ معالجةِ المشكلاتِ البشريَّةِ، ومسايرةِ الأوضاعِ والأزمنةِ والأحوالِ، ممَّا يضطرُّ أصحابهَا إلَى الاستمرارِ فِي التَّعديلِ والزِّيادةِ والنقصِ، فيلغونَ غدًا مَا وضعوهُ اليومَ؛ لأنَّ الإنسانَ محلُّ النَّقصِ والخطأ، والجهلِ لأعماقِ النَّفسِ البشريَّةِ، والجهلِ بمَا يحدثُ غدًا فِي أوضاعِ الإنسانِ وأحوالهِ وفيمَا يصلحُ البشريَّةَ فِي كلِّ عصرٍ ومصرٍ[13].

قالَ تعالَى: "كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" [البقرة: 242].

أيْ: لكيْ تعقلُوا مَا بيَّنتُ لكمْ منَ الفرائضِ والأحكامِ ومَا فيهِ صلاحكمْ وصلاحِ دينكمْ[14].

ولمَّا بيَّنَ تعالَى هذهِ الأحكامِ العظيمةِ المشتملةِ علَى الحكمةِ والرَّحمةِ امتنَّ بهَا علَى عبادهِ فقالَ: (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)، أيْ: حدودهُ، وحلالهُ وحرامهُ والأحكامُ

النَّافعةُ لكمْ، لعلَّكمْ تعقلونـهَا فتعرفونـهَا وتعرفونَ المقصودَ منـهَا، فإنَّ منْ عرفَ ذلكَ أوجبَ لهُ العملُ بهَا[15].

فكذلكَ أبيِّنُ لكمْ سائرَ الأحكامِ فِي آياتِي التِي أنزلتهَا علَى نبيٍّ محمَّدٍ ﷺ فِي هذَا الكتابِ، لتعقلُوا حدودِي، فتفهمَوا اللَّازمَ لكمْ منْ فرائضِي، وتعرفُوا بذلكَ مَا فيهِ صلاحُ دينكمْ ودنياكمْ، وعاجلكمْ وآجلكمْ، فتعملُوا بهِ ليُصلحَ ذاتَ بينكمْ، وتنالُوا بهِ الجزيلَ منْ ثوابِي فِي معادكمْ[16].

وعدَ بأنَّهُ سيبيِّنُ لعبادهِ منَ الدَّلائلِ والأحكامِ مَا يحتاجونَ إليهِ معاشًا ومعادًا، لعلَّكمْ تفهمونـهَا فتستعملونَ العقلَ فيهَا[17].

أيْ: مثلُ هذَا التبيينِ الذِي سبقَ منَ الأحكامِ، يبيِّنُ لكمْ فِي المستقبلِ مَا بقيَ منَ الأحكامِ التِي يكلِّفهَا العبادَ، لعلَّكمْ تعقلونَ مَا يرادُ منكمْ منِ التزامِ الشَّرائعِ والوقوفِ عندهَا، لأنَّ التَّبيينَ للأشياءِ ممَّا يتَّضحُ للعقلِ بأوَّلِ إدراكٍ، بخلافِ الأشياءِ المغيَّباتِ والمجملاتِ، فإنَّ العقلَ يرتبكُ فيهَا، ولَا يكادُ يحصلُ منهَا علَى طائلٍ[18].

قالَ تعالَى: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" [الأنعام: 151].

أيْ: لكيْ تعقلُوا فوائدَ هذهِ التَّكاليفِ فِي الدِّينِ والدُّنيَا[19].

أيْ: ليعدكمْ لأنْ تعقلُوا الخيرَ والمصلحةَ فِي فعلِ مَا أمرَ بهِ وتركَ مَا نـهَى عنهُ[20].

أيْ: وصَّاكمْ اللهُ بذلكَ لمَا فيهِ منْ إعدادكمْ، وباعثُ الرَّجاءِ فِي أنفسكمْ لأنْ تعقلُوا مَا فيهِ الخيرُ والمنفعةُ فِي تركِ مَا نهَى عنهُ وفعلِ مَا أمرَ بهِ، فإنَّ ذلكَ ممَّا تدركهُ العقولُ الصَّحيحةُ بأدنَى تأمُّلٍ، وفيهِ دليلٌ علَى الحسنِ الذَّاتِي وإدراكِ العقولِ لهُ بنظرِهَا، وإذَا هيَ عقلتْ ذلكَ كانَ عاقلًا لهَا ومانعًا منَ المخالفةِ، وفيهِ تعريضٌ بأنَّ مَا همْ عليهِ منَ الشِّركِ وتحريمِ السَّوائبِ وغيرِهَا، ممَّا لَا تُعقلُ لهُ فائدةٌ، ولَا تظهرُ للأنظارِ الصَّحيحةِ فيهِ مصلحةٌ(21).

قالَ تعالَى: "لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" [النور: 61].

فأنزلَ سبحانهُ لهمْ فِي كلِّ وقتٍ شرعًا يليقُ بذلكَ الزَّمانِ علَى لسانِ رسولٍ منْ رُسلهِ عليهمْ الصَّلاةُ والسَّلامُ، جعلَ ذلكَ الشَّرعَ يطابقُ العقلَ السويَّ، والنُّورَ الضَّويَّ، والمنهلَ الرويَّ، والسببَ القويَّ، منْ تمسَّكَ بهِ هُديَ ولمْ يزغْ، حدَّ فيهِ سبحانهُ حدودًا، وأقامَ فيهِ زواجرَ، لتظهرَ حكمتهُ، ويتَّضحَ علمهُ وقدرتهُ، فصارتْ شرائعُ متَّفقةُ الأصولِ، مختلفةُ الفروعِ، بحسبِ الأزمنةِ، إشارةٌ إلَى أنَّ الفاعلَ فِي تغييرِ الأحكامِ بحسبِ الأزمانِ واحدٌ مختارٌ، وامتحانًا للعبادِ، تمييزًا لأهلِ الصَّلاحِ منهمْ منْ أهلِ الفسادِ(22).

أيْ: مَا فِي تضاعيفهَا منَ الشَّرائعِ والأحكامِ، وتعملونَ بموجبهَا، وتحوزونَ بذلكَ سعادةَ الدَّارينِ(23).

تعليلٌ لذلكَ التَّبيينِ برجاءِ تعقُّلِ آياتِ اللهِ سبحانهُ وفهمِ معانيهَا(24).

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ) الدَّالَّاتِ علَى أحكامهِ الشَّرعيَّةِ وحكمهَا، (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) عنهُ فتفهمونهَا، وتعقلونهَا بقلوبكمْ، ولتكونُوا منْ أهلِ العقولِ والألبابِ الرَّزينةِ، فإنَّ معرفةَ أحكامهُ الشَّرعيَّةِ علَى وجههَا، يزيدُ فِي العقلِ، وينمُو بهِ اللبُّ، لكونِ معانيهَا أجلِّ المعانِي، وآدابهَا أجلُ الآدابِ، ولأنَّ الجزاءَ منْ جنسِ العملِ، فكمَا استعملَ عقلهُ للعقلِ عنْ ربِّهِ، وللتفكُّرِ فِي آياتهِ التِي دعاهُ إليهَا، زادهُ منْ ذلكَ(25).

وكذلكَ يبيِّنُ اللهُ للنَّاسِ آياتهِ وحكمهِ لعلَّهمْ يدركونَ المنهجَ الإلهيَّ، ولعلَّهمْ يعقلونَ مَا فِي هذهِ الآياتِ والحججِ(26).

ومنْ هنَا نجدُ أنَّ منَ الحكمةِ التدبُّرُ فِي الآياتِ والأحكامِ الشَّرعيَّةِ، ونوقنُ بأنَّ اللهَ تعالَى حدَّ الحدودَ ووضعَ القيودَ، والفرائضَ والمندوباتِ لحكمةٍ، بعضهَا أعلمَ بهَا عبادهُ، وبعضهُ أخفَى سرَّهَا ولَا يعلمهَا إلَّا هوَ سبحانهُ لغايةٍ يريدهَا سبحانهُ وتعالَى.

سادسًا: عدمُ اتباعِ الشَّيطانِ:

فالعاقلُ منِ ائتمرَ بأوامرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، حيثُ نهَى عبادهُ عنِ اتِّباعِ الشَّيطانِ؛ لأنَّهُ عدوٌّ لهمْ، ولَا يريدُ لهمْ إلَّا الغوايةَ والضَّلالةَ، لذَا علَى المسلمِ العاقلِ أنْ يكونَ دائمَ اليقظةِ، وعقلهُ وقلبهُ منتبهانِ؛ لئلَّا يقعَ فِي شركهِ وهوَ فِي غفلةٍ فيخسرُ الدُّنيَا والآخرةِ.

قالَ تعالَى: "أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ" [يس: 60 – 62].

أيْ: لَا تطيعُوا الشَّيطانَ فِي معصيةِ اللهِ(27).

قدْ رأيتمْ آثارَ الهالكينَ قبلكمْ بطاعةِ الشَّيطانِ، أفلمْ تعقلُوا ذلكَ؟!(28).

وقولهُ عزَّ وجلَّ: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ) أيْ: ألمْ آمركمْ وأوصيكمْ يَا بنِي آدمَ (أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) يعنِي: لَا تطيعوهُ فيمَا يوسوسُ ويزيِّنُ لكمْ منْ معصيَةِ اللهِ (إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) أيْ: ظاهرُ العداوةِ،(وَأَنِ اعْبُدُونِي) أيْ: أطيعونْي ووحِّدونِي (هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) أيْ: لَا صراطَ أقومَ منهُ، وقولهُ تعالَى: (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا) أيْ: خلقًا كثيرًا (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) يعنِي: مَا أتاكمْ منْ هلاكِ الأممِ الخاليةِ بطاعةِ إبليسَ(29).

هذَا تقريعٌ منَ اللهِ للكفرةِ منْ بنِي آدمَ، الذينَ أطاعُوا الشَّيطانَ وهوَ عدوٌّ لهمْ مبينٌ، وعصُوا الرَّحمنَ وهوَ الذِي خلقهمْ ورزقهمْ؛ واتَّبعتمْ الشَّيطانَ فيمَا أمركمْ بهِ، أفمَا كانَ لكمْ عقلٌ فِي مخالفةِ ربِّكمْ فيمَا أمركمْ بهِ منْ عبادتهِ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، وعدولكمْ إلَى اتِّباعِ الشَّيطانِ؟! (30).

ألمْ أوصكمْ يَا بنِي آدمَ أنْ لَا تطيعُوا الشَّيطانَ فيمَا يوسوسُ بهِ إليكمْ منَ المعاصِي، لأنَّهُ لكمْ عدوٌ مبينٌ واضحُ العداوةِ، ولقدْ أضلَّ الشَّيطانُ منكمْ يَا بنِي آدمَ أممًا كثيرةً، أكنتمْ تشاهدونَ آثارَ عقوباتهمْ (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) أنَّهَا لضلالهمْ، أوْ أفلمْ تكونُوا تعقلونَ شيئًا أصلًا، فلذلكَ كفرتمْ ككفرهمْ واستحققتمْ العذابَ مثلهمْ(31).

رجوعٌ إلَى بيانِ معاداةِ الشَّيطانِ معَ ظهورِ عداوتهِ ووضوحِ إضلالهِ لمنْ لهُ أدنَى عقلٍ ورأيٍ[32].

فالشَّيطانُ يأمرُ البعضَ بتركِ عبادةِ اللهِ وبعبادةِ غيرهِ فهوَ توليةٌ، فإنْ لمْ يقدرْ يأمرهُ بعبادةِ اللهِ لأمرِ غيرِ اللهِ منْ رئاسةٍ وجاهٍ وغيرهمَا فهوَ صدٌّ، وهوَ يفضِي إلَى التَّوليةِ؛ لأنَّ مقصودهُ لوْ حصلَ لتركَ اللهَ وأقبلَ علَى ذلكَ الغيرِ فتحصلَ التَّوليةُ[33]. (أي تولَّى الشَّيطانَ، أيِ اتَّخذَ الشَّيطانَ زليًّا)

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) عداوةَ الشَّيطانِ لكمْ[34].

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) أيُّهَا المشركونَ، إذْ أطعتمْ الشَّيطانَ فِي عبادةِ غيرِ اللهِ، أنَّهُ لَا ينبغِي لكمْ أنْ تطيعُوا عدوَّكمْ وعَدُوَّ اللهِ، وتعبدُوا غيرَ اللهِ[35].

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) استفهامُ تقريعٍ علَى تركهمُ الانتفاعَ بالعقلِ[36].

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) عداوتهُ وتعلمُوا أنَّ الواجبَ طاعةُ اللهِ[37].

قالَ تعالَى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (168) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (169)" [البقرة: 168، 169].

فهذَا نهيٌ عنِ اتِّباعِ وحيِ الباطلِ والشرِّ، لأنَّهُ منْ إغواءِ الشَّيطانِ، ثمَّ بيَّنَ كيفيَّةَ عداوتهِ وفنونَ شرِّهِ وإفسادهُ فقالَ: (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء) أيْ: إنَّمَا يوسوسُ الشَّيطانُ ويتسلَّطُ عليكمْ، كأنَّهُ آمرٌ مطاعٌ بأنْ تفعلُوا مَا يسوؤكمْ فِي دنياكمْ وآخرتكمْ، وأنْ تجترحُوا الفواحشَ مَا ظهرَ منهَا ومَا بطنَ، والتَّصرفَ فِي الأكوانِ بدونِ اتِّخاذِ الأسبابِ قدْ ضلُّوا

ضلالًا بعيدًا واتَّبعُوا أمرَ الشَّيطانِ، ومثلهمْ منِ اتَّخذَ رأيَ الرُّؤساءِ حجَّةً فِي الدِّينِ منْ غيرِ أنْ يكونَ بيانًا أو تبليغًا لمَا جاءَ عنِ اللهِ تعالَى، كالذينَ يمنعونَ حكمَ تعدُّدِ الزَّوجاتِ فإذَا ما خطبتهُ بالنَّقلِ الذِي هوَ موافقٌ للعقلِ كانتْ حجَّتهُ وجوبُ اتِّباعِ القانونِ، فهؤلاءِ قدْ أعرضُوا عنْ سننِ اللهِ تعالَى، وأهملُوا نعمةَ العقلِ، واتَّخذُوا منْ دونِ اللهِ الأندادًا بلْ فضَّلوهمْ علَى اللهِ سبحانهُ وتعالَى علوًّا كبيرًا، قالَ تعالَى: "مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ" [الأعراف: 186].

(وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) أيْ: ويأمركمْ أنْ تقولُوا علَى اللهِ فِي دينهِ مَا لَا تعلمونَ علمَ اليقينِ أنَّهُ شرعهُ لكمْ منْ عقائدَ وشعائرَ دينيَّةٍ، أوْ تحليلِ مَا الأصلُ فيهِ التَّحريمُ، أوْ تحريمِ مَا الأصلُ فيهِ الإباحةُ، ففِي كلِّ ذلكَ اعتداءٌ علَى حقِّ الرُّبوبيَّةِ بالتَّشريعِ، وهذَا أقبحُ مَا يأمرُ بهِ الشَّيطانُ، فإنَّهُ الأصلُ فِي إفسادِ العقائدِ وتحريفِ الشَّرائع[38].

أيْ: لَا تطيعوهُ، وهذَا التَّوبيخُ يدخلُ فيهِ التَّوبيخُ عنْ جميعِ أنواعِ الكفرِ والمعاصِي؛ لأنَّهَا كلَّهَا طاعةٌ للشَّيطانِ وعبادةٌ لهُ، فحذَّرتكمْ منهُ غايةَ التَّحذيرِ، وأنذرتكمْ عنْ طاعتهِ، وأخبرتكمْ بمَا يدعوكمْ إليهِ.

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) أيْ: فلَا كانَ لكمْ عقلٌ يأمركمْ بموالاةِ ربِّكمْ ووليِّكمُ الحقُّ، ويزجركمْ عنِ اتِّخاذِ أعدَى الأعداءِ لكمْ وليًّا، فلوْ كانَ لكمْ عقلٌ صحيحٌ لمَا فعلتمْ ذلكَ، فإذَا أطعتمْ الشَّيطانَ وعاديتمُ الرَّحمنَ وكذَّبتمْ بلقائهِ ووردْتُمُ القيامةَ دارَ الجزاءِ وحقَّ عليكمُ القولُ بالعذابِ[39].

وفرَّعَ عليهِ توبيخهمْ بقلَّةِ العقولِ بقولهِ تعالَى: (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ)، فالاستفهامُ إنكاريٌّ عنْ عدمِ كونهمْ يعقلونَ، أيْ:

يدركونَ، إذْ لو كانُوا يعقلونَ لتفطَّنُوا إِلَى إيقاعِ الشَّيطانِ بهِمْ فِي مهاوِي الهلاكِ، وزيادةِ فعلِ الكونِ للإيماءِ إِلَى أنَّ العقلَ لمْ يتكوَّنْ فيهمْ ولَا همْ كائنونَ بهِ[40].

(1) فتح القدير، الشوكاني، ٦٣٢/٤.
(2) مراح لبيد، محمد الجاوي، ٣٨٢/٢.
(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦٤.
(4) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨٧/٢٥.
(5) التفسير الواضح، محمد محمود الحجازي، ٣٨٩/٣.
(6) التفسير المنير، الزحيلي، ١٣٩/٢٥.
(7) مقام العقل في الإسلام، د.محمد عمارة، ص ٧٦.
(8) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٤٥٥/١٥.
(9) التفسير المنير، الزحيلي، ١٦٠/٢١.
(10) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٧٩٣/٥.
(11) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣٥٣/٤.
(12) مصطلح التفكر كما جاء في القرآن الكريم، مجلة الشريعة والقانون، د.محمد خازر المجالي، ص ٥٢.
(13) عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنة، القحطاني، ٥٠/١.
(14) لباب التأويل، الخازن، ١٧٦/١.
(15) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٦.
(16) جامع البيان، الطبري، ٢٦٦/٥.
(17) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١٤٨/١.
(18) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ٥٥٥/٢.
(19) مراح لبيد، محمد الجاوي، ٣٥٤/١.
(20) التفسير المنير، الزحيلي، ٩٨/٨.
(21) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١٦٦/٨.
(22) نظم الدرر، البقاعي، ٣٢١/١٣.
(23) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٩٧/٦.
(24) فتح القدير، الشوكاني، ٦٣/٤.
(25) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٥.
(26) أيسر التفاسير، أسعد حومد، ٢٧٣٤/١.
(27) معالم التنزيل، البغوي، ٢٣/٧.
(28) زاد المسير، الجوزي، ٥٢٩/٣.
(29) لباب التأويل، الخازن، ١١/٤.
(30) انظر: تفسير القرآن العظيم، بن كثير، ٥٨٤/٦.
(31) انظر: التفسير الوسيط، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ٣٨٠/٨.
(32) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٧٢/٤.
(33) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٠١/٢٦.
(34) فتح القدير، الشوكاني، ٤٣٣/٤.
(35) جامع البيان، الطبري، ٥٤٣/٢٠.
(36) مدارك التنزيل، النسفي، ١٠٩/٣.
(37) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤٧/١٥.
(38) انظر: تفسير المراغي، ٤٤/٢.
(39) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٨.
(40) التحرير والتنوير، ابن عاشور،٤٩/٢٣.

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ) أيْ: ألمْ أوصِي وآمرْ علَى لسانِ رسلِي، والعهدُ: الوصيَّةُ، وهذَا منْ جملةِ مَا يُقالُ لهمْ تقريعًا وإلزامًا للحجَّةِ، (أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ) أيْ: أن لَّا تطيعوهُ، والمرادُ: عبادةُ غيرِ اللهِ منَ الآلهةِ الباطلةِ، ممَّا زيَّنَ بهِ الشَّيطانُ وأمرَ بهِ، فهوَ لكمْ (عَدُوٌّ مُبِينٌ) بيِّنُ العداوةِ، (وَأَنِ اعْبُدُونِي) وحِّدونِي وأطيعونِي، أيْ: ألمْ أعهدْ إليكمْ بتركِ عبادةِ الشَّيطانِ، وبعبادتِي، (هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) أيْ: طريقٌ معتدلٌ قويمٌ، وهوَ دينُ الإسلامِ، أفلمْ تكونُوا تعقلونَ عداوةَ الشَّيطانِ وإضلالهُ لكمْ؟![1].

أي: لقدْ عهدتُ إليكمْ يَا بنِي آدمَ عهدًا مؤكَّدًا علَى ألسنةِ رسلِي، أنْ لَا تعبدُوا الشَّيطانَ وأنْ لَا تستمعُوا لوسوستهِ، وأنْ لَا تتَّبعُوا خطواتهِ، لأنَّهُ لكمْ عدوٌّ ظاهرُ العداوةِ، بحيثُ لَا تخفَى عداوتهُ علَى أحدٍ منَ العقلاءِ[2].

وهكذَا نجدُ أنَّ النَّجاةَ فِي مخالفةِ الشَّيطانِ، ولَا يكونُ ذلكَ إلَّا باستعمالِ العقلِ السَّليمِ الذِي يعرفُ اللهَ ويخشاهُ ويهتدِي بهدِي نبيِّهِ ﷺ.

سابعًا: الأدبُ والتَّوقيرُ للرَّسولِ الكريمِ ﷺ والعلماءِ:

لقدْ أرسلَ اللهُ تعالَى رسلهُ لتنيرَ عقولَ النَّاسِ وقلوبهمْ بنورِ الهدايةِ والإيمانِ، لذَا وجبَ اتِّباعهمْ بالحسنَى واحترامهمْ وتوقيرهمْ كمَا أمرَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى، هذَا لأنَّهُ لَا طريقَ يُصلُ للقرآنِ إلَّا عنْ طريقِ النَّبيِّ ﷺ، وبهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُعرفُ منهجُ الهدايةِ والإيمانِ والشَّريعةِ الصَّحيحةِ السَّليمةِ، فوجبَ بذلكَ توقيرهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم والأدبُ معهُ فِي مجلسهِ وفِي غيابهِ وبعدَ موتهِ ﷺ.

قالَ تعالَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ" [الحجرات: 2].

(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ) أيْ: إذَا نطقَ ونطقتمْ، ولَا تجهرُوا لهُ بالقولِ إذَا كلَّمتموهُ؛ لأنَّ رتبةَ النبوَّةِ والرِّسالةِ يجبُ أنْ توقَّرَ وتجلَّ، ولَا يكونُ الكلامُ معَ الرَّسولِ ﷺ كالكلامِ معَ غيرهِ، وكرهَ العلماءُ رفعَ الصَّوتِ عندَ قبرِ رسولِ اللهِ ﷺ، وبحضرةِ العالمِ، وفِي المساجدِ[3].

أمرهمْ (اللهُ تعالَى) أن يبجِّلوهُ ويفخموهُ ويعظِّموهُ، ولَا يرفعُوا أصواتهمْ عندهُ، ولَا ينادوهُ كمَا ينادِي بعضهمْ بعضًا فيقولُ: يَا محمَّدُ، بلْ يقولونَ: يَا رسولَ اللهِ، يَا نبيَّ اللهِ[4].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) يحتملُ أنَّ المرادَ حقيقةَ رفعِ الصَّوتِ؛ لأنَّ ذلكَ يدلُّ علَى قلَّةِ الاحتشامِ وتركِ الاحترامِ؛ لأنَّ خفضَ الصَّوتِ وعدمِ رفعهِ منْ لوازمِ التَّعظيمِ والتَّوقيرِ[5].

هذهِ آدابُ أدَّبَ اللهُ بهَا عبادهُ المؤمنينَ فيمَا يعاملونَ بهِ الرَّسولَ ﷺ منَ التَّوقيرِ والاحترامِ والتَّبجيلِ والإعظامِ[6].

يَا أيُّهَا الذينَ صدقُوا اللهَ ورسولهُ وعملُوا بشرعهِ، لَا ترفعُوا أصواتكمْ فوقَ صوتِ النبيِّ ﷺ عندَ مخاطبتكمْ لهُ، ولَا تجهرُوا بمناداتهِ كمَا يجهرُ بعضكمْ لبعضٍ، وميِّزوهُ فِي خطابهِ كمَا تميَّزَ عنْ غيرهِ فِي اصطفائهِ لحملِ رسالةِ ربِّهِ، ووجوبُ الإيمانِ بهِ، ومحبَّتهِ وطاعتهِ والاقتداءِ بهِ؛ خشيةَ أنْ تَبطلَ أعمالكمْ وأنتمْ لَا تشعرونَ ولَا تحسُّونَ بذلكَ[7].

وفِي هذَا مَا فيهِ منَ الحثِّ علَى توقيرِ العلماءِ الذينَ همْ ورثةُ الأنبياءِ، وتعظيمِ الأتقياءِ والصُّلحاءِ؛ أسوةً بتوقيرِ سيِّدِ الأنبياءِ[8]، فعنْ أبِي الدَّرداءِ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: " ... وإنَّ

العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، ورَّثُوا العِلمَ فمن أخذَه أخذ بحظٍّ وافرٍ"[9].

فأمرهمُ اللهُ بتوقيرِه، وأنْ يدعوهُ بالنبوَّةِ والرِّسالةِ والكلامِ اللَّيِّنِ، وكرهَ العلماءُ رفعَ الصَّوتِ عندَ قبرِ النبيِّ ﷺ وبحضرةِ العالمِ وفِي المساجدِ، وحرمةُ النبيِّ ﷺ وسلَّمَ ميتًا كحرمتهِ حيًّا، وكلامهُ المأثورُ بعدَ موتهِ فِي الرِّفعةِ مثلَ كلامهِ المسموعِ منْ لفظهِ[10].

ومنهُ قولُ الإمامِ مالكٍ لأبِي جعفرٍ: يَا أميرَ المؤمنينَ، لَا ترفعْ صوتكَ فِي هذَا المسجدِ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أدَّبَ قومًا فقالَ: (لَا تَرفعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوتِ النَّبيِّ) الآية، ومدحَ قومًا فقالَ: (إنَّ الَّذِينَ يَغضُّونَ أَصْواتَهمْ) الآية، وذمَّ قومًا فقالَ: (إِنَّ الَّذينَ يَنَادُونكَ) الآية، وإنَّ حرمتهُ ميتًا، كحرمتهِ حيًّا (أيِ النَّبيُّ ﷺ)، فاستكانَ لهَا أبُو جعفرٍ.

قالَ تعالَى: "إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ" [الحجرات: 4]**.**

وصفهمْ بالجهلِ وقلَّةِ العقلِ[11]:

(أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) إذِ العقلُ يقتضِي حسنَ الأدبِ ومراعاةِ الحشمةِ، سيَّمَا لمنْ كانَ بهذَا المنصبِ لكانَ الصَّبرُ خيرًا لهمْ منَ الاستعجالِ لمَا فيهِ منْ حفظِ الأدبِ وتعظيمِ الرَّسولِ الموجبينِ للثَّناءِ والثَّوابِ[12].

والكتابُ العزيزُ مملوءٌ بدعوةِ العقلاءِ إلَى الأدبِ معَ النبيِّ ﷺ فإنَّهُ الرَّحمةُ، وهوَ المثلُ، والهادِي البشيرُ، وكيفَ لَا وهوَ القدوةُ الكاملةُ والأسوةُ الحسنةُ لكلِّ منْ كانَ يرجُو اللهَ واليومِ الآخرِ!

قالَ تعالَى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" [الأحزاب: 21].

شرحَ اللهُ صدرهُ، ووضعَ وزرهُ، ورفعَ ذكرهُ، وأوجبَ طاعتهُ، وحرَّمَ خيانتهُ، ومَا تخلَّفَ ركبُ الأمَّةِ اليومَ إلَّا يومَ أنْ تخلَّفتْ عنِ الأدبِ معهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، ومَا تجرَّعَ أفرادُ الأمَّةِ مراراتَ البعدِ عنْ جمالِ الحياةِ وطيبِ معانيهَا إلَّا يومَ أنْ بعدتْ نفوسهمْ عنْ سيرتهِ الرَّائعةِ وعنْ هديهِ، فصارُوا يركضونَ وراءَ كلِّ منْ أوتَى ظاهرًا منَ الحياةِ الدُّنيَا، يخلعونَ عليهِ لباسَ العظمةِ والبهاءِ باسمهِ وقولهِ وشخصهِ زعمًا وزورًا! فكمْ منْ صفيقٍ وجهٍ صفَّقُوا لهُ، وكتبُوا عنهُ الأسفارَ، وتناقلُوا أقوالهُ! وكمْ منْ سفيهٍ نصَّبوهُ إمامًا يُقتدَى بهِ، فأضحَى الذِي أملوهُ سرابًا بقيعةٍ وأضغاثُ أحلامٍ! فالبعدُ عنْ سيرةِ نبيِّنَا ﷺ والاهتداءِ بغيرهِ هوَ مستنقعُ الجهلِ وهوَّةُ الضَّلالِ وحياةِ الشَّقاءِ، وطاعتهُ هدايةٌ وسعادةٌ وفوزٌ[13].

يَا أيُّها الذينَ صدقُوا اللهَ ورسولهُ، لَا ترفعُوا أصواتكمْ فوقَ صوتِ رسولِ اللهِ تتجهَّموهُ بالكلامِ، وتغلظونَ لهُ فِي الخطابِ، ولَا تنادوهُ كمَا ينادِي بعضكمْ بعضًا: يَا محمَّدُ، يَا محمَّدُ، يَا نبيَّ اللهِ، يَا نبيَّ اللهِ، يَا رسولَ اللهِ، نهاهمُ اللهُ أنْ ينادوهُ كمَا ينادِي بعضهمْ بعضًا وأمرهمْ أنْ يشرِّفوهُ ويعظِّموهُ، ويدعوهُ إذَا دعوهُ باسمِ النبوَّةِ[14].

فذمَّهمُ اللهُ بِعَدَمِ العقلِ؛ حيثُ لمْ يعقلُوا عنِ اللهِ الأدبَ معَ رسولهِ واحترامهِ، كمَا أنَّ منَ العقلِ وعلامتهِ استعمالُ الأدبِ[15].

الآثَارُ المترتِّبةُ علَى إهمالِ العقلِ:

وهبَ اللهُ تعالَى عبادهُ العقلَ، كيْ يعبدوهُ حقَّ عبادتهِ ويميِّزُوا بهِ الحقَّ منَ الباطلِ، وبيَّنَ سبحانهُ مَا ينفعُ عبادهُ ومَا يضرُّهمْ، ولمْ يتركهمْ هملًا كالدَّوابِ، ولمْ يعطِ أحدًا منهمْ عذرًا حينَ يعطِّلُ عقلهُ، بلْ منعَ منْ تناولَ أيَّ نوعٍ منَ الأطعمةِ أوِ الأشربةِ التِي تجعلُ العقلَ فِي غيبوبةٍ عنِ العالمِ الذِي حولهِ، أو تؤدِّي إلَى ضررٍ فيهِ، فيمتنعُ بذلكَ عنِ العبادةِ، لكنَّ بعضَ النَّاسِ لمْ يستعملُوا عقولهمْ فِي التفكُّرِ والتدبُّرِ فِي الآياتِ الكونيَّةِ كمَا أمرَ اللهُ تعالَى، بلْ كانُوا كالأنعامِ بلْ همْ أضلُّ سبيلًا بتقليدهمْ لآبائهمْ أوْ لكُبَرَائِهِمْ فِي الكفرِ.

قالَ تعالَى: "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ" [الأنفال: 22].

إنَّ شرَّ مَا دبَّ علَى الأرضِ منْ خلقِ اللهِ عندَ اللهِ، الذينَ يصمُّونَ عنِ الحقِّ لئلَّا يستمعوهُ، فيعتبرُوا بهِ ويتعظُّوا بهِ، وينكصونَ عنهُ إنْ نطقُوا بهِ، الذينَ لَا يعقلونَ عنِ اللهِ أمرهُ ونهيهُ، فيستعملُوا بهمَا أبدانهمْ(16).

وهذَا مطابقٌ لقولهِ تعالَى: "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ" [البقرة: 171].

إلَّا أنَّهُ زادَ فِي هذَا وصفَ العمَى، وكلُّ هذهِ الأوصافِ كنايةٌ عنِ انتفاءِ قبولهمْ للإيمانِ وإعراضهمْ عمَّا جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ، وظاهرُ هذهِ الأخبارِ العمومُ(17).

إنَّ شرَّ النَّاسِ عندَ اللهِ الصمُّ عنِ الهدَى البكمُ، يعنِي: الخرسُ الذينَ لَا يتكلَّمونَ بخيرٍ، الذينَ لَا يعقلونَ الإيمانَ(18).

سمَّاهمْ دوابًّا لقلَّةِ انتفاعهمْ بعقولهمْ(19).

وقولهُ تعالَى: "أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا " [الفرقان: 44].

أيْ: مَا همْ إلَّا كالأنعامِ، جعلهمْ كالأنعامِ؛ لأنَّهمْ لمْ يدركُوا طريقَ الحقِّ، ولمْ ينتفعُوا بمَا ميَّزهمُ اللهُ بهِ عنِ البهائمِ منْ عقولهمْ وأسماعهمْ وأبصارهمْ[20].

أيْ: لَا ينتفعونَ بمَا يعقلونَ[21].

لمْ يخلقْ للأنعامِ قلوبًا تعقلُ بهَا ولَا ألسنةً تنطقُ بهَا، وأعطَى ذلكَ لهؤلاءِ ثمَّ لمْ ينتفعُوا بمَا جعلَ لهمْ منَ العقولِ والقلوبِ والألسنةِ والأسماعِ والأبصارِ فهمْ أضلُّ منَ البهائمِ، فإنَّ منْ لَا يهتدِي إلَى الرُّشدِ وإلَى الطَّريقِ معَ الدَّليلِ لهُ، أضلُّ وأسوأُ حالًا ممَّنْ لَا يهتدِي حيثُ لَا دليلَ معهُ[22].

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ) سماعَ قبولٍ أوْ يفكرونَ فيمَا تقولُ فيعقلونهُ، أيْ هِمْ بمنزلةِ منْ لَا يعقلُ ولَا يسمعُ، وقيلَ: المعنَى أنَّهمْ لمَّا لمْ ينتفعُوا بمَا يسمعونَ فكأنَّهمْ لمْ يسمعُوا[23].

ليسَ المرادُ أنَّهمْ لَا يعقلونَ بلْ إنَّهمْ لَا ينتفعونَ بذلكَ العقلِ[24].

كذلكَ منْ عطَّلَ عقلهُ عنِ العملِ، سيكونُ تابعًا لغيرهِ ومقلِّدًا لهُ، وقدْ نهَى اللهُ تعالَى عنِ الاتِّباعِ إلَّا للهِ تعالَى ولرسولهِ ﷺ، فكيفَ بمنْ كانَ متبِّعًا لجاهلٍ!

قالَ تعالَى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ" [البقرة: 170].

أخبرَ تعالَى عنْ حالِ المشركينَ إذَا أمرُوا باتِّباعِ مَا أنزلَ اللهُ علَى رسولهِ ﷺ، رَغِبُوا عنْ ذلكَ واكتفُوا بتقليدِ الآباءِ، وزهدُوا فِي الإيمانِ بالأنبياءِ، ومعَ هذَا فآباؤهمْ أجهلُ النَّاسِ، وأشدُّهمْ ضلالًا وهذهِ شبهةٌ لردِّ الحقِّ واهيةٌ، فهذَا دليلٌ علَى إعراضهمْ عنِ الحقِّ، ورغبتهمْ عنهُ، وعدمِ إنصافهمْ، فلوْ هدُوا لرشدهمْ، وحسنِ قصدهمْ، لكانَ الحقُّ هوَ القصدُ، ومنْ

جعلَ الحقَّ قصدهُ، ووازنَ بينهُ وبينَ غيرهِ، تبيَّنَ لهُ الحقُّ قطعًا، واتَّبعهُ إنْ كانَ منصفًا[25].

الآيةُ تضمَّنتْ النَّهيَ عنِ التَّقليدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى أنكرَ عليهمْ متابعةَ آبائهمْ، وأمرَ بمتابعةِ العقلِ والهدَى[26].

أيتَّبعونَ مَا ألفُوا عليهِ آباءهمْ فِي تقاليدهمْ وعاداتهمْ، ولوْ كانَ آباؤهمْ لَا يعقلونَ شيئًا منَ الحقِّ فِي أمورِ العقائدِ والعباداتِ، بلْ ولوْ تجرَّدُوا منْ أيِّ دليلٍ منطقيٍّ، وحادُوا عنِ الصَّوابِ، وهذَا يدلُّ علَى ذمِّ التَّقليدِ بدونِ دليلٍ[27].

ومثلُ الذينَ كفرُوا فيمَا همْ فيهِ منَ الغيِّ والضَّلالِ، والجهلِ وتقليدِ الآباءِ والرُّؤساءِ، كمثلِ الدَّوابِ السَّارحةِ التِي لَا تفقهُ شيئًا ممَّا يقالُ لهَا، فإذَا نعقَ فيهَا راعيهَا فإنَّهَا تسمعُ صوتهُ، ولكنَّهُا لَا تفقهُ مَا يقولُ ولَا تفهمهُ، فهمْ صمٌّ عنْ سماعِ الحقِّ، وبكمٌ لَا يتفوَّهونَ بهِ، وعميٌ عنْ رؤيةِ طريقهِ ومسلكهِ، لَا يعقلونَ شيئًا ولَا يفهمونَ[28].

وهكذَا بناءً علَى تفسيرِ العلماءِ للآيةِ نرَى حالَ منْ يقلِّدُ الآخرينَ دونَ تعقُّلٍ وتمييزٍ بينَ الحقِّ والباطلِ، ويعطِّلُ عقلهُ وحواسهُ عنِ الفهمِ والإدراكِ، فهوَ كالدَّوابِ بلْ أضلُّ.

قالَ تعالَى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ" [المائدة: 104].

أيتَّبعونَ آباءهمْ وإنْ كانَ آباؤهمْ جهَّالًا، فنهاهمُ اللهُ عنِ التَّقليدِ، وأمرهمْ بالتمسُّكِ بالحقِّ وبالحجَّةِ[29].

(قالَ الكفَّرُ): يكفينَا مَا وجدنَا عليهِ آباءنَا منَ الدِّينِ والمنهاجِ؛ أولوْ كانَ آباؤهمْ لَا يعلمونَ شيئًا منَ الدِّينِ ولَا يهتدونَ لهُ، أيتَّبعونهمْ فِي خطئهمْ[30].

يعنِي قدِ اكتفينَا بمَا أخذنَا عنهمْ منَ الدِّينِ ونحنُ لهمْ تبعٌ؛ ولَا يصحُّ الاقتداءُ إلَّا بالعالمِ المهتدِي الذِي يبنِي قولهُ علَى الحجَّةِ

والبرهانِ والدَّليلِ، وأنَّ آباءهمْ مَا كانُوا كذلكَ فيصحُّ اقتداؤهمْ بهمْ(31).

تتَّبعونَ آباءكمْ وتقتدونَ بهمْ، وإنْ كنتمْ تعلمونَ أنَّ آباءكمْ لَا يعلمونَ شيئًا فِي أمرِ الدِّينِ ولَا يهتدونَ، وإنْ جئتكمْ بأهدَى ممَّا كانَ عليهِ آباؤكمْ؛ يسفهُهمْ فِي أحلامهمْ فِي تقليدهمْ آباءهمْ، وإنْ ظهرَ عندهمْ أنَّهمْ علَى ضلالٍ وباطلٍ(32).

ولكنَّهمْ يقلِّدونَ كبارهمْ، وفيهِ أنَّ منهمْ منْ يعرفُ بطلانَ ذلكَ ولكنْ يمنعهمْ حبُّ الرِّياسةِ وتقليدِ الآباءِ أنْ يعترفُوا بهَا(33).

(1) التفسير المنير، الزحيلي، ٣٥/٢٣.
(2) التفسير الوسيط، طنطاوي، ٤٥/١٢.
(3) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ٥٠٧/٩.
(4) لباب التأويل، الخازن، ١٧٦/٤.
(5) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٥٢٣/١٧.
(6) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣٦٤/٧.
(7) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ٥١٥/١.
(8) أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ٦٣٣/١.
(9) صحيح أخرجه أبو داود (3641) واللفظ له، والترمذي (2682)، وابن ماجه (223)، وأحمد (21715) وصحَّحه الألباني.
(10) الجواهر الحسان، الثعالبي، ٢٦٨/٥.
(11) لباب التأويل، الخازن، ١٧٧/٤.
(12) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ١٣٤/٥.
(13) انظر: موسوعة الأخلاق، خالد الخراز، ١٣٧/١.
(14) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٧٧/٢٢.
(15) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٩.
(16) جامع البيان، الطبري،٤٥٩/١٣.
(17) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ٣٠٠/٥.
(18) تفسير السمرقندي، ١٤/٢.
(19) معالم التنزيل، البغوي، ٣٤٣/٣.
(20) تفسير القرآن، السمعاني، ٢٢/٤.
(21) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢٩/٨.
(22) الأمثال في القرآن، ابن القيم ص٢٠.
(23) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٦/١٣.
(24) مفاتيح الغيب، الرازي، ٤٦٣/٢٤.
(25) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١.
(26) التفسير البسيط، الواحدي ٤٩٠/٣.
(27) التفسير المنير، الزحيلي، ٧٣/٢.
(28) المصدر السابق،٧٦/٢.
(29) تفسير السمرقندي، ٤٢٣/١.
(30) زاد المسير، الجوزي، ٥٩٤/١.
(31) لباب التأويل، الخازن، ٨٤/٢.
(32) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٦٣٥/٣.
(33) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١٤٦/٢.

وينتجُ عنْ إهمالِ العقلِ وعدمِ إعمالهِ آثارٌ سلبيَّة، منهَا:

1) عبادةُ غيرِ اللهِ تعالَى:

فصاحبُ العقلِ السَّليمِ والفطرةِ السَّليمةِ لَا يصرفُ عبادتهُ إلَّا للهِ الواحدِ سبحانهُ[(1)].

قالَ تعالَى: " قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ "[الأنبياء: 62 – 67].

قصَّ اللهُ سبحانهُ علَى عبادهِ كيفَ أنَّ قومَ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ كانُوا يعبدونَ الأصنامَ ثمَّ قامَ بدعوتهمْ لعبادةِ اللهِ وحدهُ ولمَّا لمْ يستجيبُوا لهُ قامَ بتكسيرِ تلكَ الأصنامِ وبعدَ ذلكَ قامتْ بينهمْ مشادَّةٌ فاتَّهموهُ بتكسيرهَا، قالَ إبراهيمُ موبِّخًا لهمْ ومعلنًا بشركهمْ علَى رؤوسِ الأشهادِ، ومبيِّنًا عدمِ استحقاقِ آلهتهمْ للعبادةِ، فلَا نفعَ ولَا دفعَ، مَا أضلَّكمْ وأخسرَ صفقتكمْ، ومَا أخسركمْ، أنتمْ ومَا عبدتمْ منْ دونِ اللهِ، إنْ كنتمْ تعقلونَ عرفتمْ هذهِ الحالَ، فلمَّا عدمتمُ العقلَ، وارتكبتمُ الجهلَ والضَّلالَ علَى بصيرةٍ، صارتِ البهائمُ، أحسنَ حالًا منكمْ[(2)].

قبحًا لكمْ وللآلهةِ التِي تعبدونَ منْ دونِ اللهِ، أفلَا تعقلونَ قبحَ مَا تفعلونَ منْ عبادتكمْ مَا لَا يضرُّ ولَا ينفعُ، فتتركُوا عبادتهُ، وتعبدُوا اللهَ الذِي فطرَ السَّماواتِ والأرضَ، والذِي بيدهِ النَّفعُ والضرُّ[(3)].

2) افتراءُ الكذبِ علَى اللهِ تعالَى:

نجدُ أنَّ المشركينَ يشرِّعونَ فِي الدِّينِ منَ البدعِ والضَّلالاتِ مَا لمْ يشرعهُ اللهُ تعالَى، بينمَا منْ أعملَ عقلهُ فلَا يتَّبعُ إلَّا مَا جاءَ فِي القرآنِ الكريمِ والسنَّةُ النبويَّةِ.

قالَ تعالَى: "مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ" [المائدة: 103]**.**

(وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) أرادَ بـ (الأكثرِ) الأتْباعَ يعنِي: أنَّ الأتباعَ لَا تعقلُ أنَّ هذَا كذبٌ وافتراءٌ منَ الرُّؤساءِ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ(4).

وصفهمُ اللهُ سبحانهُ بأنَّهمْ مَا قالُوا ذلكَ إلَّا افتراءً علَى اللهِ وكذبًا، لَا لشرعٍ شرعهُ اللهُ لهمْ ولَا لعقلٍ دلَّهمْ عليهِ، وسبحانَ اللهِ العظيمِ مَا أركَّ عقولَ هؤلاءِ وأضعفهَا! يفعلونَ هذهِ الأفاعيلَ التِي هيَ محضُ الرّقاعةِ ونفسِ الحمقِ، وهذَا شأنُ علمائهمْ ورؤسائهمْ وكبرائهمْ(5).

وإذَا قيلَ لهمْ تعالُوا إلَى مَا أنزلَ اللهُ وإلَى الرَّسولِ قالُوا حسبنَا مَا وجدنَا عليهِ آباءنَا وهذهِ أفعالُ آبائهمْ وسننهمُ التِي سنُّوهَا لهمْ، وصدقَ اللهُ سبحانهُ حيثُ يقولُ: (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ[المائدة: 104]**) أيْ: ولوْ كانُوا جهلةً ضالينَ(6).**

3) تقليدُ الآباءِ السَّادةِ فِي ضلالهمْ:

بينمَا العاقلُ يعلمُ أنَّهُ لَا طاعةَ لمخلوقٍ فِي معصيةِ الخالقِ فلَا يتَّبعُ إلَّا الدِّينَ الصَّحيحَ دينَ الإسلامِ.

فعنْ عمرانَ بنِ الحصينِ والحكمِ بنِ عمرٍو الغفاريِّ رضيَ اللهُ عنهمَا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: لَا طاعةَ لمخلوقٍ فِي معصيةِ الخالقِ[7].

قالَ تعالَى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ" [البقرة: 170].

فكيفَ أيُّهَا النَّاسُ تتَّبعونَ مَا وجدتمْ عليهِ آباءكمْ فتتركونَ مَا يأمركمْ بهِ ربُّكمْ، وآباؤكمْ لَا يعقلونَ منْ أمرِ اللهِ شيئًا، ولَا همْ مصيبونَ حقًّا، ولَا مدركونَ رشدًا؟ وإنَّمَا يتَّبعُ المتَّبِعُ ذَا المعرفةِ بالشَّيءِ المستعملِ لهُ فِي نفسهِ، فأمَّا الجاهلُ فلَا يتبعهُ فيمَا هوَ بهِ جاهلٌ إلَّا منْ لَا عقلَ لهُ ولَا تمييزَ[8].

أيتَّبعونَ آباءهمْ وإنْ كانُوا جهَّالًا فيتابعوهمْ بغيرِ حجَّةٍ؟ فكأنَّهُ نهاهمْ عنِ التَّقليدِ وأمرهمْ بالتمسُّكِ بالحجَّةِ[9].

فاكتفُوا بتقليدِ الآباءِ، وزهدُوا فِي الإيمانِ بالأنبياءِ، ومعَ هذَا فآباؤهمْ أجهلُ النَّاسِ، وأشدُّهمْ ضلالًا وهذهِ شبهةٌ لردِّ الحقِّ واهيةٌ، فهذَا دليلٌ علَى إعراضهمْ عنِ الحقِّ، ورغبتهمْ عنهُ، وعدمِ إنصافهمْ[10].

(أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) ردٌّ عليهمْ، وبيانٌ لبطلانِ الاعتمادِ فِي الدِّينِ علَى مجرَّدِ تقليدِ الآباءِ[11].

4) تحريفُ كلامِ اللهِ تعالَى:

فهمْ بعدَ مَا عقلوهُ وفهموهُ، يؤوِّلونهُ تبعًا لأهوائهمْ، لكنَّ المسلمَ العاقلَ لَا يحرِّفُ تحريفًا إملائيًّا ولَا لفظيًّا ولَا معنويًّا

ولَا يؤوِّلُ تأويلًا فاسدًا، بلْ يتَّبعُ مَا أنزلَ اللهُ تعالَى علَى النبيِّ الأكرمِ ﷺ منْ قرآنٍ وسنَّةٍ.

قالَ تعالَى: "أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" [البقرة: 75].

فِي ذلكَ قولانِ:

أحدهمَا: أنَّهمْ علماءُ اليهودِ الذينَ يحرِّفونَ التَّوراةَ فيجعلونَ الحلالَ حرامًا والحرامَ حلالًا اتِّباعًا لأهوائهمْ وإعانةً لراشيهمْ، وهذَا قولُ مجاهدٍ والسدِّي.

والثَّانِي: أنَّهمُ الذينَ اختارهمْ موسَى منْ قومهِ، فسمعُوا كلامَ اللهَ فلمْ يمتثلُوا أمرهُ وحرَّفُوا القولَ فِي إخبارهمْ لقومهمْ، وهذَا قولُ الرَّبيعِ بنِ أنسٍ وابنِ إسحاقَ[12].

ومعنَى الآيةِ الكريمةِ: أفتطمعونَ (أيُّهَا المؤمنونَ) بعدَ أنْ وصفتُ لكمْ منْ حالِ اليهودِ مَا وصفتُ منْ جحودٍ ونكرانٍ، أنْ يدخلُوا فِي الإسلامِ، والحالُ أنَّهُ كانَ فريقٌ منْ علمائهمْ وأحبارهمْ يسمعونَ كلامَ اللهِ ثمَّ يميلونهُ عنْ وجههِ الصَّحيحِ منْ بعدِ مَا فهموهُ، وهمْ يعلمونَ أنَّهمْ كاذبونَ بهذَا التَّحريفِ علَى اللهِ تعالَى، أوْ يعلمونَ مَا يستحقُّهُ محرِّفهُ منَ الخزيِ والعذابِ الأليمِ[13].

والمرادُ منَ التَّحريفِ أنَّهمْ عمدُوا إلَى مَا سمعوهُ منَ التَّوراةِ، فجعلُوا حلالهُ حرامًا أوْ نحوَ ذلكَ ممَّا فيهِ موافقةٌ لأهوائهمْ، كتحريفهمْ صفةَ رسولِ اللهِ ﷺ وإسقاطِ الحدودِ عنْ أشرافهمْ، أوْ سمعُوا كلامَ اللهِ لموسَى فزادُوا فيهِ ونقصُوا، وهذَا إخبارٌ

عنْ إصرارهمْ علَى الكفرِ وإنكارٌ علَى منْ طمعَ فِي إيمانهمْ وحالهمْ هذهِ الحالُ: أيْ ولهمْ سلفٌ حرَّفُوا كلامَ اللهِ وغيَّرُوا شرائعهُ وهمْ مقتدونَ بهمْ متَّبعونَ سبيلهمْ(14).

5) الاستهزاءُ بدينِ اللهِ تعالَى وشعائرهِ:

قالَ تعالَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (57) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (58)" [المائدة: 57، 58].

الكفَّارُ، إذَا سمعُوا الأذانَ استهزؤُوا بهِ، وإذَا رأوهمْ ركَّعًا وسجَّدًا ضحكُوا واستهزؤُوا بذلكَ، ذلكَ الاستهزاءُ بأنَّهمْ قومٌ لَا يعقلونَ يعنِي: لَا يعلمونَ ثوابهُ(15).

قالَ الكلبيُّ: كانَ إذَا أذَّنَ المؤذِّنُ وقامَ المسلمونَ إلَى الصَّلاةِ قالتِ اليهودُ: قدْ قامُوا لَا قامُوا، وكانُوا يضحكونَ إذَا ركعَ المسلمونَ وسجدُوا وقالُوا فِي حقِّ الأذانِ: لقدِ ابتدعتَ شيئًا لمْ نسمعْ بهِ فيمَا مضَى منَ الأممِ، فمنْ أينَ لكَ صياحٌ مثلَ صياحِ العيرِ؟ فمَا أقبحهُ منْ صوتٍ، ومَا أسمجهُ منْ أمرٍ، وقيلَ: إنَّهمْ كانُوا إذَا أذَّنَ المؤذِّنُ للصَّلاةِ تضاحكُوا فيمَا بينهمْ وتغامزُوا علَى طريقِ السُّخفِ والمجونِ، تجهيلًا لأهلهَا، وتنفيرًا للنَّاسِ عنهَا وعنِ الدَّاعِي إليهَا، وقيلَ: إنَّهمْ كانُوا يرونَ المنادِي إليهَا بمنزلةِ اللَّاعبِ الهازئِ بفعلهَا، جهلًا منهمْ بمنزلتهَا(16).

وكذلكَ مَا كانَ عليهِ المشركونَ والكفَّارُ المخالفونَ للمسلمينَ، منْ قدحهمْ فِي دينِ المسلمينَ، واتِّخاذهمْ إيَّاهُ هزوًا ولعبًا، واحتقارهِ واستصغارهِ، خصوصًا الصَّلاةُ التِي هيَ أظهرُ

شعائرِ المسلمينَ، وأجلُّ عباداتهِمْ، إنَّهمْ إذَا نادُوا إليهَا اتَّخذوهَا هزوًا ولعبًا، وذلكَ لعدمِ عقلهِمْ ولجهلهِمُ العظيمُ، وإلَّا فلوْ كانَ لهمْ عقولٌ لخضعُوا لهَا، ولعلمُوا أنَّهَا أكبرُ منْ جميعِ الفضائلِ التِي تتَّصفُ بهَا النُّفوسُ، فكيفَ تدَّعِي لنفسكَ دينًا قيِّمًا، وأنَّهُ الدِّينُ الحقُّ ومَا سواهُ باطلٌ، وترضَى بموالاةِ منْ اتَّخذهُ هزوًا ولعبًا، وسخرَ بهِ وبأهلهِ، منْ أهلِ الجهلِ والحمقِ؟!

وهذَا فيهِ منَ التَّهييجِ علَى عداوتهمْ مَا هوَ معلومٌ لكلِّ منْ لهُ أدنَى مفهومٍ(17).

وممَّا سبقَ يجبُ علَى المسلمِ أن يحرصَ علَى استعمالِ عقلهِ فِي التقرُّبِ إلَى اللهِ تعالَى، بعبادةِ التفكُّرِ والتدبُّرِ فِي آياتِ اللهِ تعالَى المنظورةِ والمسطورةِ، عسَى اللهُ تعالَى أنْ ينفعهُ بهذهِ العبادةِ، ويزدادَ إيمانهُ، لكيْ لَا تُعطَّلَ العقولُ عنِ العملِ فتصدأَ وتتعطَّلُ الحواسُ، فيضلَّ عنْ سبيلِ اللهِ ويتعرَّضَ لسخطِ اللهِ تعالَى، باتِّباعِ الشَّيطانِ أوْ يُقلِّدَ الضَّالينَ المعاندينَ لدينِ اللهِ تعالَى.

(1) البناء العقلي في ضوء القرآن الكريم، ميساء كمال قلجة، ص ١٣١.
(2) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٦.
(3) جامع البيان، الطبري، ٤٦٤/١٨.
(4) لباب التأويل، الخازن، ٨٤/٢.
(5) فتح البيان، صديق خان، ٦٦/٤.
(6) فتح القدير، الشوكاني، ٩٤/٢.
(7) الصحيح الجامع 7520.
(8) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣٠٨/٣.
(9) تفسير السمرقندي، ١١٢/١.
(10) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١.
(11) التفسير الوسيط، طنطاوي، ٣٤٦/١.
(12) النكت والعيون، الماوردي، ١٤٨/١.
(13) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١٧٩/١.
(14) فتح القدير، الشوكاني، ١٢٠/١.
(15) تفسير السمرقندي، ٤٠١/١.
(16) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٢٤/٦.
(17) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٧.

مطلبٌ

إذَا اختلفَ العقلُ معَ النَّقلِ وجبَ تقديمُ النَّقلِ علَى العقلِ:

فإنَّ النَّقلَ الصَّحيحَ لَا يعارضُ العقلَ الصَّريحَ، وباجتماعِ النقلِ الصحيحِ والعقلِ الصَّريحِ تُدْرَكُ الحقائقَ الشرعيَّةُ؛ فلَا النَّقلُ وحدهُ يُفِيدُ فاقدَ العَقْلِ، ولَا العقلُ وحدهُ يُفِيدُ فاقدَ النَّقْلِ، فلَا بدَّ منِ اجتماعهمَا، وبنقصِ واحدٍ منهمَا تَنْقُصُ المعرفةُ بالحَقّ، وليسَ فِي العقلِ الصَّريحِ ولَا فِي شيءٍ منَ النَّقلِ الصَّحيحِ منَ القرآنِ والسنَّةِ مَا يوجبُ مخالفةَ الشَّرعِ أصلاً[1]، قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: "كلُّ مَا يدلُّ عليهِ الكتابُ والسنَّةُ فإنَّهُ موافقٌ لصريحِ المعقولِ، والعقلُ الصَّريحُ لَا يخالفُ النَّقلَ الصَّحيحَ، ولكنَّ كثيراً منَ النَّاسِ يغلطونَ إمَّا فِي هذَا وإمَّا فِي هذَا، فمنْ عرفَ قولَ الرَّسولِ ﷺ ومرادهِ بهِ كانَ عارفاً بالأدِّلةِ الشرعيَّةِ وليسَ فِي المعقولِ مَا يخالفُ المنقولَ، ولهذَا كانَ أئمَّةُ السنَّةِ علَى مَا قالهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ: معرفةُ الحديثِ والفقهِ فيهِ أحبُّ إليَّ منْ حفظهِ، أيْ معرفتهُ بالتَّمييزِ بينَ صحيحهِ وسقيمهِ، والفقهِ فيهِ معرفةُ مرادُ الرَّسولِ ﷺ وتنزيلهِ علَى المسائلِ الأصوليَّةِ والفروعيَّةِ أحبُّ إليَّ منْ أنْ تحفظَ منْ غيرِ معرفةٍ وفقهٍ، وهكذَا قالَ عليُّ بنُ المدينِي وغيرهُ منَ العلماءِ فإنَّهُ منِ احتجَّ بلفظٍ ليسَ بثابتٍ عنْ الرَّسولِ ﷺ أوْ بلفظٍ ثابتٍ عنِ الرَّسولِ ﷺ وحملهُ علَى مَا لمْ يدلَّ عليهِ فإنَّمَا أتيَ منْ نفسهِ، وكذلكَ العقليَّاتُ الصَّريحةُ إذَا كانتْ مقدِّماتهَا وترتيبهَا صحيحاً لمْ تكنْ إلَّا حقاً لَا تناقضُ شيئاً ممَّا قالهُ الرَّسولُ ﷺ، والقرآنُ قدْ دلَّ علَى الأدلَّةِ العقليَّةِ التِي بهَا لمْ تكنْ إلَّا حقاً وتوحيدهُ وصفاتهُ وصدقِ رسلهِ وبهَا

يعرفُ إمكانَ المعادِ، ففِي القرآنِ منْ بيانِ أصولِ الدِّينِ التِي تُعلمُ مقدِّماتهَا بالعقلِ الصَّريحِ مَا لَا يوجدُ مثلهُ فِي كلامِ أحدٍ منَ النَّاسِ"[1].

وإنْ تعارضَ النَّقلُ والعقلُ فِي الظَّاهِرِ؛ قُدِّمَ النَّقْلُ علَى العقلِ؛ لأنَّ النَّقْلَ عِلْمُ الخالِقِ الكامِلِ، والعَقْلَ عِلْمُ المخلوقِ القاصِرِ، وهذَا التَّعارضُ يكونُ بحسبِ الظَّاهرِ لَا فِي حقيقةِ الأمرِ؛ فإنَّهُ لا يمكنُ أبداً حصولُ تعارضٍ بينَ النَّقلِ الصَّحيحِ والعقلِ الصَّريحِ، وإذَا وجدَ تعارضٌ فإمَّا أنْ يكونَ النَّقلُ غيرَ صحيحٍ أوِ العقلُ غيرَ صريحٍ[3].

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ: "مَا جاءَ عنِ النَّبيِّ ﷺ كلُّهُ حقٌّ يصدِّقُ بعضهُ بعضًا، وهوَ موافقٌ لفطرةِ الخلائقِ، ومَا جعلَ فيهِمْ منَ العقولِ الصَّريحةِ، والقصودِ الصَّحيحةِ، لَا يخالفُ العقلَ الصَّريحَ، ولَا القصدَ الصَّحيحَ، ولَا الفطرةَ المستقيمةَ، ولَا النَّقلَ الصَّحيحَ الثَّابتِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، وإنَّمَا يظنُّ تعارضهَا: منْ صدَّق بباطلٍ منَ النُّقولِ، أوْ فهمَ منهُ مَا لمْ يدلَّ عليهِ، أوِ اعتقدَ شيئًا ظنَّهُ منَ العقليَّاتِ وهوَ منَ الجهليَّاتِ، أوْ منَ الكشوفاتِ وهوَ منَ الكسوفاتِ إنْ كانَ ذلكَ معارضًا لمنقولٍ صحيحٍ وإلَّا عارضَ بالعقلِ الصَّريحِ، أوِ الكشفِ الصَّحيحِ، مَا يظنُّهُ منقولًا عنِ النَّبيِّ ﷺ، ويكونُ كذبًا عليهِ، أوْ مَا يظنُّهُ لفظًا دالًّا علَى شيءٍ ولَا يكونُ دالًّا عليهِ"[4].

والعقلُ كالبَصَرِ، والنقلُ كالنُّورِ؛ لَا يَنتفِعُ المُبْصِرُ بعينِهِ فِي ظلامٍ دامسٍ، ولَا يَنتفِعُ العاقلُ بعقلِهِ بلَا وَحْيٍ، وبِقَدْرِ النُّورِ تَهْتَدِي العَيْنُ، وبقدرِ الوحيِ يَهتَدِي العَقْلُ، وبكمالِ العقلِ والنقلِ تَكتملُ الهدايةُ والبصيرةُ؛ كمَا تَكتمِلُ الرؤْيةُ حِينَ

الظَّهِيرَةِ، فالمؤمنونَ أبصرُ النَّاسِ بالحقائقِ الشرعيَّةِ لجمعهمْ بينَ النقلِ الصَّحيحِ والعقلِ الصَّريحِ قالَ تعالَى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[الأنعام: 122]، وقالَ سبحانهُ: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)[محمد: 14].

فيجبُ اتِّباعُ الوحيِ منَ الكتابِ والسنَّةِ وعدمِ الاستغناءِ عنِ الوحيِ بالعقلِ وحدهُ، ومَنْ قالَ: إنَّهُ يَهتَدِي إلَى اللهِ بعقلِهِ المُجرَّدِ بلَا وحيٍ؛ فهوَ كمَنْ قالَ: إنَّهُ يَهْتَدِي إلَى طريقِهِ بعينِهِ المُجرَّدَةِ بلَا ضياءٍ، وكُلٌّ منهمَا جاحدٌ لقطعيٍّ ضروريٍّ، والأوَّلُ بلَا دِين، والثَّانِي بلَا دُنْيَا، والأوَّلُ بلَا بصيرةٍ، والثَّانِي بلَا بصرٍ، قالَ تعالَى: (فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)[الحج: 46].

والوحيُ هوَ الذِي يَهْدِي الأنبياءَ، ويَهْدِي أَتْبَاعَهُمْ، ويدلُّ علَى هذَا قولُ اللهِ تعالى: (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)[سبأ: 50]، وقولهُ سبحانهُ: (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ)[النور: 54]، فلَا هدايةَ إلَّا لمنْ اتَّبعَ الوحيَ، ومنْ لمْ يتبعهُ فقدْ ضلَّ ضلالاً مبيناً، قالَ اللهُ تعالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)[النساء: 136]، وقالَ سبحانهُ: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا

قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا)[الأحزاب: 36].

وقدْ ضلَّ مَنْ يقولُ: لَا أُصدِّقُ بأيِّ حديثٍ إلَّا إذَا أدركَهُ عقلِي، ومَا لَا يُدْرِكُهُ لَا أُؤمِنُ بهِ؛ فإنَّ هذَا قَدَّمَ العقلَ القاصرَ النَّاقصَ الذِي يجهلُ أكثرَ ممَّا يعلمُ علَى الحديثِ الصَّحيحِ الذِي جاءَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ.

فالمؤمنُ العاقلُ يقدِّمُ الحديثَ الصَّحيحَ علَى كلِّ عقلٍ، فمَا لَا يُدرِكُهُ العقلُ لَا يَعْنِي عدَمَ وجودِهِ، ولكنَّهُ هوَ غيرُ مُدْرِكٍ لهُ، فللعقلِ حَدٌّ يَنتهِي إليهِ، كماَ أنَّ لِلْبَصَرِ حَدًّا ينتهِي إليهِ لَا ينتهِي الكونُ والوجودُ بنهايتِهِ، وللسمعِ حَدٌّ لَا تنتهِي الأصواتُ بنهايتِهِ؛ فللنَّمْلَةِ صوتٌ لَا يُسْمَعِ، وفِي الكونِ فَضَاءٌ وكواكبُ ونجومٌ لا تُرَى.

ومعلومٌ أنَّ النَّصوصَ الشرعيَّةَ منهَا مَا يَفْهَمُهُ غالبُ النَّاسِ، ومنهَا ممَّا لَا يفهمهُ إلَّا العلماءُ، ومنهَا مَا لَا يفهمهُ ويعرفُ دلالتهُ إلَّا الرَّاسخونَ منْ أهلِ العلمِ، فيكونُ موقفنَا هوَ العملُ بالمحكمِ والوقوفُ عندَ المتشابهِ، والمتشابهُ: هوَ مَا لَا يعلمهُ إلَّا الرَّاسخونَ منْ أهلِ العلمِ، وأمَّا جعلَ هذَا المتشابهَ أصلاً، أوِ التَّشكيكِ فِي المحكماتِ بضربِهَا بالمتشابهاتِ؛ فهذَا سبيلُ أهلِ الغيِّ، يقولُ اللهُ سبحانهُ: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)[آل عمران: 7].

والعقلُ الصَّريحُ لَا يخالفُ النَّقلَ الصَّحيحَ بحالٍ، ومتَى توهَّمَ متوهِّمٌ أنَّ نَصَّاً منَ النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ الثَّابتةِ خالفَ للعقلِ؛ فليتهمْ عقلهُ هوَ، والشَّريعةُ الإسلاميَّةُ تأتِي بمَا تَحَارُ فيهِ العقولُ، ولَا تأتِي أبداً بمَا تُحِيْلُهُ العقولُ، كمَا قَرَّرَ ذلكَ المحقِّقونَ منَ العلماءِ، بمعنَى أنَّ الشَّريعةَ لَا تأتِي بمَا تعدُّهُ العقولُ السَّليمةُ أمرًا مستحيلاً.

ويجبُ التَّسليمُ للنَّقلِ الصَّحيحِ أخباراً وأحكامًا؛ سواءٌ عَرَفْنَا العِلَّةَ أوْ لمْ نَعْرِفْهَا، قالَ الزُّهرِي رحمهُ اللهُ تعالَى: "مِنَ اللهِ الرِّسالةُ، وعلَى رسولِ اللهِ ﷺ البلاغُ، وعلينَا التَّسليمُ".

فبعضُ القضايَا العقليَّةِ الثَّابتةِ بالأدلَّةِ القطعيَّةِ لَا تدركهَا بعضُ العقولِ لعدمِ فهمهَا لهَا، فكيفَ بالقضايَا التِي لَا تحيطُ بهَا العقولُ وهيَ كثيرةٌ جداً ممَّا نراهُ ونشاهدهُ؟! ومنْ أقربهَا: سببُ تثاؤبِ بعضِ النَّاسِ عندَ تثاؤبِ شخصٍ آخرَ فِي المكانِ الذِي هوَ فيهِ!! فلَا تعرفُ العقولُ سببَ ذلكَ، ومنْ تكلَّمَ فِي سببِ ذلكَ بالظنِّ لَا يمكنهُ أنْ يطلبَ منْ جميعِ النَّاسِ أنْ يُسَلِّمُوا بتفسيرهِ، ومثلُ ذلكَ الرُّوحُ؛ فلَا تحيطُ العقولُ بحقيقتهَا، قالَ اللهُ تعالَى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)[الإسراء: 85](5)، قالَ الشَّوكانِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ هذهِ الآيةِ: "أيْ: هوَ منْ جنسِ مَا استأثرَ اللهُ بعلمهِ منَ الأشياءِ التِي لمْ يُعلمْ بهَا عبادهُ..." إلَى أنْ قالَ: "ثمَّ ختمَ سبحانهُ هذهِ الآيةَ بقولهِ سبحانهُ: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)[الإسراء: 85]، أيْ: أنَّ علمكمُ الذِي عَلَّمَكُمُ اللهُ ليسَ إلَّا المقدارَ القليلَ بالنِّسبةِ إلَى علمِ الخالقِ سبحانهُ، وإنْ أوتيَ حظاً منَ العلمِ وافراً، بلْ علمُ

الأنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ ليسَ هوَ بالنِّسبةِ إلَى علمِ اللهِ سبحانهُ إلَّا كمَا يأخذُ الطَّائرُ فِي منقارهِ منَ البحرِ، كمَا فِي حديثِ موسَى والخضرِ عليهمَا السَّلامُ"(6).

وبالجملةِ يجبُ علَى المسلمِ أنْ يُقَدِّمَ قولَ اللهِ ورسولهِ علَى كلِّ قولٍ، وعلَى كلِّ قياسٍ وعلَى كلِّ ذوقٍ وعلَى كلِّ استحسانٍ، قالَ اللهُ تعالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[الحجرات: 1]، قالَ ابنُ كثيرٍ فِي تفسيرهِ: "أيْ: لَا تسرعُوا فِي الأشياءِ بينَ يديهِ، أيْ: قبلهُ، بلْ كونُوا تبعًا لهُ فِي جميعِ الأمورِ، وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ: (لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)[الحجرات: 1]: لَا تقولُوا خلافَ الكتابَ والسنَّةِ، وقالَ الضحَّاكُ: لَا تقضُوا أمرًا دونَ اللهِ ورسولهِ منْ شرائعِ دينكمْ، وقالَ سفيانُ الثَّورِي: (لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)[الحجرات: 1]: بقولٍ ولَا فعلٍ".

ومنْ أشكلَ عليهِ حديثٌ صحيحٌ؛ فلَا يبادرْ إلَى إنكارهِ وتكذيبهِ وردِّهِ، بلْ يرجعُ إلَى كلامِ أهلِ العلمِ فِي شرحهِ وتوجيههِ، وروَى ابنُ ماجهْ بسندٍ صحيحٍ عنْ عليٍّ بنِ أبِي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: "إذَا حدَّثتكمْ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ حديثًا، فظنُّوا بهِ الذِي هوَ أهناهُ، وأهداهُ، وأتقاهُ"(7).

---

(1) شبكة الألوكة من مقالة: "النقل الصحيح لا يعارض العقل الصريح" لـ : محمد بن علي بن جميل المطري.

(2) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (3 /64 - 65) مختصرا.

(3) شبكة الألوكة من مقالة: "النقل الصحيح لا يعارض العقل الصريح" لـ : محمد بن علي بن جميل المطري.

(4) الرسالة العرشية (1 /35)

(5) شبكة الألوكة من مقالة: "النقل الصحيح لا يعارض العقل الصريح" لـ : محمد بن علي بن جميل المطري.

(6) فتح القدير للشوكاني (3 /363).

(7) صحيح ابن ماجه (19)، وأخرجه أحمد (986)، الطيالسي (101)، وابن بطة في ((الإبانة)) (103) بنحوه

ثمَّ قالَ السَّعديُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: العلمُ هوَ: معرفةِ الهدَى بدليلهِ، فهوَ معرفةُ المسائلِ النَّافعةِ المطلوبةِ، ومعرفةِ أدلَّتهَا وطُرقهَا، التِي تهدِي إليهَا.

والعلمُ النَّافعُ هوَ: العلمُ بالحقِ والعملِ بهِ، وضدُّهُ الجهلُ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ العزيزِ العلمَ النَّافعَ وأهلهُ أثنَى عليهمْ زذكرَ العلمَ الذِي لَا ينفعُ ونوعَّدَ أهلهُ، فقالَ سبحانهُ وتعالَى: " شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ" [آل عمران: 18].

قالَ ابنُ كثيرٍ: ثمَّ قرنَ شهادةَ ملائكتهِ وأولِي العلمِ بشهادتهِ فقالَ :(شهدَ اللهُ أنَّهُ لَا إلهَ إلَّا هوَ والملائكةُ وأولُو العلمِ) وهذهِ خصوصيَّةٌ عظيمةٌ للعلماءِ فِي هذَا المقامِ[1].

وقالَ تعالَى: "قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109)" [الإسراء: 107 – 109].

وقالَ سبحانهُ: "بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ" [العنكبوت: 49].

وقالَ تعالَى: "يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" [المجادلة: 11].

وقالَ جلَّ جلالهُ: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ" [فاطر: 28].

قالَ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى:

إنَّمَا يخشاهُ حقَّ خشيتهِ العلماءُ العارفونَ بهِ، لأنَّهُ كلَّمَا كانتْ المعرفةُ للعظيمِ القديرِ أتمُّ والعلمُ بهِ أكملُ، كانتْ الخشيةُ لهُ أعظمُ وأكثرُ[2].

وذكرَ سبحانهُ تعالَى العلمَ الذِي لَا ينفعُ فقالَ: " وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" [البقرة: 102].

(1) تفسير ابن كثير.

(2) تفسير ابن كثير.

المعنَى اللُّغوِي للعلمِ:

أصلُ مادَّةِ (علم) تدلُّ علَى أثرٍ بالشَّيءِ يتميَّزُ بهِ عنْ غيرهِ[1]، فهوَ منَ العلامةِ والأثرِ[2]، والعلمُ بالشَّيءِ: المعرفةُ، يقالُ: علمَ الشَّيءَ يعلمهُ علمًا، أيْ: عرفهُ، ورجلٌ علَّامةٌ، أي: كثيرُ العلمِ، والتَّاءُ للمبالغةِ، واسْتَعْلَمَهُ الخَبَرُ فأعْلَمَهُ إيَّاهُ[3].

المعنَى الاصطلاحِي للعلمِ:

عرَّفهُ الجرجانِي بأنَّهُ: الاعتقادُ الجازمُ المطابقُ للواقعِ[4].

وعرَّفهُ المناوِي بأنَّهُ: الاعتقادُ الجازمُ الثَّابتُ المطابقُ للواقعِ؛ إذْ هوَ صفةٌ توجبُ تمييزًا لَا يحتملُ النَّقيضَ، أوْ هوَ حصولُ صورةِ الشَّيءِ فِي العقلِ، والأوَّلُ أخصُّ[5].

وقيلَ: إدراكُ الشَّيءِ علَى مَا هوَ بهِ[6].

وقولهمْ: "الاعتقادُ الجازمُ الثَّابتُ المطابقُ للواقعِ"، يقتضِي انطباعًا فِي العقلِ بمَا يكونُ لهُ أثرٌ وعلامةٌ، كمَا أنَّ دلالةَ أنَّهُ "صفةٌ توجبُ تمييزًا لَا يحتملُ النَّقيضَ"، لبيانِ أنَّ كلَّ علمٍ ينضبطُ بدقَّةٍ عاليةٍ يتميَّزُ منْ خلالهَا عنْ غيرهِ منَ العلومِ والفنونِ، و"حصولُ صورةِ الشَّيءِ فِي العقلِ" تتطوَّرُ إلَى اعتقادٍ قلبيٍّ ثابتٍ جازمٍ، يطابقُ ذلكَ الواقعَ الذِي عليهِ ذلكَ الأمرُ، واللهُ تعالَى أعلمُ[7].

العلمُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ مادَّةُ (علم) فِي القرآنِ الكريمِ (778) مرَّةً[8].

وجاءَ العلمُ فِي القرآنِ الكريمِ بمعناهُ اللُّغوِي، والذِي هوَ نقيضُ الجهلِ[9].

قالَ اللهُ تعالَى: "قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[الحجرات: 16]، يعنِي: لَا يغيبُ عنْ علمهِ شيءٌ فِي السَّموات ولَا فِي الأرضِ.

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالعلمِ:

المعرفةُ:

المعرفةُ لغةً:

العلمُ، يقالُ: عرَّفهُ بيتهُ، أيْ: أعلمهُ بمكانهِ، وعرَّفهُ بهِ، وسمهُ[10].

المعرفةُ اصطلاحًا:

إدراكُ الشَّيءِ علَى مَا هوَ بهِ، وهيَ بذلكَ ترادفُ العلمَ، وقيلَ: إنَّهَا تخالفُ العلمَ منْ كونهَا تستدعِي سبقَ جهلٍ بخلافِ العلمِ[11].

الصِّلةُ بينَ المعرفةِ والعلمِ:

العلمُ والمعرفةُ مترادفانِ فِي سياقِ اللَّفظِ والدَّلالةِ، إلَّا أنَّ فعلَ العلمِ يتعدَّى إلَى مفعولينِ، أمَّا فعلُ المعرفةِ فيتعدَّى إلَى مفعولٍ واحدٍ، كذلكَ فإنَّهُ يجوزُ أنْ نقولَ عنِ اللهِ تعالَى بأنَّهُ عالمٌ، ولَا يجوزُ أنْ نقولَ عنهُ عارفٌ؛ إذْ إنّ لفظةَ عارفٍ لمْ تردْ فِي القرآنِ ولَا فِي السنَّةِ.

الفقهُ:

الفقهُ لغةً:

العلمُ بالشَّيءِ، والفهمُ لهُ، والفطنةُ، وغلبَ علَى علمِ الدِّينِ؛ لشرفهِ[12].

الفقهُ اصطلاحًا:

العلمُ بالأحكامِ الشرعيَّةِ العمليَّةِ المكتسبِ منْ أدلَّتهَا التفصيليَّةِ[13]، وهوَ الإصابةُ، والوقوفُ علَى المعنَى الخفيِّ الذِي يتعلَّقُ بهِ الحكمُ، وهوَ علمٌ مستنبطٌ بالرَّأيِ والاجتهادِ، ويُحتاجُ فيهِ إلَى النَّظرِ والتأمُّلِ[13].

الصلةُ بينَ الفقهِ والعلمِ:

الفقهُ أخصُّ منَ العلمِ؛ إذْ إنَّ العلمَ دالٌّ علَى كلِّ مَا لهُ أثرٌ وعلامةٌ فيُدركُ علَى مَا هوَ عليهِ، أمَّا الفقهُ فيختصُّ بمَا يُستنبطُ بالرَّأيِ والاجتهادِ، ومَا يحتاجُ إلَى التأمُّلِ والنَّظرِ[15].

اليقينُ:

اليقينُ لغةً:

اليَقِينُ: العِلْم وإزاحة الشك وتحقيقُ الأَمر، وقد أَيْقَنَ يُوقِنُ إيقاناً، فهو مُوقِنٌ، ويَقِنَ يَيْقَن يَقَناً، فهو يَقِنٌ.

واليَقِين: نَقيض الشك، والعلم نقيضُ الجهل، تقول عَلِمْتُه يَقيناً[16].

اليقينُ اصطلاحًا:

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى: اليقينُ هوَ طمأنينةُ القلبِ، واستقرارُ العلمِ فيهِ، وضدُّ اليقينِ الرَّيبُ وهوَ نوعٌ منَ الحركةِ والاضطرابِ[17]، ويقولُ السَّعدِي: اليقينُ هوَ العلمُ التَّامِ الذِي ليسَ فِي أدنَى شكٍّ، الموجبِ للعملِ[18].

فهوَ منْ صفةِ العلمِ، فوقَ المعرفةِ والدِّرايةِ وأخواتهمَا، يقالُ: علمُ يقينٍ، ولَا يقالُ: معرفةُ يقينٍ، وهوَ سكونُ القلبِ إلَى خبرِ المخبرِ ووثوقهُ بهِ معَ ثباتِ الحكمِ[19].

وقيلَ: العلمُ بالشَّيءِ بعدَ أنْ كانَ صاحبهُ شاكًا فيهِ؛ ولذلكَ لَا يطلقُ علَى علمهِ تعالَى[20].

وهذَا التَّعريفُ ليسَ مقطوعًا بصحَّتهِ فليسَ كلُّ موقنٍ كانَ شاكًا، بلْ يرسخُ اليقينُ فِي القلبِ دونَ شكٍّ مسبقٍ، ولكنَّ الصَّحيحَ أنَّ اليقينَ نقيضُ الشكِّ، كمَا الظنُّ نقيضُ الوهمِ، والعلمُ نقيضُ الجهلِ.

ولَا ضيرَ إنْ قلنَا أنَّ اليقينَ هوَ: الاعتقادُ الجازمُ المطابقُ للواقعِ[21]، فيكونُ بهذَا لهُ نفسُ تعريفِ العلمِ، كمَا لَا ضيرَ إنْ قلنَا أنَّ اليقينَ هوَ أعلَى درجاتِ العلمِ.

الصِّلةُ بينَ اليقينِ والعلمِ:

اليقينُ والعلمُ مترادفانِ فِي الدَّلالةِ، غيرَ أنَّهمَا يفترقانِ فِي سياقِ اللَّفظِ، فاليقينُ أعلَى درجاتِ العلمِ وهوَ منْ صفاتهِ، إلَّا أنَّهُ يوجدُ بعضُ الفروقِ بينهَا إنْ ذُكرَ كلُّ واحدٍ منهمَا علَى حدةٍ:

1) اليقينُ أعلَى درجةً منَ العلمِ، فكلُّ يقينٍ علمٌ وليسَ كلُّ علمٍ يقينٌ.

2) اليقينَ يكونُ علمًا وعملًا ويدخلُ فيهِ قولُ القلبِ وعملهُ، وأمَّا العلمُ فلَا يكونُ عملًا بلْ هوَ منْ قبيلِ التَّصديقِ وقولِ القلبِ.

3) اليقينُ يستلزمُ العملَ ويتضمَّنهُ، بينمَا العلمُ لَا يستلزمُ العملَ فالموقنُ لَا يسمَّى موقنًا إلَّا إذَا عملَ.

4) اليقينُ لايساورهُ الشُّكوكُ أمَّا العلمُ فيساورهُ الشكُّ والظنُّ والرَّيبُ[22].

الجهلُ:

الجهلُ لغةً:

الجهلُ ضدُّ العلمِ، وتجاهلَ: أظهرَ الجهلَ وهوَ ليسَ بجاهلٍ، واستجهلهُ: عدَّهُ جاهلًا واستخفَّهُ، والجهالةُ: أنْ تفعلَ فعلًا بغيرِ علمٍ، وجهلتَ الشَّيءَ: إذَا لمْ تعرفهُ، والجاهلُ: ضدُّ العاقلِ، والجهلُ: ضدُّ الخبرةِ، والجاهليَّةُ: زمنُ الفترةِ، وهيَ حالُ العربِ قبلَ الإسلامِ منَ الجهلِ باللهِ سبحانهُ ورسولهِ ﷺ وشرائعِ الدِّينِ، ومَا كانُوا عليهِ منَ المفاخرةِ بالأنسابِ، والكبرِ والتجبُّرِ وغيرِ ذلكَ منَ الأخلاقِ المذمومةِ[23].

الجهلُ اصطلاحًا:

أنْ تعتقدَ الشَّيءَ علَى خلافِ مَا هوَ عليهِ[24]، وهوَ أعلَى قسميْ الجهلِ ويسمَّى بالجهلِ المركَّبِ، وأمَّ الجهلُ البسيطُ فهوَ عدمُ إدراكِ الشَّئِ بالكلَّيةِ، ومنهمْ منْ قالَ: الجهلُ علَى ثلاثةِ أقسامٍ، الأوَّلُ: الجهلُ البسيطُ وهوَ: عدمُ الإحاطةِ

الكاملةِ بفهمِ المسألةِ، والثَّانِي: الجهلُ الكاملُ وهوَ: نقيضُ العلمِ، وهوَ عدمُ الإحاطةِ بالكلِّيةِ بفهمِ المسألةِ، والثَّالثُ: الجهلُ المركَّبُ وهوَ: إدراكُ الشَّيءِ علَى خلافِ مَا هوَ عليهِ إدراكًا جازمًا.

الصِّلةُ بينَ الجهلِ والعلمِ:

العلمُ والجهلُ مصطلحانِ متضادَّانِ منْ حيثُ المعنَى والدَّلالةِ.

وقدْ تحدَّثنَا عنْ أقسامِ الجهلِ، بينَ بسيطٍ ومركَّبٍ فِي مطلبِ مراتبِ الإدراكِ (صـ : 213 - 216).

العلمُ صفةُ اللهِ تعالَى:

فمنْ أسماءِ اللهِ تعالَى "العليم" ومنْ صفاتهِ سبحانهُ العلمُ، وعلمُ اللهِ تعالَى ثابتٌ بالكتابِ والسنَّةِ والعقلِ.

قالَ اللهُ تعالَى: "فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ"[الأعراف:7]، وقالَ جلَّ وعلَا: "وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ"[الشورى:25]، وقالَ سبحانهُ: "وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ"[البقرة:255]، وقالَ: "فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ"[هود:14]، وقالَ تعالَى: "وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ"[فاطر:11]، وعلمُ اللهِ تعالَى صفةٌ منْ صفاتهِ جلَّ وعلَا الثَّابتةِ بالكتابِ والسنَّةِ والعقلِ، وهيَ صفةٌ أزليَّةٌ أبديَّةٌ ثبوتيَّةٌ ذاتيَّةٌ، ولَا يُنكرُ صفةَ العلمِ عنِ اللهِ تعالَى إلَّا جاهلٌ جهلًا مركَّبًا.

وقدْ وردَ اسمُ اللهِ العليمِ فِي القرآن 157 مرَّةً وفِي هذَا دلائلُ علَى أهمِّتهِ.

معنَى اسمِ اللهِ العليمِ ودلالتهِ:

العليمُ منَ العلمِ وهوَ نقيضُ الجهلِ، وعَلِمتُ الشَّيءَ: أيْ عرفتهُ وخبرتهُ، فالعلمُ لَا يقتصرُ علَى معرفةِ الظَّاهرِ، وإنَّمَا ينضمُّ إليهِ معرفةُ حقيقةِ الشَّيءِ، وهذَا متعذِّرٌ فِي حقِّ العبدِ تجاهَ اللهِ تعالَى؛ لذَا لَا يصحُّ أنْ تقولَ: "عَلِمتُ اللهَ" وإنَّما تقولُ: "عرفتُ اللهَ". وشتَّانَ بينَ علمٍ مقيَّدٍ محدودٍ وعلمٍ مُطلقٍ بلَا حدودٍ، فسبحانهُ وتعالَى فِي كمالِ علمهِ وطلاقةِ وصفهِ، فعلمهُ فوقَ علمِ كلِّ ذِي علمٍ كمَا قالَ اللهُ تعالَى: "نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ"[يوسف:76]، فعلمُ اللهِ تعالَى: علمٌ بمَا كانَ، ومَا هوَ كائنٌ، ومَا سيكونُ، ومَا لمْ يكنْ لوَ كانَ كيفَ يكونُ. أحاطَ علمهُ سبحانهُ وتعالَى بجميعِ الأشياءِ ظاهرهَا وباطنهَا، دقيقهَا وجليلهَا، فاسمُ اللهِ العليمِ، أشتملَ علَى مراتبِ العلمِ الإلهيِّ وهيَ أربعةٌ:

1) علمهُ سبحانهُ بالشَّيءِ قبلَ كونهِ، وهوَ سرُّ اللهِ فِي خلقهِ، لَا يعلمهُ ملكٌ مُقرَّبٌ ولَا نبيٌ مُرسلٌ، ويُسمَّى علمَ التَّقديرِ ومفتاحِ مَا سيصيرُ، فيعلمُ سبحانهُ منْ همْ أهلُ الجنَّةِ ومنْ همْ أهلُ السعيرِ، فكلُّ أمورِ الغيبِ قدَّرهَا اللهُ فِي الأزلِ ومفتاحهَا عندهُ وحدهُ، لذلكَ قالَ تعالَى: "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ"[الأنعام:59]، وقالَ سبحانهُ: "إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"[لقمان:34].

2) علمهُ تعالَى بالشَّيءِ وهوَ فِي اللَّوحِ المحفوظِ بعدَ كتابتهِ وقبلَ إنفاذِ أمرهِ ومشيئتهِ، فاللهُ عزَّ وجلَّ كتبَ مقاديرَ

الخلائقَ فِي اللَّوحِ المحفوظِ قبلَ أنْ يخلقهمْ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، والمخلوقاتُ فِي اللَّوحِ قبلَ إنشائهَا عبارةٌ عنْ كلماتٍ، يقولُ اللهُ تعالَى: "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" [الحج:70] وقالَ تعالَى: "مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" [الحديد:22].

3) علمهُ سبحانهُ وتعالَى بالشَّيءِ حالَ كونهِ وتنفيذهِ ووقتِ خلقهِ وتصنيعهِ، يقولُ اللهُ تعالَى: "اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9)" [الرعد:9، 8]، وقالَ تعالَى: "يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ" [سبأ: 2].

4) علمهُ جلَّ جلالهُ بالشَّيءِ بعدَ كونهِ وتخليقهِ وإحاطتهِ بالفعلِ بعدَ كسبهِ وتحقيقهِ، فاللهُ عزَّ وجلَّ يعلمُ مَا سيفعلُ المخلوقُ قبلَ أنْ يُخلقَ المخلوقُ وبعدَ أنْ يُخلقَ، ويعلمُ تفاصيلَ أفعالهِ وخواطرهِ وحديثَ نفسهِ، يقولُ تعالَى: "أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ" [التوبة:78].

وتلكَ المراتبُ الأربعُ السَّابقةُ ذُكرتْ فِي قولِ اللهِ جلَّ وعلَا: "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ" [الأنعام:59].

فاللهُ سبحانهُ وتعالَى عالمٌ بكلِّ شيءٍ فِي كلِّ وقتٍ وفِي كلِّ حينٍ، يقولُ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى:

وَهُوَ العليمُ أَحَاطَ عِلْماً بِالَّذِي * فِي الكونِ مِنْ سِرٍّ ومنْ إِعْلانِ
وبكلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ سُبْحَانَــــهُ * فهوَ المحيطُ وليسَ ذَا نِسْيَــانِ

ويقولُ أيضًا:

وكذاكَ يَعْلَمُ ما يَكُونُ غَداً ومَا * قدْ كانَ والموجودَ فِي ذَا الآنِ
وكذاكَ أَمْرٌ لمْ يَكُنْ لوْ كانَ كيـ * ـفَ يكونُ ذاكَ الأمرُ ذا إِمْكَانِ(25)

العلمُ وصفٌ للمخلوقاتِ:

1) علمُ الملائكةِ عليهمُ السَّلامُ:

قالَ تعالَى: "قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ"[البقرة: 32]، ففِي الآيةِ إثباتٌ لعلمِ الملائكة عليهمُ السَّلامُ، فقولهُ تعالَى: (إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) يفيدُ سبقَ العلمِ لهمْ إِلَّا أنَّ علمهمْ مقيَّدٌ محصورٌ وعلمُ اللهِ تعالَى مطلقٌ غيرُ محدودٍ، فلَا يحيطونَ بشيءٍ منْ علمهِ إِلَّا بمَا شاءَ سبحانهُ.

2) علمُ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ:

قالَ تعالَى فِي حقِّ آدمَ: "وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا"[البقرة: 31]، ففِي هذَا المقامِ ذكَرَ اللهُ تعالَى شرفَ آدمَ علَى الملائكةِ بمَا أختصَّهُ منْ علمِ أسماءِ كلِّ شيءٍ دونهمْ.

وقالَ تعالَى فِي حقِّ إبراهيمَ: " يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا"[مريم: 43].

وقالَ تعالَى فِي لوطٍ: " وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا"[الأنبياء: 47].

وقالَ تعالَى فِي حقِّ يعقوبَ: "وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ"[يوسف: 68].

وقالَ تعالَى: " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا" [يوسف: 22]**.**

وهكذَا بقيَّةُ الأنبياءِ وصولًا إلَى خاتمهِمْ نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ، قالَ تعالَى: "وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا" [النساء: 113]**، يقولُ البغوِي: قولهُ تعالَى: (ولولَا فضلُ اللهِ عليكَ ورحمتهُ) يقولُ للنبيِّ ﷺ: (لهمَّتْ) لقدْ همَّتْ أيْ: أضمرتْ، (طائفةٌ منهمْ) يعنِي: قومَ طعمةَ، (أنْ يضلُّوكَ) يخطِّئوكَ فِي الحكمِ ويلبسُوا عليكَ الأمرَ حتَّى تدافعَ عنْ طعمةَ، (ومَا يضلُّونَ إلَّا أنفسهمْ) يعنِي يرجعُ وبالهُ عليهمْ، (ومَا يضرُّونكَ منْ شيءٍ) يريدُ أنَّ ضررهُ يرجعُ إليهمْ، (وأنزلَ اللهُ عليكَ الكتابَ) يعنِي: القرآنَ، (والحكمةَ) يعنِي: القضاءَ بالوحيِ – وأجمعُوا علَى أنَّ الحكمةَ هيَ السنَّةُ - (وعلَّمكَ مَا لمْ تكنْ تعلمُ) منَ الأحكامِ، وقيلَ: منْ علمِ الغيبِ، (وكانَ فضلُ اللهِ عليكَ عظيمًا)**(26)**.**

وأمَّ سببُ نزولِ هذهِ الآيةِ: قالَ السَّعدِي: وذلكَ أنَّ هذهِ الآياتِ الكريماتِ قدْ ذكرَ المفسِّرونَ أنَّ سببَ نزولهَا: أنَّ أهلَ بيتٍ سرقُوا فِي المدينةِ، فلمَّا اطُّلِعَ علَى سرقتهمْ خافُوا الفضيحةَ، وأخذُوا سرقتهمْ فرموهَا ببيتِ منْ هوَ بريءٌ منْ ذلكَ، واستعانَ السَّارقُ بقومهِ أنْ يأتُوا رسولَ اللهِ ﷺ ويطلُبوا منهُ أنْ يبرِّئَ صاحبهمْ علَى رءوسِ النَّاسِ، وقالُوا: إنَّهُ لمْ يسرقْ وإنَّمَا الذِي سرقَ منْ وُجدتِ السَّرقةُ ببيتهِ وهوَ البريءُ، فهَمَّ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يبرِّئَ صاحبهمْ، فأنزلَ اللهُ تعالَى هذهِ الآياتِ

تذكيرًا وتبيينًا لتلكَ الواقعةِ وتحذيرًا للرَّسولِ ﷺ منَ المخاصمةِ عنِ الخائنينَ...[27].

3) علمُ المؤمنينَ:

قالَ تعالَى: "وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا" [آل عمران: 7]**، قالَ الطَّبرِي: حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال : حدثنا خالد بن نزار عن نافع عن ابن أبي مليكة عن عائشة قوله : " والراسخون في العلم يقولون آمنا به " قالت : كان من رسوخهم في العلم أن آمنوا بمحكمه ومتشابهه ، ولم يعلموا تأويله[28].**

وبهذَا أثبتَ اللهُ تعالَى لهم بعضَ العلمِ ونفَى عنهمُ الإحاطةَ بكلِّهِ.

4) علمُ الجنِّ والشَّياطينِ:

قالَ تعالَى: "وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ" [الصافات: 158]**، وفِي هذَا دليلٌ علَى علمِ الجنِّ وأنَّهمْ محضرونَ بينَ يديِ اللهِ تعالَى.**

وقالَ تعالَى: "وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ" [البقرة: 102]**، وفي هذه الآية دليلٌ على أن العلم نوعان، منه ما هو حقٌ، ومنه ما هو باطلٌ، فتعليم السحر باطلٌ باتفاق[29].**

5) علمُ الطيورِ والحيواناتِ:

قالَ تعالَى: "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغائبين (20) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لاَ◌َذْبَحَنَّهُ أَوْ ليأتيني بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سبأ بنبأ يَقِينٍ (22)"[النمل: 20 – 22].

أي: أنَّ الهدهدُ غادرَ زمنًا ثمَّ حضرَ فعاتبهُ سليمانُ علَى مغيبهِ وتخلُّفهِ، فقالَ لهُ الهدهدُ: علمتُ مَا لمْ تعلمهُ منَ الأمرِ علَى وجهِ الإحاطةِ، وجئتكَ منْ مدينةِ "سبأٍ" باليمنِ بخبرٍ خطيرِ الشَّأنِ، وأنَا علَى يقينٍ منهُ، وفِي هذَا إثباتٌ لعلمِ الطُّيورِ، ومنهُ سائرُ سائرُ الحيواناتِ والحشراتِ لقولهِ تعالَى: "حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"[النمل: 18].

6) علمُ الإنسانِ عمومًا المسلمِ والكافرِ:

قالَ تعالَى: "عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"[العلق: 5].

قالَ السَّعدِي: (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فإنَّهُ تعالَى أخرجهُ منْ بطنِ أموِهِ لَا يعلمُ شيئًا، وجعلَ لهُ السَّمعَ والبصرَ والفؤادَ، ويسَّرَ لهُ أسبابَ العلمِ، فعلَّمهُ القرآنَ، وعلَّمهُ الحكمةَ، وعلَّمهُ بالقلمِ، الذِي بهِ تحفظُ بهِ العلومُ...[30].

وهذَا العلمُ الذِي اختصَّ اللهُ تعالَى بهِ النَّاسِ جميعًا، فهوَ إمَّا حجَّةٌ لهمْ وإمَّا حجَّةٌ عليهمُ، فهمْ فِي هذهِ الحالِ علَى أربعةِ أقسامٍ:

1) فأمَّا منِ استعملهُ فِي طاعةِ اللهِ منَ المسلمينَ فهوَ حجَّةٌ لهُ، ولهُ أجرُ مَا عملَ بعلمهِ وأجرُ منْ علَّمهُ ولَا ينقطعُ أجرهُ ولوْ بعدض موتهِ، فعنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رضيَ اللهُ عنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ"(31)، وقالَ ﷺ: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"(32).

2) وأمَّا منِ استعملهُ فِي غيرِ طاعةِ اللهِ منَ المسلمينَ فهوَ حجَّةٌ عليهِ، فعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَتَعَلَّمُهُ إِلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَعْنِي رِيحَهَا"(33).

3) وأمَّا منْ استعملَ العلمَ فِي مَا يوافقُ رضوانَ اللهِ منْ غيرِ المسلمينَ فيُجزَى بهِ فِي دنياهُ ومَالهُ فِي الآخرةِ منْ نصيبٍ، ففِي صحيحِ مسلمٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: "إنَّ اللهَ لَا يظلمُ مؤمناً حسنةً يعطَى بهَا فِي الدُّنيَا ويجزَى بهَا فِي الآخرةِ، وأمَّا الكافرُ فيُطعمُ بحسناتِ مَا عملَ بهَا للهِ فِي الدُّنيَا حتَّى إذَا أفضَى إلَى الآخرةِ لمْ تكنْ لهُ حسنةٌ يجزَى بهَا(34).

4) وأمَّا منِ استعملهُ فِي مَا لَا يرضِي اللهَ منْ غيرِ المسلمينَ فعقابهُ يومَ القيامةِ ضعفينِ، عذابُ الخلدِ بكفرهِ، وعذابٌ لاستعمالهِ مَا علَّمهُ اللهُ فِي غيرِ مرضاةِ اللهِ تعالَى، قالَ تعالَى: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" [آل عمران: 19].

" أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ"[هود: 20].

(1) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١٠٩/٤.
(2) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض ٨٣/٢.
(3) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤١٧/١٢، مختار الصحاح، الرازي ص٢١٧.
(4) التعريفات، الجرجاني ص١٥٥.
(5) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٤٦.
(6) الحدود الأنيقة، السنيكي ص٦٦.
(7) موقع موسوعة التَّفسير الموضوعي.
(8) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٧٦.
(9) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١١٠/٤، لسان العرب، ابن منظور ٤١٦/١٢.
(10) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢٣٦/٩.
(11) انظر: الحدود الأنيقة، السنيكي ص٦٦.
(12) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٢٥٠.
(13) شرح جمع الجوامع للمحلي، ص32 ومابعدها، وشرح الإسنوي ص24، وشرح العضد لمختصر ابن الحاجب، ص18، ومرآة الأصول ص50، والمدخل إلى مذهب أحمد، ص58.
(14) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٦٨.
(15) انظر: المصدر السابق.
(16) انظر: لسان العرب ، ومعجم مقاييس اللغة ، والصحاح.
(17) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.
(18) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.
(19) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٩٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣٩٩/٥.
(20) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٤٧.
(21) التعريفات، الجرجاني ص١٥٥.
(22) رعاية العهود والوفاء بالعقود لما للا اله الا الله من الشروط - خالد بن علي المرضي الغامدي. بتصرف
(23) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢٩/١١، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣٢٢/٣.
(24) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٠٩، العين، الفراهيدي ٣٩٠/٣.
(25) القصيدة النونية (241).
(26) تفسير البغوي.
(27) تفسير السعدي.
(28) تفسير الطبري.

(29) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٢٧٧/١.

(30) تفسير السعدي.

(31) رواه مسلم.

(32) رواه مسلم.

(33) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

(34) صحيح مسلم.

العلمُ النَّافعُ:

إنَّ أهمَّ وأنفعَ أسبابِ زيادةِ الإيمانِ تعلُّمِ العلمِ النَّافعِ علمُ الشَّريعةِ المستمَّدِ منْ كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِهِ ﷺ(1).

مَا هوَ العلمُ النَّافعُ؟

قالَ ابنُ رجبٍ معرِّفَا بهذَا العلمِ: فالعلمُ النَّافعُ هوَ ضبطُ نصوصِ الكتابِ والسنَّةِ وفهمِ معانيهَا، والتقيُّدُ فِي ذلكَ بالمأثورِ عنِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ وتابعيهِمْ فِي معانِي القرآنِ والحديثِ، وفيمَا وردَ عنهمْ منَ الكلامِ فِي مسائلِ الحلالِ والحرامِ والزُّهدِ والرَّقائقِ والمعارفِ وغيرِ ذلكَ، والاجتهادُ علَى تمييزِ صحيحهِ منْ سقيمهِ أوَّلاً، ثمَّ الاجتهادُ علَى الوقوفِ علَى معانيهِ وتفهُّمهِ ثانياً، وفِي ذلكَ كفايةٌ لمنْ عقلَ، وشغلٌ لمنْ بالعلمِ النَّافعِ عنيَ واشتغلَ...(2).

وقالَ ابنُ حجرٍ: والمرادُ بالعلمِ: العلمُ الشرعيِّ الذِي يفيدُ مَا يجبُ علَى المكلِّفِ منْ أمرِ دينهِ فِي عبادتهِ ومعاملاتهِ، والعلمِ باللهِ وصفاتهِ، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه)(3).

فمنْ وفِّقَ لهذَا العلمِ، فقدْ وفِّقَ لأعظمِ أسبابِ زيادةِ الإيمانِ، ومنْ تأمَّلَ نصوصَ الكتابِ والسنَّةِ علمَ ذلكَ:

قالَ اللهُ تعالَى: "شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" [آل عمران: 18].

وقالَ تعالَى: "لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ

وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا" [النساء: 162].

وقالَ تعالَى: "وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ" [سبأ: 6].

وقالَ تعالَى: "وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ" [فاطر: 28].

وقالَ تعالَى: "يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" [المجادلة: 11].

وفِي الصَّحيحينِ منْ حديثِ معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "منْ يردِ اللهُ بهِ خيراً يفقِّههُ فِي الدِّينِ"(4).

وفِي المسندِ وغيرهِ منْ حديثِ أبِي الدَّرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "منْ سلكَ طريقاً يطلبُ فيهِ علماً، سلكَ اللهُ بهِ طريقاً منْ طرقِ الجنَّةِ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتهَا لطالبِ العلمِ رضاً بمَا يصنعُ، وإنَّ العالمَ ليستغفرُ لهُ منْ فِي السَّمواتِ ومنْ فِي الأرضِ والحيتانُ فِي جوفِ الماءِ، وإنَّ فضلَ العالمِ علَى العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ علَى سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لمْ يورِّثُوا ديناراً ولَا درهماً، إنَّمَا ورَّثُوا العلمَ، فمنْ أخذهُ أخذَ بحظٍّ وافرٍ"(5).

وفِي التِّرمذِي وغيرهِ منْ حديثِ أبِي أمامةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "فضلُ العالمِ علَى العابدِ كفضلِي علَى أدناكمْ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وملائكتَهُ وأهلَ السَّمواتِ

والأرضِ، حتَّى النَّملةَ فِي جحرهَا وحتَّى الحوتَ ليصلُّونَ علَى معلِّمِ النَّاسَ الخيرَ"(6).

فهذهِ النَّصوصُ المذكورةُ فيهَا بيانُ منزلةِ العلمِ ومكانتهِ، وعظمِ شأنهِ وأهميَّتهِ، ومَا يترتَّبُ عليهِ منْ آثارٍ حميدةٍ وخصالٍ كريمةٍ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، ومَا ينتجُ عنهُ منْ خضوعٍ وانقيادٍ لشرعِ اللهِ تعالَى، وإذعانٍ وامتثالٍ لأمرهِ تعالَى، فالعالمُ عرفَ ربَّهُ، وعرفَ نبيَّهُ، وعرفَ أوامرَ اللهِ وحدودهِ، وميَّزَ بينَ مَا يحبُّهُ اللهُ تعالَى ويرضاهُ وبينَ مَا يكرههُ ويأباهُ، فهوَ يعملُ بأمرِ اللهِ تعالَى فيمَا يأتِي ويذرُ، هذَا إنْ وفِّقَ للعملِ بمَا علمَ وإلَّا فعلمهُ وبالٌ عليهِ.

قالَ الآجرِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي مقدِّمةِ كتابهِ (أخلاقُ العلماءِ): إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وتقدَّستْ أسماؤهُ اختصَّ منْ خلقهِ منْ أحبَّ فهداهمْ للإيمانِ، ثمَّ اختصَّ منْ سائرِ المؤمنينَ منْ أحبَّ فتفضَّلَ عليهمْ فعلَّمهمُ الكتابِ والحكمةَ وفقَّههمْ فِي الدِّينِ وعلَّمهمُ التَّأويلَ، وفضَّلهمْ علَى سائرِ المؤمنينَ، وذلكَ فِي كلِّ زمانٍ وأوانٍ، رفعهمْ بالعلمِ وزيَّنهمْ بالحلمِ، بهمْ يُعرفُ الحلالُ منَ الحرامِ، والحقُّ منَ الباطلِ، والضَّارُ منَ النَّافعِ، والحسنُ منَ القبيحِ، فضلهمْ عظيمٌ وخطرهمْ جزيلٌ، ورثةُ الأنبياءِ، وقرَّةُ عينِ الأولياءِ، الحيتانُ فِي البحارِ لهمْ تستغفرُ، والملائكةُ بأجنحتهَا لهمْ تخضعُ، والعلماءُ فِي القيامةِ بعدَ الأنبياءِ تشفعُ، مجالسهمْ تفيدُ الحكمةَ، وبأعمالهمْ ينزجرُ أهلُ الغفلةِ، همْ أفضلُ منَ العبَّادِ، وأعلَى درجةً منَ الزُّهادِ، حياتهمْ غنيمةٌ، وموتهمْ مصيبةٌ، يذكِّرونَ الغافلَ، ويعلِّمونَ الجاهلَ، لَا يُتوقَّعُ لهمْ بائقةٌ، ولَا يُخافُ منهمْ غائلةٌ، بحسنِ تأديبهمْ

يتنازعُ المطيعونَ، وبجميلِ موعظتهمْ يرجعُ المقصِّرونَ، جميعُ الخلقِ إلَى علمهمْ محتاجٌ ... إلَى أنْ قالَ: فهمْ سراجُ العبادِ، ومنارُ البلادِ، وقوامُ الأمَّةِ، وينابيعُ الحكمةِ، همْ غيظُ الشَّيطانِ، بهمْ تحيَا قلوبُ أهلِ الحقِّ، وتموتُ قلوبُ أهلِ الزَّيغِ، مثلهمْ فِي الأرضِ كمثلِ النُّجومِ يُهتدَى بهَا فِي ظلماتِ البرِّ والبحرِ، إذَا انطمستِ النُّجومُ تحيَّرُوا، وإذَا أسفرَ عنهَا الظَّلامُ أبصرُوا(7).

ثمَّ ساقَ رحمهُ اللهُ تعالَى منْ نصوصِ الكتابِ والسنَّةِ وأقوالِ أهلِ العلمِ مَا يؤيِّدُ مَا ذكرهُ.

فالعلمُ لهُ منزلةٌ عاليةٌ، ومكانةٌ سامقةٌ، ومنْ أعظمِ مَا يبيِّنُ فضلهُ وعظمَ شأنهِ، قولُ اللهِ تعالَى: "يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" [المجادلة: 11].

قيلَ فِي تفسيرهَا: يرفعُ اللهُ المؤمنَ العالمَ علَى المؤمنِ غيرِ العالمِ، ورفعةُ الدَّرجاتِ تدلُّ علَى الفضلِ، إذِ المرادُ بهِ كثرةُ الثَّوابِ وبهَا تُرتفعُ الدَّرجاتُ، ورفعتهَا تشملُ المعنويَّةَ فِي الدُّنيَا بعلوِّ المنزلةِ وحسنِ الصيتِ، والحسيَّةِ فِي الآخرةِ بعلوِّ المنزلةِ فِي الجنَّةِ(8).

وكذلكَ قولُ اللهِ تعالَى: "وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا" [طه: 114].

ودلالةُ هذهِ الآيةِ علَى فضلِ العلمِ ظاهرةٌ، لأنَّ اللهَ لمْ يأمرْ نبيَّهُ ﷺ بطلبِ الازديادِ منْ شيءٍ إلَّا منَ العلمِ، لمَا يترتَّبُ عليهِ منْ زيادةِ الإيمانِ والثَّباتِ عليهِ، قالَ تعالَى: "وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ" [آل عمران: 7].

وقالَ تعالَى: "لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ" [النساء: 162].

وقالَ تعالَى: "شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" [آل عمران: 18].

وهذهِ الآيةُ الأخيرةُ كتبَ فيهَا ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى بحثاً حافلاً بيَّنَ فيهِ دلالتهَا علَى فضلِ العلمِ منْ وجوهٍ كثيرةٍ جدًا، تربُو علَى مائةٍ وخمسينَ وجهاً، فِي كتابهِ "مفتاح دار السعادة"(9).

وقولُ النبيِّ ﷺ: "منْ يردِ اللهُ بهِ خيرًا يفقِّههُ فِي الدِّينِ"(10) فهذَا الحديثُ منْ أعظمِ مَا يُبيِّنُ فضلَ العلمِ وأهلهِ، قالَ ابنُ القيِّمِ: وهذَا يدلُّ علَى أنَّ منْ لمْ يفقِّههُ فِي دينهِ لمْ يردْ بهِ خيراً، كمَا أنَّ منْ أرادَ بهِ خيراً فقَّههُ فِي دينهِ، ومنْ فقَّههُ فِي دينهِ فقدْ أرادَ بهِ خيراً، إذَا أريدُ بالفقهِ العلمِ المستلزِمِ للعملِ، وأمَّا إنْ أُريدَ بهِ مجرَّدَ العلمِ فَلَا يدلُّ علَى أنَّ منْ فَقِهَ فِي الدِّينِ فقدْ أُريدَ بهِ خيراً، فإنَّ الفقهَ حينئذٍ يكونُ شرطاً لإرادةِ الخيرِ وعلَى الأوَّلِ يكونُ موجباً واللهُ أعلمُ(11).

وكمَا تحدَّثنَا سابقًا، يجبُ أنْ يكونَ العملُ مقترنًا بالعلمِ وإنْ لَا فهوَ حجَّةٌ علَى صاحبهِ.

قالَ شيخُ الإسلامِ: ... ولهذَا يقالُ: العلمُ علمانِ: علمٌ فِي القلبِ، وعلمٌ علَى اللِّسانِ، فعلمُ القلبِ هوَ العلمُ النَّافعُ، وعلمُ اللِّسانِ هوَ حجَّةُ اللهِ علَى عبادهِ(14). فالفقيهُ الذِي تفقَّهَ قلبهُ، غيرَ الخطيبِ الذِي يخطبُ بلسانهِ، وقدْ يحصلُ للقلبِ منَ الفقهِ والعلمِ أمورٌ عظيمةٌ، ولَا يكونُ صاحبهُ مخاطباً بذلكَ

لغيرهِ، وقدْ يخاطبُ غيرهُ بأمورٍ كثيرةٍ منْ معارفِ القلوبِ وأحوالـهَا، وهوَ عارٍ عنْ ذلكَ، فارغٌ منهُ[15].

وبمَا تقدَّمَ يُعرفُ قدرُ العلمِ ومكانتهِ، وعظمِ منافعهِ وعوائدهِ، وقوَّةِ أثرهِ علَى قوَّةِ الإيمانِ وثباتهِ، وأنَّهُ أعظمُ أسبابِ زيادتهِ ونمائهِ وقوَّتهِ، وذلكَ لمنْ عملَ بهِ، بلْ إنَّ الأعمالَ إنَّمَا تتفاوتُ فِي زيادتهَا ونقصهَا، وقبولهضا وردِّهَا منْ جهةِ موافقتهَا للعلمِ ومطابقتهَا لهُ، كمَا قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: والأعمالُ إنَّمَا تتفاوتُ فِي القبولِ والردِّ بحسبِ موافقتهَا للعلمِ ومخالفتهَا لهُ، فالعملُ الموافقُ للعلمِ هوَ المقبولُ، والمخالفُ لهُ هوَ المردودُ؛ فالعلمُ هوَ الميزانُ، وهوَ المحكُّ[16].

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وكلُّ علمٍ وعملٍ لَا يزيدُ الإيمانَ قوَّةً فمدخولٌ...[17].

وزيادةُ الإيمانِ الحاصلةِ منْ جهةِ العلمِ تكونُ منْ وجوهٍ متعدِّدةٍ: منْ جهةِ خروجِ أهلهِ فِي طلبِ العلمِ، وجلوسهمْ فِي حلقِ الذِّكرِ، ومذاكرةِ بعضهمْ بعضاً فِي مسائلِ العلمِ، وزيادةِ معرفتهمْ باللهِ وشرعهِ، وتطبيقهمْ لمَا تعلَّموهُ، وفيمنْ تعلَّمَ منهمُ العلمَ لهمْ فيهِ أجرٌ، فهذهِ جوانبٌ متعدِّدةٌ يزدادُ بهِ الإيمانُ بسببِ العلمِ وتحصيلهِ.

قالَ ابنُ رجبٍ: فمتَى كانَ العلمُ نافعاً ووقرَ فِي القلبِ فقدْ خشعَ القلبُ للهِ وانكسرَ لهُ وذلَّ هيبةً وإجلالاً وخشيةً ومحبَّةً وتعظيماً، ومتَى خشعَ القلبُ للهِ وذلَّ وانكسرَ لهُ قنعتِ النَّفسُ بيسيرِ الحلالِ فِي الدُّنيَا وشبعتْ بهِ فأوجبَ لهَا ذلكَ القناعةَ

والزُّهدَ فِي الدُّنيَا ... وأوجبَ لهُ علمهُ المسارعةَ إلَى مَا فيهِ محبَّةَ اللهِ ورضاهُ والتَّباعدَ عمَّا يكرههُ ويسخطهُ[18].

---

(1) ((الفتاوى)) (80/28).

(2) ((فضل علم السلف على علم الخلف)) (ص: 45).

(3) ((فتح الباري)) (141/1).

(4) أخرجه البخاري (71)، ومسلم (1037).

(5) رواه أحمد (196/5) (21763). ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان. والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الترمذي: ليس هو عندي بمتصل، وقال ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (106/4): لا يصح، وقال ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (247/25): له طرق كثيرة، وحسنه ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (151/1) كما أشار لذلك في المقدمة، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)): صحيح.

(6) رواه الترمذي (2685). وقال: غريب، وصححه الألباني في (صحيح سنن الترمذي).

(7) ((أخلاق العلماء)) (ص: 13).

(8) ((فتح الباري)) لابن حجر (141/1).

(9) ينظر صـ 52 وما بعدها من كتاب مفتاح دار السعادة.

(10) أخرجه البخاري (71)، ومسلم (1037).

(11) ((مفتاح دار السعادة)) (ص: 65)، وانظر: ((الفتاوى)) (80/28).

(14) هذا من كلام الحسن البصري رحمه الله، أخرجه الدارمي (102/1) وغيره وذكره شيخ الإسلام في ((الفتاوى)) وعزاه للحسن انظر: (23/7).

(15) ((درء التعارض)) (453/7).

(16) ((مفتاح دار السعادة)) (ص: 89).

(17) ((الفوائد)) (ص: 162).

(18) ((فضل علم السلف على علم الخلف)) (ص: 46) بتقديم وتأخير في النقل.

مطلب

فِي الإعرضِ عنْ تعلُّمِ العلمِ النَّافعِ:

إنَّ الإعراضَ عنْ تعلُمِ علمِ اللهِ تعالَى مصيبةٌ كبيرةٌ للفردِ والمجتمعِ، ولهَا أثارٌ سلبيَّةٌ تقودُ إلَى التَّهلكِ فِي الدُّنيا والآخرة، وقبلَ الخوضِ فِي هذَا المطلبِ نستعرضُ، بعضَ الأحاديثِ، لتكونَ أصلًا نبنِي عليهِ فروعَ المطلبِ:

1) عنْ أنسٍ بنِ مالكٍ قالَ: لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا لا يُحَدِّثُكُمْ أحَدٌ بَعْدِي، سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: "مِن أشْراطِ السَّاعَةِ: أنْ يَقِلَّ العِلْمُ، ويَظْهَرَ الجَهْلُ..."[(1)].

2) وفِي روايةٍ أخرَى: " لا تَقومُ السَّاعةُ حتى يُرفَعَ العِلمُ، ويَظهَرَ الجهلُ..."[(2)].

3) وفِي روايةٍ: " لا تَقومُ السَّاعةُ حتى يُقبَضَ العِلْمُ، ويَظهَرَ الجَهلُ[(3)]".

4) وعنْ أنسٍ بنِ مالكٍ قالَ: "قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ، وإنَّ طالبَ العلمِ يستغفِرُ له كلُّ شيءٍ، حتى الحيتانِ في البحرِ"[(4)].

5) وعنْ أبِي هريرةَ وابنِ مسعودٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "الدُّنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلا ذكرَ اللهِ ومَا والاهُ، وعالِمًا أو متعلمًا"[(5)].

6) وعنْ أبِي واقدٍ اللَّيثِي: أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ بيْنَمَا هوَ جَالِسٌ في المَسْجِدِ والنَّاسُ معهُ إذْ أقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فأقْبَلَ اثْنَانِ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وذَهَبَ واحِدٌ، قالَ: فَوَقَفَا علَى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فأمَّا أحَدُهُمَا: فَرَأَى فُرْجَةً في الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وأَمَّا

الآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وأَمَّا الثَّالِثُ: فأدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ قالَ: ألَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أمَّا أحَدُهُمْ فأوَى إلى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ منه، وأَمَّا الآخَرُ فأعْرَضَ فأعْرَضَ اللَّهُ عنْه(6).

وَلَا نطيلُ فِي سردِ الأحاديثِ ونكتفِي بشرحِ مَا سبقَ.

فأمَّا الحديثُ الأوَّلُ فقدْ أشارَ المعلِّمُ ﷺ أنَّ منْ جملةِ أشراطِ السَّاعةِ أن يقلَّ العلمُ، فكلَّمَا قلَّ العلمُ اقتربتِ السَّاعةُ فإذَا مَا عُدمَ العلمُ منَ الأرضِ قامتِ السَّاعةُ، والدَّليلُ علَى ذلكَ الحديثُ والثَّاني والثَّالثُ وفيهمَا "لَا تقومُ السَّاعةُ حتَّى يُرفعُ العلمُ"، ولَا تقومُ السَّاعةُ حتَّى يُقبَضَ العِلْمُ" فكأنَّ قيامَ السَّاعةِ مقيَّدٌ بزوالِ العلمِ منَ الأرضِ، وكيفَ لَا والعملُ مقيَّدٌ بالعلمِ فبلَا علمٍ لَا يُدرَى مَا الصَّلاةُ ولَا الزَّكاةُ ولَا الصَّومُ والحجُّ بلْ بلَا علمٍ لَا يُدرَى معنَى لَا إلهَ إلَّا اللهُ، ودليلهُ قولهُ ﷺ: يَدْرُسُ الإسلامُ كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوبِ، حتَّى لَا يُدرَى مَا صيامٌ و لَا صلاةٌ و لَا نُسُكٌ ولا صدقةٌ، وليَسْرِى على كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ في ليلةٍ فلَا يبقَى فِي الأرضِ منهُ آيةٌ، وتبقَى طوائفُ منَ النَّاسِ: الشيخُ الكبيرُ والعجوزُ، يقولونَ: أدْرَكْنا آباءَنَا علَى هذهِ الكلمةِ: "لا إلهَ إلا اللهُ"، فنحنُ نقولُها(7).

ومَا تنفعُ الدُّنيَا وقدْ بلغَ أهلهَا هذَا المبلغِ، فزوالهَا أولَى لهَا، فهؤلاءِ النَّاسِ همْ بدايةُ شرارِ الخلقِ الذِينَ تقومُ عليهمُ السَّاعةُ، ودليلهُ قولهُ ﷺ: "تقومُ السَّاعةُ أوْ لَا تقومُ السَّاعةُ إلَّا علَى شرارِ النَّاسِ"(8).

وقولهُ تقومُ السَّاعةُ أوْ لَا تقومُ: هذَا منْ حسنِ أدبِ الصَّحابةِ حالَ سردِ حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ فإنَّ الرَّاوِي ينسَى اللَّفظَ علَى أصلهِ أحيانًا ويتذكَّرُ لفظينِ متقاربينِ فيذكرهمَا فيقولُ تقومُ

السَّاعةُ أولَا تقومُ السَّاعةُ، أيْ تقومُ السَّاعةُ علَى شرارِ الخلقِ، أو لَا تقومُ السَّاعةُ إلَّا علَى شرارِ الخلقِ، والمعنَى واحدٌ.

وبهذَا الحديثِ الأخيرِ يتبَّنُ أنَّ السَّاعةُ لَا تقومُ حتَّى يُرفعَ العلمُ بالكليَّةِ ولَا يبقَى شخصُ يذكرُ كلمةَ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، فيفنَى جيلُ الشُّيوخِ والعجَّزِ الذينَ يذكرونَ كلمةً سمعوهَا منْ آبائهمْ وهي لَا إلهَ إلَّا اللهُ، فإذَا كانَ الجيلُ الذِي يليهمُ ونسُوا تلكَ الكلمةِ قامتْ عليهمُ السَّاعةُ، ودليلهُ قولهُ ﷺ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ علَى أَحَدٍ يقولُ: اللَّهُ، اللَّهُ"(9).

ونخلصُ منْ كلِّ هذَا أنَّ بدايةُ الطَّامةِ هوَ الإعراضُ عنْ علمِ اللهِ تعالَى، فينجرُ عنهُ ولابدَّ الإعراضُ عنِ العملِ، وكيفَ يعملُ وهوَ لَا يعلمُ؟ فكيفَ سيوحِّدُ اللهَ وكيفَ سيصلِّي ويصومُ؟ ونخرجُ منْ هذهِ الأحاديثِ الثَّلاثةِ بأحكامٍ كثيرةٍ، أوَّلهَا: أنَّ منْ لَا علمَ لهمْ همْ شرارُ الخلقِ إنْ كانَ عدمُ عِلمِهمُ سببهُ الإعرضُ، ولَا همَّ إنْ كانَ سببُ الإعراضِ هوَ الكِبْرُ أوْ اللَّهوُ، والثَّانِي: أنَّ قيامَ قيامَ السَّاعةِ مرتبطٌ بزوالِ العلمِ،

والثَّالثُ: أنَّ فِي قلَّةِ العلمِ ظهورُ نقيضهِ وهوَ الجهلُ ومَا ينجرُ عنهُ منْ تحليلِ المحرَّماتِ وغيرِ ذلكَ.

أمَّا الحديثُ الرَّابعُ وفيهِ قولهُ ﷺ: "طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ" والحديثُ صحيحٌ فقدْ رواهُ أئمَّةُ الحديثِ وصحَّحهُ الألبانيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى، فقولهُ ﷺ "فريضةٌ" هوَ منْ صيَغِ الوجوبِ أيِ الأمرِ، فتوجدُ ألفاظٌ كثيرةٌ تدلُّ علَى الوجوبِ فِي الكتابِ والسنَّةِ أهمُّها:

صيغةُ الأمرِ بلفظِ الإنشاءِ أي: الطلبِ، بفعلِ الأمرِ (افْعَلْ) كقوله تعالى: "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ"[الأنعام: 72].

المضارعُ المجزومِ بلامِ الأمرِ كقولـهِ تعالَى: "فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا"[النساء: 9].

اسمُ فعلِ الأمرِ كقولـهِ تعالَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ"[المائدة: 105]، (عليكم) اسمُ فعلِ أمرٍ.

المصدرُ النَّائبُ عنْ فعلِ الأمرِ (أيِ: الذِي قامَ مقامَ فعلِ أمرٍ، كقولـهِ تعالَى: "فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ" [محمد:4].

صيغةُ (كتبَ) و (كُتِبَ)، كقولـهِ ﷺ: "إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ ...(10)".

وقولـهُ تعالَى: "يأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ"[البقرة :183].

صيغةُ (يوصيكمْ) و(فُرِضَ) منـهَا قولـهُ تعالَى: "يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا"[النساء: 11].

وغيرِ ذلكَ منْ صيغِ الأمرِ تجدونـهَا فِي مظانـهَا منْ كتبِ أصولِ الفقهِ.

وبهذَا يكونُ قولهُ ﷺ: "طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ"، أمرٌ والأمرُ يقتضِي الوجوبَ أيِ اللُّزومُ، والسؤالُ هلْ طلبِ العلمِ فريضةٌ عينيَّةٌ أوْ كفائيَّةٌ؟ الجواب: منَ العلمِ الشَّرعِي مَا هوَ فرضُ عينٍ علَى كلِّ مكلَّفٍ، وهوَ معلومٌ منَ الدِّينِ بالضَّرورةِ، كتعلُّمِ العقيدةِ وأنواعِ المياهِ والوضوءِ والصَّلاةِ والصَّومِ والحجِّ، ومنهُ مَاهوَ منْ فروضِ الكفايةِ كفروعِ علمِ الشَّرعيةِ منْ بيوعٍ والجناياتِ ونكاحٍ إلَى سائرِ العلومِ النَّافعةِ، وكذلكَ علومُ الآلةِ فهوَ منَ فروضِ الكفاياتِ، كالنَّحوِ والصَّرفِ واللُّغةِ والبلاغةِ والأصولِ والقواعدِ وغيرهَا، ويبقَى أمرٌ فِي مَا يخصُّ فروعَ العلمِ الشَّرعيِّ أنَّهُ فِي أصلهِ منْ فروضِ الكفايةِ ولكنَّهُ يدورُ حولَ حالِ المكلَّفِ، مثالٌ: علمُ أحكامِ الأسرةِ منْ نكاحٍ وظهارٍ وإيلاءٍ وطلاقٍ وغيرهِ، هوَ فِي أصلهِ فرضُ كفايةٍ، ولكنْ إنْ أرادَ المسلمُ الزَّواجَ وجبَ عليهِ تعلُّمُ مَا يكفيهِ منْ هذَا، لكيْ لَا يقعَ فِي كبيرةٍ دونَ علمٍ أوْ يُطلِّقَ زوجتهُ ولَا يدرِي مَا الرَّجعةُ وكيفَ هيَ وتمرُّ قروءُ العدَّةِ ثمَّ يرجعُ إليهَا دونَ عقدٍ جديدٍ وهيَ قدْ بانتْ بينونـةً صغرىَ، فيقعُ فِي الزِّنَا وإيَّاهَا دونَ علمٍ، وكذلكَ علمُ البيوعِ هوَ فِي أصلِ منْ فروض الكفاياتِ، ولكنْ أنْ أرادَ المسلمُ أنْ يتاجرَ وجبَ عليهِ تعلُمُ مَا يكفيهِ منهُ كيْ لَا يقعَ فِي مثلِ مَا وقعَ فيهِ السَّابقُ، وكذلكَ الحدودُ والجناياتُ، فيحرمُ شرعًا أنْ يتقلَّدَ مسلمٌ منصبَ القاضِي بلَا علمٍ بالجناياتِ.

ونخرجُ منْ هذَا أنَّ العلمِ الشَّرعِي علَى قسمينِ منهُ فرضُ عينِ ومنهُ فرضُ كفايةٍ، وأمَّا فرضُ الكفايةِ فهوَ فِي يدورُ معَ حالِ المكلَّفِ كمَا سبقَ وبيَّنَا.

وإنْ أعرَضَ عنِ العلمِ النَّافعِ كُرهًا فيهِ فقدْ خرجَ منَ الملَّةِ قولًا واحدًا والأدلَّةُ علَى ذلكَ كثيرةٌ جدًا، ويفِي أنْ نقولَ أنَّ العلمَ النَّافعَ هوَ علمُ الكتابِ والسنَّةِ فإنْ أبغَضَ هذَا العلمَ أبغضَ الكتابَ والسَّنةَ، وكرههمَا مخرجٌ منَ الملَّةِ، قالَ تعالَى: "ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ" [محمد: 9]، قالَ السَّعدِي: ذلكَ الإضلالُ والتّعسُ للذِينَ كفرُوا، بسببِ أنَّهمْ (كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)(11).

وبهِ قالَ ابنُ عبدِ الوهَّابِ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي النَّاقضِ الخامسِ، قالَ: منْ أبغضَ شيئاً ممَّا جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ ولوْ عملَ بهِ فقدْ كفرَ لقولهِ تعالَى "ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ" [محمد: 9](12)، وقدْ ذكرتُ هذَا النَّاقضَ فِي نظمِي لنواقضِ الإسلامِ معَ خللِ فِي الوزنِ، ولَا يؤاخذُ علَى الخللِ فِي هذَا النَّوعِ منَ النظومِ لأنَّ أصلهَا للتَّعليمِ وليستْ لطربِ الشِّعرِ، وقلتُ:

والخامسُ بغضُ مَا جابهُ الرَّسولُ * كأنَّهُ لَا يدرِي أنَّهُ المنزولُ

مرتدٌّ هالكٌ بدونِ مريـــــــــةِ * ولو رأيتهُ فِي دربِ السنَّةِ(13).

وبهذَا القولِ قالَ علماءُ الأمَّةِ وعامَّتهَا إلَّا منْ ضلَّ الصَّوابَ.

وأمَّا الحديثُ الخامسُ فقالَ فيهِ رسولَ اللهِ ﷺ: "الدُّنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلَّا ذكرَ اللهِ و ما والاه، وعالِمًا أو متعلمًا".

واللَّعنُ لغةً: أصلُ اللَّعنِ فِي اللُّغةِ: الطَّردُ والإبعادُ علَى سبيلِ السَّخطِ، أوِ الطَّردِ، والإبعادِ منَ الخيرِ، وكلاهمَا بمعنًى واحدٍ، لكنْ قدْ يختلفُ المعنَى بحسبِ قائلِ اللَّعنِ:

فإذَا كانتِ اللَّعنةُ منَ اللهِ تعالَى فِي الآخرةِ؛ فهيَ العقوبةُ والعذابُ والطَّردُ منْ رحمتهِ.

وإذَا كانتْ منهُ سبحانهُ فِي الدُّنيَا؛ فهيَ انقطاعٌ منْ قبولِ رحمتهِ وتوفيقهِ.

وإذَا كانتْ منَ الإنسانِ؛ فهيَ بمعنَى الدُّعاءِ علَى غيرهِ.

وقدْ تكونُ منَ الإنسانِ بمعنَى السبِّ لغيرهِ(14).

والذِي يتعلَّقُ بالحديثِ السَّابقِ بشكلٍ خاصٍ هوَ اللَّعنُ منَ الإنسانِ؛ إمَّا بمعنَى الدُّعاءِ عليهِ بالطَّردِ والإبعادِ منْ رحمةِ اللهِ علَى المعنَى الأقوَى، أوْ بمجرَّدِ السبّ علَى مَا ذكرهُ ابنُ منظورٍ بصيغةِ التَّضعيفِ.

اللَّعنُ اصطلاحاً:

جاءَ فِي "المفهمِ للقرطبِي" قالَ: وهوَ فِي الشَّرعِ البعدُ عنْ رحمةِ اللهِ تعالَى وثوابهِ إلَى نارهِ وعقابهِ(15).

وقدْ عرَّفهُ ابنُ عابدينَ نقلاً عنِ القُهُستان رحمهمَا اللهُ تعالَى(16) بقولهِ: وشرعاً فِي حقِّ الكفارِ: الإبعادُ عنْ رحمةِ اللهِ، وفِي حقّ المؤمنينَ: الإسقاطُ عنْ درجةِ الأبرارِ(17).

وموضوعنَا كمَا قلتُ هوَ لعنُ الإنسانِ فقولهُ ﷺ: "الدُّنيَا ملعونةٌ، ملعونٌ مَا فيهَا" والدُّنيَا ومَا فيهَا أيْ كلَّهَا، والدُّنيَا فِيهَا الكافرُ وفيهَا المسلمُ، فتكونُ اللعنةُ للكافرينَ فيهَا

إبعادهمْ عنْ رحمةِ اللهِ تعالَى وللمسلمينَ سقوطهمْ منْ درجةٍ عليَا، ثمَّ جاءَ الاستثناءُ بقولهِ ﷺ: "إلَّا ذكرَ اللهِ ومَا والاهُ، وعالِمًا أوْ مُتعلِّمًا" فهذَا الاستثناءُ يُرِي مُبصِرَهُ هولَ موقفِ المنصرفِ عنِ ذكرِ اللهِ وعلمهِ، ولكنَّ الأهمَّ أنَّ العلمَ النَّافعَ منْ جملةِ ذكرِ اللهِ تعالَى ومَا والاهُ، وجاءَ الخطابُ معطوفًا بالنَّصبِ علَى ذكرِ اللهِ تعالَى، فذكرُ اللهِ لفظٌ عامٌ، والعالمُ والمتعلِّمُ لفظٌ خاصٌ، وكمَا هوَ معلومٌ أنَّ عطفَ الخاصِ علَى العامِ يُعطِي الخاصَّ فضلًا ومزيَّةً علَى غيرهِ، قالَ ابنُ المنيرِ رحمهُ اللهُ تعالَى: عطفُ الخاصِ علَى العامِ يؤذِّنُ بمزيدِ اعتناءِ بالخاصِ لَا محالةَ، إذَا اقتصرَ علَى بعضِ متناولاتِ العامِ؛ لأنَّ الاقتصارَ علَى تخصيصِ مَا يُفردُ بالذِّكرِ يفيدهُ تمييزًا عنْ غيرهِ منْ بقيَّةِ المتناولاتِ[18].

وقالَ السُّيوطِي رحمهُ اللهُ تعالَى: فائدتهُ التَّنبيهُ علَى فضلهِ، حتَّى كأنَّهُ ليسَ منْ جنسِ العامِ، تنزيلًا للتَّغايرِ فِي الوصفِ منزلةَ التَّغايرِ فِي الذَّاتِ"[19].

ومثالهُ فِي قرآنِ قولهُ عزَّ وجلَّ: "مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ" [البقرة: 98]، فقولهُ سبحانهُ: (وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ) عطفٌ علَى (المَلَائِكَةِ) منْ بابَ عطفِ الخاصِ علَى العامِ؛ وذلكَ لأنَّ جبريلَ وميكالَ منْ جملةِ عمومِ الملائكةِ، ولكنْ مَا السَّببُ فِي إفرادِ جبريلَ وميكالَ بالذِّكرِ وهمْ منْ جملةِ والملائكةِ ومنْ جملةِ الرُّسلِ؟

الجَّوابُ هوَ: التَّنبيهُ علَى فضلهمَا وتميُّزهمَا عنْ غيرهمَا.

وكذلكَ الأمرُ فِي عطفِ العالمِ أوِ المتعلِّمِ علَى ذكرِ اللهِ تعالَى ومَا والاهُ، فهوَ منْ بابِ عطفِ الخاصِ علَى العامِ بيانًا لفضلِ

العلمِ منْ عمومِ ذكرِ اللهِ وأنَّهُ عمودهُ وذروةُ سنامهِ ورأسُ الأمرِ فِي التقرُّبِ منَ اللهِ تعالَى.

وبهِ قالَ الأشرفِي: المرادُ بمَا يوالِي ذكرَ اللهِ: طاعتهُ واتِّباعُ أمرهِ، وتجنُّبِ نهيهِ؛ لأنَّ ذكرَ اللهِ يقتضِي ذلكَ، وعالمًا أوْ متعلِّمًا أيْ: هيَ ومَا فيهَا مبعِدٌ عنِ اللهِ تعالَى إلَّا العلمَ النافعَ الدَّالِ علَى اللهِ، فهذَا هوَ المقصودُ منهَا، قولهُ: عالمًا أوْ متعلِّمًا بالنَّصبِ عطفًا علَى ذكرِ اللهِ كأنَّهُ قيلَ: الدُّنيَا مذمومةٌ لَا يحمدُ ممَّا فيهَا إلَّا ذكرُ اللهِ، وعالمٌ ومتعلِّمٌ، وكانَ حقَّ الظَّاهرِ أنْ يكتفِي بقولهِ: ومَا والاهُ؛ لاحتوائهِ علَى جميعِ الخيراتِ والفاضلاتِ، ومستحسناتِ الشَّرعِ، لكنَّهُ خصَّصَ بعدَ التَّعميمِ دلالةً علَى فضلِ العالمِ والمتعلِّمِ، وتفخيمًا لشأنهمَا صريحًا، وإيذانًا بأنَّ جميعَ النَّاسِ سِواهمَا همجٌ، وتنبيهًا علَى أنَّ المعنَى بالعالمِ والمتعلِّمِ العلماءُ باللهِ، الجامعونَ بينَ العلمِ والعملِ فيخرجُ الجهلاءُ، وعالمٌ لمْ يعملْ بعلمهِ، ومنْ يعملُ عملَ الفضولِ ومَا لَا يتعلَّقُ بالدِّينِ، وفيهِ أنَّ ذكرَ اللهِ أفضلُ الأعمالِ، ورأسُ كلِّ عبادةٍ، والحديثُ منْ كنوزِ الحكمِ وجوامعِ الكلمِ، لدلالتهِ بالمنطوقِ علَى جميعِ الخلالِ الحميدةِ، وبالمفهومِ علَى رذائلهَا القبيحةِ[20].

وأمَّا الحديثُ السَّادسُ فقدْ قالَ فيهِ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: (ألَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أمَّا أَحَدُهُمْ فأوَى إلى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ منه، وأَمَّا الآخَرُ فأعْرَضَ فأعْرَضَ اللَّهُ عنْه) وهمْ ثلاثتهمْ حضرُوا مجلسَ علمٍ، لقولِ الرَّاوِي: (أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ بيْنَمَا هوَ جَالِسٌ في المَسْجِدِ والنَّاسُ معهُ) والنَّاسُ معهُ يلتمسونَ منهُ العلمَ والفهمَ

والإرشادَ، وهؤلاءِ الثَّلاثةُ أحدهمْ رأَى فُرجةً فِي الحلقةِ فسارعَ لعلمِ اللهِ تعالَى وأقبلَ عليهِ بكلِّهِ فأقبلَ اللهُ عليهِ وآواهُ، وأمَّا الثَّانِي جلسَ خلفَ الحلقةِ يستمعُ الحكمةِ ويتعلَّمُ منْ علمِ اللهِ تعالَى ولكنَّهُ استحَيا منَ اللهِ تعالَى فاستحَيا اللهُ تعالَى منهُ، وأمَّا الأخيرُ فلمْ يأبهْ للعلمِ ولمْ يرفعْ بهِ رأسًا وأدبرَ وأعرضَ عنهُ فأعرضَ اللهُ عنهُ والعياذُ باللهِ، ونخرجُ منْ هذَا الحديثِ المباركِ بفوائدَ لَا تُحصَى ولَا تُعدُّ، أوَّلهَا:

أنَّ منْ أقبلَ علَى اللهِ تعالَى وآوَا إليهِ أقبلَ اللهُ عليهِ وآواهُ لامحالةَ، ويشهدُ لهُ حديثٌ مباركٌ دمعُ لهُ العيونُ يقولُ اللَّهُ تَعالَى علَى لسانِ رسولهِ ﷺ فِي حديثٍ قدسيٍّ مباركٍ: أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وأنَا معهُ إذا ذَكَرَنِي، فإنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ منهمْ، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِراعًا، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِراعًا تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ باعًا، وإنْ أتانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً[21].

وبمفهومِ الموافقةِ فكذلكَ منْ أرادَ العلمَ لوجهِ اللهِ علَّمهُ اللهُ تعالَى، وبمفهومِ المخالفةِ منْ أعرضَ عنْ علمِ اللهِ أعرضَ اللهُ عنهُ، فالجزاءُ منْ جنسِ العملِ.

والفائدةُ الثَّانيةُ: أنَّ الحياءَ لَا يمنعُ منْ طلبِ العلمِ، بلْ طلبُ العلمِ إذَا كانَ معهُ حياءٌ زادتْ بركتهُ وارتفعتْ درجةُ طالبهِ، والحياءُ منْ بابِ التواضعِ ويشهدُ لهُ قولهُ ﷺ: ... ومَا تواضعَ عبدُ للهِ إلَّا رفعهُ[22].

والفائدةُ الثَّالثةُ: أنَّ الشرَّ كلَّ الشرِّ فِي الإعراضِ عنْ علمِ اللهِ تعالَى، بلْ علَى العاقلِ أنْ يشغلَ كلَّ يومهِ وليلهِ بطلبِ العلمِ

النَّافعِ، فإنْ لمْ يستطعْ فكلَّ وقتَ فراغهِ، فإنْ لمْ يستطعْ فليُخصِّصْ سُويْعاتٍ منْ يومهِ، هذَا حتَّى وإنْ طلبَ العلمَ ولمْ يُتقنهُ لمظنَّة قولهِ ﷺ: منْ طلبَ علمًا فأدرَكَهُ كَتبَ اللَّهُ لَهُ كفلينِ منَ الأجرِ، ومنْ طلبَ علمًا فلمْ يدرِكْهُ كتبَ اللَّهُ لَهُ كفلًا منَ الأجرِ[23]. (الحديث فيه كلام – ينظر الحاشية)

وقياسًا علَى قولهِ ﷺ: الماهِرُ بالقُرآنِ مع السَّفَرةِ الكِرامِ البَرَرةِ، والذي يَقرَؤُه وهوَ يَشُقُّ عليهِ لهُ أجْرُهُ مرَّتَينِ[24]. فيجبُ علَى المؤمنِ أنْ يطلبَ العلمَ ويحاولَ الفهمَ، فإنْ لمْ يدركهُ فهمهُ فقدْ برئتْ ذمَّتهُ ونالَ أجرهُ وبركتهُ.

---

(1) أخرجه البخاري (81)، ومسلم (2671).
(2) تخريج المسند الصفحة 13883 إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(3) تخريج المسند 9527 صحيح.
(4) أخرجه ابن ماجه (224) أوله في أثناء حديث، والبزار (6746) مختصراً، وابن عبدالبر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (17) واللفظ له.
(5) صحيح الجامع 3414.
(6) صحيح البخاري.
(7) رواه حذيفة بن اليمان وأخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة وقال: صحيح على شرط مسلم.
(8) رواه عبدالله بن مسعود في مسند أحمد: 91/6 وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.
(9) رواه أنس بن مالك وأخرجه مسلم في صحيحه رقم: 148.
(10) أخرجه مسلمٌ من حديثِ شدَّاد بنِ أوسٍ.
(11) تفسير السعدي.
(12) نواقض الإسلام لمحمد بن عبد الوهاب.
(13) منظومة نواقض الإسلامِ لأبي فاطمة عصام الدين.
(14) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (252/5-253)؛ لسان العرب لابن منظور: (387/13)؛ مفردات ألفاظ القرآن للأصبهاني، ص: (741)؛ المصباح المنير للفيومي، ص: (212)، كلهم مادة لعن.
(15) المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم للقرطبي أبي العباس: (579/6).
(16) القُهُستاني (ت95هـ): محمد القُهُستاني، شمس الدين، فقيه حنفي، كان مفتياً ببخارى، له كتب منها: (جامع الرموز) ط. الأعلام للزركلي: (11/7).
(17) حاشية ابن عابدين: (416/3).
(18) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف - لابن المنير الإسكندري.
(19) معترك الاقران في اعجاز القران المؤلف : السيوطي، جلال الدين.
(20) فيض القدير شرح الجامع الصَّغير للمناوي.
(21) صحيح رواهُ أبو هريرة وأخرجه البخاري في صحيحه 7405 ومسلم 2675 باختلاف يسير.
(22) رواهُ أبو هريرة وأخرجه مالك في الموطأ (1000/2).

(23) رواه واثلة بن الأسقع الليثي أبو فسيلة - الترغيب والترهيب 75/1 - رواته ثقات، وثَّقهم الهيثمي في مجمع الزَّائد - وفيهم كلام. وضعَّفه غيرُ واحدٍ منهم الألباني وابن حجر وقال البوصيري في "إتحاف الخيرة المهرة": إسناده ضعيف لضعف يزيد بن ربيعة الدمشقي (انتهى كلام البوصيري)، وقيلَ أنَّ الأصلَ فيهِ موقوفٌ علَى واثلة بن الأسقع، قال ابن حبان في "المجروحين": فيه مجاشع بن يوسف يقلب الأسامي في الأخبار ويرفع الموقوف من الآثار لا تحل كتابة حديثه رفعه وهو قول واثلة (انتهى كلام ابن حجر). وحتى إن كان الحديث ظعيفًا بضعف يزيد ابن ربيعة، فإنَّه يشهدُ على معناه حديثُ "الماهر بالقرآن" فيرتقي بذلكَ إلى الحسنِ لغيرهِ، والحديثُ يشهدُ لمعناهُ عدَّةٌ من الأحاديثِ والآياتِ منهَا قولهُ تعالَى: "فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ"[البقرة: 196] قال القرطبي: لا إشكال فيها (أي معنى: الاحصار)، ونحن نبينها غاية البيان فنقول : الإحصار هو المنع من الوجه الذي تقصده بالعوائق جملة، أي بأي عذر كان، كان حصر عدو أو جور سلطان أو مرض أو ما كان. (انتهى كلام القرطبي) فلمَّا تبيَّن أنَّ معنَى الاحصار هو المنع من فعل القربى مع العزمِ على فعلهَا، وأنَّ من أحصر فقدْ وقع أجره على الله تعالى لقولهِ تعالَى: " وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ"[النساء: 10] قال ابن كثير: ومن خرج من منزله بنية الهجرة، فمات في أثناء الطريق، فقد حصل له من الله ثواب من هاجر، (انتهى كلام ابن كثير)، وكذلك من طلبَ علمًا فلم يدركهُ بأيِّ مانعٍ كانَ كبلادةِ الذهنِ وصعوبةِ الفهمِ أو بعد المسافة أو عذر كان فقد وقعَ أجرهُ علَى اللهِ تعالَى، ومن الأحاديث قولُه ﷺ: "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى" (رواه البخاري)، ونهُ قولهُ : "إِنَّ أَقْوَامَاً خَلْفَنَا بالمدِينَةِ مَا سَلَكْنَا شِعْباً وَلاَ وَادِياً إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا، حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ" (رواه البخري)، وبهذَا يكون من طلب علمًا فلم يدركه وهو عازمٌ على طلبه، فهوَ كمن أراد الحج وأحصر وكالذي أراد الهجرة فمات في الطريق وكالمجاهد الذي أراد الجهاد ومنعه العذر، فإنما الأعمال بالنِّيات وثبت أجره ونرجو أن يحشر يومَ القيامة في زمرة أهل العلم، وبهذَا يكون الحديث حسنًا لغيرهِ إن شاء الله تعالَى ويجوز الإخبار به، وإنْ كان الحديثُ ضعيفًا بضعف مشاجع بن يوسفَ، فيُحمل الحديث على الوقف لا على الرَّفع، ويصبحُ الحديث حسنا لغيرهِ موقوفًا على واثلةَ، ولكن للعلمِ أنَّ الصَّحابةَ إذَا تحدَّثوا علَى الغيبِ والأجورِ تُحملُ أحاديثهم على الرَّفع، فإن قول الصحابي الذي لا مجال فيه للاجتهاد ولا له علاقة بلغة العرب له حكم الرفع، وذلك مثل الإخبار عن الأمور الماضية وقصص الأنبياء، والملاحم والفتن، وأحوال الآخرة، والإخبار عن ثواب مخصوص أو عقاب مخصوص فكل هذا مما يحكم له بالرفع، لأنه لا مجال فيه للاجتهاد، ومن ذلك: حكمه على فعل من الأفعال بأنه طاعة لله أو لرسوله أو معصية (انظر نزهة النَّظر صـ 53 وتدريب الراوي صـ 121) وواثلة رضي اللهُ عنه تحدَّث عن الجزاء والأجر بقوله: "ومنْ طلبَ علمًا فلمْ يدركْهُ كتبَ اللَّهُ لَهُ كفلًا منَ الأجرِ" وهذَا ممَّا لَا مجالَ فيهِ للإجتهاد ولا للرأي، ويستحيلُ أنْ يقعَ صحابيٌّ في مثلِ هذَا وأن يقولَ على الله تعالَى بعلمٍ، ونخرج من هذا المبحث، أنَّ ضعف الحديثِ بضعفِ يزيد بن ربيعة فقدْ حسنَ بغيرهِ من شواهد الآيات والأحاديثِ وإنْ كانَ الحديثُ ضعيفًا بضعف مشاجعِ لأنه يرفع الموقوفَ فبمَا سبقَ نرى أنَّ الحديث مرفوعٌ حكمًا بما بينَّا سابقًا، ونخرجُ منْ هذا المبحث بأنَّ الحديثَ مرفوع حكما وهو حسنٌ لغيرهِ ويجوز بهذَا روايتهُ الاستدلالُ بهِ، وما نظن إلَّا ظنَّا وما نحن بمستيقنين، والله أعلمُ.

(24) روته عائشة أم المؤمنين وأخرجه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند 26028 وقال إسناده صحيح على شرط الشيخين.

ثمَّ قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: لفظُ "الأمَّةِ" فِي القرآنِ علَى أربعةِ أوجهٍ: يرادُ بهِ "الطَّائفةُ منَ النَّاسِ" وهوَ الغالبُ، ويرادُ بهِ "المدَّةُ"، ويرادُ بهِ "الدِّينُ" و "الملَّةُ"، ويرادُ بهِ "الإمامُ" فِي الخيرِ.

~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ وردَ لفظُ الأمَّةِ فِي القرآنِ مرارًا منهَا قولهُ تعالَى: "رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ" [البقرة: 128]**.**

وقولهُ سبحانهُ: "تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ" [البقرة: 134]**.**

وقولهُ جلَّ جلالهُ: "وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ" [البقرة: 143]**.**

وقولهُ سبحانهُ وتعالَى: "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ" [البقرة: 213]**.**

وقولهُ جلَّ منْ قائلٍ: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ" [آل عمران: 104]**.**

وقولهُ تباركَ وتعالَى: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ" [آل عمران: 110]**.**

وقولهُ جلَّ وعلاَ: "مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ" [آل عمران: 113]**.**

المعنَى اللُّغوي للأمَّةِ:

الأمَّةُ مشتقَّةٌ منْ (أم) وجذرُ هذهِ المادَّةِ، كمَا قالَ ابنُ فارسٍ: الهمزةُ والميمُ أصلٌ واحدٌ، يتفرَّعُ منهُ أربعةُ أبوابٍ، وهيَ: الأصلُ والمرجعُ والجماعةُ والدِّينُ، وهذهِ الأربعةُ متقاربةٌ، وبعدَ ذلكَ أصولٌ ثلاثةٌ، وهيَ القامةُ والحينُ والقصدُ[1]، والأمَّةُ فِي الأصلِ راجعةٌ إلَى القصدِ، وهيَ: الجماعةُ التِي تقصدُ الأمرَ بتضافرٍ وتعاونٍ[2].

وقالَ ابنُ قتيبةَ: أصلُ الأمَّةِ: الصنفُ منَ النَّاسِ والجماعةُ[3].

وقالَ الكفوِي: الأمَّةُ فِي الأصلِ: المقصودُ، كالعمدةِ والعدَّةِ فِي كونهمَا معمودًا ومعدًّا، وتسمَّى بهَا الجماعةُ منْ حيثُ تؤمُّهَا الفرقُ، كقولهِ تعالَى: (أُمَّةً مِن النَّاسِ يَسْقُونَ)[القصص: 23]**[4].**

وكلُّ مشتقَّاتِ هذهِ المادَّةِ ترجعُ إلَى معنَى القصدِ، ولَا يخرجُ شيءٌ منهَا عنْ ذلكَ[5].

المعنَى الاصطلاحِي للأمَّةِ:

قالَ الرَّاغبُ الأصفهانِي: والأمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمعهمْ أمرٌ مَا إمَّا دينٌ واحدٌ، أوْ زمانٌ واحدٌ، أوْ مكانٌ واحدٌ سواءٌ كانَ ذلكَ الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أوِ اختيارًا[6].

وقالَ ابنُ عاشورٍ: والأمَّةُ: اسمٌ للجماعةِ الذينَ أمرهمْ واحدٌ، مشتقَّةٌ منَ الأمِّ بفتحِ الهمزةِ وهوَ القصدُ، أيْ: يؤمُّونَ غايةً واحدةً[7].

وقالَ سيِّدُ قطبٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: (الأمَّةُ) عبارةٌ عنْ طائفةٍ منَ النَّاسِ، متوافقةٌ فيمَا بينهَا، اجتمعتْ وتألَّفتْ وامتازتْ منْ بينَ طوائفَ أخرَى؛ لاشتراكهَا فِي بعضِ الأمورِ الجوهريَّةِ[8].

وإنَّمَا تكونُ الجماعةُ أمَّةً إذَا اتَّفقُوا فِي الموطنِ، أوِ الدِّينِ، أوِ اللُّغةِ، أوْ فِي جميعهَا[9].

وبعدَ هذهِ التَّعريفاتِ التِي كلُّهَا تصبُّ فِي معنًى واحدٍ نرَى أنَّ أقربَ التَّعريفاتِ للاستعمالِ القرآنِي هوَ تعريفُ شيخنَا السَّعدِي وأيَّدهُ تعريفُ ابنُ فارسٍ رحمهمَا اللهُ تعالَى حينَ قسَّمَا لفظَ الأمَّةِ أربعةَ أقسامٍ علَى حسبِ السِّياقِ.

الأمَّةُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردَ لفظُ (الأمَّةُ) فِي القرآنِ الكريمِ (64) مرَّةً[10].

وجاءَ فِي القرآنِ علَى أربعةِ أوجهٍ[11]:

1) الوجهُ الأوَّلُ: العصبةُ والقومُ والجماعةُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ" [البقرة: 128] يعنِي عصبةً أوْ قومًا أوْ جماعةً.

قالَ البغوْي: (أمَّةً) جماعةً والأمَّةُ أتباعُ الأنبياءِ[12].

2) الثَّاني: الملَّةُ والدِّينُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً" [البقرة: 213] يعني ملَّةً ودينًا واحدًا.

قالَ القرطبِي: قولهُ تعالَى : كانَ النَّاسُ أمَّةً واحدةً أيْ علَى دينٍ واحدٍ[13].

3) الثَّالثُ: المدَّةُ منَ الزَّمنِ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ" [هود: 8] يعنِي سنينَ معدودةٍ.

قال الطَّبرِي: وبنحوِ الذِي قلنَا منْ أنَّ معنَى "الأمَّةِ" فِي هذَا الموضعِ، الأجلُ والحينُ، قالَ أهلُ التَّأويلِ.

ذكرَ منْ قالَ ذلكَ:

... بسندهِ إلَى ابنِ عبَّاسٍ قالَ: (ولئنْ أخَّرنَا عنهمُ العذابَ إلَى أمَّةٍ معدودةٍ)، قالَ: إلَى أجلٍ محدودٍ(14).

4) الرَّابعُ: الإمامُ فِي الخيرِ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" [النحل:120] يعنِي إمامًا يُقتدَى بهِ فِي الخيرِ.

قالَ القرطبِي: قولهُ تعالَى : قولهُ تعالَى: إنَّ إبراهيمَ كانَ أمَّةً قانتًا للهِ حنيفًا دعَا (عليهِ السَّلامُ) مشركِي العربَ إلَى ملَّةِ إبراهيمَ؛ إذْ كانَ أباهمْ وبانِي البيتَ الذِي بهِ عزُّهمْ؛ والأمَّةُ: الرَّجلُ الجامعُ للخيرِ، وقدْ تقدَّمَ محاملهُ، وقالَ ابنُ وهبٍ وابنُ القاسمِ عنْ مالكٍ قالَ: بلغنِي أنَّ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ قالَ: يرحمُ اللهَ معاذًا! كانَ أمَّةً قانتًا، فقيلَ لهُ: يَا أبَا عبدِ الرَّحمنِ، إنَّماَ ذكرَ اللهُ تعالَى بهذَا إبراهيمَ (عليهِ السَّلامُ)، فقالَ ابنُ مسعودٍ: إنَّ الأمَّةَ الذِي يعلِّمُ النَّاسَ الخيرَ، وإنَّ القانتَ هوَ المطيعُ(15).

---

(1) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢١/١.
(2) انظر: الوجوه والنظائر، العسكري ص ٣١.
(3) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٢٤٨، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ١٤٢.
(4) الكليات، الكفوي ص ١٨١.
(5) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢٧/١٢.
(6) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٦، وانظر: الكليات، الكفوي ص ١٧٦.
(7) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠٠/٢.
(8) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١٤٤٦/٣.
(9) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠٠/٢.
(10) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٨٠.
(11) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ٤٧.
(12) تفسير البغوي.
(13) تفسير القرطبي.
(14) تفسير الطبري.
(15) تفسير القرطبي.

ألفاظُ ذاتُ صلةٍ بالأمَّةِ:

1) الجمعُ:

الجمعُ لغةً:

ضمُّ الشَّيءِ بتقريبِ بعضهِ منْ بعضٍ، يقالُ: جمعتهُ فاجتمعَ[1]، وجمعتُ الشَّيءَ: إذَا جئتَ بهِ منْ هاهنَا وهاهنَا، وتجمَّعَ القومُ: اجتمعُوا أيضًا منْ هاهنَا وهاهنَا[2].

الجمعُ اصطلاحًا:

قالَ ابنُ عاشورٍ: والجمعُ: الجماعةُ منَ النَّاسِ[3].

الصِّلةُ بينَ الأمَّةِ والجمعِ:

هوَ أنَّ الأمَّةَ هيَ الجماعةُ التِي تقصدُ الأمرَ بتضافرٍ وتعاونٍ، لكنَّ الجمعَ هوَ فقطِ الجماعةُ منَ النَّاسِ، فالعلاقةُ بينهمَا أنَّ لفظَ الجمعِ أخصُّ منْ لفظِ الأمَّةِ.

2) الحزبُ:

الحزبُ لغةً:

قالَ الأزهرِي: والحزبُ: الصِّنفُ منَ النَّاسِ.

وقالَ ابنُ الأعرابِي: الحزبُ: الجماعةُ منَ النَّاسِ[4]، وقدْ وردَ لفظُ (الحزبِ) فِي القرآنِ الكريمِ بصيغةِ الإفرادِ والجمعِ دونَ التَّثنيَةِ؛ للدَّلالةِ علَى مفهومِ الأمَّةِ.

الحزبُ اصطلاحًا:

والحزبُ: الجماعةُ المجتمعونَ علَى أمرٍ منِ اعتقادٍ أوْ عملٍ، أوِ المتِّفقونَ عليهِ[5].

الصِّلةُ بينَ الأمَّةِ والحزبِ:

بينهمَا عمومٌ وخصوصٌ؛ فلفظُ الأمَّةِ أعمُّ منْ لفظِ الحزبِ، فكلاهمَا يدلُّ علَى الصِّنفِ والجماعةِ، إلَّا أنَّ الحزبَ خاصٌّ بجماعةِ البشرِ، والأمَّةُ عامَّةٌ فِي جماعةِ البشرِ وغيرِهَا، كمَا قالَ تعالَى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)[الأنعام: 38].

3) القومُ:

القومُ لغةً:

القافُ والواوُ والميمُ: أصلانِ صحيحانِ، يدلُّ أحدهمَا علَى جماعةِ ناسٍ، وربَّمَا استُعيرَ فِي غيرهِمْ، والآخرُ علَى انتصابٍ أوْ عزمٍ(6).

القومُ اصطلاحًا:

قالَ الرَّاغبُ: والقومُ: جماعةُ الرِّجالِ فِي الأصلِ دونَ النِّساءِ، ولذلكَ قالَ تعالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ)[الحجرات: 11]، وفِي عامَّةِ القرآنِ أريدُوا بهِ والنِّساءُ جميعًا(7).

قالَ الرَّازِي: القومُ: اسمٌ يقعُ علَى جمعٍ منَ الرِّجالِ ولَا يقعُ علَى النِّساءِ ولَا علَى الأطفالِ، والقائمُ بالأمورِ همُ الرِّجالُ؛ فعلَى هذَا الأقوامُ الرِّجالُ لَا النِّساءُ(8).

الصِّلةُ بينَ الأمَّةِ والقومِ:

لفظُ الأمَّةِ أعمُّ منْ لفظِ القومِ، فكلُّ أمَّةٍ قومٌ، ولَا عكسٌ.

4) الثلَّةُ:

الثلَّةُ لغةً:

الثَّاءُ واللَّامُ أصلانِ متباينانِ: أحدهمَا التجمُّعُ، والآخرُ السُّقوطُ والهدمُ والذلُّ، والثلَّةِ: الجماعةُ منَ النَّاسِ.

قالَ اللهُ تعالَى: "ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ (40)"[الواقعة: 39، 40][9].

الثلَّةُ اصطلاحًا:

قالَ القاسمِي: أي: جماعةٌ وأمَّةِ[10].

وقالَ السَّعدِي: أي: جماعةٌ كثيرونَ[11].

الصلَّةُ بينَ الأمَّةِ والثلَّةِ:

أنَّ الثلَّةَ جزءٌ منَ الأمَّةِ، فكلُّ أمَّةٍ ثلَّةٌ وليسَ كلُّ ثلَّةٍ أمَّةٌ.

---

(1) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٩٦.

(2) لسان العرب، ابن منظور ٥٣/٨.

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨٢/٢٠.

(4) تهذيب اللغة، الأزهري ٢١٧/٤.

(5) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧٣/١٨.

(6) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤٣/٥.

(7) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٩٣.

(8) مفاتيح الغيب، ١٠٨/٢٨ بتصرف يسير.

(9) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣٦٨/١.

(10) محاسن التأويل ١٢٣/٩.

(11) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٣٢.

ثمَّ قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: لفظُ "استوَى" فِي القرآنِ علَى ثلاثةِ أوجهٍ:

إنْ عُدِّيَ بِـ "علَى" كانَ معناهُ العلوُّ والارتفاعُ، "ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ"[الأعراف: 54].

وإنْ عدِّيَ بـ "إلَى"، فمعناهُ قصدٌ، كقولهِ: "ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ"[البقرة: 29].

وإنْ لمْ يعد بشيءٍ، فمعناهُ "كَمُلَ"، كقولهِ تعالَى "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى"[القصص: 14].

~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى لفظَ "استوَى" ومشتقَّاهِ فِي مواقعَ كثيرةٍ منَ القرآنِ، نذكرُ منهَا مَا يهمُّنَا فِي هذَا المبحثِ، قالَ تعالَى:

"ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ"[البقرة: 29].

وقالَ سبحانهُ: "ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا"[الأعراف: 54].

وقالَ جلَّ جلالهُ: "ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ"[يونس: 3].

وقالَ جلَّ وعلَا: "الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ"[طه: 5].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى"[القصص: 14].

وغيرِ ذلكَ منَ المواقعِ التِي ذكرَ فيهَا لفظُ استوَى أو أحدِ مشتقَّاتهِ.

الاستواءُ لغةً:

اِسْتَوَى وجذعهَا سوي، وهوَ فعلٌ: خماسيٌّ، لازمٌ ومتعدٍّ. مزيدٌ بحرفٍ، تقولُ: اِسْتَوَيْتُ، أَسْتَوِي، اِسْتَوِ، والمصدرُ: اِسْتِواءٌ.
واسْتَوَى الطَّعامُ، أَوِ التَّمْرُ، أَوِ الفاكِهَةُ: نَضِجَ.
واسْتَوَتِ الأَرْضُ: صارَتْ مُنْبَسِطَةً.
واسْتَوَتْ بِهِ الأرْضُ: هلَكَ فِيهَا.
واسْتَوَى الوَلَدانِ: تَسَاوَيا[1].
واستوتِ الأرضُ: صارت جَدْبًا.
واستوَى علَى كذَا، أوْ فوقهُ: علَا وصَعدَ.
واستوَى: استقرَّ وثبتَ.
واستوَى إِليهِ: قَصَدَ وتوجَّهَ لَا يَلوِي علَى شيءٍ[2].

الاستواءُ فِي اصطلاحِ الشَّرعِ:
قالَ تعالَى: "إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ" [يونس: 3]**، استواءً يليقُ بجلالهِ، ومعنَى استوَى صعدَ وارتفعَ وعلَا، ولَا يقالُ كيف؟**
"الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اِسْتَوَى" [طه: 5]**، استوَى: ارتفعَ، استواءً يليقُ بهِ تعالَى.**
"وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ" [القصص: 14]**، استوَى: انتهَى شبابهُ واستقرَّ، أوِ اعتدلَ عقلهُ و كمُلَ[3].**

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالاستواءِ فِي اللُّغةِ:

اِنْصَاتَ:

اِنْصاتَ الْمُعْوَجُّ: اِسْتَقامَ بَعْدَ انْحِناءٍ، اِسْتَوَى.

اِسْتَقَامَ:

استقامَ الأبُ علَى الأريكةِ اعتدلَ.

إِعْتَدَلَ:

اِعْتَدَلَ السَّيِّدُ على كُرْسِيِّهِ : اِسْتَقَامَ.

إِسْتَدَّ:

اسْتدَّ : استقام وانتظَم.

إِطَّرَد:

اطَّرَد النهرُ، جرى مجرىً واحدًا، تتابعَ فاستقام وتماثلت أحكامُه.

أَيْنَعَ:

أينعَ الثَّمرُ طابَ و"نضجَ" وحانَ قطافهُ.

إِتَّسَقَ:

اتَّسق القمرُ: استوى وامتلأ واكتمل واستدار.

تَسَاوَقَ:

تساوقَ الشَّيئانِ :تسايرًا، تقارنًا، تناسَقًا، تلاءمًا، تساوقَ اللَّونُ معَ مَا يحيطُ بهِ.

تَسَدَّدَ:

استقامَ وانتظمَ.

نَضِجَ:

نضِجَ الشَّخصُ: اكتملَ نموُّهُ واكتسبَ خبرةَ التَّفكيرِ(4).

علاقةُ لفظِ استوَى بالارتفاعِ والعلوِّ:

هيَ علاقةٌ لغويَّةٌ وشرعيَّةٌ معًا، إذَا قُيِّدَ الاستواءُ بحرفِ "على".

قالَ سبحانهُ: "ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا" [الأعراف: 54].

علاقةُ لفظِ استوَى بالقصدِ:

هيَ علاقةٌ لغويةٌ فقطْ، إذَا قُيِّدَ الاستواءُ بحرفِ "إلى" وأمَّا شرعًا فهوَ العلوُّ والارتفاعُ معَ قبولِ القصدِ.

قالَ تعالَى: "ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ" [البقرة: 29].

علاقةُ لفظِ استوَى بالمعيَّةِ:

هيَ علاقةٌ لغويَّةٌ وشرعيَّةٌ معًا، إذَا قُرِنَ الاستواءُ بحرفِ "الواو" (واو المعيَّة) التِي تعدِّي الفعلَ إلَى المفعولِ معهُ؛ نحوَ: استوَى الماءُ والخشبةُ، بمعنَى: ساواهَا(5)**.**

علاقةُ لفظِ استوَى بالتَّمامِ والكمالِ والنُّضجِ:

هيَ علاقةٌ لغويَّةٌ وشرعيَّةٌ معًا، مَا لمْ يوصلْ معناهُ بحرفٍ قالَ تعالَى: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى)[القصص: 14]

---

(1) المعجم الغني.

(2) المعجم الوسيط.

(3) معجم المعاني.

(4) السَّابق.

(5) مختصر الصواعق، للموصلي.

وقد بيَّنَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى أنَّ لفظَ استوَى فِي القرآنِ يأتِي علَى ثلاثةِ أوجهٍ:

إنْ عُدِّيَ بِـ "علَى" كانَ معناهُ العلوُّ والارتفاعُ.

وإنْ عدِّيَ بـ "إلَى"، فمعناهُ قصدٌ.

وإنْ لمْ يعد بشيءٍ، فمعناهُ "كَمُلَ".

وضربَ رحمهُ اللهُ تعالَى أمثلةً علَى ذلكَ بآياتٍ بيِّناتٍ كمَا فِي البابِ.

وقبلَ كلِّ شيءٍ يجبُ أنْ نعلمَ أنَّ لفظَ الاستواءِ علَى قسمينِ، مطلقٌ ومقيَّدٌ:

أمَّا المطلقُ: مَا لمْ يوصلْ معناهُ بحرفٍ؛ مثلَ قولهِ تعالَى: "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى" [القصص: 14].

وأمَّا المقيَّدُ فعلَى ثلاثةِ وجوهٍ:

أحدهَا: مقيَّدٌ بـ "إلى" كقولهِ تعالَى: "ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ" [البقرة: 29].

والثَّانِي: مُقيَّد بـ "على" كقولهِ تعالَى: "لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ" [الزخرف: 13].

والثَّالثُ: المقرونُ بواوٍ (واو المعيَّة) التِي تعدِّي الفعلَ إلَى المفعولِ معهُ؛ نحوَ: استوَى الماءُ والخشبةُ، بمعنَى: ساواهَا(1).

ولكنَّهمُ اختلفُوا فِي إنْ عدِّيَ الاستواءُ بـ "إلى" هلْ يفيدُ القصدَ كمَا قالَ السَّعدِي أمْ هوَ العلوُّ كمَا إنْ عدِّيَ بـ "على".

واختلفوا أيضًا في إضافة معنَى القَصْدِ والعَمْدِ والإقبالِ إلَى معنَى العلوِّ والارتفاعِ إنْ أُريدَ بـ "إلَى" العلوَّ والارتفاعُ كمَا فِي جملةِ (استوَى إلَى) فِي بعضِ مواضعِ القرآنِ مثلَ قولهِ تعالَى: "ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ"[البقرة: 29]**، والظَّاهرُ واللهُ أعلمُ أنَّ لفظَ استولَى إنْ عديَ بـ "إلَى" كانَ معناهُ العلوَّ والإرتفاعُ ويضافُ لهُ القصدُ والإقبالُ فِي السِّياقِ، هذَا لأنَّهُ يوجدُ فرقٌ بينَ أهلَ السنَّةِ وبينَ أهلِ التَّأويلِ المذمومِ فِي هذَا البابِ، فأهلُ السنَّةِ لَا ينفونَ المعنَى الأصليِّ لـ (استوَى إلَى)؛ وإنَّمَا يُضيفونَ إليهِ معنًى يُناسبُ حرفَ الجرِّ (إلى)، فيكونُ المعنَى أنَّهُ سبحانهُ ارتفعَ علَى السَّماءِ قاصدًا عامدًا.**

بخلافِ المؤوِّلينَ فإنَّهمْ يقولونَ: استوَى بمعنَى (قصد) وينفونَ معنَى العلوِّ، وهذَا ليسَ منْ طريقةِ أهلِ السنَّةِ.

فالقومُ فِي بابِ التَّضمينِ يقولونَ: أنَّ المعنَى الأوَّلَ مرادٌ، ومعهُ المعنَى الثانِي الذِي يُناسبُ التَّعديةَ بـ (إلى)، وأمَّا أهلُ البدعةِ فيقصدونَ إلَى التَّفسيرِ بالمعنَى الثَّانِي لأجلِ نفيِ المعنَى الأوَّلِ وهوَ الإرتفاعُ[2]**.**

والخلافُ الذِي بينَ أهلِ السنَّةِ فِي هذَا البابِ علَى قولينِ[3]**:**

القولُ الأوَّلُ: أنَّ المعنَى المناسبَ لـ (استوَى إلَى) هوَ علَا وارتفعَ.

واختارَ هذَا القولَ أبُو العاليةَ[4]**، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ**[5]**، وقولٌ للحسنِ البصرِي**[6]**، والخليلِ بنِ أحمدَ اللُّغوِي**[7]** وغيرهمْ.**

وقالَ الموصلِي فِي مختصرِ الصَّواعقِ: (لفظُ الاستواءِ فِي كلامِ العربِ الذِي خاطبنَا اللهُ تعالَى بلُغتهمْ، وأنزلَ بهَا كلامهُ "نوعانِ": مطلقٌ، ومقيَّدٌ، فالمطلقُ: مَا لمْ يوصلْ معناهُ

بحرفٍ؛ مثلَ قولهِ: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى)[القصص: 14] وهذَا معناهُ كَمَل وتمَّ، يُقالُ: استَوى النَّباتُ واستَوى الطعامُ.

أمَّا المقيَّدُ فثلاثةُ أضربٍ:

أحدهَا: مقيَّدٌ بـ "إلى"؛ كقولهِ: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ)[البقرة: 29]، وهذَا بمعنَى العلوِّ والارتفاعِ بإجماعِ السَّلفِ.

الثَّانِي: مُقيَّد بـ "على"؛ كقولهِ تعالَى: (لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ)[الزخرف: 13]، وهذَا أيضًا معناهُ العلوُّ والارتفاعُ والاعتدالُ بإجماعِ أهلِ اللُّغةِ.

الثَّالثُ: المقرونُ بواوٍ (واو المعيَّة) التِي تعدِّي الفعلَ إلَى المفعولِ معهُ؛ نحوَ: استوَى الماءُ والخشبةُ، بمعنَى: ساواهَا

وهذهِ معانِي الاستواءِ المعقولةِ فِي كلامهمْ(8).

ومنَ النُّقولِ عنْ أصحابِ القولِ الأوَّلِ مَا قالهُ الخليلُ بنُ أحمدَ: أتيْتُ أبَا ربيعةَ الأعرابيِّ، وكانَ منْ أعلمِ مَنْ رأيتُ، فإذَا هوَ علَى سطحٍ، فسلَّمْنَا فردَّ علينَا السَّلامَ، وقالَ لنَا استوُوا فبقينَا مُتحيِّرينَ، ولمْ نَدْرِ مَا قالَ، قالَ: فقالَ لنَا أعرابيٌّ إلَى جنبهِ أنَّهُ أمركمْ أنْ ترتفعُوا، قالَ الخليلُ: هوَ منْ قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ)[فصلت: 11] فصعدنَا إليهِ(9).

وقالَ الطَّبرِي: وأولَى المعانِي بقولِ اللهِ جلَّ ثناؤهُ: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ)[البقرة: 29] علَا عليهنَّ، وارتفعَ فدبرهنَّ بقدرتهِ وخلقهنَّ سبعَ سمواتٍ.

والعجبُ ممَّنْ أنكرَ المعنَى المفهومَ منْ كلامِ العربِ فِي تأويلِ قولِ اللهِ: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) الذِي هوَ بمعنَى العلُوِّ والارتفاعِ؛ هربًا عندَ نفسهِ منْ أنْ يلزمهُ بزعمهِ إذَا تأوَّلَهُ

بمعناهُ المفهمِ؛ كذلكَ أنْ يكونُ إنَّمَا علَا وارتفعَ بعدَ أنْ كانَ تحتهَا، إلَى أنْ تأوَّلهُ بالمجهولِ منْ تأويلهِ المستنكرِ، ثمَّ لمْ يَنْجُ ممَّا هربَ منهُ.

فيُقالُ لهُ: زعمتَ أنَّ تأويلَ قولهِ: (اسْتَوَى) أقبلَ، أفكانَ مُدبِرًا عنِ السَّماءِ فأقبلَ إليهَا؟! فإنْ زعمَ أنَّ ذلكَ ليسَ بإقبالِ فعلٍ، ولكنَّهُ إقبالُ تدبيرٍ، قيلَ لهُ: فكذلكَ فقلْ: علَا عليهَا عُلُوَّ ملكٍ وسلطانٍ، لَا عُلُوَّ انتقالٍ وزوالٍ[10].

القولُ الثَّانِي: أنَّ المعنَى المناسبَ لـ (استوَى إلَى) هوَ قَصَدَ وأقْبَلَ وعمَدَ.

واختارَ هذَا القولَ سفيانُ بنُ عيينةَ[11]، وقولٌ للحسنِ البصرِي [12]، وثعلبَ اللُّغوِي، وابنِ كيسانَ[13]، والفرَّاءِ[14]، وابنِ قتيبةَ، وابنِ أبِي زمنينَ[15]، والبغوِي[16]، وأبِي القاسمِ الأصبهانِي[17]، والسمعانِي[18]، وابنِ جزِي[19]، وابنِ كثيرٍ، والسَّعدِي[20]، وابنِ عثيمينَ[21]، وغيرهمْ[22].

قالَ ثعلبَ اللُّغوي: (استوَى): أقبلَ عليهِ وإنْ لمْ يكنْ معوجًّا، (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء) أقبلَ، و(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ)[فصلت: 11]، (اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)[الفرقان: 59]: علَا، واستوَى وجههُ: اتَّصلَ، واستوَى القمرُ: امتلأَ، واستوَى زيدٌ وعمرٌو: تشابهَا، واستوَى فعلاهمَا وإنْ لمْ تتشابهْ شخوصُهمَا، هذَا الذِي يُعرَفُ منْ كلامِ العربِ[23].

وقالَ ابنُ قتيبةَ: وأمَّا قولهُ: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) فإنَّهُ أرادَ عَمَدَ لهَا وقَصَدَ، فكلُّ منْ كانَ فِي شيءٍ ثمَّ تركهُ لفراغٍ أوْ غيرِ فراغٍ، وعَمَدَ لغيرهِ فقدْ استوَى إليهِ[24]، وقالَ ابنُ كثيرٍ: أيْ: قَصَدَ إلَى السَّماءِ، والاستواءُ هَا هنَا تَضَمَّنَّ معنَى القَصْدِ والإقبالِ؛ لأنَّهُ عُدِّيَ بإلَى[25].

وخرجنَا منْ هذَا البابِ أنَّ لفظَ "استوَى" إن عدِّيَ بـ "علَى" فهوَ العلوُّ والارتفاعُ فقطْ، وإنْ عدِّيَ بـ "إلَى" فهوَ العلوُّ والارتفاعُ أيضًا معَ القصدِ والإقبالِ.

ولعلَّ أصحابَ القولِ الأوَّلِ المانعينَ لمعنَى القصدِ إنْ عدِّي الاستواءُ بـ "إلى" لَا يخالفونَ فِي ذلكَ؛ وإنَّمَا يمنعونَ تفسيرَ لفظَ (استوَى)، وهوَ مجرَّدٌ عنِ الإضافةِ بمعنَى القَصْدِ والعَمْدِ والإقبالِ، وهذَا حقٌّ لأنَّ لفظ "استوى" المقيَّدُ بـ "إلى" في اللُّغةِ هوَ القصدُ والإقبالُ ولكنَّهُ فِي القرآنِ غيرُ مرادٍ ولعلَّهُ مرادٌ واللهُ أعلمُ، أوْ يمنعونَ منْ تفسيرهِ بذلكَ عندَ إضافتهِ لحرفِ الجرِّ (على) لأنَّ هذَا لَا يفيدُ إلَّا الارتفاعَ فقطْ، أوْ يمنعونَ منْ تفسيرهِ بذلكَ عندَ إضافتهِ لحرفِ الجرِّ (إلى) معَ نفيِ المعنَى الأصليِّ للاستواءِ وهوَ العلوُّ والارتفاعُ وهوَ المعنَى المرادُ.

وإنِّي لَا أرَى حرجًا فِي اختيارِ أئمَّتنَا مثلَ السَّعدِي وابنِ عثيمينَ لمعنَى القصدِ، إنْ كانَ المرادُ ليسَ نفيَ الارتفاعِ (ثمَّ استوَى إلَى السَّماءِ) أقبلَ عليهَا وقصدهَا وعلَا وارتفعَ.

كمَا أنَّ تفسيرَ الاستواءِ بمعنَى الارتفاعِ معَ زيادةِ معنَى "القَصْدِ" خاصٌّ بإضافتهِ إلَى حرفِ الجرِّ (إلى) دونَ إضافتهِ لحرفِ الجرِّ (على)(26)، وإلَّا سيكونُ المعنَى الارتفاعُ فقطْ.

وممَّا يتعلَّقُ بهذهِ المسألةِ أنَّهُ لوْ قيلَ: إذَا كانَ اللهُ لَا يزالُ عاليًا علَى المخلوقاتِ، فكيفَ يُقالُ: ثمَّ ارتفعَ إلَى السَّماءِ وهيَ دخانٌ؟

قيلَ: هذَا كمَا أخبرَ أنَّهُ ينزلُ إلَى السَّماءِ الدُّنيَا، ثمَّ يصعدُ ، ورُويَ ثمَّ يعرجُ وهوَ سبحانهُ لمْ يزلْ فوقَ العرشِ، فإنَّ

صعودهُ منْ جنسِ نزولهِ، وإذَا كانَ فِي نزولهِ لمْ يصرْ شيءٌ منَ المخلوقاتِ فوقهُ، فهوَ سبحانهُ يصعدُ، وإنْ لمْ يكنْ منهَا شيءً فوقهُ[27]، والمرادُ أنَّهُ يرتفعُ ارتفاعًا يليقُ بهِ سبحانهُ لَا يشبهُ ارتفاعَ المخلوقينَ، ولَا نعلمُ كيفيَّتهُ، وهوَ مثلَ استوائهِ علَى العرشِ بعدَ أنْ لمْ يكنْ مستويًا عليهِ؛ فسبحانَ اللهِ وتعالَى علوًّا كبيرًا[28].

---

(1) مختصر الصواعق، للموصلي.
(2) مقالة: د. زياد بن حمد العامر – "سلسلة آيات العقيدة المتوهم إشكالها (8)" شبكة الألوكة - بتصرُّف.
(3) يُنظَر: شرح القواعد المثلى لابن عثيمين ص 253.
(4) يُنظَر: تفسير ابن أبي حاتم 1/ 75، وصحيح البخاري تعليقًا (كتاب: التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء) 9/ 124، العرش للذهبي، رقم (9) 2/ 15.
(5) يُنظَر: تفسير الطبري 1/ 456، والعرش للذهبي، رقم (10) 2/ 15.
(6) يُنظَر: تفسير ابن أبي حاتم 1/ 75.
(7) يُنظَر: تفسير البغوي 1/ 78، ونسبه إليه ابنُ القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية 1/ 168، وأحال على ابن عبدالبر في "التمهيد" 7/ 132.
(8) مختصر الصواعق، للموصلي 3/ 888.
(9) ذكر هذه القصة ابن عبدالبر في التمهيد 7/ 132، والقرطبي في التفسير 15/ 470، والذهبي في العلوّ، رقم (398) 2/ 1042، وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية 1/ 79، وكذا في حاشيته على سنن أبي داود 13/ 28.
(10) تفسير الطبري 1/ 457، ويُنظَر: 20/ 391.
(11) يُنظَر: تفسير القرطبي 1/ 382.
(12) يُنظَر: تفسير ابن أبي زمنين 1/ 131.
(13) يُنظَر: تفسير البغوي 1/ 78، وتفسير القرطبي 1/ 382.
(14) يُنظَر: تفسير البغوي 1/ 78، واجتماع الجيوش الإسلامية 1/ 167.
(15) يُنظَر: تفسير ابن أبي زمنين 1/ 131، 4/ 147.
(16) يُنظَر: تفسير البغوي 7/ 165.
(17) يُنظَر: الحجة في بيان المحجة 2/ 258.
(18) يُنظَر: تفسير السمعاني 5/ 39.
(19) يُنظَر: التسهيل لابن جزي 1/ 61، 2/ 289.
(20) يُنظَر: تفسير السعدي، ص 48، 745.
(21) يُنظَر: شرح القواعد المثلى لابن عثيمين، ص 257.
(22) يُنظَر: الدر المصون للسمين الحلبي 1/ 242.
(23) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، رقم (668) 3/ 443، والعلو للذهبي، رقم (490) 2/ 1227، واجتماع الجيوش الإسلامية 1/ 167.
(24) الاختلاف في اللفظ، والرد على الجهمية والمشبهة ص 37، ويُنظَر: تفسير غريب القرآن ص 45، 388.
(25) تفسير ابن كثير 1/ 213.
(26) يُنظَر: التسهيل لابن جزي 1/ 303، والحجة في بيان المحجة 2/ 258، والكليات للكفوي ص 109، والمواقف للإيجي 3/ 144، ومختصر الصواعق المرسلة للموصلي 3/ 941.
(27) مجموع الفتاوى 5/ 521.
(28) مقالة: د. زياد بن حمد العامر – "سلسلة آيات العقيدة المتوهم إشكالها (8)" شبكة الألوكة - بتصرُّف.

ثمَّ قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: "التَّوبةُ": وردَ فِي آياتٍ كثيرةٍ الأمرُ بهَا، ومدحَ التَّائبينَ وثوابهمْ، وهيَ: الرُّجوعُ عمَّا يكرههُ اللهُ ظاهرًا وباطنًا، إلَى مَا يحبُّهُ اللهُ ظاهرًا وباطنًا.

~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى التَّوبةَ فِي مواضعَ كثيرةٍ منَ القرآنِ، بينَ الأمرِ بهَا، ومدحٍ لأهلهَا وتبشيرهمْ بجزيلِ ثوابهمْ.

قالَ تعالَى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا" [التحريم: 8].

وقالَ سبحانهُ: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" [البقرة: 160].

وقالَ جلَّ وعلَا: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" [البقرة: 222].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ" [النساء: 146].

وقالَ جل جلالهُ: "كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" [الأنعام: 54].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: "التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" [التوبة: 112].

وقالَ اللهُ تعالَى: "وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ" [هود: 52].
~~~~~~~~~~

التَّوبةُ لغةً:

توب: التّاءُ والواوُ والباءُ كلمةٌ واحدةٌ تدلّ علَى الرّجوعِ.

يقالُ: تابَ منْ ذنبِهِ، أيْ رجعَ عنهُ، يتوبُ إلَى اللّهِ توبةً ومتابًا، فهوَ تائبٌ، والتّوبُ: التّوبةُ...[1].

وتابَ إلَى اللهِ توبًا وتوبةً ومتابًا وتابةً وتتوبةً: رجعَ عنْ المعصيةِ، وهوَ تائبٌ وتوّابٌ، وتابَ اللهُ عليهِ: وفّقهُ للتّوبةِ، أوْ رجعَ بهِ منَ التّشديدِ إلَى التّخفيفِ، أوْ رجعَ عليهِ بفضلهِ وقبولهِ، وهوَ توّابٌ علَى عبادهِ[2].

والتَّائبُ يقالُ لباذلِ التَّوبةِ ولقابلِ التَّوبةِ؛ فالعبدُ تائبٌ إلَى اللهِ، واللهُ تائبٌ علَى عبدهِ.

والتّوّابُ: العبدُ الكثيرُ التَّوبةِ، وذلكَ بتركهِ كلّ وقتٍ بعضَ الذُّنوبِ علَى التَّرتيبِ حتَّى يصيرَ تاركًا لجميعهِ، وقدْ يُقالُ ذلكَ للهِ تعالَى؛ لكثرةِ قبولهِ توبةَ العبادِ حالًا بعدَ حالٍ[3].

التَّوبةُ اصطلاحًا:

التَّوبةُ فِي الشَّرعِ: الرُّجوعُ عنِ الأفعالِ المذمومةِ إلَى الممدوحةِ.

والتَّوبةُ النَّصوحُ: ألَّا يبقيَ علَى عملهِ أثرًا منَ المعصيةِ، سرًّا وجهرًا[4].

قالَ الطبرِي رحمهُ اللهُ تعالَى: التَّوبةُ منَ العبدِ إلَى ربِّهِ: إنابتهُ إلَى طاعتهِ، وأوبتهُ إلَى مَا يرضيهِ بتركهِ مَا يسخطهُ منَ الأمورِ التِي كانَ عليهَا مقيمًا ممَّا يكرههُ ربُّهُ، فكذلكَ توبةُ اللهِ علَى عبدهِ هوَ أنْ يرزقهُ ذلكَ، ويتوبَ منْ غضبهِ عليهِ إلَى الرِّضَا عنهُ، ومنَ العقوبةِ إلَى العفوِ والصَّفحِ عنهُ[5].

وهذَا التَّعريفُ فِي الاصطلاحِ لَا يخرجُ عنْ معناهُ فِي اللُّغةِ.

التَّوبةُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ مادَّةُ (توب) فِي القرآنِ (87) مرَّةً[6].

وجاءتِ التَّوبةُ فِي القرآنِ علَى وجهينِ[7]:

أحدهَا: النَّدمُ علَى فعلِ الشَّيءِ والرُّجوعِ عنهُ، ومنهُ قولهُ تعالَى: "فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ" [الأعراف: 143]**، يعنِي: ندمتُ ورجعتُ إليكَ.**

والثَّانِي: التَّجاوزُ، ومنهُ قولهُ تعالَى: "وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ " [النساء: 27]**، يعنِي: يتجاوزُ عنكمْ.**

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالتَّوبةِ:

الإنابةُ:

الإنابةُ لغةً: تدورُ مادّةُ (ن وب) حولَ الرّجوعِ، يقولُ ابنُ فارسٍ: "النّونُ والواوُ والباءُ، كلمةٌ واحدةٌ تدلّ علَى اعتيادِ مكانٍ ورجوعٍ إليهِ"[8]، وقالَ ابنُ الأثيرِ: "يقالُ أنابَ ينيبُ إنابةً، فهوَ منيبٌ، إذَا أقبلَ ورجعَ"[9].

الإنابةُ اصطلاحًا: الإنابةُ: إخراجُ القلبِ منْ ظلماتِ الشّبهاتِ. وقيلَ: الإنابةُ: الرّجوعُ منْ الكلّ إلَى منْ لهُ الكلّ، وقيلَ: الإنابةُ: الرّجوعُ منَ الغفلةِ إلَى الذّكرِ، ومنَ الوحشةِ إلَى الأنسِ، وقالَ الكفويّ: "الإنابةُ: الرّجوعُ عنْ كلّ شيءٍ إلَى اللّهَ تعالَى".

وقالَ ابنُ القيّمُ: "الإنابةُ: الإسراعُ إلَى مرضاةِ اللّهِ معَ الرّجوعِ إليهِ فِي كلّ وقتٍ، وإخلاصُ العملِ لهُ"[10].

وهذَا أصحُّ التَّعريفاتِ.

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: "إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ" [هود: 75]**.**

قالَ الطبريُّ: (منيب)، رَجَّاعٌ إِلَى طاعتهِ(11).

الإيابُ والأوَّابُ:

الإيابُ لغةً منْ: آبَ أَوْباً، وأوْبَةً، وإياباً، ومآباً فهو آئب، وآيبَ، وأَوَّابٌ، وآبَ يؤوبُ: إيابًا وأَيُّوبًا، آبَ إليهِ: رَجَعَ وعادَ، وآبَ إِلَى اللهِ: رَجَعَ عنْ ذنبهِ وتابَ، والأوَّابُ: المسبِّحُ بلسانِ الحبشةِ.

وفِي قولهمْ "رجلٌ أوّابٌ" سبعةُ أقوالٍ: الرَّاحمُ، والمسبِّحُ، والتَّائبُ الذِي يذنبُ ثمَّ يتوبُ ثمَّ يذنبُ ثمَّ يتوبُ، والمطيعُ الذِي يذكرُ ذنبهُ فِي الخلاءِ فيستغفرُ اللهَ منهُ، والرُّجوعُ الذِي يرجعُ إِلَى التَّوبةِ، والطَّاعةِ، والتّوابُ.

وقيلَ هوَ كثيرُ الرُّجوعِ إِلَى ربِّهِ ويمتثلُ أوامرهُ ويجتنبُ نواهيهِ.

والأوبُ: ضربٌ منَ الرُّجوعِ، وذلكَ أنَّ الأوبَ لَا يقالُ إِلَّا فِي الحيوانِ الذِي لهُ إرادةٌ، والرُّجوعُ يقالُ فيهِ وفِي غيرهِ، يقالُ:آبَ أوبًا وإيابًا ومآبًا(12).

الأوَّابُ اصطلاحًا:

قالَ تعالَى: "اِصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاودَ ذَا الأَيْدِ" [ص: 17]**، أيِ القوَّةُ فِي العبادةِ كانَ يصومُ يومًا ويفطرُ يومًا ويقومُ نصفَ اللَّيلِ وينامُ ثلثهُ ويقومُ سدسهُ "إِنَّهُ أَوَّابٌ" رجّاعٌ إِلَى مرضاةِ اللهِ(13).**

(إِنَّهُ "أَوَّابٌ") كثيرُ الرُّجوعِ إِلَى مَا يرضِي اللهَ(14).

الاعتذارُ:

الاعتذارُ لغةً:

اِعتذرَ فلانٌ: صارَ ذَا عذرٍ، وإليهِ: طلبَ قبولَ معذرتهِ، ويقالُ: اعتذَرَ منْ ذنبهِ واعتذرَ عنْ فعلهِ: تنصَّلَ واحتجَّ لنفسهِ(15).

الاعتذارُ اصطلاحًا:

تحرِّي الإنسانَ مَا يمحُو بهِ أثرَ ذنبهِ، وذلكَ ثلاثةٌ: الأوَّلُ: أنْ يقولَ: لمْ أفعلْ أوْ فعلتُ لأجلِ كذَا، فيذكرُ مَا يخرجهُ عنْ كونهِ ذنبًا، الثَّاني: أنْ يقولَ: فعلتُ ولَا أعودُ ونحوَ ذلكَ، والثَّالثُ: هوَ التَّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عذرٌ ولَا عكسٌ(16).

الصِّلةُ بينَ التّوبةِ والاعتذارِ:

التَّوبةُ منَ الذَّنبِ الذِي لَا عذرَ فِي اقترافهِ، والمعتذرُ يذكرُ أنَّ لهُ فِي مَا أتاهُ منَ المكروهِ عذرًا، ولوْ كانَ الاعتذارُ هوَ التّوبةُ لجازَ أنْ يقالَ: اعتذرْ إلَى اللهِ، كمَا يقالُ: تابَ إليهِ، وأصلُ العذرِ: إزالةُ الشّيءِ عنْ جهتهِ، أيْ: أزالَ مَا كانَ فِي نفسهِ عليهِ فِي الحقيقةِ أوْ فِي الظّاهرِ(17).

وأمَّا قولُ اللهِ تعالَى فِي كتابهِ: " وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" [الأعراف: 164].

قالَ السَّعدِي فِي قولهِ تعالَى"قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ": فقالَ الواعظونَ: نعظهمْ وننهاهمْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ أيْ: لنُعذرَ فيهمْ ... إلَى أنْ قالَ: وهذَا المقصودُ الأعظمُ منْ إنكارِ المنكرِ ليكونَ معذرةً، وإقامةِ حجَّةٍ علَى المأمورِ المنهيِّ(18).

فهذَا هوَ معنَى المعذرةِ إلَى اللهِ تعالَى وهوَ علَى مَا قالَ السَّعدِي إقامةُ الحجَّةِ عليهمْ فلمْ يعدْ لهمْ عذرٌ، معَ أداءِ الواجبِ تجاهَ اللهِ تعالَى وهوَ وعظهمْ لعلَّهمْ يرجعونَ.

النَّدمُ:

النّدمُ لغةً: (ندم) علَى الأمرِ ندمًا وندامةً: أسفَ وكرههُ بعدمَا فعلهُ فهوَ نادمٌ[19].

النّدمُ اصطلاحًا:

التّحسّرُ منْ تغيّرِ رأيٍ فِي أمرٍ فائتٍ[20].

الصِّلةُ بينَ النّدمِ والتّوبةِ:

التّوبةُ منَ النّدمِ؛ وذلكَ أنّكَ قدْ تندمُ علَى الشّيءِ ولَا تعتقدُ قبحهُ، ولَا تكونُ التّوبةُ منْ غيرِ قبحٍ، فكلُّ توبةٍ ندمٌ، وليسَ كلُّ ندمٍ توبةٌ[21]، فالنَّدمُ عامٌّ فِي فعلِ شيءٍ قبيحٍ أو غيرِ قبيحٍ، كمنْ رأَى دابَّتينِ فاشترَى إحداهَا ثمَّ ندمَ وقالَ ليْتنِي اشتريتُ الأخرَى، فهذَا شيءٌ غيرُ قبيحٍ ولَا يحتاجُ إلَى توبةٍ، والتَّوبةُ خاصَّةٌ بفعلِ شيءٍ قبيحٍ، كمنْ فعلَ ذنبًا فيندمُ عليهِ ويتوبُ، ولا يوجدُ شرطٌ فِي تلازمِ التَّوبةِ معَ النَّدمِ، بلِ الأصحُّ أنَّ النَّدمَ سابقٌ للتَّوبةِ، وإنْ توافقَا فِي الوقتِ كانَ خيرًا، ومنْ ناحيةٍ أخرَى يُشترطُ النَّدمُ فِي التَّوبةِ، حيثُ لَا توبةَ بَلا ندمٍ، ولَا تُشترطُ التَّوبةُ فِي النَّدمِ.

الاستغفارُ:

الاستغفارُ لغةً: (استغفر): أيْ طلبَ المغفرةَ، واستغفرَ اللهَ ذنبهُ: طلبَ منهُ غفرهُ[22]، وفِي اللُّغةِ العربيَّةِ إذَا دخلتِ السِّينُ والتَّاءُ علَى الفعلِ أفادتْ معنَى الطَّلبِ.

وبهذَا، فإنّ معنَى الاستغفارِ فِي اللُّغةِ: طلبُ السّترِ، وطلبُ تركِ المؤاخذةِ علَى الذّنبِ.

الاستغفارُ اصطلاحًا:

طلبُ سترِ الذَّنبِ بالعفوِ عنهُ، وعدمِ العقوبةِ عليهِ[23].

الصِّلةُ بينَ التَّوبةِ والاستغفارِ:

قالَ ابنُ القيِّمِ: الاستغفارُ يتضمَّنُ التَّوبةُ، والتَّوبةُ تتضمَّنُ الاستغفارَ، وكلٌّ منهمَا يدخلُ فِي مسمَّى الآخرِ عندَ الإطلاقِ، وأمَّا عندَ اقترانِ إحدَى اللَّفظتينِ بالأخرَى، فالاستغفارُ: طلبُ وقايةِ شرٍّ مَا مضَى، والتَّوبةُ: الرُّجوعُ وطلبُ وقايةِ شرٍّ مَا يخافهُ فِي المستقبلِ منْ سيِّئاتِ أعمالِهِ[24].

العفوُ لغةً:

العفوُ يُطلقُ علَى معنيينِ أصليَّينِ: أحدهمَا: تركُ الشَّيءِ، والآخرُ: طلبهُ.

فمنَ المعنَى الأوَّلِ: عفوُ اللهِ تعالَى عنْ خلقهِ، وذلكَ تركهُ إيَّاهمْ فلَا يعاقبهمْ فضلًا منهُ.

ومنَ المعنَى الثَّانِي: قولُ: اعتفيتُ فلانًا، إذَا طلبتُ معروفهُ وفضلهُ، فهوَ القصدُ لتناولِ الشَّيءِ[25].

والعفوُ أيضًا: خيارُ الشَّيءِ وأجودهُ، والعفوُ منَ الماءِ: مَا فضلَ عنِ الشَّاربةِ وأُخذَ بلَا كلفةٍ ولَا مزاحمةٍ، العفوُ منَ البلادِ: مَا لَا أثرَ لأحدٍ فيهَا بملكٍ[26].

فهذانِ همَا المعنيانِ الأصليَّانِ للعفوِ، وعليهمَا يدورُ جميعُ معانِي العفوِ، فيفسَّرُ فِي كلِّ مقامٍ بمَا يناسبهُ.

العفوُ اصطلاحًا:

العفوُ اصطلاحًا: التَّجاوزُ عنِ الذَّنبِ وتركُ العقابِ[27].

وقالَ الرَّاغبُ: العفوُ هوَ التَّجافِي عنِ الذَّنبِ[28].

والعفوُ: كفُّ الضَّررِ معَ القدرةِ عليهِ، وكلُّ منِ استحقَّ عقوبةً فتركهَا، فقدْ عفَا[29].

فالمعنَى الاصطلاحِي متفِّقٌ معَ المعنَى الأوَّلِ منَ المعنيينِ اللُّغويينِ للعفوِ، وهوَ: تركُ الشَّيءِ، أي: عفوُ اللهِ تعالَى عنْ خلقهِ، وذلكَ ترْكُهُ إيَّاهمْ فلَا يعاقبهمْ فضلًا منهُ.

الصِّلةُ بينَ التَّوبةِ والعفوِ:

العفوُ هوَ الحلقةُ الثَّالثةُ منْ سلسلةِ الخيرِ، وهيَ نتاجُ الحلقتينِ الأولتينِ، فالمذنبُ يتوبُ أوَّلًا، ثمَّ يستغفرُ، ثمَّ ينالُ العفوَ.

(1) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٥٧.
(2) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٦٢.
(3) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٦٩.
(4) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٧٠.
(5) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥٨٧.
(6) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٥٦ـ ١٥٨، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٣٦٩-٣٧١.
(7) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٢٣٢.
(8) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٥٩٠/٢.
(9) مقاييس اللغة.
(10) النهاية لابن الأثير.
(11) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم.
(12) تفسير الطبري.
(13) معجم المعاني.
(14) تفسير الجلالين.
(15) تفسير الميسر.
(16) انظر: التوقيف، المناوي ص ٧٤.
(17) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٣٥.
(18) تفسير السعدي.
(19) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٩١١/٢.
(20) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٩٦.
(21) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٣٥.
(22) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣٢٧٤/٥.
(23) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨٥/٣، روح المعاني، الألوسي ٢٠٧/١١.
(24) مدارج السالكين ٣٠٨/١.
(25) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥٦/٤، جمهرة اللغة، ابن دريد ٩٣٨/٢.
(26) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٧٢/١٥، الصحاح، الجوهري ٢٤٣١/٦، تاج العروس، الزبيدي ٦٩/٣٩.
(27) انظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري ١٤٣/٦.
(28) المفردات، الراغب ص ٥٧٤.
(29) انظر: الكليات، الكفوي ص ٥٣، ٥٩٨.

شروطُ التَّوبةِ:

شروطُ التَّوبةِ كمَا ذكرهَا العلماءُ هيَ:

1) أن يُقلعَ عنِ الذَّنبِ.

2) أنْ يندمَ علَى مَا قدْ مضَى.

3) أنْ يعزمَ فِي المستقبلِ علَى ألَّا يعودَ إليهِ.

4) وإذَا كانَ الأمرُ يتعلَّقُ بحقوقِ الآدميينَ، سواءً بأموالهمْ، أوْ أعراضهمْ، أوْ أبدانهمْ، فعليهِ أنْ يطلبَ العفوَ ممَّنْ لهُ عليهِ حقٌّ، أو يؤدِّي الحقوقَ إلىَ أهلهَا.

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: والظُّلمُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ لهُ دواوينُ ثلاثةٌ: ديوانٌ لَا يغفرُ اللهُ منهُ شيئًا، وهوَ الشِّركُ بهِ، فإنَّ اللهَ لَا يغفرُ أنْ يُشْرَكَ بهِ، وديوانٌ لَا يتركُ اللهُ تعالَى منهُ شيئًا، وهوَ ظلمُ العبادِ بعضهمْ بعضًا، فإنَّ اللهَ تعالَى يستوفيهِ كلَّهُ، وديوانٌ لَا يعبأُ اللهُ بهِ شيئًا، وهوَ ظلمُ العبدِ نفسهُ بينهُ وبينَ ربِّهِ عزَّ وجلَّ، فإنَّ هذَا الدِّيوانَ أخفُّ الدَّواوينِ وأسرعهَا محوًا، فإنَّهُ يُمحَى بالتَّوبةِ والاستغفارِ، والحسناتِ الماحيةِ، والمصائبِ المكفِّرةِ، ونحوِ ذلكَ، بخلافِ ديوانِ الشِّركِ؛ فإنَّهُ لَا يُمحَى إلَّا بالتَّوحيدِ، وديوانُ المظالمِ لَا يُمحَى إلَّا بالخروجِ منهَا إلَى أربابهَا واستحلالهمْ منهَا[1].

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "منْ كانتْ عندهُ مظلمةٌ لأخيهِ منْ عرضهِ، أوْ منْ شيءٍ، فليتحلَّلهُ منهُ اليومَ، قبلَ أنْ لَا يكونَ دينارٌ ولَا درهمٌ، إنْ كانَ لهُ عملٌ صالحٌ أُخذَ منهُ بقدرِ مظلمتهِ، وإنْ لمْ يكنْ لهُ حسناتٌ، أُخذَ منْ سيِّئاتِ صاحبهِ فحملَ عليهِ"[2].

وعنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "لتؤدنَّ الحقوقَ إلَى أهلهَا يومَ القيامةِ، حتَّى يُقادُ للشَّاةِ الجلحاءِ منَ الشَّاةِ القرناءِ"(3).

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ أنيسٍ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: "يحشرُ العبادُ يومَ القيامةِ حفاةً عراةً غرلًا بهمًا(4)، فيناديهمْ منادٍ بصوتٍ يسمعهُ مَنْ بعُدَ كمَا يسمعهُ مَنْ قرُبَ: أنَا الملكُ، أنَا الديَّانُ، لَا ينبغِي لأحدٍ منْ أهلِ الجنَّةِ أنْ يدخلَ الجنَّةَ وأحدٍ منْ أهلِ النَّارِ يطلبهُ بمظلمةٍ، حتَّى اللَّطمةُ فمَا فوقهَا، ولَا ينبغِي لأحدٍ منْ أهلِ النَّارِ أنْ يدخلَ النَّارَ وعندهُ مظلمةٌ، حتَّى اللَّطمةُ فمَا فوقهَا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا[الكهف: 49]، قلنَا: يَا رسولَ اللهِ، كيفَ وإنَّمَا نأتِي حفاةً عراةً غرلًا (5) بهمًا؟ قالَ: بالحسناتِ والسيِّئاتِ جزاءً وفاقًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا"(6).

وقالَ أبُو الزِّنادِ: كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يردُّ المظالمَ إلَى أهلهَا بغيرِ البيِّنةِ القاطعةِ، كانَ يكتفِي باليسيرِ، إذَا عرفَ وجهَ مَظْلِمةِ الرَّجُلِ ردَّهَا عليهِ، ولمْ يكلِّفْهُ تحقيقَ البيِّنةِ، لمَا يعرفُ منْ غشمِ الوُلَّاةِ قبلهُ علَى النَّاسِ، ولقدْ أنفدَ بيتَ مالَ العراقِ فِي ردِّ المظالمِ حتَّى حُمِلَ إليهَا منَ الشَّامِ(7).

هذَا فِي شروط التَّوبةِ، وأمَّا فِي مَا يخصُّ قبولَ اللهِ تعالَى لتوبةِ عبدهِ، فعدُّوا لهَا شروطًا ملازمةً لمَا سبقَ، نذكرُ منهَا:

شروطُ قبولِ التَّوبةِ:

قالَ تعالَى: "إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا"[النساء: 17].

ذكرتِ الآيةُ لقبولِ التَّوبةِ قيدينِ: (بِجَهَالَةٍ) و(مِنْ قَرِيبٍ).

والجهالةُ تُطلقُ علَى سوءِ المعاملةِ، وعلَى الإقدامِ علَى العملِ دونَ رويَّةٍ، وهيَ مَا قابَلَ الحلمَ؛ ولذلكَ تُطلقُ الجهالةُ علَى الظلمِ، قالَ عمرُو بنُ كلثومٍ:

أَلَا لَا يجهلنَّ أحدٌ علينَا * فنجهلُ فوقُ جهلِ الجاهلينَا[8].

وقالَ تعالَى حكايةً عنْ يوسفَ: "وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ"[يوسف: 33].

والمرادُ هنَا ظلمُ النَّفسِ[9]، وعلَى ذلكَ فالجهالةُ: سفاهةٌ وقلَّةُ تحصيلٍ أدَّى إلَى المعصيةِ[10].

وقولهُ: (مِنْ قَرِيبٍ) إلَى وقتِ الذَّنبِ، ومدَّةِ الحياةِ كلِّهَا.

وجمهورُ المفسِّرينَ علَى أنَّ التَّوبةَ تُبلُ قبلَ المعاينةِ، قالَ عكرمةُ: قبلَ الموتِ، وقالَ الضحَّاكُ: قبلَ معاينةِ ملكِ الموتِ، وقالَ السدِّي والكلبِي: أنْ يتوبَ فِي صحَّتهِ قبلَ مرضِ موتهِ[11]، وهذَا مرجوحٌ.

فقدْ روَى التِّرمذِي بسندهِ عنِ ابنِ عمرَ، عنْ النّبيّ ﷺ قالَ: "إنّ اللّهَ يقبلُ توبةَ العبدِ مَا لمْ يغرغرْ[12].

وإنَّماَ صحَّتِ التَّوبةُ منَ العبدِ فِي هذَا الوقتِ؛ لأنَّ الرَّجاءَ فيهِ باقٍ، ويصحُّ منهُ النَّدمُ، والعزمُ علَى تركِ الفعلِ[13].

ولَا خُلْفَ فِي وعدهِ سبحانهِ وتعالَى علَى قبولِ توبةِ العبدِ (إذَا كانتْ بشروطِ قبولهَا، وهيَ أربعةٌ: النَّدمُ بالقلبِ، وتركُ المعصيةِ فِي الحالِ، والعزمِ علَى ألَّا يعودَ إلَى مثلهَا، وأنْ يكونَ ذلكَ حياءً وخوفًا منَ اللهِ تعالَى لَا منْ غيرهِ) وقدْ قيلَ منْ شروطهَا: الاعترافُ بالذَّنبِ وكثرةُ الاستغفارِ[14].

وإنْ أتَى المذنبُ بشروطِ التَّوبةِ وشروطِ قبولهَا، ثمَّ عادَ إلَى الذَّنبِ، وجبَ عليهِ العودُ إلَى التَّوبةِ، وإنْ تابَ أوَّلًا حياءً منَ المسلمينَ لَا منَ اللهِ تعالَى فليستمرَّ فِي ذلكَ حتَّى يأذنَ اللهُ فِي توبتهِ، ثمَّ إذَا صفتْ سريرتهُ وتابَ اللهُ عليهِ، قُبلتْ توبتهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالَى، وفِي وصفٍ قريبٍ منْ ذلكَ قالُوا: طلبنَا العلمَ لغيرِ اللهِ فأبَى أنْ يكونَ إلَّا للهِ[15] ومنْ أرادَ التَّوبةَ ولمْ يستطعِ الاقلاعَ عنِ الذَّنبِ يستمرُّ في طلبِ التَّوبةِ ولَا ييأسْ حتَّى يأذنَ اللهُ فِي توبتهِ.

عدمُ قبولِ التَّوبةِ:

أخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّهُ لَا يكونُ قبولُ التَّوبةِ منَ الذينَ يصرّونَ علَى ارتكابِ المعاصِي، ولَا يرجعونَ إلَى ربِّهمْ إلَى أنْ تأتيهمْ سكراتُ الموتِ، ولَا تُقبلُ توبةُ الذينَ يموتونَ وهمْ كافرونَ.

قالَ تعالَى: "وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" [النساء: 18].

يعنِي بذلكَ جلَّ ثناؤهُ: (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) منْ أهلِ الإصرارِ علَى معاصِي اللهِ، (حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) يقولُ: إذَا حشرجَ أحدهمْ بنفسهِ، وعاينَ ملائكةَ ربِّهِ قدْ أقبلُوا إليهِ لقبضِ روحهِ قالَ: وقدْ غلبَ علَى نفسهِ، وحيلَ بينهُ وبينَ فهمهِ بشغلهِ بكربِ حشرجتهِ وغرغرتهِ: (قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)، يقولُ: فليسَ لهذَا عندَ اللهِ تباركَ وتعالَى توبةٌ؛ لأنَّهُ قالَ مَا قالَ فِي غيرِ حالِ توبةٍ[16].

وسنُّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ أنَّ العبدَ إذَا عاينَ الانتقالَ الَى اللهِ تعالَى لمْ ينفعهُ توبةٌ ولَا إقلاعٌ[17]؛ وذلكَ أنَّ التَّوبةَ فِي هذهِ الحالةِ

توبةُ المضطرِّ، لجّتْ بهِ الغوايةُ، وأحاطتْ بهِ الخطيئةُ، توبةُ الذِي يتوبُ لأنَّهُ لمْ يعدْ لديهِ متَّسعٌ لارتكابِ الذُّنوبِ، ولَا فسحةٌ لمقارفةِ الخطيئةِ، وهذهِ لَا يقبلهَا اللهُ؛ لأنَّهَا لَا تنشيءُ صلاحًا فِي القلبِ ولَا صلاحًا فِي الحياةِ، ولَا تدلُّ علَى تبدُّلٍ فِي الطَّبعِ ولَا تغيُّرٍ فِي الاتِّجاهِ.

(وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ)، وهؤلاءِ قدْ قطعُوا كلَّ مَا بينهمْ وبينَ التَّوبةِ منْ وشيجةٍ، وضيّعُوا كلَّ مَا بينهمْ وبينَ المغفرةِ منْ فرصةٍ[18].

وأخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّهُ لَا يقبلُ التَّوبةَ عندمَا يأتِي بعضُ أشراطِ السَّاعةِ وعلاماتهَا الدَّالةِ علَى مجيئهَا، وهيَ طلوعُ الشَّمسِ منْ مغربهَا، قالَ تعالَى: "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ"[الأنعام: 158].

والحكمةُ فِي هذَا ظاهرةٌ، فإنَّهُ إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانًا بالغيب، وكان اختيارًا من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة؛ لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت أقلع عما هو فيه، كما قال تعالى: "فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85)"[غافر: 84، 85][19].

قالَ جمهورُ أهلِ التَّأويلِ: الآيةُ التِي لَا تنفعُ التَّوبةَ منَ الشِّركِ أوْ منَ المعاصِي بعدهَا، هيَ طلوعُ الشَّمسِ منَ المغربِ[20].

وقدْ روَى البخاريُّ بسندهِ، عنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "لَا تقومُ السّاعةُ حتّى تطلعَ الشّمسُ منْ مغربهَا، فإذَا رآهَا النّاسُ آمنَ منْ عليهَا، فذاكَ حينَ (لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ)"[21].

ونخرجُ بهذَا أنَّ شروطَ التوبةِ معَ قبولهَا:

1) النَّدمُ منَ القلبِ، ومنهُ العزمُ علَى عدمِ العودةِ.

2) الاستغفارُ لإدراكِ عفوِ اللهِ تعالَى.

3) أنْ تكونَ التَّوبةُ قبلَ الغرغرةِ وقبلَ أشراطَ السَّاعةِ.

---

(1) [6171] ((الوابل الصيب)) (24/1).
(2) [6172] رواه البخاري (6534) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(3) [6173] رواه مسلم (2582).
(4) [6174] البهم جمع بهيم، وهو في الأصل الذي لا يخالط لونه لون سواه، يعني ليس فيهم شيء من العاهات والأعراض التي تكون في الدنيا كالعمى والعور والعرج وغير ذلك. انظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (167/1).
(5) [6175] الغرل: جمع الأغرل، وهو الأقلف. انظر ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (362/3).
(6) رواه أحمد (495/3) (16085)، والحاكم (475/2)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (265/8). وحسن إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (218/4)، والعراقي في تخريجه للإحياء (283/5)، والهيثمي في ((المجمع)) (354/10)، وحسنه ابن القيم كما في ((مختصر الصواعق المرسلة)) (489).
(7) (جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (ص 241)
(8) البيت من معلقته المشهورة. انظر: ديوان عمرو بن كلثوم ص ٧٨.
(9) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢٧٨.
(10) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٤.
(11) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٢٩٥.
(12) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدّعوات، باب إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر، رقم ٣٥٣٧. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٩٠٣.
(13) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/٢٥.
(14) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٩١.
(15) المجموع شرح المهذب.
(16) جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥١٦.
(17) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٨٣.
(18) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٦٠٤
(19) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨١.
(20) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٦٧.
(21) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الأنعام، باب لا ينفع نفس إيمانها، ١٤/ ١٧٤، رقم ٤٢٦٩.

اقترانُ التَّوبةِ بالإصلاحِ والاستغفارِ:

أوَّلًا: اقترانُ التَّوبةِ بالإصلاحِ:

قرنَ اللهُ سبحانهُ بينَ التَّوبةِ والإصلاحِ فِي مواضعَ منْ كتابهِ، منهَا: قوله تعالَى: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"[البقرة: 160].

وقوله تعالى: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ"[النور: 5].

فالآياتُ تدلُّ دلالةً واضحةً علَى أنَّهُ ليسَ المقصودُ بالتَّوبةِ تركُ القبيحِ فحسبُ، بلْ يجبُ فعلُ الحسنِ، وهوَ الإصلاحُ.

ومنْ أجلِ ذلكَ شرطَ سبحانهُ وتعالَى فِي توبةِ أهلِ الكتابِ الذينَ كانَ ذنبهمْ كتمانُ مَا أنزلَ اللهُ منَ البيِّناتِ والهدَى؛ ليضلُّوا النَّاسَ بذلكَ، شرطَ أنْ يُصلحُوا العملَ فِي نفوسهمْ، ويبيّنُوا للنَّاسِ مَا كانُوا يكتمونهمْ إيَّاهُ، فقالَ تعالَى: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160)"[البقرة: 159، 160].

وشرطَ سبحانهُ فِي توبةِ المنافقينَ الذينَ كانَ ذنبهمْ إفسادُ قلوبِ ضعفاءِ المؤمنينَ، وتحيُّزهمْ واعتصامهمْ باليهودِ والمشركينَ أعداءِ الرَّسولِ ﷺ، وإظهارهمُ الإسلامَ رياءً وسمعةً: أنْ يصلحُوا بدلَ إفسادهمْ، وأنْ يعتصمُوا باللهِ بدلَ اعتصامهمْ بالكفَّارِ منْ أهلِ الكتابِ والمشركينَ، وأنْ يخلصُوا دينهمْ للهِ بدلَ إظهارهمْ رياءً وسمعةً، فهكذَا تفهمُ شرائطَ

التَّوبةِ وحقيقتها[1]، كمَا قالَ تعالَى: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا "[النساء: 146].

وتجدرُ الإشارةُ هنَا إلَى أنَّ هناكَ أعمالًا طلبَ اللهُ فيهَا التَّوبةَ فقطْ، وأعمالًا طلبَ فيهَا التَّوبةَ والإصلاحَ، وأعمالًا طلبَ فيهَا التَّوبةَ والإصلاحَ والبيانَ.

ثانيًا: اقترانُ التَّوبةِ بالاستغفارِ:

قرنَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى بينَ التَّوبةِ والاستغفارِ علَى ألسنةِ رسلهِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ"[هود: 3].

وقالَ هودُ عليهِ السَّلامُ: "وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ "[هود: 52].

وقالَ صالحٌ عليهِ السَّلامُ: "فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ"[هود: 61].

وقالَ شعيبٌ عليهِ السَّلامُ: "وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ"[هود: 90].

فالاستغفارُ: طلبُ وقايةِ شرّ مَا مضَى، والتَّوبةُ: الرُّجوعُ وطلبُ وقايةِ شرِّ مَا يخافهُ فِي المستقبلِ منَ سيِّئاتِ أعمالهِ[2].

وقيلَ فِي العلاقةِ بينهمَا: التَّوبةُ: هيَ الرُّجوعُ إلىَ اللهِ ممَّا يكرههُ اللهُ ظاهرًا وباطنًا إلَى مَا يحبُّهُ اللهُ ظاهرًا وباطنًا؛ ندمًا علَى مَا مضَى، وتركًا فِي الحالِ، وعزمًا علَى أنْ لَا يعودَ، والاستغفارُ: طلبُ المغفرةِ منَ اللهِ، فإنِ اقترنَ بهِ توبةٌ فهوَ

الاستغفارُ الكاملُ الذِي رتّبتَ عليهِ المغفرةَ، وإنْ لمْ تقترنْ بهِ التَّوبةُ فهوَ دعاءٌ منَ العبدِ لربِّهِ أنْ يغفرَ لهُ، فقدْ يُجابُ دعاؤهُ وقدْ لَا يُجابُ، وهوَ بنفسهِ عبادةٌ منَ العباداتِ، فهوَ دعاءُ عبادةٍ، ودعاءُ مسألةٍ[3].

اسمُ اللهِ التوَّابِ:

التوَّابُ منْ أسماءِ اللهِ تعالَى فقدِ اشتقّ اللهُ سبحانهُ وتعالَى منَ التَّوبةِ اسمًا لهُ، وهوَ التوّاب؛ دلالةً علَى عظمِ التَّوبةِ وفضلهَا:

أولًا: معنَى اسمِ اللهِ التوَّابِ:

قالَ الطبريُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: إنَّ اللهَ جلَّ ثناؤهُ هوَ التوّابُ علَى منْ تابَ إليهِ منْ عبادهِ المذنبينَ منْ ذنوبهِ، التَّاركِ مجازاتهِ بإنابتهِ إلَى طاعتهِ بعدَ معصيتهِ بمَا سلفَ منْ ذنبهِ[4].

وجاءَ (توّاب) علَى أبنيةِ المبالغةِ لقبولهِ توبةَ عبادهِ، وتكريرُ الفعلِ منهمْ دفعةً بعدَ دفعةٍ، وواحدًا بعدَ واحدِ علَى طولِ الزَّمانِ، وقبولهِ عزَّ وجلَّ ممَّنْ يشاءُ أنْ يقبلَ منهُ؛ فلذلكَ جاءَ علَى أبنيةِ المبالغةِ، فالعبدُ يتوبُ إلَى اللهِ عزَّ وجلَّ ويقلعُ عنْ ذنوبهِ، واللهُ يقبلُ توبتهُ، فالعبدُ تائبٌ واللهُ توّابٌ[5].

وقالَ ابنُ القيِّمِ فِي نونيَّتهِ:

وكذلكَ التوّابُ منْ أوصافهِ * والتوّابُ فِي أوصافهِ نوعانِ

إذنٌ بتوبةِ عبدهِ وقبولهَا * بعدَ المتابِ بمنَّةِ المنَّانِ[6]

ويقولُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: فهوَ التَّائبُ علىَ التَّائبينَ أوَّلًا بتوفيقهمْ للتَّوبةِ، والإقبالِ بقلوبهمْ إليهِ، وهوَ التَّائبُ عليهمْ بعدَ توبتهمْ قبولًا لهَا، وعفوًا عنْ خطاياهمْ[7].

ثانيًا: الأسماءُ المقترنةُ باسمهِ تعالَى التوّابُ:

وردَ اسمُ اللهِ سبحانهُ وتعالَى (التَّوَّابُ) فِي إحدَى عشرةَ آيةً فِي القرآنِ الكريمِ[8]:

1) اسمُ اللهِ الرَّحيمِ:

اقترنَ اسمُ اللهِ التَّوابُ باسمِ اللهِ الرَّحيمِ فِي تسعِ آياتِ، منهَا:

قولهُ تعالَى: "فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" [البقرة: 37].

وقوله تعالى: "أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" [التوبة: 104].

وقوله تعالى: "أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ" [الحجرات: 12].

ومناسبةُ هذَا الاقترانِ: أنَّ توبةَ اللهِ تعالَى علَى عبادهِ وتوفيقهمْ إليهَا ثمَّ قبولهَا منهمْ، هوَ منْ آثارِ رحمتهِ تعالَى وبرِّهِ وإحسانهِ.

قالَ الطَّبريُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ قولهِ تعالَى: "إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" [التوبة: 118]: إنَّ اللهَ هوَ الوهَّابُ لعبادهِ الإنابةَ إلَى طاعتهِ، الموفِّقِ منْ أحبَّ توفيقهُ منهمْ لمَا يرضيهِ عنهُ، الرَّحيمِ بهمْ أنْ يعاقبهمْ بعدَ التَّوبةِ، أوْ يخذلَ منْ أرادَ منهمْ التَّوبةَ والإنابةَ ولَا يتوبُ عليهِ[9].

وقالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: (إِنَّ اللهَ هوَ التَّوَّابُ) أيْ: كثيرُ التَّوبةِ والعفوِ، والغفرانِ عنِ الزَّلَّاتِ والعصيانِ، (الرَّحِيمُ) وصفهُ الرَّحمةُ العظيمةُ التِي لَا تزالُ تنزلُ علَى العبادِ فِي كلِّ وقتٍ وحينٍ، فِي جميعِ اللَّحظاتِ، مَا تقومُ بهِ أمورهمُ الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ[10].

2) اسمُ اللهِ الحكيمِ:

واقترنَ اسمُ اللهِ التوَّابِ باسمهِ تعالَى الحكيمِ مرَّةً واحدةً، فِي قولهِ تعالَى: "وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ "[النور: 10].

فهوَ (توَّابٌ) يقبلُ العاصينَ منكمْ، ويردّهمْ إلَى دائرةِ المؤمنينَ الصَّالحينَ، إذَا همْ تابُوا وأصلحُوا، وهوَ سبحانهُ: (حكيمٌ) فيمَا حدّ منْ حدودٍ ورصدٍ منْ عقوباتٍ، للمعتدينَ علَى حدودهِ[11].

وفِي ذكرِ وصفِ (حكيمٍ) هنَا معَ وصفِ (توَّابٍ) إشارةٌ إلَى أنَّ فِي هذهِ التَّوبةِ حكمةٌ، وهيَ استصلاحُ النَّاسِ[12].

---

(1) عدة الصابرين، ابن القيم ص ١٧.
(2) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٣٤٥
(3) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ٢/ ٣٦٤.
(4) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥٨٧
(5) اشتقاق أسماء الله، ص ٦٢.
(6) الكافية الشافية، ابن القيم ص٢٠٩.
(7) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٦.
(8) المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٣٧٠.
(9) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٥٤.
(10) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٥٤.
(11) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٩/ ١٢٢٦.
(12) التحرير والتنوير، ١٨/ ١٣٥.

ثمراتُ التَّوبةِ وعاقبةُ الإعراضِ عنهَا:

للتَّوبةِ إِلَى اللهِ تعالَى ثمراتٌ جزيلةٌ، وللمعرضينَ عنهَا عواقبُ وخيمةٌ، نذكرُ منهَا مَا يلِي:

أوَّلًا: ثمراتُ التَّوبةِ:

ذكرَ القرآنُ الكريمُ ثمرات للتَّوبةِ؛ لحضِّ العبادِ علَى المسارعةِ إليهَا، منهَا:

1) الفلاحُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ:

علّقَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى الفلاحَ علَى التَّوبةِ، فقالَ تعالَى: "وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[النور: 31] فمنْ سُبلِ الفلاحِ التَّوبةُ، وهيَ الرُّجوعُ ممَّا يكرههُ اللهُ، ظاهرًا وباطنًا، إلَى مَا يحبُّهُ ظاهرًا وباطنًا، ودلَّ هذَا أنَّ كلَّ مؤمنٍ محتاجٌ إلَى التَّوبةِ؛ لأنَّ اللهَ خاطبَ المؤمنينَ جميعًا، وفيهِ الحثُّ علَى الإخلاصِ بالتَّوبةِ فِي قولهِ: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ) أي: لَا لمقصدِ غيرِ وجههِ، منْ سلامةٍ منْ آفاتِ الدُّنيَا، أوْ رياءٍ وسمعةٍ، أوْ نحوِ ذلكَ منَ المقاصدِ الفاسدةِ(1).

2) دعاءُ حملةِ العرشِ للتَّائبينَ:

ذكرَ سبحانهُ وتعالَى دعاءَ الذينَ يحملونَ عرشَ الرَّحمنِ منَ الملائكةِ ومنْ حولَ العرشِ ممَّنْ يحفُّ بهِ منهمْ، بالمغفرةِ للذينَ تابُوا منَ الشِّركِ والمعاصِي.

قالَ تعالَى: "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ

كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ" [غافر: 7].

أي: فاصفحْ عنِ المسيئينَ إذَا تابُوا وأنابُوا، وأقلعُوا عمَّا كانُوا فيهِ، واتَّبعُوا مَا أمرتهمْ بهِ منْ فعلِ الخيراتِ وتركِ المنكراتِ[2].

3) المتاعُ الحسنُ:

ذكرَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى أنَّ هودًا عليهِ السَّلامُ دعَا قومهُ أنْ يسألُوا اللهَ أنْ يغفرَ لهمْ ذنوبهمْ، ثمَّ يرجعُوا إليهِ نادمينَ يمتعّهمْ فِي دنياهمْ متاعًا حسنًا بالحياةِ الطيِّبةِ فيهَا، إلَى أنْ يحينَ أجلهمْ.

قالَ تعالَى: "وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ " [هود: 3].

أي: استغفرُوا ربَّكمْ، ثمَّ توبُوا إليهِ، فإنَّكمْ إذَا فعلتمْ ذلكَ بسطَ عليكمْ منَ الدُّنيَا، ورزقكمْ منْ زينتهَا، وأنسأَ لكمْ فِي آجالكمْ إلَى الوقتِ الذِي قضَى فيهِ عليكمْ الموتَ[3].

وهذهِ القاعدةُ التِي يقرِّرهَا القرآنُ فِي مواضعَ متفرِّقةٍ، قاعدةٌ صحيحةٌ تقومُ علَى أسبابهَا منْ وعدِ اللهِ، ومنْ سنَّةِ الحياةِ، كمَا أنَّ الواقعَ العمليَّ يشهدُ بتحقُّقهَا علَى مدارِ القرونِ.
والحديثُ فِي هذهِ القاعدةِ عنِ الأممِ لَا عنِ الأفرادِ، ومَا منْ أمَّةٍ قامَ فيهَا شرعُ اللهِ، واتَّجهتِ اتِّجاهًا حقيقيًا للهِ بالعملِ الصَّالحِ والاستغفارِ المنبيءِ عنْ خشيةِ اللهِ، مَا منْ أمَّةٍ اتَّقتِ اللهَ وعبدتهُ وأقامتْ شريعتهُ، فحقَّقتِ العدلَ والأمنَ للنَّاسِ

جميعًا، إِلَّا فاضتْ فيهَا الخيراتُ، ومكّنَ اللهُ لهَا فِي الأرضِ، واستخلفهَا فيهَا بالعمرانِ وبالصَّلاحِ سواءً[4].

ووصفَ المتاعَ "بالحسنِ" إنَّمَا هوَ لطيبِ عيشِ المؤمنِ برجائهِ فِي اللهِ عزَّ وجلَّ وفِي ثوابهِ وفرحهِ بالتقرُّبِ إليهِ بمفترضاتهِ والسُّرورِ بمواعيدهِ[5]، وفِي الآيةِ دلالةٌ علَى أنَّ ثمرةَ الاستغفارِ والتَّوبةِ، سعةُ الرِّزقِ ورغدِ العيشِ.

4) إبدالُ السيِّئاتِ حسناتٍ:

ذكرَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى أنَّ منْ تابَ منَ الذُّنوبِ توبةً نصوحًا وآمنَ إيمانًا جازمًا مقرونًا بالعملِ الصَّالحِ، فأولئكَ يمحُو اللهُ عنهمْ سيِّئاتهمْ ويجعلُ مكانهَا حسناتٍ؛ بسببِ توبتهمْ وندمهمْ.

قالَ تعالَى: "إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" [الفرقان: 70].

أيْ: تتبدَّلُ أفعالهمْ وأقوالهمْ السيِّئةُ تتبدَّلُ حسناتٍ، فيتبدَّلُ شركهمْ إيمانًا، ومعصيتهمْ طاعةً، وتتبدَّلُ نفسُ السيِّئاتِ التِي عملوهَا ثمَّ أحدثُوا عنْ كلِّ ذنبٍ منهَا توبةً وإنابةً وطاعةً تبدّلُ حسناتٍ[6]، وهوَ فيضٌ منْ عطاءِ اللهِ لَا مقابلَ لهُ منْ عملِ العبدِ إِلَّا أنَّهُ اهتدَى ورجعَ عنِ الضّلالِ، وثابَ إلَى حمَى اللهِ، ولاذَ بهِ بعدَ الشُّرودِ والمتاهةِ[7].

وفِي الآيةِ دلالةٌ علَى أنَّ بابَ التَّوبةِ دائمًا مفتوحٌ، يدخلُ منهُ كلُّ منِ استيقظَ ضميرهُ، وأرادَ العودةَ والمآبَ، لَا يُصدُّ عنهُ قاصدٌ، ولَا يُغلقُ فِي وجهِ لاجئٍ، أيًا كانَ، وأيًا مَا ارتكبَ منَ الآثامِ.

وقدْ روَى مسلمٌ بسندهِ عنْ أبِي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: "إنّي لأعرفُ آخرَ أهلَ النّارِ خروجًا منَ النّارِ، وآخرَ أهلِ الجنّةِ دخولًا إلَى الجنّةِ، يؤتَى برجلٍ فيقولُ: نحّوا كبارَ ذنوبه، وسلوهُ عنْ صغارهَا، قالَ: فيقالُ لهُ: عملتَ يومَ كذَا، كذَا وكذَا، وعملتَ يومَ كذَا، كذَا وكذَا، فيقولُ: نعمَ، لَا يستطيعُ أنْ يُنكرَ منْ ذلكَ شيئًا، فيقالُ: فإنّ لكَ بكلّ سيّئةٍ حسنةً، فيقولُ: يَا ربّ عملتُ أشياءً لَا أراهَا هاهنَا قالَ: فضحكَ رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى بدتْ نواجذهُ[8].

5) الإمدادُ بالمطرِ وقتِ الحاجةِ إليهِ:

أخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّ هودًا عليهِ السَّلامُ قالَ لقومهِ: "وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ"[هود: 52].

يقولُ سبحانهُ: فإنَّكمْ إنْ آمنتمْ باللهِ، وتبتمْ منْ كفركمْ بهِ، أرسلَ قطرَ السَّماءِ عليكمْ، يدرّ لكمُ الغيثَ فِي وقتِ حاجتكمْ إليهِ، وتحيَا بلادكمْ منَ الجدبِ والقحطِ، ورزقكمُ المالَ والولدَ[9].

قيلَ: إنَّهمْ كانُوا أصحابَ زروعٍ وبساتينَ، وعماراتٍ، حراصًا عليهَا أشدَّ الحرصِ، فكانُوا أحوجَ شيءٍ إلَى الماءِ، وكانُوا مدلينَ بمَا أوتُوا منْ هذهِ القوَّةِ والبطشِ والبأسِ، مهيَّئينَ فِي كلِّ ناحيةٍ[10].

وفِي الآيةِ دلالةٌ علَى أنَّ منْ ثمرةِ التَّوبةِ حياةُ البلادِ منَ الجدبِ والقحطِ، وحياةِ العبادِ بزيادةِ الأموالِ والأولادِ.

ثانيًا: عاقبةُ المعرضينَ عنِ التَّوبةِ:

ذكرَ القرآنُ الكريمُ عاقبةَ المعرضينَ عنِ التَّوبةِ، والتِي منهَا:

1) عذابُ جهنَّمَ:

عرضَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى علَى منْ قتلَ أولياءهُ التَّوبةَ، وهدّدهمْ إنْ لمْ يتوبُوا بالعذابِ الشَّديدِ، فقالَ تعالَى: "إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ والمؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ" [البروج: 10].

أي: ثمَّ لمْ يتوبُوا، أيْ لمْ يقلعُوا عمَّا فعلُوا، ويندمُوا علَى مَا أسلفُوا، (فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) وذلكَ أنَّ الجزاءَ منْ جنسِ العملِ، قالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ تعالَى: انظرُوا إلَى هذَا الكرمِ والجودِ، همْ قتلُوا أولياءهُ وأهلَ طاعتهِ، وهوَ يدعوهمْ إلَى التَّوبةِ والمغفرةِ[11].

وفِي الآيةِ تعريضٌ للمشركينَ بأنَّهمْ إنْ تابُوا وآمنُوا سلمُوا منْ عذابِ جهنَّمَ[12].

2) استحقاقُ العقابِ:

وأخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّ علَى العبدِ أنْ يتوبَ إلَى اللهِ تعالَى، ويخرجَ منْ حقِّ أخيهِ المسلمِ، باستحلالهِ، والاستغفارِ، والمدحِ لهُ مقابلَ ذمِّهِ، وإلَّا أصبحَ ظالمًا لنفسهِ مستحقًّا لعقابِ اللهِ تعالَى.

قالَ تعالَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ

الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" [الحجرات: 11].

قولهُ تعالَى: (وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)، يقولُ تعالَى ذكرهُ: ومنْ لمْ يتبْ منْ نبزهِ أخاهُ بمَا نهَى اللهُ عنْ نبزهِ بهِ منَ الألقابِ، أوْ لمزهِ إيَّاهُ، أوْ سخريتهِ منهُ، فأولئكَ همُ الذينَ ظلمُوا أنفسهمْ، فأكسبوهَا عقابَ اللهِ بركوبهمْ مَا نهاهمْ عنهُ[13].

وإذَا كانَ كلٌّ منَ السُّخريةِ واللَّمزِ والتَّنابزِ معاصٍ، فقدْ وجبتِ التَّوبةُ منهَا، فمنْ لمْ يتبْ فهوَ ظالمٌ؛ لأنَّهُ ظلمَ النَّاسَ بالاعتداءِ عليهمْ، وظلمَ نفسهُ بأنْ رضيَ لهَا عقابَ الآخرةِ معَ التمكُّنِ منَ الإقلاعِ عنْ ذلكَ، فكانَ ظلمهُ شديدًا جدًّا، فلذلكَ جيءَ لهُ بصيغةِ قصرِ الظَّالمينَ عليهمْ، كأنَّهُ لَا ظالمَ غيرهمْ؛ لعدمِ الاعتدادِ بالظالمينَ الآخرينَ فِي مقابلةِ هؤلاءِ علَى سبيلِ المبالغةِ ليزدجرُوا، والتَّوبةُ واجبةٌ منْ كلِّ ذنبٍ، وهذهِ الذُّنوبُ المذكورةُ مراتبُ، وإدمانُ الصَّغائرِ كبيرةٌ[14].

3) العذابُ الأليمُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ:

دعاَ اللهُ سبحانهُ المنافقينَ الذينَ أساءُوا للرَّسولِ ﷺ وحاولُوا الإضرارَ بهِ وارتدُّوا عنِ الإسلامِ أنْ يرجعُوا إلَى الإيمانِ والتَّوبةِ، فإنْ رجعُوا فهوَ خيرٌ لهمْ، وإنْ يعرضُوا، أوْ يستمرُّوا علَى حالهمْ، يعذِّبهمُ اللهُ العذابَ الموجعَ فِي الدُّنيَا علَى أيدِي المؤمنينَ، وفِي الآخرةِ بنارِ جهنَّمَ، قالَ تعالَى: "يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ اللهُ

عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخرةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" [التوبة: 74].

أي: وإنْ يستمرُّوا علَى طريقهمْ (يُعَذِّبْهُمْ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا) أي: بالقتلِ والهمِّ والغمِّ، (وَالآخرةِ) أي: بالعذابِ والنَّكالِ والهوانِ والصَّغارِ، (وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) أي: وليسَ لهمْ أحدٌ يسعدهمْ ولَا ينجدهمْ، لَا يحصّلُ لهمْ خيرًا، ولَا يدفعُ عنهمْ شرًا[15].

وفِي الآيةِ دليلٌ علَى قبولِ توبةِ الزِّنديقِ المسرّ الكفرِ، المظهرِ للإيمانِ، وهوَ مذهبُ أبِي حنيفةَ والشَّافعيِّ وقالَ مالكٌ: لَا تقبلُ، فإنْ جاءَ تائبًا منْ قبلِ نفسهِ قبلَ أنْ يُعثرَ عليهِ قبلتْ توبتهُ بلَا خلافٍ[16]، والإمامُ مالكٌ لَا يقْصُدُ أنَّ اللهَ لَا يقبلُ توبةَ المرتدِّ والمنافقِ إذَا عادَ، فهذَا غيرُ واردٍ، ولكنَّهُ يقصدُ الحدَّ، أيْ إنْ عادَ لدينهِ تائبًا لوحدهِ سقطَ عليهِ الحدُّ، وإنْ عُثرَ عليهِ أقيمَ عليهِ الحدُّ ولوْ قالَ أنَّهُ عادَ، وهذهِ المسألةُ فيهَا خلافٌ، وأنَا أرَى أنْ يخلَّى سبيلهُ فِي هذهِ الحالةِ ونوكِّلُ سريرتهُ إلَى اللهِ تعالَى، إلَّا إنْ كانَ محاربًا ذُو مكانةٍ فِي عسكرهِ ويُخشَى أنْ يكونَ كاذبًا وقالَ هذا خشيةَ الموتِ ثمَّ يعودُ فيهاجمُ المسلمينَ، أوْ كانَ كثيرَ الارتدادِ والعودِ، فهذانِ الإثنانِ إنْ عُثرَ عليهمَا قبلَ التَّوبةِ وإنْ قالَا أنَّهمَا تائبانِ، فإنَّهمَا يُقامُ عليهمَا الحدُّ وتُوكَّلُ سريرتهمَا إلَى اللهِ تعالَى، كنقيضِ حالِ الأوَّلِ الذِي ليسَ محاربًا ولَا كثيرَ الارتدادِ وعثرَ عليهِ وقالَ أنَّهُ تائبٌ فيُتركُ وتوكَّلُ سريرتهُ إلَى اللهِ تعالَى.

4) العذابُ الكبيرُ:

دعَا هودٌ عليهِ السَّلامُ قومهُ للرُّجوعِ إِلَى اللهِ نادمينَ، وهدّدهمْ إنْ أعرضُوا عمّا يدعوهمْ إليهِ فسوفَ يحلُّ عليهمْ عذابٌ كبيرٌ، وهوَ يومَ القيامةِ.

قالَ تعالَى: "وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُبُوا إِلَيهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٌ" [هود: 3].

يقولُ تعالَى ذكرهُ: وإنْ أعرضُوا عمَّا دعوتهمْ إليهِ منْ إخلاصِ العبادةِ للهِ، وتركِ عبادةِ الآلهةِ، وامتنعُوا منِ الاستغفارِ للهِ، والتَّوبةِ إليهِ فأدبرُوا مولِّينَ عنْ ذلكَ، فإنِّي أيُّهَا القومُ أخافُ عليكمْ عذابَ يومٍ كبيرٍ شأنهُ، عظيمٌ هولهُ(17)، ووصفهُ بالكبيرِ لزيادةِ تهويلهِ(18).

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٦٦.
(2) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١١٩.
(3) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣١٣.
(4) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٧١٣.
(5) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٤٩.
(6) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٨٧.
(7) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٥٧٩.
(8) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب، ما أدنى أهل الجنة منزلة، رقم ٣٠٨.
(9) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٤٤.
(10) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٦٦.
(11) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٣٦٥.
(12) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٤٦.
(13) جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٣٧٣.
(14) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٢٥٠.
(15) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٦١.
(16) البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٤٦٦.
(17) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣١٥.
(18) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١/ ٣١٩.

ثمَّ قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: الصِّراطُ المستقيمُ: الذِي أمرَ اللهُ بلزومهِ وأثنَى علَى المستقيمينَ عليهِ، هوَ: الطَّريقُ المعتدلُ الموصلُ إلَى رضوانِ اللهِ وثوابهِ، وهوَ متابعةُ النَّبيِّ ﷺ فِي أقوالهِ وأفعالهِ وكلِّ أحوالهِ.

~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ سبحانهُ الصِّراطَ المستقيمَ فِي القرآنِ فِي مواضعَ عدَّةٍ، وأمرَ بطلبه ولزومهِ وعدمِ الخروجِ عنهُ، وأثنَى علَى المستقيمينَ عليهِ فقالَ تعالَى: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الحَمدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمنِ الرَّحيمِ (3) مَالكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّين (7)" [الفاتحة]**.**

وقالَ سبحانهُ:"إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ" [آل عمران: 51]**.**

وقالَ جلَّ جلالهُ: "وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ" [الأنعام: 153]**.**

وقالَ سحانهُ وتعالَى: "فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهُمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا" [النساء: 175]**.**

الصِّراطُ المستقيمُ لغةً:

أوَّلًا لفظُ الصِّراطُ المستقيمُ" هوَ لفظٌ مركَّبٌ منْ جزئَيْنِ، فوجبَ منْ تعريفهِ تعريفُ جزئَيْهِ، "الصِّراطُ" و"المستقيمُ".

الصِّراطُ لغةً:

أصلُ الصِّراطِ بالسِّينِ، لأنَّهُ منَ السَّرَطِ والصَّادُ لغةً، قالَ الفرَّاءُ: وهيَ بالصَّادِ لغةُ قريشٍ الأوَّلينَ التِي جاءَ بهَا الكتابُ، وعامَّةُ العربِ تجعلهَا سينًا[1].

والصِّراطُ بالكسرِ: الطَّريقُ، وجسرٌ ممدونٌ علَى متنِ جهنَّمَ[2].

قالَ الرَّاغبُ: السِّراطُ: الطَّريقُ المستهلُّ، أصلهُ منْ سَرَطْتُ الطَّعامَ، وزَرَدْتُهُ: ابتلعتهُ، فقيلَ: سراطٌ، تصوُّرًا أنْ يبتلعهُ سالكهُ، أوْ يبتلعَ سالكهُ[3].

والأصلُ التِي تفيدهُ كلمةُ الصِّراطِ فِي اللُّغةِ هوَ البلعُ، ففِي لسانِ العربِ: سَرَطُ الطَّعامَ سراطًا: بلعهُ، وانسرطَ الشَّيءُ فِي حلقهِ سارَ فيهِ سيرًا سهلًا[4].

الصِّراطُ اصطلاحًا:

الصِّراطُ منَ السَّبيلِ: مَا لَا التواءَ فيهِ ولَا اعوجاجٌ، بلْ علَى جهةِ القصدِ فهوَ أخصُّ منَ السَّبيلِ (الذِي هوَ بذاتهِ) أخصُّ منَ الطَّريقِ[5].

وعرَّفهُ بعضهمْ بأنَّهُ: الطَّريقُ، مستقيمًا كانَ أوْ غيرهُ، ويُطلقُ علَى الجسرِ الممدودِ علَى متنِ جهنَّمَ، يعبرهُ أهلُ الجنَّةِ علَى حسبِ أعمالهمْ[6].

المستقيمَ لغةً:

المستوِي القويمُ الذِي لَا اعوجاجَ فيهِ ولَا التواءَ، يقالُ: طريقٌ مستقيمٌ، كمَا يُطلقُ علَى العادلِ الذِي لَا يميلُ فيهِ عنِ الحقِّ، فيُقالُ: ميزانٌ مستقيمٌ[7].

المستقيمُ اصطلاحًا:

المستويُّ، والمرادُ بهِ طريقُ الحقِّ، وهيَ الملَّةُ الحنيفيَّةُ السَّمحة المتوسِّطةُ بينَ الإفراطِ والتَّفريطِ[8].

وقالَ ابنُ عاشورٍ: المستقيمُ اسمُ فاعلٍ، استقامَ مطاوعًا، قوَّمتهُ فاستقامَ، والمستقيمُ الذِي لَا عوجَ فيهِ ولَا تعاريجَ، وأحسنُ الطُّرقِ الذِي يكونُ مستقيمًا وهوَ الجادَّةُ، لأنَّهُ باستقامتهِ يكونُ أقربُ إلَى المكانِ المقصودِ منْ غيرهِ، فلَا يضلُّ فيهِ سالكهُ، ولَا يتردَّدُ ولَا يتحيَّرُ، والمستقيمُ مستعارٌ للحقِّ البيِّنِ الذِي لَا تخلطهُ شبهةٌ باطلٌ فهوَ كالطَّريقِ الذِي لَا تتخلَّلهُ بنياتٍ[9].

الصراطُ المستقيمُ اصطللاحًا:

تبيَّنَ أنَّ الصِّراطَ المستقيمَ هوَ: الطَّريقُ المستقيمُ الذِي لَا اعوجاجَ فيهِ[10]، وهوَ المعارفُ الصَّالحاتُ كلُّهَا منِ اعتقادٍ وعملٍ[11].

وفائدةُ وصفِ الصِّراطِ فِي الفاتحةِ بالمستقيمِ هوَ: أنَّ الصِّراطَ يُطلقُ علَى مَا فيهِ صعودٌ وهبوطٌ، والمستقيمُ: مَا لَا ميلَ فيهِ إلَى جهةٍ منَ الجهاتِ الأربعِ[12].

ووردتْ لفظةُ الصِّراطِ فِي القرآنِ خمسٍ وأربعينَ مرَّةً[13].

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالصِّراطِ:

الطَّريقُ:

الطَّرِيقُ لغةً: السَّبيلُ، يُذكَّرُ ويؤنَّثُ، تقولُ: الطَّرِيقُ الأعظمُ، والطَّرِيقُ العظمَى، والجمعُ أطرقةٌ وطرقٌ، وطرقاتٌ: جمعُ الجمعِ.

وطريقةُ الرَّجلِ: مذهبهُ، يقالُ: مَا زالَ فلانٌ علَى طريقةٍ واحدةٍ، أي: حالةٍ واحدةٍ[14].

الطَّريقُ اصطلاحًا:

لَا يختلفُ معناهُ الاصطلاحِي عنْ معناهُ اللُّغوِي.

الصِّلةُ بينَ الصِّراطُ والطَّريقُ:

الطَّريقُ أعمُّ، فمنهُ السَّهلُ ومنهُ الصَّعبُ، ومنهُ المستقيمُ ومنهُ المعوجُّ، وأمَّا الصِّراطُ فهوَ طريقٌ سهلٌ لَا اعوجاجَ فيهِ[15].

السَّبيلُ:

السَّبيلُ لغةً: الطَّرِيقُ ومَا وضح َمنهُ، يُذكَّرُ ويؤنَّثُ، وسبيلُ اللهِ: طريقُ الهدَى الذِي دعَا إليهِ[16].

السَّبيلُ اصطلاحًا:

السَّبيلُ: طريقُ الجادةِ السَّائلةِ عليهِ الظَّاهرِ لكلِّ سالكِ منهجهُ، فهوَ أخصُّ منَ الطَّرِيقِ، فإنَّهُ كلُّ مَا يطرقُ الطَّارقُ معتادًا كانَ أوْ غيرهُ، وسبيلُ اللهِ: طريقهُ التِي أمرَ بسلوكهَا، واشتقاقهُ منَ الجريانِ منْ قولكَ سبلَ السَّحابُ مطرًا، والسّترَ

أرسلهُ وطولهُ فسمِّي الطَّريقُ سبيلًا؛ لكثرةِ الجريانِ فيهِ بالمشيِ[17].

الصِّلةُ بينَ الصِّراطِ والسَّبيلِ:

الصِّراطُ طريقٌ سهلٌ، والسَّبيلُ: اسمٌ يقعُ علَى مَا يقعُ عليهِ الطَّريقُ، وعلَى مَا لَا يقعُ عليهِ الطَّريقُ، تقولُ: سبيلُ اللهِ، وطريقُ اللهِ.

والفرقُ بينهمَا كالفرقِ بينَ الصِّراطِ والطَّريقِ.

وأمَّا صراطُ اللهِ وطريقُ اللهِ وسبيلُ اللهِ تعالَى، فكلُّهَا واحدٌ.

والصِّراطُ يأتِي بمعنَى المنهجِ، والصِّراطُ بمعنَى السنَّةِ.

الاستقامةُ:

الاستقامةُ لغةً: ضدُّ الطُّغيانِ، وهوَ مجاوزةُ الحدِّ فِي كلِّ شيءٍ[18].

وقدْ أُطلقَ علَى معنَى الاستقامةِ عدَّةُ معانٍ، منهَا: القصدُ، والإصابةُ، والاستواءُ، والنِّظامُ، والاعتدالُ، والرُّشدُ، والالتزامُ، وغيرُ ذلكَ[19].

وقدِ اتَّفقَ كثيرٌ منْ أهلِ اللُّغةِ (منْ خلالِ ذكرِ جذرهَا الذي هوَ "قام" حتَّى الألفاظُ القريبةُ) علَى أنَّهَا ترجعُ إلَى معنَى الاعتدالُ والتوسُّطِ، والسَّلامةِ منْ غضبِ اللهِ تعالَى[20].

الاستقامةُ اصطلاحًا:

الاستقامةُ: هيَ سلوكُ الصِّراطِ المستقيمِ، وهوَ الدِّينُ القويمُ منْ غيرِ تعويجٍ عنهُ يمنةً ولَا يسرةً، ويشملُ ذلكَ فعلَ

الطَّاعاتِ كلِّهَا الظَّاهرةِ والباطنةِ، وتركِ المنهيَّاتِ كلِّهَا كذلكَ[21].

وقدْ عرَّفهَا الجرجانيُّ بأنَّهَا: الوفاءُ بالعهودِ كلِّهَا، وملازمةِ الصِّراطِ المستقيمِ برعايةِ حدِّ التوسُّطِ فِي كلِّ الأمورِ، منَ الطَّعامِ والشَّرابِ واللِّباسِ، وفِي كلِّ أمرٍ دينيٍّ ودنيويٍّ، فذلكَ هوَ الصِّراطُ المستقيمُ، كالصِّراطِ المستقيمِ فِي الآخرةِ[22].

وبهذَا تكونُ الاستقامةُ هيَ: لزومُ صراطِ اللهِ المستقيمِ، والطغيانُ هوَ: الزَّيغُ عنْ صراطِ اللهِ المستقيمِ.

---

(1) لسان العرب – ابن منظور.
(2) القاموس المحيط – الفيروز آبادي.
(3) المفردات – الرَّغاب.
(4) لسان العرب – ابن منظور.
(5) التوقيف على مهمَّات التعاريف – المناوي.
(6) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون – القاضي نكري.
(7) معجم ألفاظ القرآن الكريم – مجمع اللغة العربية.
(8) إرشاد العقل السليم – أبو السُّعود.
(9) التحرير والتنوير – ابن عاشور.
(10) جامع البيان – الطبري.
(11) التَّحرير والتنوير.
(12) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢١٥.
(13) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص٤١٢-٤١٤، المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص٧٠٣-٧٠٥.
(14) انظر: الصحاح، الجوهري ١٥١٣/٤، مختار الصحاح، الرازي ص ١٨٩، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢٧٣/٦.
(15) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٩٨.
(16) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ١٤١، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٥٠٦/٨.
(17) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٩٠.
(18) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ١٠٤/٢.
(19) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٢٦/٢، الصحاح، الجوهري، ٢٠١٧/٥، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/٣.
(20) انظر: المصادر السابقة .
(21) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص ١٩٣.
(22) التعريفات، الجرجاني، ص١٩.

حقيقةُ الصِّراطِ المستقيمِ:

المتأمِّلُ فِي آياتِ القرآنِ الكريمِ، يجدُ أنَّ كلمةَ الصِّراطِ المستقيمِ قدْ وسعتْ كلَّ شيءٍ أحبَّهُ اللهُ لعبادِهِ، فالداخلُ فِي الإسلامِ يقولُ: "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" [الفاتحة: 6]**.**

وراسخُ القدمِ فيهِ يقولُ: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)، والنَّبيُّونَ والشُّهداءُ والصَّالحونَ كلُّهمْ يقولونَ: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ).

فالواجبُ علَى كلِّ عبدٍ أنْ يقولَ ويقرأَ فِي صلاتهِ: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) [الفاتحة: 6-7]**.**

وهذَا دعاءُ ورغبةٍ منَ المربوبِ إلَى الربِّ، والمعنَى: دُلَّنَا علَى الصِّراطِ المستقيمِ وأرشدنَا إليهِ، وأرنَا طريقَ هدايتكَ الموصلةِ إلَى أُنسكَ وقُربكَ(1)**.**

وقدْ بيَّنَ اللهُ تعالَى حقيقةَ الصِّراطِ المستقيمِ فِي آياتٍ عديدةٍ منْ كتابهِ، فقالَ فِي سورةِ الأنعامِ: " وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ" [الأنعام: 126]**.**

أي: هذَا الذِي بيَّنَا، طريقُ ربِّكَ، والذِي ارتضاهُ لنفسهِ دينًا وجعلهُ مستقيمًا لَا عوجَ فيهِ، وهوَ الإسلامُ(2)**.**

قالَ ابنُ الجوزِي: (وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ) فيهِ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدهَا: أنَّهُ القرآنُ، قالهُ ابنُ مسعودٍ.

والثَّانِي: التَّوحيدُ، قالهُ ابنُ عبَّاسٍ.

والثَّالثُ: مَا هوَ عليهِ منَ الدِّينِ، قالهُ عطاءٌ(3)**.**

وقالَ ابنُ عاشورٍ: والإشارةُ بهذَا إلَى حاضرٍ فِي الذِّهنِ وهوَ دينُ الإسلامِ، ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلَى حاضرٍ فِي الحسِّ وهوَ القرآنُ(4).

قالَ تعالَى: " وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" [الأنعام: 153].

فيهِ قولانِ:

أحدهمَا: القرآنُ.

والثَّانِي: الشَّرعُ وسمِّيَ ذلكَ صراطًا(5).

وقالَ ابنُ عاشورٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: والإشارةُ إلَى الإسلامِ: أي: وأنَّ الإسلامَ صراطِي، فالإشارةُ إلَى حاضرٍ فِي أذهانِ المخاطبينَ منْ أثرِ تكرُّرِ نزولِ القرآنِ وسماعِ أقوالِ الرَّسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، بحيثُ عرفهُ النَّاسُ وتبيَّنوهُ، فنزلَ منزلةَ المشاهدِ، فاستعملَ فيهِ اسمَ الإشارةِ الموضوعُ لتعيينِ ذاتٍ بطريقِ المشاهدةِ معَ الإشارةِ، ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلَى جميعِ التَّشريعاتِ والمواعظِ التِي تقدَّمتْ فِي هذهِ السُّورةِ، لأنَّهَا صارتْ كالشَّيءِ الحاضرِ المشاهدِ(6).

وبيَّنَ النبيُّ ﷺ حقيقةَ الصِّراطِ المستقيمِ فِي حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: "خطَّ رسولُ اللهِ ﷺ، خطًّا بيدهِ، ثمَّ قالَ: (هذَا سبيلُ اللهِ مستقيمًا)، قالَ: ثمَّ خطَّ عنْ يمينهِ، وشمالهِ، ثمَّ قالَ: (هذهِ السُّبلُ، ليسَ منهَا سبيلٌ إلَّا عليهِ شيطانٌ يدعُو إليهِ) ثمَّ قرأَ: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) [الأنعام: 153](7).

فوَّحدَ لفظَ الصِّراطِ، وجمعَ السُّبلَ المخالفةِ لهُ، وهذَا لأنَّ الطَّريقَ الموصلَ إلَى اللهِ تعالَى واحدٌ، وهوَ مَا بعثَ بهِ رسلهُ وأنزلَ بهِ كتبهُ، لَا يصلُ إليهِ أحدٌ إلَّا منْ هذهِ الطَّريقِ، ولوْ أتَى النَّاسُ منْ كلِّ طريقٍ، واستفتحُوا منْ كلِّ بابٍ، فالطُّرقُ عليهِمْ مسدودةٌ، والأبوابُ عليهمْ مغلقةٌ إلَّا منْ هذَا الطَّريقِ الواحدِ، فإنَّهُ متصِّلٌ باللهِ، موصلٌ إلَى اللهِ تعالَى(8).

قالَ تعالَى: " قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" [الأنعام: 161].

قالَ ابنُ عاشورٍ: قولهُ: (إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي) متَّصلٌ بقولهِ: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ) [الأنعام: 153].

الذِي بيَّنهُ بقولهِ: (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) [الأنعام: 92].

فزادهُ بيانًا بقولهِ هذَا: (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، ليبيِّنَ أنَّ هذَا الدِّينَ إنَّمَا جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ بهديٍ منَ اللهِ تعالَى، وأنَّهُ جعلهُ دينًا قيِّمًا علَى قواعدِ ملَّةِ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ، إلَّا أنَّهُ زائدٌ عليهِ بمَا تضمَّنهُ منْ نعمةِ اللهِ عليهِ؛ إذْ هداهُ إلَى ذلكَ الصِّراطِ الذِي هوَ سبيلُ النَّجاةِ، وافتتحَ الخبرَ بحرفِ التَّأكيدِ؛ لأنَّ الخطابَ للمشركينَ المكذِّبينَ(9).

قالَ تعالَى: "الر ۚ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ" [إبراهيم: 1].

فكشفتْ هذهِ الآيةُ عنْ حقيقةِ الكتابِ الذِي دلَّتِ الآياتُ السَّابقةُ علَى أنَّهُ صراطُ اللهِ المستقيمِ وخاصِّيتهُ فِي إخراجِ النَّاسِ منَ الظُّلماتِ إلَى النُّورِ، بتوفيقِ اللهِ وهدايتهِ حيثُ الانطلاقُ إلَى

رحابِ المعيَّةِ الإلهيَّةِ بكلِّ مَا فيهَا منْ عزَّةٍ وكرامةٍ وحمدٍ وثناءٍ وشكرٍ وولاءٍ.
وقدْ أخرجَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمَّتهُ منْ ظلماتٍ عديدةٍ إلَى أنوارٍ متعدِّدةٍ: أوَّلهَا: ظلمةُ الكفرِ والشِّركِ إلَى نورِ الإيمانِ والإسلامِ، ثمَّ منْ ظلمةِ الجهلِ والتَّقليدِ إلَى نورِ العلمِ والتَّحقيقِ، ثمَّ منْ ظلمةِ الذُّنوبِ والمعاصِي إلَى نورِ التَّوبةِ والاستقامةِ، ثمَّ منْ ظلمةِ الغفلةِ والبطالةِ إلَى نورِ اليقظةِ والمجاهدةِ، ثمَّ منْ ظلمةِ الحظوظِ والشَّهواتِ إلَى نورِ الزُّهدِ والعفَّةِ، ثمَّ منْ ظلمةِ رؤيةِ الأسبابِ، والوقوفِ معَ العوائدِ، إلَى نورِ شهودِ المسبِّبِ، وخرقِ العوائدِ، ثمَّ منْ ظلمةِ الوقوفِ معَ الكراماتِ وحلاوةِ الطاعاتِ إلَى نورِ شهودِ المعبودِ، ثمَّ منْ ظلمةِ الوقوفِ معَ حسِّ الأكوانِ الظَّاهرةِ إلَى شهودِ أسرارِ المعانِي الباطنةِ، فيغيبُ عنِ الأكوانِ بشهودِ المكوِّنِ[10]. (يُنظر الهامش)
قالَ تعالَى: " قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (42)" [الحجر: 41-42].
أي: هذَا الطَّريقُ الذِي سلكهُ أهلُ الإخلاصِ فِي عبوديَّتهمْ هوَ طريقٌ واردٌ عليَّ، وموصلٌ إلَى جوارِي، لَا سبيلَ لكَ علَى أهلهِ؛ لأنَّهُ مستقيمٌ لَا عوجَ فيهِ[11].
وقالَ تعالَى: "فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" [الزخرف: 43].
والمعنَى: فتمسَّكْ يَا محمَّدُ بمَا يأمركَ بهِ هذَا القرآنُ الذِي أوحاهُ إليكَ ربُّكَ، (إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ومنهاجٍ سديدٍ، وذلكَ هوَ دينُ اللهِ الذِي أمرَ بهِ، وهوَ الإسلامُ[12].

وقدْ لخَّصَ الماوردِي رحمهُ اللهُ تعالَى أقوالَ المفسِّرينَ فِي المرادِ بالصِّراطِ المستقيمِ فِي أربعةِ أقاويلَ:
أحدهَا: أنَّهُ كتابُ اللهِ تعالَى، وهوَ قولُ عليٍّ وعبدِ اللهِ، ويروَى نحوهُ عنِ النبيِّ ﷺ.
والثَّانِي: أنَّهُ الإسلامُ، وهوَ قولُ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ، ومحمَّدِ بنِ الحنفيَّةِ.
والثَّالثُ: أنَّهُ الطَّريقُ الهادِي إلَى دينِ اللهِ تعالَى، الذِي لَا عوجَ فيهِ، وهوَ قولُ ابنُ عبَّاسَ.
والرَّابعُ: هوَ رسولُ اللهِ ﷺ وأخيارُ أهلِ بيتهِ وأصحابهِ، وهوَ قولُ الحسنِ البصرِي وأبِي العاليةَ الرِّياحِي[13].
والمتأمِّلُ فِي الأقوالِ المتعدِّدةِ التِي أوردهَا المفسِّرونَ للصِّراطِ المستقيمِ يجدُ: أنَّ اختلافهمْ فِي تعريفِ الصِّراطِ اختلافُ تنوُّعٍ لَا اختلافَ تضادٍ، فتفسيرُ بعضِ أهلِ العلمِ للصِّراطِ المستقيمِ بالقرآنِ والبعضُ الآخرُ بالإسلامِ قولانِ متَّفقانِ؛ لأنَّ دينَ الإسلامِ هوَ اتِّباعُ القرآنِ، حيثُ نبَّهَ أحدهمَا علَى وصفٍ غيرَ الوصفِ الآخرِ.
وبعدَ أنْ نقلَ الإمامُ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى قولَ الإمامِ الطبرِي: أجمعتِ الأمَّةُ منْ أهلِ التَّأويلِ جميعًا علَى أنَّ الصِّراطَ المستقيمَ، هوَ الطَّريقُ الواضحُ الذِي لَا اعوجاجَ فيهِ[14].
قالَ: ثمَّ اختلفتْ عباراتُ المفسِّرينَ منَ السَّلفِ والخلفِ فِي تفسيرِ الصِّراطِ، وإنْ كانَ يرجعُ حاصلهَا إلَى شيءٍ واحدٍ، وهوَ المتابعةُ للهِ تعالَى وللرَّسولِ ﷺ[15].
وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وقيلَ: هوَ الإسلامُ ونسبهُ إلَى ابنِ عبَّاسٍ وابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهم، ثمَّ أوردَ عنْ مجاهدٍ

تفسيرهُ للصِّراطِ بأنَّهُ الحقُّ، ثمَّ قالَ: وهذَا أشملُ ولَا منافاةَ بينهُ وبينَ مَا تقدَّمَ، ونسبَ إلَى أبِي العاليةَ تفسيرهُ للِّصراطِ المستقيمِ بأنَّهُ النبيُّ ﷺ وصاحبهُ منْ بعدهِ، وأنَّهُ ذكرَ ذلكَ للحسنِ فقالَ: صدقَ أبُو العاليةَ ونصحَ.

ثمَّ عقَّبَ علَى هذَا الذِي أوردهُ منَ الأقوالِ بقولهِ: وكلُّ هذهِ الأقوالِ صحيحةٌ، وهيَ متلازمةٌ، فإنَّ منِ اتَّبعَ النَّبيَّ ﷺ، واقتدَى باللَّذيْنِ منْ بعدهِ أبِي بكرٍ وعمرَ، فقدِ اتَّبعَ الحقَّ، ومنِ اتَّبعَ الحقَّ فقدِ اتَّبعَ الإسلامَ، ومنِ اتَّبعَ الإسلامَ فقدِ اتَّبعَ القرآنَ، وهوَ كتابُ اللهِ تعالَى وحبلهُ المتينُ، وصراطهُ المستقيمُ، فكلُّهَا صحيحةٌ يصدِّقُ بعضهَا بعضًا، وللهِ الحمدُ.

ثمَّ يتبعُ ابنُ كثيرٍ ذلكَ برأيِ الإمامِ الطبريِّ رحمهمَا اللهُ تعالَى الذِي رجَّحَ فيهِ منَ الأقوالِ بأنَّهُ التَّوفيقُ للثَّباتِ علَى مَا ارتضاهُ اللهُ ووفَّقَ لهُ منْ أنعمَ عليهمْ منَ النَّبيينَ والصدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ معَ بيانهِ لوجهِ كونهِ جامعًا لغيرهِ حيثُ قالَ: فقدْ وُفِّقَ للإسلامِ(16).

وتابعَ الإمامُ القرطبي ابنَ جريرٍ فِي التَّرجيحِ بالمرادِ بالصِّراطِ المستقيمِ، بأنَّهُ صراطُ النَّبيينَ والصدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ ونسبهُ إلَى جمهورِ المفسِّرينَ وعقبَ عليهِ بقولهِ: وجميعُ مَا قيلَ إلَى هذَا يرجعُ، فلَا معنَى لتعديدِ الأقوالِ واللهُ المستعانُ(17).

وقالَ ابنُ عاشورٍ: المرادُ بالصِّراطِ المستقيمِ المعارفُ الصَّالحاتُ كلُّهَا منِ اعتقادٍ وعملٍ بأنْ يوفِّقهمْ إلَى الحقِّ والتَّمييزِ بينهُ وبينَ الضَّلالِ علَى مقاديرِ استعدادِ النُّفوسِ وسعةِ مجالِ العقولِ النَّيِّرةِ والأفعالِ الصَّالحةِ، بحيثُ لَا

يعتريهمْ زيغٌ وشبهاتٌ فِي دينهمْ وهذَا أولَى ليكونَ الدُّعاءُ طلبُ تحصيلِ مَا ليسَ بحاصلٍ وقتَ الطَّلبِ، وإنَّ المرءَ بحاجةٍ إلَى هذهِ الهدايةِ فِي جميعِ شؤونهِ كلِّهَا حتَّى فِي الدَّوامِ علَى مَا هوَ متلبِّسٌ بهِ منَ الخيرِ للوقايةِ منَ التَّقصيرِ فيهِ أوِ الزَّيغِ عنهُ، والهدايةُ إلَى الإسلامِ لَا تقصرُ علَى ابتداءِ اتِّباعهِ وتقلُّدهِ بلْ هيَ مستمرَّةٌ باستمرارِ تشريعاتهِ وأحكامهِ بالنصِّ أوِ الاستنباطِ[18].

وقالَ ابنُ القيِّمِ: فإنَّ النَّاسَ قدْ تنوَّعتْ عباراتهمْ فيهِ وترجمتهمْ عنهُ بحسبِ صفاتهِ ومتعلِّقاتهِ وحقيقتهِ شيءٌ واحدٌ، وهوَ طريقُ اللهِ الذِي نصَّهُ لعبادهِ علَى ألسنِ رسلهِ وجعلهُ موصلًا لعبادهِ إليهِ، ولَا طريقَ لهمْ إليهِ سواهُ، بلْ الطُّرقُ كلُّهَا مسدودةٌ إلَّا هذَا، وهوَ إفرادهُ بالعبوديَّةِ وإفرادُ رسولهِ بالطَّاعةِ، فلَا يشركُ بهِ أحدًا فِي عبوديَّتهِ، ولَا يشركُ برسولهِ أحدًا فِي طاعتهِ، فيجرِّدُ التَّوحيدَ، ويجرِّدُ متابعةَ الرَّسولِ ﷺ.

وهذَا معنَى قولِ بعضِ العارفينَ: إنَّ السَّعادةَ والفلاحَ كلَّهُ مجموعٌ فِي شيئينِ: صدقُ محبَّتهِ، وحسنِ معاملتهِ.

وهذَا كلُّهُ مضمونُ شهادةِ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، فأيُّ شيءٍ فسَّرَ بهِ الصِّراطَ فهوَ داخلٌ فِي هذينِ الأصلينِ.

ونكتةُ ذلكَ وعقدهُ: أنْ تحبَّهُ بقلبكَ كلِّهُ، وترضيهِ بجهدكَ كلِّهُ، فلَا يكونُ فِي قلبكَ موضعٌ إلَّا معمورٌ بحبِّهِ، ولَا تكونُ لكَ إرادةٌ إلَّا متعلِّقةٌ بمرضاتهِ الأوَّلُ يحصلُ بالتَّحقيقِ بشهادةِ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ، والثَّانِي يحصلُ بالتَّحقيقِ بشهادةِ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وهذَا هوَ الهادِي، ودينُ الحقِّ وهوَ معرفةُ الحقِّ

والعملُ لهُ، وهوَ معرفةُ مَا بعثَ اللهُ بهِ رسلهُ والقيامُ بهِ، فقلْ ماَ شئتَ منَ العباراتِ التِي هذَا أحسنهَا وقطبُ رحاهَا[19].

فتبيَّنَ ممَّا سبقَ: أنَّ الصِّراطَ المستقيمَ هوَ عبادةُ اللهِ تعالَى وحدهُ لَا شريكَ لهُ، وعبادتهُ تتضمَّنُ كمالَ الحبِّ معَ كمالِ الذلِّ لهُ سبحانهُ، فكلُّ مَا تتقرَّبُ بهِ، وكلُّ فعلٍ يفعلهُ العبدُ يرجُو بهِ ثوابًا، وكلُّ تركٍ يتركهُ يخافُ منْ تركهِ عقابًا، فإنَّ هذَا داخلٌ فِي معنَى الصِّراطِ المستقيمِ.

وخلاصةً: صراطُ اللهِ المستقيمِ هوَ: الإئتمارُ بأوامرِ اللهِ تعالَى والانتهاءُ بنواهيهِ، رغبًا ورهبةً.

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/١٤٧.
(2) الكشف والبيان، الثعلبي ٤/١٨٩.
(3) زاد المسير ٢/٧٦.
(4) التحرير والتنوير ٨/٦٢.
(5) النكت والعيون، الماوردي ٢/١٨٨.
(6) التحرير والتنوير ٨/١٧٢.
(7) أخرجه أحمد في مسنده، ٧/٤٣٦، رقم ٤٤٣٧.
وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان رقم ٦.
(8) مدارج السالكين، ابن القيم ١/٣٧-٣٨.
(9) التحرير والتنوير ٨/١٩٧-١٩٨.
(10) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/٤٢. (لا يعتمدُ كثيرا على تفسير ابن عجيبة فمرجعُ تفسيره هو صوفي إشاريٌّ وهو ككتاب الألوسي، وبما قلتُ، قال الشيخ مساعد الطيَّار، وبهِ قال الدكتور الطرهوني وغيره).
(11) المصدر السابق ٣/٨٩.
(12) جامع البيان، الطبري ٢١/٦١٠.
(13) النكت والعيون، الماوردي ١/٥٩.
(14) جامع البيان، الطبري ١/١٧٠.
(15) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/١٣٧.
(16) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/١٣٩.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١/١٧١.
(17) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/١٤٩.
(18) التحرير والتنوير ١/١٩١.
(19) بدائع الفوائد ٢/٤٠.

الصِّراطُ جسرٌ ممدودٌ علَى متنِ جهنَّمَ:

والصِّراطُ هوَ: جسرٌ ممدودٌ علَى متنِ جهنَّمَ، والإيمانُ بهِ واجبٌ، وهوَ فرعٌ منَ الرُّكنِ الخامسِ منْ أركانِ الإيمانِ، ألَا وهوَ: الإيمانُ باليومِ الآخرِ، وعدمُ الإيمانِ بالصِّراطِ ينفِي عنْ صاحبهِ الإيمانَ باليومِ الآخرِ وبالتَّالِي هوَ غيرُ مؤمنٍ بالكلِّيَّةِ، لفقدهِ الرُّكنَ الخامسَ منَ أركانِ الإيمانِ، ولهذَا وجبَ علَى كلِّ مسلمٍ أنْ يُؤمنَ بهِ إيمانًا جازمًا، لَا شكَّ فيهِ، ويجبُ أنْ يؤمنَ أنَّ الصِّراطَ، وهوَ جسرٌ علَى جهنَّمَ، إذَا انتهَى النَّاسُ بعدَ مفارقتهمُ الموقفَ إلَى الظُّلمةِ التِي دونَ الصِّراطِ، كمَا قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنهَا: "إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: أينَ النَّاسُ يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسَّماواتِ؟ فقالَ: همْ فِي الظُّلمةِ دونَ الجسرِ"(1)، وقدْ بيّنَ السفارينِي رحمهُ اللهُ تعالَى: موقفَ الفرقِ منَ الصِّراطِ، وهلْ هوَ صراطٌ مجازيٌّ أمْ حقيقيٌّ؟ ثمَّ قرَّرَ مذهبَ أهلِ الحقِّ الذِي دلَّتْ عليهِ النُّصوصُ فيهِ، فقالَ: اتَّفقتِ الكلمةُ علَى إثباتِ الصِّراطِ فِي الجملةِ، لكنَّ أهلَ الحقِّ يثبتونهُ علَى ظاهرهِ منْ كونهِ جسراً ممدوداً علَى متنِ جهنَّمَ، أحدّ منَ السَّيفِ وأدقُّ منَ الشَّعرِ، وأنكرَ هذَا الظَّاهرُ القاضِي عبدُ الجبَّارِ المعتزلِي، وكثيرٌ منْ أتباعهِ زعماً منهمْ أنَّهُ لَا يُمكنُ عبورهُ، وإنْ أمكنَ ففيهِ تعذيبٌ، ولَا عذابَ علَى المؤمنينَ والصُّلحاءِ يومَ القيامةِ، وإنَّمَا المرادُ طريقُ الجنَّةِ المشارِ إليهِ بقولهِ تعالَى: "سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ" [محمد: 5]، وطريقُ النَّارِ المشارِ إليهِ بقولهِ تعالَى: "فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ" [الصافات: 23]، ومنهمْ منْ حملهُ علَى الأدلَّةِ الواضحةِ والمباحاتِ والأعمالِ الرَّديئةِ التِي يسألُ عنهاَ ويؤاخذُ بهاَ، وكلُّ هذَا باطلٌ وخرافاتٌ لوجوبِ حملِ

النُّصوصِ علَى حقائقهَا، وليسَ العبورُ علَى الصِّراطِ بأعجبَ منَ المشيِ علَى الماءِ أوِ الطَّيرانِ فِي الهواءِ، أوِ الوقوفِ فيهِ، وقدْ أجابَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ سؤالِ حشرِ الكافرِ علَى وجههِ بأنَّ القدرةَ صالحةٌ لذلكَ، وأنكرَ العلَّامةُ القرافِي كونَ الصِّراطَ أدقُّ منَ الشَّعرِ وأحدُّ منَ السَّيفِ، وسبقهُ إلَى ذلكَ شيخهُ العزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ، والحقُّ أنَّ الصِّراطَ وردتْ بهِ الأخبارُ الصَّحيحةُ وهوَ محمولٌ علَى ظاهرهِ بغيرِ تأويلٍ كمَا ثبتَ فِي (الصَّحيحينِ) و(المسانيدِ) و(السُّننِ الصِّحاحِ) ممَّا لَا يحصَى إلَّا بكلفةٍ منْ أنَّهُ جسرٌ مضروبٌ علَى متنِ جهنَّمَ يمرُّ عليهِ جميعُ الخلائقِ، وهمْ فِي جوازهِ متفاوتونَ.

وذكرَ القرطبيُّ مذهبَ القائلينَ بمجازيةِ الصِّراطِ، المأوّلينَ للنُّصوصِ المصرِّحةِ بهِ، فقالَ: ذهبَ بعضُ منْ تكلَّمَ علَى أحاديثِ وصفِ الصِّراطِ بأنَّهُ أدقُّ منَ الشَّعرِ، وأحدُّ منَ السَّيفِ أنَّ ذلكَ راجعٌ إلَى يسرهِ وعسرهِ علَى قدرِ الطَّاعاتِ والمعاصِي، ولَا يعلمُ حدودَ ذلكَ إلَّا اللهُ تعالَى: لخفائهَا وغموضهَا، وقدْ جرتِ العادةُ بتسميةِ الغامضِ الخفيِّ دقيقًا، فضربَ المثلَ بدقَّةِ الشَّعرِ، فهذَا منْ هذَا البابِ...

ثمَّ ردَّ عليهمْ مقالتهمْ، فقالَ: ماَ ذكرهُ هذَا القائلُ مردودٌ بمَا ذكرنَا منَ الأخبارِ وأنَّ الإيمانَ يجبُ بذلكَ، وأنَّ القادرَ علَى إمساكِ الطَّيرِ فِي الهواءِ قادرٌ علَى أنْ يمسكَ عليهِ المؤمنَ، فيجريهِ أوْ يمشيهِ، ولَا يعدلُ عنِ الحقيقةِ إلَى المجازِ إلَّا عندَ الاستحالةِ، ولَا استحالةَ فِي ذلكَ للآثارِ المرويَّةِ فِي ذلكَ، وبيانهَا بنقلِ الأئمَّةِ العدولِ، ومنْ لمْ يجعلِ اللهُ لهُ نوراً فمَا لهُ منْ نورٍ[2].

---

(1) رواه مسلم (315).

(2) القيامة الكبرى لعمر بن سليمان الأشقر - ص 279. باختصارٍ وتصرف.

صفةُ الصِّراطِ الذِي هوَ جسرٌ علَى متنِ جهنَّمَ:

وردتْ فِي السنَّةِ أحاديثُ صحيحةٌ فِي صفةِ الصِّراطِ، ووصفتهُ وصفاً جلياً فينبغِي علَى المسلمِ أنْ يعرفَ هذهِ الصِّفاتِ ويستشعرهَا فِي فؤادهِ حتَّى ينجُو منْ عذابِ الجبَّارِ سبحانهُ وتعالَى وذلكَ بالوقوفِ عندَ أوامرهِ واجتنابِ سخطهِ وغضبهِ، وهذهِ الصِّفاتُ هيَ:

1) الصِّراطُ زلقٌ: وذلكَ منْ حديثِ أبِي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ: قلنَا مَا الجسرُ يَا رسولَ اللهِ قالَ: "مدحضةٌ مزلَّةٌ"[1][2].

قالَ أبُو إسحاقَ الحربِي: والجِسرُ: مَا عُبرَ عليهِ منْ قنطرةٍ ونحوهَا[3].

وقالَ العينِي: مدحضةٌ منْ دُحضتْ رجلهُ دحضاً زلقتْ، ودحضتِ الشَّمسُ عندَ كبدِ السَّماءِ: زالتْ، ودحضتْ حجَّتهُ بطلتْ، مزلَّةٌ: منْ زلَّتِ الأقدامُ سقطتْ، وقالَ الكرمانِي: بكسرِ الزَّاي وفتحهَا[4]، قالَ ابنُ الجوزِي، دحضَ: زلقَ[5]، وقالَ الفيُّومِي: دحضَ الرَّجلُ: زلقَ[6].

2) ولهُ جنبتانِ أوْ حافتانِ: كمَا فِي حديثِ أبِي بكرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "يُحملُ النَّاسُ علَى الصِّراطِ يومَ القيامةِ فتتقادعُ بهمْ جنبتَا الصِّراطِ تقادعَ الفراشِ فِي النَّارِ[7].

قالَ ابنُ الأثيرِ: قولهُ: "فتتقادعُ بهمْ جنبتَا الصِّراطِ تقادعَ الفراشِ فِي النَّارِ" أي تسقطهمْ فيهَا بعضهمْ فوقَ بعضٍ، وتقادعَ القومُ: إذَا ماتَ بعضهمْ إثرَ بعضٍ[8].

3) ولحافتِي الصِّراطِ كلاليبَ: وذلكَ منْ حديثِ أبِي هريرةَ وحذيفةَ رضيَ اللهُ عنهمَا عندَ مسلمٍ عنِ النبيِّ ﷺ: "وفِي حافتِي الصِّراطِ كلاليبَ معلَّقةٌ مأمورةٌ بأخذِ منْ أُمرتْ بهِ[9].

ومنْ حديثِ أبِي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ: "قلنَا يَا رسولَ اللهِ مَا الجسرُ؟ قالَ: "مدخضةٌ مزلَّةٌ، عليهِ خطاطيفُ وكلاليبُ، وحسكةٌ مفلطحةٌ لهَا شوكةٌ عقيفاءُ تكونُ بنجدٍ يقالُ لهَا السَّعدانُ""[10].

ومنْ حديثِ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ: "وبهِ كلاليبُ مثلَ شوكِ السَّعدانِ أمَّا رأيتمْ شوكَ السَّعدانِ؟ قالُوا: بلَى يَا رسولَ اللهِ قالَ: فإنَّهَا مثلَ شوكِ السَّعدانِ، غيرَ أنَّ لَا يعلمُ قدرَ عظمهَا إلَّا اللهُ[11].

قالَ العينِي: كلاليبُ جمعُ كلُّوبٍ بفتحِ الكافِ وهوَ حديدةٌ معطوفةُ الرَّأسِ يعلَّقُ عليهَا اللَّحمُ، وقيلَ: الكلَّوبُ الذِي يتناولُ بهِ الحدَّادُ الحديدَ منَ النَّارِ، كذَا فِي كتابِ ابنِ بطَّالٍ.

وقالَ أيضاً رحمهُ اللهُ: خطاطيفُ: جمعُ خطَّافٍ بالضمِّ وهوَ الحديدةُ المعوجَّةُ كالكلُّوبِ يُختطفُ بهَا الشَّيءُ[12].

وقولهُ: حسكةٌ: بفتحاتٍ وهيَ شوكةٌ صلبةٌ معروفةٌ.

وقالَ صاحبُ التَّهذيبِ: الحسكُ نباتٌ لهُ ثمرٌ خشنٌ يتعلَّقُ بأصوافِ الغنمِ، وربَّمَا اتُّخذَ مثلهُ منْ حديدٍ وهوَ منْ آلاتِ الحربِ، مفلطحةٌ: أي عريضةٌ، عقيفاءُ: معوجَّةٌ[13].

وقولهُ شوكُ السَّعدانِ: قالَ الحافظُ: جمعُ سعدانةٍ وهوَ نباتٌ ذُو شوكٍ يُضربُ بهِ المثلُ فِي طيبِ مرعاهُ قالُوا: مرعَى ولَا كالسَّعدانِ، وقولهُ: أمَا رأيتمْ شوكَ السَّعدانِ: هوَ استفهامُ تقريرٍ لاستحضارِ الصُّورةِ المذكورةِ[14].

قالَ الزَّينُ بنُ المنيرِ: تشبيهُ الكلاليبِ بشوكِ السَّعدانِ خاصٌ بسرعةِ اختطافهَا وكثرةِ الانتشابِ فيهَا معَ التحرُّزِ والتصوُّنِ تمثيلاً لهمْ بمَا عرفوهُ فِي الدُّنيَا وألفوهُ بالمباشرةِ[15].

وقولهُ: "لَا يعلمُ قدرَ عظمهَا إلَّا اللهُ" فِي روايةِ مسلمٍ: لَا يعلمُ مَا قدرَ عظمهَا إلَّا اللهُ.

قالَ الجوهريُّ، عظمَ الشَّيءِ عظماً: أيْ كبرَ فتقديرهُ لَا يعلمُ قدرَ كبرهَا إلَّا اللهُ وعظمَ الشَّيءِ أكثرهُ[16].

4) والصِّراطُ مثلَ حدِّ الموسَى أو حدِّ السَّيفِ: كمَا فِي حديثِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ وفيهِ يقولُ النبيُّ ﷺ: "ويمرُّونَ علَى الصِّراطُ والصِّراطُ كحدِّ السَّيفِ[17].

ومنْ حديثَ سليمانَ، وفيهِ: ويوضحُ الصِّراطُ مثلَ حدِّ الموسَى، فتقولُ الملائكةُ: منْ يجيزُ علَى هذَا؟ فيقولُ: منْ شئتُ منْ خلقِي: فيقولونَ: مَا عبدناكَ حقَّ عبادتكَ[18][19].

(1) رواه البخاري (7439) واللفظ له، ومسلم (183).
(2) ((فتح الباري)) (421/13).
(3) (غريب الحديث لأبي إسحاق إبراهيم الحربي 3/1 باب جسر).
(4) ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني أبي محمد بن محمود بن أحمد العيني)) (320/20).
(5) ((غريب الحديث لابن الجوزي)) (326/1).
(6) ((المصباح المنير)) (190).
(7) رواه أحمد (43/5) (20457)، والطبراني في ((المعجم الصغير)) (142/2) (929)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (837). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (362/10): رجاله رجال الصحيح، وقال السيوطي في ((البدور السافرة)) (251): إسناده صحيح.
(8) النهاية لابن أثير (24/4).
(9) رواه مسلم (195).
(10) رواه البخاري (7439) واللفظ له، ومسلم (183).
(11) رواه البخاري (7437)، ومسلم (182).
(12) (عمدة القاري)(316/20)
(13) ((عمدة القاري)) (320/20).
(14) ((فتح الباري كتاب الرقاق)) (453/11).
(15) ذكره الحافظ في (الفتح)(453/11).
(16) ((عمدة القاري)) (98/19). كتاب الرقاق باب الصراط جسر جهنم (453/11).
(17) رواه الحاكم (408/2). وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ، ووافقه الذهبي، وقال السيوطي في ((البدور السافرة)) (158): طريقه صحيحة متصلة رجالها ثقات، وصححه الألباني في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (3629).
(18) رواه الحاكم (629/4). وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وقال ابن رجب في ((التخويف من النار)) (ص: 224): المعروف أنه موقوف على سلمان الفارسي من قوله، وأورده الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (941) وإسناده صحيح موقوفا وله حكم الرفع.
(19) المصدر: صفة الصراط لحاي الحاي – ص 14.

وختامًا قالَ الإمامُ السَّعديُ رحمهُ اللهُ تعالَى: الذِّكرُ للهِ الذِي أمرَ بهِ، وأثنَى علَى الذَّاكرينَ، وذكرَ جزاءهمْ العاجلَ والآجلَ، هوَ: عندَ الإطلاقِ، يشملُ جميعَ مَا يقرِّبُ إلَى اللهِ: منْ عقيدةٍ، أوْ فكرٍ نافعٍ، أوْ خلُقٍ جميلٍ، أوْ عملٍ قلبيٍّ أوْ بدنيٍّ، أوْ ثناءٍ علَى اللهِ، أوْ تسبيحٍ ونحوهِ، أوْ تعلُّمِ أحكامِ الشَّرعِ الأصوليَّةِ والفروعيَّةِ، أوْ مَا يعينُ علَى ذلكَ، فكلُّهُ داخلٌ فِي ذكرِ اللهِ.

~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بالذِّكرِ فِي كتابهِ الكريمِ فِي كثيرٍ منَ المواقعِ وأثنَى علَى الذَّاكرينَ، وذكرَ ثوابهمُ الجزيلَ فِي الدُّنيَا والأخرَى، وكذلكَ توعَّدَ المعرضينَ عنِ الذِّكرِ بالعقابِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، فقالَ جلَّ منْ قائلٍ: "وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ"[آل عمران: 41].

وقالَ سبحانهُ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42)"[الأحزاب: 41، 42].

وقال تعالى: "فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا (200)"[البقرة: 198: 200].

وقال جلَّ جلالهُ: "فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ"[النساء: 103].
~~~~~~~~~~

وأثنَى سبحانهُ وتعالَى الذَّاكرينَ بقولهِ:

"وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" [الأحزاب: 35].

وقالَ تعالَى: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ" [آل عمران: 190: 191].

وقالَ تعالَى: "رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ" [النور: 37].

وتوعَّدَ سبحانهُ المعرضينَ عنِ الذِّكرِ بقولهِ: "فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" [الزمر: 22].

وقالَ تعالَى: "وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ" [الزخرف: 36].

وقال سبحانهُ: "اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ" [المجادلة: 19].

وقال جلّ علَا: "يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا" [النساء: 142].

المعنَى اللُّغوِي للذِّكرِ:

(ذ ك ر) الذَّالُ والكافُ والرَّاءُ أصلانِ، عنهمَا يتفرَّعُ كَلِمُ البابِ.

فالأصلُ الأوَّلُ: الذَّكرُ (بالفتحِ): خلافُ الأنثَى، والأصلُ الآخرُ: الذِّكرُ (بالكسرِ): الحفظُ للشَّيءِ، تذكَّرهُ، والذِّكرُ: جريُ الشَّيءِ علَى اللِّسانِ، وذكرتَ الشَّيءَ: خلافَ نسيتهُ، ثمَّ حُملَ عليهِ

الذِّكرُ باللِّسانِ، ويقولونَ: اجعلهُ منكَ علَى ذُكرٍ، بضمِّ الذَّالِ، أي: لَا تنسهُ، والذِّكرُ: العلاءُ والشَّرفُ، وهوَ قياسُ الأصلِ. فعلَى الأصلِ الثَّانِي (الذِّكرُ) بالكسرِ لهُ معنيانِ: أحدهمَا: التلفُّظُ بالشَّيءِ، والثَّانِي: إحضارهُ فِي الذِّهنِ، بحيثُ لَا يغيبُ عنهُ، وهوَ ضدُّ النِّسيانِ، و(الذُّكرُ) بالضمِّ للمعنَى الثَّانِي لَا غيرَ، أي: أنَّ الذِّكرَ بالكسرِ مَا يكونُ باللِّسانِ، وبالضمِّ مَا يكونُ بالجنانِ.

وإذَا أريدَ بالذِّكرِ الحاصلِ بالمصدرِ جمعَ علَى (أذكارٍ) وهوَ الإتيانُ بألفاظٍ وردَ التَّرغيبُ فيهَا، ويُطلقُ ويُرادُ بهِ المواظبةُ علَى العملِ بمَا أوجبَ أوْ نُدبَ إليهِ، كالتِّلاوةِ، وقراءةِ الأحاديثِ، ودرسِ العلمِ، والنَّفلِ بالصَّلاةِ[1].

المعنَى الاصطلاحِي للذِّكرِ:

قالَ ابنُ علَّانَ: أصلُ وضعِ الذِّكرِ هوَ مَا تعبَّدنَا الشَّارعُ بلفظهِ، ممَّا يتعلَّقُ بتعظيمِ الحقِّ، والثَّناءِ عليهِ[2].

ونَجدُ أنَّ الذِّكرَ عندَ ابنِ تيميَّةَ واسعُ الدَّلالةِ؛ إذْ هوَ عندهُ: كلُّ مَا تكلَّمَ بهِ اللِّسانُ، وتصوَّرهُ القلبُ، ممَّا يقرِّبُ إلَى اللهِ منْ تعلُّمِ علمٍ، وتعليمهِ، وأمرٍ بمعروفٍ، ونهيٍ عنْ منكرٍ فهوَ منْ ذكرِ اللهِ؛ ولهذَا منِ اشتغلَ بطلبِ العلمِ النَّافعِ بعدَ أداءِ الفرائضِ، أوْ جلسَ مجلسًا يتفقَّهُ، أوْ يفقهُ فيهِ الفقهَ الذِي سمَّاهُ اللهُ ورسولهُ فقهًا، فهذَا أيضًا منْ أفضلِ ذكرِ اللهِ[3].

وعرَّفهُ ابنُ القيِّمِ فِي الوابلِ الصيِّبِ بقولهِ: الذِّكرُ ثناءٌ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ بجميلِ أوصافهِ وآلائهِ وأسمائهِ[4].

والمقصودُ: أنَّ الذِّكرَ فِي الاصطلاحِ يُستعملُ بمعنَى ذكرِ العبدِ لربِّهِ عزَّ وجلَّ، سواءٌ بالإخبارِ المجرَّدِ عنْ ذاتهِ أو صفاتهِ أو أفعالهِ أو أحكامهِ، أو بتلاوةِ كتابهِ، أو بمسألتهِ ودعائهِ، أو

بإنشاءِ الثَّناءِ عليهِ بتقديسهِ، وتمجيدهِ وتوحيدهِ وحمدهِ وشكرهِ، وتعظيمهِ، ويستعملُ الذِّكرُ اصطلاحًا بمعنَى أخصَّ منْ ذلكَ، فيكونُ بمعنَى إنشاءِ الثَّناءِ بمَا تقدَّمَ دونَ سائرِ المعانِي الأخرَى المذكورةِ، ويشيرُ إلَى الاستعمالِ بهذَا المعنَى الأخصِّ قولهُ تعالَى: " وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ "[العنكبوت: 45].

فبعدَ أنْ ذكرَ الصَّلاةَ وهيَ ذكرٌ بالمعنَى العامِ، قالَ بعدهَا: (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) أي: بالمعنَى الأخصِّ.

ويلحظُ أنَّ الذِّكرَ اصطلاحًا مخصوصٌ بذكرِ العبدِ ربَّهُ عزَّ وجلَّ، بالثَّناءِ عليهِ.

ووردتْ مادَّةُ (ذكر) فِي القرآنِ الكريمِ (242) مرَّةً[5].

وجاءَ الذِّكرُ فِي القرآنِ علَى ثمانيةِ أوجهٍ:

الأوَّلُ: الطَّاعةُ والعملُ الصَّالحُ، قالَ تعالَى: " فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ "[البقرة:152]، يعنِي: اذكرونِي بالطَّاعةِ وأطيعونِي، أذكركمْ بخيرٍ.

الثَّانِي: الحفظُ، قالَ تعالَى: " وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ "[البقرة: 63]، يعنِي: احفظُوا مَا فِي التَّوراةِ.

الثَّالثُ: التَّوحيدُ، قالَ تعالَى: " وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ "[طه:124]، يعنِي: عنْ توحيدهِ سبحانهُ، وقالَ القرطبِي: ومنْ أعرضَ عنْ ذكرِي أي دينِي ...[6].

الرَّابعُ: الشَّرفُ، قالَ تعالَى: " لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ "[الأنبياء: 10]، يعنِي: شرفكمْ.

قالَ الطَّبرِي: وقالَ آخرونَ: بلْ عنيَ بالذِّكرِ فِي هذَا الموضعِ: الشَّرفُ، وقالُوا: معنَى الكلامِ: لقدْ أنـزلنَا إليكمْ كتابًا فيهِ شرفكمْ، قالَ أبُو جعفرٍ: وهذَا القولُ الثَّانِي أشبهُ بمعنَى الكلمةِ، وهوَ نحوُ ممَّا قالَ سفيانُ الذِي حكينَا عنهُ، وذلكَ أنَّهُ شرفٌ لمنْ اتَّبعهُ وعملَ بمَا فيهِ(7).

الخامسُ: الوعظُ، قالَ تعالَى: " فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ "[الأنعام: 44]، يعنِي: مَا وعظُوا بهِ.

السَّادسُ: الخبرُ، قالَ تعالَى: " وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا"[الكهف: 83]، يعنِي: خبرًا.

السَّابعُ: الوحيُ، قالَ تعالَى: " أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ۚ"[ص: 8]، يعنِي: الوحيُ.

الثَّامنُ: البيانُ، قالَ تعالَى: "ص ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ"[ص: 1]، يعني: ذي البيان(7).

قالَ القرطبِي: قالَ ابنُ عبَّاسٍ ومقاتلٌ: معنَى ذِي الذِّكرِ ذِي البيانِ(8)(9).

الألفاظُ ذاتُ صلةٍ بالذِّكرِ:

التَّسبيحُ:

التَّسبيحُ لغةً:

تدلُّ مادَّةُ (سبح) علَى التَّنزيهِ والتَّبرئةِ منَ السُّوءِ.

ومعنَى: (سُبحانَ اللهِ): تنزيهُ اللهِ تعالَى وبراءتهُ منَ السُّوءِ(10).

التَّسبيحُ اصطلاحًا:

التَّنزيهُ والتَّعظيمُ للهِ تعالَى(11).

الصَّلةُ بينَ التَّسبيحِ والذِّكرِ:

أنَّ الذِّكرَ أعمُّ منَ التَّسبيحِ، والتَّسبيحُ أخصُّ منَ الذِّكرِ، فكلُّ تسبيحٍ ذكرٌ وليسَ العكسُ.

الدُّعاءُ:

الدُّعاءُ لغةً:

مأخوذٌ منْ مادَّةِ (د ع و) التِي تدلُّ فِي الأصلِ علَى إمالةِ الشَّيءِ إليكَ بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منكَ، ومنْ هذَا الأصلِ الدُّعاءُ فِي معنَى الرَّغبةِ إلَى اللهِ عزَّ وجلَّ، وهوَ واحدُ الأدعيةِ، والفعلُ منْ ذلكَ دعاَ يدعُو، والمصدرُ الدُّعاءُ والدَّعوَ[12].

الدُّعاءُ اصطلاحًا:

هوَ سؤالُ العبدِ ربَّهُ حاجتهُ، وقدْ سبقَ تعريفُهُ فِي أبوابٍ سابقةٍ.

الصِّلةُ بينَ الدُّعاءِ والذِّكرِ:

بينهمَا عمومٌ وخصوصٌ، فكلُّ دعاءٍ ذكرٌ للهِ، وليسَ كلُّ ذكرٍ دعاءٌ.

قالَ ابنُ القيِّمِ: إنَّ الدُّعاءَ هوَ ذكرٌ للمدعوِّ سبحانهُ، متضمِّنٌ للطَّلبِ منهُ والثَّناءِ عليه بأسمائهِ وأوصافهِ، فهوَ ذكرٌ وزيادةٌ، كمَا أنَّ الذِّكرَ سمِّيَ دعاءً لتضمُّنهِ الطَّلبَ، كمَا قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "أفضلُ الدُّعاءِ الحمدُ للهِ"، فسمَّى الحمدَ للهِ دعاءً، وهوَ ثناءٌ محضٌ؛ لأنَّ الحمدَ يتضمَّنُ الحبَّ والثَّناءَ، والحبُّ أعلَى أنواعِ الطَّلبِ للمحبوبِ، فالحامدُ طالبٌ لمحبوبهِ، فهوَ أحقُّ أنْ يسمَّى داعيًا منَ السَّائلِ الطَّالبِ منْ ربِّهِ حاجةً مَا[13].

ويندرجُ تحتَ مسمَّى الذِّكرِ كلُّ قولٍ باللِّسانِ يُرادُ بهِ القربةَ للهِ سبحانهُ وتعالَى كالاستغفارِ والتهليلِ والصَّلاةِ علَى الرَّسولِ وقراءةِ القرآنِ وغيرهِ، كمَا يندرجُ تحتَ مسمَّى الذِّكرِ كلُّ الأعمالِ البدنيَّةِ التِي يرادُ بها القربةُ إلَى اللهِ تعالَى كالصَّلاة والجهادِ والحجِّ وغيرهِ، كمَا يندرجُ تحتَ مسمَّى الذكرِ كلُّ الأعمالِ القلبيَّةِ التِي يرادُ بهَا وجه اللهِ تعالَى كالتَّفكُّرِ فِي خلقِ السَّمواتِ والأرضِ وغيرهِ، ونخلصُ منْ هذَا المبحثِ أنَّ الذِّكرَ كمَا عرَّفهُ السَّعدِي: عندَ الإطلاقِ، يشملُ جميعَ مَا يقرِّبُ إلَى اللهِ: منْ عقيدةٍ، أوْ فكرٍ نافعٍ، أوْ خلُقٍ جميلٍ، أوْ عملٍ قلبيٍّ أوْ بدنيٍّ، أوْ ثناءٍ علَى اللهِ، أوْ تسبيحٍ ونحوهِ، أوْ تعلُّمِ أحكامِ الشَّرعِ الأصوليَّةِ والفروعيَّةِ، أوْ مَا يعينُ علَى ذلكَ، فكلُّهُ داخلٌ فِي ذكرِ اللهِ.

---

(1) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩٤/١٠ ـ ومقاييس اللغة، ابن فارس ٣٥٨/٢ ـ وتاج العروس، الزبيدي ٣٨٧/١١.
(2) الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية ٣٩٦/١.
(3) مجموع فتاوى ابن تيمية ٦٦١/١٠.
(4) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٨٩.
(5) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٧٠ـ ٢٧٥..
(6) تفسير القرطبي.
(7) تفسير الطبري.
(8) تفسير القرطبي.
(9) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن، مقاتل بن سليمان، ص٥١ـ ٥٥، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢١٧ـ ٢٢٠، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٣٠١ـ ٣٠٥.
(10) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١٢٥/٣، لسان العرب، ابن منظور ١٩١٤/٣.
(11) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٢٢٣، لسان العرب، ابن منظور ٤٧٢/٢.
(12) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢٨٠/٢.
(13) بدائع الفوائد ٩/٣.

الذِّكرُ المطلقُ والذِّكرُ المقيَّدُ:

إنَّ الأذكارَ تنقسمُ إلَى قسمينِ:

أذكارٌ مطلقةٌ وأذكارٌ مقيَّدةٌ، وجمعَ ذلكَ قولهُ تعالَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً" [الأحزاب:41-42]**، فأطلقَ الذِّكرَ بقولهِ (ذِكْرًا كَثِيرًا) وقيَّدهُ فِي الثَّانيةِ بقولهِ (بُكرةً وأصيلًا).**

فالذِّكرُ المطلقُ أنْ تذكرَ اللهَ تعالَى علَى كلِّ حالٍ بلَا وقتٍ محدَّدٍ ولَا وصفٍ محدَّدٍ ولَا مكانٍ محدَّدٍ، ويكونُ ذلكَ قائماً أوقاعداً أوعلَى جنبٍ، كمَا قالَ اللهُ تعالَى: "الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ" [آل عمران: 191]**.**

وأخرجَ مسلمٌ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ تعالَى عنهَا قالتْ: كانَ النبيُّ ﷺ يذكرُ اللهَ علَى كلِّ أحيانهِ[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ[2].

وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَحَبّ الكَلاَمِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لاَ يَضُرّكَ بِأَيّهِنّ بَدَأْتَ[3].

وَعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ"[4].

وكلُّ مَا سبقَ منَ الأذكارِ التِي ندبَ لهَا رسولُ اللهِ ﷺ لمْ تقيَّدْ بزمانٍ ولَا مكانٍ ولَا حالٍ، فهيَ أذكارٌ مطلقةٌ، تُذكرُ فِي كلِّ وقتٍ وعلَى أيِّ حالٍ.

وأمَّا الذِّكرُ المقيَّدُ فهوَ علَى أربعةِ أقسامٍ:

1) مقيَّدٌ بزمانٍ.

2) مقيَّدٌ بمكانٍ.

3) مقيَّدٌ بعددٍ.

4) مقيَّدٌ بحالٍ.

وهذَا التَّقييدُ قيَّدهُ الشَّارعُ، فيُندبُ التقيُّدُ بهِ، لَا علَى وجهِ الوجوبِ.

فأوَّلهُ المقيَّدُ بزمانٍ: كأذكارِ الصَّباحِ والمساءِ، فأمَّا أذكارُ الصَّباحِ قُيِّدَ وقتهَا منْ طلوعِ الفجرِ إلَى شروقِ الشَّمسِ ومنهمْ منْ يرَى أنَّهُ إلَى وقتِ الضُّحَى، وأذكارُ المساءِ منَ العصرِ إلَى المغربِ ومنهمْ منْ يرَى أنَّهُ إلَى ثلثِ اللَّيلِ، والأمرُ فِي هذَا واسعٌ، لكنَّ الصَّحيحَ الرَّاجحَ أنَّهُ قبلَ طلوعِ الشَّمسِ وقبلَ الغروبِ، استنادًا لقولهِ تعالَى: "وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ"[ق: 39]، وقولهُ تعالَى: "وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ"[طه: 130]، وبهِ قالَ ابنُ القيِّمِ: قالَ تعالَى: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)، وهذَا تفسيرُ مَا جاءَ فِي الأحاديثِ: منْ قالَ كذَا وكذَا حينَ يصبحُ، وحينَ يُمسِي، أنَّ المرادَ بهِ: قبلَ طلوعِ الشَّمسِ، وقبلَ غروبهَا وأنَّ محلَّ ذلكَ مَا بينَ الصُّبحِ وطلوعِ الشَّمسِ، وَمَا بينَ العصرِ والغروبِ، وقالَ تعالَى: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)[غافر: 55]، والإبكارُ أوَّلُ النَّهارِ، والعشيِّ آخرهُ، وأنَّ محلَّ هذهِ الأذكارِ بعدَ الصُّبحِ، وبعدَ العصرِ[5].

منْ ذلكَ مَا رواهُ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي

البَارِحَةَ، قَالَ: "أَمَا لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ تَضُرَّكَ"(6).

هنَا قيَّدَ رسولُ اللهِ ﷺ هذَا الذِّكرَ بزمانٍ محدَّدٍ وهوَ المساءُ.

والثَّانِي المقيَّدُ بمكانٍ: كأذكارِ دخولِ المسجدِ والخروجِ منهُ، الخ... منْ ذلكَ مَا رواهُ أَبُو حُمَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (أَوْ عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ، فَلْيَقُلِ: اللَّهمَّ افْتَحْ لِي أبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ، فَلْيَقُل: اللَّهمَّ إِنِّي أسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ"(7). وهنَا قيَّدَ رسولُ اللهِ ﷺ هذَا الذِّكرَ بمكانٍ ألَا وهوَ المسجدُ.

والثَّالثُ المقيَّدُ بعددٍ: منْ ذلكَ مَا رواهُ أبُو هريرةَ قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ:"مَنْ قالَ حِينَ يُصبِحُ و حِينَ يُمسِي: سُبحانَ اللهِ العظيمِ و بِحمدِهِ، مِائةَ مَرَّةٍ، لمْ يأتِ أحدٌ يومَ القِيامةِ بأفْضلَ مِمَّا جاء به، إلَّا أحَدٌ قال مِثْلَ ذلِكَ، وزادَ عليْه"(8). وهنَا قيَّدَ رسولُ اللهِ ﷺ هذَا الذِّكرَ بعددٍ وزمانٍ كمَا هوَ واضحٌ.

والرَّابعُ المقيَّدُ بحالٍ: كالأذكارِ حالَ المرضِ وغيرِهِ، ومنْ ذلكَ مَا رواهُ كعبُ بنُ مالكٍ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: "إذا وجَد أحدُكم ألمًا فلْيضَعْ يدَه حيث يجِدُ ألمَه ثم ليقُلْ سبعَ مرات: أعوذُ بعزةِ اللهِ وقدرتِه على كلِّ شيءٍ مِن شرِّ ما أجِدُ وأُحاذِرُ"(9).

وهنَا قيَّدَ رسولُ اللهِ ﷺ هذَا الذِّكرَ بحالِ المرضِ والعددِ.

(1) أخرجه مسلم.
(2) أخرجه مسلم.
(3) أخرجه مسلم.
(4) متفق عليه.
(5) ملخصا من الوابل الصيب (200) ويراجع شرح الأذكار النووية لابن علان (3 / 74 ، 75 ، 100).
(6) أخرجه مسلم.
(7) أخرجه مسلم.
(8) صحيح الجامع.
(9) إتحاف الخيرة المهرة.

حكمُ ذكرِ اللهِ تعالَى:

حكمُ ذكرِ اللهِ تعالَى الوجوبُ، وذلكَ منْ حديثِ أبِي هريرةَ قالَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "مَا مِنْ قَوْمٍ يَقومونَ منْ مَجْلسٍ لاَ يَذكُرُون الله تَعالَى فِيهِ إلاَّ قَاموا عَنْ مِثلِ جيفَةِ حِمَارٍ وكانَ لَهُمْ حَسْرَةً"(1).

وقالَ أبو هريرةُ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "منْ قعدَ مقعدًا لمْ يَذكرِ اللهَ فيهِ، كانَ عليهِ منَ اللهِ تِرَةٌ، ومنِ اضطجعَ مضجعًا لَا يذكرِ اللهَ فيهِ، كانتْ عليهِ منَ اللهِ تِرَةٌ، ومَا مشَى أحدٌ ممشًى لمْ يذكرِ اللّهَ فيهِ، إلّا كانَ عليهِ منَ اللهِ تِرَةٌ"(2).

وعنهُ عنِ النبيِّ ﷺ قَالَ: "مَا جَلَسَ قَومٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكرُوا الله تَعَالَى فِيهِ ولَم يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهم فِيهِ إلاَّ كانَ عَلَيّهِمْ تِرةٌ، فإِنْ شاءَ عَذَّبَهُم، وإنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُم"(3).

فقولهُ ﷺ: (إنْ شاءَ عذَّبهمْ وإنْ شاءَ غفرَ لهمْ) يدلُّ بظاهرهِ علَى وجوبِ الذِّكرِ فِي كلِّ مجلسٍ، لأنَّ العذابَ والمغفرةَ لَا يكونُ إلَّا عنْ ذنبٍ، إمَّا بتركِ واجبٍ، وإمَّا بفعلِ محرَّمٍ، قالَ ابنُ علَّانَ رحمهُ اللهُ تعالَى: (فإنْ شاءَ عذَّبهمْ) جزاءُ مَا قصَّرُوا فِي ذلكَ بتركهَا (وإنْ شاءَ غفرَ لهمْ) ذلكَ النَّقصَ، وهذَا يقتضِي وجوبَ وجودِ الذِّكرِ والصَّلاةِ علَى النبيِّ ﷺ فِي المجلسِ، لأنَّهُ رُتِّبَ العذابَ علَى تركِ ذلكَ وهوَ آيةُ الوجوبِ، ولمْ أرَ منْ ذكرَ عنهُ القولَ بوجوبِ ذلكَ فِي كلِّ مجلسٍ، والحديثُ يقتضيهِ(4).

قالَ ابنُ دقيقِ العيدِ: وقدِ اتَّفقُوا علَى وجوبِ الصَّلاةِ علَى النبيِّ ﷺ فقيلَ: تجبُ فِي العمرِ مرَّةً وهوَ الأكثرُ(5).

وجاءَ فِي حاشيةِ العدوِي والفواكهِ الدَّوانِي علَى رسالةِ ابنِ أبِي زيدٍ القيروانِي: وحكمُ الصَّلاةِ والسَّلامِ علَى سيِّدنَا محمَّدٍ ﷺ الوجوبُ فِي العمرِ مرَّةً وكذلكَ الحمدُ للهِ، ومَا زادَ علَى ذلكَ فهوَ مستحبٌّ أوْ سنَّةٌ، وممَّا هوَ واجبٌ فِي العمرِ مرَّةً الاستغفارُ والتَّهليلُ والتَّسبيحُ والتَّكبيرُ والتَّعوُّذُ والحوقلةُ والدُّعاءُ للوالدينِ وللسَّلفِ الصَّالحِ.

وقدْ نظمَ ذلكَ بعضُ الفضلاءِ فقالَ:

هاكَ جميعَ مَا منَ القولِ يجبْ * فِي العمرِ مرَّةً ومَا زادَ استحبْ

بسملةٌ حمدلةٌ والهَيللـــــهْ * استغفرِ اللهَ، كذَا والحوقلـــــهْ

والحكمُ فِي التَّسبيحِ والتَّكبيـرِ * كذَا، وتعويذُ بذَا القديـــــــرِ

كذَا الصَّلاةُ معهَا السَّـــــلامُ * علَى الذِي اقتدي بهِ الأنـــــامُ

لولديكَ المؤمنينَ استغفـــرَا * حيَّينِ أو ميِّتينِ ذاكَ استظـهرَا

وجوبهُ فِي العمرِ مرَّةً، كمَــا * يجبْ مرَّةً لمنْ تقدّمَـــــــــا

منْ سلفٍ إنْ كانَ صالحًا، نقلْ * إمامُنَا العدوِي ذَا، فلتمثـــــلْ[6].

وقالَ تعالَى: "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" [الأحزاب: 56].

هنَا أمرَ اللهُ تعالَى أهلَ الإيمانِ بالصَّلاةِ علَى الرَّسولِ ﷺ بعدَ أنْ حدَّثَ عنْ نفسهِ وملَائكتهِ بأنهمْ يصلُّونَ عليهِ توكيدًا للأمرِ، والأمرُ فِي أصلهِ يقتضِي الوجوبَ ومعَ التَّوكيدِ يرتقِي إلَى أعلَى درجاتِ الوجوبِ.

قالَ القرطبِي: ولَا خلافَ فِي أنَّ الصَّلاةَ عليهِ فرضٌ فِي العمرِ مرَّةً، وفِي كلِّ حينٍ منَ الواجباتِ وجوبَ السُّننِ المؤكَّدةِ التِي لَا يسعُ تركهَا ولَا يغفلهَا إلَّا منْ لاَ خيرَ فيهِ[7].

ومنَ المعلومِ أنَّ الصَّلاةَ علَى الرَّسولِ ﷺ منْ جملةِ الأذكارِ فإنْ كانتِ الصَّلاةُ علَى الرَّسولِ ﷺ واجبةٌ فإنَّ ذكرَ اللهِ الخالصِ منْ بابِ أولَى، أي هوَ أولَى بالوجوبِ.

وقالَ تعالَى: "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلً" [النساء: 142].

قالَ السَّعدِي: (لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) لامتلاءِ قلوبهمْ منَ الرِّياءِ، فإنَّ ذكرَ اللهِ تعالَى وملازمتهُ لَا يكونُ إلَّا منْ مؤمنٍ ممتلئٌ قلبهُ بمحبَّةِ اللهِ وعظمتهِ(8).

فيكفِي المؤمنَ تخويفًا أنْ يكونَ مثلَ المنافقينَ، هذَا إنْ لمْ يكنْ منهمْ بتركِ مَا أُمرَ بهِ منَ الذِّكرِ.

والأوامرُ بالذِّكرِ علَى التَّفصيلِ فِي القرآنِ تكادُ تكونُ شاملةً لكلِّ الذِّكرِ، قالَ تعالَى:

1) "وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا" [الإسارء: 111].

2) وقالَ سبحانهُ: " فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ" [محمد: 19].

3) وقالَ جلَّ جلالهُ: "قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ" [الزمر: 38].

4) وقالَ سبحانهُ وتعالَى: " قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ" [الإسراء: 110].

5) وقالَ جلَّ وعلَا: " قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ" [النمل: 559].

6) وقالَ تباركَ وتعالَى: "وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ" [آل عمران: 41].

7) وقالَ تعالَى: "وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ" [الكهف: 39].

ففِي هذهِ الآياتِ أوامرٌ مباشرةٌ صريحةٌ تُشير إلَى وجوبِ الذِّكرِ، ففِي الآيةِ الأولَى أمرَ سبحانهُ بالحمدِ والتَّكبيرِ، وفِي الثَّانيةِ أمرَ تعالَى بتعلُّمِ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وهوَ أعلَى منْ مجرَّدِ التلفُّظِ بهَا، وأمرَ فِي ذيلهَا بالاستغفارِ، وفِي الآيةِ الثَّالثةِ أمرَ بالحَسْبلَةِ، وفِي الرَّابعةِ أمرَ بالدُّعاءِ عمومًا ولَا يخفَى وجوبُ الدُّعاءِ علَى مؤمنٍ، وفِي الخامسةِ أمرَ بالدُّعاءِ لعبادِ اللهِ الصَّالحينَ بالسَّلامةِ ممَّا يخافونَ بقولهِ تعالَى: (وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ) فمعنَى "السَّلام" هوَ دعاءٌ بالسَّلامةِ منْ كلِّ آفةٍ، وبهِ قالَ ابنُ عثيمينَ: قولهُ: السَّلامُ عليكَ، السَّلام قيلَ: إنَّ المرادَ بالسَّلامِ: اسمُ اللهِ عزّ وجلَّ، لأنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: "إنَّ اللَّهَ هوَ السَّلامُ...[9]" كمَا قالَ عزّ وجلَّ فِي كتابهِ: الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ [الحشر: 23]، وبناءً علَى هذَا القولِ يكونُ المعنَى: أنَّ اللهَ علَى الرَّسولِ ﷺ بالحِفظِ والكَلاءةِ والعنايةِ وغيرِ ذلكَ، فكأنَّنَا نقولُ: اللَّهُ عليكَ، أي: رقيبٌ حافظٌ مُعْتَنٍ بكَ، ومَا أشبهَ ذلكَ، وقيلَ: السَّلامُ: اسمُ مصدرِ سَلَّمَ بمعنَى التَّسليمُ، كمَا قالَ تعالَى: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا [الأحزاب: 56] فمعنَى التَّسليمِ علَى الرَّسولِ ﷺ: أنَّنَا ندعُو لهُ بالسَّلامةِ مِنْ كُلِّ آفةٍ[10].

وفِي الآيةِ السَّادسةِ أمرَ سبحانهُ بالتَّسبيحِ أمرًا مباشرًا، وفِي الآيةِ الأخيرةِ أمرَ بالحوقلةِ، فكلُّ هذهِ الأوامرِ تقتضِي الوجوبَ وهذَا مجمعٌ عليهِ، لكنْ هلْ هذَا الوجوبُ هوَ مرَّةٌ فِي العمرِ كمَا قالُوا؟ الصَّحيحُ أنَّ الأمرَ فيهِ تفصيلٌ، فليسَ كلُّ الذِّكرِ يجبُ مرَّةً فِي العمرِ، بل منَ الأذكارِ مَا هوَ مرتبطٌ بحالِ المسلمِ، فالتَّسميةُ واجبةٌ كلَّ مَا أرادَ المسلمُ الطَّعامَ، إلَّا لمَا أمرَ الرَّسولُ ﷺ بقضائهَا لمنْ نسيهَا، فعنْ عائشةَ مرفوعاً: إذَا أكلَ أحدكمْ طعاماً فليقلْ: بسمِ اللهِ، فإنْ نسيَ فِي أوَّلهِ، فليقلْ: بسمِ اللهِ فِي أوَّلهِ وآخرهِ[11]، وقالَ فِي الهديِ: والصَّحيحُ وجوبُ التَّسميةِ عندَ الأكلِ وهوَ أحدُ الوجهينِ لأصحابِ أحمدَ، وأحاديثُ الأمرِ بهَا صحيحةٌ صريحةٌ لَا معارضَ لهَا ولَا إجماعَ يسوِّغُ مخالفتهَا ويخرجُ عنْ ظاهرهَا[12].

والصَّلاةُ علَى رسولِ اللهِ ﷺ واجبةٌ كلَّ مَا ذُكرَ رسولُ اللهِ ﷺ، فإنَّ المسلمَ مطالبٌ بالصَّلاةِ علَى النبيِّ ﷺ كلَّمَا ذكرَ اسمهُ، ولوْ كثرَ ذلكَ، بلْ ذهبَ بعضُ العلماءِ كابنِ عبدِ البرِّ منَ المالكيَّةِ، وابنِ بطةَ منَ الحنابلةِ، إلَى وجوبِ الصَّلاةِ عليهِ ﷺ كلَّما ذُكرَ، بدليلِ حديثِ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكرتُ عندهُ، فلمْ يصلِّ عليَّ"[13].

ويدلُّ علَى المطالبةِ بالصَّلاةِ عليهِ ﷺ كلَّما ذُكرَ، حديثُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "البخيلُ منْ ذُكرتُ عندهُ، فلمْ يصلِّ عليَّ"[14].

وقالَ ابنُ علَّانَ: وأصلُ البخلِ إمساكُ الشَّيءِ عنْ مستحقِّهِ، وهوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يستحقُّ علَى أمَّتهِ أنْ يصلُّوا عليهِ، فمنْ أمسكَ منهمْ عنهَا كانَ أشرَّ الممسكينَ، وأشحَّ البخلاءِ المحرومينَ، فيُخشَى عليهِ المقتَ والبوارَ، أجارنَا اللهُ منْ ذلكَ(15).

والاستغفارُ واجبٌ علَى كلِّ منْ فعلَ ذنبًا، وهكذَا علَى حسبِ الحالِ، فإنْ قلنَا في الاستغفارِ بمَا جاءَ فِي حاشيةِ العدوِي والفواكهِ الدَّوانِي علَى رسالةِ ابنِ أبِي زيدٍ القيروانِي بأنَّ الاستغفارَ واجبٌ مرَّةً فِي العمرِ والمسلمُ لَا يخلُوا منْ ذنبٍ لهلكةِ الأمَّةُ قاطبةً، لكنَّ الصَّحيحَ أنَّ وجوبَ الذِّكرِ عمومًا يكونُ علَى حسبِ نوعِ الذِّكرِ وحالِ المسلمِ، وهذَا أسلمُ للمسلمِ أنْ يتركَ واجبًا مستمرًّا ظنًّا منهُ أنَّهُ يكفيهِ مرَّةً فِي العمرِ، فإنْ كانَ وهوَ مستبعدٌ أنْ يكونَ مرَّةٌ فِي العمرِ فقدْ فازَ بالنَّفلِ وكثرةِ الحسناتِ، وبهذَا يكونُ فِي كلَا الحالتينِ سالمًا، واللهُ أعلمُ.

---

(1) أخرجه أبو داود (4855)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (10241)، وأحمد (10680) باختلاف يسير، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (207/7) واللفظ له.
(2) أخرجه أبو داود (4856)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (10237).
(3) رواه الترمذي وقال حديث حسن.
(4) دليل الفالحين شرح رياض الصالحين (127/6).
(5) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام.
(6) منقول من العقد الجوهري على النظم المسمى العبقري للطاهر بن عبد المعطي السباعي الإدريسي الحسني.
(7) تفسير القرطبي.
(8) تفسير السعدي.
(9) صحيح البخاري.
(10) الشرح الممتع على زاد المستقنع للشيخ محمد بن صالح العثيمين.
(11) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(12) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي.
(13) رواه الترمذي، وقال حديث حسن.
(14) رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.
(15) دليل الفالحين لابن علان.

فوائدُ الذِّكرِ:

ذِكرُ اللهِ تباركَ وتعالَى لهُ فوائدُ عظيمةٌ، ومنافعُ كثيرةٌ منهَا:

أنَّ ذكرَ اللهِ سبحانهُ قوتُ القلوبِ، وغذاءُ الأرواحِ، وشفاءٌ منَ الأسقامِ.

وذكرُ اللهِ يليِّنُ القلبَ ويقوِّي البدنَ، وينوِّرُ القلبَ والوجهَ، ويفتحُ أبوابَ المعرفةِ باللهِ، ويورِّثُ القربَ منَ اللهِ.

وذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ يرضِي الرَّحمنَ، ويطردُ الشَّيطانَ، ويجلبُ الخيرَ، ويزيلُ الشرَّ، ويسهِّلُ الحزنَ، ويُزيلُ الحُزنَ، وييسِّرُ العسيرَ، ويذهبُ الهمَّ والغمَّ، ويثمرُ الطمأنينةَ والسَّكينةَ.

وذكرُ اللهِ جلَّ جلالهُ يعطِي الذَّاكرَ قوَّةً، ويكسوهُ ومهابةً.

وذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ يورِّثُ حياةَ القلوبِ، وحصولَ الرِّزقِ، ونزولَ النَّصرِ، ومغفرةَ الذُّنوبِ.

وذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ يورِّثُ ذكرَ اللهِ تعالَى لعبدهِ، ومحبَّةَ اللهِ لهُ، والأنسَ بهِ، والقربَ منهُ، ورضاهُ عنهُ، والإنابةَ إليهِ، والتلذُّذِ بعبادتهِ، والفوزَ بجنَّتهِ.

والأهمُّ أنَّ ذكرَ اللهِ تعالَى سببٌ لتسهيلِ العلمِ النَّافعِ لطابهِ، فكلمَا ذكرَ الطَّالبُ ربَّهُ كلَّمَا انشرحَ صدرهُ واستنارَ عقلهُ، فقبلَ منَ العلومِ مَا لَا يقدرُ علَى استعابهَا غيرهُ.

فالذِّكرُ لهُ فوائدُ جليلةٌ، شاملةٌ للدِّينِ والدُّنيَا والآخرةِ، أوصلهَا ابنُ القيِّمِ فِي كتابهِ "الوابلُ الصيِّبُ" إلَى أكثرِ منْ سبعينَ فائدةٍ، والذِي يهمُّنَا هنَا ذكرُ فوائدهِ المذكورةِ فِي القرآنِ:

أوَّلًا: ذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ لعبدهِ الذاكرِ:

منْ أعظمِ فوائدِ الذِّكرِ ذكرُ اللهِ تعالَى للذَّاكرِ، قالَ تعالَى: "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ "[البقرة: 152].

فقولهُ تعالَى: (فَاذْكُرُونِي) الفاءُ هنَا هيَ فاءُ السَّببيَّةِ، وهيَ التِي يكونُ مَا قبلهَا سببًا لمَا بعدهَا، وهيَ للتَّفريعِ، عاطفةً جملةَ الأمرِ بذكرِ اللهِ وشكرهِ علَى جملِ النِّعمِ المتقدِّمةِ، أي: إذْ قدْ أنعمتُ عليكمْ بهاتهِ النِّعمِ فأنَا آمركمْ بذكرِي.

وهذَا الأمرُ (فَاذْكُرُونِي) جوابهُ (أَذْكُرْكُمْ) وفيهِ: معنَى المجازاةِ[1] والجزاءُ منْ جنسِ العملِ فِي الخيرِ والشرِّ.

قالَ أبُو عثمانَ النِّهدِي: إنِّي لأعلمُ حينَ يذكرنِي ربِّي عزَّ وجلَّ، قيلَ: كيفَ ذلكَ؟ قالَ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) وإذَا ذكرتُ اللهَ تعالَى ذكرنِي»[2]، وقالَ الحكماءُ: إنَّمَا كانَ الذِّكرُ أفضلَ الأشياءِ؛ لأنَّ ثوابَ الذِّكرِ الذِّكرُ، قالَ اللهُ تعالَى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)[3].

والذِّكرُ هنَا يُحملُ علَى العمومِ، فيشملُ الذِّكرَ باللِّسانِ، وهوَ: الحمدُ والتَّسبيحُ والتَّمجيدُ وقراءةُ كتابِ اللهِ، وبالقلبِ، وهوَ: الفكرُ فِي الدَّلائلِ الدَّالةِ علَى التَّكاليفِ والأحكامِ، والأمرُ والنَّهيُ والوعدُ والوعيدُ، والفكرُ فِي الصِّفاتِ الإلهيَّةِ، والفكرُ فِي أسرارِ مخلوقاتِ اللهِ تعالَى ...، وبالجوارحِ بأنْ تكونَ مستغرقةً فِي الأعمالِ المأمورِ بهَا، خاليةً عنِ الأعمالِ المنهيِّ عنهَا، وعلَى هذَا الوجهِ سمَّى اللهُ الصَّلاةَ ذكرًا بقولهِ تعالَى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ "[الجمعة: 9][4].

وسمِّيَ الثَّوابُ المترتِّبُ علَى ذلكَ ذكرًا علَى سبيلِ المقابلةِ لمَا كانَ نتيجةُ الذِّكرِ وناشئًا عنهُ سمَّاهُ ذكرًا[5]، وهذَا ذكرُ العبدِ لربِّهِ.

وأمَّا ذكرُ اللهِ تعالَى لعبدهِ: فهوَ ثناؤهُ عليهِ فِي الملإِ الأعلَى بينَ الملائكةِ، ومباهاتهمْ بهِ، وتنويههِ بذكرهِ[6].

قالَ أبُو جعفرَ: أذكركمْ برحمتِي إيَّاكمْ، ومغفرتِي لكمْ[7].

وعنِ السدِّي قالَ: ليسَ منْ عبدٍ يذكرُ اللهَ إلَّا ذكرهُ اللهُ، لَا يذكرهُ مؤمنٌ إلَّا ذكرهُ برحمةٍ[8].

فإذَا ذكرَ المؤمنُ ربَّهُ وجدَ ربَّهُ تجاههُ، وكأنَّهُ بتفلُّتهِ عنْ ذكرِ ربِّهِ قدْ بعدَ عنِ اللهِ تعالَى، فإذَا ذكرَ ربَّهُ، وأشرقَ عليهِ بنورهِ السنيِّ البهيِّ، وفِي الحديثِ القدسيِّ: منْ تقرَّبَ إليَّ شبرًا تقربتُ إليهِ ذراعًا، ومنْ تقرَّبَ إليَّ ذراعًا تقرَّبتُ إليهِ باعًا، ومنْ أتانِي يمشِي أتيتهُ هرولةً[9]، فذكرَ اللهَ وامتلاءَ القلبُ بهذَا الذِّكرِ يفيضُ علَى الذَّاكرِ أنوارًا منْ جلالِ اللهِ وبهائهِ، وإذَا هوَ فِي حمَى عزيزٍ لَا يُنالُ، وفِي ضمانِ وثيقٍ منْ أنْ يهونَ، أوْ يذلَّ لغيرِ اللهِ الواحدِ القهَّارِ...[10].

ثانيًا: الحصولُ علَى المغفرةِ والأجرِ العظيمِ:

ومنْ فوائدِ الذِّكرِ: المغفرةُ، ودخولُ الجنَّةِ، قالَ تعالَى: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ" إلى قوله: "وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" [الأحزاب: 35].

فالذَّاكرونَ اللهَ بقلوبهمْ وألسنتهمْ وجوارحهمْ والذَّاكراتِ كذلكَ أعدَّ اللهُ لهمْ مغفرةً لذنوبهمْ، و(وَأَجْرًا عَظِيمًا) يعنِي: ثوابًا فِي الآخرةِ علَى ذلكَ منْ أعمالهمْ عظيمًا؛ وذلكَ الجنَّةُ[11].

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً) أي: لهؤلاءِ الموصوفينَ بتلكَ الصِّفاتِ الجميلةِ، والمناقبِ الجليلةِ، التِي هيَ مَا بينَ اعتقاداتٍ وأعمالِ قلوبٍ، وأعمالِ جوارحٍ، وأقوالِ لسانٍ، ونفعٍ متعدٍ وقاصرٍ، ومَا بينَ أفعالِ الخيرِ وتركِ الشرِّ الذِي منْ قامَ بهنَّ فقدْ قامَ بالدِّينِ كلِّهِ، ظاهرهِ وباطنهِ، بالإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ، فجازاهمْ علَى عملهمْ بالمغفرةِ لذنوبهمْ؛ لأنَّ الحسناتِ يذهبنَ السيِّئاتِ (وَأَجْرًا عَظِيمًا) لَا يقدرُ قدرهُ إلَّا الذِي أعطاهُ، ممَّا لَا عينٌ رأتْ، ولَا أذنٌ سمعتْ، ولَا خطرَ علَى قلبِ بشرٍ، نسألُ اللهَ أنْ يجعلنَا منهمْ[12].

ثالثًا: الفلاحُ:

ومنْ فوائدِ الذِّكرِ: الحصولُ علَى الفلاحِ، وهوَ الفوزُ بالمطلوبِ، والنَّجاةِ منَ المرهوبِ.

قالَ تعالَى: "فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" [الجمعة: 10].

وقال: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" [الأنفال: 45].

وقدْ علَّمَ اللهُ عبادهُ هنَا فِي هذهِ الآيةِ الثَّانيةِ إذَا التقُوا بالفئةِ (وهيَ الجماعةُ منَ المحاربينَ) نوعينِ منَ الأدبِ، الأوَّلُ: الثَّباتُ، وهوَ أنْ يوطنُوا أنفسهمْ علَى اللِّقاءِ ولَا يحدثوهَا بالتولِّي، والثَّانِي: أنْ يذكرُوا اللهَ كثيرًا، وفِي تفسيرِ هذَا الذِّكرِ قولانِ:

القولُ الأوَّلُ: أنْ يكونُوا بقلوبهمْ ذاكرينَ اللهَ، وبألسنتهمْ ذاكرينَ اللهَ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا: أمرَ اللهُ أولياءهُ

بذكرهِ فِي أشدِّ أحوالهمْ تنبيهًا علَى أنَّ الإنسانَ لَا يجوزُ أنْ يخلِي قلبهُ ولسانهُ عنْ ذكرِ اللهِ، ولوْ أنَّ رجلًا أقبلَ منَ المغربِ إلَى المشرقِ ينفقُ الأموالَ سخاءً، والآخرُ منَ المشرقِ إلَى المغربِ يضربُ بسيفهِ فِي سبيلِ اللهِ كانَ الذَّاكرُ للهِ أعظمَ أجرًا.

والقولُ الثَّانِي: أنَّ المرادَ منْ هذَا الذِّكرِ الدُّعاءُ بالنَّصرِ والظَّفرِ؛ لأنَّ ذلكَ لَا يحصلُ إلَّا بمعونةِ اللهِ تعالَى[13].

والآيةُ محتملةٌ للمعنيينِ.

وهنَا أيضًا قالَ: (كَثِيرًا) أي: ذكرًا كثيرًا، فعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا فِي قولهِ: (وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا) قالَ: لَا يفرضُ اللهُ علَى عبادهِ فريضةً إلَّا جعلَ لهَا حدًا معلومًا، ثمَّ عذرَ أهلهَا فِي حالِ عذرٍ، غيرِ الذِّكرِ، فإنَّ اللهَ لمْ يجعلْ لهُ حدًا ينتهِي إليهِ، ولمْ يعذرْ أحدًا فِي تركهِ إلَّا مغلوبًا علَى عقلهِ، فقالَ: " فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ" [النساء: 103].

باللَّيلِ والنَّهارِ، فِي البرِّ والبحرِ، وفِي السَّفرِ والحضرِ، والغنَى والفقرِ، والسَّقَمِ والصحَّةِ، والسرِّ والعلانيَةِ، وعلَى كلِّ حالٍ[14]، وهذَا دليلٌ آخر علَى وجوبِ الذِّكرِ.

(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) يقولُ: كيْمَا تنجحُوا فتظفرُوا بعدوِّكمْ، ويرزقكمْ اللهُ النَّصرَ والظَّفرَ عليهمْ[15]؛ لأنَّ مقاتلةَ الكافرِ إنْ كانتْ لأجلِ طاعةِ اللهِ تعالَى كانَ ذلكَ جاريًا مجرَى بذلِ الرُّوحِ فِي طلبِ مرضاةِ اللهِ تعالَى، وهذَا هوَ أعظمُ مقاماتِ العبوديَّةِ، فإنْ غلبَ الخصمُ فازَ بالثَّوابِ والغنيمةِ، وإنْ صارَ مغلوبًا فازَ بالشَّهادةِ والدَّرجاتِ العاليةِ، أمَّا إنْ كانتِ المقاتلةُ لَا للهِ، بلْ

لأجلِ الثَّناءِ فِي الدُّنيَا، وطلبِ المالِ لمْ يكنْ ذلكَ وسيلةً إلَى الفلاحِ والنَّجاحِ[16].

فالفلاحُ فِي هذهِ الآيةِ لهُ أوجهٌ:

أحدهَا: علَى رجاءِ الفلاحِ.

والثَّانِي: أي: لكيْ تفلحُوا.

والثَّالثُ: علَى قطعِ وجوبِ الفلاحِ إذَا فعلَ ذلكَ؛ بمَا قالُوا: إنْ (لعل) و(عسى) منَ اللهِ تعالَى واجبةٌ[17].

والحاصلُ: أنْ (تُفْلِحُونَ) مضارعُ (أفلحَ الرَّجلُ يُفلحُ فهوَ مفلحٌ): إذَا نالَ الفلاحَ، والفلاحُ يطلقُ فِي لغةِ العربِ إطلاقينِ معروفينِ مشهورينِ:

أحدهمَا: تطلقُ العربُ الفلاحَ بمعنَى الفوزِ بالمطلوبِ الأكبرِ، فكلُّ منْ فازَ بالمطلوبِ الذِي كانَ يهتمُّ بهِ جدًا، وهوَ منْ أكبرِ مطالبهِ، تقولُ العربُ: أفلحَ هذَا، أي: فازَ بمَا كانَ يطلبُ، وهذَا معنًى معروفٌ فِي كلامِ العربِ.

والإطلاقُ الثَّانِي: هوَ إطلاقُ العربِ الفلاحَ علَى البقاءِ السَّرمدِي فِي النَّعيمِ، فالعربُ تقولُ: أفلحَ هذَا: إذَا كانَ باقيًا خالدًا فِي نعيمٍ سرمدِي، وهذَا المعنَى معروفٌ مشهورٌ فِي كلامِ العربِ أيضًا.

والخلاصةُ: أنَّنَا أمرنَا بالذِّكرِ علَى كلِّ حالٍ نكونُ عليهاَ فِي الحربِ، كمَا يدلُّ علَى ذلكَ السِّياقُ، فأجدرُ بأنْ نُؤمرَ بهِ فِي حالِ السِّلمِ، إلَّا أنَّ المؤمنينَ فِي جهادٍ مستمرٍّ، وحروبٍ دائمةٍ، فهمْ تارةً يجاهدونَ الأعداءَ، وأخرَى يجاهدونَ الأهواءَ، ومنْ ثمَّ أمرهمُ اللهُ بالذِّكرِ فِي كثيرٍ منَ الآيِ[18].

رابعًا: النجاةُ منَ البلاءِ:

ومنْ فوائدِ الذِّكرِ: النَّجاةُ منَ البلاءِ، قالَ تعالَى: " فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144)" [الصافات: 143 - 144]**.**

يقولُ تعالَى ذكرهُ: (فَلَوْلَا أَنَّهُ) يعنِي: يونسَ عليهِ السَّلامُ (كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) منَ الذَّاكرينَ اللهَ قبلَ ذلكَ، وكانَ عليهِ السَّلامُ كثيرَ الذِّكرِ، وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا: منَ المصلِّينَ، وقالَ وهبٌ: منَ العابدينَ، وقالَ الحسنُ: مَا كانتْ لهُ صلاةٌ فِي بطنِ الحوتِ، ولكنَّهُ قدمَ عملًا صالحًا، وقالَ الضحَّاكُ: شكرَ اللهَ تعالَى لهُ طاعتهُ القديمةَ، وقيلَ: فلولَا أنَّهُ كانَ منَ المسبِّحينَ فِي بطنِ الحوتِ، قالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ: يعنِي: قولهُ: "وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ " [الأنبياء: 87]**[19]، وكلُّ الأقوالِ صحيحةٌ، والأخيرُ أقربُ.**

قالَ سلمانُ الفارسِي رضيَ اللهُ عنهُ: إنَّ العبدَ إذَا كانَ لهُ دعاءٌ فِي السرِّ، فإذَا نزلَ بهِ البلاءُ قالتْ الملائكةُ: عبدكَ نزلَ بهِ البلاءُ، فيشفعونَ لهُ فينجيهِ اللهُ، فإذَا لمْ يكنْ لهُ دعاءٌ قالُوا: الآنَ فلَا تشفعونَ لهُ، بيانهُ: لفظةُ فرعونَ: "آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ" [يونس: 91]**[20].**

والمقصودُ: أنَّ منْ فوائدِ الذِّكرِ النَّجاةُ منَ الكروبِ، كمَا ذكرَ اللهُ منْ حالِ يونسَ عليهِ السَّلامُ أنَّهُ كانَ منَ الذَّاكرينَ اللهَ قبلَ البلاءِ، وفِي البلاءِ، فذكرهُ اللهُ فِي حالِ البلاءِ، فأنقذهُ ونجَّاهُ.

خامسًا: اطمئنانُ القلوبِ:

ومنْ فوائدِ الذِّكرِ: حصولُ الطُّمأنينةِ، وقدْ مدحَ اللهُ قومًا اطمأنتْ قلوبهمْ بذكرهِ.

قالَ تعالَى: " الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ "[الرعد: 28].

قولهُ: (تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) أي: تسكنُ قلوبهمْ، وتستأنسُ بذكرِ اللهِ(21).

وفِي هذَا الذِّكرِ قولانِ:

أحدهمَا: أنَّهُ القرآنُ؛ لأنَّهُ يسمَّى ذكرًا، كمَا قالَ تعالَى: "وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ"[الأنبياء: 50].

وقالَ سبحانهُ: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"[الحجر: 9]، لأنَّهُ آيةٌ بيِّنةٌ تُسكنُ القلوبَ، وتثبتُ اليقينَ فيهَا.

والثَّانِي: ذكرُ اللهِ علَى الإطلاقِ.

وفِي معنَى هذهِ الطمأنينةِ قولانِ:

أحدهمَا: أنَّهَا الحبُّ لهُ والأنسُ بهِ.

والثَّانِي: السُّكونُ إليهِ منْ غيرِ شكٍّ، بخلافِ الذينَ إذَا ذُكرَ اللهُ اشمأزتْ قلوبهمْ، والمعنَى: تطمئنُّ القلوبُ التِي هيَ قلوبُ المؤمنينَ؛ لأنَّ الكافرَ غيرَ مطمئنّ القلبِ(22).

والمعنيانِ مرادانِ، ولَا تعارضَ بينهمَا، فذكرُ اللهِ تسبيحهُ وتهليلهُ وتكبيرهُ، ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بهِ القرآنُ.

قالَ السَّعدِي: ثمَّ ذكرَ تعالَى علامةَ المؤمنينَ، فقالَ: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ) أي: يزولُ قلقهَا واضطرابهَا، وتحضرهَا أفراحهَا ولذَّاتهَا (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) أي: حقيقٌ بهَا وحريٌ أنْ لَا تطمئنَّ لشيءٍ سوَى ذكرهِ، فإنَّهُ لَا شيءَ ألذُّ للقلوبِ، ولَا أشهَى ولَا أحلَى منْ

محبَّةِ خالقهَا، والأنس ِبهِ ومعرفتهِ، وعلَى قدرِ معرفتهَا باللهِ ومحبَّتهَا لهُ يكونُ ذكرهَا لهُ، هذَا علَى القولِ بأنَّ ذكرَ اللهِ ذكرَ العبدِ لربِّهِ، منْ تسبيحٍ وتهليلٍ وتكبيرٍ وغيرِ ذلكَ.
وقيلَ: إنَّ المرادَ بذكرِ اللهِ كتابهُ الذِي أنزلهُ ذكرَى للمؤمنينَ، فعلَى هذاَ معنَى طمأنينةِ القلوبِ بذكرِ اللهِ: أنَّهَا حينَ تعرفُ معانِي القرآنِ وأحكامهِ تطمئنُّ لهاَ، فإنَّهَا تدلُّ علَى الحقِّ المبينِ المؤيَّدِ بالأدلَّةِ والبراهينِ؛ وبذلكَ تطمئنُّ القلوبُ، فإنَّهَا لَا تطمئنُّ القلوبُ إلَّا باليقينِ والعلمِ؛ وذلكَ فِي كتابِ اللهِ، مضمونٌ علَى أتمِّ الوجوهِ وأكملهَا، وأمَّا مَا سواهُ منَ الكتبِ التِي لَا ترجعُ إليهِ فلَا تطمئنُّ بهَا، بلْ لَا تزالُ قلقةً منْ تعارضِ الأدلَّةِ، وتضادِ الأحكامِ[23].
سادسًا: مغفرةُ الذُّنوبِ:
ومنْ فوائدِ الذِّكرِ: مغفرةُ الذُّنوبِ.
قالَ تعالَى: "وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (163)" [آل عمران: 135 - 136].
فهؤلاءِ إذَا فعلُوا فاحشةً بادرُوا إلَى التَّوبةِ والاستغفارِ، وذكرُوا ربَّهمْ، ومَا توعَّدَ بهِ العاصينَ، ووعدَ بهِ المتَّقينَ، فسألوهُ المغفرةَ لذنوبهمْ، والسِّترَ لعيوبهمْ، معَ إقلاعهمْ عنهَا وندمهمْ عليهَا.
(أُولَئِكَ) الموصوفونَ بتلكَ الصِّفاتِ (جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ) تزيلُ عنهمْ كلَّ محذورٍ (وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) فيهَا منَ النَّعيمِ المقيمِ، والبهجةِ والسُّرورِ والبهاءِ،

والخيرِ والسُّرورِ، والقصورِ والمنازلِ الأنيقةِ العالياتِ، والأشجارِ المثمرةِ البهيَّةِ، والأنهارِ الجارياتِ فِي تلكَ المساكنِ الطيِّباتِ (خَالِدِينَ فِيهَا) لَا يحولونَ عنهَا، ولَا يبغونَ بهَا بدلًا، ولَا يغيّرُ مَا همْ فيهِ منَ النَّعيمِ (وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) عملُوا للهِ قليلًا، فأجرُوا كثيرًا، وعندَ الجزاءِ يجدُ العاملُ أجرهُ كاملًا موفرًا[28].

والمقصودُ: أنَّهمْ حصلُوا علَى هذهِ المغفرةِ منَ اللهِ تعالَى، والجنَّاتِ، والخلودِ فيهَا بسببِ الاستغفارِ، وهوَ ذكرٌ منَ الأذكارِ.

وفضائلُ الذِّكرِ لَا تُحصَى ولَا تعدُّ.

(1) فتح القدير، الشوكاني ١٨٢/١.
(2) الكشف والبيان، الثعلبي ٢١/٢.
(3) المصدر السابق ٢٨٣/٧.
(4) البحر المحيط ٤٩/٢.
(5) المصدر السابق ٥٠/٢.
(6) تفسير ابن رجب الحنبلي ١٢٨/١.
(7) جامع البيان ٢١١/٣.
(8) أخرجه الطبري في تفسيره ٦٩٦/٢.
(9) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، ٢٠٦٧/٤، رقم ٢٦٧٥.
(10) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١١٥/٧.
(11) المصدر السابق ٢٦٩/٢٠.
(12) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٥.
(13) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤٨٩/١٥.
(14) أخرجه الطبري في تفسيره ١٦٤/٩.
(15) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١٣/١١.
(16) مفاتيح الغيب، الرازي ٤٨٩/١٥.
(17) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٤/١٠.
(18) تفسير المراغي ٥/ ١٤٣.
(19) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤٧/٤.
(20) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢٠/٢.
(21) جامع البيان، الطبري ٥١٨/١٣.
(22) زاد المسير، ابن الجوزي ٤٩٤/٢.
(23) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٧.
(24) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤٩.

أسألُ اللهَ الكريمَ أنْ يجعلَ هذَا الكتابَ خالصًا لوجههِ الكريمِ
وأنْ يغفرَ لمؤلِّفهِ وقارئـهِ ونـاشرهِ ووالديـهمْ
ومشايخـهمْ والمسلمينَ
آمين.

تمَّ الكتابُ، والحمدُ للهِ الذِي بنعمتـهِ تتمُّ الصَّالحاتُ

****

المصادرُ والمراجعُ

كلُّ منْ لمْ نذكرْ وفاتهُ، فهوَ إمَّا معاصرٌ، أو أنَّنا ذكرناهُ سابقًا، أو أنَّهُ ذُكرَ فِي وسطِ الكتاب، مثلَ أئمَّة التَّفسير.

1) القرآنُ الكريمُ.
2) صحيحُ الإمامِ البخاريِّ: لأبِي عبدِ اللهِ محمَّدٍ بنِ إسماعيلَ البخاريِّ، متوفَّى (1 شوال 256 هجري).
3) صحيحُ الإمامِ مسلمٍ: لمسلمٍ بنِ الحجَّجِ القشيرِي النَّسابورِي، متوفَّى (25رجب 261 هجري).
4) سننُ أبِي داودَ: لأبِي داودَ سليمانَ بنِ الأشعثِ السَّجستانِي، متوفَّى (16 شوال 275 هجري).
5) سننُ النَّسائِي: لأبِي عبدِ الرَّحمنِ بنِ شعيبٍ النَّسائِي، متوفَّى (13 صفر 303 هجري).
6) سننُ الترمذي (الجامع الكبير): لأبِي عيسَى محمَّدٍ بنِ عيسَى بنِ سَوْرةَ بنِ موسَى بنِ الضَّحَّاكِ، السّلمِي التِّرمذِي، المتوفَّى (279 هجري).
7) سننُ البيْهقِي: لأبِي بكرٍ أحمدَ بنِ عليٍّ بنِ موسَى الخراسنِي البيْهقِي، المتفَّى (جمادى الأوَّل 458 هجري).
8) المسندُ: لأبِي عبدِ اللهِ أحمدَ بنِ محمَّدٍ بنِ حنبلَ الشَّيبانِي الذهلِي، المتوفَّى (241 هجري).
9) صحيحُ ابنِ حبَّانَ: لأبِي حاتمٍ محمَّدٍ بنِ حبَّانَ البستِي، المتوفَّى (354 هجري).
10) المصنَّفُ فِي الأحاديثِ والآثارِ: المعروفُ بمصنَّفِ ابنِ أبِي شيبةَ، لأبِي بكرٍ بنِ أبِي شيْبةَ، عبدِ اللهِ بنِ محمَّدٍ بنِ

إبراهيمِ بنِ عثمانَ بنِ خواستِي العبسِي، المتوفَّى (235 هجري).

11) سننُ الدَّارقطنِي: لأبِي الحسنِ عليٍّ بنِ عمرَ بنِ أحمدَ بنِ مهدِي بنِ مسعودٍ بنِ النُّعمانَ بنِ دينارٍ البغدادِي الدَّارقطنِي، المتوفى (385 هجري).

12) فيضُ القديرِ شرحِ الجامعِ الصَّغيرِ: لزينِ الدِّين محمَّد المدعُو بعبدِ الرَّؤوفِ بنِ تاجِ العارفينَ بنِ عليٍّ بنِ زينِ العابدينَ الحدادِي ثمَّ المناوِي القاهرِي، المتوفى (1031 هجري).

13) سننُ ابنِ ماجهْ: لأبِي عبدِ اللهِ محمَّدٍ بنِ يزيدٍ بنِ ماجهْ الرَّبعِي القزوينِي، المتوفى (273 هجري).

14) السُّننُ الصُّغرَى: كتابُ المجتبَى (سننُ النَّسائِي الصُّغرَى).

15) مستدركُ الحاكمِ: لأبِي عبدِ اللهِ محمَّدٍ بنِ عبدِ اللهِ الحاكمِ النَّيسابورِي، المتوفى (405 هجري).

16) سننُ الدَّارمِي: لأبِي محمَّدٍ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ التَّميمِي الدَّارمِي السَّمرقندِي، المتوفى (255 هجري).

17) مسند أبي يعلى الموصلي: لأحمد بن علي بن المثنى بن يحيي التميمي الموصلي، واشتهر بأبي يعلى الموصلي، المتوفى (307 هجري).

18) تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: لزين الدين أبو الفضل عبد الرحيم العراقي الشافعي المتوفى (806 هجري).

19) السنة لابن أبي عاصم: لأبي بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني، المتوفى (287 هجري).

20) فتح الباري: لشهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن أحمد الكناني العسقلاني، المتوفى (852 هجري).
21) المنهاج في شعب الإيمان: للحسين بن الحسن الحليمي أبو عبد الله، المتوفى (403 هجري).
22) شعبُ الإيمانِ: لأحمدَ بنِ الحسينِ بنِ عليٍّ بنِ موسَى الخُسْرَوْجِردِي الخراسانِي، أبِي بكرٍ البيْهقِي، المتوفَّى (458 هجري).
23) السلسلة الظعيفة: لأبي عبد الرحمن محمد بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني الأرنؤوطي المعروف باسم محمد ناصر الدين الألباني، المتوفى (1420 هجري).
24) البدع والنهي عنها: لأبي عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع، المتوفى (287 هجري).
25) فضائل النبى وشمائله من كتاب شرح السنة: للحسين بن مسعود البغوى، المتفى (516 هجري).
26) إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري: لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني، المتوفى (923 هجري).
27) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض السبتي اليحصبي، المتوفى (544 هجري).
28) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: المؤلف عدد من المتخصصين بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد وعبد الرحمن بن ملوح.

29) المفهم لما اشكل من تلخيص شرح صحيح مسلم: لأبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي المتوفى (656 هجري).
30) الترغيب والترهيب: لزكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة بن سعد المنذري، المتوفى (656 هجري).
31) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، المتوفى (807 هجري).
32) المهذب في اختصار السنن الكبير: لأبي عبد الله محمّد بن أحمد بن عُثمان الذّهَبيّ الشّافعيّ، المتوفي (748 هجري).
33) جامع المسانيد والسند: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، المتفى (774 هجري).
34) الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين: لمقبل بن هادي الوادعي، المتوفى (1422 هجري).
35) تفسير الطبري.
36) تفسير ابن كثير.
37) تفسير البغوي.
38) تفسير الطبراني.
39) تفسير ابن ابي حاتم.
40) تفسير القرطبي.
41) المختصر في التفسي.
42) تفسير السعدي.
43) تفسير الشوكاني.
44) تفسير الثعلبي.

45) تفسير الألوسي.
46) تفسير البيضاوي: ناصر الدين البيضاوي، المتوفى (685 هجري).
47) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور التونسي، المتوفى (1392 هجري).
48) كتاب التَّفسير مجموعة زاد للعلوم الشَّرعية محمد صالح المنجد.
49) عمدة التفسير: للحافظ ابن كثير.
50) تفسير البحر المحيط: لأبي حيان الغرناطي، المتوفى (745 هجري).
51) تفسير النكت والعيون: لأبي الحسن الماوردي، المتوفى (450 هجري).
52) جامع البيان في تفسير القرآن للشيرازي: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الإيجي الشيرازي، المتوفى (906 هجري).
53) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لعبد الحق بن غالب بن عطية، المتوفى (511 هجري).
54) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أحمد بن محمد بن المهدي بن الحسين بن محمد بن عجيبة، المتوفى (1224 هجري).
55) غريب القرآن: لأبي بكر محمد بن عزيز السجستاني، المتوفى (330 هجري).
56) الإتقان في علوم القرءان: لجلال الدين السيوطي.
57) الوحي والقرآن: لعبد الحميد إبراهيم سرحان.
57) تفسير الضَّحَّاك: للضحاك بن مزاحم الهلالي، المتوفى (102 أو 105 أو 106 هجري).

58) مناهل العرفان في علوم القرآن: لمحمد عبد العظيم الزرقاني، المتوفى (1122 هجري).
59) المفردات في غريب القرءان: للرَّاغب الأصفهاني، المتوفى (502 هجري).
60) مقدِّمة في أصول التَّفسير: لابن تيمية، المتوفى (728 هجري).
61) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير: للدكتور محمد لطفي الصباغ، المتوفى (1439 هجري).
62) البغوي ومنهجه في التفسير: عفاف عبد الغفور حميد.
63) البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين الزركشي، المتوفى (794 هجري).
64) مقدمة محمود شاكر من تفسير الطبري: محمود محمد شاكر، المتوفى (1418 هجري).
65) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: لأحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، المتوفى (834 هجري).
66) كليات الألفاظ في التفسير، رسالة ماجستير، لبريك القرني.
67) فصول في أصول التفسير: لمساعد بن سليمان الطيار.
68) تفسير القرآن الكريم أصوله وضوابطه: علي بن سليمان العبيد.
69) أثر معرفة الكليات والأفراد في القرآن الكريم - د. صالح بن سعود سليمان السعود.
70) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن، للسعدي.
71) مقدِّمة تفسير السَّعدي.
72) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل: عبد الرحمن حبنكة الميداني، المتوفى (1425 هجري).
73) الشرح الكبير لمختصر الأصول: لأبي المنذر المنياوي.

74) شرح المفصل: لموفق الدين بن يعيش النحوي، المتوفى (643 هجري).
75) الكليات للكفوي، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي المتوفى (1093 أو 1094 أو 1095 هجري).
76) الأشباه والنظائر علَى مذهبِ أبي حنيفة النُّعمانِ: لزين العابدينَ بنِ إبراهيمَ بن نجيمٍ (969 أو 970 هجري).
77) المحصول في علم الأصول: لمحمد بن عمر بن الحسين الرازي، المتوفى (606 هجري).
78) المجموع شرح المهذب: للنووي، يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين المتوفى (676 هجري).
79) الذخيرة: لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، المتوفى (684 هجري).
80) نهاية السول شرح منهاج الوصول: للإمام جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي، المتوفى (772 هجري).
81) الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة: لزكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيى، المتوفى (926 هجري).
82) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج: لشمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة ابن شهاب الدين الرملي الشهير بالشافعي الصغير، المتوفى (1004 هجري).
83) البحر الرائق شرح كنز الدقائق: لزين الدين ابن نجيم الحنفي - ابن عابدين، المتوفى (969 أو 970 هجري).
84) غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر، لابن نجيم.
85) مجموع الفتاوى: هو كتاب يجمع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، حوى العديد من كتب العقيدة والتوحيد، والفقه

والأصول، والحديث والتفسير، وغيرها من العلوم الأخرى كُتِب في (37) مجلداً أصلياً وطبع في (20) مجلداً.

86) الأرجوزة المنظَّمة لخلاصة المقدِّمة في أصول التفسير: لأبي سهيل أنور عبد الله بن عبد الرَّحمن الفضفري.

87) القواعد في الفقه الإسلامي: ابن رجب؛ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي ثم الدمشقي، أبو الفرج، زين الدين، المتوفى (795 هجري).

88) منظومة القواعد الفقهية: لعثمان بن سند المالكي البصري، المتوفى (1242 هجري).

89) قواعد الفقه: محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، المتوفى (1395 هجري).

90) شرح القواعد الفقهية: لأحمد محمد الزرقا، المتوفى (1357 هجري).

91) القواعد الفقهية مفهومها ونشأتها وتطورها ودراسة مؤلفاتها أدلتها مهمتها تطبيقاتها: لعلي أحمد الندوي.

92) الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية: لمحمد صدقي بن أحمد بن محمد البورنو أبو الحارث الغزي.

93) الموسوعة الفقهية الكويتية: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ـ الكويت.

94) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق: لعثمان بن علي الزيلعي فخر الدين، المتوفى (743 هجري).

95) العناية شرح الهداية: لمحمد بن محمد بن محمود، أكمل الدين أبو عبد الله البابرتي المتوفى (786 هجري).

96) درر الحكام في شرح مجلة الأحكام، لعلي حيدر خواجه أمين أفندي، المتوفى (1353هجري).

97) فقه العقود المالية: للدكتور عبد الحق حميش ـ د. الحسين شواط.

98) مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر: للشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، المتوفى (1393 هجري).
99) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم – دراسة وموازنة: د. سليمان بن صالح القرعاوي.
100) نظم الورقات: للعمريطي، يحيى بن نور الدين أبي الخير بن موسى العِمْرِيطي، المتوفى (بعد 989 هجري).
101) مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني، المتوفى (502 هجري).
102) استدراكات الشوكاني على العلماء والمفسرين في فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية: لجميلة محمد البدوي بابكر.
103) المعتد في أصول الفقه: لأبي الحسن البصري "المعتزلي" (436 هجري).
104) تسهيل الوصول إلى الرسالة المختصرة في الأصول، للسعدي.
105) الفوز الكبير في أصول التفسير: لولي الله الدهلوي، المتوفى (1176 هجري).
106) الواضح في أصول الفقه: لابن عقيل، علي بن عقيل بن محمد بن عقيل أبو الوفاء، المتوفى (769 هجري).
107) إحكام الفصول في أحكام الأصول: للباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، المتوفى (474 هجري).
108) الذريعة إلى مكارم الشريعة: للراغب الأصفهاني.
109) معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): لياقوت الحموي، المتوفى (622 هجري).

110) تاريخ بغداد وذيوله: للخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي، المتوفى (463 هجري).
111) طبقات المفسرين: للداودي، محمد بن علي بن أحمد الداوودي شمس الدين، المتوفى (945 هجري).
112) إنباء الغمر بأبناء العمر: لابن حجر العسقلاني، المتوفى (852 هجري).
113) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي: ليوسف بن تغري بردي الأتابكي جمال الدين أبو المحاسن، المتوفى (874 هجري).
114) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: لابن حجر العسقلاني.
115) معجم المحدثين: لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، المتوفى(748 هجري).
116) تذكرة الحفاظ: للذهبي.
117) سير أعلام النبلاء: للذهبي.
118) الأعلام: لخير الدين الزركلي، المتوفى (1396 هجري).
119) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لعبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي أبو الفلاح، المتوفى (1089 هجري).
120) طبقات الحفاظ: لجلال الدين السيوطي.
121) البداية والنهاية: لابن كثير.
122) ابن كثير الدمشقي الحافظ المفسر المؤرخ الفقيه: للدكتور محمد الزحيلي.
123) معجم البلدان: لياقوت الحموي.

124) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان: لشمس الدين بن خلكان، المتوفى (681 هجري).
125) الإرشاد في معرفة علماء الحديث: الخليل بن عبد الله بن أحمد ابن الخليل الخليلي القزويني أبو يعلى، المتوفى (446 هجري).
126) تاريخ دمشق: لابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، المتوفى (571 هجري).
127) التدوين في أخبار قزوين: للرافعي، عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم، أبو القاسم الرافعي القزويني، المتوفى (623 هجري).
128) تاريخ الإسلام: لشمس الدين للذهبي.
129) الوافي بالوفيات: للصَّفَدي، صلاح الدين الصفدي؛ خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، المتوفى (764 هجري).
130) طبقات الشَّافعية الكبرى: للسُّبكي، تاج الدين السبكي؛ عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو نصر، المتوفى (771 هجري).
131) طبقات الحنابلة: لمحمد بن أبي يعلى الفراء البغدادي الحنبلي أبو الحسين، المتوفى (458 هجري).
132) طبقات المفسرين: لجلال الدين السيوطي.
133) عظماء الإسلام: لمحمد سعيد مرسي.
134) مؤرخو مصر الإسلامية: لمحمد عبد الله عنان، المتوفى (1406 هجري).
135) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة: الغزي، نجم الدين محمد بن محمد، المتوفى (1061 هجري).

136) بدائع الزهور في وقائع الدهور: لزين العابدين محمد بن أحمد المعروف بـ بن إياس الحنفي، المتوفى (929 هجري).
137) الثغور الباسمة في مناقب السيدة فاطمة: لجلال الدين السيوطي.
138) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: لجلال الدين السيوطي.
139) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطي.
140) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: محمد بن علي الشوكاني.
141) الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير: للشيخ مشهور حسن محمود سلمان.
142) السيوطي النحوي: لعدنان محمد سلمان.
143) علماء نجد خلال ثمانية قرون: لعبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، المتوفى (423 هجري).
144) حياة الشيخ عبدالرحمن السعدي في سطور: لأحمد القرعاوي.
145) روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين: للشيخ محمد بن عثمان القاضي، المتوفى (1342 هجري).
146) تراجم لتسعة علماء: للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد.
147) طبقات الشافعية الكبرى: لتاج الدين السبكي؛ عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو نصر، المتوفى (771 هجري).
148) التفسير والمفسرون : لمحمد حسين الذهبي، المتوفى (1397 هجري).

149) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي، المتوفى (1111 هجري).
150) ابن رشيد الفهري: ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة.
151) أسنى المقاصد وأعذب الموارد: علي بن أحمد بن عبدالواحد (البخاري)، المتوفى (690 هجري).
152) الإمام الشَّوكاني مفسِّرا – رسالة مجستير ودكتوراه – لمحمد حسن بن أحمد الغماري.
153) معجم حفاظ القرآن عبر التّاريخ: محمد سالم محيسن، المتوفى (1422 هجري).
154) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، المتوفى (395 هجري).
155) لسان العرب: ابن منظور الأنصاري، المتوفى (711 هجري).
156) مفردات ألفاظ القرآن: للرَّاغب الأصفهاني، وهو الحسين بن محمد بن الفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالرَّاغب، المتوفى (502 هجري).
157) الأصمعيات: لعبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعي أبو سعيد، المتوفى (216 هجري).
158) الفروق اللغوية: للحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد أبو هلال العسكري، المتوفى (395 هجري).
159) معجم اللغة العربية: لأحمد مختار عمر، المتوفى (1424 هجري).
160) معجم التعريفات: لعلي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، المتوفى (816 هجري).

161) التوقيف على مهمَّات التعاريف: لعبد الرؤوف المناوي، المتوفى (1031 هجري).
162) تاج العروس من جواهر القاموس: للمرتضى الزبيدي، هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق، ينتهي نسبه إلى أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، اشتهر بالسيد المرتضى الحسيني الزبيدي اليماني الواسطي العراقي الحنفي، ويكنى أبا الفيض وأبا الجود وأبا الوقت، المتوفى (1205 هجري).
163) تاج اللغة وصحاح العربية: لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، المتوفى (393 هجري).
164) تهذيب اللغة: لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، المتوفى (370 هجري).
165) مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، المتوفى (660 هجري).
166) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، المشهور بابن القيم الجوزية، المتوفى (751 هجري).
167) العقيدة الطَّحاوية وشروحها: لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزديّ الطحاوي، المتوفى (321 هجري).
168) الصواعق المنزلة: لابن القيم الجوزية.
169) مجلة البيان العدد (5).
170) إظهار الحق: لرحمة الله الكيرانوي، المتوفى (1301 هجري).
171) هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: لإسماعيل باشا البغدادي، المتوفى (1339 هجري).

172) الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية: لوليد عبد الله المنيس.
173) الدرر السنية في الأجوبة النجدية: لمجموعة من العلماء: المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، المتوفى (1392 هجري).
174) الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة لأبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس بن الطائع الكتاني، المتوفى (1392 هجري).
175) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى، المتوفى (1353 هجري).
176) درر الحكام شرح مجلة الأحكام: لعلي حيدر.
177) المبسوط: لشمس الدين السرخسي محمد بن أحمد بن أبي سهل السَّرَ خْسِيّ الخزرجي الأنصاري، المتوفى (460 هجري).
178) المحيط البرهاني في الفقه النعماني فقه الإمام أبي حنيفة: لأبي المعالي برهان الدين محمود بن أحمد بن عبد العزيز بن عمر بن مَازَة البخاري الحنفي، المتوفى (616 هجري)، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي.
179) تبين الحقائق شرح كنز الدقائق: لفخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي، المتوفى (743 هجري).
180) العناية شرح الهداية: للإمام أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي، المتوفى (786 هجري).
181) حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين: لأبي بكر ابن السيد محمد شطا الدمياطي، المتوفى (1310 هجري).
182) السير الكبير: لمحمد بن الحسين الشيباني، المتوفى

(198 هجري).
183) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: لعلاء الدين الكاساني، المتوفى (587 هجري).
184) تفسير أسماء الله الحسنى: لأبي إسحاق الزجَّاج، المتوفى (311 هجري).
185) العبودية: لشيخ الإسلام ابن تيمية.
186) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب: للدكتور صالح عبد الله العبود في عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.
187) التوصل إلى حقيقة التوسل المشروع والممنوع: محمد نسيب الرفاعي، المتوفى (1412 هجري).
188) بغية السائل من أوبد المسائل: لوليد المهدي.
189) الرسل والرِّسالات: للدكتور عمر سليمان الأشقر، المتوفى (1433 هجري).
190) مقدِّمة الرِّسالة: لابن أبي زيد القيرواني، المتوفى (386 هجري).
191) البداية في العقيدة: لوحيد بالي، وشرحها: لخالد الجهني.
192) الاعتصام: لإبراهيم بن موسى الشاطبي، المتوفى (790 هجري).
193) الإخلاص والشرك الأصغر: لعبد العزيز عبد اللطيف.
194) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم الأصفهاني، المتوفى (430 هجري).
195) التَّقوى الدرَّة المفقودة والغاية المنشودة: للدكتور أحمد فريد.
196) صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال للقاضي حسين بن محمد المهدي.

197) الرسالة التبوكية (زاد المهاجر إلى ربه): لابن القيم الجوزية.
198) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار: للسعدي.
199) التوقيف على مهمات التعاريف: عبد الرؤوف المناوي، المتوفى (1031 هجري).
200) الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: لأيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي، المتوفى (1094 هجري).
201) جامع الرسائل: تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المتوفى (728 هجري).
202) حاشية كتاب زينة النواظر وتحفة الخواطر من كلام الشيخ لابن عطاء الله السكندري (الصوفي)، المتوفى (709 هجري): جمعه رافع بن محمد بن محمد بن شافع.
203) الآداب الشرعية والمنح المرعية: للقاضي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج الراميني المقدسي الدمشقي الصالحي، المتوفى (763 هجري).
204) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه: لابن القيم الجوزية.
205) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد واياك نستعين: لابن القيم الجوزية.
206) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب النجدي.
207) رفع النقاب عن تنقيح الشهاب: حسين بن علي بن طلحة الرجراجي الشوشاوي أبو علي.

208) الإكراه وأثره في عقود المفاوضات المالية: للدكتور إبراهيم العروان.
209) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: لعلاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي، المتوفى (587 هجري).
210) رد المحتار على الدر المختار: ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي، المتوفى (1252 هجري).
211) التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي: لعبد القادر عودة: المتوفى (1373 هجري).
212) الإكراه وأثره في التصرفات: د. محمد المعيني.
213) الإكراه وأثره في التصرفات: د. عيسى شقره.
214) كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، وبهامشه أصول البزدوي: لعبد العزيز أحمد بن محمد البخاري علاء الدين، المتوفى (730 هجري).
215) منظومة نواقض الإسلام أبي فاطمة عصام الدين بن إبراهيم النقيلي.
216) الملل والنحل: لمحمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني، المتوفى (548 هجري).
217) فيض القدير شرح الجامع الصغير: لعبد الرؤوف المناوي.
218) موقف الإسلام من الانحرافات المتعلقة بتوحيد العبادة: لعبد الرازق محمد بشر.
219) الأخلاق الإسلامية وأسسها: لعبد الرحمن الميداني، المتوفى (1425 هجري).
220) اشتقاق أسماء الله: لعبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، المتوفى (340 هجري).

221) الفوائد: لابن القيِّم الجوزية.
222) النهاية في غريب الحديث والأثر المؤلف: لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، المتوفى (660 هجري).
223) سلسلة أعمال القلوب، كتاب الإخلاص: لمحمد صالح المنجد.
224) كتاب مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب: الناشر، مكتبة ابن تيمية.
225) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: للدكتور، صالح عبد الله العبود.
226) القول السديد في مقاصد التوحيد: لعبد الرحمن السعدي.
227) عقيدة المؤمن: لأبي بكر الجزائري، المتوفى (1439 هجري).
228) تقوية الإيمان: لمحمد إسماعيل بن عبد الغني بن عبد الرحمن العمري، المتوفى (1246 هجري).
229) رسالة التوحيد: لمحمد عبده.
230) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: للإمام الشوكاني.
231) المهذب في اختصار السنن الكبير (البيهقي): للذهبي.
232) مجموع فتاوى ابن عثيمين: لمحمد صالح ابن عثيمين المتوفى (1421 هجري).
233) الشرك في القديم والحديث الجزء الأول: لأبي بكر محمد زكريَّا.
234) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى: لخالد عبد اللطيف.

235) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، المتوفى (770 هجري).
236) تهذيب الأخلاق للجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري، المتوفى (255 هجري).
237) مفاتيح الغيب (تفسير الرازي): لفخر الدين الرَّازي.
238) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: لأبي الحسن علي بن سلطان محمد، القارئ الهروي المكي المعروف بـ الملّا علي القاري، المتوفى (1014 هجري).
239) موقع الألوكة.
240) موقع الدرر السنية.
241) موقع صيد الفوائد.
242) الموقع الرسمي للإمام ابن باز.
243) موقع طريق الإسلام.
244) موقع الموسوعة الإسلامية.
245) موقع الإمام الشوكاني.
246) موقع الإمام السعدي.
247) موقع الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين.
248) موقع المكتبة الشاملة.
249) موقع الاسلام سؤال وجواب.
250) موقع خالد بن عبد الله المصلح.
251) موقع قاموس ومعجم المعاني.
252) موقع موسوعة التَّفسير الموضوعي.
ما تركناه من مصادر فهو في وسط الكتاب.

الفهرسُ

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ.
اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ
إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ،
كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، فِي الْعَالَمِينَ
إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ
عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ